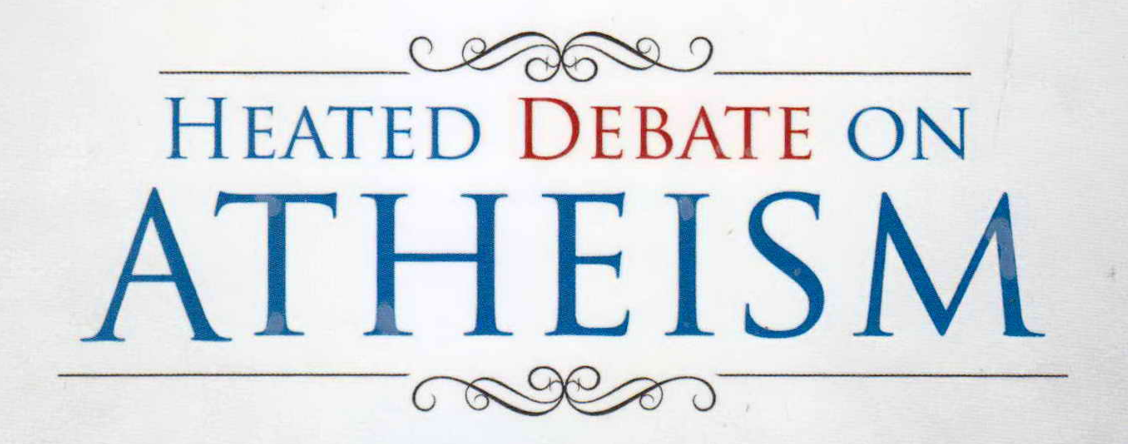
Hadi al-Modarresi

هادي المدرّسي

حوار ساخن عن

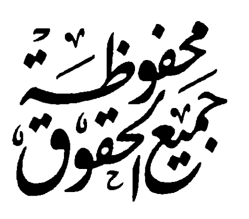




مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث


شبكة الفكر
alfeker.net


بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

هوية الكتاب:

الكتاب: حوار ساخن عن الإلحاد

المؤلف: السيد هادي المدرّسي

الطبعة: الأولى

تحقيق: مركز ذكرى للدرسات والأبحاث

الناشر: مركز الفكر الرسالي للدراسات والأبحاث

www.resali.net
alfekralresali@gmail.com
www.facebook.com/resalinet
resalinet@facebook.com

حوار ساخن عن

الإلحاد

هادي المدرّسي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

إلى الباحثين عن الحقيقة

أقدّم كتابي..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمّد وأهل بيته الطيبين الطاهرين

عندما فتح الإنسان عينيه وجد تحته أرضاً مدحيّة صالحة للزراعة والبناء فأخذ يزرعها كما يشاء، ويبنيها كما يريد..

ووجد فوقه سماء مبنيّة، فيها شمس تنير نهارها، وقمر يزيّن ليلها، ونجوم ترمش له في ظلمتها..

ورأى حوله كلّ ما يحتاج إليه لمعيشته وسعادته، فتساءل عمّن صنع كلّ ذلك؟ وعمّن يملكه؟ وعمّن يدبر أمره؟

وعندما نظر إلى نفسه، رأى فيها آثار الحكمة والقدرة والقوّة فتساءل عمّن خلقه وصنعه، وأعطاه الوعي والعلم

والعقل والإرادة؟

ولمّا رجع إلى وجدانه سمعه يقول له بوضوح: إنّ لك ربّاً ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[1].

فآمن بالله أكثرُ الناس، فكان الإيمان هو الأصل، وإن كان هنالك بعض الشذوذ الذين شكّوا في وجوده تعالى.

وكان الأكثريّة من البشر هم من المؤمنين بربّهم، وإن كان هنالك شذوذ ممن كفر به.

وهكذا انقسم الناس إلى قسمين:

منهم من آمن بربّه فزاده هدى.

ومنهم من كفر بالله فأضلّه وازداد ضلالاً.

وإذا كان إيمان المؤمنين قائماً على ما يجدونه من آيات الله تعالى في الكون وفي أنفسهم، فإنّ الملحدين لا يجدون دليلاً على كفرهم إلّا التشكيك.

إنّ هذا الكتاب هو نقاش جاد حول الإلحاد، ولقد استعرضت فيه حجج الملحدين وتشكيكاتهم.

أرجو أن يستفيد منه من يبحث عن الحقيقة..

والله من وراء القصد.

هادي المدرّسي

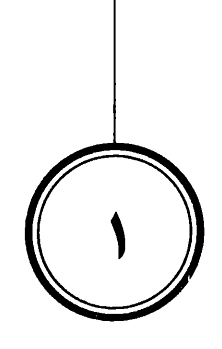
كربلاء المقدسة

رجب الأصب ١٤٣٨هـ

(١) سورة الانفطار: ٧-٨.

الفصل الأول

ومضات



توءمان في رحم أمّهما أُعطي لهما الوعي، فقال أحدهما للآخر: هل تؤمن بوجود أمٍّ لنا؟

قال توءمه: أشك في ذلك، فلماذا تسألني هذا السؤال؟

قال: إنّني أشعر أنّه لابدّ أن يكون هنالك شخص ما هو الذي يحملنا، ويغذّينا، ويعطينا الدم، والأوكسجين، وما نحتاج إليه لننمو كلّ يوم.

قال صاحبه: ما تقوله خرافة، ليس أكثر.

قال التوءم: ولم؟

قال صاحبه: هل ترى أمّك؟

قال: لا.

قال: وهل سمعت صوتها؟

قال: لا.

قال: وهل تشمّ رائحتها؟

قال: لا.

قال: إذن لا وجود لشيء اسمه أمّ.

فعاد التوءم للسؤال وقال: هل تعتقد أنّنا حينما نرحل من هذا المكان الذي

نحن فيه، سوف نذهب إلى عالم آخر؟ أي هل هنالك حياة بعد حياتنا هذه؟

قال صاحبه: أبداً.

قال التوءم: ولماذا؟

قال: هل سمعت أنّ أحداً خرج من مثل هذا المكان فعاش في مكان ما.

قال التوءم: لا.

قال: إذن، لا حياة بعد هذه الحياة.

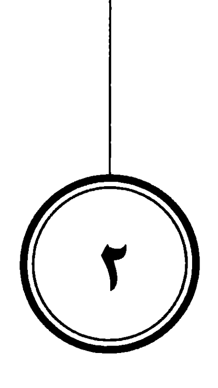
فقال التوءم: وهل يمكن لمن يرحل من هنا أن يعود؟

قال: ومتى سمعت أنّ من يخرج من البطن يعود إليه؟

إنّ الذي يرحل، يرحل ولا يعود، فلا أمّ لنا ولا حياة بعد خروجنا من هنا.

هذا الحوار بالطبع ليس حقيقيّاً، وإنّما هو افتراضي، إلّا أنّ ما يقوله الملحدون لا يختلف عما قاله التوءم لأخيه في أيّ شيء.

ألا يقولون: نحن لا نرى الله، إذن لا وجود له، وإن من يموت، يموت وينتهي، ولا حياة بعد هذه الحياة، ولا بعث ولا نشور، وهل رأيتم أحداً عاد بعد موته؟



جاءني أحد الشباب خجلاً وقال: لديَّ سؤال مهم لكنّني أستحي من طرحه عليك.

قلت: ولماذا تستحي؟

قال: لأنّك عالم دين.

قلت: قلْ ما تريد، فلا حياء في الدين، ولا حياء في العلم.

قال: هل يمكن أن أكون صريحاً معك؟

قلت: هذا هو المطلوب.

قال: كنتُ ملتزماً بالصلاة إلى ما قبل أربعة أشهر.

قلت: والآن؟

قال: تركت الصلاة.

قلت: ولماذا؟

قال: لمن أصلي؟

قلت: لنفسك، فالصلاة معراج كلّ تقي.

قال: أقصد من هو الذي أعبده في صلاتي؟

قلت: ربّك.

قال: وهل هو موجود؟

قلت: وهل تظنّ أنّ لا وجود له؟

قال: أشكّ في وجوده.

قلت: هل توصّلت إلى هذه النتيجة من خلال الحوار مع نفسك، أم لأنّك قرأت كتاباً في ذلك؟

قال: الاثنين معاً.

قلت: هل طالعت كتاب «وهم الإله» للمؤلف البريطاني دوكنز؟

قال: وهل تعرفه؟

قلت: لقد قرأت الكتاب أكثر من مرة، وبأكثر من لغة.

قال: وهل تأثرت به؟

قلت: جداً.

قال: كيف ؟

قلت: لقد زاد إيماني بالله، وثقتي بالدين، وماذا عنك؟

قال: وجدت من خلاله بديلاً عن الإيمان بالله.

قلت: وما هو؟

قال: العلم.

قلت: كيف يكون العلم بديلاً عن الإيمان بالله.

قال: إنّ البشر لم يكونوا يعرفون كيف يتكوّن الجنين في بطن أمّه، فقالوا: إن الله يخلقه. ولم يكونوا يعرفون كيف تنمو البذرة في التربة، فقالوا: إنّ الله يخلق الأشجار.

فأضفت له مثالاً آخر وقلت: ولم يكونوا يعرفون كيف تتكون الأمطار، ومن أين تأتي، فقالوا: إنّ الله يُنزل الغيث من السماء.

قال منتعشاً: نعم نعم.. ألا ترى أنّ العلم قد كشف لنا كلّ شي، ولا حاجة للإيمان..؟

و بدأ يكرر من قوله: العلم صنع كلّ شيء، العلم يصنع كلّ ما نريد، العلم.. العلم..

قلت: هل أنت صنعت حتّى الآن إبرة في حياتك؟

قال: لا.

قلت: وهل صنع أبوك سيّارة؟

قال: لا.

قلت: وأجدادك هل صنعوا قمراً صناعيّاً، أو هاتفاً نقّالاً، أو غوّاصة؟

قال: لا.

قلت: في نظرك أيّ شعب من شعوب الأرض قد صنع أكثر هذه الأشياء؟

قال: أمريكا.

قلت: أيّة دولة هي الأكثر تقدّماً في مجال الصناعات؟

قال: أمريكا.

قلت: وما هي أقوى الدول عسكريّاً؟

قال: أمريكا.

قلت: ترى ما هي أغنى دولة في العالم؟

قال: أمريكا.

قلت: إنّك لم تصنع إبرة، وأبوك لم يصنع سيّارة، وأجدادك لم يصنعوا أقماراً صناعيّةً، وحالتك الاقتصاديّة مزرية، وقد كفرت بالله تعالى، وهم الذين يُنتجون العلم، ويصنعون كلّ تلك الصناعات، وقد أرسلوا الإنسان إلى القمر، ويرسلون أقمارهم إلى الآفاق البعيدة في الفضاء، قد آمنوا بوجود الله، كيف تفسر ذلك؟

قال: هل حقاً إنّ الشعب الأمريكي يؤمن بالله؟

قلت: نعم، فبحسب الإحصاءات المؤكّدة فإنّ ٩٠٪ من الشعب الأمريكي يؤمن بالله، وإذا كنت تحمل معك ورقة من فئة مائة دولار من العملة الأمريكية لرأيت مكتوباً على ظهرها In God We Trust وترجمتها هي: توكّلنا على الله، أو بالله نثق.

قال: هل أنت متأكد؟!

قلت: لا يحتاج الأمر إلى التأكيد والتأكّد.. خذ ورقة المائة دولار، واقرأ هذه الجملة على ظهرها.

وأضفت: أنت تحتجّ بالعلم لتنفي الإيمان بالله، وأنت لم تنتج شيئًا من العلم، وهم الذين يُنتجون العلم الذي تفتخر به أنت، يؤمنون بالله!؟

قال: دعنا من الأمريكيين، ألا ترى أنّ العلم يفسّر لنا كلّ شيء، ولا حاجة معه إلى الإيمان؟

قلت:

أوّلاً: العلم يدعم الإيمان ولا يناقضه، بدليل المثال الذي ذكرته في البداية من أنّ الناس لم يكونوا يعرفون كيف يتكوّن الجنين، وكيف ينمو الشجر، وما ذكرته أنا من مثال الأمطار، هذه الأمثلة تؤكد وجود إرادة، وحكمة، وعلم وقدرة في خلق ذلك، فمن يا تُرى وضع نظام تكوّن الجنين عن طريق تلاقح (حويّن) الذكر مع (بويضة) الأنثى؟ ومن وضع نظام تكوّن الأمطار، من خلال تساقط أشعة الشمس على سطح البحار، وتبخير المياه، وصعود البخار إلى الفضاء، ودفع الرياح للسحب المتكوّنة إلى مناطق تعاني من الجفاف، ثمّ تحوّل البخار فوقها بسبب برودة الأجواء إلى قطرات المطر، ونزولها على تلك الأراضي؟

هذا النظام المعقّد من وضعه؟

ثانيًا: العلم يفسّر كيف يعمل هذا وذاك، وكيف يحدث هذا الشيء وذاك،

ولكن العلم لا يفسّر كيف وُجدت الأشياء، وكيف وُجد الكون، ولا كيف وجد الإنسان؟ وما هو الهدف من كل ذلك؟

من أين جاءت العناصر الأوليّة؟ ومَن أوجدها؟ وهل إذا عرفنا كيف يعمل شيء ما فإنّه لا حاجة لنا إلى الإيمان بمن صنعه؟

قال: لا نحتاج.

قلت: فمن أين جاء؟

قال: بالصدفة.

فوضعت يدي على قميصه، وقلت له: هذا القماش الذي تلبسه الآن أنا أعرف كيف صُنع، فهو مصنوع من خيوط متداخلة، وكانت جدّاتنا في قديم الزمان يصنعن الخيوط بواسطة المغزل، ويصنعن بها القماش، واليوم تصنعه معامل بسيطة، فهل معرفتنا بكيفيّة صنع الأقمشة يعني أن لا صانع لها؟

وكذلك الأمر في بقية المصنوعات، فهل معرفتنا بكيفيّة عملها، وكيفية تركيبها يعني أن لا مصنع لها ولا مهندسين لها؟

قال: التطوّر هو الذي حوّل الأشياء إلى ما هي عليه.

قلت: طوّرها قبل وجودها، أم بعد وجودها؟

قال: بعد وجودها.

قلت: فمن أوجدها؟

قال: بدأت الحياة من الماء، ثمّ وُجدت فيه حشرة وحيدة الخلية، ثمّ تطوّرت فتكاثرت خلاياها، ثمّ زحفت إلى اليابسة، فأصبحت (برمائيّة) في البداية، ثمّ تطورت إلى حشرة بريّة، وهكذا إلى أن تطورت إلى القردة، ثمّ إلى البشر.

فقاطعته وقلت له: مهلاً.. قبل أن تقرأ لي كلّ كتاب أصل الأنواع (On the Origin of Species) لتشارلز داروين (Charles Darwin) المعروف، أجبني عن السؤال: من أين جاء الماء الذي تحوّل إلى حشرة وحيدة الخلية؟ ومَن

خلقه؟

قال: كان الماء.

قلت: إنّ هذا الكون بكلّ ما فيه، لم يكن موجودًا قبل ثلاثة عشر مليار عام، ثمّ وُجد فجأة في حادثة الانفجار الكبير (Big Bang)، فمن أوجده من العدم؟

قال: ومن قال لك إنَّ الكون لم يكن له وجود قبل ثلاثة عشر مليار عام؟

قلت: هذا ليس كلامي، وإنّما هو كلام العلم، وهذا ما يؤكّده كلّ علماء الفيزياء، فكيف تُنكر العلم، وأنت تريده بديلاً عن الإيمان؟

قال: ليكن الأمر كما تقول، وأنّ العالم لم يكن قبل هذا التاريخ، لكن العلم يبيّن لنا كيف تطوّر.

قلت: سؤالي هو: إنّ هذا الذي تقول إنّه تطوّر من أين جاء حتّى تطوّر؟

إنّ العلم الذي تتحدث عنه عاجزٌ عن معرفة من أين جاء الكون، وكيف وُجد؟

قال: علم التطوّر يغنينا عن تفسير الإيمان.

قلت: التطوّر ليس علمًا، بل هو مجرّد نظرية، فلا أحد من الذين يؤمنون به يسمّونه علمًا، وإنّما يسمّونه (Evolution Theory)، فالذي تسمّيه علمًا هو مجرد نظرية، وهو لا يتناول أصل الوجود بأيّ شكل من الأشكال، وصاحبه كان يؤمن بوجود الله.

سكت قليلاً ثمّ قال: ماذا تقول أنت في أصل وجود الكون؟

قلت: إنّ الأمر فيما يرتبط بالكون لا يعدو الاحتمالات الثلاثة التالية:

- **الأوّل**: أن يكون الكون قد وُجد بالصدفة، وبشكل عشوائي.
- **الثاني**: أن يكون الكون هو الذي خلق نفسه، وبتصميم مسبق من نفسه.
- **الثالث**: أن يكون هناك صانع قدير، حكيم، عليم هو الذي أوجده.

أمّا احتمال الصدفة فحتّى أشدّ المتطرّفين من الملحدين لا يُقولون به، بما فيهم دوكنز.

وأمّا احتمال أن يكون الكون هو الذي خلق نفسه، فهذا أكثر سخفًا من احتمال الصدفة، إذ كيف يكون الذي لا وجود له، أوجد نفسه؟

ويبقى الاحتمال الوحيد هو أن يكون للكون خالق يملك قدرة هائلة، أراد أن يكون الكون فكان.

قال: وماذا عن التطوّر.. هل تؤمن بأنّ الإنسان تطوّر من القرد، والقرد تطور مما قبله، وهكذا؟

قلت: الحديث عن نظرية التطوّر حديث طويل وقد كتبتُ في ذلك كتابًا بعنوان: «تهافت النظرية الداروينيّة»، ولكن حتّى لو قلنا بصحة هذه النظرية فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه هو: من وضع قانون التطوّر، وفرضه على الحياة؟

قال: الطبيعة هي التي فعلت ذلك.

قلت: وماذا تعني بالطبيعة؟

قال: مجموع العناصر التي يتشكّل منها الكون.

قلت: تعني التراب والماء والهواء مثلاً؟

قال: نعم

قلت: هل تصدّق فعلاً بأنّ هذه العناصر هي التي صنعت الإنسان، بكلّ ما فيه من عظمة في روحه، وتعقيد في جسمه، وبكلّ ما لديه من الوعي، والعقل، والإرادة، والعواطف؟

قال: وما المانع؟

قلت: فأنت ترى أنّ الطبيعة التي لا عقل لها، ولا وعي عندها، ولا عواطف فيها هي التي أوجدت العقل والإرادة والوعي، ووضعتها في النفس الإنسانيّة؟

وهل فاقد الشيء يعطيه؟

ولماذا لم تعط الطبيعة الوعي والعقل والإرادة والعواطف لنفسها أوّلاً؟ لماذا بقيت هي جاهلة، وعاجزة، وبلهاء، وعجماء، ندوس عليها، ونتحكم بها نحن البشر المخلوقون من قبلها؟

وهل عقلك يقبل بهذا؟

قال: ربّما.

قلت: أنت في البداية تشدّقت بالعلم، وجعلته بديلاً عن الإيمان، ثمّ أنكرت العلم عندما رفضت الإيمان بما يقوله العلم في أنّ الكون لم يكن موجودًا قبل ثلاثة عشر مليار عام ونصف، ثمّ الآن ترفض ما يقوله العقل، وتقول أنّ الطبيعة خلقت نفسها، وأعطت الوعي، والإرادة، والعواطف للإنسان، بينما هي محرومة من ذلك؟

إنّ الملحدين من أمثالك يُنصّبون أنفسهم كناطقين باسم العلم، وهم لم ينتجوا علماً، وإذا تناقض ما يقولونه مع العلم رفضوا العلم، وتمسّكوا بما يقولون، وكذلك يفعلون مع العقل فيرفضون أحكامه إذا تناقضت مع آرائهم.

قال: وأين رفضت أنا أحكام العقل؟

قلت: إنّ العقل يقول: لا مصنوع بلا صانع، ولا مخلوق بلا خالق، ولا نظام بلا منظّم، ولا أثر بلا مؤثّر.. ولكنك تقول: إنّ الكون المخلوق لا خالق له، والكون المصنوع لا صانع له، وكلّ هذه الموجودات والكائنات التي هي آثار غيرها لا وجود لمؤثّر لها.

قال: وما الذي أخسره إذا أنكرت وجود الخالق، ولم أؤمن به؟

قلت: تخسر كلّ شيء.

قال: مثلاً؟

قلت: تخسر الحقيقة أوّلاً.. فالله موجود، سواء آمنت به أو كفرت. وأنت تتنكر له.

ثمّ تخسر نفسك، وتخسر مصيرك.

قال: كيف أخسر مصيري؟

قلت: إنّ الذي خلقك لم يخلقك عبثًا، فكلّ ما في الكون يدلّ على أنّ الذي صنعه حكيم، والحكيم لا يعمل شيئًا بلا غاية ولا هدف، فأنت مخلوق لغاية محدّدة، فإن لم تحقق الغاية التي لها خُلقت، تكون قد خسرت حياتك كلّها.

قال: كيف أكون قد خسرت حياتي وأنا أتمتع بها، وآكل وأشرب وأنام مثلاً؟

قلت: وبعد ذلك، ألستَ تموت؟

قال: بلى.

قلت: إنّ هنالك حياة بعد هذه الحياة، وما تفعله هنا له كلّ التأثير على حياتك هناك، فعالمنا هذا هو مجرّد ممرٍّ إلى ذلك العالم.

قال: أنتم تقولون هنالك عالم آخر نذهب إليه.

قلت: هذا ما يقوله العلم أيضاً. وأطلب منك أن تقرأ كتاب: الحياة بعد الحياة (Life after Life) لمؤلفته (Kate Atkinson).

قال: أنا لا أؤمن بأنّ هنالك حياة بعد هذه الحياة.

قلت: من جديد أنت ترفض ما يقوله العلم؛ ولكن أتظنّ أنّك إذا رفضت الإيمان بوجود الحياة الأخرى بعد هذه الحياة فإنّها تختفي؟

إنّ الآخرة إذا كانت حقيقة قائمة، فإنّ كفرك بها لا يلغيها، وإذا اكتشفت بعد موتك أنّ الله كان موجودًا، والآخرة حقيقة، والثواب والعقاب، والجنّة والنار كلّها موجودة فما الذي تفعل؟

قال: أقول إنّني لم أقتنع في حياتي بوجود هذه الحياة.

قلت: هل إنّك لم تقتنع بذلك، أو أنك ما أردت أن تقتنع، رغم وجود ملايين الأدلّة؟

ألم يكن وجود الله والحياة الآخرة احتمالاً من الاحتمالات. فلماذا لم تأخذ هذا

الاحتمال بعين الاعتبار؟

قال: وهل كل احتمال يجب عليَّ أن آخذه بعين الاعتبار؟

قلت: احتمال خطير كهذا يرتبط مصيرك به، لابدّ من أخذه بعين الاعتبار مائة في مائة.

ألستَ تفعل ذلك إذا أخبرك طفل أنّ هنالك حريقاً في الطريق؟

ألستَ تهتمّ بكلام شرطي إذا حذّرك من وجود حفرة خطيرة في الطريق؟

وهل إنّ تحذير مائة وأربعة وعشرين ألف نبيّ بوجود حريق جهنّم، يحمل لديك قيمة أقلّ من تحذير طفل أو شرطي؟

فلماذا لم تأخذ كلام ملايين المؤمنين مأخذ الجد، إضافة إلى ما كان يوحي إليك ضميرك، فلماذا خالفت كلّ ذلك، وأنكرت وجود الله، والحياة الأخرى؟

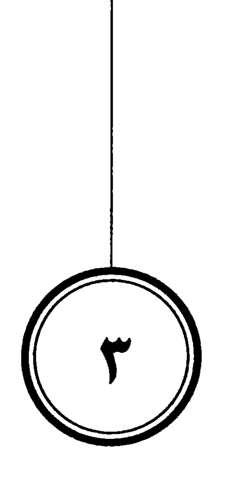
قال: هل حقّاً أنّ ضميري يقول: إنّ لي ربّاً؟

قلت: عندما جئتني في البداية لماذا كنت خجلاً، وكنت تستحي من أن تصرّحَ بإلحادك؟

هل كنت تستحي منّي، أم من ضميرك؟

سكت طويلاً، ثمّ قال: أريد أن أعترف لك بالحقيقة، فأنا في هذا الحوار كنت أكابر عقلي ووجداني..

ثمّ ودعني، وعيناه مغرورقتان بالدموع.



قال: أين هو الله؟

قلت: هنا.

قال: أتقصد بالفعل أنه موجود هنا، حيث نحن الآن؟

قلت: طبعًا.

قال: أليس هو في السماوات؟

قلت: هو في السماوات، وفي الأرض، وفيما بينهما، وفي كلّ مكان.

قال: لكنّني لا أره؟

قلت: ولن تراه، ولا أحد يراه.

قال: لماذا؟

قلت: لأنّه لا يمكن أن تراه عين، ولا أن تسمعه أذن، ولا أن تلمسه يد.

قال: وكيف أؤمن بوجوده، وأنا لا أراه، ولا أسمعه؟

قلت: ولا تحسّه، ولا تجسّه أيضاً.

قال: ومع ذلك عليّ أن أؤمن به؟

قلت: وهل لابدّ أن ترى الشيء، أو تسمعه، أو تحسّه، حتّى تؤمن بوجوده؟

قال: نعم.

قلت: إنّك تؤمن بأشياء كثيرة ولا تراها، ولا تلمسها ولا تسمعها.

قال: مثلاً؟

قلت: ألستَ تؤمن بوجود عقلك، وعواطفك، وحبّك، وبغضك، وعلمك، وروحك، وأنت لا ترى كلّ ذلك؟

قال: لكنّني على الأقل أشعر بوجودها.

قلت: من خلال أيّ شيء تشعر بوجودها؟

قال: من خلال آثارها.

قلت: ألا يكفي كلّ هذا الكون بما فيه من عظائم الأمور وأنت ممن فيه دليلاً على وجود خالقه؟

ألا تتعامل في كلّ لحظة مع ما خلق الله، وتراه، وتحسّ به؟

قال: هذا صحيح، ولكن ألم يكن باستطاعة الله أن يرينا نفسه، حتّى لا نشكّ في وجوده؟

قلت: الله قادر على كلّ شيء، ولكن الذي تقول لا يكون !

قال: كيف؟

قلت: لأنّ الله تعالى مطلق في وجوده وفي صفاته، أمّا نحن فمحددون في وجودنا وصفاتنا، ولا يمكن أن يحيط المحدود بالمطلق.

قال: لم أفهم.

قلت: هل لك عينان؟

قال: نعم.

قلت: مالذي تفعل بهما؟

قال: أرى بها الأشياء.

قلت: هل تستطيع أن ترى بها في الظلام؟

قال: لا.

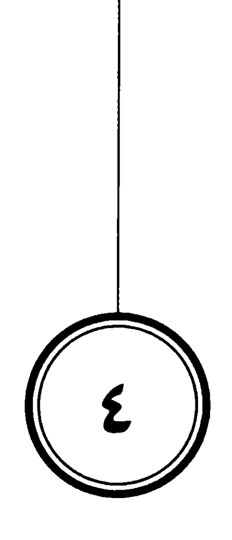
قلت: هل تستطيع أن ترى بها الكواكب البعيدة.

قال: لا.

قلت: لماذا؟

قال: لأنّ قدرة بصري محدودة.

قلت: إذا كانت عيناك عاجزتان عن رؤية ما حولك في الظلام، ولا أن ترى بهما الكواكب البعيدة، فكيف تريد أن ترى بهما ربّك وهو مطلق؟ يا هذا، إنّ ما يمكن أن تراه ليس ربًّا، لأنّه يكون محدودًا وعاجزًا، ومثله لا يمكن أن يخلق هذا الكون بلحظة إرادة كما فعل ربّنا.



قال: كيف تثبت أنّ لي ربًّا؟

وما هو الدليل على وجوده؟

قلت: أنت دليل وجود ربّك، فمن جاء بك إلى الحياة، ولم تكن من قبل شيئًا؟

قال: الصدفة.

قلت: وماذا عن الكون؟ هل الكون كلّه جاء بالصدفة؟

قال: نعم.

قلت: إذن اترك الأمور كلّها للصدفة.

قال: ماذا تقصد؟

قلت: لماذا لا تقوم أنت بعمل من أعمالك اليوميّة إلّا بعد تفكير، وتخطيط، وبعد تحديد هدفك، وتهيئة الوسائل. لماذا لا تترك كلّ شيء للصدفة؟

قال: لأنّ ذلك يؤدّي إلى الفوضى.

قلت: تقصد أنّ الأمور لن تضبط معك، إذا تركتها للصدفة؟

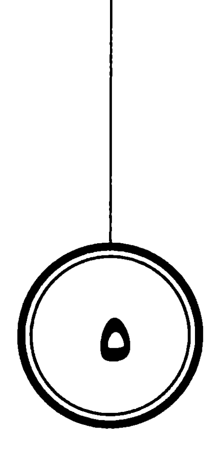
قال: نعم.

قلت: يعني أنّها لا تأتي صحيحة؟

قال: هو كذلك.

قلت: كيف جاءت الصدفه صحيحة، ومتقنة في خلق الكون، ولا تأتي صحيحة مع أمورك البسيطة؟

يا هذا شغّل عقلك قبل أن تحكم، وفكّر قبل أن تتكلّم.



يوجد في هذا الكون العظيم - بحسب آخر التحقيقات- أكثر من ألفي مليار مجرّة، وفي كلّ مجرّة مائتا مليار نجم، وحول كلّ نجم منظومة شمسيّة متكاملة.

إنّ هذا الكون لم يكن موجوداً قبل ثلاثة عشر مليار عام، أي لم يكن هناك شيء إلّا العدم المطلق، ثمّ في لحظة واحدة تكوّن هذا الكون.

والسؤال هنا: من خلقه؟ ومن حوّل العدم إلى وجود؟

إنّ الاحتمالات هنا ثلاثة لا رابع لها:

- **الأوّل**: إنّ إلهاً قديراً هو الذي خلقه.
- **الثاني**: إنّه وُجد بالصدفة.
- **الثالث**: إنّه هو الذي خلق نفسه.

والاحتمالان الأخيران غير معقولين، إذ كيف تستطيع الصدفة أن تخلق من العدم وجوداً؟!

وكيف يمكن لما ليس له وجود أن يخلق نفسه؟!

إنّ العقل السليم يقول: إنّ لكلّ فعل فاعل، ولكلّ مصنوع صانع، ولكلّ بناء بنّاء، ولكلّ مكتوب كاتب.

ومهما كان الشيء صغيراً، فما دام له وجود فلابدّ أن يكون هنالك من أوجده،

ألا ترى لو أنّك كنت تمشي إلى جانب طفل صغير، فنقرت بإصبعك الصغرى نقرة على أذنه كيف أنّه سيبحث عمن فعل به ذلك؟

ولو أنّه سألك من نقر أذني؟

فقلت له: إنّ ذلك حدث بالصدفة.

هل كان هذا الطفل سيصدّقك؟

وإذا كان فعل بسيط كلمسة خفيفة على الأذن يدّل على وجود فاعل له، فكيف بهذا الكون العظيم، وما فيه من سماوات وأرضين، وما فيهن وما بينهن، هل يمكن تفسير وجوده بالصدفة؟

حقّاً، لو يقول قائل بأنّ الكون خيال في خيال، أقرب إلى التصديق من أن يقول: أنّ هذا الكون موجود، ومصنوع، ومخلوق، ومبني، ولكن ليس له خالق، ولا صانع، ولا بنّاء.

ثمّ إنّنا نعرف سلفاً أنّ الطبيعة لا وعي لها، ولا إرادة، ولا عقل، فكيف أعطت الطبيعة الوعي والإرادة والعقل للإنسان؟

وكيف تدير الكون بهذه الدقّة العظيمة بلا وعي، ولا إرادة، ولا عقل؟

هل يمكن أن ينكر أحد دقّة الخلق وعظمة الحياة، ومعجزة الحياة؟

ألا يدلّ ذلك على أنّ من صنعه كان أعلم منه، وأكثر حكمة، وأكثر دقّة وقوّة؟

كيف يقول أحد إنّ الطبيعة هي التي تدير الحياة، وهي عاجزة عن إدارة نفسها؟

ولو أنّنا قلنا بأنّ الكون خلق نفسه فهذا يعني أنّه كان موجوداً قبل أن يكون موجوداً، وإلّا فكيف تحوّل العدم إلى وجود؟ ومن الذي حوّله؟

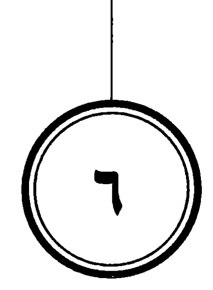
هذا إضافة إلى أنّ معنى العدم واضح، والسؤال هو: لماذا لم يستمر العدم عدماً؟ ما هو العامل الذي جعله يتحوّل إلى وجود؟

إنّك لو ذهبت إلى صحراء اليوم، ولم يكن هنالك أيّ بناء، ثمّ ذهبت بعد فترة

من الزمن فوجدت فيها بناءً بسيطاً مثل غرفة صغيرة، فإنّك حتماً ستبحث عمّن بناه.

ذلك أنّه لا يكون بناء بلا بانٍ، ولا مصنوع بلا صانع.

ولو أنّنا وجدنا اليوم ملعقة صغيرة في الفضاء الفاصل بيننا وبين القمر، لسألنا عمن صنعها، وعمن وضعها هناك، لأنّها لم تكن موجودة، فمن أين جاءت؟ فكيف يمكن الادّعاء بأنّ الكون لم يكن قبل ١٣ مليار عام ثمّ وُجد من دون صانع، ولا أي عامل؟



في الإيمان بالله ضمانة للمستقبل، وهذا ما يبشّر به المؤمنون.

أمّا في الإلحاد فلا يدّعي أحد من الملحدين أنّه يضمن أيّ شيء لأيّ شخص.

ذلك أنّ الملحدين يرون أنّه لا حياة بعد هذه الحياة، وأنّ الإنسان هو فقط هذا الجسم، فإذا مات انتهى كلّ شيء بالنسبة إليه.

أمّا المؤمنون فإنّهم يقولون: إنّ وراء هذا العالم، حياة أخرى في عالم الآخرة، ويضمنون -بناءً على وعود أنبياء الله عليهم السلام- لمن آمن وعمل صالحاً حياة ملؤها النعيم المقيم والسعادة والحبور.

والسؤال هنا هو: ماذا لو اكتشف الملحدون بعد موتهم أنّ الله كان موجوداً، وأنّ الحياة في الدنيا كانت مجرّد قاعة امتحان واختبار، وأنّ هنالك حساباً وكتاباً، وثواباً وعقاباً، وجنة وناراً؟

هل باستطاعة أحد حينئذٍ أن يعود إلى الدنيا ليعمل الصالحات، ويؤمن بربّه، ويتّبع أنبيائه؟

ترى من هو الخاسر آنذاك، الذين آمنوا، أم الذين ألحدوا؟

قد يقول قائل: إنّ المؤمنين -وإن كانوا يربحون الآخرة- لو كان ما يقولونه صحيحاً، إلّا أنّهم يخسرون الكثير بسبب إيمانهم، فهم يمتنعون عن الكثير من الملذّات المحرّمة عليهم، مثل اغتصاب النساء، والاعتداء على أموال الآخرين،

واستخدام المخدرات، إضافة إلى أنّ عليهم التزامات دينيّة كثيرة، شخصيّة واجتماعيّة، فحريّاتهم مقيّدة، أمّا الملحدون فيفعلون هنا ما يشاؤون، ويتمتّعون بما تشتهيه أنفسهم.

والجواب: لاشكّ أنّ في الدين بعض المحرّمات، ولكن كلّ تلك المحرّمات هي لمصلحة الناس في هذه الحياة، قبل أن تكون لمصلحتهم في عالم الآخرة، لأنّها ضروريّة لتنظيم حياتهم.

ومن يقول لك: لا تؤمن بالله، لأنّ الإيمان يلزمك بواجبات معيّنة، ويمنعك من أمور محرّمة هو كمن يقول: لا تؤمن بالقوانين لأنّك إذا آمنت بها، فإنّ عليك أن لا تصادر أموال الناس، وأن لا تعتدي على حقوقهم، وإلّا فإنّهم يعاقبونك.

إنّ الدين يحرّم أشياء، وهي أساساً ضارة للإنسان، كما يأمر بأشياء وهي أساساً نافعة له، فما هي المشكلة حينئذٍ؟

هل من مصلحتنا أن نعيش كالحيوانات، لا قوانين تحدّنا، ولا التزامات تقيّدنا؟

وكمثال على ذلك نرى أنّ الدين يحرّم العلاقات الجنسيّة خارج الإطار الزوجي، فهل في الزنا من مصلحة للبشرية؟

أليست هنالك أمراض مستعصية، وبعضها قاتلة، تنتشر بسبب إقامة العلاقات الجنسية المفتوحة؟

أليس مرض الإيدز والذي يفتك بالملايين إنّما قد انتشر بسبب الانحلال الخلقي؟

ولذلك فإنّه حتّى في البلاد التي يسمحون فيها بوجود مراكز للفسق والفجور فإنّهم ينصحون الناس بالابتعاد عنها تماماً، كما أنّ هناك دول تسمح بشرب الخمور، لكنّها تحذّر رعاياها من عواقب السكر والعربدة.

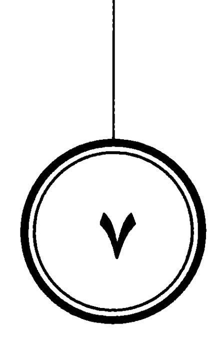
ثمّ إنّ المؤمنين وإن كانوا يلتزمون بالالتزام بترك ما هو حرام عليهم إلّا أنّهم

-خارج إطار المحرمات والموبقات- يتمتّعون بكلّ ما يتمتّع به سائر الناس، وهكذا فإنّهم يشاركون أهل الدنيا في دنياهم، ولا يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم.

أمّا الملحدون: فإنّهم لايقدّمون ضمانات لا لدنيا الناس ولا لآخرتهم، فهم ليسوا أعضاء في جمعيات خيريّة حتّى يوزعوا لمن يكفر بربّه مالاً، ولا هم يبشّرون أحداً بالجنّة بعد الدنيا.

حقّاً يخسر من يكون مع الملحدين في الدنيا وفي الآخرة و﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[1].

(1) سورة الزمر: ١٥.



يقول الملحدون: إنّنا لانؤمن بما لا نراه، ولكنّنا مستعدّون للإيمان بالله بمجرد أن يظهر لنا فنراه رأي العين، أمّا من دون رؤيته فلا معنى للمطالبة بالإيمان بما لا نستطيع رؤيته.

وينسى هؤلاء بأنّ هنالك أموراً كثيرة يؤمن بها كلّ الناس -بما فيهم الملحدون أنفسهم- وهي غير قابلة للرؤية، ويتعاملون معها كحقائق لا تقبل الشك، ومن ذلك مثلاً:

١- **الطاقة الكهربائيّة**: حيث يؤمن الجميع بوجودها من خلال آثارها، من دون أن يستطيع أحد رؤيتها.

ترى لو أنّ رجلاً دخل في بيت من البيوت ورأى أنّ المصابيح مضاءة، والمراوح تدور، والثلاجة تعمل فهل يسأل عن وجود الطاقة الكهربائيّة؟

ولو أنّه طرح ذلك فما هو جواب الحاضرين؟

ألا يقولون له: كيف تسأل عن وجود الطاقة الكهربائيّة وأنت ترى المصابيح المضاءة، والمراوح الدائرة، وكلّ الوسائل الكهربائيّة وهي تعمل بواسطتها؟!

ولو أنّه قال: أنا لا أؤمن بما لا أراه، وما دمت لا أرى الطاقة هذه فلن أؤمن بها.

وأصرَّ على عدم وجودها، ألا يشكّ الحاضرون في عقله؟

وإذا سأل: أين الكهرباء؟ وقيل له: إنّها في الأسلاك، فذهب إليها، وحاول أن يعرّيها ليراها، ألا يموت من دون أن يرى شيئاً؟

٢- **الإلكترونات**: وهي موجودة في جميع الأجهزة التي تسمى بالإلكترونيّات، ابتداءً من جهاز الهاتف، وانتهاءً بالأقمار الصناعيّة، ومروراً بالكمبيوتر، فهل أحد منّا يستطيع أن يرى الإلكترونات؟ وهل ينكر أحد وجودها لأنّه لا يراها؟

٣- **العقل والعواطف**: هل يستطيع أحد أن يرى عقل أحد، أو يرى شيئاً من عواطفه كالحب والبغض، وغير ذلك.

ترى، مالذي يميّز العاقل عن المجنون؟

أليست آثار العقل والجنون هي التي تدل على وجود أحدهما في الشخص؟

وهل يحق لأحد أن ينكر وجود العقل لأنه لا يراه؟

٤- **الجاذبيّة**: فهل يمكن لأحد إنكار وجودها لأنّه لا يراها؟

٥- **المغناطيس**: هل تراه عيوننا، ولو أنكر أحد وجوده لأنّه لا يراه فهل نعطي له الحق؟

٦- **الموجات فوق الصوتيّة**: هل نراها، وهل ننكر وجودها لأنّنا لا نستطيع رؤيتها؟

٧- **الروح**: وما يعبّر عنه أحدنا بقوله: «أنا» فهل يمكنك أن ترى روح أحد من الناس؟ أو روحك أنت؟

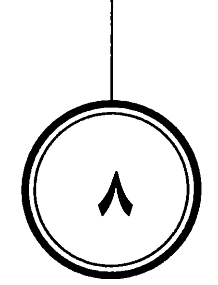
قد يقول قائل: أنا أرى جسمي، ويدي ورجلي، فأنا أؤمن بوجودي لأنّي أرى أعضائي، ولكن هذا الذي تراه هو ما تملكه من أعضاء، أمّا روحك التي تتحكم فيها فهي غيرها، إنّ الجسم هو مثل «مركبة» أمّا الروح فهي مثل سائقها، فأنت ترى المركبة، أمّا السائق فلا تراه، ومع ذلك تؤمن بوجوده.

٨- **الحياة**: فلا يمكن لأحد أن يرى الحياة، ولذلك يطلق العلماء على الحياة تعبير «اللغز».

ما هو الفرق بين نبتة حيّة وأخرى ميتة بالرغم من أنّهما متشابهتان؟ أليست الحياة هي التي تميزهما، لكن هل نرى هذه الحياة؟

هذه بعض الحقائق التي يؤمن بها الجميع إيماناً قطعياً لا تشوبه شائبة شك، مع أنّهم لايرونها، وإنّما يستدلّون بوجودها من آثارها.

ترى، إذا كان ضوء المصباح يدل على وجود الطاقة الكهربائيّة، وآثار الإلكترونات تدل على وجودها، وطريقة تصرّف الإنسان تدل على وجود عقله، وانجذاب الأشياء إلى الأرض يدل على وجود الجاذبيّة، وتحكّم المرء في أعضائه يدل على وجود روحه، وآثار الحياة تدلّ على وجودها، أفلا تكون الشمس، والنجوم، والمجرّات، والبحار، والجبال، والغابات والحيوانات والبشر، أدلّة على وجود من صنعها، وخلقها، فأودع فيها ملايين الأجهزة ضمن ملايين من المعادلات والقوانين؟



يقدّم المؤمنون المئات من الأدلّة العلميّة على وجود الله تعالى، وكلامهم للملحدين هو: أعطونا أدلّة علميّة على سبب حدوث الوجود نفسه، والكلّ يعرف أنّ هذا الكون الذي نراه، ونلمسه، ونحس به، لم يكن قبل ثلاثة عشر مليار عام فهو مسبوق بالعدم، فأعطونا دليلاً علميّاً واحداً على سبب وجوده؟ وكيفيّة حدوثه؟

أعطونا أدلة علميّة على سبب وجود النظام الحاكم على كلّ صغيرة وكبيرة من أجزاء الكون؟

أعطونا أدلة علميّة على سبب وجود الوعي، والعقل والإرادة في الإنسان؟

نحن نعرف أنّ هذا الوجود لم يكن، ثمّ كان، فمن الذي أوجده؟

أنتم تقولون إنّه بدأ مادياً بحتاً، وإنّه تطور من جزء صغير، فكيف تطوّرت المادة إلى عقل ووعي، وأخذ يدرك ويفهم، وصارت له إرادة، وعواطف؟

أعطونا أدلة علميّة على سبب وجود التنوّع في الخلق.

إنّ نظرية التطوّر التي تتوسّلون بها في تفسير وجود الأشياء قد يقبل بها البعض في تفسير تطوّر الحجر من الحجر، ولكن هل يمكن أن يتطوّر الحجر الـميّت إلى طيور حيّة تحلّق في السماء؟

هل يمكن أن نترك مجموعة من الأخشاب، ثمّ نأتي إليها بعد عشرات السنين

لنجدها تحوّلت إلى حديد، وبلاستيك، وزجاج وأصبحت طيّارة مثلاً؟

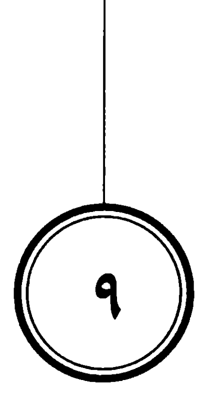
هل يمكن لطاولة مصنوعة من الألمنيوم أن تتحول إلى أشجار ذات فواكه متنوعة؟

أعطونا أدلّة علميّة على سبب وجود الغرائز كالرغبة والشهوة، والحبّ والبغض لدى البشر؟

أعطونا أدلّة علميّة على سبب وجود الخيال لدى الإنسان؟

أعطونا أدلّة علميّة على سبب وجود الحواس الخمسة عند البشر، وعدم وجودها في الجمادات؟

أعطونا أدلّة علميّة على سبب وجود الذكر والأنثى في الكائنات؟



من الغريب:

أن ينكر المرء وجود ربّه بالوعي الذي أعطاه الله. وأن يرتكب معصيته بأعضائه التي خلقها الله، وأن ينطق بكلمات الكفر بلسانه الذي منحه الله.

من الغريب حقًا:

أن ترى البعض يزداد بُعدًا عن ربّه كلّما ازدادت نعم ربّه عليه!

من الغريب:

أن ترى العبد كلّما أعطاه الله أكثر كلّما ابتعد عنه أكثر، وكلّما أظهر له آياته كلّما ازداد شكّاً في وجوده، وكلّما زادت نعم ربّه عليه كلّما قلّ شكره له!

من الغريب:

أن يغمض الإنسان عينه ويقول: إنّ الله غير موجود، بينما كلّ عضو من أعضاء جسمه آية كبرى من آيات ربّه، لا يستطيع أحد أن يصنع مثله، ولا أن يبدّل مكانه، ولا أن يزيد في قدراته، ولا أن يحسّن من أدائه إذا ضعف بسبب الشيخوخة.

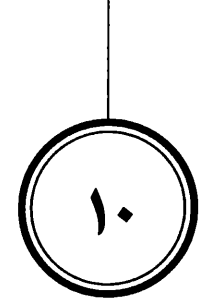
هذه العين -مثلاً- التي نستخدمها في حالات اليقظة على الدوام، فيها من آثار العلم والحكمة والقدرة ما تعجز البشرية كلّها أن تصنع مثلها، وإن كان بعضهم لبعض ظهيرًا، ولا أن تقوّيها إذا ضعفت، ولا أن تعيد إليها النور إذا انطفأت.

سبحان الله...!

من الغريب:

أن يقول البعض: إنّني لم أتوصل إلى الحقيقة، بينما لا يطول الزمن بالباحث عن الحقيقة حتّى يجدها أمامه!

إنّ للحقيقة نورًا وجاذبيّة.



لو كنت تسيح في الأرض مسافراً من مكان إلى آخر ومررت بغابة فيها أنواعٌ من الحيوانات كالقردة والحشرات والطيور، وكان في الغابة نهر جاري فيه أنواعٌ مختلفةٌ من الأسماك، ثمّ وجدت على الأرض جهاز هاتف نقال، ولم تر أحداً صنعه، ولا رأيت الذي وضعه هناك، فإلى من تنسب صناعة هذا الهاتف؟

هل تقول: إنّ القردة والحيوانات والأسماك هي التي صنعته؟

أم تقول: إنّ التراب والماء والهواء والشمس والقمر والنجوم هي الصانعة له؟

أو تقول: لا هذا ولا ذاك، إنّما الصدفة هي وراء وجود هذا الجهاز؟

أو إنّه هو الذي صنع نفسه؟

لاشكّ أنّك سوف تبحث عن كائن أذكى من الحيوانات، والطبيعة لتنسب صناعة هذا الجهاز إليه حتّى وإن لم تكن تراه، ولم تكن تسمعه، ولم تكن قادراً على لمسه.

كما أنّك ستبحث عن مالكه أيضاً.

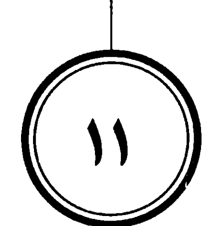
وإذا كان هاتفٌ بسيط يمكن الحصول عليه من أيّ محل لبيع الأجهزة، لابدّ أن يكون له صانع عاقل حكيم، فكيف بالنسبة إلى مَن صنع الهاتف، وهو الإنسان، مع ما فيه من دقّة الخلق، وبديع الصنع، إضافة إلى وجود الحياة فيه؟!

نحن أمام الهاتف أمام ثلاث خيارات:

- **الأوّل**: إنّه هو الذي صنع نفسه.
- **الثاني**: إنّ ما حوله من الطبيعة هو الذي صنعه.
- **الثالث**: إنّ موجوداً ذكياً صنعه عن سابق إرادة وتصميم.

وكما في جهاز الهاتف كذلك فيما يرتبط بالإنسان، فأمّا أن نقول: إنّ الإنسان هو الذي صنع نفسه، أو صنعته الطبيعة، أو إنّ موجوداً أعلم منه، وأكثر حكمة وقدرة هو الذي صنعه، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1].

(١) سورة الطور: ٣٥.



لو أنّ أحداً دعاك إلى الإيمان بالله، فهل له مصلحة في ذلك؟

ولو أنّ أحداً دعاك إلى الكفر، فهل له -هو الآخر- مصلحة في ذلك؟

والجواب: إنّ المؤمنين يتبعون الأنبياء عليهم السلام الذين كان شعارهم: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾[1]، ودعوتهم هي ﴿يَا قَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[2]، فليست لهم مصلحة دنيوية في الدعوة إلى الله، وهم أساساً يتحمّلون الكثير من العنت والعذاب بسبب إيمانهم بالله تعالى.

وعلى أقلّ التقادير يمكن أن تقول إنّ مصلحتهم في الآخرة، وإيمانهم هذا يدفعهم إلى الالتزام بمجموعة من الواجبات، والامتناع عن كثير من الملذّات المحرّمة، فمصلحتهم هي في الآخرة، وما يحصلون عليه من الثواب هناك.

وإذا كان المؤمنون يدعون الآخرين إلى الإيمان، فلأنّهم اكتشفوا الحقيقة، واستضاءوا بالنور، ويريدون إشراك الآخرين معهم في هذا الخير.

أمّا الملحدون فبالرغم من من كلّ ادّعاءاتهم، فإنّهم يبحثون عن مصالح ذاتية خاصة لهم في رفع راية الإلحاد، فهم لا يلتزمون -بناء على كفرهم- بأيّ دين، فلا واجبات ولا محرّمات، فإذا كان الله في نظرهم غير موجود، فلماذا يلتزمون بشيء؟

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

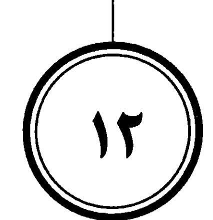
(٢) سورة ياسين: ٢٠-٢١.

لا في القضايا الأخلاقيّة، ولا في الأمور الإنسانيّة، ولا بالطبع في المجالات العباديّة، ومصلحتهم في الدعوة إلى الإلحاد هي الحصول على بعض المغانم، فمثلاً أحدهم يرفع راية الإلحاد ليربح أموالاً من حقوق التأليف، أو أجور محاضراته، فدعوته هي دعوة ماديّة مصلحيّة بامتياز، ولن تجد أحداً من الملحدين يتنازل عن مصالحه، أو يتبرّع بأمواله للآخرين.

المؤمنون بالله يمتنعون عن ارتكاب الجرائم بحق غيرهم حتّى في خلواتهم، بينما غيرهم لا يتورّع عن فعل أيّ شيء يراه متوافقاً مع مصلحته وهواه، خاصة إذا كان في أمان من المراقبة وعقوبة القانون.

فالملحدون لا يريدون الخير للناس عندما يدعون إلى الإلحاد، بل لأنفسهم.

والمؤمنون لا يريدون الخير لأنفسهم عندما يدعون إلى الإيمان، بل للناس.



هل سألت نفسك: لماذا نرى أنّ الملحدين لا يجلسون مجلساً إلّا ويطرحون موضوع وجود الله ويعلنون أنّه غير موجود، ويدعون الآخرين إلى الكفر به وبأنبيائه ورسله، ويستهزئون بالديانات وبالمؤمنين؟

لنفترض جدلاً أنّ الله ليس له وجود، وهذا ما يعتقد به الملحدون، فلماذا الإصرار على التأكيد على ذلك صباحاً ومساءً؟ فأنت إذا لم تؤمن بشيء، فأنت تنكر وجوده، فلا داعي إلى محاولة إثبات ذلك لكلّ من تلتقي به!

لماذا لا يلغي الملحدون التفكير في الله، نفياً أو إثباتاً؟

الحقيقة إنّ الإيمان بوجود الله مـخـزون في فطرة الإنسان، تماماً كما هي الأخلاق، والقيم الإنسانيّة، فعندما ينسلخ أحد من فطرته هذه فهو يحاول جاهداً أن يبرّر لنفسه الكفر بذلك، تماماً كما أنّك تجد أنّ السارق يحاول دائماً أن يُدين أعمال السرقة، ويهاجم اللصوص أينما جلس، لأنّ ضميره يؤنّبه على ما فعل، ولذلك يريد أن يبرّأ نفسه من ذلك.

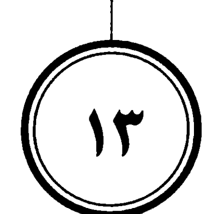
وهكذا الملحدون فهم أينما يجلسون يحاولون إنكار وجود الله، فلولا وخزة ضمائرهم التي تؤنّبهم لم تكن هنالك حاجة لمحاولة إقناع الآخرين بذلك.

أنت حينما لا تؤمن بوجود شيء فإنّك إذن لا تؤمن به، أمّا حينما تقوم وتجلس لكي تثبت أنّ ربّك غير موجود، فهذا أكبر دليل على أنّه موجود، ولذلك فإنّ

ضميرك يؤنّبك على إنكاره، فتحاول تبرير الإنكار بمزيد من الإنكار.

بينما المؤمنين بالله -وهم لا يشكّون في وجوده- لا يفعلون ما يفعل الملحدون، بل هم يؤمنون بالله وكفى، ولربّما لا يفتح أحد منهم في مجالسه مثل هذا الموضوع إلّا نادراً.

أمّا الذي ينكر وجود الله فهو على الدوام يفكّر في الله، وإن كان يحاول إثبات عدم وجوده، لأنّ ضميره يؤكّد له وجوده فيحاول تبرير الإنكار لنفسه، أي إنّ ما يذكره من الأدلّة والتشكيكات هو لإسكات ضميره أكثر مما هو لإسكات المؤمنين بالله.



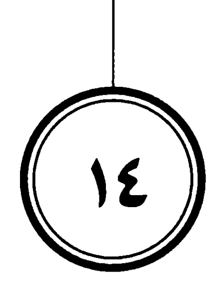
لو أنّك كنت تمشي في طريق ضيّق فوجدت على الأرض ورقة صغيرة رُسمت عليها صورة للكرة الأرضيّة بخط اليد، وكان من الواضح أنّ راسم الصورة لم يكن فنّاناً، وربّما كان مجرّد طفل صغير، لأنّ الرسمة لم تكن دقيقة، فهل يأتي في بالك أنّ تلك الصورة تكون قد رُسمت بالصدفة، وأنّها رُميت أمامك بالصدفة أيضاً؟

أم أنّك تؤمن من دون تردد أنّ هناك من رسمها بسابق تصميم، وأنّه رماها على الأرض، إضافة إلى أنّ الورقة أيضاً لم تتكوّن من ذاتها بالصدفة.

ولو أنّ أحداً قال لك: ليس من الضروري أن يكون أحد قد رسم تلك الصورة، بل هي رسمت نفسها، فهل كنتَ تقبل منه ذلك؟

تُرى، إذا لم يكن هنالك أحد يمكن أن يقبل بأنّ صورة الكرة الأرضيّة المرسومة بخط اليد قد وجدت بالصدفة، فهل الكرة الأرضيّة الحقيقيّة بكلّ عظمتها، ودقّتها وتعقيداتها، وكلّ ما فيها من كائنات حيّة، وجبال، وأنهار، وبشر قد وُجدت بالصدفة؟

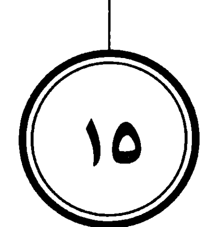
إذا كانت الصورة لا تكون بالصدفة.. فكيف يكون الأصل بالصدفة؟!



لو أنّك لوّحت بقلم بسيط من أقلام الرصاص، وقلت للملحدين بأنّ هذا القلم قد وجد بالصدفة فلن يقبلوا منك، لأنّ هذا المقدار البسيط من الخشب الذي في وسطه شيء من الفحم، بهذه الدقّة البسيطة لا يمكن أن يوجد بالصدفة، ولابدّ أن تكون عشرات من الأيدي قد تعاونت فيما بينها حتّى أصبح هذا القلم بيدك.

فابتداءً من الذين قطعوا الأشجار، وانتهاءً بالذي أخذ القلم إلى محلّه وباعه لك، ومروراً بالمصنع الذي صنعه، والمهندس الذي وضع تصميمه، والعمّال الذين اشتغلوا على صنعه، كلّهم تعاونوا حتّى وصل القلم إليك، فلا يمكن أن يوجد القلم صدفة.

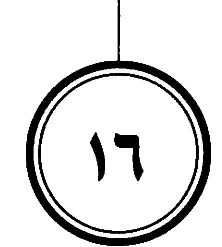
إذا كان من غير الممكن أن يؤمن الملحد بالصدفة في وجود قلم رصاص عادي، فكيف يطالبنا هؤلاء بالإيمان بحدوث ملايين الصدف في وجود الكون واستمراره، من تحول العدم إلى وجود، إلى تكوّن المنظومات الشمسيّة، ثمّ انفصال الأرض عن الشمس، ثمّ تكوّن الماء، ثمّ تكوّن الحيوان وحيد الخلية في الماء، ثمّ تطوّره إلى حيوان برمائي، ثمّ ملايين العمليات، إلى وجود الإنسان؟!



لو حدّثك أحدهم بأنّه كان واقفاً بجانب ميناء على البحر، فرأى سفينة محمّلة بصناديق مليئة ببضائع متنوعة، وكانت الصناديق في السفينة بترتيب منظم في أماكنها، وأنّ السفينة قد وصلت إلى الميناء بكل هدوء، وتوقفت في المكان المخصص لها، وأفرغت حمولتها على الأرض، وقد تمّ كلّ ذلك من دون أن يكون للسفينة من صانع، وما كان لها قبطان، ولم يكن على متنها عمّال، ولا كان لها مالك فهل كنت تصدّق كلامه؟

وإذا كان جوابك بالحتم واليقين هو: لا، بكلّ تأكيد، فكيف يمكن أن تصدّق أنّ هذه المنظومة الشمسيّة بكلّ ما فيها من كرات، وكلّ ما لها من نظام، قد وُجدت بالصدفة، وأنّها تسير بشكل سليم بالصدفة، وأنّ الأرض تدور حول محورها بالصدفة، من دون وجود إرادة عليا تدبّر أمورها وتسيّر مجراها ومرساها؟

وإذا لم تصدق وجود السفينة بالصدفة في عرض البحر، وهي مسألة صغيرة بالقياس إلى الأرض وما فيها، والمنظومة الشمسية بما عليها، والمجرّات بكلّ ما لها من عظمة، فكيف ستصدق أن الكون قد وُجد بالصدفة دون أن يكون له خالق خلقه أو ربّ يديره؟!

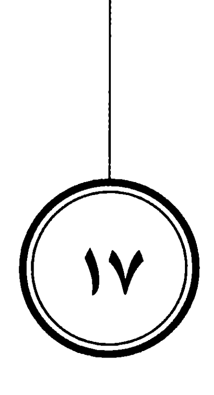


لو وقف أحد على مرتفع ورمى بإناء كبير من الزجاج على الأرض فإنّه بالطبع يتكسّر، ويتحوّل إلى قطع متناثرة من الزجاج، ولكنّه لن يتحول إلى مجموعة من الأكواب الصغيرة، كما أنّه لو سكب أحدهم ألواناً من الحبر الملون على قطعة قماش، فلن تتحول إلى لوحة جميلة لأشجار وطيور وأنهار، وطفل صغير يلعب على حشيش الأرض.

ولو أنّ أحدنا حمل في سيارة نقلٍ كبيرة مواداً مثل الإسمنت والأحجار والأخشاب ثمّ أفرغها في صحراء قاحلة، وتركها هناك ومشى، فإنّ المواد لن تتحول إلى فيلا جميلة، ذات بناءٍ راقٍ، ويكون كلّ شيء فيه موضوعاً في مكانه من الأبواب والنوافذ، والمرافق الصحية، وغرفة النوم.

ولو أنّ امرأة رمت بقطعٍ من القماش في صحن دارها، فلن تتحول قطع القماش هذه إلى ثياب مخيطة، علىً مقاسات مختلفة.

هذا أمر لايشكّ فيه أحد، فكيف يمكن أن نعتقد أنّ الكون الذي بدأ وجوده بالانفجار الكبير -كما يعبّرون- تحوّل إلى شموس طالعة، وأنجم زاهرة، وأرض خضراء، وبحار، وأنهار، وجبال وغابات، وكلّها موضوعة في مكانها الصحيح، إضافة إلى الإنسان، وما فيه من خلايا حيّة وأعضاء، وما فيه من آيات الإبداع، والحكمة والقدرة والقوّة، بما لا يمكن مقايسته بالإناء، والجسد، ومواد البناء، والقماش، ترى كيف يمكن أن يحدث ذلك من دون «تصميم ذكي» من لدن صانع حكيم قدير؟



من يقدّم لك شربة ماء، يجعلك مدينًا له بمقدار شربة ماء.

ومن يبني لك بيتًا، يجعلك مدينًا له بمقدار بناء بيتك.

أمّا من ينقذ حياتك، فأنت مدين له بمقدار ما لحياتك من قيمة.

فماذا عن الذي لا من شيء خلقك؟

ولا من سؤال رزقك؟

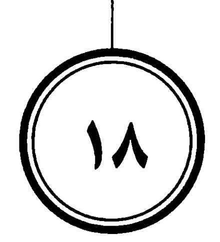
ولا من طلب أطعمك، وكساك؟

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1]؟

وهل جزاء إحسانه إنكار وجوده؟

---

(١) سورة النحل: ٧١.



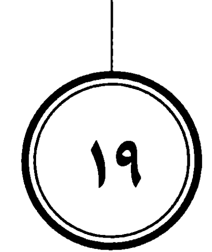
ينسب الملحدون وجود الخلق إلى نفسه، أي أنّ الطبيعة التي نراها اليوم والتي لم تكن موجودة هي التي أوجدت نفسها.

وواضح أنّ الطبيعة لا تملك عقلاً، ولا وعياً، ولا ضميراً، ولا غرائز، فهل للماء والهواء والتراب والشمس والقمر هذه الأمور؟ هل لها عقل وإرادة ووعي؟

والسؤال هنا عن أمرين:

- **الأوّل**: معلوم أنّ فاقد الشيء لا يعطيه؛ فالطبيعة التي لم تكن موجودة كيف أعطت لنفسها الوجود؟
- **الثاني**: هذه الطبيعة التي أعطتنا الوعي والعقل والضمير والغرائز لماذا حرمت نفسها من ذلك، فبقيت جاهلة خاضعة ذليلة مهانة؟

نحن اليوم نتحكّم في الطبيعة: فندوس عليها ونحرقها، وندمّرها، ونتلاعب بها، وهي ذليلة بين أيدينا، فلماذا لا تقوم بتطوير نفسها لكي تتخلص من كلّ ذلك الهوان وتتغلب علينا؟!



حاجتنا إلى الله حاجة حقيقيّة، ومطلقة ودائمة.

نحتاج إلى رعايته أربعة وعشرين ساعة في اليوم..

سبعة أيّام في الأسبوع..

أربعة أسابيع في الشهر..

اثني عشر شهرًا في السنة..

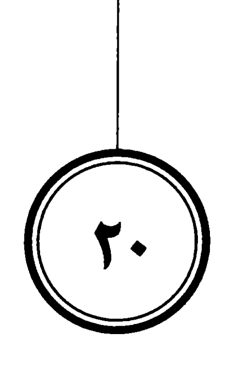
سبعين عامًا في العمر.

ومن سنن الباري عزّوجلّ أنّه لن يجعل أحدًا من خلقه غنيًا عنه في هذه الحياة، فإذا قضى له حاجته في شيء، تركه محتاجًا إليه في أشياء أُخرى، وفي ذلك لطف عظيم، ولكن ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[1].

لقد أعطى ربّنا للناس كلّ ما يحتاجون إليه، ابتداءً من الوجود، وانتهاءً بالعقول، والعواطف، والأعضاء، وخلق لهم من الطعام والشراب ما يعيشون به، إضافة إلى كلّ ما في الأرض من النعم.

فلمّا استغنى البعض أنكر وجود ربّه، وطغى في حياته.

(١) سورة العلق: ٦-٧.



مع أنّ الله تعالى أعطى للناس:

عينًا باصرة..

وبصيرة نافذة..

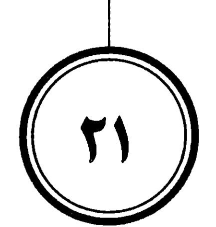
إلّا أنّ البعض منهم يفضّل أن يغلق عينيه عن الحقيقة..

ويطمس على بصيرته..

ويتصرّف كالأنعام..

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

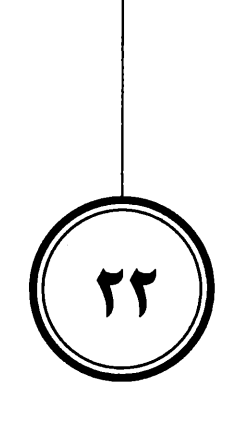


«نقطة» من عدم..

أفاض عليها ربّها الوجود، وكثّرها حتّى كبرت، فأعطاها الوعي، والعقل، والشعور، وزوّدها بكلّ ما تحتاج من النعم، وأودع فيها ضميرًا لا ينام، وفطرة لا تخطأ، ونفسًا لوّامةً لا تهدأ، ودلاّها على آثار قدرته ودلائل عظمته.

فلمّا شعرت بوجود نفسها، ورأت فوقها سماء مبنيّة، وأرضًا مدحيّة، وشمسًا مضيئة، وقمرًا منيرًا، وجبالاً شامخة، وأنهارًا جارية، ونباتات، وحيوانات وغير ذلك شكّكت في وجود خالقها وقالت: هل من إله؟

عجيب.. نقطة من عدم، تشكّك في وجود خالق الوجود؟!



لماذا لا نرى الله؟

والجواب: إنّ الرؤية لا تكون إلّا لشيء محدود، له حجم معين، ويخلو منه ما قبله وما بعده، ولابدّ أن يكون ماديّاً يخضع لقوانين المادة، من الطول والعرض والعمق.

بينما ربّنا مطلق في ذاته وفي صفاته، وهو لا يخلو منه مكان ولا زمان.

أمّا نحن فمحدودون في كلّ شيء، فكيف لشيء محدود أن يستوعب ما ليس بمحدود؟

إنّ آثار وجود الباري تدلّ بوضوح على أنّه أكبر منّا، وأعظم من تصوّرنا وخيالنا، وأعلى من كلّ علوّ، ولو كان قابلاً للرؤية لما كان هو الواحد الأحد، المهيمن على كلّ شيء، ومن ثمّ لم يكن هو الله جلّ وتعالى.



لا أحد يمكن أن يكابر في وجوده، فيدّعي -مثلاً- أنّه غير موجود، أو يدّعي أنّه هو الذي خلق نفسه، فمن يا تُرى هو خالق البشر؟

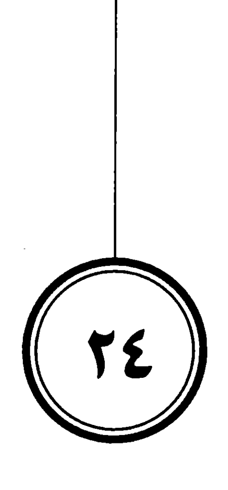
إنّ المؤمنين يقولون: إنّ الذي خلقهم يملك القدرة، والعلم، والحكمة، والإرادة، والاختيار، لأنّهم يرون آثار ذلك في وجودهم.

أمّا غيرهم، فيقولون: إنّ خالقهم الطبيعة، وهي لا تملك لا قدرة، ولا علماً، ولا حكمة، ولا إرادة، ولا اختيارًا.

إنّ ربَّ المؤمنين عالمٌ في عمله، قديرٌ في صنعه، حكيمٌ في أمره.

وربّ الملحدين جاهل، متبلّد الإحساس، مسلوب العقل، عاجز في كلّ شيء.

وهل الطبيعة غير ذلك؟



الملحدون:

يدعون الناس إلى الإيمان بإله موهوم وغير موجود..

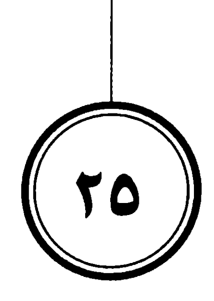
فعتد هؤلاء العدم هو الخالق لأنّه هو الذي تحوّل إلى الوجود بالصدفة!

بينما المؤمنون:

يدعون إلى الإيمان بربّ قدير، حكيم، عليم..

وهو الذي حوّل العدم إلى الوجود بإرادة كريمة حكيمة منه.

فأيّ ربّ حقيق بالعبادة؟

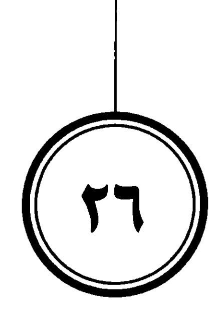


ليس مهمّـاً أن نعرف أيّهما كان الأوّل: البيضة أم الدجاجة؟

لكن من المهم نعرف أنّه ليس ممكنًا أن تكون هنالك بيضة من دون دجاجة، ولا دجاجة من دون بيضة.

أليس في ذلك دليل بسيط على وجود من خلقهما؟

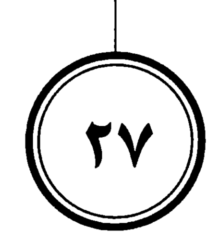
وإلّا من أين جاء الأوّل منهما، سواء كان البيضة أم الدجاجة؟



نكسة للعقل والمنطق..

أن ينكر المرء وجود من أعطاه العقل والمنطق..

وأن يحاول تبرير إنكاره بالعقل والمنطق.



هنالك مسائل واضحة وبديهيّة، وأخرى غير واضحة، ومسألة وجود الخالق الحكيم الحيّ القيّوم المدبّر لهذا العالَم -بخلاف ما يروّج الملحدون- هي من الصنف الأوّل؛ فلا تتوقّف على الكثير من الاستدلال، والتكلّف أبداً.

قال الله تعالى لنبيّه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾(١).

ولا تحتاج إلى تصنّع، بل تحتاج فقط إلى التذكير، والنظر إلى الآيات والدلالات التي في النفس وفي الكون، فكلّ مَن لم يستحبّ العمى على الهدى، ولم يتعصّب لجهله لو نظر إلى شيء من أجزاء هذا الكون بنظر العاقل المعتبر المتفكّر كان الحقّ أبين له من الشمس، لأنّه ما من صبيّ -ناهيك عن كلّ عاقل- إذا رأى شيئاً مستحكماً متقناً إلّا وتساءل عن صانعه، بل لو فتح أيّ شخص عين قلبه لوجد الله أظهر له من سائر الأشياء، وأنّه حقٌّ لا ريب فيه، وأنّه الخالق للموجودات، وأنّ كلّ شيء يدل بوجوده على وجود خالقه الحيّ العليم.

لهذا كان أساس الدين وأصل الإيمان استخدام العقل، كما قال رسول الله ﷺ:

«العَقْلُ أَصْلُ دِينِي»(٢).

---

(١) سورة ص: ٨٦.

(٢) النوري، المحقق العلامة الشيخ حسين بن محمد تقي: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١١، ص ١٧٣، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: **«بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْه، وَ بِالْعُقُولِ تُثْبَتُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِكْرِ تُثْبَتُ حُجَّتُهُ، مَعْرُوفٌ بِالدَّلَالَاتِ مَشْهُورٌ بِالْبَيِّنَاتِ»**(١)

لقد دخل رجل على الإمام الرضا عليه السلام فقال له: يَابْنَ رَسُولِ اللهِ مَا الدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْعَالَـمِ؟

فقال عليه السلام: **«أَنْتَ لَمْ تكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُكَوِّنْ نَفْسَكَ، وَ لَا كَوَّنَكَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ»**(٢)

ومن هنا لابدّ من النظر في هذا الكون والتدبّر فيه، وبالتفكّر، يصل المرء بدلالة الأشياء على صانعها.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(٣)

ويقول عزّوجلّ في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾(٤).

ويقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ

(١) فتال النيشابوري، الشيخ العلامة محمد بن أحمد: روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، ج١، ص ٢٠، منشورات الرضي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

(٢) الصدوق، العلامة الشيخ محمد بن علي ابن بابويه: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص ١٣٤، نشر جهان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤.

(٤) سورة الأعراف: ١٨٥.

شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[(١)].

ويقول تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٢)]

ويقول تعالى في سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[(٣)].

ويقول تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[(٤)].

ويقول تعالى في في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[(٥)].

ويقول تعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ

---

(١) سورة الفرقان: ٤٥-٤٦.

(٢) سورة الروم: ٩.

(٣) سورة ق: ٦-١١.

(٤) سورة الذاريات: ٢٠-٢٣.

(٥) سورة عبس: ٢٤-٣١.

دافِقٖ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[1].

ويقول تعالى في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2].

ويقول الإمام عليّ عليه السلام:

«وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَ جَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَ خَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَ لَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَ الْأَبْصَارُ مَدْخُولَةٌ، أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَ أَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَ فَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ، وَ سَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَ الْبَشَرَ.

انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَ لَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَ لَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَ ضَنَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَ تُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَ فِي وُرُودِهَا لِصُدُورِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا، لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَ لَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَ لَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَ الْحَجَرِ الْجَامِسِ، لَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا وَ فِي عُلْوِهَا وَ سُفْلِهَا، وَ مَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَ مَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَ أُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَ لَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً، فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَ بَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَ لَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ، وَ لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَ غَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَ مَا الْجَلِيلُ وَ اللَّطِيفُ، وَ الثَّقِيلُ وَ الْخَفِيفُ، وَ الْقَوِيُّ وَ الضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ، كَذَلِكَ

---

(١) سورة الطارق: ٥-٧.

(٢) سورة الغاشية: ١٧-٢١.

السَّمَاءُ وَ الْهَوَاءُ، وَ الرِّيحُ وَ الْمَاءُ.

فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ، وَ النَّبَاتِ وَ الشَّجَرِ، وَ الْمَاءِ وَ الْحَجَرِ، وَ اخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، وَ تَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَ كَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَ طُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ، وَ تَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَ الْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ.

فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَ جَحَدَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَ لَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، لَمْ يَلْجَئُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَ لَا تَحْقِيقٍ لِمَا وَعَوْا، وَ هَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ.

وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَ أَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَ جَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَ فَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَ جَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَ نَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَ مِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، تَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَ لَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَ تَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَ خَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً، فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً، وَ يُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَ وَجْهاً، وَ يُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْماً وَ ضَعْفاً، وَ يُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَ خَوْفاً.

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَ النَّفَسِ، وَ أَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَ الْيَبَسِ، قَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَ أَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهَذَا غُرَابٌ، وَ هَذَا عُقَابٌ، وَ هَذَا حَمَامٌ، وَ هَذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَ كَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ، وَ أَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ، فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَ عَدَّدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَ أَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا»(١)

وجاء في حديث الديصاني مع الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الرجل قال: يا جعفر

---

(١) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٥، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الخامسة، ٢٠١٠م.

بن محمد دلّني على معبودي.. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «**اجلس**». وإذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام:

«نَاوِلْنِي يَا غُلَامُ الْبَيْضَةَ»

فَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام:

«يَا دَيَصَانِيُّ هَذَا حِصْنٌ مَكْنُونٌ لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ، وَ تَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ جِلْدٌ رَقِيقٌ، وَ تَحْتَ الْجِلْدِ الرَّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَ فِضَّةٌ ذَائِبَةٌ، فَلَا الذَّهَبَةُ الْمَائِعَةُ تَخْتَلِطُ بِالْفِضَّةِ الذَّائِبَةِ وَ لَا الْفِضَّةُ الذَّائِبَةُ تَخْتَلِطُ بِالذَّهَبَةِ الْمَائِعَةِ، فَهِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا خَارِجٌ مُصْلِحٌ فَيُخْبِرَ عَنْ صَلَاحِهَا، وَ لَا دَخَلَ فِيهَا مُفْسِدٌ فَيُخْبِرَ عَنْ فَسَادِهَا، لَا يُدْرَى لِلذَّكَرِ خُلِقَتْ أَمْ لِلْأُنْثَى تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ أَلْوَانِ الطَّوَاوِيسِ أَتَرَى لَهَا مُدَبِّراً».

فَأَطْرَقَ الرجل مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ وَ أَنَّكَ إِمَامٌ وَ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَ أَنَا تَائِبٌ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ.[1]

ثمّ إنّ الأدلّة على الله تعالى كثيرة، ومتنوّعة، بل هي موجودة في كلّ شيء، ففي كلّ خليّة، بل كلّ ذرّة من ذرّات هذا الكون برهان على وجود الخالق المتعال، مضافاً إلى سائر البراهين، مثل برهان النظم.

---

(١) الكليني، العلامة الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق: الكافي، ج١، ص ٨٠، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦م.

الفصل الثاني

حوارات

الإيمان بالغيب

◂ لماذا نؤمن بالغيب؟

هل هنالك حاجة حقيقيّة للإيمان بالغيب؟

الجواب:

أوّلاً: إذا كان أمر الإيمان بالغيب أو الكفر بالغيب يدور بين حصول نعيم أبديّ، أو حصول عذاب أبدي، فأيّ حاجة أهمّ من هذه الحاجة؟

ثانياً: الغيب حقيقة، والإيمان بالحقيقة حاجة حقيقيّة، وإلّا فما الحاجة إلى الإيمان بالقيم والأخلاق والحبّ وما إلى ذلك؟

وواضح أنّ الكلام ليس عن مطلق الغيب، حتّى نزن المهم منه وغير المهم بمكيال واحد، وإنّما بالغيب الذي يتعلق بوجود الإنسان ومصيره والغاية من خلقته، وأمّا الحقائق الغيبيّة الأخرى فليست ذات أهميّة، كمن يريد أن يعرف حقيقة الجنّ مثلاً، وهكذا الأمر في عالم المحسوسات، فإنّ وجود الشمس أمر مهم لبقاء الإنسان وحياته، وأمّا وجود كائنات حيّة على كوكب نائي، في مكان ما من الكون، فليس له تلك الأهميّة.

◂ مشكلة عدم الإيمان بالغيب!

المشكلة في الإيمان بالغيب بشكل خاص، والإيمان بالدين بشكل عام أنّه مليء بعفاريت، مرعبة وشخوص غابرة، وأشباح لا أحد

يعرف عنها شيئاً سوى ما توارثناه من أُناس، لم يعرفوا عنها شيئاً.

الجواب: الدين مليءٌ بالجمال، وبكلّ الأشياء الجميلة، فهو مليءٌ بالبطولات، والأخلاق الفاضلة، مليءٌ بالعطاء، وبأشخاص عاشوا في روعة من حياتهم، وكانوا نماذج طيبة للبشريّة جمعاء.

نعم في الدين أشياء تخيفك، لتمنعك من ارتكاب الظلم والطغيان والقتل، الدين يتحدث عن العواقب بشكل عام، فعاقبة الأشرار في الدين مرعبة، لكن عاقبة الأخيار رائعةوجميلة.

لماذا يتكلّم البعض بالمطلقيات المليئة بالكذب، بأن يقول: الدين مليءٌ بعفاريت مرعبة، وشخوص غابرة؟!

في الواقع إنّ دماغ هؤلاء مليءٌ بالعفاريت!

المؤمنون بالأديان يعيشون روعة في حياتهم، ويشعرون بقيمة وجودهم، كما أنّهم يخافون من عدم الالتزام بما هو رائع وصحيح مثل الصدق والعدل والإحسان.

تماماً كما أنْ يقال للإنسان الذي يعيش في هذه الحياة: تمتّع بما هو نافع لك في الحياة، لكن إيّاك أن ترمي بنفسك من جبل.. وإيّاك أن تضع يدك على سلك كهربائي عارٍ.. وإيّاك أن تحرق نفسك.. فكن حذراً من هذه الأشياء، فهي مرعبة، لابدّ أن تخافَ منها.

ثمّ إنّ مَن يعتقد أنّ الحكومة الصارمة في عدالتها، التي تزجّ بالطغاة في السجون وتقضي على المجرمين، هي حكومة عفاريت فهو العفريت.

◂ هل الغيب هو لا شيء؟

إنّ توماس جفرسون (Thomas Jefferson) -وهو أحد مؤسسي الدولة الأمريكيّة- قد قال: «إنّ الكلام في أمور غير ماديّة -أي غيبيّة- هو كلام عن لا شيء، فالقول بأنّ الروح الإنسانيّة والملائكة والله غير

ماديين يساوي القول بأنّهم لا شيء، بمعنى أنّه ليس هناك روح ولا ملائكة ولا إله»

ويضيف جفرسون: «لا أستطيع التفكير بغير ذلك، وبدون الغوص في متاهات لا يُسبر غورها أو في هاوية التخيّل، فأنا سعيد بما أشغل نفسي به، بدون الغيبيّات التي ربّما تكون موجودة، ولكن ليس لديّ دليل على وجودها»[1].

الجواب:

أوّلاً: من عادة الملحدين أنّهم عندما تعوزهم الأدلّة والبراهين يتشبّثون بكلام لشخص معروف هنا، وشخص غير معروف هناك لتدعيم خرافاتهم، وهؤلاء قد تكون لهم قيمتهم عند شعوبهم في مجال معين، ولكن لا ارتباط لهم بقضايا الفكر والعقيدة، أي إنّهم ليسوا متخصصين في ذلك، وليس الاستناد إلى كلام جفرسون إلّا من هذا القبيل، لأنّ هذا الرجل ليس خبيراً في هذا الشأن والاستشهاد بكلامه أو كلام أمثاله في هذا المجال يشبه أنّ أحداً يستند إلى تصاريح من خبير في الزراعة في قضايا ترتبط بالفلك والنجوم، فمهما كان مثله مهمّاً في مجال عمله الزراعي، فلا قيمة لكلامه فيما ليس له به من علم وهو الفلك.

نحن لا يهمّنا من قال، إنّما يهمنا ما قيل.

ثانياً: إنّ هذا ادّعاء محض، فمن يقول إنّ الكلام في الأمور غير الماديّة -أي الغيبيّة- هو كلام عن لا شيء فهو مخالف للواقع، فالعلم اليوم يتحدّث عن أشياء لا يمكن أن تُرى بالعين أو تلمس باليد، فالعلم يتحدّث عن التاريخ الذي لا يمكن رؤيته، فهل جفرسون نفسه - اليوم بعد مرور قرنين أو أكثر- موجود، وهل يمكن أن نراه ونلمسه ونتذوقه، وهل نحسّه بالحواس الخمس؟ أو هو وهمٌ وخيال صِرف؟ فإذن الكلام عن جفرسون هو كلام عن لا شيء!.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: وهم الإله، ص ٥٧، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٩م.

إنّ من الجهل أنّ نقول: إنّ الماديّات هي وحدها الموجودة في هذا الكون، فننكر أصل الغيب، ومن ثمّ ننكر وجود الروح والملائكة أو الله.

إنّ كلام جفرسون لا قيمة له حينما يتحدث عن أمر غير واقعي، ويدّعي ادّعاءات لا أساس لها من الصحة، أو حينما يتقوّل على المؤمنين، فيقول إنّ الكلام في الأمور الغيبيّة هو كلام عن لا شيء، لأنّنا نعرف أنّه ليست الحقائق مقتصرة على ما نراه أو ما نلمسه أو نتذوّقه، بل هنالك حقائق وراء ذلك. المؤمنون يعتقدون أنّ هناك شيء ولكنّه غير مادي.

أمّا قوله: «إنّني سعيد بما أشغل به نفسي بدون الغيبيّات»

فلعلّ الكثيرين أيضاً يمكن أن يقولوا هذا الكلام في مجالات أخرى، مثلاً أن يقول قائل: أنا سعيد من دون الإيمان بوجود نظام في هذا الكون، أو أنا سعيد من دون الالتزام بالأخلاق. فهل أنّ الميزان هو ما يكون جفرسون سعيداً به؟

أمّا قوله: «الغيبيّات التي ربّما تكون موجودة ولكن ليس لي دليل على وجودها»

فهو أيضاً كلام سخيف، لأنّه إذا كان وجود الغيبيّات احتمالاً وارداً كما يعترف هو فلابدّ من أن نبحث عنها، لا أن نهملها لأنّ القضية خطيرة جداً. فإذا كان الله حقّاً كما يقول المؤمنون، فإن الذين يُنكرون وجود الله سيعانون الأمرّين في عالم الآخرة، واذا لم يكن الأمر كما نقول، فنحن لم نخسر شيئاً، لكن الذين أنكروا يخسرون.

الإيمان بالله تعالى

◂ لماذا نؤمن بالله؟!

ألا يكفي جمال الطبيعة وروعة الحياة، لكي نتمتع بوجودنا، ونعيش بأمان من دون الإيمان بالله؟

الجواب:

أوّلاً: إذا كنتَ تعيش في مكان رائع وفي أمنٍ وأمان وأُخبرت بأن وراء الجبل مجموعة كبيرة من الأعداء يتهيّؤن للهجوم على المدينة التي أنت فيها ليفنوها مع من فيها، فهل تجلس وتقول: لا داعي لتنغيص العيش والقلق لأنّي أتمتّع هنا بجمال الطبيعة وروعة الحياة وأعيش في أمان، أليس هذا عين الجهل والاغترار؟

ثانياً: إنّ الإنسان ذو أبعاد، فلا يكفي له جمال الطبيعة، لأنّ الإيمان بالطبيعة وحدها يؤدّي بالإنسان إلى التفاهة والعبثيّة وعدم البحث عن أهداف وجوده في هذه الحياة، فأن تأكل لتعيش وتعيش لتأكل، وترتاح لتعمل وتعمل لترتاح، وتقضي الليالي والأيام لا لسبب إلّا لكي تقضي الليالي والأيام، هذه تفاهة، بينما الإيمان بالغيب يكشف لك عن الغاية من وجودك، والغاية من عملك. ومن دون وجود غاية لوجود الإنسان وعمله، فهو يعيش في حلقة مفرغة لا تنتهي به إلّا إلى العبثيّة والتفاهة.

◂ الإيمان حاجة حقيقيّة

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين بالله كثيراً ما يتحدّثون عن ضرورة

الإيمان بالله، لأنّ هنالك فجوة مهمّة في حياتنا لابدّ أن نملأها بالإيمان.

إنّ المؤمنين يرون بأنّ هنالك حاجة نفسيّة للإيمان بالله، باعتباره صديقاً متخيّلاً، أو أباً أو الأخ الأكبر، أو شخصاً محلّ ثقة، ولابدّ من إشباع هذه الحاجة، سواءً كان الله موجودًا أم لم يكن.

فلماذا نملأ فجوة (الحاجة إلى الإيمان بالله) بما هو وهم أو متخيّل، أو غير واقعيّ، أو غير علميّ؟ لماذا لا نملأ هذه الحاجة بالعلم، بالفن، بالصداقة الإنسانيّة، وبحبّ الطبيعة، بل وبالتطرّف في الإيمان بالطبيعة، أي بحب الحياة في العالم الحقيقيّ، بدون الحاجة للإيمان بحياة أخرى خلف القبر؟

الجواب: أنا لا أعرف إن كان هنالك من يدّعي بأنّ الإيمان بالله إنّما هو مجرّد حاجة نفسيّة بسبب وجود فجوة في حياتنا لابدّ أن نملأها بالإيمان.

نحن نقول لابدّ من الإيمان بالله لأنّ الله موجود، ولأنّ الكون مخلوق وكلّ مخلوق له خالق، ولأنّ هذا العالم عالم حقيقي وليس عالماً خياليّاً، ولا توجد حقيقة بدون صانع لها، إذ لا يوجد شيء واقعي -حتّى مجرّد تمثال غير جميل- بلا صانع.

تصوّر لو أنّك كنت تمشي في وادي، ورأيت من بعيد صورة إنسان منقوشة على الأرض أو على حجر، ألا ينقدح في ذهنك أنّ هنالك من رسم هذه الصورة؟ حتّى لو كانت مجرد صورة رُسمت بالطبشور، ألا ترى أنّ عقلك يقول لك: إنّ لهذه الصورة مصوّراً، ولهذا الرسم رسّاماً؟ إذن فكيف تقول بأنّ هنالك من صنع الصورة، ولكن بالمقابل ليس هناك من صنع صانع الصورة وهو حقيقة؟

صورة إنسان مرسومة بالطبشور لها مصوِّر، فما بالك بالإنسان نفسه، هذا التركيب المعقَّد المركب العظيم، في جانبه المادي والنفسي والروحي، أفليس له من خالق ومصوّر؟

ثمّ لنفترض أنّ هنالك فجوة في روح الإنسان ونحن بحاجة إلى أن نملأها.

السؤال هو التالي: لماذا وجدت هذه الفجوة؟ هل هنالك من أوجدها لتُملأ بالإيمان بالإله، أم أنّها جاءت عن طريق الصدفة؟

إن كان هنالك من أوجدها، فلابدّ أنّه أوجدها لكي يُتمّ الحجّة على البشر، ولا يكون لهم عذرٌ يوم القيامة إذا لم يُؤمنوا بالله تعالى، فربُّنا قد خلق فجوة في نفوسهم وأرواحهم ليملؤوها بالإيمان به.

إضافة إلى أنّ الملحدين لا يمانعون من الإيمان بأيّ شيء، كالإيمان بكائنات موجودة في عالم الخيال، أو بأرواح تأتي من الكواكب الأخرى، أو بالحجر أو بالمدر أو بالنهر أو بالجبل أو غيرها، إلّا أنّهم حينما يصلون إلى الإيمان بالله تعالى يشكّكون، فالمهمّ عندهم هو أن لا يؤمن أحدٌ بالله عزّوجلّ، فلا مانع لدى الملحدين من أن يضعوا أيّ شيء، مهما كان سخيفًا، في أدمغتهم، ويملؤوا هذه الفجوة التي يتحدّثون عنها بأيّ شيء لكن ليس بالله عزّوجلّ، بل بالتطرّف في الإيمان بالطبيعة مثلاً.

وأعود للقول بأنّ الحاجة إلى الإيمان بالله تعالى ليس لوجود فجوة في أرواح الناس، بل لأنّ الإيمان بالله حقيقة يأمر بها العقل وهو حاجة حقيقيّة، وأيضاً لأنّ الإيمان بوجود عالم آخر بعد الموت هو إيمانٌ بحقيقة كائنة، سنراها ونعيشها بعد موتنا، فلماذا نهرب من الحقائق؟!

عن المشاعر أم عن الحقائق؟

يقول الملحدون: هل نتحدث عن المشاعر أم عن الحقائق؟

من المحتمل أنّ كلاهما مهمّان، لكنّهما ليسا نفس الشيء؛ أن نقول: إنّ الله موجود كحقيقة، يختلف عمّا لو نقول: إنّ مشاعرنا تتطلّب الإيمان بالله.

الجواب: نعم. نحن نقول إنّ الإيمان بالله هو إيمان بحقيقة، وهذا ما تدفعنا إليه عقولنا وضمائرنا ومشاعرنا ووجودنا وفهمنا ووعينا.

نحن لا نؤمن بالله كشعور وحدس، بل نؤمن بالله كحقيقة، وليس كحاجة نفسيّة وإنّما كأمر عقلاني.

الإيمان بالله ليس تخلّصاً من الاكتئاب

يقول الملحدون: من الممكن لأحدنا أن يعيش حياة سعيدة ومفعمة بالحيويّة بدون الإيمان بالخوارق وبوجود الله، والسبب في ذلك أنّ العزاء هو تخفيف الحزن أو القلق النفسي، وهو نوعان:

النوع الأوّل: العزاء المباشر المحسوس، فعندما يتورّط شخصٌ ما بالوقوف على جبل بارد في الليل فإنّه ربّما يجد العزاء في كلب السانت برنارد الكبير(١)، أو يجد عزاءه في برميل الكونياك(٢) المعلّق حول رقبته، وربّما يكون هنالك طفل يبكي، عزاؤه بضمّة من سواعد قويّة، وكلمات هادئة تهمس في أذنه من قبل أحد أبويه.

النوع الثاني: باكتشاف واقع لم يكن يُحسب له حساب سابقاً، أو بنظرة جديدة إلى واقع موجود. مثلاً إذا قُتل زوج امرأة ما في الحرب، فإنّها ربّما تشعر ببعض العزاء عندما تعرف أنّها حامل بطفل زوجها المقتول، أو تعرف بأنّه مات كبطل، فبإمكاننا أن نجد العزاء بالعثور على طريقة تفكير جديدة بموضوع ما.

يقول أحدهم: لا شيء يستحقّ الذكر عندما يموت إنسان كبير في السنّ، لأنّه كان يوماً ما طفلاً، ثمّ ماتت الطفولة فيه فتحول إلى بالغ، فحياته لم تتوقّف بل تحوّل من طفل إلى كبير، ومن شابّ إلى شيخ طاعن في السنّ، فهو يموت بانتقاله ببطء من مرحلة إلى أخرى.

---

(١) نوع من أنواع الكلاب، اسمه بالانكليزي: saint bernard وهو ضخم الحجم، متوسط الارتفاع يعيش في المناطق الباردة، ويتميّز بطبعه الودود والهادئ، ويستخدم في علميات الإنقاذ.

(٢) أحد أنواع الخمور.

من وجهة النظر هذه فإنّ تلاشي الرجل العجوز لا يختلف كثيراً عن موتاته البطيئة خلال حياته، من طفل إلى شابّ، ومن شابّ إلى كهل، ومن كهل إلى شيخ كبير.

الشخص الذي يُصاب بالاكتئاب من فكرة موته ربّما يجد العزاء في وجهة النظر الجديدة هذه، فيقول لنفسه: أنا مت كذا مرّة وما أصبتُ بالكآبة؛ ماتت طفولتي فأصبحت بالغاً، مات شبابي فأصبحت كهلاً، ماتت كهولتي فأصبحت عجوزاً، الآن أيضا سأموت وأنتقل إلى شيء آخر، مع قطع النظر عن الإيمان بوجود حياة بعد الموت. طبعاً هذا مثال عن قدرة العزاء بالتأمل.

أو أن يقول أحدهم مثلاً كما قال مارك توين (Mark Twain): «إنّي لا أخاف الموت، لقد كنت ميّتًا لمليارات السنين قبل أن أُولد، ولم يسبّب لي ذلك أيّ حرج».

الجواب: إنّ الإيمان بالله والعزاء الذي نشعر به عند مواجهة الموت ليس مجرّد «تأمّل» للتخلّص من الاكتئاب بسبب حتميّة الموت لنبحث عن بديل عنه، والخوف من الموت ليس سبباً للإيمان بالله، ولا للإيمان بوجود حياة بعد الموت؟

وكلّ كلام الملحدين في هذا المجال كذب ودجل.

وفي كلّ شيء له آية

يقول الملحدون: يدّعي بعض المؤمنين أنّ قضية وجود الله عزّوجلّ لا ترتبط بالعلم، ومن ثمّ فلا يمكن الاستدلال على وجوده بالطرق العلميّة.

ويعترف الملحدون بأنّهم أيضاً لا يمكنهم بالطرق العلميّة أن ينفوا وجود الله، ويستشهدون بقول آليستير ماكجرات

(Alister McGrath) في كتابه إله دوكنز (Dawkins God) حيث يقول: «ضقت ذرعاً بالمؤمنين والملحدين معاً، وهم يقيمون الحجج العقائديّة القائمة على أدلّة تجريبيّة ناقصة»، فمثلاً توماس هاكسلي (Thomas Huxley) الملحد اعترف بأنّه لا يمكن الإجابة عن السؤال المتعلّق بالله باستعمال الطرق العلميّة، ويستطرد ماكجراث: «أقولها لكلّ الزملاء، وللمرة المليون: إنّ العلم ببساطة لا يستطيع الحكم في قضيّة إذا ما كان الله مهيمناً على الطبيعة، ولا نؤكّده ولا ننفيه، بل وببساطة نقول: إنّه ليس لدينا القدرة للتعليق على هذا الموضوع كعلماء».

ويضيف هؤلاء: «لماذا لا يحقّ لنا التعليق على الله كعلماء؟ ولماذا لا يكون إبريق الشاي، ووحش السباغيتي الطائر، منيعين من الشك بنفس الدرجة؟...»[١] ومن ثمّ فإنّ من غير الصحيح أن نقول إنّ هذا ليس شغلنا وإنّما هو شغل الدين والفلسفة مثلاً فلا تتدخّلوا في هذا الأمر.

الجواب: إنّ الملحدين إنّما يقولون بهذا ليدّعوا أنّه لا يمكن بالطرق التجريبيّة أن نثبت وجود الله، إذن فالله عندهم غير موجود، كما يضربون مثال إبريق الشاي حيث إنّك لا تستطيع أنّ تذهب إلى منتصف الطريق بين الأرض والمريخ وتأتي بإبريق الشاي، أو تأخذ أحداً إلى هناك حتّى يرى إبريق الشاي، كذلك لا تستطيع أن تأخذ بيد أحد ما ليشاهد وجود الله عزّوجلّ، إذن بهذه الطرق العلميّة في نظرهم لا يمكن إثبات وجود الله عزّوجلّ.

وفي الحقيقة فإنّ الأمر مختلف تماماً، فإنّه ليس كلّ شيء تثبته ويتم الإيمان به لأنّك تلمسه بيدك، أو تسمعه بأذنك، أو تراه بعينك، بل هنالك حقائق كثيرة أنت تؤمن بها دون أن تلمسها، وإيمانك بها إنّما هو لوجود أدلّة علميّة قاطعة على

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص ٥٧.

وجودها.

فمثلاً حينما نحفر الأرض ونجد ملعقة مكسورة، وصحناً خزفياً معوَّجاً نقول: لابدّ أنّ أناساً من حضارة سابقة هم الذين صنعوا هذه الملعقة المكسورة وذلك الصحن الخزفي المعوّج، ونذهب لنبحث عن مزيد من الأدلّة ثمّ نقول بشكل قاطع: كانت هنالك حضارة، أليس ذلك ما فعلناه مع حضارة الفراعنة، وذلك لوجود الأهرامات، ومن يستطيع أن يشكّك في وجود الفراعنة وحضارتهم؟!!

أنتم لا تسمحون لأحد بأن يشكّك في وجود الهولوكوست؟ مع أنّنا لا نستطيع أن نأتي بهتلر لكي يراه الناس، ولا يمكننا أن نأتي بالمحارق التي أقامها ليراها الناس؟ ومع ذلك لا يحقّ لأحد أن يشكّك في وجودها.

أمّا إذا قلت إنّ هذه الشمس المشرقة، وذلك القمر المنير، وهذه الأرض العظيمة، وتلك الجبال والبشر والحيوانات والنباتات كلّها موجودة، إلّا أنّها لا تدل على وجود من صنعها!

أتقول إنّك: لا تستطيع أن تثبت ذلك؟!

كيف استطعت أن تثبت وجود الفراعنة في التاريخ، من خلال ملعقة مكسورة وبعض النقوشات، ومجرد وجود حجر على حجر، ولا تستطيع أن تثبت وجود الله بكلّ الذي تراه في الكون؟ أليس هذا دليلا علميّاً؟!

أم أنّ الدليل العلمي عندكم هو الذي تستطيع أن تلحسه بلسانك، أو أن تلمسه بيديك، مثلما يفعله الأطفال الصغار!.

الإيمان بالله قبل الإيمان بما أنزل

يقول الملحدون: إنّ من مصادر الإيمان بالله الكتب المقدّسة، وإذا تمَّ التشكيك في هذه الكتب أو في محتواها، فإنّ الإيمان بالله يهتز في قلوب الناس، أليس ذلك صحيحاً؟

الجواب:

أوّلاً: إنّ الإيمان بوجود الله يأتي قبل الإيمان بما أنزل على الأنبياء والرسل عليهم السلام، فالناس يؤمنون بالله ولذلك فإنّهم يتّبعون ما يقوله الأنبياء عليهم السلام وليس العكس.

نعم.. ربّما يكون الإيمان بالله نتيجة دعوة الأنبياء عليهم السلام، بمعنى أنّه حينما يذكّر النبيّ الناس بما في ضمائرهم، ويزيل الحجب التي تمنعهم من معرفة الله فإنّ الناس يلتفّون حول الأنبياء عليهم السلام ويؤمنون بهم ويتّبعون مواعظهم، لكن الادّعاء بأنّ الإيمان بالله هو نتيجة الإيمان بالكتب المقدّسة فقط غير صحيح وهو تقوّل على المؤمنين.

ثانياً: الكتب السماوية مختلفة، فلا يصح مثلاً أن ننظر إلى القرآن الكريم كما ننظر إلى الأناجيل الموجودة بأيدي الناس، لأنّ القرآن ليس كتاباً كتبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو كتاب أُوحي إليه، أمّا الأناجيل الموجودة بأيدي الناس فهي عبارة عن كتب كتبها أشخاص تُنسب إليهم؛ مثل إنجيل لوقا، وإنجيل متّى،...الخ

هذه الأناجيل التي اختيرت من بين ستة عشر إنجيلاً، هي كتابات أشخاص لم يلتقوا بالسيد المسيح عليه السلام، فالتشكيك في كتاب الإنجيل أو التوراة، لا ينسحب على القرآن الكريم.

بالإضافة إلى أنّ عدداً كبيراً من الناس -بما في ذلك المسيحيون المتنوّرون- يشكّكون في هذه الأناجيل، لكن لا أحد من المسلمين يشكّك في القرآن.

ثالثاً: إنّ القرآن جاء به رجل لم يقرأ كتاباً عند أحد، ولم يتعلّم من أحد، ولم يدخل مدرسة، فمن أين جاء بكتاب صنع حضارةً امتدت فوق المعمورة عدّة قرون، وكان كتابه محوراً ولا يزال لحياة ملايين من الناس؟!

وبعبارة أخرى: نحن نسأل: هل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان صادقاً في دعوته أو لم يكن كذلك؟ وهل عُرف عنه الكذب خلال أربعين عاماً من حياته؟! حتّى يأتي بعد ذلك ويدّعي كذباً أنّه يُوحى إليه؟

ثمّ هل يمكن للكذب أن يكون مؤثّراً على حياة الملايين من الناس سابقاً وإلى اليوم؟

وحتّى بالنسبة للأنبياء الذين سبقوا خاتم النبيّين ﷺ فلا يمكن إلّا أن يكونوا صادقين، لا يمكن أن يكون عيسى بن مريم عليه السلام كاذباً لأنّ الكذب لا يمكن أن تبني عليه تاريخاً، ولا يمكن أن تؤسّس عليه أمّة.

نعم قد تشوب بعض التعاليم شوائب، وربّما تدخل بعض الخرافات في هذا الدين أو ذاك، لكن هل رأينا في تاريخ البشريّة أحداً كذب كذبة، فتجمّع الناس حوله، وصدّقوه واتبعوه وآمنوا به ثمّ ضحّوا من أجل تلك الكذبة؟

أضف إلى ذلك أنّ مسألة الإيمان بالله -كما قلنا- تسبق مسألة الإيمان بالرسل وبالكتب، فالمؤمنون يؤمنون بربّهم بسبب ما يجدون في ضمائرهم وفطرتهم، ولما يجدون من آيات وجود الله عزّوجلّ في هذه الحياة، وليس فقط لأنّ هذه الكتب قالت إنّ الله موجود فآمنوا بوجوده، بل آمنوا بوجوده أوّلاً ثمّ آمنوا بهذه الكتب.

صحيح أنّ الرسل عليهم السلام يذكّرون بالله، ويرفعون عن الناس حجاب الغفلة، ويعلّمونهم الكتاب والحكمة، ويبيّنون الأحكام وما ينفع دينهم ودنياهم، لكن في مسألة الإيمان بالله فإنّ دور الأنبياء مثل دور من يذكّرك بوجود الشمس، ثمّ أنت الذي تراها وتؤمن بوجودها فحتّى لو شكّكت في صدق الرجل فيما بعد، فلن تشكّ في وجود الشمس نفسها وقد رأيتها بعينيك.

الإيمان بالله قضيّتان: عامّة وشخصيّة

يقول بعض الملحدين: إنّ قلّة من العلماء الكبار، من الذين حملوا مثلاً جائزة نوبل يؤمنون بدين، وبعضهم يذكر أسماء من العلماء الذين لم يؤمنوا وقد صرّحوا بأنّهم لا يؤمنون، وحتّى إنّ بعض الذين يؤمنون بوجود ربّ ربّما لا يؤمنون بتفاصيل ما في الدين، مثل الحياة في الآخرة، وغفران الذنوب وما شابه ذلك.

أو أنّهم يؤمنون بوجود إله غير شخصاني.

ويقول بعضهم في هذا المجال: إنّ ما يقال من أنّ العلم لا يتناقض مع الدين، لأنّ العلم يبحث في كيفية عمل الأشياء، بينما الدين يبحث في الغاية من وجودها، هذا غير صحيح، ذلك أنّ العلماء يتمتّعون بالحياة ويؤمنون بوجود غاية ما لها، وإنْ كانت الغاية عبارة عن أعمال يوميّة يعملونها، حتّى إنّ أحدهم قال: «لا أعتقد أنّنا موجودون لغاية ما..، -وهذا كلام جيمس واتسون (James Watson)- بل نحن حصيلة طبيعيّة للتطوّر».

فقال له أحدهم: لابدّ أنّ حياتك تعيسة جداً، لعدم اعتقادك بوجود معنى لحياتك!

فأجاب: «لكن لحياتي معنىً، فأنا أتوقّع وجبة غداء جيّدة على أيّة حال..أي إنّ توقّعي للغداء يعطي لحياتي معنى».

ويقول بعضهم: إنّ من بين مجموعة العلماء المسيحيين الحاصلين على جائزة نوبل في بعض العلوم، هنالك ستة أسماء صرّحوا بأنّهم يؤمنون بالمسيحيّة، من أصل المئات من العلماء الحاصلين على الجائزة، كما أنّ نسبة كبيرة من أعضاء الأكاديميّة البريطانيّة لا يؤمنون بوجود الله، وهذا يدلّ على أنّ نسبة التديّن ترتفع عند غير المثقّفين.

والجواب:

أوّلاً: مسألة الإيمان بالله، هي قضيّة شخصيّة كما هي قضية عامّة، فلو افترضنا أنّ كلّ من في الأرض كفر بحقيقة ما، فهل علينا أن نكفر بها لأنّ الأكثريّة كفروا بها؟

ثانياً: هل إنّ بقيّة المسائل أيضاً تُؤخذ هكذا؟ يعني هل نحن نذهب ونسأل: كم من الناس يؤمنون بنزول الإنسان على سطح القمر؟ فإذا كانت الأكثرية لا

تؤمن بذلك نقول: إنّ ذلك كذب ولم يحدث أن وطئ أحدٌ ما تراب القمر!

إضافة إلى أنّ هذا الكلام غير صحيح، نعم إنّ أكثريّة أعضاء الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم في بعض البلاد مثل بريطانيا ربّما يكونون غير مؤمنين، لكن نسبة المؤمنين في الولايات المتحدة الأمريكيّة، من العلماء وأعضاء الأكاديميّات الكبرى، هو ٩٠٪، فلماذا نأخذ إحصائيّة بريطانيا مثلاً، ولا نأخذ إحصائيّة أمريكا؟!

ونحن نعرف أنّ الولايات المتحدة الأمريكية متقدمة على بريطانيا علميّاً.

ثمّ إنّ بعض من يُتّهمون بأنّهم كافرون، من العلماء وأصحاب الشهادات العليا، يُؤمنون بوجود الله ولكن لا يُؤمنون ببعض التفاصيل فيما يرتبط بعالم الآخرة، أي بالجنة وبالنار وبالحساب والكتاب، وربّما إنّ بعضهم يؤمن بالله لكنّه ليس هو رجل دين حتّى يذكر اسم الله في كلّ صغيرة وكبيرة.

فالطبيب مثلاً شغله أن ينظر في جسم المريض، وأن يسأله عن طعامه وشرابه وأكله ونومه، وليس شغله أن يسأله: هل تؤمن بالله أم لا؟ فإذا رأينا أنّ الأطباء قلّما يتحدثون عن الله، أو لا يذكرونه حينما يباشرون الطب، فليس معنى ذلك أنّهم يكفرون بالله.

عن وجود الله وليس الأحكام الدينيّة

يقول الملحدون: إنّ العلم يعطينا الكثير من الأمور النافعة، لكن الدين لا يستطيع أن يقدّم أيّ شيء للإنسانيّة، بل إنّه يقدّم مايضرّ بها، فمثلاً نجد في كتاب الإنجيل أو التوراة أحكاماً قاسية مثل عقوبة الموت على ممارسة الجنس خارج إطار الزوجيّة، وعقوبة جمع الحطب يوم السبت، وعقوبة عقوق الأهل، وما شابه ذلك.. هذه أمور لا يمكننا أن نقبلها.

الجواب: كلّ ما في الدين ينفع الإنسانية، ولا يجوز أن تأتي بكتاب معيّن مثل كتاب التوراة أو الإنجيل، وهما كتابان فيهما بحث ونقاش حول أصولهما

وصحّتها، ثمّ تستند عليها في رد الدين، أو إذا لم تكن راضياً بحكم من الأحكام فتستشهد به -دون النظر إلى المنظومة الكاملة من الأحكام الدينيّة- على أنّ الله غير موجود.

إنّ حديثنا هو حول وجود الله، وليس عن الأحكام الدينيّة.

عن وجود الله وليس عن أعمال الناس

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين بالله كثيراً ما يناقضون أنفسهم، فهم يفترضون أنّ قيم الدين تعلو على أيّ شيء آخر، ولكنّهم يقتلون الأبرياء! مع أنّ كتابهم المقدّس يعتبر الاعتداء على شخص واحد اعتداءً على الحياة كلّها، كما أنّهم يثورون إذا أُهين نبيّهم، وفي الوقت نفسه يهينون مقدّسات الآخرين!

وقد لاحظ كثيرون التباين بين ادّعاء المسلمين بجرح مشاعرهم عندما نشر رسّامون دنماركيون صوراً مسيئة لنبي الإسلام، بينما هم ينشرون صوراً معادية لأصحاب الديانات الأخرى!!

الجواب: الحديث عن الإيمان والإلحاد هو حديث عن وجود الله، وليس حديثاً عن أعمال المؤمنين بهذا الدين أو ذاك أو أعمال الملحدين، لأنّنا إذا كنا نتحدّث عن عمل طائفة هنا وطائفة هناك، فهذه الأعمال تخضع للمقاييس الأخلاقيّة، مع قطع النظر عن عقائد أصحابها؛ فحين نحاكم قاتلاً، نحاكمه لقتله بريئاً، ولا نبحث في معتقده.

والملاحظ دائما أنّ الملحدين حينما تعوزهم الأدلّة يذهبون إلى بعض المواقف التي تصدر من بعض المؤمنين، ويقولون: لو كان الله موجوداً لما ارتكب المؤمنون هذا العمل!!

لكننا حين نراجع الكتب المقدّسة عند الديانات السماويّة كلّها نجدها لا تنفي عن المؤمنين بالله وقوعهم في الخطأ، أو ارتكاب الجرائم، وكلّ تلك الكتب تُدين

الشَّر والظلم، مع قطع النظر عمّن ارتكبه.

كما أنّ ذلك لا ربط له بمسألة وجود الله أو عدم وجوده، فإذا كان المؤمنون يناقضون أنفسهم فهذا معناه أنّهم مدانون بحسب نفس القيم الدينيّة التي يؤمنون بها، ولذلك لا يمكن أن نضع ذلك بحساب الدين نفسه.

ثمّ نسأل: هل إنّ تناقض المؤمنين في أعمالهم دليل على عدم وجود الله؟!

وهل أنّ ذلك يدل على أنّ ترك الدين أفضل للبشريّة؟!

أليس للدين جوانب إيجابيّة كثيرة، في منع الناس من ارتكاب الجرائم، وفي دفعهم إلى القيام بأعمال الخير؟!

إنّ من السخف بمكان أن يقول الملحد: إنّ المتدينين يقومون بأعمال غير صحيحة إذن فالله غير موجود!

ولماذا ينكر هؤلاء كلّ تلك الأعمال الصالحة التي يقوم بها أتباع الديانات والمواقف الصحيحة التي يتّخذونها مدفوعين بقيم الدين؟!

كيف يتنكّرون لكلّ ذلك ويبحثون عن بعض ما يقوم به هذا أو ذاك ممّا لا يرضى عنه الدين نفسه، ويعتبرون ذلك دليلاً على عدم وجود ربّ العالمين؟!

ثمّ هل أنّ جميع أفعال الملحدين تنفع البشريّة أم أنّها تساهم في تدمير المجتمعات؟!

وجود الله لا ارتباط له بأخطاء الأشخاص

يقول الملحدون: يدّعي بعض آباء الكنيسة بأنّ أيّ شخص لا ينتمي لجمهور الكنائس فهو من الضالين، وبذلك يستدلّون على أنّ هذه هي نظرة الدين، ومن خلال ذلك يحاولون إدانة فكرة وجود الله.

الجواب:

أوّلاً: لا ارتباط بين الأمرين؛ فإنّ وجود الله تعالى حقيقة تدعمها ألوف الأدلّة

والبراهين العقليّة والوجدانيّة والفطريّة، ومن خلال الآيات الباهرة التي لا يمكن إنكار وجودها في النفس وفي الكون. أمّا أنّ هنالك نصّاً في هذا الكتاب أو ذاك لا يتلاءم مع فطرتنا ومع القيم الأخلاقـيّـة، فهذا أمر آخر لابدّ من مناقشته لمعرفة هل هو صحيح أو غير صحيح.

ثانياً: إنّ تصرف بعض آباء الكنيسة الخاطئ ليس دليلاً على عدم وجود الله، ولا هو دليل على أنّ الديانات ليست ضروريّة للبشريّة، ولا يجوز أن نحسب ذلك على الدين، لأنّ ذلك خطأهم لا خطأ الدين.

كلّهم يبحث عن اللّه!

يقول أحدهم: إنّ واحداً من أقراني في الجامعة ذهب للتدخين في جزيرة من الجزر الأسكتلندية، وفي منتصف الليل استيقظ مع صديقته داخل الخيمة على صوت شيطان، حيث كان إبليس بذاته، فمن دون شكّ ولا ريب إنّ الصوت كان شيطانيّاً بكلّ تفاصيله، لم ينس صديقي تلك التجربة المرعبة، وقد كانت أحد الأسباب التي دفعته لاحقاً ليصبح قسّيساً، وقد تركت قصّته انطباعاً قويّاً عندي في فترة شبابي.

يقول الرجل: فرويت ذلك على مجموعة من علماء الحيوان، وكان فيهم اختصاصيان بعلم الطيور فانفجرا بالضحك قائلين: هذا هو طائر النورس، ذو الصوت الشيطاني، وثرثرة ذلك الطائر أكسبته اسم طائر الشيطان، وهو نفسه الاسم في أماكن مختلفة من العالم واللغات المحليّة لأهل تلك المناطق.

يقول الملحدون بعد أن يذكروا هذه القصة: إنّ كثيراً من الناس الذين ربّما ترآى لهم أنّهم سمعوا صوت الله، أو رأوا رؤيا ترتبط به، أو شاهدوا بعض الملائكة، كلّها من هذا الباب، يعني كما أنّ الرجل سمع أصوات الطيور فظنّ أنّها أصوات الشياطين، كذلك الأمر فيما يرتبط

بالذين يؤمنون بالله عن طريق تجربة شخصيّة مرّوا بها، أي من خلال رؤيا، أو من خلال سماع أصوات، أو من خلال ملاقاة الملائكة أو ما شابه ذلك، فلا الشيطان موجود، ولا الربّ.

الجواب: إنّه من السخف بمكان أن يدّعي أحد بأنّ هذا العدد الهائل من المؤمنين، من العلماء والمفكّرين والمثقّفين والأساتذة والأطباء ومن أشبه، كلّهم كانوا قد توهّموا شيئاً، أو سمعوا صوتاً، فظنّوا أنّه صوت من أصوات الملائكة، أو رأوا رؤيا فآمنوا بالله.

إنّ الإيمان بالله مزروع في قلوب الناس، وهو فطرة في نفوسهم، ولذلك فإنّ كلّ الناس على الإطلاق -بما في ذلك الملحدون- يبحثون عن وجود الله؛ أمّا الملحد فهو يريد أن يثبت أنّه لا وجود له، وأمّا المؤمن فيبحث عن ربّه، لكي يعرفه ويعبده. إذن ما من أحد إلّا وفي نهاية المطاف يدور فكره حول الإيمان بالله.

بالإضافة إلى ذلك فإنّنا لا ننكر وجود بعض من يتخيّل شيئاً أو يرى شيئاً، فيظنّه شيئاً آخر، وهذا ليس مرتبطاً بوجود الله فقط، بل يحدث في أيّ شيء آخر، فكم من أناس ذهبوا وراء بعض العلوم المهمّة، وفي ذلك المجال تخيّلوا أشياء ولم تكن صحيحة، فهل معنى ذلك أنّ تلك العلوم غير صحيحة؟!

وكم من أشخاص تخيّلوا أنّهم أصبحوا أطباء ولم يحدث ذلك لهم، فهل معنى ذلك أنّ الطب علم وهمي مثلاً؟

كم من أشخاص يعطشون في الصحراء، ولا يجدون الماء، فيرون السراب، وحينما يصلون إليه لا يجدونه شيئاً، فهل معنى ذلك أنّ الماء الحقيقي غير موجود، لأنّ البعض توهّم الماء ولم يكن موجوداً؟

تبرير الإجرام

يقول بعض الملحدين: المشكلة ليست في أن يتخيّل أحد شيئاً، أو يسمع صوتاً، أو يرى شبحاً فيظنّ أنّه من الملائكة وأنّ ما سمعوه هو

صوت الله.

إنّما المشكلة تحدث عندما يظنّ بعض هؤلاء أنّ الله عزّوجلّ أوحى إليهم بارتكاب بعض الجرائم، مثلاً: رجل من يوركشاير (Yorkshire) في بريطانيا اسمه بيتر سوتكليف (Peter Sutcliffe) هذا قتل الكثير من النساء، وادّعى بأنّه سمع المسيح يقول له بأن يفعل ذلك، وبالطبع فإنّ الرجل اعتُقل وحكم عليه بالسجن المؤبّد.

كذلك الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الامريكيّة جورج بوش (George W. Bush) ادّعى بأنّ الله هو الذي أوحى إليه بأن يحتلّ العراق، تحت ذريعة وجود أسلحة الدمار الشامل.

ويقول هؤلاء: إنّ الذي أوحى إلى بوش باحتلال العراق لماذا لم يُوحي إليه بأنّ أسلحة الدمار الشامل غير موجودة هناك؟

الجواب: إنّ مثل هذه الأمور هي مجرّد ادّعاءات، فلا بيتر سوتكليف (Peter Sutcliffe) الذي قتل النساء استطاع أن يثبت بأنّه سمع صوت المسيح وهو يأمره بذلك، ولا جورج بوش (George W. Bush) باستطاعته أن يثبت بأنّه سمع الله يقول له ذلك.

هذا مجرّد ادّعاء، ومثله كثير في التاريخ فربّما يدّعي أيّ مجرم أو أيّ قاتل مثل ذلك، فهل معنى ذلك بأنّ الله غير موجود لأنّ البعض ادّعى هذا الأمر؟

تُرى، لو أنّ أحداً ارتكب جريمة قتل، ثمّ ادّعى بأنّ رئيس الجمهوريّة هو الذي أمره بارتكاب جريمته، فهل معنى ذلك أنّ رئيس الجمهورية وهمٌ وليس له وجود؟ أو أنّه يجب القضاء عليه لأنّ الرجل ادّعى بأنّه سمع صوته وأمره بارتكاب الجريمة؟ هذه أمور من الواضح أنّها مغالطات، وإذا كان الملحدون يريدون التوسّل بأمثال هذه القضايا لإثبات إلحادهم فعلى العلم ألف سلام، وعلى العقل ألف تحية.

الإيمان بالله والتجارب الشخصيّة

يقول الملحدون: إنّ بعض الذين يؤمنون بالله يستندون إلى تجارب شخصيّة، فأحدهم يقول: سمعت صوت الله في داخل نفسي، والثاني يقول: مررتُ بتجربة شخصيّة حدثت لي فيها معجزة وهكذا.. وهذه الأمور إن كانت صحيحة لماذا لا تكون عامّة لكلّ الناس؟ إضافة إلى أنّها لا تكون حجّة لغير من يمرّ بهذه التجارب.

الجواب:

أوّلاً: لا يوجد أحدٌ في هذه الحياة إلّا ومرّ بتجربة ما دفعته إلى الإيمان بربّه، إلّا أنّ البعض يكابر ويتنكّر، ويستحبّ العمى على الهدى، والبعض الآخر لايكابر ضميره فيعترف بربّه.

ثانياً: مسألة التجربة الشخصيّة هي واحدة من المئات من الأدلّة على وجود الله تعالى.

فحينما نقول إنّ الله موجود، فنحن نستند إلى وجود الكون، وإلى آيات الله في الخلق، وآياته في النفس، فكلّ نبتة في الأرض تدلّ على ربّها، وكلّ نسمة هواء تدلّ على وجود خالقها، وليست التجربة الشخصيّة ومرور البعض بحوادث معيّنة تدلّه على ربّه، هي وحدها الدليل على وجود الله عزّوجلّ.

الخيال لا ينفي الواقع

سؤال: قد يقول قائل: إنّ تخيّل شخص لأمر ما، أو محاكاة عقله لصوت ما أمر ممكن، لكن ماذا عمّا يراه جمع كثير من الناس؟

حينما يحدث أمر ما لجمع من الناس، كالواقعة التي حدثت في البرتغال في منطقة ليدي فاطمة، حيث إنّ سبعين ألف من الناس زعموا أنّهم رأوا الشمس ترقص، فهل هذا مجرّد خيال؟

يقول الملحدون: أيّهما أقرب إلى العقل: أن نقول إنّ النظام الشمسي قد انهار بدون أن يشعر أحد خارج منطقة ليدي فاطمة بالموضوع، أو أن نقول إنّ هذه كانت مجرّد تخيّلات حتّى ولو أتت على لسان جماعة من الناس؟

الجواب: نعود لنقول: إنّ تخيّل شخص واحد، أو تخيّل مجموعة لأمر من الأمور لا يختلف في أنّه لا ينفي الواقع، كما أنّه ليس بديلاً عنه.

وجود اللّه عزّوجلّ

هل الإيمان بالله وهم؟

البعض يقول: إنّ الإيمان بالله هو إيمان بالوهم، أي إيمان خاطئ أو على الأقل مزّيف.

الجواب: لماذا؟!

هل لأنّ البعض يعجبه أن يرى الإيمان بالله وهماً، فيصبح ذلك وهماً!

ماذا لو أنّ أحداً قال: الإيمان بوجود الشمس إيمان بالوهم؟!

يقول الملحدون: طبيعي أنّنا حينئذٍ نضحك من كلامه، لأنّ الشمس واضحة للعيان.

ولكن هل إنّ إيماننا بوجود الشمس إنّما هو بسبب أنّ أعيننا ترى الشمس فقط، فإذا لم نكن نراها فهو وهم؟!

فهل الأعمى يحق له أن لا يؤمن بوجود الشمس مثلاً لأنّه لا يراها بعينه؟ وفي الليل هل يجوز لنا أن نكفر بوجود الشمس لأنّنا لا نراها؟

إنّ رؤية العين وسيلة من وسائل الإيمان، وليست هي الوسيلة الوحيدة.

ألا نؤمن بوجود بشر عاشوا قبل ألف سنة، مع أنّنا لا نراهم؟!

إنّ سبب إيماننا بوجود الأشياء ليس بالضرورة لأنّنا نلمسها ونراها، أو نتذوّقها، فهذه مجرد وسائل.

فإذا كان عقلك يقول لك: لا يوجد مصنوع من دون صانع، فإنّ عليك أن

تؤمن بما لا تراه عينك، لأنّه مصنوع.

أفليس وجود الشمس إذن دليلاً على وجود من صنعها؟

الملحدون يقولون: من قال: (لا وجود للشمس، وأنّ الشمس وهم) لابدّ أن نضحك على عقله، لأنّ الشمس موجودة.

ونحن نقول: إنّ من يقول إنّ الذي خلق الشمس غير موجود، لابدّ أن نضحك على عقله أكثر لأنّه يلغي عقله، فهو في الوقت الذي يؤمن بما تراه عيناه، يكفر بما يأمر به عقله!

هذه الأرض تسقط عليها أشعة الشمس لكنّها لا تؤمن بوجود الشمس، لأنّها لا تملك عقلاً، أمّا أنت فتملك العقل فحينما ترى الشمس تقول: إنّ الشمس موجودة، ونفس عقلك هذا يقول لك هنالك من صنع الشمس، وهي لم تكن فكانت، فمن صنعها؟

مما لا شكّ فيه أنّنا في رحلة بحثنا وتأمّلنا في هذا الكون لابدّ أن نصل إلى نتيجة ما، وأن نحدد خياراتنا، وكما يقول روي فارجيس(Roy Varghese) فإنّ علينا: «أن نختار موجوداً قديماً أزليّاً لا مُوجد له؛ إمّا الإله، وإمّا الكون.

فإذا إخترت الكون (كباقي الملحدين)، عليك أن تقبل بوجود كون مادي أزلي قديم لا مُوجد له، ولا تسأل لذلك عن تفسير.

أمّا إذا اخترت الإيمان بأنّ الإله هو موجود أزلي، مع أنّنا لا نملك لوجوده تفسيراً، فإنّي أرى أنّ ذلك أمر منطقي، ذلك لمحدوديّة قدراتنا العقليّة وعجزها عن إدراك حقيقة الإله، وليس ذلك بغريب، خاصّة وأنّنا عاجزون عن إدراك حقيقة أنفسنا»[1].

---

(١) شريف، د. عمرو: رحلة عقل.. هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، ص١١٣، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠١١م.

لماذا لا ندرك الله بالحواس؟

يقول بعض الملحدين: لماذا لا يثبت لنا الرّب وجوده عن طريق حواسنا الخمس، حتّى لا ينكره أحد؟

أليس الناس يؤمنون بالأشياء من خلال ما يرونه بأبصارهم، أو يسمعونه بأسماعهم، أو يشمّونه بأنوفهم، أو يتذوّقونه بألسنتهم، أو يلمسونه بأيديهم؟

بينما ينكرون في العادة وجود شيء لا صورة له، ولا صوت، ولا حجم، ولا شكل.

فلو أنّ أحداً قال لك: إنّ هنالك كرة ملتهبة في السماء، اسمها الشمس، فأنت تتطلع إلى الآفاق، فإذا رأيت الشمس صدّقت بوجودها.

أو قال لك أحد: إنّ وراء هذا الجدار شخص، وطلب منك أن تنتبه إلى صوته، فسمعته يتكلّم بالفعل، فأنت تصدّق بوجوده.

وهكذا بالنسبة إلى بقية الأمور التي يؤمن الجميع بها.. أمّا بالنسبة إلى الله، فنحن لا نبصر له شخصاً، ولا نسمع له صوتاً، ولا مجال للمسه، أو شمّه.

فكيف تطالبوننا بالإيمان به؟

الجواب: قبل كلّ شيء نقول: إنّ إيماننا بوجود الأشياء، من خلال الحواس الخمس، إنّما هو لأنّ العقل يقول بوجودها، والحواس ليست إلّا وسيلة لذلك.

فأنت حينما تؤمن بوجود الشيء الذي تراه، فليس لأنّه يدخل في عينيك، وإنّما لأنّ الضوء ينعكس منه إلى عينيك، فتؤمن به بعقلك.

فأساس الإيمان بالأشياء التي نراها هو العقل، والبصر ليس إلّا وسيلة من

وسائل العقل.

وكذلك بالنسبة إلى ما نؤمن بوجوده لأنّنا نسمعه، أو نلمسه، أو نشمّه، أو نلحسه.

فالعقل السليم يقول لك: إنّ ما تراه، أو تسمعه، أو تتذوّقه، أو تلمسه، أو تشمّه فهو موجود، ففي نهاية المطاف نحن نؤمن بوجود الشيء بعقولنا، ولكن الوسيلة هي الحواس الخمس.

فإذا كان هنالك شيء يحكم العقل بوجوده، بوسيلة العقل مباشرة، دون واسطة هذه الحواس، فلابدّ من الإيمان به بطريقة أولى.

ألا ترى أنّنا نؤمن إيماناً قطعيّاً بأمور كثيرة لأنّ العقل يحكم بها، من دون المرور بالحواس الخمس، أو نرفض الإيمان بأمور كثيرة لأنّ العقل ينكرها من دون الحاجة إلى الحواس أيضاً، فمثلاً أنت تؤمن بأنّ السيارة أكبر من أجزائها، لأنّ عقلك يحكم أن الكلّ أكبر من الجزء، فهذه قاعدة عقليّة لا ارتباط لها بالحواس الخمس.. أو تؤمن بأنّ الأخلاق الحسنة جميلة، وأضدادها قبيحة، فالصدق جميل والكذب قبيح، وإيمانك بذلك ليس لأنّك رأيت الصدق جميلاً فقبلته، أو الكذب قبيحاً فكرهته، أو أنّك لمستها بيدك، فآمنت بذلك.

إنّ هنالك أموراً بديهيّة لا حاجة للإيمان بها إلى الحواس الخمس؛ فلو أنّ أحداً قال لك إنّه قادر على حمل مياه البحر في كفّه، فهل أنت بحاجة إلى الحواس الخمس لترفضه؟

أو إذا قال لك إنّه يحمل في ساعته اليدويّة جسم زرافة حيّة طول رقبتها ثلاثة أمتار، وطول جسمها متران، فأنت لن تصدقه، ولا تحتاج إلى الاستعانة بالحواس الخمس لترفض الإيمان بذلك.

فأنت تتعامل مع هذه الأمور من خلال العقل، حيث إنّ للعقل أحكاماً تسمى بالقواعد العقليّة، وهي أمور تحكم بها عقولنا مباشرة.

ومن أهمّ تلك القواعد: ما يحكم به العقل من أن كلّ مصنوع له صانع، وكلّ

ترتيب له مدبّر، وكلّ مربوب له ربّ.

فعندما ترى سيّارة في الشارع وفيها آثار «الصنعة»، أو حينما ترى بيتاً جميلاً فيه غرفة نوم مرتّبة، وستائر معلّقة، ومسبحاً جميلاً، وحديقة غنّاء، وطيوراً في أقفاص، ومطبخاً قد وضع كلّ شيء في مكانه، فإن عقلك يقول: إنّ شخصاً حكيماً قادراً صنع كلّ ذلك بتصميم مسبق، وخطّة محكمة.

ولا يمكن أن تنكر وجود «مصمم ذكي» للسيارة، أو للبيت لأنّك لم تره، ولم تسمع له صوتاً، ولم تشم ريحه، أو لم تلمس جسمه.

ولا يمكن أن نقول هنا أنّ الصدفة هي التي صنعت ذلك، لأنّ الصدفة يمكن أن تؤدّي إلى تجمّع قطع من الحديد في مكان ما، ولكنّها لا يمكن أن تصنع سيارة، والصدفة يمكن أن تصنع حفرة تتجمّع فيها المياه في الصحراء، لكنّها لن تصنع بركة جميلة فيها أضواء ملوّنة، وصور جميلة!

إنّ الصدفة يمكن أن تؤدّي إلى تجمّع قطع من الزجاج في الشارع، لكنّها لن تصنع أدوات المطبخ من قدور، وأقداح، وكؤوس موضوعة في أماكنها.

إنّ للعقل أحكاماً قاطعة لا شكّ فيها، ونحن نتعامل مع الحياة بحسب تلك الأحكام، فكيف يجوز لنا أن نلغي تلك الأحكام حينما يرتبط الأمر بوجود هذا الكون العظيم؟ وقد وضع كلّ شيء فيه في موضعه، كون شديد الاتقان يعجز البشر عن صنع مثله، بل عن صنع جزء صغير منه كالذبابة، ولو اجتمعوا له، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1].

تُرى، هل يعقل أنّ من خلق هذا الكون، وفيه ملايين الأنواع من الكائنات الحيّة، ووضع مليارات الأجزاء في أماكنها، لم يكن يعرف ما يفعل؟ ولم يكن يقدر على شيء؟

---

(١) سورة الحج: ٧٣.

هل يقبل أيّ عاقل أن يؤمن بأنّ الصدفة يمكن أن تصنع إبريق شاي، وتملأه بالماء، ثمّ تضعه على النار في حرارة مناسبة، ثمّ تصبّ الشاي في كؤوس، وتضع الكؤوس في صينيّة، وتضع مقداراً مناسباً من السكر فيها، وتضع إلى جانبها ملاعق؟

هل يمكن أن يحدث ذلك بالصدفة؟

مجرد ترتيب إبريق للشاي لا يمكن أن يحدث بالصدفة، فكيف حدث كلّ هذا الترتيب والتنظيم في هذا الكون بالصدفة؟ وهل نحتاج إلى الحواس الخمس لمعرفة ذلك؟

◂ ما هو الدليل على وجود الله؟

سؤال: يقول الملحدون إنّ مسؤوليّة البرهان على وجود الله تقع على عاتق المؤمنين به، فمن يقول بأنّ الله موجود فلابدّ أن يأتي بالدليل، أمّا الذي ينكره فليس عليه أن يثبت ذلك.

الجواب: صحيح أنّ على المؤمنين أن يأتوا بالبراهين على وجود الله عزّوجلّ، وهذا ما فعلوه على مرِّ التاريخ، ذلك أنّ آيات الله تعالى ودلائل وجوده وعلمه وحكمته وقدرته موجودة في آفاق السموات وفي أعماق الأرض وفي نفوس الناس، ونحن من نثبت وجود الله عزّوجلّ بألوف الأدلّة، وليس بدليل أو دليلين، ولكن أن يقول أحدٌ ما: إنّ هذا الدليل لم يثبت لي أو لم يقنعني فهو لا يكفي لتبرير إلحاده أبداً، لأنّ قضية بهذا الحجم ترتبط بمصير الإنسان النهائي، لا يجوز أن يمر عليها المرء مرور الكرام، أو يقول إنّ هذا الدليل أو ذاك لا يثبت لي شيئاً!!

فمن يُقال له: إنّ هنالك شمساً تشرق كلّ صباح، وتغرب كلّ مساء، وترشّ دفئها ونورها على المنظومة الشمسيّة، بدليل وجود آثارها الموجودة في كلّ مكان.

فيردّ قائلاً: هذا لم يقنعني بوجود الشمس، فهو إمّا سفيه أو مكابر، أو غافل!

ذلك أنّ دليل وجود الشمس إنّما لم يقنعك لأنّك لم تحاول أن تشغّل عقلك،

ولا أن تنظر إلى آثارها، فلا يجوز أن يذهب أحدهم إلى مغارة مظلمة، ويغلق على نفسه مدخلها، ثمّ يقول: «إنّي لا أرى شمساً، ولم أر نوراً ولا دفئاً، فلا وجود للشمس».

نحن نطالب الملحدين بأن يتأمّلوا الكون، ويتفكّروا في عجائبه، وأن يستخدموا عقولهم حينما نذكر لهم أدلّة وجود الله، وأوّل هذه الأدلّة هو وجود الكون ووجود أنفسهم.. فمن أين جاء الكون إذا لم يكن له خالق؟ ومن أين جاؤوا هم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[(١)]؟

لنذكر هنا جانباً يسيراً من عجائب الخلق، والتي تدلّ بكلّ وضوح على وجود الخالق القادر:

- الأرض هي الكوكب الوحيد في مجموعتنا الشمسيّة الذي يحتوي على الماء بحالاته الثلاث (الغازية- السائلة-الصلبة)، والماء هو السائل الوحيد الذي تقل كثافته بالتجمد!، لذلك يطفو الثلج على سطحه، وفي الدائرتين القطبيتين يحجب الثلج الماء الذي تحته، فتظل حرارته دون درجة التجمد، وتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة.

ويستجيب الماء بشكل مثالي لظاهرة الخاصيّة الشعريّة (Capillarity)، وهي معجزة في هيئة قانون طبيعي، فهي تسمح للماء بالحركة لأعلى في طبقات التربة، كما تسمح بصعوده في سيقان الأشجار من الجذور إلى الأوراق عكس قوّة الجاذبيّة الأرضيّة، وقد قدّر البيولوجيّون كمية الماء التي تصعد في شجرة ارتفاعها ثلاثون متراً بحوالي ٤٠٠ لتر في الساعة، هل تستطيع أن تتخيل مقدار الطاقة المطلوبة، وكذلك الضوضاء التي تسبّبها مضخّات تستخدم لهذا الغرض في غابة مليئة من هذه الأشجار[(٢)].

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٤٥-١٤٦.

- تبصر العين البشريّة سبعة ألوان أساسيّة (ألوان الطيف)، تختلف في تردداتها وأطوال موجاتها، وتحوّل شبكية العين هذه الموجات إلى شفرة كهربائية، ينقلها العصب البصري إلى مراكز الإبصار، حتّى تصل إلى القشرة المخيّة التي تقوم بفك هذه الشفرة وترجمتها إلى ألوان، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتم المزج والتداخل بين موجات هذه الألوان السبعة، لتجعلنا نبصر عدداً لا حصر له من الألوان التي يبتدع الإنسان المزيد منها كلّ يوم.
- يحدث الشيء نفسه عند تذوّقنا للطعام فبراعم التذوّق في ألسنتنا تحسّ بأربعة مذاقات (الحامض- الحلو-المر-المالح)، وتترجم البراعم هذه المذاقات إلى نبضات كهربائية (تشفير) تصل إلى مراكز التذوق في المخ، حيث يتمّ فك الشفرة، ويتمّ المزج والتداخل بين هذه المذاقات الأساسيّة لنحصل على ما لا نهاية له من مذاقات الأطعمة المختلفة التي يتناولها البشر جميعاً باختلاف عادات بلادهم الغذائيّة[1].

ما أجمل كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حينما يتحدّث عن الله، ويا ليت أنّ الملحدين يُصغون إلى هذا الكلام الرائع:

«الحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَه»[2].

«هُوَ اللهُ الحَقُّ المُبِينُ، أَحَقُّ وَ أَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا، خَلَقَ الخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، ولَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ..»[3].

ثمّ «إنّ رفض الإقرار بوجود الإله الخالق يتطلّب من الناحية العلميّة قبول:

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٩٥.

(٢) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة: ١٥٢.

(٣) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة: ١٥٥.

-أنّ الكون قفز إلى الوجود من العدم بدون مسبب.

- أنّ النتيجة يمكن أن تكون أكبر من السبب.

- أنّ النظام يخرج تلقائيّاً من الفوضى.

- أنّ قوانين الطبيعة وضعت نفسها.

-أنّ الحياة تنشأ تلقائياً من المادة غير الحيّة»(١).

وكلّ هذه الافتراضات مستحيلة وغير مقبولة، فإن كان المطلوب من المؤمنين أن يبيّنوا أدلّتهم على وجود الله تعالى فإنّ المطلوب أيضاً ممن يدّعون أنّهم مع العلم أن يثبتوا لنا هذه الفرضيات المستحيلة والتي أثبت العلم استحالة تحققها.

إبريق الشاي الطائر

يقول الملحد ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion): «إنّ رب الربوبيّين، والذي غالباً ما يتمّ ربطه بالآباء المؤسّسين في الولايات المتحدة الأمريكيّة، هو بلا شك أفضل من المتوحّش المذكور في الإنجيل، ولكنّه للأسف أيضاً بالكاد هو موجود أو وُجد يوماً ما، وعلى أيّ حال فإنّ نظريّة وجود الله بأيّ شكل من أشكالها ليست ضرورية»(٢).

الجواب: لاحظ كيف أنّ الملحدين يكتفون بالادّعاء دون دليل وحجّة.

فالرجل يقول بأنّ مسألة وجود الله ليست ضروريّة، وفي نظره فإنّ هذا الادّعاء يكفي كدليل على أنّ هذه العقيدة غير ضرورية!

فهو لا يذكر أيّ دليل على ما يقول، وإنّما يطلق ادّعاءً ويعتبر ادّعاءه دليلاً على

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٣٨.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٨.

مدّعاه. ترى لو جاء أحد وقال بالعكس: إنّ عقيدة وجود الله عزّوجلّ ضروريّة جداً لحياة الناس، فهل يكفي ذلك عند الملحدين كدليل على وجود الله؟ فلماذا يستعملون العكس ويستشهدون بذلك؟

◂ مقارنة الوهم بالحقيقة!

يقول الملحدون: إنّ مسألة وجود الله من عدمه مثل فرضية وجود إبريق شاي بين الأرض والمريخ، وكما أنّ هذا الادّعاء مسألة تخضع للنقاش، ويمكننا أن نسأل هل هذه حقيقة أم لا؟ وليس من حقّنا منع التشكيك في وجوده، كذلك مسألة وجود الله؛ فلا يجوز منع التشكيك في وجود الله، لأنّ المسألة هنا مثل تلك.

يقول برتراند راسل (Bertrand Russell): «لو أنّني قلت بأنّ هنالك إبريق شاي صيني بين الأرض والمريخ يدور حول الشمس بمدار اهليجي، فلن يستطيع أحد أن يُبرهن على أنّني مخطئ.. ولو أنّني قلت: بما أنّ زعمي لا يمكن نقضه فإنّني لا أقبل أن يشكّ أحدٌ في صدقه.. سيكون كلامي جزافاً، ولكن لو كان وجود هذا الإبريق موثّقاً في الكتب القديمة، ويُدرّس بقدسيّة كلّ يوم أحد، ومغروس في رؤوس الأطفال في المدارس، فإنّ مجرد التردد في قبول وجوده من شخص ما سيضعه مع فئة غريبي الأطوار، ويستحق اهتمام طبيب نفسي في العصر الحديث، أو القاضي في أزمنة خلت»[1].

الجواب: كلا، بل المسألتان مختلفتان تماماً؛ فمسألة إبريق الشاي الصيني تستند إلى التخيّل فحسب، وهذه تختلف عن مسألة وجود الله تعالى، نحن نقول: لو ثبت أنّ هنالك فعلاً إبريقٌ من الشاي الصيني، ولا يزال ساخناً، وهو موجود بين

(١) Russell, Bertrand: Is There a God?. The Collected Papers of Bertrand Russell, Vol. 11: Last Philosophical Testament, 1943–68, P. 547–548, Routledge, 1997.

الأرض والمريخ، إذا ثبت ذلك فإنّنا نتساءل: من الذي صنع هذا الشاي؟ ومن الذي صبّه في الإبريق؟ ومن الذي وضعه بين الأرض والمريخ؟

القضية ليست قضية احتمال مستند إلى الخيال، مثل احتمال أن يكون هنالك إبريق شاي بل القضية هي وجود ذلك!

فوجود الشمس والقمر والأرض، والإنسان، والشجر، والحيوان، وبقية الكائنات كلّ ذلك ليس مجرد احتمال بل هي موجودة فعلاً، وسؤالنا هو: من أوجدها؟ ومن صنعها؟ ومن جعل الشمس كرة من النيران تلتهب منذ ملايين السنوات فترشّ الدفء المطلوب لوجود الإنسان في الأرض واستمرار حياته؟

ومن الذي جعل الأرض في هذا المدار المعين؟

ومن الذي جعلها تدور حول نفسها، فيتشكّل الليل والنهار، وتكون مائلة قليلاً حتّى تكون فيها فصول أربعة؟

إنّ احتمال وجود إبريق الشاي الصيني مجرّد احتمال، لكن فيما يرتبط بالله عزّوجلّ فهنالك مخلوقات بالملايين تدلّ على وجوده، وليس مثل الإبريق المحتمل.

◂ ازدواجيّة لا دليل عليها

يقول الملحدون: إنّ بعض المؤمنين يستندون في إيمانهم إلى بعض العلماء الكبار، فيقولون: لأنّ بعض العلماء في التاريخ آمنوا بالله فالإيمان بالله حقيقة.

«إنّ الغالبيّة الساحقة من الأذكياء المثقّفين لا يؤمنون بالدين المسيحي، ولكنّهم يخفون ذلك عن الجمهور، ذلك لأنّهم خائفون على مصدر رزقهم» كما يقول برتراند راسل (Bertrand Russell)[1].

الجواب: نحن لا يهمّنا مَن آمن بالله، ومن لم يؤمن، وإنْ كنا نرى أنّ أغلب

---

(1) Russell, Bertrand: Sceptical Essays, P. 169, George Allen & Unwin Ltd, 1928.

البشريّة تُؤمن بالله، بما في ذلك العلماء والمثّقفون.

إنّ اتّهام مَن يدّعي الإيمان بأنّه يخاف من الناس على مصدر رزقه، يعني أنّ العلماء الكبار كانوا مجموعة من الكذبة والدجّالين، لأنّهم كانوا يخافون على مصدر رزقهم فأخفوا الحقيقة وأظهروا الإيمان بالله، وهذا اتّهام باطل، لأنّه إذا صحّ هذا الكلام فإنّنا نقول: إنّ الذين يعلنون الإلحاد اليوم، ويرفعون راية الكفر، إنّما يفعلون ذلك ليس لأنّهم فعلاً ملحدون، وإنّما لأنّهم يجدون مصدر رزقهم في هذا العمل، فهم يكتبون الكتب في ذلك فيحصلون على الأموال من خلال هذه الكتب، فهم عندما عجزوا عن الحصول على مصدر رزق سليم التجأوا إلى مصدر غير سليم وهو إعلان الكفر، تماماً كما أنّ من لا يستطيع الحصول على الأموال عن طريق الحلال يتوسّل بالحرام، ومن لا يمكنه أن يعمل بالتجارة يسرق أموال التجّار.

من يستطيع أن يردّ على هذا الكلام، خاصّة وأنّ الادّعاء بأنّ الغالبية الساحقة من الأذكياء المثقّفين لا يؤمنون بالدين وأنّهم يخفون ذلك عن الجمهور، هذا الادّعاء لا يقوله مَن يدّعي أنّه يعرف حتّى يعرف ما في قلوب الناس.

راسل كان يكذب في ادّعائه هذا، وإلّا فإنّنا نسأله: هل أنت علمت بما في قلوب هؤلاء، وكيف علمت؟ فأنت الذي تنكر وجود الغيب، كيف تدّعي الغيب؟

ثمّ لنفترض جدلاً أنّ غالبيّة الطبقة المثقّفة هي كافرة بوجود الله تعالى، ثمّ ماذا؟ هل يغيّر ذلك من الحقائق في شيء؟

ألم يكن العلماء في وقت من الأوقات يؤمنون بأنّ الأرض مسطحة، فهل غيّر ذلك الإيمان الخاطئ كرويّة الأرض؟

◄ من خلق الله؟

يقول الملحدون: إذا كان كلّ موجودٍ له مُوجد، وأنّ الله موجود، وهو أعلى وأكثر علماً وحكمة وقدرة من الإنسان، وهو الذي خلق الحياة كما تقولون، فنحن نتساءل: من خلق الله؟

الجواب: نحن لا نقول أنّ كلّ موجودٍ لابدّ له من مُوجد، وإنّما نقول كلّ مصنوع له صانع، فما دامت الكائنات الموجودة كلّها تحمل أثر الصنعة، إذن فإنّ لها صانعاً، وهذا الصانع لا يمكن أن يحمل نفس صفات المصنوع، لأنّ الصانع لابدّ أن يكون بخلاف مصنوعاته؛ فهو غنيٌّ بالذات، وحيٌّ بالذات، والسؤال عمّن خلقه يكون خطأً وفي غيره محله.

على أنّنا إذا تنزّلنا عن هذه الحقيقة الواضحة، فقلنا: إنّنا لم نعرف مَن خلق الله، فهل هذا ينفي وجوده؟

أعود إلى المثال الذي ذكرته من قبل: لنفترض أنّ شخصاً يرسم على شاشة الكومبيوتر صورة بيت، ومجموعة من الكائنات، ثمّ يعطيها الوعي بحيث أنّها تعرف نفسها، ومن خلال معرفتها بنفسها ووعيها تطرح هذا السؤال: من صنعني؟ وبالطبع فإنّ الجواب سيكون: إنّه صانع أذكى منك.

فإذا سُئلت: مَن صنع هذا الكائن الأذكى منك؟ ولم تكن تعرف الجواب، فهل معنى ذلك أنّه ليس لها صانع؟!

إنّنا حينما نرى السيارات في الشارع، نعرف أنّ هنالك مهندسين وميكانيكيّين وعمّال وشركات ومصانع هي التي أنتجت هذه السيّارات.

ولو سُئلنا: من هم أولئك المهندسون والميكانيكيّون والعمّال، ومن أقام تلك المصانع؟ فإنّ الجواب هو: لا نعرف بالفعل من صنعها، فهل معنى ذلك أنّ السيارات ليس لها صانع، لأنّنا لا نعرف من الذي بنى المصانع التي أنتجتها؟.

يقول الدكتور عمرو شريف: «لقد قال لي أحد أصدقائي: لقد اقتنعت تماماً (عن طريق المنطق العقلي) بضرورة وجود الإله الأزلي، لكني ما زلت عاجزاً عن «تصوّر» موجود لا موجد له.

فقلت له: سببُ ذلك أنّنا دائماً عاجزون عن «تصوّر» أيّ شيء يختلف عما اكتسبناه في خبراتنا العملية، ونحن لم نقابل في حياتنا موجوداً لا موجد له؛ وهذا هو سبب العجز عن تصوّر الإله.

والعجز عن التصوّر يقابلنا في أمور أخرى كثيرة، فهل تتصوّر مثلاً أنّ خيط الدنا (DNA) (المادة الوراثيّة) الموجود في نُوَيَّات خلايا جسمك يمكنه أن يقطع المسافة من كوكب الأرض إلى الشمس أكثر من خمسة ملايين مرة؟ إنّ الحسابات الرياضيّة تثبت ذلك، أي أنّ المنطق العقلي يثبت ذلك، بالرغم من العجز عن التصوّر»[١].

نحن نقول كمثال بسيط: إنّ ملوحة كلّ شيء بالملح، ولكن ملوحة الملح هي من ذاته، كذلك فإنّ حياة كلّ شيء حيّ، ووجود كلّ موجود من الله عزّوجلّ، أمّا حياة الله تعالى فهي من نفسه.

هل الجهل سبب الإيمان باللّه؟

يقول الملحدون: «البحث عن أمثلة للتعقيد المتعذّر الاختزال ليس بالأساس طريقة علميّة للمتابعة، إنّما هي مجرّد حالة خاصة للمحاجة تعتمد على الجهل، ومشابهة لمنطقٍ مزوّر يسمى استراتيجية إله الفراغات (The God of the Gaps strategy).

الذين يؤمنون بوجود الله، وأنّ الخلق جاء بإرادته، يبحثون بشغف عن فراغات في معارف ومفاهيم العصر، وبمجرّد ظهور ما يبدو كحلقة مفقودة فإنّهم يفترضون بأنّ الله هو الذي يجب أن يملأها بطبيعة الحال..

فالمتديّنون يفرحون بالأسرار ويرغبون ببقائها ألغازاً، بينما العلماء تكون غبطتهم حينما يكتشفون تلك الأسرار، ولأنّ هنالك أموراً لا يعرفها الناس فلذلك يؤمن هؤلاء بوجود الله».

ثمّ يقولون مستهزئين: «ما يُقلق رجال الدين المفكرين هو أنّ هذه

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١١٥.

الفراغات بدأت تصغر مع تقدم العلم، والله في هذه الحالة مهدد بعدم وجود أيّ شيء يفعله، أو أيّ مكان يختبئ فيه»[1].

الجواب: بالعكس تماماً، فالمؤمنون يبحثون دائماً عن المعرفة ومزيد من المعرفة، فالقرآن الكريم هو بحق كتاب معرفة وهو مليء بالحقائق، كما أنّه مليء بالعبر، وبقصص الماضين، وحوادث ما سيأتي في مستقبل الإنسان، وما يجري عليه في حياته الأخرى، كما أنّ فيه التفسير للكثير من الظواهر، ولقد طالب القرآن في عشرات من الآيات بالتعقل واستخدام العلم والمعرفة والعقل والنظر والاعتبار، ولذلك فإنّ العلماء المسلمين اكتشفوا الكثير من الحقائق على مرّ التاريخ.

أمّا ما يقوله الملحدون بأنّ الجهل أمر مؤقّت، وأنّ الإيمان يهتز حينما يكتشف البشر بعض الأسرار لأنّ الناس حينئذ لا يجدون سبباً للإيمان، فهو كلام سخيف جداً، لأنّنا كلّما اكتشفنا سرّاً جديداً كلّما وقفنا على عظمة الله الذي كان يعرف هذا السّر مسبقاً، واستخدم معرفته في صنع الأشياء.

فمثلاً حينما نكتشف التعقيد الكبير في صناعة عين الإنسان والكمال الموجود فيها، فإنّ ذلك يدفعنا إلى البحث عن مزيد من المعرفة، لأنّ الذي صنع العين كان أعلم من البشر، ونحن إلى الآن لم نكتشف كلّ أسرار العين، مع ما نملك من عقل وإدراك ووعي، فكيف بالذي صنعها؟

هذا إضافة إلى أنّنا رأينا الكثير من العلماء الذين تقدموا في العلم والاكتشافات، وبعد رحلة طويلة من الانشغال باكتشاف الكون وعلومه يقرّون بوجود الله، ويجدون أنفسهم أمام حقيقة لا تُنكر وهي وجود خالق عظيم لكلّ هذا الكون.

وهكذا الادّعاء بأنّ الجهل هو سبب الإيمان بالله تعالى وأنّ العلم كلّما تقدم وسدّ فراغات الجهل انحسر الإيمان بالله ادّعاء باطل، يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew) في هذا الموضوع:

«إنّ العلم الحديث يُـجَـلّـي خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٢٧.

أوّلاً: الكون له بداية، ونشأ من العدم.

ثانياً: إنّ الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة.

ثالثاً: نشأة الحياة بكلّ ما فيها من دقّة وغائـيّـة، من المادة غير الحيّة.

رابعاً: إنّ الكون بما فيه من موجودات وقوانين يهيّئ الظروف الـمُثلى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بالمبدأ البشري (Anthropic Principle).

خامساً: إنّ القدرات العليا للعقل البشري لا يمكن أن تكون نتاجاً مباشراً للنشاط الكهروكيميائي للمخ».

ويضيف: «طبّقت نفس القاعدة السقراطيّة المنهجيّة التي عشت عليها طوال حياتي الفلسفيّة: (أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا)، فقادني البرهان هذه المرة إلى الإيمان»[1].

◂ انتظار الكيميائيّين دليل على وجود خالق لهذه الحياة

أحدهم حينما يُسأل: كيف بدأت الحياة يقول: «أصل الحياة يزدهر كموضوع بحث تخميني، أنا كالمتفرّج الفضوليّ». ثمّ يقول: «ولن أتفاجأ لو أنّه في خلال بضعة سنين قادمة نجح الكيميائيّيون في توليد أصل للحياة في المختبر»[2].

الجواب: عجيب! أنت تبحث عن الكيميائيين لكي يُوجدوا أصل الحياة، ولا تتوقع أن يُوجد أصل الحياة بالصدفة!

تُرى، كيف تقبل بهذه الحياة بكلّ سعتها أن تكون قد وُجدت بالصدفة، ولم يكن أحد قد أوجدها، بينما تنتظر الكيميائيين وانتظار بضع سنوات حتّى ينجحوا في إيجاد سبب الحياة في المختبر؟ إذن هنالك من يوجد الحياة، ولا توجد من نفسها، فكيف تفسّر الكون والحياة على كوكبنا بأنّها وجدت من دون أن يوجدها أحد؟!!

---

(١) شريف، د. عمرو: مرجع سابق، ص٧٥.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٣٩.

عدم فهم أسرار الكون

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين يرتاحون إلى عدم محاولة فهم أسرار الكون، ويرغبون في بقاء الأمور مجهولة، لأنّهم يُفسّرون هذه الأسرار بإرادة الله، وعمل التصميم الذكيّ في صناعته.

يقول بعضهم: هذه العبارة أتخيّلها مرسلة من شخصيّة خياليّة: في حالة عدم فهمك لكيفيّة عمل شيء ما: لا تهتمّ، بل استسلم وقل بأنّ الله فعلها، وإذا لم تكن تعرف ماهية عمل النبضات العصبيّة، حسناً لا يهّم أن تفهم بل قل إنّ الله هو الذي أرادها هكذا، إذا لم تكن تفهم كيفيّة عمل الذاكرة في المخ فهذا أمر ممتاز ارمه على الله، هل التمثيل الضوئي عمليّة محيّرة بتعقيدها، لا تتعب نفسك بالعمل على الحصول على الإجابة لكلّ هذه الأسئلة، فقط تقبّل الأمر الواقع ونادي باسم الله.

الجواب: هذا الادّعاء كذب محض، لأنّ الذين يؤمنون بالله لا يقولون بأنّه ليس علينا أن نفهم الكون، وأن لا ندرس شيئاً منه، وإنّما يقولون: لندرس كيفيّة عمل إرادة الله عزّوجلّ. فالفارق إنّما هو في أنّ الملحد يقول: دعني أفهم أسرار الطبيعة التي خلقت لنا الأشياء.

بينما المؤمنون يقولون: لنفهم أسرار الطبيعة التي خلقها الله لنا.

فالملحد ينسب ما يجده من أسرار في عالم الخلق إلى الطبيعة، والمؤمن ينسبها إلى الله.

أمّا أنّ المؤمنين لا يبحثون عن الإجابة عن الأسئلة، ولا يحاولون أن يعرفوا ما الذي يجري في هذا الكون، فهذا افتراء ودجل.

إنّ الملحدين عندما تعوزهم الأدلّة فإنّهم يتوسّلون بالأحكام المطلقة والكذب والافتراء.

ولو أنّنا أحصينا العلماء الذين طوّروا معرفتنا بالحياة، من قبل أكثر من ألف عام وإلى الآن، فإنّنا نجد أنّ أكثر من ٩٠٪ منهم كانوا مؤمنين بالله، فهم كانوا يحاولون أن يعرفوا أسرار الطبيعة التي خلقها الله، ولم يكونوا يقولون للناس: لا تبحثوا عن أسرار الطبيعة.

نعم، يؤمن الناس وأكثريّة العلماء بوجود الله، لكن ذلك لا يمنعهم من محاولة فهم ما في الكون.

وهنا نطرح سؤال: ماذا لو حصلنا على إجابة لكلّ الأسئلة المستعصية في الكون فهل يعني ذلك أن الله تعالى غير موجود؟ أم أنّه بالعكس يُثبت وجود الخالق الحكيم لهذا الكون؟

يقول عالم الفيزياء ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) صاحب كتاب تاريخ موجز للزمن (A Brief History of Time): «إنّ توصلنا إلى معادلات تشرح كيف بدأ العالم، لا يعني أنّ الإله غير موجود، ولكن يعني أنّه لم يخلق الكون عشوائيّاً، ولكن خلقه تبعاً لقوانين»[1].

وجود الله بين الأساطير والحقائق

يقول الملحدون: إنّ الإله خيالٌ نسجه الإنسان عبر التاريخ في ذهنه، وعبّر عنه بصور متعددة، فمرّة على شكل صديق طفولي، ومرّة أخرى على شكل نداء داخلي أو هلوسات صوتيّة تتحدث داخل رأس الإنسان.

«يوجد مخطوط مصري قديم عن الإله الخالق «بتاح» والتي تصف الآلهة المختلفة الأخرى كأوجه مختلفة لصوت ولسان «بتاح»، الترجمة العصرية رفضت كلمة «صوت» واستبدلتها بمفاهيم مجسِّمة لعقل «بتاح»... الآلهة كانت هلوسات صوتية تتكلّم داخل رأس الإنسان.

(١) Hawking, Stephen: Black Holes and Baby Universes, P.172, Bantam Books, 1993.

إنّ الآلهة وأصدقاء الطفولة الخياليّين يسلكون نفس المنحى التطوريّ، لكن على العكس من فرضية البيدوموروفوس (Paedomorphosis hypothesis)؛ نستطيع تلخيصها بأنّ تلاشي النفسية الثنائيّة لم يحصل بصورة فجائيّة، بل تطوّرت بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عند تلك اللحظة، حيث الهلوسات الصوتيّة والرؤى تمّ تجاهلها كأشياء غير حقيقيّة بشكل يعاكس فرضيّة البيدومورفوس.

الآلهة المتخيّلة، اختفت من عقول الكبار أوّلاً، وبدأت بالاختفاء في فترات أبكر وأبكر وصولاً للطفولة، حيث لم يبق منها اليوم إلّا ظواهر مثل بينكر أو الرجل البنفسجي الصغير»[1].

الجواب: مرّة أخرى يذهب الملحدون إلى شيء شاذ مثل مخطوط مصري قديم لا قيمة له، كتبه بعض المتخلّفين من البشر في الزمن السحيق، حيث لم تكن لديهم مفاهيم حقيقيّة عن الحياة والكون والإنسان، ويستندون عليه، ويعتبرونه الأساس للإيمان بالله عزّوجلّ، بينما يتركون القرآن الكريم هذا الكتاب العظيم وما فيه من أدلّة على وجود الله تعالى، وتبيين لطريقة الإيمان، وعرض للأدلّة على وجود الله عزّوجلّ.

هذا يشبه أن نقول: إنّ هنالك مخطوطاً مصريّاً قديماً يصف الكون بأنّه مجرّد بصلة، فإذن إيمان البشر اليوم بوجود كون كبير، وكرات ومجرّات ومنظومات شمسيّة إنّما هو تطوّر للإيمان بالبصلة، ولأنّ الإيمان بالبصلة باطل، فكذلك ما تطوّر إليه هذا الإيمان إلى أنّ الكون عبارة عن مجرّات، ومدن نجوميّة ومنظومات شمسيّة فكلّها باطلة أيضاً.

نحن نعلم أنّ هنالك من لا يؤمن بالله الواحد الأحد، وإنّما يؤمن بالشجرة أو البقرة، لكن هذا هو الانحراف عن الإيمان، وليس هو الأساس للإيمان بالله.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص ٣٥٧.

تُرى، إذا كان البشر في يوم من الأيام يعيشون حالة من الفوضى، بدون قوانين، أو ضوابط مدنيّة، فإنّ ذلك لا يمكن أن يكون تفسيراً لوجود القوانين، بل بالعكس، فإنّ حالة التخلّف قد تجاوزها البشر فوضعوا القوانين وآمنوا بالمدنيّة وطوّروا الحياة. فهل يجوز أن ندين الحضارة القائمة لأنّ البشر في يوم من الأيام كانوا يعيشون ظروفاً متخلفة، وهذا مثل أن ندين الإيمان بالله لأنّ البشر في يوم من الأيام آمنوا بإله متخيّل، أو بشجرة أو حجرة أو بقرة أو ما شابه ذلك، كآلهة لأنفسهم؟

وهكذا، فإنّ الملحدين يتعبون أنفسهم في البحث عن أمور وأساطير قديمة يظنّون أنّها يمكن أن تسندهم في دعاويهم، ويغمضون أعينهم عن الحقائق الواضحة التي أوصلت الناس إلى الإيمان بالله خالق الكون العظيم.

عن صفات الله تعالى

ماذا لو كان الخالق خارقاً؟

يقول الملحدون: يزعم المؤمنون بأنّ الله يمتلك قدرة خارقة، فهم يزعمون بأنّ لديه القدرة على الخلق والإبداع، ولديه قدرة الحفظ للأبد لأيّ شيء، كبيراً كان أو صغيراً، وأنّه يستطيع جعل الأشياء تتحرّك أو تفعل أيّ شيء آخر فهو يستطيع تحريك الكواكب، أو جعل البارود ينفجر، ويستطيع جعل الكواكب تتحرّك بطريقة أخرى غير ماهي عليه، ويستطيع أن يقوم بالمعجزات، فيجعل المواد المتفجرة لا تنفجر، وأنّ الله ليس محدوداً بقوانين الطبيعة، فهو الذي وضعها ويستطيع أن يغيّرها متى ما شاء، إنّ هذا الذي يزعمونه غير صحيح، لأنّه يفترض أنّ قوّة الله خارقة.

ترى كيف يحق للدين أن يتدخّل في أمور ليست من اختصاصه، وكيف نستطيع أن نقول بأنّ لهذا الواقع الذي نعيشه فاعل خارق هو الذي صمّم الكون؟ وأنّ الذي صمّم الكون يقوم بصيانته أيضاً؟ وأحيانا يتدخّل في شؤونه عن طريق المعجزات.

وربّما يستشهد هؤلاء الملحدون بقولهم: تعالوا نتخيّل لو كان الكون مع خالق خارق مختلف فكيف كان الوضع؟.

الجواب: إنّ حشر مجموعة من الأسئلة على قضايا مختلفة، والدخول في بعض

الهوامش لا يلغي السؤال الأساسي وهو: هل الله موجود أو لا؟ هل لهذا الكون من خالق، أو لا؟ هل هنالك من يدير هذا الكون ويدبر شؤونه، أم لا؟

حقّاً إنّ وجود الكون العظيم دليل واضح على أنّ خالقه أعظم منه، وأنّ قدراته بالفعل خارقة، وإلّا فكيف خلقه في لحظة واحدة، ولايزال يحتفظ به ويدبر الأمر فيه؟ تُرى، لو أعطيت الأجهزة التي صنعها الإنسان الوعي، فلربّما تساءلت مثل الملحدين عن الإنسان وهل له قدرات خارقة، مثل صنع الأشياء، وتدبير شؤونها.

هل اللّه قادر؟

يقول الملحدون: «هل كان للمسيح أباً إنسانيّاً؟

وهل كانت أمّه عذراء يوم ولدته؟

سواء كان أو لم يكن لدينا دليل نقرر به، فلايزال هنالك سؤال علمي صارم ولابدّ له من إجابة مبدئيّة مؤكّدة: نعم أو لا.

هل أقام المسيح اليعازر من الموت؟ وهل قام هو نفسه ثانية بعد ثلاثة أيام من صلبه؟»(١)

يقول هؤلاء: إنّنا في مقابل هذه الأسئلة نطالب بإجابات علميّة دقيقة، وأجوبة صارمة إمّا نعم وإمّا لا، ثمّ كيف حصل ذلك؟.

إنّ المرأة لا يمكن أن تحمل ما لم يكن لها زوج، فبدون التخصيب والتلقيح لن يتكوّن الجنين، كما أنّه لا يمكن لأحد أن يقوم من موته، هذا هو جواب العلم، وهذه هي الحقائق العلميّة الثابتة الغير قابلة للتبديل.

الجواب: قضية حمل العذراء مريم، وإحياء الموتى، من القضايا الجانبيّة وهي لا تلغي وجود الله عزّوجلّ، فإذا آمنّا بوجود الله القادر الذي صمّم الكون وصنعه

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٦١.

وأبدعه، ولا يزال يديره، فسوف نؤمن أيضاً بأنّه قادر على أن يغيّر كلّ شيء فيه، حتّى قوانينه الثابتة، وأن تحمل العذراء مريم بدون زوج وأن تلد وهي عذراء، وأن يحيي السيد المسيح عليه السلام الموتى، وأن يقوم بعد موته -كما يقول المسيحيّون- أو لا يُصلب أصلاً ويشبّه لهم -كما يقول المسلمون-، إنّ كلّ ذلك ممكن ما دام أنّ الله قادرٌ على كلّ شيء، وفاعل لكلّ ما يريد.

بسيطٌ لا تناله الأوهام

يقول الملحدون: هل الله مركّب ومعقد أم هو بسيط؟ إذا قلنا إنّ الله بسيط -كما هو مذكور في الكثير من الكتابات الدينيّة الحديثة - فإنّ هذا يناقض العلم، الحقيقة العلميّة تقول إنّ: «الإله القادر على المراقبة والتحكّم في كلّ جزيء من الكون لا يمكن أن يكون بسيطاً»[1].

ثمّ ينقلون كلاماً لبروفيسور العلوم الدينيّة في أكسفورد كيث وارد (Keith Ward) حيث يقول في كتابه: الله احتمال وضرورة (God, Chance and Necessity): «المؤمن في الواقع سيدّعي بأنّ الله حَلٌّ أنيق واقتصادي ومفيد لتفسير وجود الكون، اقتصادي لأنّه يعزي الوجود برمّته، وكلّ ما في الكون، لشيء واحد وهو السبب الأساسي الذي أعطى سبباً لوجود كلّ شيء وحتّى ذاته، وهو حلٌّ أنيق لأنّه حلٌّ يأتي من فكرة واحدة أساسيّة، وهي فكرة الكمال التام لشيء ما، وبه يمكن توضيح طبيعة الإله ووجود الكون، أي الكائن الأكثر كمالاً في الوجود»[2]، ثمّ يستهزئ به دوكنز قائلاً: «ولا يبدو أنّه - أي كيث- يفهم معنى أن يكون الشيء بسيطاً».

الجواب: نحن لا نناقش تصوّرات الأشخاص، ونعتقد بأنّ الله بسيط بمعنى

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٥١.

(٢) Ward, Keith: God, Chance and Necessit, Oneworld Publications, 1996.

أنّه ليس مركبّاً من أجزاء، لكن لا يعني ذلك أنّ باستطاعتنا أن نعرف ذات الله عزّوجلّ، وأن نحيط به أو بصفاته بعقولنا أو بخيالنا أو ما شابه إلى ذلك.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لم يُطلع العقول على تحديد صفته**»[1].. «**لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تُعقد منه على كيفيّة، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب**»[2].

ليس كمثله شيء

يقول الملحدون: إنّ بعض الصفات التي ذُكرت لخالق الكون في بعض الكتب المقدّسة، غير مقبولة.

فأحياناً ترى وصفاً للرب في كتاب التوراة والإنجيل، وكأنّه يحبّ إراقة الدماء، ويأمر بعض أنبيائه بقتل الأطفال والنساء!!

وحتّى لو تركنا مثل هذه الصفات، ونظرنا إلى ما يقوله كثير من المؤمنين بأنّ الربّ قادر على أن يفعل كلّ شيء بمجرّد أن يريد ذلك، فإنّ هذا معناه أنّ هذا الربّ كسول يحاول أن يخلق ما يريد بأقل ما يمكن من الجهد ليجعل الكون مليئاً بالحياة!

ويقول بعضهم -وحسب تعبير بيتر آتكينز (Peter Atkins)-: إنّ الإله يبدو في كثير من صفاته مرفّهاً ليس له ارتباطات، وليس له شريك، وعاطل عن العمل، أي أنّه زائد عن الحاجة، وعديم الفائدة!

ومن ثمّ يقول هؤلاء: إنّ مثل هذا الإله لا شيء على الإطلاق.

الجواب:

أوّلاً: نحن نتحدّث عن الخالق القدير الحكيم العالم ولا نتحدّث عن الصفات

---

(١) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة ٤٩.

(٢) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة ٨٥.

التي يلصقها البعض بالله، وهي لا تليق به سبحانه.

فعندما نؤمن بربٍّ منزَّه عن جميع صفات الضعف والجهل والعجز، فلا شبيه له ولا شريك، وأنّه الغني المطلق وخلقه يحتاجون إليه بالمطلق، فلا نتحدّث عما لا يليق به من صفات، مع قطع النظر عما يقول عنه زيد أوعمرو.

يعني لو افترضنا أنّ أحد الأطفال تصوّر الشمس مجرّد شمعة، فإنّ هذا لا يقلّل من قيمة الشمس، ولا تتحوّل الشمس إلى شمعة، فالشمس هي الشمس، مع قطع النظر عن معرفة هذا الطفل بحقيقتها وحجمها، وبالكمية الهائلة من النار والنور الموجودة فيها.

نحن نتحدث عن الخالق مع قطع النظر عما يظن الناس بما له من صفات عند قوم هنا وقوم هناك.

ثانياً: إنّ ربّنا هو كما وصف نفسه عليم قدير حكيم حي قيّوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

فماذا عن ربّ الملحدين؟

إنّ ربّ الملحدين هو الطبيعة الجاهلة المحكومة المقهورة التي لا تعرف ماذا تفعل، ولا تعي شيئاً ولا تفهم، ويتحكّم فيها خلقها.

فالملحدون مضطرّون إلى أن يفترضوا للكون إلهاً ما، فإمّا أن يسمّوه (إله) أو (ربّ) أو (طبيعة)، أو لا يسمّونه بشيء.

فالنتيجة أنّ هنالك «مَن خلق» أو «ما خلق» لكن حينما ينكرون وجود ربّ حكيم عالم قادر، يعمل ما يريد ويفعل ما يشاء، ويضع كلّ شيء في مكانه، عندما ينكرون هذا الربّ فهم مضطرون للإيمان بربّ محكوم بخلقه، مليءٍ بالضعف والعجز، فالإنسان في نظر الملحدين مخلوق للطبيعة، لكن هذا الإنسان يتحكّم في الطبيعة، فالطبيعة التي هي ربّ الملحدين هي محكومة عاجزة ضعيفة جاهلة لا وعي لها، لأنّ الطبيعة إنّما هي عبارة عن الشمس والقمر والهواء والماء والتراب، وكل هذه أمور محكومة وليست حاكمة، وجاهلة وليست عالمة.

وحينما تعمل هذه الطبيعة، في صورة الزلازل والطوفان والكوارث التي تسمى بالأعمال الطبيعيّة، فإنّها لا تستطيع أن تخلق شيئاً، ولا أن تصنع مخلوقاً واعياً، ولا أن تبني كوخاً.

لكن ربّنا عليم قادر حكيم يخلق الإنسان الواعي صاحب العقل والإرادة، والذي بدوره يقوم بالاختراعات والاكتشافات وما شابه ذلك.

◂ ولا يحيطون به علماً

يقول الملحدون: كيف يمكن لشخص واحد -يعنون بذلك الله- أن يعرف كلّ شيء، وأن يكون قادراً على كلّ شيء؟ كيف يمكن لوعي الله أن يكون مشغولاً بآمال وعواطف وصلوات ودعاء كلّ إنسان، وأن يكون مشغولاً بالمخلوقات الفضائيّة الذكية الأخرى التي ربّما تكون موجودة في هذا الكون؟ وكيف تكون قدرته مطلقة؟

الجواب: حينما لا تستطيع أن تعرف قدرة الله تعالى، وأن تحيط بعلمه، وحكمته، فهل عليك أن تنكر وجوده، أم تزداد خضوعاً وخشوعاً لإرادته الجبّارة هذه؟

نحن نقول: إنّ علم الله تعالى لا يشبه علم الآدميّين، لأنّ ذاته المقدّسة مطلقة، لا يشبهه شيء، وهو محيط بكلّ شيء، ومهيمن على كلّ شيء.

أنتم تقولون: ما دمنا لا نستطيع أن نستوعب علمه، إذن لا وجود له، ولا لعلمه!

وماذا عن كلّ آثار العلم والقدرة التي نراها في الكون؟!

هل هي موجودة أم لا؟

وإذا كانت موجودة فهل هي ترتبط بالأشياء، أم بمن صنعها؟

ومن الجميل هنا أن ننقل كلام الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام وهو يتحدّث عن علم الله عزّوجلّ حيث يقول:

«خَرَقَ علمُه باطن غيب السُتُرات، وأحاط بغموض عقائد السريرات»[١].. «قد عَلِم السرائر، وخَبَرَ الضمائر، له الإحاطة بكلّ شيء، والغلبة لكلّ شيء، والقوّة على كلّ شيء»[٢].. «فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج، ولا ليل ساج في بقاع الأرضين المتطأطئات، ولا في يفاع السفع المتجاورات، وما يتجلجل به الرّعد في أفق السماء، وما تلاشت عنه بروق الغمام، وما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء، ويعلم مسقط القطرة ومقرّها، ومسحب الذرّة ومجرّها، وما يكفي البعوضة من قوّتها، وما تحمل الأنثى في بطنها..»[٣].

تُرى، لو أنّ شاباً صغيراً جلس أمام شاشة كومبيوتر، ورسم على الشاشة صوراً وأشكالاً، ثمّ لنفترض أنّه استطاع أن يعطيها الوعي، فإذا عجزت تلك الأشكال أن تفهم قدرة هذا الشاب ومدى سيطرته واستيعابه وهيمنته على هذه الموجودات التي صوّرها ورسمها داخل الجهاز، فهل من حقّها أن تنكر وجود من هو أعلى منها وأقدر، وأعلم؟ فقط لأنّها لا تستطيع أن تستوعب شخصيّة صانعها وتفهم مدى قدرته؟!

الغريب أنّ أحد الملحدين -للهروب من الحقيقة- يقول: «لو استجاب الله لمعظم دعوات الأقارب ليشفي مريض السرطان، فإنّ السرطان لن يبقى مشكلة للإنسانيّة، ليتوجب حلّها وعندها فما الذي يجب أن نصرف وقتنا به؟»

غريب أن نتساءل: كيف يستجيب الله الدعاء؟! أو لماذا لا يستجيب الدعاء؟!

أنت لا تملك إرادة ربّك، وإنّما ربّك يملك إرادتك، فليس من حقّك أن تحاسب ربك على ما يفعل وما لا يفعل ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٤].

إنّ الله تعالى أحياناً يشفي بعض الناس -حتّى من السرطان- وأحياناً لا يفعل،

(١) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة ١٠٨.

(٢) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة ٨٦.

(٣) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الخطبة ١٨٢.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٣.

كما أنّ الله تعالى يخلق البعض ولا يخلق بعضاً آخر ممّن كان قادراً على خلقهم، فهل معنى ذلك أنّ الله لا وجود له، لأنّه لم يخلق أكثر مما خلق؟

وهل يستطيع أحد أن ينكر وجود ذلك الشاب الذي رسم على الشاشة - في المثال السابق - لأنّه لم يرسم أكثر، أو أنّه رسم بعض الصور بأشكال غير جملية، أو بلا أيدي أو أرجل مثلاً؟

حتّى الملحد ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) في كتابه وهم الإله (The God Delusion) يعترف بأنّنا غير قادرين على استيعاب وتصوّر كلّ شيء في الكون، لنلقي نظرة على ما يقوله حول بعض القضايا البسيطة في هذا الكون والتي خلقها الله عزّوجلّ، ونرى كيف أنّه يقرّ بالعجز أمامها فكيف بخالقها وخالق الأكوان كلّها:

«نحن نرى العالم بأعضائنا الحسّيّة وجهازنا العصبي، والذي بدوره له القدرة لمعرفة وفهم مجال ضيق من المجاميع المتوسطة الحجم والمتحرّكة بسرعات متوسطة، نحن نشعر بالقدرة على الاستيعاب عندما يتعلّق الأمر بأشياء تتراوح مساحاتها بين بضعة كيلومترات (منظر من قمة الجبل) إلى أعشار المليمترات (رأس الدبوس)، خارج هذا النطاق فإنّه حتّى مخيلتنا تقف مشلولة، وحينها نحتاج لمساعدة الأجهزة والرياضيّات.

إنّ حيّز الأحجام والمسافات أو السرعات التي تتعامل معها مخيّلتنا لا تعدو عن نطاق ضيّق يقع في وسط حيّز عملاق من الممكن، بداية من المقاييس الذريّة في الطرف الأصغر إلى الأحجام الفلكيّة الاينشتاينية في الطرف الأكبر.

إنّ مخيلتنا قاصرة بشكل مؤسف عن التعامل مع مسافات خارج النطاق المتوسط الذي ألفه أسلافنا، نحن نحاول تخيّل الالكترون كأنّه كرة صغيرة في مدار حول مجموعة من كريّات أكبر هي البروتونات والنيوترونات، لكنّها ليست كذلك على الإطلاق، الالكترونات ليست كريّات صغيرة، بل ليس كمثلها شيء نستيطع التشبيه به، بل ليس من المؤكّد حتّى أنّ كلمة «شبه» تعني أيّ شيء عندما

نحاول التحليق في أفق الحقيقة البعيد هذا.

مخيّلتنا ليست مؤهّلة بعد لاختراق هذا الوسط الكمّي، لا شيء في هذا النطاق يتصرّف بالطريقة التي تتصرف بها المادة في الوسط الذي تطوّرنا فيه، واعتقدنا بأنّ المادة يجب أن تتصرّف بقوانينه، ولا نستطيع حتّى التعامل مع الأشياء التي تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء، حواسنا العامة تخذلنا، لأنّ هذه الحواس تطوّرت في عالم حيث لا شيء فيه يتحرّك بسرعة عالية، وليس فيه أشياء صغيرة جداً، أو كبيرة جداً.

في نهاية بحث شهير عن العوالم الممكنة (Possible worlds) كتب العالم البيولوجي العظيم جي بي أس هالدين (J. B. S. Haldane): «شخصيّاً فأنا أشك بأنّ الكون ليس فقط أغرب مما نعتقد، وإنّما أغرب مما نستطيع أن نتخيّل، وأعتقد بأنّه توجد أشياء أخرى في السماء والأرض أكثر بكثير مما حلمت به فلسفة مّا أو تقدر أن تحلم به».[١]

إذا كان هذا هو حال الكون المخلوق، ونحن عاجزون عن الإحاطة بمعرفته، فكيف بمن خلقه؟ وهل عجزنا عن ذلك يعني عدم وجود الكون؟

◂ ولا يحيطون بجهلهم كنه ذاته!

يقول الملحدون: إنّ بروفيسور العلوم الدينيّة في أكسفورد كيث وارد (Keith Ward) وهو أحد المؤمنين يقول: «إنّ الله بسيط منطقيّاً، ليس البسيط بمعنى أنّه لا يقبل التقسيم فقط ولكن بمعنى أكبر بكثير، والذي يعني بأنّ ما ينطبق على أيّ جزء من الله ينطبق على كلّه، وهذا يعني لا محالة بأنّه غير قابل للتقسيم وأنّه بحدّ ذاته معقد»[٢].

الجواب: نعود مرة أخرى لنقول: لا نناقش تصوّرات هذا وذاك عن الله

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) Polkinghorne, John: Science and Christian Belief, p.55, SPCK Publishing, 1994.

عزّوجلّ.

لا الذي يقول بأنّ الله بسيط بمعنى أنّ باستطاعتنا أن نستوعب ذاته المقدّسة، ولا الذي يقول بأنّ الله معقّد بمعنى أنّ أجزاءه متجانسة أو ما شابه ذلك.

ربّ العالمين أكبر من أن تصل إليه عقولنا أو أن نحيط به بأوهامنا، فكما أنّه لا يمكن للعين أن تسمع، ولا للأذن أن ترى، ولا للأجزاء الأخرى أن تتخطّى الحدود التي وضعت لها، كذلك لا يمكن للعقل أو الخيال أو غيرهما أن تتخطّى حدودها، فهي محدودة سلفاً، وربّنا مطلق في كلّ شيء.

إنّ الله موجود أمّا كيف هو؟ وماهي حقيقته؟ فلا يمكن أن نعرف، وعجزنا عن ذلك لا يبرر أبداً إنكارنا لوجوده.

الوهم بدل الحقيقة

سؤال: الرب حسب ما وُصف في العهد القديم هو «غيور، وفخور، ويدقّق بالتوافه، وظالم، وغير عادل، ومتسلّط، وقاسٍ، ومنتقم، ومتعطش للدماء، ومميت للأعراق، وكاره للنساء، وعنصري، وقاتل للأطفال والشعوب، وقاتل للأبناء، ومسبب للأمراض، وشرس، ويفعل مايريد من دون حساب».. فما تقولون؟

الجواب: إنّنا حينما نتحدّث عن وجود الله تعالى وصفاته، فإنّما نتحدّث عن إله حكيم عادل كريم غفور رحيم، وإلى جانب ذلك يعاقب الظَلَمة والمجرمين، فهو كما وُصف في بعض الأدعية: «**وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ في مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَشَدُّ الـمُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ وَالنَّقِمَةِ، وَأَعْظَمُ الـمُتَجَبِّرينَ في مَوْضِعِ الكِبْرِياءِ وَالعَظَمَةِ**»(١).

فللّه عزّوجلّ أسماء متعدّدة، تبيّن جانباً من صفاته، فهو رحمن رحيم، ودود

---

(١) ابن طاووس، السيد رضي الدين: إقبال الأعمال،ج ١، ص ١٣٨، مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

غفور، عزيز كريم، وإلى جانب هذه الصفات، فهو أيضاً منتقم، لا يترك الظالمين أن يمارسوا ظلمهم كما يريدون، من دون أن يجدوا الجزاء العادل على أفعالهم، ولا يجوز للملحدين أن يجمعوا صفات الله عزّوجلّ التي ترتبط بجبروته وعزّته وحدها، ثمّ يحكموا من خلالها بأنّ الله قاسٍ وظالم!

إنّ انتقام الله هو من موقع العدل، وليس من موقع الظلم.

أمّا أنّ الله مهيمن، فذاك لأنّه ربّ العالمين، وربّ الكون، لكنّه لا يمارس هذه السلطة في ظلم الناس، فـ«**سُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْتَدِي عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، سُبْحَانَ مَنْ لَا يَأْخُذُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ، سُبْحَانَ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ**»(١).

نعم، الحديث عن الله هو حديث عن العليم الحكيم القادر المقتدر الذي له قدرات غير قابلة للتصوّر، لأنّها قدرات مطلقة، فربّنا عندما شاء أن يخلق الكون وما فيه خلقه بلحظة إرادة، ولذلك فإنّ هذا الكون ومافيه مصنوع له وليس صانع نفسه.

أمّا الذين يدّعون أنّ ما في هذا الكون من قدرات هي نتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطوّرية، فإنّهم لا يملكون ربع دليل على ما يدّعون، وهؤلاء في الحقيقة يريدون أن يجعلوا الوهم بدل الحقيقة، فيأتون بأوهامهم على أساس أنّها حقائق، فليس لديهم دليل على تطوّر هذه القدرات الخارقة لا من التاريخ ولا ممّا يحدث الآن، لأنّ كلّ ما هو موجود في الكون وجد منذ البداية، فلم يخرج من الكون شيء ولم يدخل فيه شيء جديد، فمنذ أن خلقت هذه الأرض فإنّ إمكانيّاتها هي نفسها، لا تزيد ولا تنقص، ومنذ التاريخ المكتوب للبشر لم يجد العلماء أنّ القدرات تتطوّر في هذا الكون.

نعم هنالك حالة من الدوران في بعض الأمور، مثل أنّ مياه البحار تتبخر من سطح البحر وتصعد في الأجواء لتشكّل الغيوم، ثمّ تنزل في صورة الأمطار،

---

(١) الطوسي، شيخ الطائفة محمد بن الحسن: مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢، ص ٤٤٨، مؤسسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

وهكذا تعود مرة أخرى لتسقط في البحر أو اليابسة، هذه حالة مستمرة، لكن هل زاد الماء بمرور الزمن؟

هل تغيّر واقع الخلق حتّى نأتي بأوهام الملحدين ونجعلها بديلة عن الله الواحد القهار الحكيم العليم؟

أمّا بعض الصفات السيّئة التي يذكرونها وينسبونها إلى الله تعالى فهو منزّه عنها، ولا يمكن أن نقبل أيّ صفة تُطلق على الله ونعتبرها من صفاته كما يحاول الملحدون الترويج.

هل الخالق خارج حدود الزمان والمكان؟

يقول الملحدون: كيف نؤمن بالإله ونحن نرى أنّ الأوصاف التي يُطلقها المؤمنون على هذا الإله تتناقض مع حقائق ومسلّمات العلم؟! فمثلاً حينما نسألهم عن مكان وجود هذا الإله المتخيّل يجيبون وبكلّ بساطة: لا يمكن تحديد مكانه، لأنّه هو خارج الزمان والمكان.

انظروا إلى هذه الإجابة التي تتناقض مع العلم، إذ كيف يمكن أن يوجد شيءٌ خارج الزمان والمكان ونحن نعلم أنّ الزمان والمكان حاكمان على كلّ الوجود؟

الجواب: سأكتفي في الإجابة هنا بنقل كلام أحد أساتذة جامعة أكسفورد:

يقول البروفسور وأستاذ الفلسفة في جامعة أكسفورد برين ليفتو (Brian Leftow) في كتابه الزمن والخلود (Time and Eternity): «إنّ مفهوم الإله، الموجود خارج الزمان وخارج المكان، يتماشى مع نظريّة النسبيّة الخاصة، فالنسبيّة الخاصة تنظر إلى الوجود باعتباره رباعي الأبعاد، واعتبار أنّ الزمن يمثل بعده الرابع، ومن ثمّ فالإله الذي لا يحدّه المكان ينبغي أن يكون خارج الزمان.

ويعيننا إدراكنا لوجود الإله خارج الزمان على التوصل إلى الكثير

مـن صفاتـه، فوجـوده خـارج الزمـان يعنـي أنّـه لاينسـى، فنحـن ننسـى مـا حـدث في الماضي، والإلـه لا مـاضي عنـده، ويعنـي ذلـك أيضـاً أنّـه لايتوقـف عـن الفعـل، فالتوقـف عـن فعـل مـا يعنـي انقضـاء زمـان هـذا الفعـل، وهكـذا...»[1].

(1) Flew, Antony: There Is a God, pp.151-154, HarperCollins, 2007.

اللا أدريّة

◄ واثق من دليلي بدلالتك

يقول الملحدون: لماذا لا نكون (لا أدريّين) في مسألة وجود الله كما نحن كذلك في مسائل أخرى مثل وجود حياة في كوكب آخر، أو الحديث عن سبب انقراض الديناصورات؟ الكثير قالوا نعم بدون شك، وبلهجة توحي بأنّهم على حافّة الغضب وعلى غير استعداد للمناقشة في ذلك.

الجواب:

أوّلاً: لنناقش مسألة وجود الله تعالى، مع قطع النظر عن أمور أخرى، كالحديث عن وجود حياة في كوكب آخر، أو الحديث عن سبب انقراض بعض الأحياء في الزمن القديم. فلماذا تذهبون إلى مواضيع لا ارتباط لها بهذه المسألة الجوهرية؟

ثانياً: هل الحديث عن وجود حياة في كوكب آخر هو مثل الحديث عن وجود الله تعالى؟ ونحن نرى أنّ آيات وجوده، وآيات علمه، وآيات قدرته تملأ الكون كلّه؟

غالباً ما تأخذ الحواشي عند الملحدين من الوقت في المناقشة أكثر من المحور الأساس، لأنّهم يريدون أن يضيّعوا عليك الحقيقة، ومن خلال أمثلة وادّعاءات باطلة يريدون أن يزرعوا الشك في قلوب الناس.

إنّ الملحد يقول لك: هل أنت متأكد من وجود حياة في كوكب آخر؟

وعندما تقول له: لا.. لا أدري.

يقول: فأنت من الناس الذين يقفون في الوسط، وموقفك هذا صحيح، أليس كذلك؟

وعندما تقول له: نعم. يقول: إذن وجود الله كذلك.

مع أنّ مسألة وجود الله ليست كذلك أبداً، فهي ليست مسألة مرتبطة بالتاريخ كالنقاش حول سبب انقراض الديناصورات وهل كان نيزكاً أو فيروساً؟ فأنت عندما لا تدري تقف في الوسط، لكن المؤمنين يصرّحون وبصوت عال: نحن ندري. وحسب تعبير الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**وَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ دَلِيلِي بِدَلَالَتِكَ**»[1] فهنالك الألوف من الأدلّة عندهم على وجود الله، ومع هذه الأدلّة لا يمكننا أن نقف في الوسط أبداً.

وحتّى في مسألة وجود حياة على كوكب آخر فإنّ مَن يملك الأدلّة على ذلك سيؤمن بوجود ذلك، كما أنّ من يملك الأدلّة على أنّ سبب انقراض بعض الأحياء هذا العامل أو ذاك، يؤمن بما يقول ولا يقف في الوسط وهكذا في مسألة وجود الله سبحانه وتعالى فما أكثر آياته في أنفسنا، وفي الآفاق فلا معنى للوقوف في الوسط.

الإيمان بالله وجدليّة اللّا أدريّة

يقول الملحدون: في تاريخ الأفكار هنالك الكثير من الأسئلة التي تقع إجاباتها خارج منطقة العلم:

فمثلاً في عام ١٨٣٥ كتب عالم الفلك الفرنسي المشهور أوغست كونت (Auguste Comte) عن النجوم قائلاً: «لم نستطع أبداً وباستعمال أيّ طريقة أن ندرس المواد الكيميائيّة التي تؤلّف النجوم، أو تركيبها الذري...»، ولكن وحتّى قبل أن ينشر هذا الرجل كلامه

(١) الطوسي، شيخ الطائفة محمد بن الحسن بن علي: مرجع سابق، ج٢، ص ٥٨٣.

كان جوزيف فراونهوفر (Joseph Fraunhofer) قد بدء بتحليل كيماويّات الشمس باستعمال منظار الطيف، والآن فإنّ مستعملي المناظير الطيفيّة فنّدوا موقف كونت الذي كان يقول: «لا أدري»، وذلك من خلال دراستهم الدقيقة للنجوم البعيدة ومركّباتها الكيمياويّة، إنّ ما حصل للاأدريّة كونت الفلكيّة هنا يفتح أعيننا على الأقل على أنّه يجب علينا التروّي قبل التصريح المبكّر باللّا أدريّة، رغم ذلك لا يتوانى العديد من الفلاسفة والعلماء عن التصريح عن اللّاأدريّتهم عندما يتعلّق الموضوع بالله، وعلى رأسهم مخترع المصطلح بذاته توماس هاكسلي (Thomas Huxley)، الذي جاء شرحه لموقفه من هذه الكلمة كرد على هجوم شخصي عليه، عندما صبَّ مدير الكلية الملكية في لندن الدكتور وايس (Weiss) ازدراءه عليه بسبب (لا أدريّته الجبانة).

قال الدكتور وايس (Weiss): ربّما إنّه يفضّل وصف نفسه بـ(اللّاأدري) ولكن الكلمة الحقيقيّة أقدم من ذلك وهي كلمة (كافر)، ولأنّها تحمل معنى غير سار فإنه يستخدم كلمة (لا أدري)، طبعاً هاكسلي (Huxley) لم يكن ممن يترك هجوماً كهذا بدون ردة فعل وكانت إجابته في عام ١٨٨٩م شديدة القسوة... وبالنتيجة وبعد أن نال قصاصه العادل من الدكتور وايس (Weiss)، عاد هاكسلي (Huxley) لشرح كلمة (اللّاأدريّة) وكيف خطرت له حيث قال: «هنالك آخرون ممن استطاعوا إنجاز بعض (الأدريّة) بنجاح وحلّوا بها مشكلة الوجود، بينما أنا متأكد بأنّني لم أستطع ذلك بل مقتنع تماماً بأنّ هذه المشكلة غير قابلة للحل.

وبما أنّ الفلاسفة مثل: ديفيد هيوم (David Hume) وإيمانويل كانت (Immanuel Kant) بصفي لم يكن لديّ الصَلَف لإبداء أيّ

رأي.. لذلك أنا فكّرت وابتكرت الكلمة المناسبة لهذا الموقف وهي: (اللاأدريّة)».

وفي قسم آخر من خطابه استطرد هاكسلي (Huxley) ليبيّن بأنّ (اللّاأدريّة) بالواقع ليست مذهباً ولكنّها طريقة تلخّص الطريقة الصارمة المطبّقة على أيّ مبدأ، فعندما يتعلّق الأمر بالعلم فعليك أن تتبع الأدلّة، مهما بعدت المسافات التي تأخذك إليها وبدون الاهتمام بأيّ اعتبارات، فلا تتظاهر بأنّ النتائج صحيحة إذا لم تكن مجرّبة، أو بالإمكان تجربتها للتأكّد منها، هذا ما أعنيه بـ(اللّاأدريّة)، وبناء عليه فمن الحق أن ينظر الإنسان إلى الكون وجهاً لوجه ويتساءل -بغضّ النظر عما يخبئه المستقبل- عن الدليل على وجود الله، وإذا لم يصل إلى نتيجة يقول: (لا أدري).

بناء على كلام هاكسلي (Huxley) فإنّ الملحدين يقولون هنالك استحالة في أن نأتي ببرهان على وجود الله أو عدم وجوده. إنّ استحالة البرهان على وجود أو عدم وجود شيء ما يجعل وجوده من عدمه على نفس الدرجة الاحتماليّة، هذا يعني أنّ صاحبه (لا يدري).

يقول صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion): «سأقترح بأنّ وجود الله هو نظريّة علمية كغيرها، بالرغم من أنّه من الصعب تجربتها عمليّاً، لكنها تدخل ضمن (اللّا أدريّة المؤقّتة) كما هو الحال في الخلافات حول أسباب انقراض الأحياء في نهاية العصر البرمي والطباشيري».

ويضيف: «وجود الله وعدم وجوده هو حقيقة علميّة عن الكون وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ على الأقل إن لم يكن عمليّاً؛ فلو أنّ الله كان موجوداً وكشف عن نفسه لوضع حكماً نهائيّاً لهذا الجدل

وبشكل لا يقبل الشك، ولكن حتّى لو كان من غير الممكن البرهان على وجوده من عدمه بشكل قاطع، فإنّ الأدلّة المتوفرة قد تعطينا احتمالات بعيدة عن الخمسين بالمئة».

ثمّ يشرح الاحتمالات الموجودة حول قضية وجود الله ويشرحها كالتالي:

«هنالك احتمال أنّنا نستطيع بالتركيز على سبع نقاط مركزية فيه أن نقول:

١. احتمال أن يكون هنالك وجود لله، أي أن يكون الشخص مؤمناً تماما ١٠٠٪ كما في كلمات س.ج. يونك الذي قال: «أنا لا أؤمن.. بل أعرف عن وجود الله»[1].

٢. احتمال وجود الله، ولكن أقل من مائة بالمائة، وصاحبه مؤمن واقعي.

يقول هؤلاء: لا أستطيع المعرفة بشكل لا يقبل الشك، ولكن أؤمن بالله وأعيش حياتي على هذا الافتراض.

٣. أن يكون عند الشخص احتمال وجود الله أكثر من خمسين بالمائة، فهو عمليّاً يكون (لا أدريّاً) ولكن يميل للإيمان. يقول: لست متأكّداً بأن الله موجود بأيّ شكل، ولكنني أميل للإيمان بالله.

٤. أن يكون احتمال الإيمان بوجود الله وعدم وجوده ٥٠٪ على التمام، وصاحبه هو الشخص الذي يقول (لا أدري) بشكل تام، فهو يقول وجود الله من عدمه متساويان.

٥. أن يكون احتمال وجود الله أقلّ من ٥٠٪ بقليل، وهذا النوع من

---

(١) يلاحظ أنريتشارد صاحب كتاب وهم الإله لا يذكر الأنبياء عليهم السلام هنا، وهو يعرف أن الأنبياء عليهم السلام هم الدعاة إلى الله، وأشد المؤمنين به.

(اللّا أدري) يميل للإلحاد، وصاحبه يقول لست متأكداً من وجود الله وأميل للشك في وجوده.

٦. أن يكون احتمال وجود الله ضعيفاً جداً ولكن أكثر من الصفر، فمثل هذا الشخص يؤمن بعدم وجود الله يعني أنّه ملحد واقعي، فهو يقول: لست متأكداً من عدم وجود الله، ولكن اعتقادي أنّ الاحتمال ضعيف جداً، وأعيش حياتي على افتراض أنّ الله غير موجود.

٧. أن يكون ملحداً تماماً فهو يقول: ليس هنالك وجود لله، والنوع السابع هذا هو في مقابل النوع الأول، الذي يقول: أؤمن بوجود الله، بينما النوع السابع يقول: أعرف أن الله غير موجود[1].

الجواب:

أوّلاً: مع وجود ألوف الأدلّة على وجود الله، فإنّ قضيّة الإيمان به ليست من الأمور المحتملة حتّى يُقال: إنّ من حقّ أيّ شخص أن يؤمن به، أو يقول: لا أدري. بل هو مثل أن يقول أحد أنّ وجودك من عدمه أمر علمي يمكن أن يكون صحيحاً، أو لا يكون، فأنا أقول عنك: لا أدري هل أنت موجود أم لا.

فأنا لا أدري عنك.

فهل تقبل ذلك منه؟ أم ستقول: أنا موجود وأنت ترى آثاري فكيف تقول لا أدري؟

ثانياً: إنّ كلّ ذلك الكلام الطويل عن موقف (اللّا أدريّة) هو لجعل مسألة التشكيك في وجود الله أمراً عاديّاً، وإظهاره وكأنّه موقف علمي، وهو ليس كذلك حتماً.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٥٠- ٥٣.

◂ الملحدون لا يملكون أدلّة على إلحادهم!

يقول الملحدون: نناقش نوعين من (اللّا أدريّة):

الأوّل: (لا أدريّة مؤقّتة) علميّاً وهي الجلوس على السياج بانتظار الأدلّة، وهو موقف صحيح من المسائل التي لها جواب محدد بشكل أو بآخر، ولكن بما أنّنا لم نحصل على الأدلّة التي تثبت أمراً معيّناً، أو لم نفهمها بعد، أو لم نقرأها بعد فإنّنا نقول لا ندري، (اللّاأدريّة المؤقّتة) عمليّاً موقف معقول من مسائل كانقراض الأحياء نهاية العصر البرمي، حيث هناك حقيقة ونأمل بمعرفتها يوماً من الأيام، ولكننا لا نعرفها الآن بالتحديد.

الثاني: نوع آخر من (اللّا أدريّة) وهو غير الجلوس على السياج، وهو (اللّا أدريّة المبدئيّة) وهي (لا أدريّة) دائمة.

ومسألة (اللّا أدريّة الدائمة) تتناسب مع أسئلة ليس لها إجابات محدّدة أبداً مهما حاولنا، لأنّ السؤال موجود على بعد آخر، أو في مستوى آخر وخارج المنطقة التي ممكن أن تصل لها الأدلّة.

مثال ذلك: المسألة الفلسفيّة المسمّاة بالكستنائيّة وهي التالي: هل أنت ترى اللون الأحمر أحمراً كما أراه؟ يعني هل حينما أقول: إنّ هذا اللون أحمر فإنّ الكلّ يراه فعلاً كما أراه أنا أم لعلّه يراه أخضر ولكنه يسمّيه بالأحمر؟ فلعلّ ما تسمّيه أنت أحمر، أنا أسمّيه أخضر أو شيء آخر مختلف تماماً عن أيّ شيء أستطيع تخيّله.

الفلاسفة يستشهدون بهذا السؤال كأحد الأسئلة التي يستحيل الإجابة عليها، يعني لن نصل في يوم من الأيام إلى إجابة على ذلك، مهما كانت الأدلّة قويّة ومتوفرة.

ويعتقد بعض الملحدين بأنّ مسألة وجود الله من عدمه هي من فئة

(اللّا أدريّة المبدئيّة) الدائمة مثل هذه، وبناءً على ذلك يحصلون على النتيجة بأنّ نظريّة وجود الله وعدم وجوده حسب رأيهم لها نفس الاحتماليّة للصحة.

يقول صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion): «الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماماً، (اللّا أدريّة) في حالة الوجود الإلهي هي من نوع (اللّا أدريّة المؤقّتة) عمليّاً، إمّا أنّ الله موجود أو غير موجود، فإنّ السؤال في نظرهم علمي بحت، ويقولون إنّنا يوماً ما سنعرف الإجابة، وحتّى ذلك الوقت فإنّنا فقط نستطيع الكلام وبشكل قوي عن الاحتمالات وليس عن اليقين»[1].

الجواب: لأنّ الملحدين لا يملكون أيّة أدلّة لإنكارهم وجود الله عزّوجلّ فهم في الإجابة على سؤال: من أين جاء الكون؟ يقولون: نحن لا نملك أيّ دليل علمي على أنّه أوجد نفسه، لكن أنتظر حتّى نحصل على الدليل العلمي.

ونحن نقول: أيّها الملحد لماذا لا تؤمن بالله إلى أن تحصل على دليل مخالف لكلامك؟ خاصّة أنّ عقلك يقول إنّ أيّ مصنوع لا يمكن أن يكون موجوداً بدون صانع، والكون مصنوع فلابدّ أن تؤمن بأنّ أحداً ما أوجده. أنت تقول: هو أوجد نفسه، ولا تملك دليلاً، إذن اتبع الدليل المعقول! لماذا تتوقف هنا إلى أن تجد دليلاً على إلحادك، أيّ منطق علمي هذا؟!!

◂ والوقوف على التلّ أسلم

يقول الملحدون: ليس لدينا يقين بوجود الله، ولا نجد دوافع كافية بأن نقول إنّ الله موجود، أو أن نقول إنّه غير موجود، ومن ثمّ فنحن نقف على نقطة الحياد، ونقول احتمال وجوده كاحتمال عدمه فإذن نحن (لا ندري).

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٩- ٥٠.

ويقولون: عادة ما يَطلبُ المؤمنون بوجود الله من المشكّكين أن يأتوا بأدلّة على شكّهم، فلماذا لا يكون العكس أي أنّ الملحدين يطالبون المؤمنين بأن يأتوا بأدلّتهم على وجود الله؟

ويقولون: «لو أنّني قلت بأنّ هنالك إبريق شاي صيني بين الأرض والمريخ، ويدور حول الشمس بمدار اهليلجي فلن يستطيع أحد أن يبرهن أنّني مخطئ. سآخذ بعين الاعتبار طبعاً أن أوضّح بحرص أنّ إبريق الشاي هذا من الصغر بحيث لا يمكن رؤيته باستعمال أقوى التلسكوبات.

ولكن لو قلت بأنّ زعمي لا يمكن نقضه، فإنّني لا أقبل أن يشكّ أحد في صدقه، سيكون كلامي جزافاً طبعاً. ولكن لو كان وجود هذا الإبريق موثّقاً في الكتب القديمة، ويُدرس بقدسيّة كاملة كلّ يوم أحد مثلاً في الكنيسة، ومغروس في رؤوس الأطفال في المدارس، فإنّ مجرّد التردّد في قبول وجوده من شخص ما سيضعه مع فئة غريبي الأطوار، ويستحق صاحبه أن يراجع طبيب نفساني في العصر الحديث، أو القاضي في الأزمنة التي خلت»[1]

الجواب: نحن المؤمنون بالله نتبرّع عادة، ومن دون طلب من أحد لإثبات وجود الله بالأدلّة العقليّة والعلميّة، ومسبقاً نقول: إنّ الماديّين في العادة يرون أنّ العلم هو ما يرتبط بالمادة فقط؛ وهذا خطأ فظيع علميّاً إذ إنّه ليس كلّ ما لم نكن قادرين على رؤيته أو لمسه ليس موجوداً! إذ من يستطيع أن يلمس عقول الآخرين؟! فهل عقولهم غير موجودة؟ ومن يستطيع أن يلمس حتّى حقائق التاريخ الآن، فهل هي غير موجودة؟!

من هنا فإنّ حصر العلم بالقضايا الفيزيائيّة الماديّة، وحذف ما يرتبط بالعقل

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٥٤.

خطأ فظيع.

نحن لدينا أدلّتنا على وجود الله وهي غير قابلة للرد، ومقنعة قطعاً، والذين يؤمنون بالله عزّوجلّ يؤمنون بربّهم عن قناعة عقليّة، وعلميّة، وإيمانيّة وليس بسبب (التلقين).

أليس من العيب أن يأتي أحد بمثال إبريق الشاي الصيني، والذي يحتمل وجوده بين الأرض والمريخ، ويضرب به المثل لله في هذا المجال؟!

نحن نقول: هل المريخ عند الملحدين موجود أو لا؟ وإذا قلتم إنّه موجود فمن أوجده؟ نحن لا نفترض وجود إله بين الأرض والسماء مثل إبريق الشاي الصيني، نحن نسأل عمّا هو موجود من كائنات، ونسأل من صنعها؟

الربح والخسارة

ماذا نخسر لو آمنّا بتعدّد الآلهة؟

في السابق كان الناس يؤمنون بمجموعة من الآلهة، ولا زالت هنالك ديانات تتعددُ فيها الآلهة، فمثلاً عندهم إله للخير، وإله للشر، وإله للمطر، وإله للصيف، وإله للشتاء.. ولو جمعنا الآلهة التي تؤمن بها البشرية اليوم لتجاوزت ألف إله.

ثمّ فيما بعد تقلّصت هذه الآلهة عند بعض أصحاب الديانات إلى ثلاثة آلهة مثل المسيحيّة، أو إلى إله واحد مثل الإسلام.

فما الذي نخسره لو لم نؤمن بهذا الإله المتبقي أيضاً؟

الجواب: إنّ طرح السؤال بهذا الشكل طرح خاطئ، لأنّه يشبه أن نقول: في السابق كان الناس يؤمنون بمجموعة من الخرافات فيما يرتبط بالطب والصحة والسلامة، وكذلك فيما يرتبط بالزراعة، وبعلم الفلك وحركة الشمس والقمر، وكيفيّة هطول الأمطار.. ثمّ توصّلوا إلى بعض الحقائق في تلك الأمور وتغيّرت نظرتهم؛ فمثلاً كانوا يرون أسباب عديدة لتكوّن الأمطار، ثمّ وصلوا إلى قناعة واحدة وهي أنّ السبب هو حرارة الشمس التي تسقط على البحار، فتتبخر المياه، ثمّ تصعد إلى الجو، ثمّ بسبب برودة الجو تنزل في صورة قطرات المطر، فنسأل ونقول: ما دام الناس كفروا بتلك الخرافات السابقة التي آمنوا بها فترة من الزمن، فما المانع بأن يكفروا بهذا المعتقد أيضاً؟ وما الذي نخسر إذا فعلنا ذلك؟!

لقد كان خطأ البعض منذ البداية أنّهم آمنوا بعدّة آلهة، إذ كان عليهم أن يؤمنوا بإله واحد، لأنّ بقيّة الآلهة مزيّفة، كما أنّ الكثير من الخرافات التي آمن بها بعض الناس في مختلف المجالات لم تكن حقائق، ولعلّ واحدة منها كانت حقيقة، ثمّ كفروا بكلّ ما عداها واستمروا في الإيمان بتلك الحقيقة الواحدة.

◂ بل أنتم من يخسر

يقول الملحدون: إنّ الله إمّا أنْ يكون موجوداً أو لا يكون، فإذا لم يكن موجوداً فلماذا نتظاهر بأنّنا مؤمنون به؟

وبعبارة أخرى: إذا فرض ربّنا الإيمان به على قلوبنا وعقولنا وضمائرنا، فهذا هو المطلوب، وإن لم يفرض ذلك علينا إجباريّاً، ولم أكن معتقداً ومقتنعاً بوجوده فلماذا عليّ التظاهر بذلك خوفاً من عقابه؟

ويقولون: إنّ الإيمان ليس شيئاً من الأمور التي تقررها مثلما تفعل في عالم السياسة، ومن الممكن أنّ أحدنا يذهب إلى مراكز العبادة وأن يرتّل الدعاء، ولكن ليس من ذلك شيء يجعله مؤمناً إن لم يكن كذلك.

والمشكلة أنّنا إذا لم نكن في أعماقنا مؤمنين بالله، واعتقدنا بأنّ الله يعلم ما في الصدور، فهذا معناه أنّ ربّنا يستطيع أن يكتشف التحايل.

الجواب: إنّ الأمر يدور بين احتمالين: إمّا أن يكون الله غير موجود -كما يقول الملحدون- أو أنّه موجود كما يقول المؤمنون.

فالذين آمنوا به في الحياة الدنيا، لا يخسرون شيئاً إذا اكتشفوا بعد موتهم أنّه لم يكن موجوداً، لأنّهم عاشوا كما عاش غيرهم، وأكلوا كما أكل غيرهم، وتمتّعوا في الحياة كما تمتّع غيرهم.

لكن إذا كان الله موجوداً، فإنّ الذين لم يؤمنوا به في الدنيا، فإنّهم يخسرون الخسران المبين، حيث لا مجال للعودة إلى هذه الحياة وتغيير المعتقدات.

وبحسب الفيزيائي والرياضي والفيلسوف الفرنسي بليز باسكال (Blaise Pascal) فإنّه: «مهما قلّت الدلائل على وجود الله، فإنّ العقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ هي كبيرة جداً، فأحكم الطرق هي الإيمان بالله، لأنّك لو كنت مصيباً ستربح النعمة الكبرى، ولو كنت مخطأً فلن يكون هنالك فرق بينك وبين غيرك، أي أنّك إذا لم تؤمن بالله وكنت مخطأً فأنت محكوم باللّعنة الأبديّة، وإن كنت مصيباً فلن يكون هنالك فرق بينك وبين غيرك، وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج لذكاء كبير حتّى تتّخذ القرار الصحيح، وإنّما عليك الإيمان بالله»(١).

◂ إن هي إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم

يقول الملحدون: نحن لا ندري أيّ إله نعبد، ففي الهند -على سبيل المثال- أكثر من ألف إله يُعبد، وكذلك هنالك إله للمسيحيّين، وإله لليهود، وإله للمسلمين، فأيّ إله نؤمن به؟

الجواب: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾(٢) إنّ الحقيقة واحدة، ونحن مطالبون بالإيمان بالله الواحد الأحد الذي خلق الكون، ولا يهمّنا ما يعطيه البعض من الصفات، فحينما نجد تعدد الآلهة عند البشر فهذا لا يعني تعدد الحقيقة حتّى تسأل: أي إله نعبد؟

أنا أقول: أعبد الإله الذي خلق الكون وخلقك.

قد تقول: إنّ صفات الله عند الأقوام مختلفة!

أقول: نعم، لكن هنالك صفات مجمع عليها، وكلّ المؤمنين بالله يقولون بها.. مثل أنّ الله تعالى هو الذي خلق الكون، وأنّ لله غرضاً في خلق الإنسان، وأنّ هناك حياة بعد الموت.

---

(١) Connor, James A: Pascal's Wager: The Man Who Played Dice with God, HarperCollins, 2006.

(٢) سورة النجم: ٢٣.

إنّ المؤمنين بالله يقولون إنّ الله يريد منا الصلاح، فالتزم أنت بالصلاح، مع الإيمان بربّك، ثمّ ابحث عن صفات الله عند الأقوام المختلفين، وحينما تجد كلام قوم من هؤلاء أقرب إلى ما في ضميرك، فاقبله.

تقول الدكتورة كارن أرمسترونغ (Karen Armstrong) مؤلّفة كتاب تاريخ الله (A History of God): «لقد درست صفات الله في الإنجيل والتوراة والقرآن، فوجدت أنّ صفات الله الواردة في القرآن هي التي تليق بخالق الكون، لأنّ التوراة والإنجيل وكتب المذاهب الأخرى تعطي تصوّراً عن الله وكأنّه واحد من البشر، ولكن القرآن الكريم ليس كذلك، فعظمة الله وعظمة صفاته واضحة في هذا الكتاب».

طبعاً نحن لا نقول إنّ كلّ من توهّم ربّاً ووضع له صفات قد توصل إلى الحقيقة، فالله عزّوجلّ واحد أحد، والأدلّة عليه واضحة، ومن أخطأ الطريق سيحاسب على ذلك، ولكننا نقول إنّ هذه الحجّة -أي التعدّد- ليست بمسوّغ للكفر بالله عزّوجلّ بل هي بالعكس تدفعنا للبحث عن الرب الحقيقي.

العقل

العقل أصل الدين

يقول الملحدون: إنّ الإيمان الديني مبيد فعّال لكلّ أنواع المنطق العقلانـيّ.

ذلك أنّ الدين يعطي الوعود البسيطة والخادعة بأنّ الموت ليس هو النهاية، وأنّ هناك جنّة خاصة بالشهداء بمتع إضافيّة، والإيمان بطبيعته لا يتقبّل أيّ شكّ أو تساؤل.

إنّ المسيحيّة تماماً كالإسلام تعلّم الأطفال بأنّ الإيمان دون سؤال هو فضيلة، وأنّه لا يجب عليك أن تجادل بما يؤمن به أحد، وأنّه عندما يعلن أحدٌ بأن شيئاً ما هو جزء من معتقده فإنّ على بقية المجتمع، سواءً كانوا يؤمنون بنفس الشيء أو لا يؤمنون، عليهم أن يحترموا إيمان الشخص ومعتقده[1].

الجواب: إنّ الخلط ما بين الأمور ليس نقاشاً علميّاً ولا عقلانيّاً، كما أنّه ليس بصحيح.

فأن تقول بأنّ المؤمن يعتقد بأنّ الموت ليس هو النهاية، ثمّ تُدين ذلك لأنّه في نظرك معتقد خاطئ وخرافي وغير صحيح، وتخلط بين ذلك وبين أنّ الإيمان بطبيعته لا يقبل الشك، ثمّ تطلق حكماً مطلقاً بأنّ الإيمان بالحياة بعد الموت خرافة

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣١١.

هذه طريقة خاطئة في النقاش وهي طريقة الملحدين في العادة.

إنّ من الحقائق الأولى التي يؤمن بها المؤمنون، ومن حسن حظّهم أنّهم يؤمنون بوجود عالم آخر وراء الموت، كما كان هنالك عالم آخر وراء عالم الرحم بالنسبة للطفل، لكن أن تخلط ما بين هذا وبين أنّ المسيحيّة والإسلام والديانات تعلّم الأطفال بأنّ الإيمان دون سؤال هو فضيلة! هو من باب المثل المعروف: «سمك.. لبن.. تمر هندي» تُرى من قال لكم أن الديانات تقول بذلك؟

إنّ القرآن مليء بالآيات التي تطالب الناس بالتفكير، كما أنّه مليء بالحوارات التي قامت بين الله وبين إبليس، وبين الأنبياء عليهم السلام وبين أعدائهم، سواء في مسألة وجود الله، أو في مسائل الأخلاق، أو في مسألة العدالة.

تُرى متى كان الإسلام يعلّم الأطفال بأنّ لا يسألوا؟ وأن يؤمنوا من دون سؤال، ومن دون معرفه، ومن دون تعقّل؟

نحن نعتقد أنّ العقل هو أصل الدين كما قال النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي**»[1]، وأنّه حجّة الله الكبرى على البشريّة، ومطلوب منّا أن نفهم الأمور بالعقل، بما في ذلك مسألة الإيمان بالله.

نحن نستخدم العقل في كلّ مكان، أمّا الملحدون فيلغون العقل فيما يرتبط بوجود الله، وبدل ذلك يطالبون بالإيمان بالصدفة والتطوّر بلا نقاش، فعندهم أنّ الذرة الأولى خُلقت بالصدفة، وكانت غاية في البساطة، ثمّ تطوّرت إلى أن وصلت إلى حاله من التعقيد. فعندهم لابدّ أن تؤمن بالصدفة وبالتطوّر الذاتيّ وبدون سبب وبدون علّة وبدون نقاش أيضاً. هكذا يلغون العقل.

نحن نقول: كيف يجب علـيّ أن أؤمن بأنّ كلّ جزء في جسم الإنسان موضوع في مكانه بدقّة، ويؤدّي دوره كأفضل ما يكون، ولا يمكن تغيير مكانه ولا تغيير دوره، ومن ثمّ فإنّ هنالك حكمة في وجود الأشياء، وأنّ أيّ شيء نراه في الكون فهو موضوع في مكانه المحدد، ولكن كلّ ذلك من دون فعل فاعل؟ ولماذا إذا رأينا

---

(١) النوري، المحقق العلامة الشيخ حسين بن محمد تقي: مرجع سابق، ج١١، ص ١٧٣

سيّارة على قارعة الطريق متوقّفة، فلابدّ أن نقول بأنّ شخصاً ما ساق السيارة وأتى بها إلى هذا المكان وأوقفها فيه، لكن علينا أن نؤمن بأنّ الكون كلّه ليس له فاعل، وليس لوجوده ولا أجزائه أيّ علّة وأيّ سبب؟

حقاً إنّ الملحدين يطالبون المؤمنين العقلاء بأن يلغوا عقولهم فيما يرتبط بوجود الله في هذا الكون.

دور العقل في الإيمان بالله

يقول الملحدون[1]: لو كان الإله موجوداً فإنّه سيقدّر الولاء للعقل، أكثر من الخوف الأعمى.

الجواب: المؤمنون لا يطلبون من أحد أن يخاف من ربّه خوفاً أعمى، إنّما يطالبونه أن يقدّر عقله الذي يؤكّد له أنّ لا مصنوع بدون صانع، ولا مخلوق بدون خالق.

وتقدير العقل يكون بأن نقبل أحكامه، فهل العقل الإنساني يقول: إنّ هذا الكون بكلّ عظمته ودقّته لا خالق له، ولا مقنن، مع أنّه مصنوع وتحكمه القوانين؟.

أمّا الادّعاء الدائم بأنّ المؤمنين بالله لا يستخدمون عقولهم وأنّهم يؤمنون إيماناً أعمى فهو ادّعاء واضح البطلان، كما أنّنا نطالب المدّعين بالدليل على ادّعائهم.

العقل والخيال

يقول الملحدون: إنّ عقل الانسان رائع، خاصّة في إعادة بناء النماذج، وهذا يعني أنّ العقل إذا كان قد عرف شيئاً فهو يتخيّل أمثاله ويخلق نماذجه، وهذا ما يسمّى بالمحاكاة.

---

(١) استناداً إلى كلام توماس جفرسون (Thomas Jefferson)، وهو أحد مؤسسي الدولة الأمريكية.

يقول أحد هؤلاء: عندما كنتُ صغيراً سمعت مرّة ما شبحاً لـ
صوت ذكريٌ يُغمغم وكأنّه يتلو الأدعية. وكدت تقريباً أن أتبيّر
الكلمات والتي كان لها طابع جاد جداً، وكنت وقتها قد سمعت
الكثير من القصص عن الرهبان في البيوت القديمة. وحينما سمعتُ
ذلك الصوت أصابني الذعر، ولكنّي نهضت من السرير وزحفت
نحو مصدر الصوت، وكلّما اقتربت منه كلّما ارتفع الصوت. وفجأ
فهمت من أين يأتي الصوت الذي كان يرنّ في رأسي، فأنا كنتُ قري
بشكل كافٍ لأعرف واقعه. كانت الريح تعصف من خلال ثقب
المفتاح لتخلق صوتاً استخدمه برنامج المحاكاة في عقلي، ليبني نموذج
لصوت رجل يتلو الأدعية بشكل جادّ.

يقول هذا الرجل: لو كنت طفلاً قابلاً للتأثّر بشكل أكبر مما كنت
عليه آنذاك، لكان من الممكن لي أن أسمع ليس فقط خطاباً غير مفهوم
بل كلمات معيّنة وربّما جملاً أيضاً وأتساءل الآن: ما هي الكلمات التي
كنت سأسمعها لو كنت قابلاً للتأثّر، وقد نشأت في بيئة دينيّة؟

إنّ هذا يعني بأنّ التجارب الشخصيّة لدى الأفراد الذين ربّ
يقولون: سمعنا صوت الملاك، أو سمعنا صوت الصلوات، أو حتّى
سمعنا صوت الله.. هذه تخيّلات، لأنّ العقل هو الذي يحاكي ما هو
موجود في داخله.

ويقول الرجل أيضاً في مناسبة أخرى: كنت في نفس العمر تقريباً
رأيت وجهاً عملاقاً وشرّيراً بشكل لا يُوصف، وكان يحدّق من النافذ
في بيت عادي في قرية على البحر.

اقتربت منه لأتبيّن الأمر، كان شيئاً مبهماً يعطي انطباعاً بعيداً لوج
ناتج عن نقشة على قماش الستارة.

لقد تم بالطبع إعادة تركيب الوجه وتعابيره الشريرة في رأسي الطفولي الخائف.

وفي أحداث الحادي عشر من أيلول، التي فُجّر فيها مبنى التجارة العالمي التوءم حدث شيء يشبه ذلك فقال: رأى بعض الأتقياء وجه الشيطان في الدخان المنبعث من البرجين، وهذه خرافة مدعومة بصورة نشرت على الانترنت وتداولها الناس بشكل كبير.

ويقول هؤلاء: نحن عندما ننام ندعو ما نتصوّره (أحلاماً)، وفي اليقظة ندعوها بـ(التخيلات)، وحينما تكون شديدة الواقعية ندعوها (هلوسات) ومن ثمّ فإنّ من يقولون: رأينا صورة العذراء مريم، أو أيّ واحد من الأولياء، أو سمعنا أصوات الملائكة، فهي مجرّد تخيّلات[1].

الجواب: كلّ ما يُقال هنا ممكن، لكن لا ارتباط له بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ الله تعالى موجود، وأنّ الله لا يُتخيّل، وهذا ما تؤكّده المعارف التي جاءتنا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فربّنا أعظم من أن يحيط به عقل، أو يحيط به وهم أو خيال. فلا يكون الله موهوماً ولا متخيّلاً ولا معقولاً، لأنّه خالق الوهم والخيال، وخالق العقل أيضاً.

إنّ الله مطلق، والعقل محدود، وكذلك الخيال وأيضا التوهّمات، ولا يحيط المحدود بالمطلق.

الأمر الثاني: أنّ وجود التخيّل، أو عدم وجوده لا ينفي الواقع، فكم من أناس خاصة الشباب في مرحلة المراهقة يتخيّلون فتيات جميلات، ويحلمون بهنّ، فهل يعني ذلك أنّه لا وجود للفتيات في أمر الواقع؟

أنت حينما تتصوّر في خيالك سيّارة حديثة، فهل يعني ذلك أنّ السيارات الحديثة غير موجودة؟

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٩٣.

إنّ البشر يتخيّلون حينما لا يملكون شيئاً، لكن الخيال ليس نافياً للواقع، كم
أنّه ليس بديلاً عنه.

ولذلك فإنّ من يضرب مثالاً بظهور وجه بشع لطفل، أو تخيّلات لسماع
أصوات لكي ينفي وجود الله، فإنّ منطقه منطق طفولـيّ، وعلى أقلّ التقادير هو
غير علميّ، فكيف يدّعي هؤلاء أنّهم علميّون؟!

الروح

الاعتقاد بوجود الروح

يقول الملحدون: ألا تغنينا روعة الجسد وجماله عن الحاجة إلى الاعتقاد بأنّ هنالك روحاً تعيش فيه، خاصّة وأنّ الروح أمر غير ثابت؟

الجواب: هل إذا آمنّا بأن هذا الجسد تسكنه روح، نكون قد نقصنا من قيمة الجسد، أم زدنا من قيمته؟!

إنّ هذا السؤال يشبه أن يقول أحدهم: أنا أعيش على الأرض، ألا تكفي روعة هذه الأرض؟ فما الحاجة إلى بناء بيت عليها والسكن فيه، أو يقول أحد وهو يملك بيتاً: إنّ هذا كافٍ لي، ولا حاجة لي بأن أزرع فيه أشجاراً.

إنّ التمتّع بروعة الجسد شيء، وأن نزيد على ذلك بروعة أحلى وأكمل منه شيء آخر، لماذا نضع أحدهما في تضاد مع الآخر؟

إضافة إلى ذلك فإن عدم معرفة الشيء بشكل كامل تؤدّي إلى سوء معرفته، وبالتالي عدم القدرة على التعامل الصحيح معه، كما كان البشر في السابق يرون النجوم ولايعرفونها فيتصوّرون أنّها ليست إلّا مجرد ثقوب في السماء، ولذلك لم يحسنوا الاستفادة منها، بينما اليوم يدرسون علم النجوم ويسعون للاستفادة من كلّ ما هو في الكون.

إنّ إنكار وجود الروح في الجسد يجعلك تتعاطى معه على هذا الأساس، فتنكر الأمراض الروحيّة مثلاً، وتبحث لهذه الأمراض عن علاجات مادية، وتداوي

الجسد بدل أن تداوي الروح فلا تحصل على نتيجة.

ثمّ إنّنا كمؤمنين نتمتّع بروعة الجسد أكثر من الملحدين، لأنّنا لا نرى الجسد قطعة ماديّة بحتة، بل نراه مع مافيه من الروح، وكلاهما رائع.

أمّا وجود الروح فهو حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، وإن حاول البعض التظاهر بعدم الإيمان بها، ذلك «أنّ الشعور بثنائيّة الجسد والروح أمر فطري مزروع فينا منذ ولادتنا»[1] كما يقول مايكل شيرمر (Michael Shermer) أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريموت (Claremont Graduate University) الأمريكيّ ورئيس تحرير مجلة الشّكاك (Skeptic).

ويقول بول بلوم (Paul Bloom) أستاذ علم النفس بجامعة ييل (Yale University) الأمريكية: «إنّنا كائنات ثنائيّة (جسد وروح) دُمِغَ في جيناتنا الإيمان بحياة أخرى تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفاني»[2].

أمّا أخصائي الأعصاب سير جون إكلز (Sir John Eccles) فقد قال عند تسلّمه لجائزة نوبل في الطب عن أبحاثه في بيولوجيا المخ: «أجدني مضطراً إلى القول بطبيعة غير ماديّة لذاتي وعقلي، طبيعة تتفقِ مع ما يسمّيه المتديّنون (الروح)»[3].

كذلك أعلن أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة أكسفورد سير تشارلز شيرينجتون (Charles Sherington) أنّ: «الروح هي جوهر الإنسان الذي لا يفنى بالموت»[4].

الروح في الجسد كالفارس على الفرس

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين عادة ما يرون أنّ الإنسان يتشكّل من أمرين: الجسم والروح.

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٧٧.

(٢) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٧٧ . نقلا عن كتاب بلوم Descartes' Baby

(٣) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٢٢٠.

(٤) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٢٢٠. نقلًا عن مجلة Resuscitation

ويرون أنّ الروح مختلفة عن الجسم، ويمكن أن تعيش مستقلّة عنه، بينما لا يرى الملحدون ذلك.

و يقولون بأنّ الروح هي شكل من أشكال المادّة، وهي مثل المادة الموجودة في الدماغ أو التي في الكومبيوتر، ولا وجود لها خارج المادة.

ومن يؤمن باستقلاليّة الروح يرى أنّ بإمكان الشخص أن يترك الجسد وأن يكون موجوداً في مكان آخر. وبناءً عليه أيضاً فإنّ المؤمنين يرون أنّ الإنسان يبقى موجوداً بعد موت جسده، أي أنّ روحه تكون باقية، ومن هنا يقولون: إنّ الأطفال عادة أكثر قابلية للإيمان بوجود الروح من الكبار، وهذا عندهم دليل على أنّ الإيمان بالثنويّة -أي وجود الروح والجسم- من صلب الدماغ، وبناءً على ذلك فإنّ الأطفال يؤمنون، أو هم أقرب إلى قبول الأفكار الدينيّة.

الجواب: إنّ الإنسان هو روح أساساً، والجسد ليس إلّا كمركبة له، أي أنّ الـ(أنا) التي نعبّر بها عن ذاتنا لا تعني اليدين والرجلين والرقبة والرأس والبطن، بل تعني روحنا، وهذا أمر يشعر به كلّ فرد.

فأنت تقول مثلاً: يدي ورجلي ورأسي وعيني.. وتعبّر عن جسدك كما تعبّر عن سيارتك وعن بيتك وعن أموالك وعمّا تملك، ففي داخل كلّ منا شعور بأنّه يملك الجسد، وليس هو الجسد، والأدلّة على ذلك كثيرة منها:

إنّ خلايا الجسم عادة تموت وتأتي مكانها خلايا جديدة، لكن الـ(أنا) لا تتغير. وحتّى بعد سبعين عاماً فإنّك تقول: أنا في صغري فعلت كذا، أو سمعت كذا، أو رأيت كذا، مع أنّ تلك الخلايا التي رأيت بها الأشياء قد ماتت من زمان، ولم تعد موجودة فـ(الأنا) تبقى، بينما الأجسام تتلاشى وتنتهي.

أمّا أنّ قبول الأطفال لفكرة وجود الروح هو دليل على أنّ الثنويّة صفة طبيعيّة موجودة من صلب الدماغ، فهذا مجرّد ادّعاء إنّما الأطفال بسبب براءتهم فهم

أقرب إلى الفطرة من غيرهم، ولذلك يتقبّلون الأمور الدينيّة، وبعبارة أخرى إنّ نقطة القوة عند الأطفال هي أنّهم قريبون إلى الفطرة، وليست هنالك أفكار سلبيّة خاطئة قد رانت على قلوبهم بعد، كما أنّ الطفل لا يعرف أن يكذب لأنّه قريب إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، هذه نقطة القوّة عند الأطفال، وليست دليلاً على عدم وجود الروح وأنّ هذا جزء من الدماغ بدليل أنّ الطفل في صغره أيضاً يؤمن بهذا الأمر.

إنّ العلم المادي يقف اليوم عاجزاً عن تفسير الكثير من الظواهر الغير مرتبطة بمادة الجسد كالوعي والإدراك والشعور، يقول روي أبراهام فارجيس (Roy Abraham Varghese) الحاصل على جائزة تمبلتون (Templeton Prize): «عندما توصّل العلم إلى معرفة بنية وآلية عمل الخلية العصبيّة، ظهر حجم المأزق الذي يواجهه الماديّون؛ فصفات الخلية العصبيّة، البيولوجيّة والفيزيائيّة والكيميائيّة، لا تشير على الإطلاق إلى إمكانيّة أن يتمخّض عنها شيء كالوعي والإدراك، كذلك فإنّ الخلية نفسها التي يصاحبها وعي وإدراك عندما توجد في القشرة المخيّة، لا يصاحبها وعي وإدراك إذا وُجدت في مكان آخر من الجهاز العصبي (في جذع المخ أو الحبل الشوكي مثلاً)».

ويشرح الباحث الأمريكي سام هاريس (Sam Harris) طبيعة الوعي المتجاوزة للمادة فيقول: «إنّ بنية المخ وأسلوب أدائه لوظيفته، لا يمكن أن يفسّرا كيف تتحول النبضات الكهربائيّة والناقلات الكيميائيّة التي يمارس بها المخ وظائفه الحركيّة والحسّيّة، إلى العمليات العقليّة التي نعهدها كلّنا، إنّ ذلك يدفعنا إلى الإقرار بأنّ العقل ليس نتاجاً مباشراً للمخ المادي، ومن ثمّ يدفعنا إلى البحث عن مصدره الغيبي».

ويضعنا عالم الفيزياء جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) أمام مفارقة صارخة، حين يشير إلى أنّنا إذا نظرنا إلى دقائق البنية الماديّة للأشياء فلن نجد فرقاً يذكر بين مخ أينشتاين وبين حفنة من الرمال، فكلاهما يتركّب من ذرّات تتكوّن

من نفس البروتونات والنيوترونات والإلكترونات.

وبالرغم مما اكتشفه العلم عن الطبيعة المعجزة للوعي، فما زلنا نرى قلّة باقية تتنكّر لهذه الحقيقة الواضحة، فلنقرأ منظور الملحد المتفلسف دانييل دينيت (Daniel Dennett) حول الوعي الذي يقول: «لا شكّ أنّ الآلات يمكن أن تعي، والدليل على ذلك أنّنا آلات واعية!! كذلك لا ينبغي أن نعطي للنشاط العقلي وضعاً خاصاً، فمثله مثل الوظائف الأخرى، كالشعور بالألم والجوع والعطش، فكلٌّ منها نشاط يحدث في مكان من المخ مخصّص لها، وكما يقوم الكمبيوتر بنشاط عقلي!! فلا داعي لإعطاء النشاط العقلي الذي يقوم به الإنسان سمة خاصة، تتجاوز قوانين الفيزياء التي يخضع لها الكمبيوتر».

سندع الرد على هذا الهراء لأحد الفيزيائيين الكبار من أصدقاء دينيت، وهو جون سير (John Searle)، إذ يقول متهكّماً عليه:

«لا شكّ أنّ العمليّات العقليّة التي يقوم بها الإنسان تختلف تماماً عن أنشطة المخ الأخرى، كما لا تخضع مطلقاً للقوانين الفيزيائيّة، إنّ من ينكر ذلك ليس في حاجة لمقارعة الحجّة بالحجّة، ولكنّه في حاجة إلى مساعدة»[1].

إنّ من ينكر الوعي يسقط في تعارض مُهلك مُخجل؛ إذ إنّ إنكاره للوعي يتطلّب أن يعي القضية التي ينكرها!

لذلك لم يملك بعض الماديّين فكاكاً من الاعتراف بعجزهم أمام قضية العقل والوعي، فهذا دوكنز نفسه يقول ذات مرة: «إنّه من الصعب جدّاً تفسير طبيعة وعي الإنسان ومصدره، أرجوكم اقذفوا الكرة بعيداً عني إلى ملعب الآخرين»[2]، وهذا زميله المتفلسف المادي لويس ولبرت (Lewis Wolpert) يقول: «لقد

(١) Searle, John: The Rediscovery of the Mind, p.9, The MIT Press,1992.

(٢) Richard Dawkins and Steven Pinker, "Is Science Killing the Soul?" The Guardian-Dillons Debate, Edge 53 (April 8,1999).

تحاشيت متعمّداً الخوض في أيّ مناقشة حول الوعي»[1]»[2].

والسؤال هو: لماذا يتحاشون الحديث عن الوعي؟

والجواب: فقط لأنّه لا يوجد تفسير لذلك إلّا أنّ هذا أمر غيبي يرتبط بالروح، وليس بالمادة.

---

(١) Wolpert, Lewis: Six Impossible Things Before Breakfast, p.78, faber and faber, 2010

(٢) Flew, Antony: There Is a God, pp. 173-176, HarperCollins, 2007.

الدين

◂ لماذا نلتزم بالدين؟

يقول البعض: إنّك أحياناً تعيش في ضيق لسبب أو لآخر، ولكن لا تعرف أنّ باستطاعتك التخلّص من هذا الضيق، فإذا تخلّصت منه تقول: ما كنت أعرف أنّني قادر على أنّ أتخلّص من هذا الضيق.

فلو أنّ أحدهم سُجن ظلماً وعدواناً، وكان باستطاعته أن يهرب لكنه لم يحاول، وبقي في السجن سنوات، وحينما حاول استطاع أن يتخلّص من سجنه، يقول لنفسه: ما كنت أعرف أنّي أستطيع فعل ذلك.

وهكذا يقول البعض: إنّي لم أكن أعرف أنّني قادر على أن أعيش دون الإيمان بالله، والآن أستطيع ذلك، فلماذا نلتزم بالدين؟

الجواب: من قال إنّ الناس غير قادرين على الكفر والعصيان، وإنّهم غير قادرين على الظلم والعدوان...؟!

إنّ الإنسان قادر على أن يمشي على الصراط المستقيم، كما أنّه قادر على الانحراف عنه.

فإذا قال أحدهم: لم أكن أعرف أنّني قادر على السرقة، لكنّني سرقت ونجحت، فبدل أن أبذل جهداً خلال عام حتّى أكسب المال، سطوت على بيت أحد الجيران وسرقت منه، فما دمت قادراً على السرقة فلماذا أتقيّد بالدين والقانون، ولا أفعل؟!

ترى إذا كان باستطاعتك أن تسرق فهل هذا يدلّ على أنّ ما تفعله صحيح؟!!

نعم يمكن أن يعيش المرء من دون الإيمان، كما يمكن أن يعيش المرء من دون أخلاق، فهل من الصحيح أن ندعو إلى الانحلال الخلقي؟

أليس من الأفضل أن نعيش بلا دين؟

أليس من الجيد أن لا نلتزم بشيء في عالم العقائد؟ فلا نؤمن بوجود عالم آخر غائب عنّا ولا نراه، فلنكتفِ بما نراه وما نلمسه وما نتذوّقه، أي: نعيش بلا دين.

الجواب: إنّ الذين يقولون للناس: عيشوا بلا دين، أي عيشوا ملحدين، هم أكثر المبشريّين تعصّباً في التاريخ، لأنّهم يطالبون الناس بالالتزام بالإلحاد، باسم عدم الالتزام بالدين.

الإلحاد هو دين، كما أنّ الكفر دين أيضاً.

من يقول لك: لا تؤمن بوجود الله يطالبك بأن تؤمن بعدم وجود الله، فهو يطالبك بدين والالتزام بشيء في عالم العقائد، لكن دينه يتمثّل في الإلحاد.

عالمٌ بلا دين!

أليس من الممكن أن نتصوّر عالماً بدون دين؟

الجواب: لا نحتاج إلى التصوّر في هذا المجال، لأنّ مثل هذا العالم موجود على الأرض، حتّى الولايات المتحدة الأمريكيّة التي يؤمن أكثر الناس فيها بوجود الله فإنّ دستورها دستور علماني، ومن ثمّ لا توجد دروس للدين في مدارسها، فلا نحتاج إلى من يصوّر لنا عالماً بلا دين، فهناك دول مختلفة في الغرب وفي أفريقيا والشرق الأوسط لا تؤمن بالدين، فلماذا نحتاج إلى تصور عالم بلا دين؟

هذا العالم موجود، وهو مليء بالظلم والطغيان، وانعدام الأمن، وعدم الشعور بالراحة والسعادة.

◂ تطلّعات الملحدين

البعض يقول: حينما نتحدّث عن عالم بلا دين فنحن نتحدّث عن عالم بدون انتحاريّين، وبدون تفجيرات ١١ سبتمبر، وبدون انفجارات لندن، وبدون حملات صليبيّة، وبدون تقسيم للهند، وبدون حرب إسرائيليّة فلسطينيّة، وبدون مذابح الصرب والكروات للمسلمين، وبدون اضطهاد الآخرين لليهود، وبدون مشاكل في ايرلندا الشماليّة، وبدون جرائم الشرف، وبدون مبشّرين إنجيليّين، وبدون طالبان، وبدون قطع للرؤوس بشكل علنيّ، وبدون سياط على جسم المرأة.. هذا هو العالم الذي نتطلّع إليه لأنّه بلا دين.

الجواب: هل إنّ وقوع القتل والظلم والعدوان جاء في القرن الواحد والعشرين، وبالذات في سنة ٢٠١١م؟!

إنّ القتل والقتال موجود مع وجود البشريّة.

هل كانت الحرب العالمية الثانية التي طحنت سبعين مليوناً بسبب حكم طالبان لألمانيا؟!

أم بسبب وجود انتحاريّين في بريطانيا؟!!

حين تنعدم القيم والمثل عند الإنسان فإنّه يعتدي على غيره، سواء على شكل فردي أو جماعيّ، وكذلك الحال حين يفتقد الإنسان التزامه الديني تراه يعتدي على غيره.

والمثال الواضح لعالم بلا علماء، وبلا رجال دين، وبلا مرجعيّات دينيّة هو عالم الحيوانات، فهل في عالم الحيوانات يسود الأمن والسلام؟! والحيوانات تعيش بلا التزامات دينيّة ولا التزامات أخلاقيّة؟!

هل هذا ما يبشّر به الملحدون؟!

الغريب في الأمر أنّ الملحدين الذين لا يؤمنون بوجود عالم ملائكي في

السماوات، يبشّرون الناس بعالم الملائكة في عالم بلا دين في الأرض!

أي أنّهم يقولون: حينما يكفر الناس بالأديان فإنّهم سيعيشون سعداء، ولا يعتدي بعضهم على بعض، وأنّ الناس يتحوّلون إلى ملائكة!

هل هناك ادّعاء أكثر سخفاً من هذا الادّعاء؟!!

في الحقيقة إنّه من الخطأ الادّعاء بأنّ العالم بدون الدين سيكون عالماً يسوده السلام، بل العكس هو الصحيح، فلو طُبّق دين الله لرأينا العالم يعيش في سلام ووئام.

◄ لو لم يكن هنالك دين

يقول الملحدون: إنّ بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) أحد أبرز مؤسّسي الولايات المتحدة الأمريكيّة قد قال: «إنّ المنارات أكثر فائدة من الكنائس»، وإنّ جون آدامز (John Adams) وهو أوّل من تقلّد منصب نائب الرئيس في الولايات المتحدة الأمريكيّة قد قال: «لو لم يوجد الدين، لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون».

الجواب: كما ذكرت، فإنّ الملحدين عندما تعوزهم الأدلّة يطلقون أحكاماً بلا دليل، وليس عليك إلّا التصديق من دون نقاش، وكلامهم: «لو لم يوجد الدين، لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون» هو من هذا القبيل.

إذ لنا أن نتساءل: في مجاهل أفريقيا لا يوجد دين، وفي غابات الأمازون عند القبائل المتوحشة التي تأكل لحوم البشر أيضاً لا يوجد دين، فهل عالمهم أفضل ما يمكن أن يكون؟ إذا كان جوابكم نعم، فاذهبوا إلى غابات الأمازون، أو في مجاهل أفريقيا، وعيشوا في أفضل أماكن العالم.

ثمّ إنّ كلام فرانكلين: «المنارات أكثر فائدة من الكنائس» أيضاً مجرّد ادّعاء، إضافة إلى أنّنا لا نتحدّث عن الكنائس والمساجد والمعابد، فهذا حديث آخر، لأنّ الكلام عن المعابد، وهل إنّها أدت دوراً إيجابيّاً أم لا مسألةٌ مختلفة عن مسألة أنّ

الله موجود.

وكما ترى فإنّ الملحدين يخلطون الأمور، فكلّما فشلوا في إثبات قضية ما في مكان، قفزوا إلى قضية أخرى في مكان آخر.

ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) هذا الرجل الذي يحمل كتابه عنوان: وهمُ الإله (The God Delusion) يملأ صفحات كتابه بالأحكام المطلقة، وبالقفز من موضوع إلى آخر، وهو ليس كتاباً علميّاً رصيناً يتحدّث عن أدلّة على وجود الله أو أدلّة عدم وجوده. فمرّة يتحدّث عن الآباء المؤسّسين لأمريكا وهل كانوا علمانيّين أو لا، ومرة يتحدّث عن الكنائس، وأُخرى عن رجال الدين، فأين الحديث عن وجود الله؟.

البديل عن الدين في نظر الملحدين

يقول الملحدون: حان الوقت للحديث حول قضيّة: لو لم يُوجد الدين فما الذي كان سيحلّ محلّه؟

«إنّ العديد من الناس الذين يعترفون بأنّه ربّما لا يوجد إله، وأنّه ليس ضروريّاً للأخلاقيّات، يرجعون بما يظنّون أنّه الورقة الرابحة: الزعم بحاجة نفسيّة أو عاطفيّة لإله، فلو رَميتَ بالدين بعيدًا يسألون بعصبيّة: ما الذي ستضعون محلّه؟ ما هو الشيء الذي ستوفّره للمرضى على فراش الموت، أو المفجوعين الباكين، أو المجرمين المعزولين عن المجتمع؟ والذين يعتبرون الله صديقهم الوحيد المتبقّي؟

أوّل شيء يُقال هنا هو شيء لسنا بحاجة إلى قوله: إنّ قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقيّاً، حتّى لو أنّنا قدّمنا تنازلاً كبيراً، وحتّى لو تبيّن بشكل حاسم بأنّ الإيمان بوجود الله ضروري وأساسي للاستقرار النفسي والعاطفي، وحتّى لو قلنا إنّ كلّ الملحدين مصابون بقلق انتحاري بسبب الشعور بالفراغ الكوني، فلن يساهم أيّ مما سبق

وبأيّ شكل مهما كان صغيرًا كدليل على أنّ الإيمان الديني حقيقي، ربّما يكون دليلاً يدعم الرغبة بإقناعك لذاتك بأنّ الله موجود حتّى لو لم يكون موجوداً.

دانييل دينيت (Daniel Dennett) في كتابه كسر التعويذة (Breaking the Spell) يفرّق بين الإيمان بالله والإيمان بالإيمان، ذلك النوع من الإيمان المرغوب أن نؤمن به، حتّى لو كان الإيمان بحدّ ذاته خاطئاً. «أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي»(١).

يتمّ حثّ المؤمنين لترديد إيمانهم بغضّ النظر عن اقتناعهم به، ربّما لو كرّرتَ شيئًا بشكل كافٍ فإنّك ستنجح بإقناع نفسك بأنّه حقيقيّ.

وأعتقد أنّنا جميعاً نعرف البعض ممن يبتهجون بالإيمان الديني ويرفضون أيّ هجوم عليه، بينما يعترفون بالتردّد بأنّهم لا يمتلكونه أنفسهم؟»(٢)

الجواب: عوداً على بدء، لو أتينا بمليون شخص من المؤمنين بالله، وسألناهم عن سبب إيمانهم بالله، فهل سنسمع من واحد منهم قوله: نحن تخيّلنا ذلك لأنّنا نجد العزاء فيه، ولأنّنا نحتاج إليه عند الموت، ولأنّنا إذا قمنا بالجريمة ووُضعنا في سجن انفرادي نحتاج إلى صديق، فتخيّلنا هذا الصديق، فآمنا بالله؟

أليس هذا الكلام كذباً من الملحدين على ألسنة المؤمنين؟

وهل كلّ الناس آمنوا بالله فقط عند موتهم، أو عندما وضعوا في سجن انفرادي، أو عندما فُجعوا بعزيز؟

نعم المؤمنون عندما يُفجعون بعزيز يجدون العزاء في وجود الله، لأنّهم يؤمنون بالحياة بعد الموت، فإيمانهم بعالم الآخرة هو العزاء لديهم، وليس العكس؛ فليس

---

(١) إنجيل مرقس، الاصحاح التاسع: ٢٤.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٥٧-٣٥٨.

لأنّهم يحتاجون إلى العزاء آمنوا بوجود حياة بعد الموت، بل العكس هو الصحيح.

لو قال أحد مثلاً بأنّ المؤمنين آمنوا بوجود الله لأنّهم ما استطاعوا أن يدفعوا الموت عن أنفسهم، فقالوا إنّ الله موجود وهو الذي يحيي الناس ويميتهم، فهذا غير صحيح لأنّ الناس آمنوا بوجود الله أوّلاً، فآمنوا بأنّ الله هو الذي يميتهم ثانياً، كما أنّ الشعور بالفراغ ليس هو السبب الوحيد لإيمانهم بالله.

غريب! إنّ الملحدين حينما يتكلّمون عن المؤمنين يخترعون لإيمانهم سبباً ما، ثمّ يفنّدون ذلك السبب الذي اخترعوه، فيقولون مثلاً: «السبب الوحيد للإيمان بالله هو قلق الانتحار بسبب الشعور بالفراغ» ولا أدري كيف يجيز هؤلاء لأنفسهم التقوّل كذباً وزوراً على المؤمنين بهذا الشكل؟ لكن هذا هو ديدنهم، يطلقون الأحكام جزافاً على المؤمنين، ويكذبون عليهم بينما لا نجد أنّ المؤمن يتقوّل على أحد فلا يقول مثلاً: «إنّ الملحد إنّما ترك الإيمان بالله لأنّه في صغره هجم عليه كلب، وما استطاع أن يدفعه عن نفسه فقال: الله غير موجود». إنّ أيّ مؤمن لا يدّعي هذا الأمر على الملحد، ولكن لو ادّعى ذلك فما هو جواب الملحدين؟

ألا يقولون: هذا غير صحيح، لأنّنا لم نترك الإيمان بالله لهذا السبب.

لكن كيف يسمح الملحدون لأنفسهم أن يكذبوا على غيرهم ويبنون عليها أحكاماً، ثمّ يدّعون أنّ أدلّتهم علميّة؟!.

◂ ما الذي قدّمه الدين للبشريّة؟

يقول جيمس ماديسون (James Madison) رابع رئيس للولايات المتحدة الأمريكيّة والذي لعب دوراً هاماً في وضع دستور البلاد عام ١٧٨٧م: «تجربة المؤسّسة المسيحيّة الرسميّة امتدت حتّى الآن لخمسة عشر قرناً، ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة، فخر وكسل لرجال الدين، وتجاهل وذلّ للعلمانيّين، وتعرّضهم للاضطهاد والملاحقة».

الجواب: حديثنا هنا ليس عن المؤسّسة المسيحيّة، ولا عن الكنيسة، وإنّما الحديث عن وجود الله عزّوجلّ، فهل إنّ المؤسّسة الرسميّة هي التي اخترعت وجود الله عزّوجلّ؟

ثمّ إنّ الادّعاء بأنّ المؤسّسات الدينيّة، سواء في المسيحيّة أو اليهوديّة أو الإسلام، لم تقدّم شيئا! إلّا الفخر وكسل رجال الدين، فهو مجرّد ادّعاء غير صحيح.

فجميع المؤسّسات الدينيّة، في جميع الديانات أدّت دوراً إيجابيّاً في منع الجرائم والموبقات، وفي إصلاح أخلاقيّات الناس، وفي دفع الناس إلى العمل الصالح، لأنّ جذور الأخلاق إنّما هي في الديانات.

إنّ إيمان الناس بالسيد المسيح عليه السلام الذي يطالب بالتعاون مع الآخرين، وبالعفو والغفران للمسيئين ويقول: «**إنْ لَطَمَكَ أَحَدٌ عَلَى خَدِّكَ الأيمَن، فَقَدِّمْ لَهُ الخَدَّ الآخَرَ أيضاً. وَإنْ أرادَ أحَدٌ أنْ يُحاكِمَكَ لِيَأخُذَ قَميصَكَ، فَدَعْهُ يَأخُذُ مِعطَفَكَ أيضاً. وَإنْ أجبَرَكَ أحَدٌ عَلَى السَّيرِ مَعَهُ مِيلاً واحِداً، فَامشِ مَعَهُ مِيلَين**»[١] هذه التعاليم هي جذور أخلاقية، وهي القِيم التي بُنيت الحضارات عليها، فهل الديانات ليس فيها إلّا فخر وكسل رجال الدين؟!

بقاء الدين وانتشاره

يقول الملحدون: إنّ سبب بقاء الدين وانتشاره كظاهرة في المجتمعات، وفي مختلف مراحل الحياة البشريّة، هو حالة الطفولة، حيث إنّ دماغ الطفل صنع بشكل أن يتقبّل ما يقوله الكبار.

وهذا قد يكون نافعاً في بعض الأحيان، وضارّاً في أحيان أخرى.

الجواب: إنّ الملحدين الذين عادة ما يفسّرون كلّ شيء بـ(الانتخاب الطبيعي) لأنّ الأشياء إنّما تبقى لفائدتها أو لأنّها أصلح، ولكنّهم يتورّطون في تفسير ظاهرة

(١) انجيل متى، الاصحاح الخامس: ٣٩-٤١.

الدين، كما يتورّطون في ظواهر أخرى كثيرة، فهل إنّ ظاهرة الدين هي ظاهرة مفيدة وضرورية للبقاء فبقيت، أو أنّها لم تكن ضرورية للحياة، ولا كانت الأصلح، لكنها مع ذلك بقيت رغم أنف النظرية الداروينيّة؟

هنا يضرب أحدهم مثالاً لكي يهرب من الإجابة على هذا السؤال فيقول: «صحيح أنّ أيّ شيء يكون منتشراً بكثرة لدى جنس ما مثل الدين، يجب أن يكون له فائدة، وإلّا لن يُكتب له البقاء، لأنّ (الانتخاب الطبيعي) الدارويني يكره التبذير، فلا يحتفظ بشيء لا فائدة منه... لكن بقاء الدين هو مثل بقاء الفيروسات التي تسبب الرشح، هذه الفيروسات ليست ضروريّة لا للبقاء البشري ولا هي الأصلح، لكنّها بقيت».

ألا ترى كيف يتخبّطون في الأمر؟ فهم يستخدمون مبدأ (الانتخاب الطبيعي) للأصلح حسب مزاجهم، فهو عندهم أحياناً قانون لا يمكن تخطّيه، وأحياناً أخرى يتجاوزونه بسهولة، لأنّه ليس في مصلحتهم.

حتّى في قضية بقاء الفيروسات المسبّبة للرشح، أو الحيوانات الضارة، وأيّ شيء آخر من هذا القبيل، الداروينيّة هنا تقع في مشكلة، مادام في نظرهم ليس هناك (تصميم ذكي) صنع هذا الكون، وأنّ ما هو موجود هو بسبب (الانتخاب الطبيعي)، فالسؤال مَن الذي كان ينتخب هذا أو ذاك؟ لا جواب لديهم، إنّما يقولون: الطبيعة تنتخب، لكن لماذا تنتخب الطبيعة الأصلح، وليس الأسوأ، مادام ليس لها عقل ولا فهم ولا إدراك؟ ولماذا أحياناً تنتخب ما هو أصلح وأحياناً تنتخب غير ذلك؟ الملحدون لا يملكون إجابة على ذلك.

ومن هنا فإنّ السؤال ليس عن بقاء الدين فقط كظاهرة يؤمن بها الملايين من الناس في كلّ عصر ومصر، إنّما أيضاً بقاء كثير من الموجودات، والأشياء التي لا فائدة منها في نظرهم، ولا هي ضروريّة لبقاء الجنس البشري.

وأساساً الداروينيّة عندها مشكلة في تفسير أكثر الأشياء، ولكن الملحدين كلّما أعوزتهم الأدلّة والبراهين توسّلوا بالطفرة، وقالوا هذا حدث بسبب الطفرة، أو

إنّه حدث بسبب خطأ ما في مكانٍ ما.

وسؤالنا هو التالي: كيف يمكن أن نعتبر هذا الكلام علميّاً، ونقول بالطفرة؟!

قد يقول قائل: إنّ كلّ شيء بالطفرات. ولكن لماذا في أماكن معيّنة تؤمنون بـ(الانتخاب الطبيعي) وبقاء الأصلح وما شابه ذلك وفي مكان آخر تؤمنون بالطفرة؟

أنا أقول العكس: الإيمان بالله هو (الانتخاب الطبيعي) الصحيح، لكن الإلحاد طفرة، وهو مثل خروج الجينات عن مسارها الطبيعي.

الشباب يبقون عادة لكن إذا حدث موت مفاجئ لشاب فهذا بسبب خطأ ما؛ كحادث سيارة، أو بسبب لمسة كهرباء، أو أي سبب آخر. كذلك الإلحاد إنّه خروج عن المسار الطبيعي وهو انتخاب للأفسد، لماذا لا نفسّر الإلحاد بنفس التفسير الذي تفسّرون به الدين، ولماذا باؤكم تجر وباؤنا لا تجر؟

ما فائدة الدين؟

يقول الملحدون في تفسير وجود الدين: لمعرفتنا بأنّنا نتاج (انتخاب طبيعي) دارويني يجب أن نسأل عن الضغوطات التي مارسها (الانتخاب الطبيعي) والتي خدمت النزعة الدينيّة، والسبب هو أنّ المطلب الأساسي في الداروينيّة هو الاقتصاد بالمصادر، بينما الدين عنده تبذير هائل، والانتخاب الدارويني بطبيعته يلغي التبذير.

إنّ الطبيعة كالمحاسب البخيل الممسك بقوّة بقروشه، ويراقب الساعة ويعاقب على أقلّ تبذير بدون رحمة وبدون إجازة، فـ(الانتخاب الطبيعي) يقوم كلّ يوم وكلّ ساعة وفي العالم كلّه بمراقبة كلّ التغيرات حتّى أدقها، ويرفض ما هو سيّء ويحافظ ويزيد ما هو جيد، يعمل بصمت وبدون اكتراث وكلّما سنحت الفرصة لتحسين كلّ نظام حيّ.

فلو مارس حيوان ما نشاطاً معيّناً بدون فائدة، فإنّ (الانتخاب الطبيعي) سيخدم منافسيه الذين يخصّصون وقتهم وجهدهم لأجل البقاء والتكاثر، فالطبيعة لا تملك مساحة لبهجة روحانيّة طائشة، النفعية العديمة الرحمة تنتصر، حتّى ولو بدا لنا ذلك مختلفاً في بعض الأحيان.

ويضرب الملحدون مثالاً بذيل الطاووس، فيقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «من النظرة الأولى لذيل الطاووس نرى بأنّه مثال فريد للتبذير، حيث يبدو مستحيلاً أن يكون -هذا الذيل- ذا منفعة بقائيّة لصاحبه، ولكنّه يفيد المورثات التي تجعله مميزاً عن منافسيه الأقل جماليّة.

الذيل أشبه بحملة دعائيّة، تضمن لصاحبها مكانه في سوق الطبيعة من خلال جذب الإناث»[١].

والشيء ذاته ينطبق على أمور كثيرة في عالم الطيور والحيوانات المختلفة.

ويواصل دوكنز كلامه فيقول: «تبدو الطقوس الدينيّة كذيل الطاووس في ساحة مشمسة.. السلوك الديني بشكل عام هو النظير الإنساني للتنميل أو بناء الكوخ للطيور، فهي تحتاج لوقت وطاقة وغالباً بذخ تبذيري كما في حالة ريش طيور الجنة.

الآلاف عُذّبوا بسبب ولائهم لدين ما، واضطهدوا من قبل متعصّبين ممن ينتمون لاعتقاد مغاير، فالدين يلتهم المصادر الإنسانيّة، وغالباً يكون ذلك على درجة هائلة، فمثلاً: كاتدرائيّة من العصور الوسطى ربّما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمان لبنائها، ولم

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦٣.

تُستخدم كمسكن أبداً، أو لأيّ سبب آخر مفيد يمكننا معرفته!

فهل هذه العمارة من قبيل ذيل الطاووس؟

لو أنّ الإجابة هي بنعم، فمَن هو المقصود بالدعاية؟

وأيضا الموسيقى التي تُعزف في الكنائس، ورسوم دينيّة احتكرت مواهب العصور الوسطى وعصر النهضة، المتعبّدون قُتلوا في سبيل آلهتهم وقتلوا آخرين من أجل ذلك، وأدموا ظهورهم بالسياط.. وكلّ ذلك من أجل الدين.. لِـمَ كلّ ذلك؟ ما فائدة الدين؟»[1].

الجواب: هذا الكلام باطل لعدّة أسباب:

الأول: إنّه يعني أنّ الطبيعة تفهم وتعي وتقرّر وتخطّط وتصمّم لما تريد أن تفعله، والملحدون الذين ينكرون وجود (مصمّم ذكي)، كيف ينسبون الفهم والإدراك والحرية والاختيار والتصميم إلى الطبيعة بحيث يدّعون أنّها تفهم حتى مسألة التبذير؟ وهي تحاسب وتراقب وتقرر، فبينما يجرّدون خالق الكون من القدرة على التصميم فإنّهم ينسبون ذلك إلى الطبيعة العمياء!

وثانياً: إنّ إطلاق أحكام كليّة في تفسير وجود المعابد، للهروب من الإجابة على الأسئلة الأساسيّة في قضية وجود الله ووجوب عبادته، وفي مسألة سبب التزام الناس بالدين، إطلاق هذه الأحكام دليل على إفلاس الملحدين.

فهل صحيح أنّ الكنائس والمعابد التي أسّسها الناس، وفيهم علماء ومفكرون وأساتذة جامعات، هذه كانت مثل ذيل الطاووس، وهو السبب لوجود المعابد ووجود التديّن في جميع الحضارات الإنسانيّة!

ثالثاً: الذي لا يفهم لماذا كان ذيل الطاووس جميلاً يعتبره شيئاً زائداً لا فائدة منه، ومن قال لك إنّ جمال ذيل الطاووس بلا هدف؟!

في نظر الملحدين الجمال ملغى، فعندهم البقاء للأصلح، باعتباره الأقوى وهو

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦٤-١٦٥.

كلام غير صحيح، فباستطاعتنا أن نضرب أمثلة بألوف الحشرات التي ليست أصلح للبقاء لأنّها ليست أقوى، ولكنّها بقيت بينما انقرضت الديناصورات.

فهل كان بقاء بعوض الملاريا مثلاً أصلح من بقاء الديناصورات؟

رابعاً: إنّنا نجد في كلّ شيء خلقه الله الإبداع، فالله ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] فنحن المؤمنون نقول: إنّ الله جميل يحبّ الجمال، وربّنا عزّوجلّ لم يُعط الأشياء قدرتها على البقاء فحسب، وإنّما أعطاها الجمال أيضاً؛ ألا ترى أنّ الأشجار جميلة، والشمس جميلة، والنجوم جميلة، والبحار والأنهار والجبال والسهول والحجر والورود، كلّها جميلة.

فالله خلق الطاووس وجعله جميلاً، وهل يجب أن تتوفّر فائدة ماديّة بحتة بعيدة عن الجمال لوجود ذيل الطاووس؟

خامساً: إنّ الملحدين يخترعون أمثلة معيّنة، ثمّ يبنون عليها حججهم ويطلقون الأحكام جزافاً بلا دليل لإثبات ترّهاتهم، فعندهم إنّ وجود الدين في الحضارات هو مثل وجود ذيل الطاووس!

ولماذا لا يكون وجود الدين في الحضارات بسبب الحاجة الوجدانيّة الفطريّة عند الإنسان، وبحثه الدائم عن ربّه وخضوعه لخالقه؟

إنّ المثال الساذج لتفسير كلّ ما بناه أناس عقلاء أكثر فهماً وإدراكاً من كلّ الملحدين من المعابد والكنائس والمساجد لعبادة ربّهم بذيل الطاووس دليل على مستوى تفكير الملحدين وضحالة عقليّتهم!

سادساً: من قال إنّ ذيل الطاووس وأفعال الطيور بلا فائدة؟ هل لأنّ الملحد لم يعرف الهدف والغاية منها فافترض أنّها بلا فائدة، وهل يصحّ أن نطلق الأحكام جزافاً ثمّ ندّعي أنّنا أهل علم وعلماء؟

---

(١) سورة البقرة: ١١٧.

الإيمان قناعة وليس إكراهاً

يقول البعض: هنالك العديد ممن تربّوا على دين ما، وليسوا سُعداء معه، أو قلقين على ما يُرتكب باسمه من شرور، بل هنالك من يشعر بالرغبة في ترك دين آبائه، ويتمنّى لو استطاع لذلك سبيلاً، لكن لا يدري أنّ هذا من الخيارات الممكنة بالفعل.

الجواب: هذا أمر غير صحيح إطلاقاً، بدليل أنّ الكثير من الناس ليسو مؤمنين بالديانات ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، ومن يدّعي أنّه يريد ترك الدين والانتقال إلى الكفر يرى هؤلاء الكفار بعينه، وبالتالي فهو يعرف أنّه من الممكن أن يترك دينه لو أراد.

تُرى، إن لم يكن الناس سعداء بإيمانهم بالله تعالى، فما الذي يمنعهم من ترك هذا الإيمان؟!

وهل هنالك سيوف مسلّطة على رؤوسهم كي يؤمنوا؟!

فكم ترك الناس الدين في الغرب وفي أفريقيا وفي كثير من مناطق العالم، بل نستطيع القول: إنّ باستطاعة الناس في كلّ العالم أن لا يؤمنوا، فليس هنالك إجبار على الإيمان، وهذا يعني أنّ الذين يؤمنون بالدين إنّما يفعلون ذلك عن قناعة وليس عن إكراه.

صحيح أنّ بعض الدول تفرض الالتزام الظاهري ببعض ما جاء به الدين والأماكن العامة، أمّا في داخل البيوت فمن الذي يفرض على الناس الإيمان بالله؟ وهل الناس لا يعرفون الطريق إلى الكفر، حتّى يأتي إليهم الملحدون ويقولوا لهم: باستطاعتكم أن تتركوا الدين؟!

---

(١) سورة يوسف: ١٠٣.

الدين ظاهرة عظيمة وأدلّته كثيرة

يقول الملحدون: هنالك القليل من الأدلّة بأنّ الإيمان الديني يؤمّن بعض الحماية من الضغوط النفسيّة والأمراض الناتجة عنها، لكن الأدلّة ليست قويّة، وصدقها ليس مهمّاً ولعل ذلك صحيح في بعض الحالات، إلّا أنّ القول بأنّ «المتدين هو أسعد من المتشكّك (الذي لا يؤمن) لا يتعدّى كونه أكثر نسبيّة من أن نقول أنّ السكران أسعد من الصاحي» كما يقول جورج برنارد شو (George Bernard Shaw).

ويضيفون: إنّ جزءاً مما يقدمه الطبيب للمريض هو العزاء والاطمئنان، فالطبيب الذي يزوره المريض لا يمارس التداوي بالتبرك، كما يفعل المتديّنون عن طريق وضع يده على المريض، لكن المريض يشعر وكأنّه شوفي مباشرة من بعض الأمور البسيطة، بمجرد الشعور بالاطمئنان لصوتٍ يخرج من فم من يحمل سمّاعة طبّيّة.

ذلك العلاج الوهمي وتأثيره موثق ومدروس بشكل جيد وليس لغزاً، وهذا يشبه الحبوب التي لا دواء فيها التي تُسمى بالحبوب الخَلّبيّة، ففيها رد فعل إيجابي على الصحة في بعض الأحيان، وكذلك بعض الأدوية الطبيعيّة التي تعتمد على الأعشاب، فهي تبدو وكأنّها فعّالة، على الرغم من أنّ العناصر مخفّفة جداً بشكل كبير.

الدين هو مثل هذا العلاج الوهمي، والكلام هو أنّ هذه الفائدة البسيطة للتدين ليست خاصة بالدين كما قلنا، فما هو الجواب؟

الجواب: بداية إنّ ادّعاء الملحدين بأنّ فائدة التديّن هي فقط فائدة نفسيّة للحصول على بعض الاطمئنان، وأنّ هذا يشبه كلام الطبيب والاطمئنان الذي يشعره المريض معه.. هذا الكلام مجرد ادّعاء وليس صحيحاً على الإطلاق.

نعم للتدين فوائد كثيرة منها هذه الفائدة، لكنّها واحدة من ملايين الفوائد

الأخرى للتديّن.

فليس الدين هو تلك الحبة الخالية من الدواء التي تنفع بواسطة تخفيف التو النفسي، ولم يقل أحدٌ من المتديّنين إنّ الله تعالى موجود لأنّك تحصل على اطمئنا نفسي من التبرك ببعض ما جاء في الدين!

إنّ الله موجود لأنّ الكون موجود، ولأنّ ملايين من الآيات الدالّة على قدر الله وحكمته وعلمه موجودة في كلّ جزء من أجزاء الحياة، وليس السبب ه الشعور بالاطمئنان بسبب التديّن، وإن كان ذلك موجوداً.

صحيح أنّ المتديّنين يشعرون بالراحة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] لأ المتديّن حينما يرى أنّ حياته بيد ربّه، وأنّ ما يواجهه من المشاكل يمكن أن يحلّها ا عزّوجلّ، وأنّ ربّه قادر على كلّ شيء، ويستجيب لمن يطلب منه، ويقضي حوائج وكل هذا يعطيه الاطمئنان ويمنحه الراحة النفسيّة، لكنّ الإيمان بوجود الله إ هو لما نجده من ألوف الأدلّة على ذلك، والإنسان بعد أن يؤمن بالله يحصل ع هذا الاطمئنان.

إنّ الدين ظاهرة عظيمة وأدلّته كثيرة، وليس مجرد الحصول على بعض الفوا هو وحده السبب وراء التديّن حتّى يشكّك فيها الملحدون فيدّعون عدم وجو الله.

إنّ الدين يعطينا الإجابة على أسئلة أساسيّة، عن وجود الكون والإنسا وعن الهدف من وجوده، ويكشف لنا عن مستقبلنا ومصائرنا، وعن حياتنا ب الموت، ويكشف لنا عن حقائق مهمّة مصيريّة كالجنّة والنار، وليست القضية مج الحصول على بعض الاطمئنان النفسي.

إنّ الملحدين يتوسّلون بـ(الداروينيّة) كلّما فشلوا في تقديم دليل على دينه الإلحادي الذي هربوا به من الإيمان، غير أنّ (الداروينيّة) ربّما تشرح لمن يؤم بها عن كيفيّة حركة الشيء بعد تحريكه من قِبل محرّك ما، ولكنّها لا تعطي دلي

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

لوجود المتحرّك ووجود الحركة.

(الداروينيّة) قد تقول لنا: إنّ هذه المحرّكات التي في السيارة مثلاً إنّما تتحرّك بفعل احتراق البترول، ولكنّها لاتفسّر لنا سبب وجود المحرّكات والبترول.

إنّ (الداروينيّة) عاجزة عن إعطاء التفسير للوجود عن طريق (الانتخاب الطبيعي) و(التطوّر).

والقول بأنّ المحرِّك يتحرّك بسبب احتراق البترول، ليس جواباً عن السؤال: مَن الذي أوجد البترول، وجعل له خاصيّة الاحتراق؟

إنّنا إذا رأينا سيارة تمشي في الشارع فلا بدّ أن نسأل عمّن يحرّكها ويقودها وعمّن استخدم المفتاح وشغّل المحرك؟ وليس فقط عن كيفيّة حركتها فـ(الداروينيّة) عاجزة عن الإجابة عن هذه الأسئلة.

◂ هل العلم يؤدّي إلى الإلحاد أم الإيمان؟

سؤال: نحن نجد علماء كباراً في الفيزياء والكيمياء وفي مختلف الاختصاصات وهم ملحدون، فألبرت أينشتاين (Albert Einstein) مثلاً يُصنَّف على أنّه ملحد، وكذلك ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) الفيزيائي المعاصر، أليس هذا دليلاً على أنّ الإلحاد ليس ضدّ العلم فحسب، بل العلم يؤدّي إلى الإلحاد؟

الجواب: غريب حقّاً أن يستشهد أحد برجل من هنا ورجل من هناك لم يكن تخصّصه في أمور الدين، أو أنّه ترك الدين لأنّه لم يكن يريد أن يلتزم بالقواعد والأصول التي جاءت بها الديانات، لإثبات أنّ الإلحاد هو نتيجة العلم، ولو أنّك قرأت تاريخ كلّ الذين ألحدوا ستجد أنّ تصرّفاتهم الشخصيّة، هي تصرفات غير لائقة بالفرد العادي، فكيف بمن يدّعي العلم؟

إنّ شخصاً مُبتلى بالإدمان، أو يعيش حالة الشذوذ الجنسي، وهومتخبّط في حياته الشخصيّة، كيف يكون مقياساً لنا في الدين والتديّن؟!.

ثمّ إنّ هؤلاء متخصّصون في علوم محدّدة وليس لهم إلمام في مجال العقيد
والاستدلال بأمثالهم يشبه أن يقول أحد إنّ علم الطب غير صحيح، بدليل أ
رجلاً كان تخصّصه في علم الهندسة لم يلتزم بالطب.

ومن جهة أخرى فإنّ أغلب علماء الاجتماع، وعلماء الذرّة، وعلماء الطب
وعلماء الفلك، هم مؤمنون بالله، فلماذا يُستدل ببعض الشذوذ، ولا يُستدل برجا
عظماء أمثال الأنبياء عليهم السلام؟ الذين طوّروا التاريخ وحرّكوا العقل البشري، و
يزال الملايين من الناس يعتقدون بهم ويلتزمون بمنهجهم، كلّ هؤلاء نلغيهم و
نستدل بأعمالهم والتزاماتهم وتديّنهم، ونبحث عن ملحد شاذ هنا وشاذ هناك!.

ثمّ إنّ الحق لا يعرف بالرجال وإنّما العكس «**اعرف الحق تعرف أهله**»[1] ك
يقول أمير المؤمنين عليه السلام، ولذلك فإنّ إيمان المؤمنين لا يتزلزل ولا يتأثّر إذا ز
مؤمن أو نقص ملحد.

ثمّ إنّ الكثير من الأسماء التي يطرحها الملحدون، ويروّجون لها باعتبار أ
أصحابها ملحدين هنالك جدل أساساً حول اعتقاداتهم، فعلى سبيل المثال ننق
هنا بعض الكلام الذي يقال حول ألبرت أينشتاين (Albert Einstein)، ولس
هنا بصدد إثبات إيمان أو إلحاد أينشتاين لأنّه أمر لا يعنينا، ولكن بما أنّ الملحدي
يذكرون اسمه فنورد هذه المقاطع.

يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew): «لن نجد كبدا
لطرح مفاهيم علماء الفيزياء الحديثة الكبار، حول هذه القضية، أفضل من ألبر
أينشتاين (Albert Einstein)، يقول أينشتاين: أريد أن أعرف كيف خلق الإ
الكون، أريد أن أتعرّف على أفكار الإله، والباقي سيكون تفاصيل مُكَمِّلة.

ويُشَبِّه أينشتاين المعرفة الإنسانيّة عن الكون بطفل صغير داخل مكت
ضخمة، مليئة بمجلّدات كُتبت بلغات عديدة، يدركُ الطفل يقيناً أنّ كُتّاباً كتب

---

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٠
ص ١٢٦، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

هذه الكتب، ولكنّه لا يعرف كيف، ولا يفهم اللغات التي كُتبت بها، يدركُ أن الكتب رُصّت داخل المكتبة بنظام مّا، لكنّه لا يعرفه.

يُشَبِّه أينشتاين تصوّر العقلاء من البشر عن الإله بهذا المثال؛ يلمسون ما في الكون من نظام مبهر، ويدركون أنّه يتبع قوانين طبيعيّة رائعة، لكنّهم لا يفهمون عنها إلّا القليل، ومن ثمّ يدركون دون شك أنّ هناك قوّة خفيّة وراء ذلك كلّه.

يلخّص ماكس جامر (Max Jammer) أحد أصدقاء أينشتاين في كتابه: أينشتاين والدين (Einstein and Religion) عقيدة أينشتاين في الإله قائلاً: «يرفض أينشتاين فكرة الإله المتشخّص، ولكنّه يؤمن بوجود إله غير مادي، يُظهر نفسه في قوانين الطبيعة.

ويؤمن أينشتاين بأنّ من يفهم الطبيعة يعرف الإله، لأنّ ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبّار يقف وراءها، وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته.

إذن يؤمن أينشتاين بخالق مطلق العلم، مطلق القدرة، لا يحدّه الزمان ولا المكان، وقد أطلق أينشتاين في كتاباته على الإله أسماء عديدة مثل: «عقل علوي سام»، أو «الروح العلوي اللّا متناهي»، أو «العقل الفائق».

ومع ذلك فإنّ الكثيرين يدّعون أنّ أينشتاين هو الأب الروحي للإلحاد، وذلك لربطه بين الإله والطبيعة، وقد روّج لهذا الرأي البيولوجي الملحد ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)، وأعلن أنّ أينشتاين يقصد بهذه الصفات التي وصف بها الخالق الطبيعة، وليس الإله!.

وقد أعلن أينشتاين رفضه لفكرتي الإلحاد ووحدة الوجود، بل وأعلن في العديد من كتاباته ومحاضراته وحواراته عن غضبه وضيقه من أنّ الملحدين ينسبونه إلى الإلحاد ليدعموا وجهة نظرهم»[1].

---

(١) Flew, Antony: There Is a God, pp. 98-101.

أمّا قول الملحدين بأنّ العلم يؤدّي إلى الإلحاد فهو ادّعاء بدون دليل، بل إنّ العكس هو الصحيح، يواصل أنتوني فلو (Antony Flew) كلامه فيقول[١]: «لم يكن أينشتاين هو الوحيد من علماء الفيزياء الحديثة الكبار الذي ربط بين انتظام قوانين الطبيعة وبين حكمة الإله الخالق، فأساطين فيزياء الكوانتم (Quantum physic) يُشاركونه الرأي نفسه، ونهتمّ هنا بعرض رؤيتهم لأنّ البعض يعتقد خطأً أنّ فيزياء الكوانتم يمكن أن تفسّر نشأة الكون من العدم، دون الحاجة إلى إله خالق، كما تمثّل رؤية كلّ منهم جانباً من العلاقة بين العلم وقضية الألوهيّة:

- يقول فيرنر هايزنبرج (Werner Heisenberg) صاحب مبدأ اللاحتمية أو الارتياب (Uncertainty principle): «كنت طوال حياتي مدفوعاً إلى تأمّل العلاقة بين العلم والدين، ولم أجد في أيّ وقت مهرباً من الإقرار بدلالة العلم على وجود الإله»[٢].

  ويقول: «مالذي يحكم حركة الإبرة المغناطيسيّة لتستقر تجاه الشمال والجنوب، إنّه نظام مبهر تحكمه قوّة حكيمة قادرة، قوّة لو اختفت من الوجود لاجتاحت الجنس البشري مصائب رهيبة، مصائب أسوأ من الانفجارات النووية وحروب الإبادة»[٣].

- ويقول إروين شرودنجر (Erwin Schrodinger) مؤسس علم ميكانيكا الموجات (Wave mechanics): «إنّ الصورة التي يرسمها العلم للوجود من حولنا، قاصرة للغاية، فبالرغم من الحقائق الكثيرة التي يقدّمها لنا ويصيغها في القوانين التي تحكم الوجود، يقف العلم

---

(١) Flew, Antony: There Is a God, pp. 103-106

(٢) Heisenberg, Werner: Across the Frontiers, p. 213, Harper & Row, 1974.

(٣) Heisenberg, Werner: Physics and Beyond, (Harper & Row, 1971), excerpted in Timothy Ferris, ed., The World Treasury of Physics, Astronomy and Mathematics, p.826, Little, Brown, 1991.

كالأبكم أمام الأمور القريبة من قلوبنا والتي تهمّنا حقيقةً.

لا يقول العلم كلمة في تفسير شعورنا بالانشراح أو الكآبة، ما تثيره فينا الألوان كالأحمر والأزرق، لـمَ نعتبر هذا المنظر جميلاً أو قبيحاً؟ كيف نفسّر التناسق والانسجام في الوجود؟ إنّ العلم لا يعرف شيئاً عن الخير والشر، إن مثل هذه الأمور لا يفسّرها إلّا الإقرار بوجود الإله».

ويضيف شرودنجر: «أحياناً يحاول العلماء الماديّون الإجابة عن هذه التساؤلات، لكن أجوبتهم تكون من السخف بحيث لا يمكن أخذها بالجدية بالمرة، وكثيراً ما يوصم العلم بأنّه ملحد، ولا غرابة في أن يبدو كذلك، إذ إنّنا ننزع مفاهيم الجمال والبهجة والخير والشر، وإذا كان العلم المادي ينزع الإنسان من إنسانيّته، فكيف يُقرّ بأكثر المفاهيم التي يواجهها العقل البشري سموّاً؟!»[1].

- أمّا ماكس بلانك (Max Planck) مؤسس فيزياء الكم فيقول: «لا يمكن أن نجد تعارضاً حقيقيّاً بين العلم والدين فكلّ واحد منهما يكمّل الآخر»[2]، «إنّ كلّا من الدين والعلم يحارب في معارك مشتركة تكاد لا تكلّ، ضدّ الادّعاء والشك والتسلّط والإلحاد، من أجل الوصول إلى معرفة الإله»[3].
- ويقول بول ديراك (Paul Dirac) وهو من كبار المؤسّسين لفيزياء الكم: «إنّ الإله خالق حسيب، استخدم أرقى مستويات الرياضيات في تصميم الكون ووضع قوانينه»[4].

---

(١) Schrödinger, Erwin: My View of the World, p. 93, Cambridge University Press, 1964.

(٢) Planck, Max: Where Is Science Going?, p.168, Norton,1977.

(٣) Planck, Max: quoted in Charles C. Gillispie, ed., Dictionary of Scientific Biography, p.15, Scribner's,1970.

(٤) Dirac, Paul: The Evolution of the Physicist's Picture of Nature, Scientific American 208, no. 5 (May 1963): p.53.

- نصل إلى عملاق الفيزياء المعاصر ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) فنقرأ في خاتمة كتابه تاريخ موجز للزمن (A Brief History of Time) قوله: «إذا توصّلنا إلى النظرية الجامعة (Universal Theory) فإنّها ستمكّن كلاً من العلماء والفلاسفة، بل والناس العاديين، من فهم بعض الجوانب عن الحكمة من وجود الكون ووجودنا، وإذا عرفنا ذلك فسنكون قد عرفنا كيف يفكّر الإله»[1].

وفي موضع آخر من الكتاب يقول: «إنّ النظرية الجامعة ستكون مجموعة من القواعد والمعادلات، والسؤال هو: من الذي نفخ في هذه المعادلات المجرّدة القدرة والحياة، ليخرج منها الكون المادي الذي تُوَصِّفه؟»

ويقول هوكينج في إحدى حواراته: «كلّما ازدادت معرفتنا بالكون وبالقوانين المنطقيّة التي تحكمه، ازداد إدراكنا لما فيه من نظام وانسجام وتناسق».

ويقول: «لا شكّ أنّك تساءلت في يوم ما عن الحكمة من وجود الكون؟ قد لا تجد إجابة إلّا مشيئة الإله»[2].

التديّن وظاهرة الانتخاب الجماعي!

يقول الملحدون: إنّ سبب ظهور الدين هو نظريّة (الانتخاب الجماعيّ)، ويستشهدون على ذلك بكلام عالم الآثار كولين رينفرو (Colin Renfrew): «إنّ المسيحيّة بقيت من خلال الانتخاب لمجموعة، لأنّها غذّت فكرة الولاء للجماعة والمحبّة الأخويّة

---

(١) Hawking, Stephen: A Brief History of Time, pp. 174-175, Bantam, 1988.

(٢) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٨٩-٩٠.

للمجموعة، وذلك ساعد المجموعات المتديّنة على البقاء، على حساب المجموعات الأقل تديّناً».

ويشرح الملحدون ذلك بقولهم: «إذا كانت هنالك قبيلة تؤمن بإله محارب أو بتعبير آخر: تؤمن بآلهة الحرب، هذه القبيلة ستربح ضدّ القبائل التي تؤمن بآلهة السلام، أو ستنتصر على قبيلة ليس لها إله على الإطلاق، فالمحاربون المؤمنون بأنّ الموت في سبيل دينهم سيرسلهم للجنّة سيحاربون بشجاعة ويضحّون بحياتهم، وبذلك فإنّ قبيلة كهذه ترجّح للبقاء في حروب القبائل، حيث يسرقون أسباب حياة القبيلة المغلوبة ويأسرون نساءهم كالجواري، وقبيلة ناجحة بهذا الشكل المنتج سوف تلد قبائل مماثلة، وهذه القبائل بدورها ستلد قبائل مماثلة لها، ويبقى الجميع يعبدون آلهة الحرب»[1].

الجواب: الملحدون في العادة يطرحون سؤالاً على أنفسهم ثمّ يجيبون عليه بما يروق لهم، ثمّ يدّعون أنّ إجابتهم هي الحقيقة المطلقة.

مثلاً يقولون: من أين جاء تديّن الناس؟ فيجيبون تارة بأنّ السبب هو أنّ الطبقات الحاكمة استغلّت سذاجة الناس، ومن ثمّ فرضت عليهم التديّن لاستغلالهم، أو يجيبون بأنّ بعض القبائل آمنت بالله واستغلّت ذلك لكي تنتصر على غيرها.

والسؤال الذي يأتي هنا: فما بال المؤمنين بإلهٍ واحد ومن ثمّ يتحاربون؟ حتّى في الإسلام نجد أنّ هنالك نصوصاً لمعالجة هذه الظاهرة -أي حروب المؤمنين المسلمين فيما بينهم- يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[2].

فإذا كان سبب تديّن الناس هو اختراع الإيمان بالله للتغلّب على القبائل التي

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٧٠.

(٢) سورة الحجرات: ٩.

لا تؤمن بالله، فما بال الحروب تقع ما بين المؤمنين بالله أنفسهم؟

ثم إنّ الدين ظاهرة واسعة الانتشار، وليس التديّن خاصّاً بجماعة متفوّقة أو مغلوبة على أمرها، أو غنيّة أو فقيرة، أو مثقّفة أو غير مثقّفة، الدين موجود في جميع الطبقات، وفي جميع الأمم، وفي جميع الأماكن.

أمّا قضية أنّ الناس آمنوا بالمسيحيّة لأنّها كانت تُغذّي فكرة المجموعة وتدفع إلى التعاون فيما بينها، فإنّه غير صحيح لعدّة اعتبارات:

أوّلاً: الإيمان بالله بشكل عام كان موجوداً قبل السيّد المسيح، والمسيحيّون اضُطهدوا مئة عام، وكانوا يُصلبون على المشانق ويُقتّلون ويُنشرون بالمناشير لإيمانهم بالسيّد المسيح، فلم تكن هنالك مصلحة تغذّيهم للإيمان بالمسيحيّة، بل على العكس كانت مصلحتهم أن لا يؤمنوا بها، فلماذا نبحث عن مصلحة معينة ماديّة لا وجود لها، وندّعي أن تلك المصلحة هي التي دفعت الناس للإيمان بالدين؟

صحيح أنّه إلى الآن هنالك من المؤمنين ربّما مَن يستغل الدين لمصالحه الخاصّة، لكن في الأغلب يؤمن الناس بالدين لقناعتهم المطلقة به ولحاجتهم الروحيّة الحقيقيّة، الفرديّة والجماعيّة، ولإيحاءات ضمائرهم وفطرتهم ولما تدعو إليه عقولهم، فهم يؤمنون بالله ويلتزمون بالدين ليس لمصلحة، كما أنّهم قد يخسرون مصالحهم لأنّهم ينفقون أموالهم في سبيل الدين، ويتنازلون عن كثير من مصالحهم من أجل الآخرين، وربّما يضحّون بحياتهم لذلك، فإذن ليست المصلحة الماديّة هي الدافع وراء تديّن الناس، لا الآن، ولا في السابق.

ثانياً: إنّ ادّعاء الملحدين بأنّ سبب تديّن الناس هو أنّ قبيلة هنا وقبيلة هناك اخترعت الإيمان بالله من أجل التغلّب على قبائل أخرى، فيه استخفاف بعقول الناس ومغالطة كبيرة.

هل الناس اليوم أيضا يعيشون حالة القبائل المتحاربة؟ وهل إنّ المؤمنين بالله في جميع الديانات يؤمنون بإله الحرب للتغلّب على قبائل أخرى؟ هل في الغرب حيث

هنالك ملايين من المؤمنين بالله والمتديّنين، سواء بالدين المسيحي أو الإسلامي أو اليهودي، هؤلاء اخترعوا آلهة الحرب للتغلب على غيرهم، هل نحن لازلنا نعيش في الغابات مع القبائل المتناحرة؟

ثالثاً: إذا كان سبب تديّن بعض القبائل هو إيمانهم بآلهة للحرب كي ينتصروا على أعدائهم، فإذن لابدّ أن يكون الدين هو ظاهرة بين المنتصرين وليس بين المهزومين.

بينما العكس هو الصحيح في الأغلب، فالفقراء والمغلوبون على أمرهم أكثر تديّناً من المنتصرين الذين عادة ما يبتعدون عن الالتزامات الدينيّة، وقليل منهم يبحث عن التديّن والالتزام والعبادة وغير ذلك.

◂ الدين والطفولة

يقول الملحدون: إنّ الدين ينتهك الطفولة.

ويستشهدون على ذلك بقصّة مطوّلة لطفل اسمه ادغاردو مورتارا (Edgardo Mortara) تمّ اختطافه في سنة ١٨٥٨م[1]، وكان في السادسة من العمر وكان لأبوين يهوديّين، اختُطف عنوة بأمر من الشرطة البابويّة وأُجبر على الابتعاد عن والديه، ولم يلتق الوالدان به إلى الأبد، وتمّ تعميده وإجباره على اعتناق المسيحيّة.

ثمّ يقولون: وهذا مثال على انتهاك الدين لحرمة الطفولة وعلى الاعتداء على حقوق الأطفال من قبل المتديّنين.

الجواب: كالعادة يستند الملحدون إلى قصة ما -مثل هذه- لرفض الدين وإدانة كلّ المتديّنين، وينسون أنّ الملايين من الأطفال تمّ إنقاذهم من براثن الجوع والموت والمرض وانتهاكات حقوقهم، بسبب الجمعيّات الخيريّة الدينيّة في مختلف

---

(١) القصة ذكرها ديفيد كيرتزر (David Kertzer) في كتابه: اختطاف ادغاردو مورتارا، كما نقلها ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) في كتابه: وهمُ الإله ص٣١٥-٣١٦.

مناطق العالم.

ولو أنّنا نظرنا إلى تاريخ البشريّة بشكل عام، وإلى ما يحدث اليوم في العالم، فإنّنا نجد عشرات الألوف من الجمعيّات الخيريّة الصغيرة والكبيرة التي تهتمّ بالأطفال، وبالأيتام، وبالشعوب التي يضربها الجوع، وكلّ هذه الجمعيّات تقدّم أفضل أنواع الخدمات لإنقاذ الطفولة وكلّها يديرها المؤمنون بالله.

إنّ اتّهام المتديّنين بأنّهم ينتهكون حقوق الأطفال من خلال قصّة وقعت في إيطاليا في سنة ١٨٥٨م ثمّ النفخ في هذه القصّة وتكبيرها، والتباكي على مأساة هذا الطفل، حيث أُجبر على اعتناق المسيحيّة، وغضّ النظر عن عشرات الألوف من الحوادث التي أنقذ فيها المؤمنون الأطفال، إنّ ذلك تجنّي واضح على الدين، والمتديّنين، وهذا هو ديدن الملحدين، وتلك هي طريقتهم.

فما أكثر العوائل المتديّنة الذين تبنّوا أطفالاً مشرّدين هنا وهناك، وكم من جمعيات خيريّة أُسّست بدوافع دينيّة وتبنّت الاهتمام بالأطفال، وأنقذت حياتهم. لكنّ الملحدين يغضّون عيونهم عن كلّ ذلك، ويركّزون على طفل يهودي في مكان ما أُبعد عن أبويه ثمّ أُجبر على اعتناق المسيحيّة، وهذا عند الملحدين دليلٌ على انتهاك الدين لحقوق الطفولة!

أضف إلى ذلك إنّ الأحزاب الشيوعيّة الملحدة التي حكمت في روسيا، وفي أوروبا الشرقيّة، وفي جنوب شرق آسيا، انتهكت حقوق الأطفال والنساء والأرامل والكبار والصغار بالألوف، ودوافعهم كلّها كانت إلحاديّة، إنّ هذا لا يمرّ بخاطر الملحدين، فلم نسمع أنّ أحداً منهم رفع عقيرته ليدين تلك الأحزاب، لانتهاكها حقوق الطفولة، وحقوق النساء، وحقوق الحيوان.

ثمّ الأفظع من كلّ ذلك أن يُنسب انتهاك حقوق الأطفال إلى الدين!

نحن، ومعنا الملايين من المتديّنين، نُدين انتهاكات حقوق طفلٍ واحدٍ أينما كان وفي أيّ زمان، لكن أن يُنسب هذا الأمر إلى الدين فهذا يخالف العقل والمنطق والعلم.

نعم، وكما ذكرنا عدّة مرات، وقعت انتهاكات وفظائع ارتكبت بحق الناس مِن قِبل مَن كانوا يستغلّون شعار الدين لتبرير أعمالهم، كما وقعت انتهاكات لحقوق الإنسان تحت شعارات أخرى مثل الحريّة والاشتراكيّة والوحدة. فهل إذا وجدنا أنّ أحدهم ارتكب فظائع بحقّ الناس تحت شعار الحريّة فلابدّ حينئذٍ من إدانة الحريّة، واتّهام جميع الأحرار في العالم بالجريمة؟

لقد ارتكب الصليبيّون فظائع، كما أنّ محاكم التفتيش الإسبانيّة ارتكبت مجازر، فهل يجوز أن ندين بذلك المسيحيّة ونتّهم المسيحيّين كلّهم؟ ألسنا نجد في جميع الأديان، وعند الملحدين، وفي كلّ زمان ومكان أشراراً وقساة ومجرمين؟ ولا أحد ينسب ذلك إلى معتقد الأفراد أو إلى الشعارات التي يرفعونها.

إنّ اتّخاذ قصّة واحدة وقعت في سنة ١٨٥٨م كمثال عملي لإدانة الفكر الديني، وأن يُنسف بذلك الدين، وما خلفه وهو الإيمان بالله، إنّ هذا شيءٌ فظيع فعلاً.

ثمّ ما ارتباط هذا الأمر بوجود الله تعالى؟

أنت تجد في كتب الملحدين مثل هذه القصص، ثمّ الاستنتاج منها بأنّ الله غير موجود.. فما ربط هذا بذاك؟ وما هي العلاقة بين أن يكون هنالك متديّن أحمق ارتكب فضيحة من الفضائح، وبين إنكار وجود الله!

وهذا ما يفعله صاحب كتاب وهمُ الإله ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) في فصل مطول في كتابه[1] الذي هو مكرّس بحسب عنوانه على أنّ الله وهم، وليس له وجود، ويستدلّ بعمل شخص هنا وآخر هناك على عدم وجود الله عزّوجلّ.

حقّاً إنّ هذا أمرٌ غريب لا يرتكبه حتّى المتخلّفون عقلياً!!.

هل الدين سبب الجهل والجمود؟!

يقول الملحدون: إنّ الإيمان بالدين سبب لمنع النمو الفكري والنفسي

(١) الفصل التاسع: الطفولة.. الانتهاك والهروب من الدين

للأطفال بشكل خاص، والمجتمعات بشكل عام أليس كذلك؟

الجواب: قطعاً لا.

وذلك لأنّ الأديان كانت سبباً لتطوّر الحياة وتقدّم المجتمعات، فقد كان الناس يؤمنون بالأصنام كآلهة، ويعكفون على عبادتها، ولا يقومون بأيّ عمل يقدّمهم في الحياة، فجاءت الديانات وخلّصت الناس من هذه الخرافة فانطلقوا في الحياة، ومثال ذلك الواضح هو ما جرى على العرب في الجاهلية؛ حيث كانت القبائل تعبد مجموعة من الأصنام الحجريّة والخشبيّة وبعضها كان مصنوعاً من التمور، ولم يكن لديهم اقتصاد ولا زراعة ولا تقدّم، فجاء رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم وقال لهم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**» (1)، ثمّ قال لهم ﷺ: «**فَأَجِيبُونِي تَكُونُوا مُلُوكاً فِي الدُّنْيَا وَ مُلُوكاً فِي الْآخِرَةِ وَ تَدِينُ لَكُمُ الْعَرَبُ وَ الْعَجَم**»(2).

وعندها تحوّل أولئك العرب المتوحّشون إلى حملة مشاعل الحضارة في كلّ مكان، بينما لم ينتجوا قبل ذلك خلال أربع مئة عام غير عشر قصائد من الشعر يتغنّون بها!

لقد كانوا يعيشون على الغزو والعدوان والقتل ومصادرة حقوق الآخرين ووأد البنات،فتحوّلوا بفعل الدين إلى دعاة حضارة وتقدّم.

◂ هل الدين سبب المشاكل؟

يقول البعض: إنّ الدين هو أصل كلّ شر، فهل هذا صحيح؟

الجواب: إنّ هذا الكلام يشبه أن يقول قائل: إنّ وجود القانون هو سبب كلّ المشاكل في المجتمعات؟

(1) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج١٨، ص ٢٠٢.

(2) الطبرسي، العلامة الشيخ الفضل بن الحسن: إعلام الورى بأعلام الهدى، ص٤٠، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٠هـ.

ثمّ باستطاعة أيّ شخص سخيف أن يزعم أنّ العدل سبب الظلم، والخير سبب الشر، لكن إطلاق الكلام على عواهنه كما يفعل الملحدون دليل ضآلة عقولهم وسخف أفكارهم.

◂ الإيمان والإجرام هل من رابط بينهما؟

يقول الملحدون: إنّ الأبحاث المنظّمة تدلّ على أنّ الجرائم تزداد عند المتديّنين، حتّى أنّ جورج باول في كتابه «مقال عن الدين والدولة» المطبوع في سنة ٢٠٠٥م قام بمقارنة ١٧ بلداً من البلدان النامية واستخلص النتيجة التالية: «الإيمان المتزايد بالخالق يرتبط ارتباطاً طردياً مع نسبة أعلى من جرائم القتل، والموت المبكّر، والعدوى بالأمراض الجنسيّة وحمل صغيرات السن، والإجهاض مقارنة بالدول الديمقراطيّة والأكثر صحيّة»[١].

الجواب:

أوّلاً: إنّ هذا مجرّد ادّعاء، والملحدون يتقنون فن إطلاق الأحكام جزافاً، وليس كلامهم هذا إلّا من تلك الادّعاءات.

ثانياً: إنّه إذا كان الإجهاض مثلاً وحمل صغيرات السنّ والقتل وما شابه ذلك أقلّ في بعض الدول المتقدّمة، فهو ليس بسبب ضعف الإيمان بالله في الدول الديمقراطيّة، وإنّما بسبب وجود قوانين صارمة، وعقاب وحساب وكاميرات مراقبة وما شابه ذلك.

ثالثاً: إذا كان المقصود بالدول الديمقراطيّة الولايات المتحدة، فهي تعتبر دولة متديّنة، فلماذا يستشهد الملحدون عادة بأمريكا في بعض الأمور، ويهربون من الاستشهاد بها في أمور أخرى؟!

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٣٠-٢٣١.

نحن نقول: هل في الولايات المتحدة الأمريكيّة جرائم القتل، وأمراض العدوى الجنسيّة، وحمل صغيرات السن، والإجهاض، أكثر من بقية البلدان أم أقل؟

إذا قلتم: أقل.

نقول: الولايات المتحدة الأمريكيّة تعتبر من البلدان الأكثر التزاماً دينيّاً!

فكيف تقولون إنّ نسبة التديّن تدفع إلى مزيد من الإجرام؟

◂ الإلحاد مصدر الشرّ والإجرام

يقول الملحدون: إنّ الدين كان في التاريخ سبباً من أسباب الكثير من الحروب والكوارث، ودوره لم يكن دوراً إيجابيّاً إلّا في فترات استثنائيّة وعلى قدر محدود.

الجواب: الأمر بالعكس تماماً، وإليك مثالان من أمثلة الأشرار في القرن العشرين كانا يعلنان إلحادهما وهما ستالين (Stalin) الذي قتل الملايين من أبناء شعبه، وهتلر (Hitler) الذي تسبب في قتل الملايين من مختلف شعوب العالم.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بالجرائم التي تقع في مختلف مناطق العالم اليوم، مثل القتل، والاغتصاب، والسرقات، والإجرام، فهل هؤلاء الذين يرتكبون هذه الجرائم هم مؤمنون بالله في العادة، أم العكس تماماً؟

تُرى، لو أنّك سمعت بأنّ قسّيساً كان يغتصب البنات، أو أنّ رجل دين مسلم ارتكب جريمة قتل بحقّ بريء، أو أيّ شيء من هذا القبيل، وفي أيّ دين من الديانات، فإنّك تستغرب من ذلك لأنّ هؤلاء في العادة لا يرتكبون مثل تلك الجرائم، مما يعني أنّ المجرمين في العادة غير مؤمنين بالله.

وكذلك الأمر في المجرمين الكبار، إنّ الجريمة مناقضة للإيمان بالله، لأنّ من يؤمن بالله يخافه، ويخاف من عقابه. وهكذا فإنّ الادّعاء بأنّ الدين هو سبب لكثير من الحروب والجرائم هو ادّعاء غير منطقي، وغير علمي، وغير صحيح.

من المسؤول، الدين أم الإلحاد؟

يقول الملحدون: إنّ الحروب التي وقعت على الأرض كان الكثير منها بسبب إيمان الناس بالدين، فالدين هو سبب وقوع الحروب، فإذن الدين ليس نافعاً للبشرية.

وفي الإجابة على من يعترض عليهم بالقول بأنّ هتلر (Hitler) وستالين (Stalin) كانا ملحدين، تراهم يبدؤون بالتشكيك في أنّ هتلر وستالين كانا ملحدَين، ثمّ يشكّكون في أنّهما فعلا ما فعلا بدافع الإلحاد.

فبالنسبة إلى هتلر يُصرّون على أنّه كان مؤمناً بالمسيحيّة ومعتقداً بوجود الله، لأنّه قال في خطاب له بعد محاولة اغتياله بأنّ السماء هي التي حفظته، وشكر مَن في السماء.

أمّا بالنسبة إلى ستالين فيقولون: نعم، كان الرجل ملحداً، وإن كان في صغره أُدخل الكنيسة لكي يتعلّم هناك، وأنّ أمّه كانت تشتكي لأنّ ولدها لم يصبح قسّيساً لكن لم تكن مواقفه بسبب إلحاده.

إذن القضيّة ليست قضية أنّ هتلر وستالين كانا ملحدين أو لا، ولكنّ القضية هي: هل الإلحاد يؤثّر على الناس بشكل منتظم لعمل أشياء شرّيرة؟ وجوابهم على ذلك: ليس هناك أيّ دليل، ولو صغير يدلّ على أنّ الإلحاد، هو سبب ارتكاب الأعمال الشرّيرة.

فليس هناك شكٌ بأنّ ستالين كان ملحداً، ولكنّ إلحاده لم يكن هو سبب ارتكابه للجرائم وقتله الملايين من أبناء شعبه، «فليس هناك أيّ أدلّة على أنّ إلحاده كان سببًا لعنفه. وربّما لم يكن هناك علاقة لذلك مع تربيته الدينيّة المبكّرة إلّا من خلال تلقينها له أن يوقّر الإيمان المطلق والسلطة القويّة والإيمان بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة.

أمّا الإشاعة بأنّ هتلر كان ملحداً فقد تمّ اختلاقها بعناية فائقة لدرجة أنّ العديدين من الناس يصدّقونها بدون سؤال، وتطرح تلك الفكرة بشكل دائم من قبل المدافعين عن الدين، إلّا أنّ الواقع بعيد عن أن يكون واضحاً، هتلر ولد لعائلة كاثوليكيّة، ودرس في مدرسة كاثوليكيّة، وزار الكنائس الكاثوليكيّة في طفولته، طبعاً لا يمكن اعتبار ذلك ذا قيمة لأنّه من الممكن بدون شك أن يكون قد تخلّى عن التديّن لاحقاً، كما فعل ستالين عندما تخلّى عن كنيسة الروس الأرثوذوكسيّة بعد أن ترك الدير في تبيليسي، ولكن هتلر لم يعلن تخلّيه عن معتقده الكاثوليكي علنًا، وهناك بعض الدلائل من خلال حياته تنبئنا بأنّه بقي متديّناً، حتّى لو لم يبق معتقده كاثوليكيّاً، فإنّه على الأغلب ظلّ مؤمناً بوجود سلطة مقّدسة.

وكمثال فقد أعلن في كتابه كفاحي (Mein Kampf) بأنّه عندما سمع بخبر إعلان الحرب العالميّة الأولى: «جثوتُ على ركبتي وشكرت السماء من كلّ قلبي التي جعلتني أعيش في الزمان الذي حصل فيه ما يحصل الآن» كان ذلك عام ١٩١٤م عندما كان في عمر الخامسة والعشرين، ربّما تغيّر بعد ذلك؟»[١].

ثمّ يطنب الملحدون في أنّه هل تغيّر بعد ذلك أم لم يتغيّر؟ ويدّعون أنّه لم يتغيّر.

الجواب: بداية، إنّ الملحدين حينما يواجَهون بحقيقة ما فإنّه لا مانع لديهم من أن يبرئوا أيّ مجرم من جرائمه فقط لأنّهم لا يريدون القبول بالدليل المضاد لهم، يعني لا مانع لديهم من إطلاق أحكام مطلقة -كما سبق وأن ذكرنا- وكذبة كبيرة مثل أنّ ستالين ربّما يكون سبب عنفه هو أنّه درس الدين في صغره فآمن بوجود

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٧٥-٢٧٦.

سلطة مطلقة، فتعلّم منها ممارسة السلطة المطلقة في حياته!

فهل هناك أحد يحترم عقله يمكن أن يقبل بأنّ ما فعله ستالين إنّما كان بسبب تلقّيه دروساً في الدين في صغره؟!

وأمّا بالنسبة إلى هتلر فلا مانع لديهم من إظهاره كشخص مؤمن بالمعتقدات الدينيّة، فقط لكي لا ينسبوا جرائمه إلى تخلّيه عن الدين.

وأمّا مسألة (أنّه مع الاعتراف بأنّ ستالين كان ملحداً وحتّى هتلر، لكن لا يدلّ ذلك على أنّ الإلحاد كان دافعهما لارتكاب الجرائم) فهو تبرير غريب حقّاً حيث نرى الملحدين يبرّئون عقيدة الشخص حينما يرجع الأمر إلى الإلحاد، ولكن فيما يرتبط بالمؤمنين فكلّ مؤمن بالله إذا ارتكب جريمة ينسبونها فوراً إلى إيمانه بالله!

ترى، هل إنّهم يعلمون مافي قلوب الناس؟ فقلوب الملحدين عندهم نظيفة، وقلوب المؤمنين مليئة بالعيوب!! فهم يعلمون بأنّ ما فعله المؤمن بالله من جريمة ارتكبها بدافع ديني، بينما يجرّدون الملحدين من عقائدهم، وينكرون تأثيرها على ارتكاب العنف والجريمة!

نحن بين أحد خيارين: إمّا أن نقول إنّ العقيدة لا تؤثّر في مواقف الأفراد، وإمّا أن نقول بتأثيرها في مواقفهم، ملحدين كانوا أو مؤمنين.

فأمّا أنّ الإلحاد لم يكن دافعاً لستالين ولأمثاله في التاريخ وهم كثر في ارتكاب الجرائم، فهذا مما يضحك الثكلى.

لأنّنا نقول بأنّ ستالين لو كان يؤمن بوجود الله، ويراه رقيباً على أعماله، وأنّه محاسب على ما يفعل، و﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾[1]، وأنّ العمل السيّء يعود إلى صاحبه، لو كان يؤمن بذلك لما ارتكب تلك الجرائم.

(١) سورة المائدة: ٣٢.

أمّا بالنسبة إلى ما يرتكبه بعض المؤمنين، فبالقطع واليقين ليس السبب إيمانهم بالله، وإنما سوء عقيدتهم أو سوء تفسيرهم. فإذا كان هنالك شخص وَهّابي مثلاً يقطع رقبة إنسان آخر لاختلافه معه، فلا يمكن أن يقال أنّ الدافع وراء ذلك هو الإيمان بالله!!

وإنّما هو الخطأ في تفسيره للإيمان، وليس الإيمان بالله نفسه، لأنّ الله لم يأمره بقطع رقاب الناس يقيناً.

◂ هل هنالك حروب بسبب الإلحاد؟

يقول الملحدون: لقد رأينا حروباً كثيرة وقعت بسبب الدين، ولكن لا نذكر أيّ حرب حصلت تحت اسم الإلحاد.

الجواب: ربّما لم تكن تُشن الحروب تحت شعار الإلحاد، ولكنّها كانت من أجل الإلحاد وبدوافعه.

فكلّ الذين قتلوا المسيحيّين الأوائل لأنّهم آمنوا بالله وبالسيّد المسيح كان بسبب الإلحاد، وإن لم يكن تحت شعار الإلحاد.

وكذلك ما ارتكبته الأحزاب الشيوعيّة في الاتّحاد السوفيتي من القتل والتدمير، ومصادرة الحقوق، كلّ ذلك كان بدافع الإلحاد، وضد الذين آمنوا بالله لأنّهم آمنوا بربّهم.

وما جاء نبيّ ودعا إلى الله إلّا وتعرّض للاضطهاد، وربّما لم يكن ذلك تحت شعار الإلحاد، ولكنّه حتماً كان بسبب الإلحاد.

لماذا اللعب بالألفاظ، وإنكار الحقائق على أساس أنّه لم يأت أحد ويقول: «إنّني أقتلك لأنّني ملحد» ربّما أيضاً المؤمن بالله حينما يقتل أحدًا لا يقول: «إنّني أقتلك لأنّني مؤمن» لكن كما أنّ الإيمان ربّما يكون دافعاً لشنّ الحروب كذلك الإلحاد.

إضافة إلى أنّه في الأغلب فإنّ المؤمنين هم مدافعون لا مهاجمون.

تُرى، مَن الذي كان يهجم على مَن في التاريخ البشري، ابتداءً من قابيل، وانتهاءً بما نراه اليوم؟ إنّ الملحدين هم الذين كانوا يشنّون العدوان على مَن يخالفهم في الرأي، وليس العكس.

فهابيل لم يقتل قابيل، وإبراهيم عليه السلام لم يحاول حرق نمرود، وموسى عليه السلام لم يقرّر قتل فرعون، والمسيح عليه السلام لم يحاول صلب أعدائه، ونبيّ الإسلام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لم يشن الحروب على قريش، بل العكس هو الذي حدث، والعدوان كان دائماً من قبل أعداء الدين ضدّ المؤمنين، كذلك بالنسبة إلى أتباع الأنبياء جميعاً عليهم السلام.

◂ الحرب أبلغ من التصريح.

يقول أحدهم: «من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الإيمان بشيء ما؟»[1]

الجواب: أليس في ذلك تلاعباً بالألفاظ؟!

نعم لا يخرج أحد لكي يقول: إنّما أخرج للحرب بسبب عدم الإيمان.

بل يقول: أشن الحرب عليك لأنّك تؤمن، فأنا أقتلك لأنّك تتّبع هذا النبيّ أو ذلك الوصيّ. هذا هو الدافع، وهو عين الإلحاد، سواءً الإلحاد بمعنى أنّ الله غير موجود، أو بمعنى ضعف الإيمان بالله وعدم معرفته.

◂ إذن الإلحاد قوّة شرّيرة

يقول الملحدون: هنالك زعماء دين ارتكبوا جرائم، إذن الدين قوّة شرّيرة.

الجواب: وهنالك زعماء ملحدون ارتكبوا جرائم، إذن الإلحاد قوّة شريرة.

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٢.

◂ الإيمان بسبب الخوف من المجتمع

يقول الملحدون: «عندما نفحص بعمق إيمان العلماء الكبار في أيّامنا، والذين يبدون كمتديّنين في بعض الأحيان، نرى بأنّهم ليسوا كذلك، وهذا بالتأكيد صحيح في حالة أينشتاين (Einstein) وهوكينج (Hawking). عالم الفضاء المعاصر ورئيس الجمعية الملكيّة الحالي مارتن ريس (Martin Rees) قال لي بأنّه يذهب للكنيسة كإنجيليّ كافر.. وفقط بسبب ما أطلق عليه تسمية الولاء القبلي، وهو لا يؤمن بالمعتقدات، ويستفزّه الإحساس الشاعري تجاه الكون ككلّ الطبيعيّين الآخرين»[1]، فهؤلاء العلماء يخشون من اتّهام الناس لهم بالكفر فلذلك يتظاهرون بالتديّن ويذهبون إلى الكنائس ودور العبادة، أليس من الممكن أن يكون كلّ من يدّعي الإيمان هو أيضاً كذلك؟

الجواب: كما ذكرت ليس الدين من تخصّص هؤلاء، وهم لم يتعمّقوا فيه، وربّما لم يدرسوه، ومن ثمّ فلا يمكن أن نعتبرهم مرجعيّة في هذه الأمور، كما لا نعتبرهم مرجعيّة في مجال القانون، لأنّه ليس من تخصّصهم، ولذلك فإنّ الاستدلال بهؤلاء استدلال غير صحيح وغير علمي إطلاقاً.

ثمّ إنّ وصف الناس والعلماء كافة بالنفاق ادّعاء يحتاج إلى دليل وهو باطل مالم يقم عليه الدليل، فهل يحق لي إذا رأيت أحد الطلاب في المدرسة يدرس لأنّه يخاف من والده أن أقول إنّ جميع الطلبة في العالم يدرسون ليس حبّاً في الدراسة والتعلّم، وإنّما خوفاً من آبائهم.

◂ الدين فتيل الشرّ والإجرام أم التعصب؟!

يقول الملحدون: إنّ الدين أحياناً كثيرة يكون سبباً لقيام الإنسان

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦.

بـجـرائـم وأعـمـال غير أخلاقيّة. بل إنّ أحدهم وهو بليز باسكال (Blaise Pascal) يقول: «لا يقترف الإنسان عملاً شرّيراً بسرور وبشكل كامل إلّا إذا فعلها بسبب قناعة دينيّة»[١].

ويأتي آخر وهو العالم الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ستيفن واينبرغ (Steven Weinberg) ليقول: «إنّ الدين إهانة لكرامة الإنسان، فمع الدين أو بدونه، فسيكون دائماً هناك أناس طيّبون يفعلون الخير وسيّئون يفعلون الشرّ، ولكنّك تحتاج إلى الدين كي تجعل أناساً طيّبين يفعلون الشرّ»[٢].

الجواب: هذه أيضاً من الادّعاءات الكاذبة التي يطلقها الملحدون في العادة، والادّعاء سهل، ولكن إقامة الدليل على الادّعاء هو المطلوب الذي لا يفعله الملحدون.

صحيح أنّ الإنسان لا يقترف عملاً شريراً بسرور وبشكل كامل إلّا إذا فعلها بسبب قناعة ما، والقناعة هنا هي الأصل، سواء كانت قناعته إلحادًا أو دينًا، أو مصلحة شخصيّة أو مصلحة قوميّة، أو مصلحة وطنيّة، فلا ارتباط للأمر بالدين بالخصوص.

فإذا كان رجل مثل صدّام يقتل عشرات الآلاف بسرور وأمام شاشات التلفاز، ويصرّح بأنّه مستعد أن يقتل أيّ شخص أو جماعة إذا كان هذا الشخص أو تلك الجماعة تعمل بخلاف ما يعتقده. فهل كان ينطلق من قناعة دينيّة؟

طبعاً لا.

و كذلك كان هتلر، وكلّ المجرمين في التاريخ، فهم صنعوا ما صنعوا بسبب قناعاتهم، إلّا أنّها لم تكن دينيّة.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٥٠.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٥٠.

ثمّ إنّ الادّعاء بأنّ (الدين يجعل أناساً طيّبين يقومون بأعمال شرّيرة) ادّعاء باطل تماماً. نعم هناك ديانات مزيّفة تدفع أصحابها إلى ارتكاب الجرائم، مثلاً الفكر الوهّابيّ، وهو في الحقيقة دين يختلف عن الإسلام في واقعه، وإن لم يكن يختلف عنه في بعض مظاهره. فالوهّابيّة تدفع الناس إلى ارتكاب الجرائم، لكن لا يجوز أن يحسب ذلك على الإسلام، لأنّ أيّ تعصّب لأيّ دين يمكن أن يفعل ذلك، ففي الحروب الصليبيّة كان المسيحيّون يرتكبون الجرائم لتعصّبهم للمسيحيّة، وكذلك فعل البوذيّون في جنوب شرق آسيا، وهذا له ارتباط بالتعصّب، وليس له ارتباط بالدين.

إنّ التعصّب الخاطئ لدين مزيّف يؤدّي إلى ارتكاب الجرائم، وهذه المعادلة صحيحة في كلّ مكان وزمان، لكن أن نقول إنّ كلّ دين يفعل ذلك، فهذا خلاف الواقع وخلاف التاريخ.

صحيح أنّه في كثير من الأحيان ما يأخذ الملحدون على الإسلام ما يفعله هؤلاء الوهّابيّة، وهو كما قلنا ليس من الدين في شيء، وأكثريّة المسلمين لا يوافقونهم على أعمالهم.

لقد نشرت صحيفة الاندبندنت (The Independent) التي تصدر من لندن في عددها بتاريخ السادس من أغسطس ٢٠٠٥م وعلى صفحتها الأولى وبالخط العريض مقالاً تحت عنوان: (تدمير مكّة) قالت فيه: «مكة التاريخيّة مهد الإسلام تكاد تدفن تحت هجوم لم يسبق له مثيل من قبل المتديّنين المتعصّبين، كلّ التاريخ الغني المتعدد الأوجه لتلك المدينة المقدّسة قد ذهب أدراج الرياح، والآن تواجه المدينة التي وُلد بها النبيّ محمّد ﷺ الجرّافات، وبالتغاضي التام من قبل الحكومة الدينيّة في السعوديّة، والتي يدفع تفسيرها الحرفيّ للإسلام لمحو كلّ إرثها التاريخي.

والدافع خلف ذلك الدمار هو خوف الوهّابيّين المتطرّفين من أنّ مكانًا بتلك المكانة التاريخيّة المقدّسة يكون سببًا لعبادة الأصنام أو للإشراك بالله، وعبادة آلهة متعدّدة ومتساوية، وممارسة الشرك في السعودية لا يزال يُعتبر جريمة عقوبتها

قطع الرأس»[1].

وللحقيقة فإنّ السعودية لا تقوم بهدم الآثار خوفًا من عبادة الأصنام، إنّما لأنّها هي مخالفة لآثار النبيّ محمّد ﷺ، فالبيت الذي ولد فيه النبيّ ﷺ يتحوّل إلى مرافق صحّيّة، وزيارة غار حراء الذي نزل فيه الوحي على رسول الله ﷺ يعتبر شركاً عندهم، وأهل بيت النبيّ ﷺ يُقضى على آثارهم، وقبر خديجه زوجة النبيّ ﷺ يسوّى بالأرض، وكل ما يرتبط بالنبيّ ﷺ يتمّ القضاء عليه، مع أنّ النبيّ ﷺ مقدّسٌ عند جميع المسلمين.

إنّ التعامل السيّء مع الدين هذا يشبه أن ترى أنّ أناساً يتعاملون بعملة مزيّفة، فهل هذا معناه أنّه لا توجد عملة حقيقيّة؟

ديانة الوهّابيّة عملة مزيّفة، والتعصّب الأعمى، وارتكاب الجريمة باسم أيّ دين من الديانات عملة مزيّفة، لا يجوز أن نحسب ذلك على العملة الصحيحة.

◄ بين العلم والدين

يقول الملحدون: إنّ الشبكة العلميّة أو القضايا الخاصّة بالعلم تغطّي العالم التجريبي، مثلاً العلم يهتمّ بما يرتبط بتكوّن الكون، وكيف يعمل بهذا الشكل أو ذاك، ولكن القضايا الدينيّة تمتد لتُعنى بما يتعلق بالمعنى المطلق والقيم الأخلاقيّة، ومن ثمّ يمكن القول إنّ العلم يدرس عمر الصخور مثلاً، بينما الدين يدرس صخور الزمن، العلم يدرس السماء، والدين يتناول كيفيّة الصعود إليها، لكن السؤال الذي يطرحونه هو التالي: لماذا يكون رجل الدين دائماً ضيف الشرف للإجابة على كلّ سؤال يتعلّق بفلسفة وجود الكون؟

---

(١) Howden, Daniel: The destruction of Mecca: Saudi hardliners are wiping out their own heritage, Independent, 6 August 2005, accessed December 3, 2016: www.independent.co.uk.

وحسب تعبير ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «ما هي تلك الأسئلة الأبديّة التي يُعتبر الدين فيها ضيف الشرف القابل للإجابة، بينما على العلم أن ينسلّ بعيداً ويحتفظ باحترامه لنفسه؟»[1].

يقول العالم الفلكي مارتن ريس (Martin Rees) في كتابه بيئتنا الكونيّة (Our Cosmic Habitat): «إنّ السؤال البارز والغامض عن سبب الوجود بشكل عام، وعمّا ينفخ الحياة في المعادلة الكونيّة ويجعلها حقيقة؟ إن هذا سؤال لا يقع في نطاق العلم، بل هو في مجال الفلاسفة وعلماء الدين».

وهنا يتبرّع دوكنز للرد على ريس فيقول: «لو كان -ذلك- خارج نطاق العلم فهو بالتأكيد خارج نطاق الدين، وشيء ما يدفعني لأن أعجب من السبب الحقيقي الذي يعطي الحق لرجال الدين بأن يكون لديهم نطاق أساساً؟ ما هي مجالات الخبرة التي يقدّمها علماء الدين في الدراسات الكونيّة العميقة، والتي لا يستطيع العلماء الإجابة عنها؟»[2]

الجواب:

أوّلاً: كالعادة فإنّ الملحدين يهاجمون الدين من خلال هجومهم على بعض رجال الدين، وعادة ما يبحثون عن ضعاف الرجال ممّن يكون علمهم متواضعاً أو يفتون بفتاوى غريبة، فيستغلّون هؤلاء لكي يبرهنوا على أنّ رجال الدين لا يفهمون وأنّ الدين لا ينفع.

والحقيقة أنّ وجود رجال دين لا يفهمون بشكل صحيح ليس دليلاً على أنّ الدين فيه إشكال، وأنّه غير صحيح، تماماً لو أنّنا وجدنا طبيبا يخطئ ويقتل

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٥٨.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٥٨.

مرضاه، فهل هذا دليل على أنّ الطب غير صحيح، وأنّ علمه باطل؟

ثانياً: ليس صحيحاً أبداً أن نقول بأنّ العلم مجاله مختلف عن مجال الدين، وأنّ الدين لا يستند إلى العلم، لأنّ مجال الدين هو أساساً مجال العلم.

الدين يستند إلى العلم وإلى العقل، ومن هنا تجد أنّ القرآن الكريم كثيراً ما يقول: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ولو بحثنا في القرآن -وهو كتاب دين بامتياز- عن مادة (علم)، أو مادة (عقل)، أو مادة (فكر) سنجد الكثير من الآيات التي تشير إلى ذلك، أو تستنهض العقل والفكر، ولو كان مجال الدين خارجاً عن مجال العلم لما ذُكر العلم والفكر والعقل بهذه الكثرة في القرآن.

هل الجهل هو مصدر الديانات؟

يقول الملحدون: ليست هنالك حضارة معروفة لم تكن فيها نسخة من الطقوس المستهلكة للوقت والصحة، والمثيرة للعداوة والتخيّلات المخالفة للواقع.

ويقولون: ربّما أهمل بعض المثقّفين الدين، ولكن الجميع تربّى في حضارة دينيّة، غير أنّ ذلك لا يدل على أنّ الدين قيمة حقيقيّة، ومن هنا فإنّ بعض المثقّفين عليهم في وقت ما أن يتّخذوا قراراً بترك الدين، ذلك أنّ سبب التديّن هو جهل الإنسان وليس علمه.

ويتساءل ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) هنا قائلاً: «ما هو تفسير التصرف الديني؟ لماذا يصوم الإنسان ويسجد ويركع ويضرب نفسه بالسوط، ويومئ برأسه بشكل جنوني أمام حائط، أو يتطوّع في الحروب الدينيّة، أو في حالات أخرى ينغمس في تصرّفات مكلفة قد تستهلك موارده المهمّة لحياته وفي أسوء الحالات تنهيها؟»[1]

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦٦.

ويجيب على ذلك بقوله: لا تفسير لكلّ ذلك سوى الجهل.

الجواب: إذا كنا نريد أن نقيّم تصرفات الناس، سواء المعاصرين أو الماضين، فمع قطع النظر عن إيمان الناس وعدمه نجد هنالك تصرّفات غير صحيحة، وأخرى صحيحة لها فلسفتها، ولكن نحن لا نعرف أو لم نسأل عن فلسفة تلك التصرّفات.

فأن يأتي رجل ملحد ويقول: إنّ الصوم يستهلك الإنسان أو يستهلك موارده، وهذا تصرّف نابع من الجهل، فهذا يدلّ على أنّ الملحدين ما أرادوا أن يفهموا، ولا سألوا عن فلسفة الصوم.

أليس من الغريب أن يقول ملحد عن الصوم إنّه تصرّف نابع من الجهل، بينما نجد أنّ مجموعة من العلماء الغربيّين قد كتبوا كتباً تتحدّث حول الصيام[1]، وعن دوره في الصحة وتخفيف الوزن، وتصبح هذه الكتب من أكثر الكتب مبيعاً عند المثقّفين وحملة الشهادات الجامعيّة في الغرب.

فإذا قيل إنّ نبيّ الإسلام ﷺ قد قال: «**صُومُوا تَصِحُّوا**»[2]، وأنّ القرآن الكريم قد قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]، وأنّ الصوم يؤدّي إلى تقوية الإرادة عند الفرد واجتنابه للجرائم والموبقات والمآثم.

يقال: هذا نابع من الجهل!

ثمّ إذا كانت هنالك طقوس لا تفسير لها إذن لا وجود لله؟!!

هذه المقدمة كيف تنتهي إلى هذه النتيجة؟

---

(١) Fasting for Renewal of Life: Book by Herbert M. Shelton
Fasting can save your life: Book by Herbert M. Shelton
The Fast Diet: Book by Michael Mosley and Mimi Spencer
The Miracle of Fasting: Book by Paul Bragg
Fasting and Eating for Health: Book by Joel Fuhrman

(٢) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج٩٣، ص ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة: ١٨٣.

يعني لو قلنا إنّ هنالك أشخاصاً في بعض المجتمعات لا يتقيّدون بالقانون، إذن لا وجود للسلطة السياسيّة ولا قيمة للقانون، أو قلنا إنّ هنالك مجتمعات قوانينها غير عادلة وضارة، فإذن لا داعي لوجود القانون في العالم كلّه؟!

ثمّ إذا كانت عبادة المؤمنين في المعابد والكنائس والمساجد نابعة من الجهل، فهل تصرّفات الملحدين في البارات والمقامر، ومراكز الفحشاء والمنكر نابعة من العلم؟

سلطة رجال الدين

هنالك من يقول: إنّ للدين سلطة وقوّة سحريّة، وإنّ البعض يستغلّ هذه السلطة للحصول على بعض ما يريد.

مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكيّة، وفي عام ٢٠٠٦م بتاريخ ٢١ شباط صدر حكمٌ باستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو (New Mexico) من قانونٍ يمنع تناول عقار الهلوسة، وهذا القانون يسري على الجميع، لكن أعضاء هيئة «آسبريتا بيبفسينته أونياو دو فيجيتال» (Centro Espirita Beneficiente Uniao do Vegetal) يعتقدون بأنّهم يتواصلون مع الله فقط عندما يتناولون نوعاً من شاي الهواسكا الذي يحتوي على عقار الهلوسة، وهو عقار غير قانوني وممنوع استخدامه، هؤلاء حصلوا على استثناء لأنّهم يتواصلون مع الله عبره.

هذه القوّة السحريّة للدين تجعل له سلطة، وتجعل لرجال الدين امتيازات خاصّة بهم، أليس من الأفضل أن لا يكون للدين أي سلطة؟

الجواب: مرةً أخرى يبحث الملحدون عن قضية جزئيّة هنا، وقضية شاذّة هناك، وينفخون فيها ليستغلّوها من أجل الهروب من أصل القضية وهو وجود الباري عزّوجلّ.

والسؤال هنا: هل هذا الكون خُلق بعلم ومعرفة وحكمة وقدرة أم دون

ذلك؟!

أجيبونا عن هذا السؤال.

أمّا لماذا للدين قوّة سحريّة؟!

ولماذا للدين قدسيّة؟

فهذه مسائل جزئيّة، ولا يجوز استغلال قضية مّا للادّعاء بأنّه لابدّ من كسر هذه القدسيّة للدين، لأنّ هنالك من استغلّ ذلك لاستخدام عقار الهلوسة، فنقول: هي قضية لم يسمع بها أحد، لكن من يعوزه الدليل يبحث عن مثل هذه القضية وأمثالها وينفخ فيها لكي يبرر تجرّيه، وقلّة احترامه لمعتقدات الآخرين ودينهم.

انظروا إلى أحد أبرز حمَلة راية الإلحاد في هذا العصر وهو ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) في كتابه (وهم الإله) يذكر قصة لم يسمع بها أحد، فقط لكي يتحامل على الدين.

يقول: «في سنة ٢٠٠٤م قام صبي في الثانية عشر من العمر، في ولاية أوهايو، واسمه جيمس نيكسون (James Nixon)، وكتب على قميصه الكلمات التالية: (المثلية خطيئة) -ويقصد بذلك اللواط- (الإسلام كذبة)، (الإجهاض جريمة).

المدرسة طلبت منه أن لا يلبس هذا القميص، فرفع أهله دعوى قضائيّة على المدرسة، ومن ثمّ حكمت المحكمة لصالحه لأنّ المحامي في دفاعه اعتمد على قانون حريّة الأديان ولم يعتمد على قانون حرية الرأي»[1].

يذكر هذه القصة لكي يبيّن أنّ للدين سلطة على الناس، وأنّه يفرض احترامه على الآخرين، ومن يخالف هذه السلطة فإنّه يُعاقب.

هذه قصه جانبيّة بسيطة عادية: طفل مّا، يكتب على قميصه عبارات تُسيء إلى الآخرين، ولا تحترم معتقداتهم، ثمّ يربح القضية في المحكمة، ويلبس هذا

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٦.

القميص ويمشي في المدرسة ويراه الطلّاب المسلمون وغيرهم، هذه القضية ينفخ فيها دوكنز ويجعلها مسألة جوهريّة للتحامل على الدين، وهو إنّما يفعل ذلك لأنّه لا يملك في الحقيقة حجّة في موضوع كتابه وهو وجود الله تعالى، فهو يبحث عن قضية جانبيّة هنا وقضية أخرى لا ارتباط لها بوجود الله، ليتحامل على الإيمان والمؤمنين.

لنعد إلى أصل الادّعاء الخاطئ بأنّ رجال الدين لديهم سلطة وامتيازات على حساب الناس، من أين أتى الملحدون بهذا، ومن الذي قال هذا الكلام؟ ترى هل رأينا رسول الله ﷺ قد تميّز واستعلى على الناس؟ أم أنّه كان يلتزم بمجموعة من الأمور التي فرضها الله عليه، بينما هي مستحبّة بالنسبة إلى بقية الناس؟ لقد عبد رسول الله ﷺ ربّه حتّى خاطبه الله عزّوجلّ قائلاً: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1].

أم هل رأيتم أمير المؤمنين عليه السلام حينما أصبح الحاكم الأعلى جلس في القصور؟ أم أنّ منزله في الكوفة لايزال شاهداً على تواضعه؟ أم هل رأيتم عليّاً عليه السلام قد جمع وخزّن الأموال والذهب وعاش حياة الترف؟ أم أنّه هو القائل: «**ألا وإنَّ إمامَكُم قَدْ اكْتَفى مِن دُنْياهُ بِطِمْرَيْه، ومِن طُعْمِه بِقُرْصَيْه، ولا ادَّخَرْتُ من غَنائِمِها وَفْراً، ولا أعْدَدْتُ لِبَالي ثَوْبَيَّ طِمْراً، ولا حُزْتُ من أرْضِها شِبْراً، ولا أخَذْتُ منه إلّاكَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَة.. ولو شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّريقَ إلى مصَفَّى هذا العَسَلِ، ولُبابِ هذا القَمْح، ونَسائِجِ هذا القَزِّ، ولكِن هَيْهاتَ أنْ يَغْلِبَني هَوَايَ، ويَقُودَني جَشَعي إلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ، ولَعلَ بالْحِجازِ أوْ اليَمامَةِ مَن لا طَمَعَ لَهُ في القُرْصِ، ولا عَهْدَ لَهُ بالشِّبَعِ، أوْ أبِيتَ مِبْطاناً، وحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثى وأكْبادٌ حَرّى..**»[2]

وهكذا هي سيرة العلماء ورجال الدين عبر التاريخ، أمّا أن تستشهدوا بمثال شاذ هنا أو هناك فإنّ ذلك لا يُثبت شيئاً.

---

(١) سورة طه: ١-٢.

(٢) الشريف الرضي، العلامة السيد محمد بن حسين: مرجع سابق، الكتاب: ٤٥.

الدين والامتيازات بين نعم، ولا

يقول الملحدون: هنالك امتيازات يتمتّع بها الدين في المجتمعات العلمانيّة، ومن ثمّ يتساءلون: لماذا نعطي اعتبارات للدين، ولا نعطي مثلها لأشياء أخرى؟

الجواب: هذا خيار تلك المجتمعات، فإذا رأينا في مجتمع علماني -كالمجتمع الفرنسي- أنّ غالبية الناس يعطون امتيازات للدين، فهل هذا دليل على عدم وجود الله؟!

ولماذا نُدين الناس إذا اختاروا إعطاء امتياز للدين أو أتباعه؟!

الغريب أنّ الملحدين يتنكّرون لوجود الله عزّوجلّ تحت غطاء حرّيّة البشر، لكنّهم يرفضون هذه الحرّيّة حينما يرتبط الأمر بالقيم الدينيّة!

فعندما تختار المجتمعات قيم الدين، أو تعطي امتيازات للدين، ولا تعطي امتيازات للإلحاد لماذا يتنكّرون لهذه الحرية؟

ثمّ إنّنا نتساءل لو أنّ أكثر الناس كفروا بالدين، وجاءت أقليّة مؤمنة وطالبت ببعض الامتيازات لأنّها جماعة مؤمنة ألا ترفضون ذلك، وتقولون إنّ أكثريّة الناس لا توافق على إعطاء هذه الامتيازات لكم؟!

فلماذا تعكسون الآية إذا أعطى الأكثريّة الامتياز لأهل الديانات؟

إضافة إلى ذلك إنّ الملحدين دائماً يتركون المتون ويتمسّكون بالحواشي، عندما لا يجدون دليلاً على الإلحاد يطرحون أسئلة بعيدة عن القضية الرئيسة.

وما يخدعون إلا أنفسهم!

يقول الملحدون: إنّ كثيراً من رجال الدين الذين يرفعون راية الإيمان بالله يخادعون الناس، أي أنّهم غير صادقين.

الجواب:

أوّلاً: لو افترضنا أنّ هذا الادّعاء صحيح، فلا ارتباط له بأصل القضية وهي وجود الله عزّوجلّ، فلو قلنا إنّ كثيراً من الأطباء إنّما يمارسون مهنة الطب بحثاً عن المال وليسوا مخلصين في أعمالهم، فهل معنى ذلك أنّ علم الطب غير صحيح، ولا وجود له ولا فائدة منه؟

ثانياً: الذين يكفرون بالله عزّوجلّ ويُنكرون وجوده يقومون في العادة بتضليل أنفسهم قبل أن يقوموا بتضليل الآخرين، لأنّ الملحد يرفع راية الكفر ويقاوم ضميره وعقله وفطرته ووجدانه، وكلّها جميعاً تدعوه إلى الإيمان بالله وهو يناقضها وينافق معها.

فرض الإيمان على الناس.. حقيقة أم خيال؟

يقول الملحدون: إنّ المشكلة في الدين تكمن في أنّ السلطات الحاكمة هي التي تفرض الإيمان بالدين؟

الجواب: أبداً، والدليل على ذلك أنّ الحكومة الأمريكيّة الملتزمة بالعلمانيّة وعدم تدخّل الدين في القضايا السياسيّة لا تفرض على الناس الإيمان بالدين، ومع ذلك فإنّ الدين في أمريكا ظاهرة عامّة في المجتمع الأمريكي بحيث إنّ من يقوم بالسخرية من الدين يدينه الناس مثلما يدينون من يحرق العَلم الأمريكي في معسكر يعجّ بالجنود الأمريكان، وهذا ليس بسبب أنّ السلطات الأمريكيّة تفرض الدين على الناس.

ثمّ إنّ وجود الملحدين داخل المجتمعات دليل على أنّ لا أحد يفرض على الناس التديّن.

الدين والتبرّعات

يقول الملحدون: إنّ أتباع الديانات يجمعون تبرّعات باسم الدين،

ثمّ يستخدمونها في أغراضهم الشخصيّة، فمثلاً الداعية أورال روبرتس (Oral Roberts) قال لمشاهديه في التلفزيون: إنّ الله سوف يقتله، إن لم يعطه الناس ثمانية ملايين دولار، وقد حصل عليها بالفعل!

ومثال آخر: جامعة أورال روبرتس(Oral Roberts Universty) في مدينة تولسا بولاية أوكلاهوما، تقدّر قيمة أبنيتها بـ٢٥٠ مليون دولار، بادّعاء أنّ الله أمر بذلك فقال المسؤول نقلاً عن الرب: (حثّ تلاميذك حتّى يسمعوا صوتي، وليخرجوا هناك حيث يشعّ نوري بشكل خافت، وليسمع صوتي كالهمس إلى أقاصي حدود المعمورة، عملهم سيتجاوز عملك وعندها سوف أكون راضياً).

إنّ الدين ورجاله يجمعون التبرّعات باسم الفقراء ثمّ لا تصل هذه الأموال إلى الفقراء، أليس الدين ورجاله من أكبر السرّاق؟

الجواب: مرّة أخرى: ما ارتباط ذلك بوجود الله أو عدم وجوده؟

دائماً هنالك مؤمنون صادقون، وهنالك أدعياء.

فإذا وجدنا عملة مزيّفة في السوق، فهل علينا أن نُتلف العُملة الحقيقيّة ونقول: مع وجود عملة مزيّفة في السوق فلا قيمة للعملة الحقيقيّة؟!

وإذا رأينا رجلاً علمانيّاً يكذب على الناس ويدجّل عليهم، فهل نُدين كلّ العلمانيين بسبب ذلك؟

و إذا رأينا شخصاً يتحدّث باسم الحرّيّة ثمّ يصادر حرّيّة غيره، فهل معنى ذلك أنّ الحرّيّة غير مطلوبة، ولابدّ من شطب الحرية من قاموس الحضارة؟!

كان صدام حسين يرفع شعار (وحدة- حريّة- اشتراكيّة) ولم يكن يطبّق أيّاً من هذه الشعارات! فهل يعني ذلك أن نرفض وحدة الكلمة، وندعو للتعاون على الإثم والعدوان، وعدم التعاون على البر والتقوى؟!

دائماً هنالك من يتاجر بالقيم الإنسانيّة، ويمارس الدجل على الناس بتلك

الشعارات، فهل معنى ذلك أن ننسف القيم الأخلاقيّة، لأنّ هنالك من يستغلّها؟!

أدوار الدين في نظر الملحدين

يقول الملحدون: إنّ الدين لعب خلال عصور مختلفة ثلاثة أدوار رئيسيّة في حياة الإنسان:

الدور الأوّل: هو دور التفسير للكون.

والدور الثاني: هو دور الحثّ على التعاليم الأخلاقيّة.

والدور الثالث: هو دور العزاء ودور الإلهام.

أمّا دور التفسير فقد تولّاه العلم الآن بشكل كامل، فلا حاجة للإيمان بالدين.

وأمّا الحثّ على التعاليم الأخلاقيّة، فإنّ الدين لا يلعب دوراً في الحثّ على التعاليم الأخلاقيّة.

وأمّا دور العزاء فلا قيمة له.

الجواب: إنّ الادّعاء بأنّ العلم استطاع أن يتولّى تفسير الكون وتفسير وجودنا، وبأنّه قد تولّى هذا الدور بشكل كامل هو ادّعاء فارغ، وكعادة الملحدين يطلقون أحكاماً غير واقعيّة وغير حقيقيّة وغير علميّة ثمّ يبنون عليها آراءهم.

إنّ قصارى ما يتولّاه العلم في تفسير الأشياء هو أن يعرفها، لا أن يفسّر وجودها؛ فالعلم يمكنه أن يأتي ويقول: إنّ هنالك جاذبيّة للأرض، وهذه الجاذبيّة هي نتيجة دوران الأرض حول نفسها، ولكن هل العلم يستطيع أن يدّعي بأنّ وجود الأرض هو بسبب معيّن، هل العلم تولّى تفسير الوجود؟ وكيف؟ ومتى؟ وهل علماء الطبيعة، ادّعوا هذا الأمر؟

العلماء في هذا المجال لا يزيدون على اكتشاف أمرين: أنّ هنالك جاذبيّة، وأنّ هذه الجاذبيّة هي نتيجة دوران الأرض حول نفسها. لكن مَن خلق الأرض؟

ومن أدارها حول نفسها؟ ومن جعل الدوران يؤدّي إلى الجاذبية؟ ولماذا وُجدت الأرض أساساً؟ هذه الأسئلة لم يملأها العلم، ولن يفعل.

وأمّا قضيّة أنّ الدين لا يحثّ على التعاليم الأخلاقيّة، أو أنّه بالعكس يحثّ على عدم الالتزام بالأخلاق، فهذا ادّعاء كاذب وغير صحيح، إذ إنّ الملايين من المتديّنين يلتزمون بالتعاليم الأخلاقيّة لأنّها تعاليم دينيّة، ومن ثمّ فإنّهم يعيشون حياة سليمة فلا يعتدي بعضهم على بعض بسبب تديّنهم، نعم هنالك من يمارس الاغتصاب أو القتل أو السرقة، وهي أمور لا تخلو في حياة المتديّنين ولا في حياة الملحدين، ولا في حياة الذين يعيشون في الغابات، هذه حالة موجودة إلّا أنّ الذين التزموا بالعدل وبالإحسان، فعلوا ذلك بناءً على تعاليم الدين، فلا مجال للادّعاء بأنّ الدين لم يكن له دور في التزام الناس بالأخلاق، وقد سبق الحديث عن ذلك مفصّلاً.

كذبة حقد الدين

يدّعي الملحدون أنّ الديانات التوحيديّة شرٌّ مطلق، ويجب محاربتها، وأنّ هذه الديانات وجدت للقضاء على كلّ خير، حتّى أنّ صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion) -وهو من أكبر الذين يحملون راية الإلحاد في الغرب- ينقل كلمة للكاتب غور فيدال (Gore Vidal) يقول فيها بالحرف:

«أكبر شرّ يمنع ذكره في قلب حضارتنا هو ديانات التوحيد، وقد بدأ بكتاب من العصر البرونزي البربري يُسمى العهد القديم، انبثقت ثلاث ديانات حاقدة على البشرية (اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام) هذه ديانات إله السماء، إنّها ديانات أبويّة حرفيّاً.

الله هو الأب القدير وهذا يشرح البغض العميق للنساء في تلك

البلدان المصابة بإله السماء ووكلائه الأرضيين من الذكور»[1].

الجواب: هذا الكلام مجرّد قذف وسب وشتم، وخلط ما بين الديانات السماوية الثلاث وهي اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام!

إنّه مجرد سباب، فإمّا أن تمر عليه مرور الكرام ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[2] وإمّا أن تسبّ مثله فتقول: إنّ أكبر شرّ وجد على وجه الأرض منذ بدء الخليقة وحتّى الآن هو الإلحاد، وقد بدأ ذلك من العصر القديم، منذ أن كان القردة أجداد هؤلاء الملحدين هم الحاكمون على الأرض على ما يعتقدونه هم بأنّ التطوّر أعمى، وهو الذي أدّى إلى خلقهم بدءاً منذ ذلك العصر، ومنها انبثقت مختلف نظريات الإلحاد، التي تقول إحداها: إنّ الطبيعة العمياء الجاهلة هي التي تتحكّم في مصائرنا، وهذا يشرح البغض العميق من قبل الملحدين للبشريّة جمعاء، ولمن يؤمن بإله السماء، ولمن يحترم الجنسين الرجل والمرأة.

◄ تفسير أسباب التديّن في الدول العلمانيّة

يتحدّث الملحدون حول النشأة الغير دينيّة للولايات المتحدة الأمريكيّة، حيث يذكرون وكدليل على ذلك معاهدة طرابلس (Treaty of Tripoli) والتي أبرمت بين الولايات المتحدة الأمريكيّة وإيالة طرابلس الغرب في ٤ نوفمبر ١٧٩٦م، والتي تمّ تقديمها إلى مجلس الشيوخ الأمريكي من قبل الرئيس جون آدامز (John Adams) عام ١٧٩٧م، وتمّ تصديقها في ١٠ يونيو من نفس السنة، ويستشهدون بالمادة رقم (١١) من هذه الاتفاقيّة على كون أمريكا غير دينيّة:

«حيث إنّ حكومة الولايات المتحدة الأمريكيّة لم تنشأ، بأيّ حال

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٩.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

من الأحوال، على أساس الدين المسيحي؛ وليس لها في حدّ ذاتها أيّ طابع عدائي ضدّ قوانين أو دين أو سلم المسلمين؛ وحيث إنّ الولايات لم تدخل أبداً في أيّ حرب، أو عمل من أعمال العدوان ضدّ أيّ شعب مسلم، فقد أعلن الطرفان أن لا ينشأ بسبب الآراء الدينيّة أيّ انقطاع في الانسجام القائم بين البلدين»(١).

ويضيفون: إنّ كلمات الافتتاح في هذه المقولة كافية لخلق ضجيج مزعج في واشنطن في مثل هذه الأيام، ولكن ذلك لم يتسبب بأيّ معارضة أو اقتتال من أيّ من السياسين أو الشعب في ذلك الوقت.

«هنالك تناقض ملحوظ، وقد أشير إليه في العديد من المرات، وهو أنّ الولايات المتحدة الأمريكيّة التي نشأت كدولة علمانيّة هي الآن الدولة الأكثر تديّناً في العالم المسيحي، بينما انكلترا مع كنيستها المؤسّسة والمرؤوسة من الملكة حسب الدستور هي الأقل تديّناً، السؤال الذي أواجهه باستمرار ولا أملك إجابة له هو: كيف أصبح الحال هكذا؟». (٢)

لماذا تلك الدولة التي لم تُؤسس على أساس ديني أصبح الناس فيها متديّنين؟

هل السيف فرض عليهم ذلك، ولا وجود للسيف باعتبار أنّ السلطة علمانيّة، بينما الكنيسة التي أُسّست في انكلترا والتي تترأسها الملكة ما استطاعت أن تفرض دينها على الناس، بينما في أمريكا هنالك العديد من الأمريكيّين -ولعلّهم الأكثريّة- يرون أنّ الكنيسة جزء من هويّتهم، إنّ في هذا تناقض.

---

(١) المادة ١١ من اتفاقية طرابلس.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٢.

الجواب: بداية نقول: إنّ تفسير هذا التناقض لابدّ أن يقدّمه الملحدون وليس المؤمنون.

المؤمنون يقولون: إنّ الله عزّوجلّ يهدي الناس إلى طاعته، كما أنّه عزّوجلّ وفرّ للإنسان العقل الذي به يهتدي إلى الحق، ولذلك نرى أنّ هنالك الكثير ممن اهتدى عبر التاريخ وفي الزمان المعاصر، إلّا أنّ هنالك بعض الأقوام الذين لم يتبعوا عقولهم وفطرتهم فضلّوا عن الحق، إنّ القوم الذين يتوجّهون إلى ربّهم بمقدار شبر يتوجه إليهم ربّهم بمقدار ذراع، وإنّ الأقوام الذين يتولّون إبليس ويستمعون إليه ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

والغريب أنّ من التفاسير التي يقدّمها الملحدون في سبب انتشار المسيحيّة والتديّن في أمريكا، هو الدعاية والإعلام[2]، ويعتبرون أنّ ما يسري على مساحيق الغسيل من ترويج ودعاية، يسري على الإيمان بالله أيضاً، وبالعكس من هذا في انكلترا حيث الكنيسة الملكيّة شيء رسمي، فأصبح التديّن أقرب إلى التسلية، وبالكاد يعتبر تديّناً على الإطلاق.

وسؤالنا هو: مجرد إطلاق ادّعاءات اعتباطيّة في تفسير الواقع الاجتماعي أو التاريخي بحسب الهوى، هل يغيّر من الحقيقة في شيء؟

إنّ الناس الذين تعلّقوا بالدين ليسوا مجموعة من الجهلة، وإنّما هم مثقّفون وخرّيجو جامعات، فهم يؤمنون بناءً على قناعة وجدانية بوجود الله سبحانه وتعالى ويتبعون الدين، أمّا أن نقول أنّ الهوس الديني ينتشر بين الفئة الأقل ثقافة في المجتمع، فهو كذب محض لأنّ الحديث هنا عن أمريكا وبريطانيا، وليس عن الذين يسكنون غابات الأمازون، أو في أدغال أفريقيا.. الحديث هنا عن الذين

---

(١) سورة الحج: ٤.

(٢) يقول دوكنز في كتابه ص٤٣: «القانون الأمريكي نشأ على أسس علمانيّة، وبسبب علمانيّة أمريكا القانونيّة أصبح مؤسسة أكثر عمليّة، الكنائس تتنافس على الجمهور، والمنافسة حامية في الدعاية وتقنيات التسويق، ما يسري على مساحيق الغسيل يسري على الله أيضاً، والنتيجة تقترب من الهوس الديني بين الفئات الأقلّ ثقافة في المجتمع».

يعيشون في دولة تعتبر نفسها الأكثر تقدماً، علميّاً وتكنولوجيّاً، والأقوى على وجه الأرض.

الحديث عن هؤلاء الناس، سواء قلتَ إنّهم أقلّ ثقافة أو لم تقل، فهم يعتبرون أنفسهم الأكثر ثقافة في العالم، بينما لو ذهبنا إلى غابات الأمازون ومجاهل أفريقيا لوجدنا أنّ الذين لا يعرفون القراءة والكتابة يؤمنون بما يؤمن به الملحدون، ويرون أنّ الطبيعة هي التي خلقت الكون، وباعتبار أنّ الطبيعة عمياء ولا تحاسب أحداً على فعله فإذن لا داعي عندهم للإيمان أو الصلاة أو العبادة أو الالتزام بالقيم والمثل، تُرى، مَن أقلّ ثقافة: الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكيّة ويؤمنون بالله، ويتمسّكون بالدين، أم القبائل البدائية وآكلة لحوم البشر الذين يعيشون في الأدغال ولا يدينون بدين؟.

ولابدّ أن نشير هنا إلى أنّ الله تعالى قد جعل قضية الإيمان به والاهتداء إليه مسألة يسيرة ومتوفّرة للجميع، سواء من كان يحمل ثقافة عالية وشهادات جامعيّة أو من ليس كذلك، فإنّ الفطرة مودعة في جميع البشر، إلّا أنّ العالم الذي اطّلع على عجائب خلق الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون إيمانه أقوى، لأنّه رأى آياته في الآفاق، ويعلم أنّه لا يمكن أن تكون الصدفة أو الطبيعة هي التي أوجدت ذلك.

◂ جدليّة فرض الآراء

يقول الملحدون: لم يكن مؤسّسو الدولة الأمريكيّة من المؤمنين، بل كانوا من فئة الملحدين، وكتاباتهم عن الدين في زمنهم لا تترك مجالاً للشك في أنّهم لو كانوا أحياء لكانوا من الملحدين في زماننا، وبغضّ النظر عن وجهة نظرهم الدينيّة في زمانهم فإنّهم جميعاً كانوا علمانيّين.

ويستشهد هؤلاء بكلام للسيناتور باري غولدوتر (Barry Goldwater) الذي كان مرشّحاً للرئاسة الأمريكيّة، والذي قال: «ليس هناك من تعنّت يُصيب البشر كما في الاعتقاد الديني، وليس

هناك حليف أقوى يمكن لأحدنا استخدامه في أيّ نقاش كالمسيح، أو الله، أو ما شابه ذلك من مسمّيات الخوارق، ولكن كأيّ سلاح قوي فإن استعمال اسم الله يجب أن يكون بشكل مقنّن، والجماعات الدينيّة التي تنمو في أرجاء وطننا لا تستعمل نفوذها الديني بحكمة، إنّهم يحاولون الضغط على قادة الحكومة لاتّباع مذهبهم بشكل تام، وإذا اختلفت مع مبادئهم الدينيّة، في أيّ مسألة أخلاقيّة، فإنّهم يشكونك ويهدّدونك بخسارات ماليّة أو انتخابيّة أو كلاهما معاً».

ويضيف أيضاً: «بصراحة فأنا سئمت وتعبت من هؤلاء الوعّاظ المنتشرين في كلّ مكان، وأقوالهم لي كمواطن بأنّي لو أردت أن أكون أخلاقيّاً فعليّ أن أؤمن بكذا وكذا وكذا. تُرى من يظنون أنفسهم؟ ومن يعطيهم الحق لإملاء معتقداتهم عليّ؟ وما يثير غضبي أكثر كمُشَرّع هو تحمّل تهديد أي طائفة دينيّة، ممن يظنون بأنّ لديهم حقٌ إلهي كي يقرّروا كيف سأصوّت في مجلس الشيوخ. أنا أحذّرهم اليوم: سأحاربهم في كلّ خطوة يحاولون فيها إملاء معتقداتهم الأخلاقيّة على المجتمع الأمريكي، باسم المحافظة على المجتمع».

الجواب: نحن لسنا من أتباع غولدوتر، ولا يهمّنا ما يقول، كما لا يهمّنا ما كان الآباء المسيحيّون في زمانه يقولون له، ويحاولون فرض آرائهم عليه.

الكلام الجوهري هو عن وجود الله أو عدم وجوده، أمّا الصراع ما بين مرشّح للرئاسة الأمريكيّة وما بين بعض آباء الكنيسة، والاتّهامات المتبادلة ما بينهما فهذا ليس مورد البحث، ولا يغيّر شيئاً في هذا النقاش، فقد يحدث أنّ أحد رجال الدين يدخل في صراع مع مسؤول سياسي، وأنّ المسؤول السياسي يرفض إملاءات ذلك الرجل، ما دخل ذلك بوجود الله؟ وما دخل ذلك بالقيم الدينيّة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام؟

وأعتقد أنّ ذكر مثل هذه الأمور بتفاصيلها عند الملحدين ليس إلّا لزيادة

حجم كتبهم.

أليس الملحد متطرّفاً؟

عندما يُطرح على الملحدين خاصّة الذين يحملون الراية ضدّ الدين سؤال يقول: ما سبب كلّ هذا العداء للدين؟!

وما هي مشكلة الدين، وهل يسبب فعلاً أذىً كبيرًا للبشريّة لدرجة أنّه يجب الجهاد ضدّه؟

ولماذا لا يسمحون لغيرهم بالإيمان بما يريدون، كما يفعلون مع الذين يؤمنون بالأبراج، والحظ، والطالع، وخطوط الحياة مثلاً؟

يجيب الملحدون:

إنّهم لا يُكنّون العداء ضدّ الدين إلّا بمقدار ما يحبّون توضيح الحقائق ولا يتعدّون كتابة الكلمات التي يتحدّثون بها، وليس أكثر من ذلك، أي إنّهم لا يفكّرون بأن يفجّروا أحدًا، أو يقطعوا رأس أحد أو ما شابه ذلك.

فإذن هم ليسوا متطرّفين في هذا المجال.

الجواب:

أوّلاً: قد يكون هنالك ممن يكتب ضدّ الدين ويحمل راية الإلحاد من هو مكتف بكتاباته ولا يفكر في أن يفجّر أحداً، لكن هنالك ملحدون كثيرون فجّروا وقتلوا المؤمنين، فكم من متطرّفين من الملحدين الذين قَتلوا المؤمنين في التاريخ القديم والحديث.

ثانياً: المتطرّفون في العادة هم الذين يضعون المقاييس لغيرهم، ويطلقون الأحكام جزافاً، وعلى الآخرين أن يقبلوا، والسؤال هنا هو: مَن يميّز الفكر المتطرّف من غير المتطرّف؟

فالذي يُصدر الفتاوى بقطع الرؤوس ربّما يقول: إنّي لم أفجّر أحدًا أو أقتل أحدًا، لكن فكره يؤدّي إلى أن يقوم البعض بمثل هذه الجرائم بناءً على فتاواه تلك.

أنت حينما تقول بأنّ ملايين من المؤمنين يعبدون الوهم، وهم على باطل، وأنّهم لا يفهمون، وليسوا علميّين، وأنّهم جهلة، وتتهمهم بأنّهم يقتلون الناس، ويفعلون الشرور وتسبّهم، وتسبّ مقدّساتهم، فمعنى ذلك أنّك تُصدر أحكاماً على هؤلاء بأنّهم حيوانات أو أقلّ من الحيوانات وعلى الأقل أنّهم يفعلون الشرور، أليس ذلك تطرّفًا؟

الإيمان والخيال الطفولي

يقول الملحدون: إنّ أحد التبريرات لوجود الدين هو أنّ فيه العزاء.

أي أنّ الناس إنّما يؤمن بعضهم بالدين لأنّهم يجدون عزاءً لآلامهم وقضاياهم ومشاكلهم فيه. ومن ثمَّ فإنّ الحاجة إلى الدين قد تنتفي عند من لا يحتاج إلى العزاء، أو إذا وجد شيئاً بديلاً عن الدين يكون عزاءً له.. وهنا ينقلون هذه القصيدة الطويلة المملّة كتبرير لرأيهم:

«بينكر -هذا ما أدعوه- هو سريّ الكبير..

بينكر هو السبب في أنّني لا أشعر بالوحدة أبدًا..

لو جلست على السلالم أو لعبت على السرير..

أو أينما ذهبت فبينكر سيكون معي..

نعم.. أبي ذكي، إنّه من نوع الرجال الأذكياء..

وأمّي هي الأفضل منذ بداية العالم..

ونانا هي هي نانا، وأنا أناديها نان..

ولكنّهم جميعاً لا يرون بينكر..

بينكر يتكلّم دائماً لأنّي أعلّمه الكلام..

بعض الأحيان نتكلّم بشكل مضحك كالصرير..

وبعض الأحيان يصرخ بزمجرة..

ويجب أن أساعده لأنّ حنجرته تؤلمه..

نعم أبي ذكيّ.. إنّه من نوع الرجال الأذكياء..

وأمّي تعرف كلّ ما يمكن للمرء معرفته..

ونانا هي نانا، وأنا أناديها نان..

ولكنهم لا يعرفون بينكر.

بينكر شجاع كالأسد عندما يركض في الحديقة..

بينكر شجاع كالنمر عندما يستلقي في الظلام..

بينكر شجاع كالفيل وأبداً.. أبداً لا يبكي..

إلّا (مثل الآخرين) عندما يدخل الصابون في عينيه..

نعم.. أبي هو أبي.. إنّه من النوع الأبوي من الرجال..

وأمّي هي أمّي.. كما تستطيع الأمهات أن تكون..

ونانا هي نانا.. وأنا أناديها نان..

ولكنّهم لا يحبّون بينكر..

بينكر ليس طمّاعاً، ولكنّه يحبّ كلّ شيء يؤكل..

لهذا فعليّ أن أقول للناس عندما يعطوني قطع الحلوى:

«آه.. بينكر يريد أيضاً، فهل يمكن أن تعطيني اثنين؟»

وبعد ذلك آكل أنا نيابة عنه، لأنّ أسنانه جديدة..

حسناً، أنا أحبّ أبي.. ولكنّه لا يملك الوقت للعب..

وأحبّ أمّي كثيراً.. ولكنّها مشغولة بعض الأحيان..
وعادةً أنا في خلاف مع نانا عندما تريد تمشيط شعري بالفرشاة..
ولكن بينكر دائماً بينكر، ودائماً موجود معي..»(١)

ثمّ يقولون: هل ظاهرة الصديق المتخيّل وهمٌ أكبر من صنف مختلف عن خيال الأطفال العادي؟

وهل يختلف الإيمان بالله عن الإيمان بصديق متخيَّل كما ذكره الشاعر؟ إنّ قضيّة الإيمان بالله هي نتيجة بحثهم في الطفولة عن أناس متخيّلين كأصدقاء إلى جنب الأب وإلى جنب الأمّ، وأنّ هذه نتيجة هلوسة، قد تكون ظاهرة طفوليّة، هذه الظاهرة الطفوليّة يمكن أن تكون نموذجاً لفهم الإيمان التوحيديّ لدى البالغين.

ويقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «لا أعرف إذا ما كان علماء النفس قد درسوا تلك الظاهرة من وجهة النظر تلك، ولكن بحثاً كهذا يستحق التعمق فيه، رفيق ومحل للثقة، بينكر لمدى الحياة.. ذلك بدون شك أحد الأدوار التي يلعبها الله، إنّها الفجوة التي ستبقى فارغة إذا ما اختفى الله.

طفل آخر، فتاة، لديها رجل صغير بنفسجيّ، والذي كان حقيقيّاً ومرئـيّاً بالنسبة لها، يظهر بلمعة خاطفة بالهواء مع أصوات رنّانة، يزورها بانتظام، وخصوصاً عندما تشعر بالوحدة، وبتواتر يقلّ مع كبرها في السنّ. في أحد الأيام وقبل أن تذهب للروضة، الرجل الصغير البنفسجيّ أتى إليها مسبوقاً بالصوت الرنّان ليعلن لها بأنّه لن يزورها بعد الآن. أحزنها ذلك ولكن الرجل البنسفجيّ قال لها بأنها تكبر الآن، ولن تحتاج إليه في المستقبل، الآن عليه تركها ليتمكّن من الاهتمام

---

(١) من قصيدة: الآن أصبحنا ستة، لـ أ. أ. ميلين (A. A. MILNE)

بأطفال آخرين. ووعدها بأنّ سيعود إليها في حال حاجتها إليه بشكل ضروريّ فعلاً، وقد عاد إليها بعد عدّة أعوام في حُلم عندما كان لديها مشاكل شخصيّة تتعلّق بما تريد أن تفعل في حياتها، حيث فُتح باب غرفة نومها، وظهرت عربة محمّلة بالكتب يدفعها الرجل البنفسجيّ الصغير. فسّرت ذلك كنصيحة بأنّ عليها أن تبدأ بالدراسة، نصيحة أخذت بها وحكمت بأنّها جيدة فيما بعد.

القصّة تدفعني لذرف الدموع، وهي أكثر ما نستطيع الاقتراب لتفهّم دور المواساة والنصح للإله المتخيّل. شخصيّة تبدو حقيقيّة جداً لطفل وتعطيه راحة حقيقيّة ونصائح جيّدة، بل ربّما أفضل من ذلك: الصديق الخيالي والإله الخيالي يملكان كلّ الوقت والصبر لتكريس كلّ انتباههما لمن يعاني من صعوبات، وهما أرخص بكثير من المعالجين النفسيّين، أو المستشارين المحترفين.

هل تطوّرت الآلهة كناصحة ومواسية من هذه الظاهرة، كصنف من البيدومورفوس (Paedomorphosis) النفسي؟ البيدومورفوس هو استمرار الشخصيّة الطفوليّة لما بعد البلوغ»[1].

الجواب: هذا الكلام يشبه أن يقول أحد: إنّ الإيمان بوجود الشمس إنّما هو لحاجة الناس إلى وجود النور، فإذا وُجد البديل عن النور في الطاقة الكهربائيّة مثلاً، فلا حاجة إلى الإيمان بوجود الشمس، وأنّ العزاء والمواساة، والحاجة إلى الاعتماد على طرف غير مرئي كما في الأطفال، هذه الحاجة هي مثل الحاجة إلى وجود النور في الشمس. الإنسان الأعمى مثلاً يتخيّل النور ربّما، ولحاجته إلى ذلك يبقى يتخيّله دائماً، ليس لوجود النور في الواقع الخارجي، وإنّما لتخيّله هو، وكذلك الإيمان بالله، فهو مجرّد عزاء!

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٥٤-٣٥٥.

والسؤال هنا هو التالي: هل إنّ المؤمنين يؤمنون بالله عزّوجلّ، وهو الحقيقة العظمى،لأنّهم في طفولتهم تخيّلوا بينكر، أو أنّ فتاة ما في مكان ما تخيّلت صديقاً بنفسجيّاً يأتيها ويرشدها، وحينما كبرت ولم تكن لها حاجة إليه، ودّعها ثمّ جاءها في حلم، كيف يريد هؤلاء الملحدون بهذا المنطق الطفوليّ أن يدافعوا عمّا يسمّونه العلم في مقابل الإيمان؟

ثمّ هل إنّ الناس يؤمنون بالله لأنّهم يجدون في الإيمان بالله عزاءً نفسيّاً فقط؟

صحيح أنّ في الإيمان بالله عزاء، كما أنّ الشمس لها نور، لكن وجود الشمس والحاجة لها ليست فقط لأنّ فيها نور. نعم، فيها نور هذا صحيح ولكن الشمس موجودة على كلّ حال، وهي مركز المنظومة الشمسيّة.

الإيمان بالله عزّوجلّ له أبعاد، ومن هذه الأبعاد أن من يؤمن بالله الموجود فعلاً، وليس المتخيَّل، قد يجد المساعدة من الله، وقد يجد العزاء في إيمانه في أوقات الشدّة، لكنّ السبب للإيمان بالله ليس فقط لأنّ فيه العزاء والمواساة وحاجة غير حقيقيّة، وإنّما لأنّ كلّ ما في الكون من آيات الخالق يدفعه إلى ذلك.

أمّا أن نقول بأنّ كلّ الذين آمنوا بربّهم واتّبعوا الأنبياء عليهم السلام الذين جاؤوا من قِبله في تعاليمهم العالية، كلّ ذلك كان بسبب تطوّر الحاجة إلى إله من أيام طفولتهم حيث كانوا يحتاجون إلى بينكر، فهذا ادّعاء كاذب ومضحك، فكيف يستشهد من يدّعي العلم بقصيدة لأحدهم، تخيّل ما يقوله على لسان أحد الأطفال، ثمّ يفسّر بذلك ظاهرة الإيمان بالله عزّوجلّ، أو يستشهد بفتاة ما في مكان ما، في غابة ما، تخيّلت رجلاً صغيراً بنفسجيّاً، ويستدل بذلك على أنّ الإيمان بالله هو نتيجة التخيّل، كما هو عند ذلك الطفل وتلك الفتاة؟!

لا أدري أنضحك، أم نبكي على عقليّة الملحدين هذه.

هل عبقريّة الملحدين لم تتفتق إلّا على قصيدة بينكر، وقصة الرجل الصغير البنفسجي، وهما قصّتان إحداهما قصة خياليّة، والثانية قد تكون حقيقيّة وقد لا تكون، وعلى ذلك يبنون عقائدهم ويفنّدون عقائد ملايين من المؤمنين بالله.

وأكثر ما يضحك هو أن يدّعي الملحدون -كعادتهم- بأنّ الإيمان بالله تعالى هو نتيجة الهلوسة.

جميع العقلاء يستطيعون التمييز بين ما هو هلوسة، وما هو غير ذلك، فمن يستخدم المخدرات مثلاً قد يُصاب بالهلوسة، أو يحدث لديه خلل في الدماغ فيصاب بتخيّلات غير صحيحة، لكن أن تكون هنالك هلوسة لدى ملايين من العقلاء، وتستمرّ هذه الحالة منذ بداية حياتهم إلى حين موتهم، فهذا ما يجعلنا نعتقد بأنّ الملحدين، وهم الأقليّة الشاذّة، هم الذين أصيبوا بالهلوسة.

تُرى كيف يردّ الملحدون إذا قلنا لهم: إنّكم تهلوسون، وأنّ هنالك خلل في أدمغتكم، وهذا ما دفعكم إلى إنكار وجود الله والإيمان بأنّ هذا الكون العظيم إنّما وجد بالصدفة؟!

الأحكام المطلقة لدى المتديّنين

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) تحت عنوان «الوجه المظلم للأحكام المطلقة»: «يجب الاعتراف بأنّ الأحكام المطلقة بعيدة جدّاً عن كونها ميّتة، بالطبع فإنّها تتحكّم بعقول الكثيرين من البشر في عالم اليوم، والخطورة في معظمها هنا في العالم الإسلامي والحكومة الدينيّة الأمريكيّة، الأحكام المطلقة في أغلب أشكالها هي نتيجة إيمان ديني قوي، وتشكّل سبباً رئيسيّاً للفكرة التي تقول بأنّ الدين يمكن أن يكون قوّة شرّيرة في العالم»[1].

الجواب: أليس هذا الكلام نفسه حكماً مطلقاً؟

إنّ أمر الملحدين أحياناً يشبه أمر ذلك الذي سرق، ثمّ حينما اكتشف الناس سرقته ولم يكتشفوا السارق، بدأ يركض مع الراكضين خلف السارق الموهوم وهو ينادي: «سارق سارق» وكأنّ السارق هو غيره.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٩-٢٩٠.

هم يطلقون الأحكام المطلقة، ثمّ يقولون إنّ الأحكام المطلقة سبب وقوع الشرّ، وأنّ الدين فيه أحكام مطلقة، فإذن هو قوّة شريرة!

وماذا عن الإلحاد؟

وهل الأحكام المطلقة موجودة فقط لدى المتديّنين، أم هي موجودة عند البشر على مختلف مشاربهم ومذاهبهم واعتقاداتهم وإيمانهم وكفرهم؟

◄ هل يحقق الكفر الراحة النفسيّة؟

يقول الملحدون: إنّ توماس جفرسون (Thomas Jefferson) كتب في عام ١٧٨٧م لابن اخته بيتر كار (Peter Carr) رسالة يقول له: «لو توصّلتَ إلى الإيمان بأنّه ليس هنالك إله فستجد في هذه المحاولة على الأقل المتعة واللّذة العقليّة، وسيدفعك ذلك لحب الآخرين، والحصول على قسط من الراحة النفسيّة»[١].

الجواب: هذا ادّعاء بخلاف الحقيقة لأنّه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢] أنت حينما تعرف أنّ لك ربّاً عطوفاً رؤوفاً، يعطيك ما تحتاج إليه، ويمنحك ما تريد، ويدافع عنك، ويمدّك بعوامل البقاء، فإنّك تشعر بالراحة النفسيّة، أمّا حينما لا تؤمن بمن يرعاك ويربّيك ويساعدك في الملمّات، فستعيش حالة القلق وتشعر بالضيق.

أمّا أن يجد أحدهم المتعة في عدم الإيمان بالله فهو شاذ، لأنّه يشبه أن يقول أحدهم: إذا آمنتَ بعدم وجود قانون ودستور في الولايات المتحدة الأمريكيّة، فستجد المتعة في ذلك واللذة العقليّة.

ولا ندري كيف أنّ هذه المحاولة تدفع الإنسان لحبّ الآخرين، نحن نحبّ الآخرين لأنّنا نؤمن بأنّ الناس هم إخواننا في الدين، أو نظراؤنا في الخلق، أمّا من

---

(١) Hitchens, Christopher: Thomas Jefferson: Author of America, HarperCollins, 2005.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

دون ذلك فلماذا نحبّهم؟

نحبّ الاخرين لأنّنا نؤمن أنّ إلهنا وإلههم واحد، وأنّ الله الذي خلق الجميع طالبنا بذلك.

أمّا الذي لا يؤمن بوجود إله فكيف يدفعه الكفر بربّه إلى حبّ الآخرين؟ وما هو الدافع إلى ذلك؟

هذا مجرد ادّعاء وما أكثر ادّعاءات الملحدين.

إله الملحدين

الإله الهلاميّ

يقول بعض الملحدين: إنّ توماس باين (Thomas Paine) الذي آمن بإله لا يمتلك صفات شخصيّة على الإطلاق تعرّض للتمييز والسبّ والشتم، حتّى أنّ سوزان جاكوبي (Susan Jacoby) في كتابها: المفكّرون الأحرار: تأريخ العلمانيّة الأمريكيّة (Freethinkers: A History of American Secularism) ذكرت الشتائم التي تعرّض لها توماس: «حيوان زاحف، خنزير، كلب مسعور، قملة، وحش كبير، عنيف، كذّاب، وبالطبع كافر أيضاً».

ويقول هؤلاء بأنّ باين مات فقيراً ومهملاً من كلّ أصدقائه السياسيّين -باستثناء جفرسون- الذين أحرجوا بشدة من تصريحاته المعادية للمسيحيّة، أمّا اليوم فقد تغيّرت المعايير بشكل كبير، وأصبح معنى الربوبيّة معاكساً للإلحاد ويصنَّف في طابور المؤمنين، إنّهم رغم كلّ شيء يؤمنون بخالق خارق للكون.

الجواب: ثمّ ماذا؟ إنّ قوماً سبّوا توماس باين (Thomas Paine) ثمّ بعد ذلك مات فقيراً، هل هذا ينفي شيئاً أو يثبت شيئاً؟

إضافة إلى أنّ الإيمان بإله غير شخصي أو إله خلق الكون وأدار له ظهره يعني الإيمان بإله هلامي مجهول، لا يمكن أن نتعامل معه بشكل شخصي، فلا يسمعنا،

ولا يتجاوب معنا، ولا يهتمّ بنا.

تُرى ما الفرق بين هذا الإله وبين الصنم؟ فكلاهما لا يسمع، ولا يرى، ولا يتفاعل معنا، ولا يمكن أن نتعامل معه في أي شيء، هذا هو صنم هبل وليس أكثر.

الربّ ليس مشخّصاً!

يقول الملحدون: ربّما كان هنالك إله لهذا الكون، لكنّه ليس شخصانيّاً، وهذه فكرة طرحها ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) فقد قال: «لا شكّ أنّ من خلق الكون لم يكن يلعب بالنرد، أي أنّ ما نراه ليس صدفة، إذ إنّ كلّ شيء في مكانه، لكن ليس هناك إله محدّد».

الجواب: هذا الكلام إنّما يقوله أينشتاين وبعض الملحدين لأنّهم غير قادرين على إنكار وجود نظام في هذا الكون، ولأنّهم لا يستطيعون إنكار آثار الحكمة والقدرة والعلم فيه، لذلك فهم يقولون أحياناً: نعم هنالك شيء ما وضع كلّ شيء في مكانه، حتّى أنّ أينشتاين كان يقول: «لو كان في داخلي شيء من الممكن تسميته بالدين فهو الإعجاب غير المحدود بهذا الكون المحكم، بقدر ما استطعنا الكشف عنه بواسطة العلم حتّى الآن، ولكن من يقول إنّه إله شخصاني؟!».

بعبارة أخرى: حينما ينكر أحدهم وجود الإله المشخَّص، أي وجود ربّ حقيقي فإنّه يتمسّك بالإيمان بربٍّ مجازي، ومن ثمّ فهو يبدي إعجابه بالشمس، وبالقمر، وبالمجرّات ومن ثمّ يعبد هذه، وإن كان لا شكّ أنّه لا أحد يصلي للمجرّة ولا أحد يطلب من الشمس قضاء حوائجه، ولا يتوقّع منها هذا الأمر أو ذاك، ولكن من يضع الطبيعة في موضع الله فهو يعبدها وإن لم يكن يعترف بذلك.

الفرق بين ربّ الملحدين وربّنا

يقول البعض: إنّنا لا نستطيع أن نميّز بين ما نسمّيه الدين

الأينشتايني والدين الغيبيّ، وإنّنا حينما نقول الرّب فله معانٍ مختلفة عند الناس، فمثلاً عندما يتحدث أينشتاين (Einstein) عن الربّ فهو يقصد الطبيعة، أمّا غيره فيقصد شيئاً غيبيّاً لا نستطيع أن نراه أو نلمسه أو نسمع صوته، وذلك هو الفرق بين من يؤمن بالعلم ومن لا يؤمن به.

الجواب: نعم هنالك فرق بين أينشتاين وبين غيره فيما يرتبط بالحديث عن الطبيعة ومن صنع الطبيعة، ولكن الفرق هو التالي: أنت حينما تجد في نفسك آثار العلم والقدرة والحكمة، وتجد أنّ كلّ جزء من جسمك موضوع في محله ومكانه، تعرف أنّ من صنعك يملك العلم والقدرة والحكمة، أكثر مما يملكه البشر، ولذلك فأنت تعرف أنّك لم تصنع نفسك إلّا إذا كابر أحدهم وقال: أنا صنعت نفسي!!

وعندها سيضحك منه حتّى الأطفال.

أمّا أينشتاين الذي كان تخصّصه الفيزياء وليس خارج ذلك فكلّ حساباته قائمة على حساب المادة، أينشتاين هذا يؤمن بأنّ الذي صنع الكون جاهل غير عالم، وعاجز غير قادر، وبليد غير حكيم، أعني الطبيعة.

أترى هذا الجاهل هو الذي صنع أينشتاين الذي كلّ جزء من جسمه يدل على الحكمة والعلم؟!

نحن نؤمن بخالق عالم حكيم قادر، والملحدون يؤمنون بخالق عاجز وجاهل!

لأنّهم يقولون الطبيعة هي التي خلقتنا، والطبيعة كما نعلم جاهلة وبليدة، وعاجزة ومحكومة!

أنا أعتقد لو أنّ أحدهم قال: إنّ قرداً مّا في مجاهل أفريقيا هو الذي صنع الناس، كان أقرب إلى التصديق من أن نقول إنّ الطبيعة هي التي خلقت الكون، لأنّ الطبيعة لا تملك شيئاً من آثار العلم والقدرة والحكمة ولا تملك حتّى مبلغاً بسيطاً من الشعور الذي يملكه القرد!

لماذا يضحك الملحد عندما قلت إنّ قرداً في مجاهل أفريقيا هو الذي خلق البشرية؟!

بينما يقول إنّ التربة العاجزة التي تدوس عليها هي التي أعطتك الوعي، ووضعت عينيك في مكانها، وأذنيك في مكانها، ويديك في مكانها، بحيث لا تستطيع أن تغيّر أو تبدل شيئاً من جسمك، ألا يستحق هذا الكلام الضحك؟

◂ صراع مع المؤمنين من أجل الخالق

يقول بعض الملحدين: إنّ صراعنا مع المؤمنين بالخالق وبالله هو حول الإله الشخصي أي أنّ هنالك نظريّتين: نظرية الإله الحيّ القيوم الذي يمتلك صفات شخصيّة، ونظرية الإله الذي لا يمتلك صفات شخصيّة، فأيهما هو الصحيح؟

الجواب: لا فرق بين من يقول إنّ هناك ربّاً خلق هذا الكون لكنّه لا يمتلك صفات شخصيّة، وبين من يرى أنّ الكون هو خَلَق نفسه، فالتعبير فقط يختلف، وإلّا فإنّ الجوهر نفسه، وهو عين النظرية الجاهليّة التي كانت عند البشر البدائيّين الذين كانوا يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1]، وحاصل ذلك هو الإيمان بألوهيّة الطبيعة، فبدل الإيمان بربٍّ حكيم قادر حيّ عالم يعرف ماذا يصنع، يؤمنون بربّ جاهل عاجز لا يفهم.

هم يتعاملون مع الطبيعة باعتبارها محكومة لا حاكمة، فلا أحد من الملحدين يتعامل مع التراب باعتباره أعلم منه، أو أقدر منه، لكنه يعتقد أنّ التراب هو الذي خلق هذا الكيان المتقن!

ثـمّ إنّ الملحديـن أحياناً يتلاعبون بالألفاظ، فمثلاً يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «الإله الذي دعا له فولتير (Voltaire) وتوماس باين (Thomas Paine) لا يمتلك صفات شخصيّة على الإطلاق.. ربّ الألوهيّين

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

في القرن الثامن عشر المسمّى بعصر النهضة هو أعظم ما يمكن أن يكون: جديرٌ بخليقته الكونيّة، متعال على الأمور الإنسانيّة، مترفّع عن أفكارنا وآمالنا، لا يهتمّ بذنوبنا المشوّشة أو توبتنا له بأيّ شكل من الأشكال، إله الربوبيّين فيزيائي إلى أقصى حدود الفيزياء، هو الفرضيّة والبرهان للرياضيّين، المصمّم المؤلّه، وأفضل من يضع القوانين الهندسيّة وثوابت الكون، يضبطها بدقّة لا متناهيّة، ومعرفة مسبقة بدقائق الأمور، وبعد أن أشعل فتيل ما نسمّيه اليوم الانفجار الكبير ترك كلّ شي وذهب للتقاعد، ولم يسمع أحد عنه أيّ شي بعد ذلك»[١].

سؤالنا هنا هو: هل من العقل في شيء أن نقول إنّ الكون خلق نفسه في الانفجار الكبير، وبعد ذلك ذهب للتقاعد؟!

يقول عالم الطبيعة الأمريكي الدكتور جورج إيرل ديفيس (George Earl Davis): «لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإنّ معنى ذلك أنّه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأنّ الكون هو الإله. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله)؛ ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً: إلها غيبيّاً ومادياً في آن واحد! إنّني أفضّل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومدبّره ومديره، بدلاً من أن أتبنّى مثل هذه الخزعبلات».[٢]

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٠.

(٢) Monsma, John: The Evidence of God in an Expanding Universe, p.70, Putnam, 1958.

شيءٌ من صفات الملحدين

الملحدون يخالفون فطرتهم

يقول الملحدون: هنالك أدلّة على أنّ المتديّنين قد يتركون العلم جانباً، ويتمسّكون بالدين إذا وقع التناقض بينهما.

ويذكرون مثالاً على ذلك الباحث الأمريكي الدكتور كيرت وايز (Kurt Wise) الذي وضع أمامه الكتاب المقدّس وأخذ معه مقصّاً وبدأ بقراءته، ثمّ بدأ يقص ويرمي كلّ جملة يتوجّب رميها فيما لو كان العلم صحيحاً، في نهاية تلك المحاولة التي تطلّبت منه جهداً كبيراً لم يتبقّ الكثير من الكتاب المقدّس، بحيث إنّه كتب يقول: «بعد التجربة -حتّى بوجود الهوامش السليمة على الصفحات- وجدت أنّه من المستحيل أن ألتقط الكتاب المقدس دون أن ينفرط، وعليّ أن أختار بين (التطوّر) والكتاب المقدّس.

فإمّا أنّ الكتاب المقدّس صحيح وأنّ (التطوّر) خاطئ، أو أنّ (التطوّر) صحيح وعليّ أن أهمل الكتاب المقدّس.

وفي ذلك الوقت قرّرت أن أتقبّل كلام الله وأرفض كلّ ما يتعارض معه، بما فيها (نظرية التطوّر)، وبذلك وبحزن شديد رميت العلم وآمالي العلميّة كلّها في النار»(١).

---

(١) Ashton, John: In six days: Why 50 Scientists Choose to Believe in Creation, Master Books, 2001.

الجواب: أن تأتي بمثال شاذ في قضيّة خاصّة وتعمّم هذه الحالة على جميع المؤمنين بالديانات فهو أمر غير علمي، بل هو نوع من أنواع الدجل.

ثمّ إنّ وجود عبارات في الكتاب المقدّس تناقض العلم لا ارتباط له بقضيّة وجود الله والإيمان بالدين.

نعم ربّما يكون قد وقع التحريف في كتاب يُنسب إلى الله، ولربّما أتى رجل وادّعى الإيمان ثمّ قال كلاماً خرافيّاً، فهل نعتبر ذلك دليلاً على أنّ الدين بشكل عام مخالف للعلم؟

نحن المؤمنون بالله نعلن بأنّ جميع الملحدين يخالفون فطرتهم، تلك الفطرة التي تدعو إلى قبول الحقيقة والقبول بالعلم، نحن نقول إنّ الملحدين هم الذين يناقضون العلم.

إذ أيّ علم أهمّ من العلم بالله؟ وأيّ جهل أكبر من أن ينكر الإنسان وجود الخالق وهو يرى المخلوق؟ وينكر وجود الصانع وهو يرى المصنوع؟ أيّ علمٍ أوضح من هذا؟

تُرى إذا كان (٢+٢=٤)، وهو علم واضح، ثمّ جاء من ينكر ذلك ويقول أنّ (٢+٢=٠) أو (٢+٢=١٠٠٠٠٠)، ثمّ ادّعى بأنّه يتّبع العلم، ألا نقول له: كيف تدّعي ذلك وأنت تُنكر علماً واضحاً مثل هذا؟

كيف للملحدين أن يدّعوا أنّهم مع العلم في الوقت الذي يُنكرون أبسط ما يدعو إليه العلم والعقل والفطرة، وعليه ملايين الأدلّة، وهو أنّ كلّ ما تراه بعينك، أو تلمسه بيدك، أو تذوقه بلسانك أو تسمعه بأذنك فهو مصنوع، ولا يوجد شيء مصنوع من دون أن يصنعه أحد.

إنّك لو رأيت كرسيّاً عاديّاً موضوعاً في وسط الغرفة، فإنّ عقلك يقول لك لابدّ أن يكون شخص ما قد وضعه هناك، والحديث هنا ليس عن وجود الكرسي، بل عن مكانه، فإذا جاء أحد وقال: لا، هذا الكرسي لم يضعه أحد هنا، ولكن الرياح هي التي جاءت به.

ستقول له: المهم أنّ هنالك سبب لوجوده هنا، وليس في أيّ مكان آخر.

والسؤال الآن هو: من وضع الأشياء في مواضعها في هذا الكون؟ مَن وضع الشمس والقمر والنجوم والكواكب في مواضعها الصحيحة، فأنت حينما تنظر إلى الكواكب في المنظومة الشمسيّة، أو تنظر إلى أصغر ذرّة فإنّك ترى أنّ كلّ شيء وُضع في مكانه بدقّة متناهية، فمن فعل ذلك؟

قد يجيب الملحد: التطوّر هو الذي فعل.

نقول: وهل التطوّر عنده علم، وإرادة، وعقل، وفهم، وشعور، حتّى يضع كلّ شيء في مكانه؟!!

نحن نعرف أنّ الصدفة عملها ليس دقيقاً ولا مرتّباً، فإذا جاء الطوفان وغيّر أماكن الأشياء، فحتماً لا يمكن أن يأتي الطوفان إلى داخل المطبخ ويضع الكؤوس في مكانها، والقدور في مكانها، ويغسل المطبخ بشكل جيد، ويضع الملاعق في أماكنها، ثمّ يصنع الشاي، ويصبّه في الكؤوس، فهل يمكن للرياح العاتية أن تغلي الماء وتصبّه في إبريق الشاي ثمّ تصبّ الشاي في الكأس، ثمّ تصبّ مقداراً معيّناً من السكّر داخل هذا الكأس، ثمّ تضع الملعقة فيه؟

ومَن ينكر وجود خالق عليم حكيم وضع الأشياء في أماكنها، فهو ينكر أبسط الأمور العلميّة، ولا يجوز له أن يدّعي العقل فكيف بالعلم؟

يقول روي أبراهام فارجيس(Roy Abraham Varghese) الحاصل على جائزة تمبلتون (Templeton Prize): «نحن لا نتحدّث هنا عن احتمالات وفرضيّات، ولكن نتحدّث عن حقائق يؤدّي إنكارها إلى الكثير من التضارب في نظرتنا لأنفسنا وللوجود من حولنا، لذلك نقول: إنّ الإلحاد لا ينشأ عن غياب الشواهد، ولكن ينشأ من رفض الملحدين لأن يتأمّلوا أنفسهم والدائرة القريبة المحيطة بهم.

من أجل أن تدرك إلى أيّ مدى تكون الشواهد على الألوهيّة لصيقةً بنا، قم بالتجربة التالية:

فكّر لدقيقة واحدة في المنضدة الرخاميّة المقابلة لك، هل تتصوّر أنّه من الممكن خلال مليار عام، أو خلال فترة لا حدود لها، أن تكتسب هذه المنضدة عقلاً يجعلها واعية بما يحيط بها، ومدركة لذاتها على الشكل الذي ندرك به نحن ذواتنا؟

لا شكّ أنّنا ببعض المعرفة بطبيعة المادة وقوانينها نجزم باستحالة ذلك.

لكنّ للملحدين رأي آخر، إنّهم يعتقدون أنّه في لحظة ما من الماضي دبّت الحياة في بعض من المادة غير الحيّة، ثمّ أصبحت واعية، ثمّ اكتسبت القدرة على أن تفكّر، وأن تدرك ذاتها، وتقول: «أنا»!»[1].

ثمّ بالعودة إلى موضوع العلم فهنا عدّة نقاط:

- **الأولى**: ما هو العلم؟ وهل كلّ ما يفترضه الإنسان هو علم؟ وبمعنى آخر هل كلّ من ادّعى أنّه عالم ووضع نظريّة ما يكون قد توصّل إلى الحقيقة، ويمكن أن نقول عن نظريّته أنّها «علم»؟ ألم تتبدّل نظريّات كانت في السابق مسلّمات، وتعتبر من «العلم»، وأصبح الناس اليوم يضحكون منها.
- **الثانية**: «يجب أن نفرّق بين ما يتمخّض عنه البحث العلمي من إثبات أو نفي لبعض المفاهيم المطروحة للدراسة، وبين تأويل هذه النتائج ووضعها في سياقها الفكري.

أوضّح هذا بمثال: لقد أثبت العلم أنّ التواصل بين المراكز العصبيّة المختلفة في مخ المرأة أغزر من التواصل بين هذه المراكز في مخ الرجل، هذه حقيقة علميّة، تبنّاها دعاة تفوّق المرأة على الرجل (Feminists)، واستنتجوا أنّ التواصل بين مراكز اتّخاذ القرارات وبين المراكز الشعوريّة يجعل المرأة تضع الاعتبارات الإنسانيّة في الحسبان عند اتّخاذ

(١) Flew, Antony: There Is a God, pp. 162-163 HarperCollins, 2007.

أيّ قرار، أي أنّ نظرة المرأة تكون أكثر شموليّة من نظرة الرجل، أمّا دعاة تفوّق الرجل على المرأة (Masculinists) فيستنتجون من الحقيقة العلميّة نفسها أنّ العواطف والانفعالات تُشوِّش على اتّخاذ القرار عند المرأة، وتجعل قراراتها غير صائبة.

نفس الحقيقة العلميّة تمّ استغلالها لإثبات وجهتي نظر متضادتين»[1]

- **الثالثة:** إنّ القرآن الكريم وهو الكتاب الأخير الذي أرسله الله إلى البشر، والذي ما أصابه التحريف يدعو في كثير من آياته إلى العلم والتعلّم والتعليم، وهذا يدلّ على اهتمام المؤمنين بالعلم بخلاف ما يدّعيه الملحدون.

الإيمان الانتقائي

يقول الملحدون: لماذا يكون الخيار الوحيد الذي أمامنا تجاه ربّنا -إن كان موجوداً- هو الإيمان به؟ أليس ربّنا يحبّ الصدق مثلاً؟! لماذا تكون الخصوصيّة للإيمان؟ ألا يوجد شيء آخر لإرضاء الله غير الإيمان به؟ ألا يجب أن يكافئ الله الكرم والصدق والتحري عن الحقيقة، وأن يعتبر كلّ ذلك من الحسنات العليا، فإذا لم نؤمن به، ولكنّنا التزمنا مثلاً بالصدق والكرم والأخلاق الفاضلة، فربّنا يدخلنا الجنّة، لأنّه يحبّ هذه الأشياء ويكافئ عليها.

«عندما سُئل برتراند راسل (Bertrand Russell) عن موقفه بعد الموت والوقوف بين يدي الله الذي سيسأل راسل عن سبب عدم إيمانه به، كانت إجابة راسل: عدم كفاية الأدلّة، ياربّ، عدم كفاية الأدلّة.

تُرى، ألن يحترم الله راسل على شكّه الشجاع هذا، أكثر من الذين

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

آمنوا بالله مثل بليز باسكال (Blaise Pascal) ورهانه الجبان؟»[1]

الجواب: هذا كلام سخيف، لأنّ ما يرضي الله تعالى وما لا يرضيه لا نحدّده نحن بل يحدّده الله، وهذا يعني أنّ معرفة مافيه رضاه نأخذها منه، ولسنا نحن من يحدّد ما يرضيه مما يغضبه.

فإذا كان الله عزّوجلّ موجوداً -وهو موجود بالتأكيد- فأوّل ما يطلبه منك هو أن تعترف به، وأن تستسلم له، وأن تقبل منه كلّ ما يريده منك، وأن تلتزم بالأخلاق التي يريدها منك، أمّا أن تقول: أنا لا أؤمن بك، ولكن ألتزم بالأخلاق، فليس هذا هو ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

أنت ترى أحياناً شخصاً ما يدخل دولة معيّنة ويقول: إنّني لا أقبل النظام القائم فيها، ولا أعترف بوجود سلطتها ومؤسساتها، ولا أؤمن بشرطة المرور، ولا ألتزم بعقوباتهم ولا أهتمّ بذلك، ولكن أحاول أن أكون رجلاً صالحاً.

السؤال هو التالي: لو خالف هذا الرجل القانون وأمسك به شرطي المرور، وفرض عليه غرامة، هل سيؤدّي هذه الغرامة أم لا؟ هل سيرفضها، لأنّه لا يؤمن بالقانون؟

وبشكل عام، لولا الخوف، سواء من القانون أو من المجتمع، أو من أيّ جهة أخرى، لما التزم الناس بالأخلاق.

ولو فرضوا جوائز لكل من التزم بقوانين المرور، ولم يفرضوا غرامات على من يخالف تلك القوانين، هل كلّ الناس سيلتزمون؟

الجواب: بالطبع لا.

لعلّ البعض يقول: أنا لا أريد الجائزة ولا يهمّني أن أخالف..

حسناً.. إذاً لا بدّ أن تتوقّع العقاب من ربّك يوم تلقاه.

ثمّ إنّنا حين نتحدّث عن الإيمان بالله فإنّما نطالبك بأن تبحث عن هذه الحقيقة

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٠٧.

بنفسك، وأن تستخدم عقلك، وتستمع إلى ضميرك وفطرتك، وهذا يكفي لتؤمن بالله، أمّا إذا كابرت وخالفت أوامر عقلك، ولم تستمع إلى صوت ضميرك، فأنت لست مخطأً فقط، بل ترتكب جريمة كبرى بحق نفسك.

نعم.. ربّنا لا يحبّ الإيمان المزوّر، لكنّه يريد منك عدم المخالفة، حتّى لو كان لديك شك في أمر دينك.

تُرى، لو أنّك كنت لا تدري -إذا خالفت قانون المرور مثلاً- هل ستعاقب أم لا، فهل تلتزم بالقانون، أم أنّك ستقول: إنّني لا أدري فلن ألتزم؟

◄ إيمانٌ حسب المزاج

يقول الملحدون: إنّ في التوراة أوامر فيها عنف وقتل وتعدّي على الأعراض، ولكن في العهد الجديد وهو الإنجيل ربّما يختلف الأمر عن التوراة، «ويعتبر المسيح تطوّراً عظيماً بالنسبة للغول القاسي من العهد القديم، بالتأكيد فإنّ المسيح - على فرض أنّه وجد- كان بالتأكيد أحد أعظم المبتكرين الأخلاقيّين على مدى العصور».

والسبب في ذلك «أنّ المسيح لم يأخذ أخلاقـيّاته من الكتاب المقدّس نفسه الذي تربّى عليه، بل ابتعد عنه كثيراً. وكمثال على ذلك عندما أهمل موضوع يوم السبت وقال: «السبت إنّما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت»[1]. تلك المقولة أصبحت مثلاً متداولاً»[2] وهذا يعني أنّ الدين لا دخل له في الأخلاقيّات، بل أحياناً تكون الأخلاق في عدم الأخذ بالدين.

الجواب: من عادة الملحدين أنّهم لا ينظرون إلى الصورة بأكملها إنّما يأخذون الجزء الذي يعجبهم منها، فمثلاً لا يأخذون ما جاء به الأنبياء عليهم السلام ككلّ، وإنّما

(١) إنجيل مرقس، الأصحاح الثاني:٢٧.
(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٥١.

يأخذون جانباً ويتركون بقيّة الجوانب، ويستدلّون بذلك على ما يريدون، فإذا كان الأنبياء عليهم السلام في مكان ما أمروا بحسن الأخلاق والتعاون والعفو وغير ذلك من الأمور الأخلاقيّة، وأيضاً تحدّثوا في مجال التأديب، أو في مجال مواجهة الظالمين بالعنف، فإنّ الملحدين يتركون الجانب الإيجابي ويركّزون على النقطة التي يريدونها. وهذا يشبه أن يأتي أحد ويدرس الإنسان، ويحكم بأنّه من أسوأ الموجودات من حيث الجسم، وذلك من خلال التركيز على جزء معين منه مثل قدميه، وإهمال عقله ونقاط قوّته.

إنّ تسليط الضوء على الجزء الذي يدعم رأيك، سواء في الأشياء الماديّة أو القضايا الاجتماعيّة، وترك ما سواه ليس أمراً منطقيّاً، بل هو دجل على الناس.

فلو أنّك أخذت ملكة جمال الكون وركّزت على أظافرها مثلاً، ثمّ قلت إنّها قبيحة، فإنّ ما قمت به يكون بمثابة الإغراء بالجهل والخديعة.

ثم إنّ الاستدلال ضدّ الدين، بما جاء في العهد القديم -أي التوراة- والعهد الجديد -أي الإنجيل- ليس علميّاً لأن الدين كما ذكرنا مراراً لا يتلخّص في المسيحيّة، والمسيحيّة لا تتلخّص في الكتاب المقدّس.

لماذا لا يأخذ هؤلاء القرآن الكريم مثالاً لما يأمر به الدين؟ ولماذا لا يأخذون الجانب المهم من الدين، وهو منعه للصراعات ودفعه إلى التعاون فيما بين البشر، والنظرة الكليّة إلى الإنسان باعتباره كائناً مكرّماً عند ربّ العزّة والجلال؟!

وإذا كان هؤلاء يشيرون إلى بعض الحروب التي كانت منطلقاتها دينيّة، لكي يستدلوا على أنّ الدين يدفع إلى الحرب، فلماذا لا ينظرون إلى العشرات من الحوادث المؤسفة، والحروب العبثيّة التي منع الدين من وقوعها؟ لماذا لا ينظرون إلى الإسلام كعامل من عوامل تقدّم البشر، وكدافع إلى احترام حقوق الإنسان، ومنع وقوع الكثير من الصراعات، التي يستمرّ بعضها أكثر من نصف قرن من الزمن؟ لماذا يتمّ إهمال هذا الجانب وأخذ جانب آخر والاستدلال عليه لإدانة الدين؟

الاستهزاء بالمؤمنين

يقول البعض إنّ فكرة الإيمان بالله هي فكرة هشّة ضعيفة أمام النقد، ولذلك يحيطونه بجدار سميك من الاحترام، وهذا النوع من الاحترام يختلف كليّاً عـمّـا نعامل به بعضنا.

ولقد عبّر عن ذلك دوغلاس آدمز (Douglas Adams) بقوله: «إنّ نواة الدين هي بعض الأفكار التي نسمّيها بالمقدّسة أو ما شابه، وذلك يعني أنّ هذه الفكرة لا يحق لأحد أن ينتقدها، وهذا كلّ شيء».

الجواب:

أوّلاً: إنّ الملحدين لا يتورّعون أبداً عن إهانة معتقدات المتديّنين، وليس مجرّد انتقادها، ولم يكن هناك أحد يمنعهم من ذلك لا في التاريخ الغابر، ولا في الوقت الحاضر، بل حتّى في القرآن الكريم تجد كلام الملحدين بتفاصيله، فمثلاً يذكر القرآن أنّ هناك من يقول: إنّ الدهر، أي الزمان، والمكان، والظروف المحيطة بالإنسان، هي التي خلقت الإنسان وهي التي تقضي عليه، فيقول: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1]، كما أنّ القرآن يذكر كلّ ما قاله إبليس لربّه، وكلّ مناقشاته معه، ولعلّ جميع النصوص والتعابير التي وردت على ألسنة الملحدين هي موجودة في القرآن، فربّنا لم يمنع أحداً من انتقاد الدين بكلّ ما يريده من كلمات.

ثانياً: إنّ الادّعاء بأنّ المؤمنين يفرضون على الناس احترام معتقداتهم لأنّ الفكرة هشّة، غير صحيح إطلاقاً. فهذا يشبه أن يقول لك أحد: لأنكّ هشٌّ ووجودك لا قيمة له فإنّك تريد أن تفرض عليّ احترامك، لكنّي أرى أنّ وجودك هشٌّ فلا أحترمك!

فلا دخل في هشاشة الفكرة وعدمها في قضية الاحترام، فأنا إذ أطلب منك أن تحترم معتقداتي فليس لأنّها هشّة، بل لأنّي أحترم نفسي، وأحترم ما يتعلّق بي، ومن

---

(١) سورة الجاثية: ٢٤.

ثمّ فإنّ عليك أن تحترمني وتحترم ما أعتقده.

ثالثاً: إنّ الطريقة الملتوية التي يتّبعها الملحدون، وفرارهم الدائم من أصل المطلب هو ديدنهم، فبدلاً من البحث عن وجود الخالق يقومون بالاستهزاء بالمؤمنين به، وبدلاً من مناقشة الأدلّة يقومون بإطلاق أوصاف مثل (هش) على الدين كنوع من الهروب.

النرجسيّة من صفات الملحدين

يقول الملحدون: إنّ من جملة المشاكل المهمّة والتي يعاني منها الملحدون هي: أنّ المتديّنين يهدّدون الملحدين، فبعض الذين يتجاهرون بالإلحاد في مختلف مناطق العالم تصلهم رسائل تهديد من قبل المتديّنين، ولو أنّنا رجعنا إلى أسباب بروز مثل هذه التهديدات لرأينا أنّ الدين هو السبب لأنّه يدعو المتديّنين إلى نوبات من الكراهيّة ضدّ من لا يقاسمونهم معتقداتهم.

الجواب:

أوّلاً: إذا كان بعض المتديّنين الجَهَلة يهدّدون غيرهم -سواءً من أتباع الديانات الأخرى أو من الذين يعادون الدين- فإنّ المتديّنين على مرّ التاريخ عانوا ليس فقط من التهديد اللفظي، وإنّما من ممارسة القتل بحقّهم مِن قبل الملحدين. وكان أتباع الأنبياء عليهم السلام الصالحون من عباد الله، هم أكثر الشهداء في التاريخ. فالملحد لا يهدّد المتديّن وإنّما يقتله، سواءً في الزمن القديم مع الأنبياء والرسل عليهم السلام أو حتّى في الزمن المعاصر. فكم قتل من المؤمنين بمختلف الديانات في الاتّحاد السوفيتي السابق؟

ثانياً: إذا كان الملحدون يرفعون عقيرتهم إذا هدّدهم كاتب مجهول في رسالة أُرسلت إليه عبر الانترنت، ويدّعون أنّ ذلك سببه الإيمان بالله، ليستنتج من ذلك أنّ الإيمان بالله يسلب من صاحبه الأخلاق، فما هو تفسير الملحدين لظاهرة قتل

المؤمنين على أيدي الملحدين على مرّ التاريخ، وبمئات الألوف؟

الغريب أنّ الملحدين يدّعون أنّ الإلحاد يدعو إلى الأخلاق، وأنّ التديّن يدعو إلى عكس ذلك، وهذا أيضاً من الادّعاءات الكاذبة الباطلة التي يطلقها الملحدون بلا دليل، وبلا شاهد أو برهان.

ثالثاً: لقد علمتَ أنّ الملحدين عندما تعوزهم البراهين والأدلّة يعمدون إلى الإطناب المملّ في قضايا فرعيّة بسيطة، ينفخون فيها ويكبّرونها؛ ومرّة أخرى يقوم صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion) بتخصيص أربع صفحات من كتابه للحديث عن رسالة تهديد وصلت إلى شخص تظاهر بالإلحاد مِن قبل مجهول[1]، أو أنّه وصلته بعض الرسائل التي تنتقده، لأنّ الملحدين في العادة لا يتحمّلون النقد، وطريقتهم قائمة على أنّهم الحق المطلق، وما يقولونه صحيح وغيرهم باطل مطلق، فإذا انتقدهم أحد اعتبروا ذلك تهديداً لحياتهم.

ولنفترض أنّ هنالك فعلاً تهديدٌ من المؤمنين للملحدين، لكن التهديد متقابل، ولا يدلّ على شيء. ولا ارتباط له بموضوع الإيمان بالله، فكم من الملحدين بالله يرتكبون أخطاء؟

ثمّ إذا رأينا بعض أدعياء الطب يرتكبون جريمة القتل، لأنّهم ليسوا أطباء حقيقيّين، فهل معنى ذلك أنّ الطب خطأ وأنّه لا يوجد أطباء صالحون؟

وإذا كان هنالك متديّنون يتظاهرون بالتديّن، ولا يلتزمون بالجوانب الأخلاقيّة في الدين، فهل معنى ذلك أنّ الدين هو الذي دفعهم إلى ذلك؟ وأنّ الله غير موجود؟

أهذا هو المنطق العلمي الذي يستندون إليه؟

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟

وكمثال على ذلك أنقل الرسالة التي يقول ريتشارد دوكنز

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢١١ -٢١٤.

(٢) سورة الصافات: ١٥٤.

(Richard Dawkins) إنّها وصلت إليه من طبيب بريطاني في أيار ٢٠٠٥م، ولقد وصفها بأنّها رسالة مملوءة بالكراهية:

«كتبك ومنصبك في أوكسفورد، وكلّ ما تحبّ في هذه الحياة، وكلّ ما حقّقته لا يعدو كونه شيئاً من العبث... سؤال كامو المحرج يبدو لا مهرب منه هنا: لماذا لا ننتحر جميعاً؟ فلسفتك الحياتيّة لها بالتأكيد تأثير على الطلاب والكثير من الآخرين... بأنّنا تطوّرنا بمحض صدفة عمياء من لا شيء، وسنعود للاشيء، حتّى لو كانت الأديان ليست صحيحة فإنّه من الأفضل كثيراً أن نؤمن بالأساطير مثل أفلاطون، إذا كانت تؤدّي لراحة البال في الحياة، ولكن فلسفتك تؤدّي للعجز واستعمال المخدّرات والعنف والوثنيّة والعبثيّة، وإلى علوم مرعبة، وجهنم حمراء على الأرض والحرب العالمية الثالثة... أتساءل عن مدى سعادتك في علاقاتك الشخصيّة؟ هل أنت مطلّق؟ أرمل؟ شاذ؟ من هم مثلك ليسوا سعداء مطلقاً، أو أنّهم يحاولون جاهدين أن يبرهنوا أنّه ليس هنالك سعادة أو معنى لأي شيء»[1].

ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) يعتبر هذه الرسالة مليئة بالكراهية، مع أن كتبه هو مليئة بالكراهية ضدّ المؤمنين، حيث يصفهم بأقذر الصفات، مثل أنّهم عميان وجَهَلة وقتلة وكذّابين ودجّالين، بينما هذا الطبيب لم يستخدم مثل هذه الكلمات بحق دوكنز.

من هنا أقول: إنّ الملحدين لا يتحمّلون الرأي الآخر، ولا النقد، وبالطبع لا يتحمّلون التهديد. مع أنّ المؤمنين على مرّ التاريخ كانوا يتعرّضون للتهديد والنقد والسب، والشتائم إضافة إلى أنّهم كانوا يُقتلون بالفعل.

فكيف يكون مجرّد رسالة من طبيب، أكثر ما يمكن أن يقال عنها أنّها غير مهذّبة، دليلاً على أنّ الدين يدعو إلى الكراهية وعدم الالتزام بالأخلاق، ولا يكون ما فعله الملحدون بحق المؤمنين دليلاً على أنّ الإلحاد يدعو صاحبه إلى عدم الالتزام بأيّ قانون، وبأيّ مفردة أخلاقيّة؟

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢١٤.

◂ زئبقيّة من أجل ماذا؟

يستشهد الملحدون بعَلمين معروفين في آسيا وفي الغرب وهما: مهاتما غاندي (Mahatma Gandhi) وجواهر لال نهرو (Jawaharlal Nehru) ويدّعون بأنّهما كانا يحاربان الدين والتديّن:

فغاندي كان يقول: «أنا هندوسي، وأنا مسلم، وأنا يهودي، وأنا مسيحي، وأنا بوذي»، ويحاول هؤلاء أن يستنبطوا من هذا بأنّ غاندي لم يكن ملتزماً بدين معين، كما أنّهم يستشهدون بنهرو الذي قال: «النظر لما يسمى بالدين، وأعني أي ظاهرة تديّن منظّمة، ليس فقط في الهند، بل في كلّ مكان، تملؤني بالرعب، وأنا أعترض عليها كثيراً وأتمنّى أن تختفي من الوجود، غالباً ما تكون عبارة عن إيمان أعمى وردود أفعال بدون معنى، وعقيدة وتعصّب وغيبيّات لتحقيق مصالح شخصيّة».

الجواب: إنّ الملحدين يخلطون -وهم عادة ما يفعلون ذلك- بين تصريح سياسي، وبين إظهار العقيدة؟

إنّ غاندي ونهرو كانا يعيشان في المجتمع الهندي المنقسم على نفسه بسبب تعدّد الديانات، وبسبب التعصّب الأعمى لدى بعض أصحاب الديانات وعدم الاحتكام إلى المنطق والحوار في حلّ الخلافات العقائديّة، فإنّ غاندي كان يصرّح بأنّه مع المسلم ما دام الحق معه، ومع الهندوسي ما دام الحق معه، ومع اليهودي ما دام الحق معه، ومع المسيحي ما دام الحق معه، ومع البوذي ما دام الحق معه، وكان يقصد بالحق هنا الحقوق المدنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فالرجل ما كان يقول إنّ كلّ هؤلاء على حق في عقائدهم، ونحن نعرف أنّ غاندي لم يكن يهوديّاً ولا مسلماً ولا مسيحيّاً ولا بوذيّاً، وإنّما كان هندوسيّاً.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى نهرو فهو يقول: «إنّ التعصب الأعمى ورفع شعار الدين لتحقيق مصالح شخصيّة يملؤه رعباً»، ولم يكن يقول: إنّ الدين يملؤه

رعباً، ولم يصرح نهرو في يوم من الأيام أنّه لا يؤمن بوجود إله لهذا الكون.

إنّ الشيء الذي كان يطالب به نهرو وغاندي هو أن تكون الهند وطناً للجميع، وليس في ذلك أيّة معارضة للدين، إنّ العلمانيّة التي في الهند تعني بأنّ الدولة تحترم عقائد الجميع، وتمنحهم فرصاً متساوية في كلّ شيء، ولدى الهند تاريخ عريق من التعايش الديني.

وبالطبع فإنّه لا يمكن في بلد كالهند حيث توجد عقائد مختلفه والعديد من أتباع الديانات، أن يُبنى الوطن على أساس دينٍ معينٍ واحد وإلغاء بقية الديانات، ومن ثمّ مصادرة حقوق أصحاب الديانات الأخرى، فما قاله كلّ من غاندي ونهرو اعتراف بالدين وليس نفياً له.

ثمّ لنفترض أنّهما كانا ضدّ الدين، بل وحاربا التديّن -كما يدّعى الملحدون- ثمّ ماذا؟ هل هذا يلغي وجود الله؟ وهل يُنسف الدين لأنّ شخصاً مشهوراً مثل غاندي قال: «أنا هندوسي، وأنا مسلم، وأنا يهودي، وأنا مسيحي، وأنا بوذي»؟ إنّ ما يقوم به الملحدون واقعاً هو زئبقيّة وتلوّن من أجل الهروب من المسؤوليّة والتملّص من الإجابة على السؤال الجوهري حول وجود خالق الكون.

◂ الإلحاد وإهانة المقدّسات

يقول الملحدون: هنالك مغالاة من قبل المجتمع في احترام الدين، بل إنّه يجعله فوق كلّ مستويات الاحترام للإنسان، ولنضرب مثالاً على ذلك: في أيلول ٢٠٠٥م نشرت صحيفة جيللاندز بوستن (jyllands-posten) اثني عشر رسماً كاريكاتورياً يصوّرون به النبيّ محمّد ﷺ، الأمر الذي أدّى إلى إشعال نار الغضب والنقمة في العالم الإسلامي من قبل مجموعة صغيرة من المسلمين الذين يعيشون في الدنمارك، وبقيادة إمامين اثنين كانا قد مُنحا حق اللجوء فيها!!

والسؤال هو: لماذا لا يحترم المؤمنون حرية التعبير في انتقاد الدين

ورموزه؟

الجواب: قد يعتبر هذا من حرية التعبير وحرية النشر، ولكن السؤال هو التالي: أليست القوانين تجرّم من يهين شخصاً معيّناً باسمه وبشخصه، بل إن القانون الدنماركي يجرّم إهانة العلم الدنماركي الذي هو مجرد قطعة قماش، بينما لا تعتبر إهانة الأنبياء عليهم السلام -وهم أشخاص يرى عدد كبير من الناس أنّهم أعزّ عليهم من أنفسهم- جريمة؟!

إنّ الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام والصالحين، ليس فقط أمراً دينيّاً، وإنّما هو أمر يرتبط بحق الناس في أن يعتقدوا بما يرون، وأن يقدّسوا من يريدون.

فهل من حق أحد أن يهين مقدّسات الآخرين؟!

وهل القوانين التي تجرّم إنكار الهولوكوست (Holocaust) هي قوانين ظالمة مثلاً؟

هل يتجرّأ الملحدون على إنكار قضية الهولوكوست ضمن حرية التعبير، وأن يدينوا من يهتمّ بها، ويرفضوا المغالاة فيها؟

لماذا تكون إهانة عدد كبير من الناس، عن طريق إهانة مقدّساتهم، من المغالاة المرفوضة ولايكون التشكيك في حدوث قضية تاريخيّة مثل ذلك؟

والغريب أنّ الملحدين يأخذون إهانة الأنبياء عليهم السلام دليلاً على أنّ الإلحاد أفضل من التديّن، لأنّك حينما تكون ملحداً لا يهمك إهانة الأنبياء عليهم السلام ورجالات التاريخ العظام!

إنّ التقدير العميق للأنبياء عليهم السلام من الأساسيّات عند عدد كبير من الناس، ومدى الحب والمودة لهم لا يمكن التعبير عنها بالكلمات.

إنّها أعمق عندهم من حب الأهل والأولاد وهذا جزء من إيمانهم بربّهم، فلماذا يقوم بعض الناس بإهانة الملايين من المؤمنين، ثمّ يبرّرون ذلك باعتباره من حريّة التعبير؟!

ثمّ لماذا عندما يقوم البعض بردة فعل يتّخذ ذلك دليلاً على أنّ الإلحاد هو الصحيح، وأنّ الإيمان خطأ ويعاقبه القانون؟!

بالطبع لا أحد يوافق على العنف، وقتل الأبرياء، وإهانة الآخرين، فالمؤمنون في غالبيّتهم يرفضون العنف سواءً كان كفعل أو كردّة فعل.

ولكن لماذا تُعتبر إهانة ملايين الناس وإلحاق الأذى بهم من خلال إهانة الأنبياء عليهم السلام أمراً صحيحاً، ثمّ يعتبر إهانة شخص عادي حتّى من دون إلحاق الأذى به خطأ؟!

هذه ليست امتيازات غير منطقيّة تُعطى للدين، بل هي امتيازات تُعطى للإنسان ولقدسيّته، ولذلك لابدّ من تجريم من يهين عدداً كبيراً من الناس ويجرح مشاعرهم.

التعصّب، وسياسة الكيل بمكيالين

يقول الملحدون: إنّ أحد أسباب بقاء الدين هو التعصّب، ولولا ذلك ربّما انقرضت الديانات.

الجواب: وهل الملحدون غير متعصّبين؟

إنّك لا تجد ملحداً واحداً محايداً في مواقفه الفكريّة والعمليّة، كما لا تجد ملحداً واحداً يتواضع للعلم والعقل ويقبل الأدلّة والبراهين التي تدفعه إلى الإيمان بالله، فالملحد يبني جداراً عازلاً بينه وبين أيّ برهان يؤدّي به إلى الإيمان بالله، إلى درجة أنّ الملحدين لا يقرؤون، ولا يسمعون لمن يؤمن بالله، بل يغلقون منافذ تفكيرهم خوفاً من أن يؤمنوا بالله.

لنضرب مثالاً لأحد حاملي راية الإلحاد اليوم وهو ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)، هذا الرجل ضدّ الإيمان بالله تعالى بشكل مطلق ويرفع الراية ضدّ الديانات كلّها، لكن لو سألته: هل قرأت القرآن وهو الكتاب المقدس عند ملايين من المؤمنين بالله؟ وهل قرأت شيئاً لرسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم؟

فجوابه: بالطبع لا.

والسؤال: لماذا؟ ألست تدّعي بأنّك باحثٌ علمي وأنّك تبحث عن الحقيقة، وتقبل الأدلّة والبراهين فلماذا لا تستمع إلى من يقول عندي الدليل وعندي البرهان؟ كم محاضرة حول الإيمان يسمعها الملحدون، وكم من كتاب حول الإيمان يقرؤونه؟

إنّ الملحد يقوم بإغلاقٍ كاملٍ لمنافذ التفكير، ثمّ يتّهم الطرف الآخر بما هم مبتلون به وهو التعصّب، وهذه من طبائع أهل الباطل. فهم مثل ذلك الذي يسرق من الناس ثمّ يركض وهو يصرخ: (سارق سارق) فبينما هو السارق ولكنّه يتّهم الآخرين به.

من أراجيف الملحدين دعوى الإقصاء

يقول الملحدون: إنّ هنالك نوعاً من التمييز بالنسبة إلى الملحدين في العالم، ويذكرون كشاهد على ذلك ما يذكره ديفيد مايلز (David Mills) في كتابه عالم الملحدين (Atheist Universe) حيث يروي قصة تبيّن -حسب زعمهم- مدى تعصّب الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكيّة ضدّ الإلحاد:

«أحد دعاة المسيحيّة المتعصّبين للشفاء بالإيمان بدأ حملة تحت عنوان: (أعاجيب صليبيّة)، وهذه الحملة تزور مدينة مايلز مرّة كلّ عام، ومن الأمور التي تدعو لها هذه الحملة هي أن يترك مرضى السكري حقن الأنسولين، ويترك مرضى السرطان الجرع الكيميائيّة ويستبدلونها بالصلاة. وبكلّ رويّة أراد مايلز أن ينظّم مظاهرة سلميّة لتحذير الناس، ولكنّه أخطأ بذهابه إلى الشرطة وإخبارهم بنيّته، وطلب منهم الحماية مما قد يتعرّضون له من أتباع ومؤيّدي ذلك الداعية للشفاء بالإيمان.

الشرطي الأول الذي تكلّم معه مايلز سأله: هل مظاهرتك ستكون مؤيّدة أو مضادة؟ أجاب مايلز: مضادة. أي مضاده لدعوة التوسل بالإيمان.

الشرطي أجابه بأنّه شخصيّاً من أحد المؤيّدين وينوي البصق في وجه مايلز لو مرّ بجانب مظاهرته.

مايلز قرر أن يُجرّب حظّه مع شرطي آخر، فأجابه ذلك بأنّه لو أنّ أحد أتباع الداعية مارس العنف ضدّ مايلز فإنّه سوف يوقف مايلز وليس العكس، لأنّه يتدخّل في إرادة الله. فذهب الرجل لبيته واتصل بمركز الشرطة بأمل أن يجد تعاطفاً على صعيد الرتب العليا، وبالنتيجة استطاع التحدّث مع عقيد والذي قال له: لتذهب للجحيم يا هذا. لا يوجد شرطي يريد حماية ملحد ملعون، آملُ حقّاً بأن يدميك أحدهم.

وهكذا بدت الظروف غير مؤاتية بالمرّة في مركز الشرطة ذاك... مايلز تكلّم مع سبعة أو ثمانية من رجال الشرطة يومها، ولم يحصل على أي عون، بل وأكثرهم هدّده بالعنف»[1].

ويضيف الملحدون: إنّ الأحداث من هذا النوع ضدّ الملحدين كثيرة، والسؤال هو التالي: لماذا لا يُعطى للملحدين الحق في أن يقولوا كلامهم كما يريدون، ولماذا تُصادر حريّاتهم إذا أرادوا التظاهر ضد المؤمنين؟ لماذا يتمّ دائماً إقصاء آرائهم؟

الجواب: ترى أيّ ربط لهذه القصّة وأمثالها بمسألة الإيمان والإلحاد؟

إنّ الملحدين كعادتهم يملأون كتبهم بقصص شخصيّة وربّما شاذة وفي الأكثر غير صادقة لزيادة حجم ما يكتبون، وإلّا فما أكثر المظاهرات التي تُمنع في كلّ مكان في قضايا مختلفة، وفي قضايا مثل المطالبة بالعدل، والحرية، وكم من مظاهرات

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٦.

تعرّضت لإطلاق النار، فقط لأنّ المتظاهرين يرفعون شعارات مثل حرية العمل، والمطالبة بالعدل، أو باطلاق سراح المظلومين، وإنصاف المضطهدين وإلى آخره؟.

وكم من بلاد تتعصب السلطات فيها ضدّ المؤمنين بالله تعالى، لقد كان المؤمنون في أكثر من نصف قرن يتعرّضون لأشدّ أنواع الاضطهاد في الاتحاد السوفييتي، وفي مختلف البلدان التي حكمها الملحدون، ولا نجد أنّ الملحدين قد رفعوا أصواتهم دفاعاً عن هؤلاء، تصوّروا أنّ أكثر من نصف قرن والمؤمنون بالله يتعرّضون للظلم والاضطهاد، والقمع والقهر، ويُعتقلون لجهرهم بالإيمان بالله، فلماذا لا يعتبر هذا عند الملحدين دليلاً على أنّ هؤلاء على حق وليس الملحدون؟ هل استشهدوا في يوم من الأيام بما تعرّض له المؤمنون في التاريخ البشري من اضطهاد؟ وهل اتخذوا من ذلك دليلاً على التحيّز ضدّهم ومن ثمّ إنّهم على حق؟.

وهكذا نرى أنّ الملحدين يعملون على إقصاء كلّ الأطراف ولاسيما أصحاب العقول والمؤمنين بالله تعالى، ثمّ يصرخون ويدّعون بأنّهم يتعرّضون للإقصاء.

نفاقٌ من أجل الكرسي

يقول الملحدون: إنّ الملحدين في أمريكا -الدولة التي بحسب الدستور الأمريكي ليست ملتزمة بالدين- يواجهون سوء فهم، «ومن الواضح بأنّه لا أمل للملحد الذي يصرّح بإلحاده بالفوز في أيّة انتخابات لأيّ منصب رسمي في الولايات المتحدة.

هنالك ٤٣٥ عضواً في مجلس النواب، و١٠٠ عضو في مجلس الشيوخ، وبفرض أنّ الغالبية منهم من الفئة المثقّفة من الشعب، فإنّه من المحتّم إحصائيّاً أنّ نسبة كبيرة منهم ملحدون، ومن الواضح أنّهم كذبوا، أو على الأقل أخفوا مشاعرهم حتّى يتمّ انتخابهم، ومن يلومهم على ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار الناخبين الذين يجب إقناعهم؟ ومن المعروف للجميع بأنّ أيّ محاولة للترشيح للرئاسة هي انتحار سياسي

للمرشّح الملحد»[1].

الجواب: هذا الكلام يردّ عليكم! فإذا كان هنالك عدد كبير من الملحدين من المرشّحين للكنغرس الأمريكي ومجلس الشيوخ ومع ذلك ينافقون مع الناخبين من أجل الوصول إلى المناصب، فإنّ ذلك يعني أنّ هؤلاء الملحدين منافقون من أجل مصالحهم الذاتية، لماذا لا تكون لديهم «الشجاعة» و«التضحية» في سبيل إلحادهم؟

عجباً، كيف تتّخذون ذلك ذريعة لأنفسكم كدليل على أنّ الإلحاد حق لأنّ الملحدين ينافقون! ولأنّهم يبحثون عن الكراسي والمناصب، ولكن لا يمكن أن يحصلوا عليها إلّا إذا نافقوا وأخفوا إلحادهم عن الناس!

بينما نجد أنّ المؤمنين بالله تعالى يصرّحون بإيمانهم، ويتحمّلون كلّ أنواع الأذى في سبيل إيمانهم، ولذلك وعلى مرّ التاريخ هنالك مئات الألوف من الشهداء الذين ذُبحوا لأنّهم آمنوا بالله، ودافعوا عن إيمانهم، لما لا يُضحّي الملحد أيضاً في سبيل إلحاده، ما دام أنّه يرى بأنّ الإلحاد حق، وأنّ الحقيقة متمثّلة في الإلحاد؟!

◂ تقديس المنكر وإنكار المقدّس

يقول الملحدون: «إنّ معرفتنا بأنّنا نملك حياة واحدة فقط يجعلها أعظم قيمة، إنّ وجهة النظر الإلحاديّة بذلك داعمة للحياة ومعزّزة لها، وبنفس الوقت لا تتلوّث بالأوهام الشخصيّة، أوأحلام التمنّي، أو الإشفاق على الذات كأولئك الذين يتصوّرون بأنّ الحياة تدين لهم بشيء ما، تماماً كما كتبت أميلي ديكنسن (Emily Dickinson) قائلة:

لأنّ كلّ لحظة فيها لا تعود

هذا ما يجعلها بهذه الروعة.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٤٧.

لو أنّ موت الله سيترك خلفه فجوة، فإنّ كلّ امرئ سيملؤها بطريقته الخاصّة. طريقتي الخاصّة تحتوي على جرعة كبيرة من العلم، المسعى الأمين والمنتظم للوصول إلى الحقيقة عن العالم الحقيقي.

نظرتي لمساعي البشر في فهم الكون كمشروع لبناء النماذج ،كلّ منّا يبني في رأسه نموذجاً للعالم الذي نحن فيه، النموذج الأصغر للعالم هو النموذج الذي احتاجه أسلافنا للبقاء في عالمهم. الانتخاب الطبيعي قام ببناء برنامج للمحاكاة، وطهّره من فيروساته، وجعله متأقلماً مع العالم المحيط بأسلافنا في الأحراش الأفريقيّة: عالم ثلاثي الأبعاد من عناصر متوسّطة الحجم، تتحرّك بسرعات متوسّطة بالنسبة لبعضها، كعلاوة غير متوقّعة فإنّ أدمغتنا أصبحت قويّة بشكل كافٍ لاستيعاب نموذج لعالم أكثر غنىً من تلك البيئة المتوسّطة النفعيّة التي احتاجها أسلافنا من أجل البقاء. الفن والعلم أمثلة ساطعة على تلك العلاوة»[1].

الجواب: بداية نقول: لا يجوز لأحد الاستهزاء بالناس لمجرّد اختلافه معهم، أن يأتي ملحد يدّعي العلم ويقول: «إنّ وجهة النظر الإلحاديّة لا تتلوّث بالأوهام الشخصيّة، أو أحلام التمنّي، أو الإشفاق على الذات، كأولئك الذين يتصوّرون بأنّ الحياة تدين لهم بشيء ما»، فهذا اتّهام لكلّ المؤمنين بالله وبالجنّة والنار، بأنّ وجهات نظرهم ملوّثة، وفيها فيروسات، وأنّ جناب هذا الملحد أو ذاك، طهّر نظر البشر من الفيروسات.

السؤال هنا هو: هل أنتم وحدكم من وصل إلى معرفة الحقيقة، وأما غيركم فهو يعيش في عالم الأوهام؟

ما هذا التكبّر، وما هذه الادّعاءات الباطلة؟

لماذا ترون أنفسكم فوق البشر؟

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص ٣٦٧.

أنتم تنكرون وجود الآلهة، ولكنّكم تُنصّبون أنفسكم آلهة على الناس!

هل أنتم مبرّؤون من الأخطاء، وكلامكم دائماً كلام صحيح بالمطلق؟ وما تفعلونه هو الصحيح؟ وأنّكم تسعون لفهم الكون كمشروع لبناء النماذج، وأنّكم تبنون نموذجاً للعالم أفضل من النموذج الذي كان عند المؤمنين في العوالم السابقة مثلاً!

ثمّ تقولون: إنّ موت الله سيترك خلفه عالماً أفضل، يعني في نظركم لابدّ أن يكفر الناس بوجود الله حتّى يكون الناس في حالة أفضل، حسناً، أنتم وأمثالكم ممن لا يؤمنون بوجود الله، هل بنيتم عالماً أفضل؟

وهل هذا العالم الأفضل هو في مخيّلاتكم أم في الواقع الخارجي؟!

أقول لريتشارد دوكنز: أنت تقول إنّ «الإله مات»..

تُرى ما الذي فعلته أكثر من أن تكتب كتاباً تستهزئ فيه بالإيمان وبالمؤمنين، وتحصل من وراء ذلك على مبالغ من المال تفتخر بها؟ وتستهزئ حتّى بمن أسّس لك جامعة أكسفورد، لأنه كان يؤمن بالله.

هل أنت أسّست الجامعات؟ هل أقمت مشاريع كبرى؟ ما الذي فعلت؟!!

حينما تضرب مثالاً بالكومبيوتر وتطهيره من الفيروسات، أليس كلّ الناس يريدون تطهير كومبيوتراتهم من الفيروسات؟ فلماذا لا يأتي الناس إليكم ويقبّلون أياديكم، ويحصلون منكم على برامج لتطهير أدمغتهم من الفيروسات المتعلّقة بها؟

فإمّا أن تقول إنّكم آلهة وهؤلاء عبارة عن حيوانات لا تفهم، أو تتّهمون المؤمنين بأنّهم استساغوا وجود الفيروسات، والتي تعنون بها الإيمان بالله وبالآخرة وتسمّون ذلك بالفيروسات، وأحياناً تجد أنّ بعضهم لا يتورّع من أن يقارن بين الإيمان بالله والإيمان بوجود الكلاب!!! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

الغريب أنّ الملحدين يستهزئون من فكرة المقدَّس، ولكنّهم ينصبون لأنفسهم مقدّساً اسمه الإلحاد، فمن لا يؤمن بالإلحاد فهو عندهم ملوّث في فكره وعقله،

ومن أصبح ملحداً فهو طاهر مقدّس.

والغريب أيضاً أنّ أولئك الذين خُدعوا بهؤلاء من تلامذتهم المقلّدين لهم، يسمّونهم «أنبياء»، حتّى إنّهم يسمون ريتشارد دوكنز في صفحاتهم في الانترنت: «نبيّ الملحدين».

مساكين.. أنكروا وجود الأنبياء عليهم السلام الذين ما أرادوا من الناس أجراً، إلّا أن يصبحوا أتقياء وصالحين، واتّبعوا أمثال ريتشارد دوكنز الباحث عن المال والشهرة والمصالح الشخصيّة، ويسمّونه نبيّاً.

فالأنبياء عليهم السلام عندهم غير مقدّسين، لكنّ الملحدين مقدّسون، والإيمان بالله غير مقدّس وملوّث، لكن الإلحاد طاهر مطهر، هذا تماماً هو ما فعلته الجاهليّة الجهلاء في العصور السابقة حيث كفر الناس بوجود الله وآمنوا بالأصنام وقدّسوها، وقبلوا بالشرّ وتركوا الخير، ورضوا أن يعيشوا في الوهم وهم يرون الحقيقة أمامهم.

من هم المتغطرسون؟

يقول الملحدون: إنّ لدى المتديّنين غطرسة دينيّة، «حيث إنّ المتديّنين -وبدون أيّ دليل- يعرفون أنّ الإيمان الذي وُلدوا عليه هو الإيمان الوحيد الحقّ، وكلّ شيء آخر هو انحرافات، أو بكلّ بساطة: هو زيف»[1].

الجواب: أليست هنالك غطرسة لدى الملحدين؟!

ألا يتّهم الملحدون جميع المؤمنين بالانحراف، وبأنّهم يؤمنون بالخرافات، وبأنّ الذي يعتقده الملحدون هو الحقّ الوحيد في الكون، وأنّ كلّ شيء آخر هو انحراف عن الصواب ومزيَّف؟

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣١٨.

إذا كان الملحدون يسمحون لأنفسهم بأن يعتبروا الإيمان بالله عزّوجلّ أمراً مزيّفاً، وأنّ الله مجرد وهم، فلماذا يتّهمون المتديّنين إذا قالوا إنّ الإلحاد أمرٌ مزيَّف؟

إنّ هذا يشبه المثل المعروف: «ضَرَبني وبكى، وسبقني واشتكى».

أنتم الملحدون تتّهمون الملايين من الناس، وفيهم علماء ومكتشفون ومخترعون وأطباء ومهندسون ومن مختلف الطبقات، تتهمونهم جميعاً بأنّهم يؤمنون بالزيف، وبأنّهم على باطل، ثمّ تحاسبون أحد المتديّنين إذا قال في مكان ما بأنّ الذي هو عليه هو الإيمان الوحيد الحقّ، وأنّ غير ذلك انحراف وزيف؟.

حديث عن الإلحاد

الإلحاد دعوة إلى التمرّد

يقول البعض: إنّ الإلحاد ليس بالشيء الذي يدعو للخجل، بل العكس إنّه شيء يدعو للفخر والشموخ للمواجهة مع الأفق البعيد، لأنّ في الإلحاد استقلاليّة صحيّة للعقل، وإبداع مبني على تفكير بنّاء.

الجواب: هذا يشبه القول إنّ التعدي على أعراض الناس، واغتصاب النساء، لا يدعو إلى الخجل، بل على العكس، فإنّه يدعو للفخر!

لماذا التعدي على أموال الناس يدعو للخجل؟!

لماذا الالتزام بالأخلاق والآداب والقانون أمر يدعو للخجل؟

وهل حقّاً ذلك يدعو للفخر والشموخ، لأنّه يدل على الاستقلاليّة؟!

إنّ الملحدين يعتبرون الشخص الذي يتمرّد على قوانين البلاد وعلى الأعراف والعادات الموجودة في ذلك المجتمع يعتبرونه مستقلاً لأنّه لا يلتزم بشيء، أليس هذا عين الخطأ؟

هل الإلحاد تطلّع؟!

يقول الملحدون: إنّ الإلحاد يعتبر تطلّعاً واقعيّاً، أو حسب تعبير بعضهم «الإلحاد تطلّع شجاع ورائع»؟.

الجواب: إنّ العكس هو الصحيح، الإيمان هو تطلّع واقعي، لأنّ الإيمان

يحتاج إلى الشجاعة، وهو الرائع، ألا ترى كيف أنّ الصعود على الجبل بحاجة إلى الشجاعة، أمّا الركون والدعة في السفح فلا يحتاج إلى شجاعة، وإنّ التربع على قمّة الجبل بعد تحمّل صعوبات الصعود هو الرائع وليس النوم في الوادي؟

إنّ الملحدين يطالبون الناس بالكفر بالدين والتمرّد على تعاليمه باسم الشجاعة بينما هو عين السفاهة، لأنّ ذلك مثل أن يدعوك أحد إلى تحدي الجاذبيّة باسم الشجاعة وإلى الكفر بحقائق العلوم باسم الشجاعة، وإلى التمرّد على الأخلاق باسم الشجاعة.

◂ الإلحاد هو الجنون!

يقول عالـم الأعصاب الأمريكي سام هاريس (Sam Harris) في كتابه نهاية الإيمان (The End of Faith): «لدينا أسماء عديدة للذين يؤمنون بأمور ليـس لها أيّ مبرر عقلـي، فعندما يكون إيمان كهذا شائعاً فإنّنا ندعوهم (متديّنين)، وإلّا فإنّنا ندعوهم (مجانين) أو (مرضى نفسيّين) أو (متوهّمين)، وكلّما زاد عدد الناس الذين يؤمنون بنفس الأشياء التي يؤمن بها الشخص، كلّما شعر هذا الشخص بالأمان، ولكن من جهة أخرى فإنّ الأمر يبقى مجرّد حدث تأريخي، فمن الطبيعي أن يكون في مجتمع ما من يظنّ بأنَ خالق الكون يستطيع سماع أفكارك. كذلك هي إشارة بخلل عقلي لو تصوّر الشخص بأنّ الله يخاطبه من خلال أصوات قطرات المطر على زجاج النافذة».

ويضيف هاريس: «لا أريـد أن أقول بـأنّ المتديّنين مجانـين، لكـن معتقداتهم هي الجنون بعينه»[1].

الجواب: لو أنّ أحداً حذّرك من وجود خطر ما، وكنت واقفاً إلى جنب شخص آخر فكان رد فعلك الاهتمام بهذا التحذير، ومحاولة التخلّص من الخطر أو الابتعاد

(١) Harris, Sam: The End of Faith, P. 72, w. w. norton & company, 2005.

عنه، بينما صاحبك كان يضحك عليك ويعتبر اهتمامك بالموضوع جنوناً، فأيّكما هو المجنون؛ من يحذّرك لوجود احتمال الخطر، أم الذي يستهين بالخطر؟

نحن في قضية الإيمان بالله تعالى أمام تحذير حقيقي من قبل ألوف الأنبياء عليهم السلام الذين عُرفوا بالصدق والأمانة والأخلاق الحسنة والإخلاص، وملايين المتديّنين الملتزمين بالصدق أيضاً بأنّ لنا ربّاً حكيماً عليماً، وأنّ هنالك حساب وكتاب وجنّة ونار، وبعض الناس يهتمّون بهذا الأمر فيأخذون حذرهم، وبعضهم يعتبر ذلك جنوناً! فمن المجنون؟!

تُرى، لو أنّك كنت جالساً في حديقة من الحدائق، وبجانبك شخص آخر وكان هنالك احتمال أن تكون في الحديقة بعض الحشرات الضارة، فجاء طفل صغير وأشار إلى ثوبك وقال: هنالك عقرب على ثوبك، أفلا تقوم من مكانك؟ أفلا تنفض ثوبك؟ أفلا تنظر حولك؟ أفلا تحاول الابتعاد عن ذلك المكان؟ مع أنّ هذا كلام طفل، ولكن احتمال الخطر موجود، ومن ثمّ احتمال الضرر وارد، ولذلك تهتمّ بالأمر بكلّ جد، فهل إذا قمت أنت بهذا العمل اعتبرك الناس مجنوناً أم اعتبروك عاقلاً؟

ولو أنّك لم تهتم بما قاله ذلك الطفل، وتبيّن أنّ هنالك بالفعل عقرباً على ثوبك، ولدغك هذا العقرب، ألا يقول لك الناس أنت مجنون لأنّك لم تستمع إلى كلام من حذّرك؟

الغريب في الأمر أنّ الملحدين يقلّبون الحقائق رأساً على عقب، فالمجانين هم، والإلحاد هو الجنون بعينه، ولكنّهم يصفون المؤمنين بالمجانين وبأنّ إيمانهم بالله جنون.

إنّهم يحاولون تصوير الإيمان بالله وكأنّه نوع من أنواع الهلوسة، فهل أنّ مليارات من البشر المؤمنين بالله تعالى، هم مجموعة من المصابين بالهلوسة، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]؟

(١) سورة الصافات: ١٥٤.

ما قيمة الأسماء إذا تحوّلت تراباً؟

حينما نستعرض أسماء الملحدين نجد أسماء لامعة، ألا يعني ذلك أنّ الإلحاد أقرب إلى الحقيقة من الإيمان بالله؟

الجواب: عندما يعجز الملحد عن إثبات أنّ الإلحاد حق من خلال العلم، يتشبّث بهذا وذاك، ويذكر بعض الأسماء ويعتبرها أسماء لامعة.

إنّ من الجهل أن (تكون عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً)، وأن تجعل نفسك أسيراً لأهواء هذا وذاك، وعبداً لعقيدة غيرك، بدل الإصغاء إلى العقل والاحتكام إلى الضمير!

إنّ هذا عين الضلالة.

فما قيمة هؤلاء الملحدين الذين ولدوا في ظلمات ثلاث في رحم أمّهاتهم، وجاءوا إلى الدنيا مع الدم والأوساخ، ثمّ ماتوا وأصبحوا جيفاً في التراب؟!

ما قيمة هؤلاء حتّى نتّبعهم لإنكار وجود خالق الأكوان والمجرّات وخالق البشرية؟! كيف نسمّي هذه الأسماء بأنّها لامعة، وهي تجهل أبسط ما يرتبط بوجودها، وتتنكر لعقولها وتلحد بربّها؟!

صحيح أنّ بعضهم استخدموا في بعض المجالات عقولهم التي وهبها الله سبحانه وتعالى لهم، ووصلوا إلى بعض النتائج، ولكن لا يعني ذلك أنّهم يفهمون كلّ الحقائق، واللطيف هنا أن نذكر أنّ أينشتاين نفسه كان لديه شغف بالخنافس، فهل على الجميع أن يحذوا حذوه لأنّ أينشتاين كان عاشقها؟!

إنّني أدعو كلّ شخص أن يقرأ التاريخ الشخصي لهؤلاء الملاحدة حتّى يكتشف بنفسه كيف أنّهم كانوا يعيشون في مستنقع من الرذائل، وأنّ إلحادهم كان سببه عدم رغبتهم في الالتزام بالأصول الأخلاقيّة، والقواعد الدينيّة في حياتهم الشخصيّة وليس لأنّهم كانوا يهتمّون بالعلم في هذا الأمر.

◂ انتصارات وهميّة

يقول الملحدون: إنّ الإلحاد يكاد ينتصر على الدين، حتّى أنّ ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) أعلن ذات يوم غلبة الإلحاد على الدين.

حيث قال: «إنّ الملحدين يكسبون الحرب ضدّ الدين»، وذكر دليلاً على ذلك: «أنّه بالإمكان هذه الأيام أن يحضر المرء حفل عشاء من دون أن يجد بين المدعوّين متديّناً واحداً».

وقال لصحيفة التايمز البريطانية (The Times): «أعتقد أنّنا عموماً نربح، وكلّنا ماضون باتجاه واحد، ولديّ إحساس يتزايد أكثر فأكثر بأنّ الدين متروك يتلكأ في الوراء».

وقال: «إنّه لم يعد على الملحد أن يلتزم جانب الصمت، ولم يعد مجبراً على التلفّت ذات اليمين وذات اليسار، ليقول: أرجو أن لا أكون مسيئاً لأحد، فالملحد اليوم يستطيع أن يجهر بإلحاده على نحو لم يكن ممكنا قبل خمسين عاماً».

وأضاف: «لا أعتقد أنّ للدين أيّ قيمة أخلاقيّة، لكنّني أعتقد أنّه تاريخيّاً كانت له قيمة فنّية».(١)

الجواب:

أوّلاً: ربّما يكسب الملحدون الحرب ضدّ الدين في بعض الأماكن، ولكن ذلك لا يدلّ على أنّهم على حق، فكم من حركات باطلة غلبت فترة من الزمن على غيرها ولم تكن على حق؟

فمجرّد أن تغلب مجموعة ما في أيّ مكان لا يعني شيئاً خاصّاً وأنّ العبرة

---

(١) Gledhill, Ruth: Atheists are winning war with faith, says Dawkins, The Times, 12 September 2013, accessed September 10, 2016: www.thetimes.co.uk.

بالنهاية، ألم يتغلب هتلر في بدايات الحرب العالمية على الكثير من الدول؟ فلو فرضنا أنّ أحداً في ذلك الوقت كان يقول: إنّ النازيّة على حقّ، بدليل أنّها تتغلّب على باقي الشعوب، فهل كان ذلك صحيحاً؟!

وكذلك الشيوعيّة في الاتّحاد السوفيتي السابق، فقد تغلّبت بإلحادها على بلاد واسعة، فهل كانت على حق؟ وهل بقيت كذلك؟

ثانياً: أن يقوم رجل يدّعي أنّه يلتزم العلميّة، بضرب مثال على غلبة الإلحاد على الدين، بأنّك يمكن أن تحضر حفلة ما وليس بين المدعوّين رجل واحد يؤمن بالدين، فهذا من الغرائب حقيقةً!

ذلك لأنّ هناك حفلات يُدعى إليها الألوف، وليس بين الحاضرين رجلٌ ملحدٌ واحد، فلماذا لايكون ذلك دليلاً على غلبة الدين؟

لكن الملحد -خاصّة دوكنز- يعتبر نفسه محور الكون، فإذا دُعي إلى مكان وليس هنالك متديّنٌ واحد، فهو يعتبر ذلك دليلاً على أنّ الإلحاد يغلب الدين!!

ثالثاً: أمّا أنّ الادّعاء بأنّ البشريّة كلّها ماضية باتجاه واحد وهو ترك الدين، فهذا من جملة ادّعاءاتهم الخاوية والكاذبة التي كثيراً ما يتسلّون بأمثالها، إنّ الأمر بالعكس تماماً، فنحن ماضون باتجاه واحد وهو التديّن، ما عدى الشُذّاذ والخارجون عن جادة الصواب.

رابعاً: إنّ كلامه على أنّ الدين يتراجع إلى الوراء، لأنّ باستطاعة الفرد اليوم أن يجاهر بإلحاده، فهذا ليس جديداً، فعلى مرّ التاريخ كان هنالك أناس يجاهرون بإلحادهم.

فمن عهد إبليس، الذي تجاهر بتحدّيه لله تعالى، ومجاهرته بمعصيته ومروراً بحكّام الجور وسلاطين الكفر، كان هنالك من يجاهر بالإلحاد. فليس هذا أمراً جديداً حتّى يُقال إنّه دليل على أنّ الإلحاد يكسب الحرب ضدّ الدين.

ماذا لو كان العكس؟

يقول الملحدون: إنّ غالبيّة المؤمنين الذين نعرفهم يخفون إلحادهم خلف واجهة دينيّة، أي أنّهم هم أنفسهم لا يؤمنون بأيّ شيء خارق، ولكنّهم يحتفظون برقعة ضبابيّة من الإيمان اللّاعقلاني، أي أنّهم لا يؤمنون بالله ولكن يؤمنون بالإيمان، فهم في حقيقتهم ملحدون يتظاهرون بالإيمان، ما الجواب؟

الجواب: هذا كذب صريح على المؤمنين لأنّ معنى ذلك أنّ غالبيّتهم منافقون، وهذا يشبه أن نقول العكس: كلّ الملحدين يؤمنون بالله، ويؤمنون بشيء خارق، ولكنّهم يحتفظون برقعة ضبابيّة من الإلحاد اللّاعقلاني، للتغطية على إيمانهم فما الذي يقوله الملحدون لو قلنا لهم مثل هذا الكلام؟

الملحدون الجدد.. دوكنز نموذجاً

يقول الملحدون: يتميّز الإلحاد بقوّة منطقه واعتماده على العلم، فكلّ الملحدين -وخاصة الجدد منهم- هم من العلماء وأساتذة الجامعات، فاليوم حينما نتحدّث عن الإلحاد الجديد (The New Atheism) نجد أنّ علماء بارزين يقفون خلفه وينظّرون له أمثال عالم البيولوجيا ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)، الذي أثبت قوّته وانتصاره على أهل الدين والتوحيد، فلماذا لا تُذعنون إلى العلم والعلماء؟

الجواب: بداية نكرّر ما قلناه سابقاً من أنّ الملحدين يفترضون فرضيّات، ويبنون عليها نتائجهم، ويصدرون أحكاماً مطلقة، ثمّ يتغافلون عن استحضار الدليل على أصل هذه الفرضيّات؛ من قال إنّ كلّ الملحدين هم من العلماء؟ ومن قال إنّ العلم يدعو إلى الإلحاد؟ ومن قال إنّ الموحّدين يعيشون في الجهل؟

لقد تبيّن لك -عزيزي القارئ- من خلال طيّات هذا الكتاب كذب كلّ هذه الادّعاءات وضعفها، ولقد لاحظت أنّ الادّعاء بأنّ الإلحاد قائم على العلم هو

أكذوبة كبرى يسعى الملحدون للترويج لها بشكل دائم، فالـمـلحد يريد أن يجعل من الفرضيّة الرياضيّة واقعاً ماديّاً، ومن المادة حكماً على كلّ شيء، ومن الشك يقياناً، ومن اليقين والثوابت شكّاً.

«فلنلـق نظـرة عـلى أفـكار ريتشـارد دوكـنـز (Richard Dawkins) حتّـى نـرى تهافـت المنهـج الـذي يفكّـر بـه هـذا الرجـل، فـلا نُخـدع فيـه، ولا في ضخامـة إنتـاج هـؤلاء القـوم، ولا بالهالـة التـي يحيطهـم بهـا الإعـلام الغـربي:

- يُـروّج الـبـعـض أنّ الـفـيـلـسـوف الكـبـيـر بـرتـرانـد راسـل (Bertrand Russell) هو الأب الروحي لدوكنز؛ إذ إنّ راسل معارض قوي للأديان السماويّة، ويُطَعِّم معارضته بكثير من السخرية والتلميحات والمبالغة، إلّا أنّ هناك اختلافاً شاسعاً بين الرجلين.

تخبرنا كاترين تيـت (Katharine Tait) ابنة راسل في كتابها أبي برتراند راسل (My Father, Bertrand Russell) أنّ راسل كان يشعر دائماً بوجود مكان شاغر في عقله وفي قلبه، مكان كان يشغله الرب عندما كان راسل صبيّاً، ثمّ أصبح خاوياً ولم يعثر على شيء يملؤه، وتقول كاترين بأنّ والدها كان يشعر دائماً أنّ جوهر الإنسان لا ينتمي إلى هذا العالم المادي، وأنّه أخذ منه بداياته الفلسفيّة، وكان طوال حياته يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة.[١]

أين هذه المعاناة داخل نفس برتراند راسل من أجل البحث عن الحقيقة، من العَماء الذي يعاني منه ريتشارد دوكنز.

- يقارن دوكنز بين برتراند راسل باعتباره فيلسوفاً ملحداً يتحرّى أمانة الفكر، وبين الفيلسوف أنتوني فلو (Antony Flew)، فيقول: إنّ فلو قد أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كبر في السن، وإنّه أعلن «أنّ هناك إلهاً» حتّى يملأ الإعلام ضجيجاً حوله، بينما كان برتراند راسل

---

(١) Tait, Katharine: My Father, Bertrand Russell, p.189, Harcourt Brace Jovanovich, 1975.

فيلسوفاً كبيراً حصل على جائزة نوبل.

هل لاحظت السخرية والمقابلة بين وصف فلو بأنّه «كبر في السن» وبين وصف راسل بأنّه «فيلسوف كبير»؟ لقد فات دوكنز أنّ المفكّرين الحقيقيّين يُقيِّمون الحجج والبراهين دون النظر إلى عِرق أو جنس أو عُمر.

كذلك فات دوكنز أنّ مثله الأعلى الـمُـدَّعى، برتراند راسل، قد وصف نفسه بأنّه يتبنّى (أو يُنشئ) مذهباً فلسفيّاً جديداً كلّ بضعة سنوات، وهذا دأب معظم الفلاسفة الكبار.

- عندما وجّه أحدهم سؤالاً إلى دوكنز، عن الأمور التي يعتقد أنّها صواب بالرغم من أنّه لا يملك دليلاً عليها، أجاب دوكنز: إنّي «أعتقد» أنّ الكون نشأ تلقائيّاً من العدم، وأنّ الحياة وجود مادي، وأنّ العقل البشري من نتاج الانتخاب الطبيعي كما وصفه داروين، أي أنّ دوكنز انطلق في كلّ القضايا الجوهريّة من «الاعتقاد» أي مما يعتقده هو بدون دليل علمي أو فلسفي، وفي الوقت نفسه يرفض رجوع فلو إلى الإيمان بدافع من الحجج العلميّة والفلسفيّة.
- من سقطات دوكنز الكبيرة، أنّه حمل مقولات أينشتاين حول «الإله» على أنّه يقصد منها «الطبيعة»، كما يصرّ دائماً على أن ينسب أينشتاين إمّا إلى الإلحاد، أو إلى وحدة الوجود.

هذا في الوقت الذي يؤكّد أينشتاين على إيمانه بوجود عقل حكيم هو المنشئ والمدبّر لقوانين الطبيعة.

كذلك يؤمن الكثيرون من علماء الفيزياء الكبار المعاصرين أمثال ستيفن هوكينج (Stephen Hawking)، وهايزنبرج (Heisenberg)، وبلانك (Planck) بما يؤمن به أينشتاين، ولكن دوكنز ينفي عنهم ذلك الإيمان، ويُصرّ على أنْ يضمّهم إلى زُمرة

الملحدين الوضعيّين الذين يؤمنون بأنّ «ما لا يمكن رصده لا وجود له».

- يوجّه الفيزيائي الكبير جون بارو (John Barrow) أستاذ الفيزياء بجامعة ميمورال (Memorial University) بكندا نقده اللّاذع لمنهج دوكنز، قائلاً: «إنّ ما تعانيه من مشاكل مع الدين يرجع إلى أنّك لست عالِماً حقيقيّاً، فأنت من البيولوجيّين ولست من الفيزيائيّين!، لذلك فأنت تعجز عن تصوّر حجم ما في الوجود والحياة من تعقيد».

ويضيف موجّهاً نقده الساخر لدوكنز: «إنّك مازلت محكوماً بعقدة البيولوجيّين التطوريّين في القرن التاسع عشر، ورغبتهم في إثبات وجهة نظرهم بأيّ ثمن، ولو على حساب الحقيقة، ولا شكّ أنّ لَـيَّ الحقائق لا يُعين كثيراً أو قليلاً في فهم القوانين التي تحكم الكون».

- دوكنز ينتمي إلى مجموعة من الكتّاب العلميّين أمثال كارل ساجان (Carl Sagan) وإسحق عظيموف (Isaac Asimov) الذين لا يكتفون بأن يكونوا علماء وكتّاباً، بل يعتبرون أنفسهم كهنة العلم، الذين يحدّدون لنا ما يُسمح بأن نؤمن به من الغيبيّات وما لا نؤمن»[1].

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٤٠-٤٢: نقلًا عن مقدمة كتاب هناك إله بقلم: روى أبراهام فارجيس.

الإلحاد والتطرّف

من هو المتطرّف؟

يقول الملحدون: نحن نؤمن بالعلم، أمّا الآخرون من المؤمنين بالله وبالأديان فإنّهم لا يؤمنون بالعلم، وكلّ المتديّنين متطرّفون، أمّا نحن فلسنا كذلك، بل نحن نتبع الأدلّة والعلم.

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «ربّما إنّ العلماء متطرّفون عندما يتعلّق الموضوع بمعاني تجريديّة لكلمة (الحقيقة)، ولكن ذلك ينطبق على كلّ الناس، أنا لن أكون متطرّفاً عندما أقول بأنّ نظرية التطوّر حقيقيّة أكثر من قولي بأنّ نيوزلندا تقع في القسم الجنوبي من الكرة الأرضيّة، نؤمن بالتطوّر لأنّ الأدلّة تدعمها، وسنرفضها بين ليلة وضحاها عندما تظهر أدلّة تنفيها، المتطرّف الحقيقي لن يقول شيئاً كهذا أبداً».

ويضيف الرجل: «من السهل جداً الخلط بين التطرّف والعاطفة، ولربّما أبدو أنا عاطفيّاً عندما أدافع عن نظريّة التطوّر، أمام المتطرّفين الذين يؤمنون بالخالق».

ثمّ يقول: «حقيقة التطوّر والحقائق العلميّة العديدة الأخرى ساحرة بشكل رائع وجميلة جداً، ومن المؤسف أن يموت المرء دون أن يدرك ذلك، وبالطبع فإنّ ذلك يجعلني عاطفيّاً، وكيف لا؟! لكن

إيماني بالتطوّر ليس تطرّفاً، وليس إيماناً عقائديّاً، ولكنّني أعرف تمامًا ما يمكن أن يغيّر تفكيري، وسأغيّره بامتنان عندما تظهر الأدلّة الكافية على ذلك»[1].

الجواب: إنّ دوكنز يقول بعبارة أخرى: أنا لست متطرّفاً، لكنّني أرى نفسي عالماً وأرى كلّ الناس جهلة، وأنا لست متطرّفاً، لكنّني أرى أنّي الوحيد الذي يتّبع الأدلّة والبراهين العلميّة، أمّا غيري فهو خرافي يؤمن بالأساطير وليس بالحقائق!

الملحدون يعانون من النرجسيّة بالنسبة إلى ذواتهم، حيث يظنّون أنّهم وحدهم على حقّ، وأنّ غيرهم على باطل.

تُرى أيّ شيءٍ هو التطرّف إذا لم يكن هذا تطرّفاً؟

إنّ الملحدين في العادة يصادرون العلم، ويحتكرون الحقيقة، ويتّهمون غيرهم بالجهل، والوهم، والتطرّف، وبعظائم الأمور.

◄ نزعة التطرّف الإلحادي لتخريب الثقافة العلميّة

يقول دوكنز في كتابه وتحت عنوان (التطرّف وتقويض العلم): «التطرّف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلميّة للآلاف ممن لا يحصى من الأبرياء ذوي النيّات الطيبة والعقول الشابّة المندفعة، والدين المعتدل (اللّامتطرّف) ربّما لن يفعل ذلك، ولكنّه يجعل الطريق ممهّداً للمتطرّفين عندما يتمّ تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم بأنّ الإيمان بدون شك قيمة عليا»[2].

الجواب: من عادة الملحدين المتطرّفين أنّهم يطلقون أحكامهم جزافاً ويأمرون الناس بقبولها، ومن ذلك أن يقول أحدهم: إنّ «التطرّف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلميّة» مع أنّ الدين كان السبب وراء تحفيز الناس لاستخدام

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٦.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٩.

عقولهم، وترويج النزعة العلميّة، ألا ترى كيف أنّ القرآن الكريم يبيّن بوضوح أنّ خطابه للعقلاء فيقول مثلاً:

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾[1]، ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾[3]، ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾[4]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾[5].

وكذلك يقول بالنسبة إلى الذين يعلمون:

﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[6]، ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[7]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[8]، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[9]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[10]، ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾[11].

وقال حول التفكّر:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾[12]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[13]،

---

(١) سورة الجاثية: ٥.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤، سورة الرعد: ٤، سورة الروم: ٢٤.

(٣) سورة النحل: ٦٧.

(٤) سورة العنكبوت: ٣٥.

(٥) سورة الروم: ٢٨.

(٦) سورة البقرة: ٢٣٠.

(٧) سورة الأنعام: ٩٧.

(٨) سورة الأعراف: ٣٢.

(٩) سورة الأنعام: ١٠٥.

(١٠) سورة النمل: ٥٢.

(١١) سورة فصلت: ٣.

(١٢) سورة البقرة: ٢١٩ و٢٦٦.

(١٣) سورة الأنعام: ٥٠.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

كما تجد تنديداً باتباع الظنّ في مقابل العلم، وطلب من الناس أن يكونوا يقظين، وأن يستعملوا عقولهم حتّى في معرفة الله تعالى، فعندما يتكلّم القرآن الكريم عن آيات الله تعالى فهو يطالبنا بأن نتدبّر فيها، أمّا الأحاديث في هذا المجال فهي بلا حدّ ولا حصر، ففي الحديث عَنْ الإماميين أَبِي جَعْفَر وَ أَبِي عَبْدِ الله عليهما السلام:

«لَـمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَحْسَنَ مِنْكَ؛ إِيَّاكَ آمُرُ وَإِيَّاكَ أَنْهَى، وَإِيَّاكَ أُثِيبُ وَإِيَّاكَ أُعَاقِبُ»[3].

والقرآن أيضًا يقارن بين طائفتين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[4].

فمتى كان الدين تخريباً للثقافة العلميّة؟!

أمّا القول بأنّ الدين المعتدل يجعل الطريق ممهّداً للمتطرّفين، فإنّنا نتساءل: وهل الإلحاد أيضاً يمكن تقسيمه إلى إلحاد متطرّف، وإلحاد معتدل؟!

ونقول: إنّ الإلحاد المعتدل يمهّد الطريق للإلحاد المتطرّف؟

وفي الحقيقة فإنّ علينا أن نقوم بوضع كلمة (الإلحاد) مكان كلمة (الدين) ونقول: «التطرّف الإلحادي نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلميّة للآلاف ممن لا يحصى من الأبرياء ذوي النيّات الطيبة والعقول الشابّة المندفعة، والإلحاد المعتدل ربّما لا يفعل ذلك، ولكنّه يجعل الطريق ممهّداً للمتطرّفين عندما يتمّ تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم بأنّ الإلحاد بدون شكّ قيمة عليا»!

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٦، سورة النحل: ٤٤، سورة الحشر: ٢١.

(٢) سورة يونس: ٢٤، سورة الرعد: ٣، سورة النحل: ١١، سورة النحل: ٦٩، سورة الروم: ٢١، سورة الزمر: ٤٢، سورة الجاثية: ١٣.

(٣) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج١، ص ٩٦.

(٤) سورة الزمر: ٩.

أليس الملحدون يعتبرون الإلحاد قيمة عليا، ويدافعون عنه، ويرفعون الراية ضدّ من لا يؤمن بما يقولون؟

لكن هذا هو دأب الملحدين، فهم دائماً يدّعون العلم والاعتدال والأخلاق.. وهي مجرد ادّعاءت، يكذّبها الواقع تماماً، مثل ادّعائهم بأنّ الدين هو سبب الحروب، بينما الذين شنّوا الحروب ضّد المتديّنين هم الملحدون على مرّ التاريخ.

والحروب الكبرى التي حدثت، والتي يمكن البحث عن جذورها بسهولة، هذه الحروب لم تكن حروباً دينيّة، بل كانت حروباً شنّها الذين لا يؤمنون بالله والآخرة، ولا يؤمنون بالحساب والثواب والعقاب.

وعلى كلّ حال ربّما ادّعى أحدهم شيئاً لكن واقع الحال ليس كذلك.

التطرّف لا دين له

يقول الملحدون: إنّ الاعتقاد الديني يؤدّي بالضرورة إلى التطرّف، أي أنّ هنالك أناساً يأخذهم معتقدهم الديني تماماً خارج حدود الأخلاق والاحترام المتبادل، وهم يمثّلون الجانب المظلم من الأحكام الدينيّة المطلقة، وغالباً ما يتمّ وصفهم بالمتطرّفين بينما المتديّنون وحتّى المعتدلون منهم يساعدون في خلق جو الإيمان والذي يزدهر فيه التطرّف.

ومثال ذلك ما حدث في تموز عام ٢٠٠٥م حيث وقعت لندن ضحيّةً لهجوم انتحاري منظّم؛ ثلاث قنابل في قطار الأنفاق، وواحدة في باص.

الذين قاموا بهذا العمل نشروا الرعب في كلّ بريطانيا، وبدأت الصحافة تحلّل الأسباب التي تدفع أربعة شباب لتفجير أنفسهم لأشلاء، وقتل الكثيرين من البرياء معهم، ومع أنّ القتلة كانوا مواطنين بريطانيين عاديين يلعبون الكريكت ويتصرّفون بلطف، ولكن في نهاية

المطاف قاموا بهذا العمل الإجراميّ، الإجابة بكلّ بساطة: «إنّ الاعتقاد الديني حصراً هو الذي يمتلك تلك القوّة القادرة على دفع شخص سليم ومحترم بشكل عام إلى مثل هكذا جنون تام»[1]

وحتّى ما حدث في بُرجَي التجارة العالميّة في نيويورك فإنّ كثيرين بدأوا يحلّلون ويسألون: لماذا حدث كلّ ذلك؟. الجواب: إنّهم كانوا متديّنين، بن لادن كان رجلاً متديّناً، ومن ثمّ فإنّ ما حدث هو بسبب الدين والإيمان بالإسلام.

والسؤال مرّة أخرى: ما الذي يدفع اثني عشر شاباً لقتل أنفسهم من أجل تفجير برجين في نيويورك، ومن ثمّ ما هو السبب لإقدام ابن لادن على مثل ذلك؟ الجواب: إنّ الإجابة على هذا السؤال واضحة جداً وهي: إنّ رجالاً أمثال ابن لادن يؤمنون حقيقة بما يقولون بأنّهم يؤمنون به. إنّهم يؤمنون بحقيقة القرآن حرفيّاً.. إنّهم يؤمنون بأنّهم سيذهبون مباشرة إلى الجنّة بعملهم هذا، من النادر الحصول على مثل هذا التفسير الواضح والمتكامل للسلوك الإنساني. لماذا نتردّد في قبول تفسير كهذا؟[2] فالدين هو سبب القتل والتفجير والشّر.

الجواب:

أوّلاً: هذه النغمة النشاز التي ينشرها الملحدون دائماً ليست جديدة، فكلّ ما قام شخص ما بعمل شرّير إذا كان ملحداً لا ينسبونه إلى الإلحاد وإنّما يعتبرونه تصرّفاً شخصيّاً، ولكن إذا كان متديّناً ينسبونه إلى دينه، وبالذات إلى كتابه المقدس.

والتهمة دائماً جاهزة لإلصاق أيّة جريمة يقوم بها مسلم بالقرآن الكريم مباشرة، وبتاريخ الإسلام وبالأنبياء والرسل عليهم السلام، بينما التطرّف لا دين له وهو

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٠٨.

(٢) Harris, Sam: The End of Faith, P: 29, New York: Norton, (2004).

موجود في جميع البشر، سواء كانوا ملحدين، أو متديّنين أو لا أباليين، فالتطرّف هي حالة، ولا ارتباط لها بمعتقد الشخص. نعم ربّما المعتقد يزيده أو ينقصه.

ثانياً: لماذا لا تنسبون السلوك الإنساني الأخلاقي الجميل الذي يتّصف به الملايين من المسلمين، وما يقومون به من أعمال صالحة، لماذا لا تنسبون ذلك إلى دينهم والتزامهم الدينيّ؟

المشكلة أنّ الملحدين يبحثون عن قضايا شاذّة، ويتشبّثون بها، ويدّعون أنّ هذه الحالة الشاذّة هي القاعدة بينما هي حالة شاذّة، يعني لو أنّ المؤمنين جاءوا بأحد الملحدين وقد قام بعمل شنيع وقالوا: ألا ترى أنّ هذا لا يؤمن بربّه ولا بالآخرة ولا بالحساب ولا بالكتاب وقد قام بهذا العمل، إذن كلّ الذين يقومون بأعمال شرّيرة إنّما يقومون بذلك لإلحادهم.. فماذا يقول الملحدون؟!

ثالثاً: ما قام به القتلة على مرّ التاريخ، وما يقوم به القتلة اليوم، وما يقوم به السرّاق والمغتصبون للنساء، هل كلّ تلك الأعمال هي نتيجة الإيمان، ومن ثمّ فهو دليل على أنّ الإيمان يدفع الناس إلى الشرّ؟

إنّنا نجد في التاريخ البشريّ نموذجين: نموذج يزيد، ونموذج الإمام الحسين عليه السلام؛ فلقد كان الحسين عليه السلام ضحيّة يزيد، وقد كان يزيد يبرّر عمله بالدين، لكنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يمثّل الدين الصحيح، وهو الذي قاوم ظلم يزيد وقُتل من أجل خلاص الناس، لماذا تنسبون ما قام به يزيد إلى دينه، ولا تنسبون ما قام به الإمام الحسين عليه السلام إلى دينه؟

إنّ التطرّف حالة قد توجد لدى بعض الناس ويبرّرون تطرّفهم ببعض القضايا الدينيّة.. ابن لادن كان وهّابيّاً، فهو متطرّف كغيره من الوهّابيّين، والوهّابيّة حالة تطرّف في الأمّة الإسلاميّة، لكن ليس كلّ المسلمين متطرّفين، لأنّهم ببساطة ليسوا وهّابيّين.

أمّا أن يُنسب التطرّف إلى القرآن مباشرة، أو إلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، فهو ضحك على ذقون الناس، وهو عين التطرّف في تفسير الحوادث.

إيمان التطرّف وإيمان الحقيقة

يقول الملحدون: إذا تقبّلنا وجوب احترام الإيمان الدينيّ فقط لأنّه إيمان دينيّ، فلماذا نستثني إيمان أسامة بن لادن، وإيمان الانتحاريّين من هذا الاحترام؟

الجواب: لأنّه وبكل بساطة يوجد إيمانان: إيمان صحيح، وإيمان مزوّر، ولا يمكن المساواة بينهما، كما توجد عملتان: عملة صحيحة، وعملة مزيّفة، فهل علينا أن نقبلهما معاً لأنّ اسمهما عملة؟

الملحدون لا يريدون أن يميّزوا بين الفهم الخاطئ للدين والفهم الصحيح للدين، هم يُصرّون على أنّ الإيمان هو إيمان واحد، وهم في العادة يدينون الإيمان الديني الصحيح باستعراض الإيمان الديني الخاطئ، مع أنّ مسألة الفهم الصحيح والفهم الخاطئ موجودة بالنسبة إلى جميع العلوم وجميع الأشياء، فلو أنّ أحداً فسّر الإلحاد بضرورة قتل من لا يؤمن بالإلحاد مثلاً، فهل الملحدون يقبلون بأنّ الإلحاد يساوي ضرورة قتل الناس؟

سيقولون: هذا فهم خاطئ للالحاد؛ أليس هنالك من فهموا النظرية الداروينيّة خطأً، أو النظرية الماركسية خطأً، أو نظريات فرويد خطأً، أو أيّ علم من العلوم فهماً خاطئاً، أو فسروها خطأً، أليس هنالك في الأرض مَن يخطئ في فهم القانون مثلاً، أو يخطئ في فهم الطبيعة البشريّة؟

نحن نقول إنّ هتلر (Hitler) فهم الحياة وطبيعة دوره في هذه الحياة خطأً، مع أنّه كان مؤمنًا بما يفعل، لكنّه كان مخطأً، ونُدينه لأنّه أخطأ في الفهم، وتجاوز على الأخلاق الإنسانيّة، وقتل الملايين من الناس بسبب أنّه فهم أنّ الألمان إنّما خُلقوا لكي يكونوا فوق الجميع، وعلى جميع الشعوب أن يخضعوا لإرادة الأمّة الألمانيّة، فهل من الصحيح أن نقول: إذن لا يجوز لأحد من الألمان أن يفهم قيمة نفسه وقيمة الطبيعة البشريّة؟

ثمّ لو أنّ أحداً أخطأ في فهم أيّ شيء، فهل ندين ذلك الشيء، أم ندين فهمه؟

ولو أنّ أحداً أخطأ في فهم القانون، فهل نقول إنّ القانون هو سبب الشرور؟ أم نقول إنّ فلاناً لم يفهم القانون بشكل صحيح أو طبّقه بشكل خاطئ؟ فلو رأينا قاضياً ارتكب أخطاء في قضائه، وأدان الأبرياء فهل علينا أن نُلغي القضاء من حياة البشريّة جمعاء، ونقول إنّ سبب إدانة القاضي للبريء هو وجود القضاء والقانون، بدليل أنّ هذا الرجل كان يطبّق القانون، فلماذا نحترم القانون نحن؟

من الواضح جداً أنّ الملحدين دائماً يستخفّون بعقول الناس ويظنّون أنّهم يستطيعون الدجل عليهم وخداعهم، وهذا شاهد آخر على ذلك.

ادّعاء إساءة الدين للعلم

يقول أحد الملحدين: «أنا كرجل علم أحمل العداء للتطرّف الديني، لأنّه يقوم بالإساءة للمشاريع العلميّة بشكل متواصل، إنّه يعلّمنا أن لا نغيّر رأينا، ولا يريد لنا أن نتعلّم المعلومات المثيرة المتوفّرة للمعرفة، إنّه يقوّض العلم ويستنزف الفكر»[1].

الجواب: يقول الإمام علي عليه السلام: «**مَنْ مَدَحَ نَفْسَهُ فَقَدْ ذَبَحَهَا**»[2]، وهذا ما يفعله هذا الملحد حيث يبدأ كلامه بالادّعاء بأنّه «رجل علم» ويحمل العداء لما يسمّيه بالتطرّف الديني، ويقصد بذلك الدين نفسه وليس التطرّف في الدين، لأنّ التطرّف مرفوض عند جميع الناس سواء كان تطرّفاً في الدين أو في غير الدين، فما يقصده هؤلاء هو الدين بشكل مطلق، ثمّ يطلقون كعادتهم ادّعاءً عامّاً بأنّ الدين يقوم بالإساءة للمشاريع العلميّة بشكل متواصل، وهم يريدون القول إنّ الملحدين هم رجال العلم وهم الذين طوّروا الحياة، وهم الذين طوّروا العلوم، أمّا المتديّنون فهم مجموعة من المتخلّفين في مجاهل أفريقيا، وينسى هؤلاء أنّ أنبياء الله عليهم السلام هم رجال التحديث، وأنّهم الذين طوّروا الحياة.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٧.

(٢) الآمدي، الشيخ عبد الواحد بن محمد التميمي: غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٢٥، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

ومثال على ذلك وهو ما لا يدرسه الملحدون تاريخ النبي محمّد ﷺ؛ فقبل أن يأتي كانت الجاهلية منتشرة في كلّ مكان في المعمورة، وكانت الجزيرة العربية مهد التخلّف، أمّا الروم والفرس فكان التخلّف فيهما يأخذ أشكالاً متفاوتة، كالتخلّف في النظام السياسي، حيث كان الملك يتحكم في كلّ ما يرتبط بالناس، أموالهم وأعراضهم ومستقبلهم وكلّ ما تحت أيديهم!

فمَن غيّر الأوضاع وطوّر حياة الناس غير حامل الدين وهو النبي محمّد ﷺ؟! وهذا ما يقوله العلماء المنصفون في الغرب مثل الدكتور والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) حيث يقول: «لقد كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية، فأوربا مدينة للعرب بحضارتها، ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلّا إذا تصوّرنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها»[1].

ويقول المستشرق مسيو ليبري: «لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوربا الحديثة عدّة قرون»[2]

ويقول جورج سارتون (George Sarton) في كتابه مقدّمة في تاريخ العلم (Introduction to the History of Science): «إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون».

ويكفي أن نقرأ ما ذكره الفيلسوف والمؤرخ ويل ديورانت (Will Durant) في كتابه تاريخ الحضارة (The Story of Civilization) عن التطوّر الذي صنعه النبيّ محمّد ﷺ وعن العلم الذي نشره، حتّى نعرف عظمة هذا النبيّ وما فعله دين الإسلام في التاريخ، فكيف يدّعي الملحدون أنّهم هم الذين طوّروا الحياة وطوّروا العلم؟!!

---

(١) خليل، عماد الدين: حول تشكيل العقل المسلم، ص١٠٤، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م.

(٢) روزنتال، فرانز: مفهوم الحرية في الإسلام، تحقيق رضوان السيد- معن زيادة، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧.

أمّا كلّ هذه الاتّهامات للدين من أنّه يسيء للمشاريع العلميّة، وأنّه يمنع التطوّر، ويشجّع على تحجر الأفكار؛ فلا أساس لها من الصحة وقد ذكرنا سابقاً الكثير من الآيات التي تدل على حث الدين على التعلّم والتفكّر، نتقل هنا بعض الروايات -وما أكثرها في هذا الباب- الدالة على اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اغْدُ عَالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ لَاهِياً مُتَلَذِّذاً**»(١).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا يَسْتَحْيِي الجَاهِلُ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنْ يَتَعَلَّمَ**»(٢).

ويقول عليه السلام: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:**

طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ فِي مَظَانِّهِ، وَاقْتَبِسُوهُ مِنْ أَهْلِهِ، فَإِنَ تَعَلُّمَهُ للهِ حَسَنَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَالْمُذَاكَرَة فِيهِ تَسْبِيحٌ، وَالْعَمَلَ بِهِ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ (تَعَالَى)، لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سُبُلِ الْجَنَّةِ، وَالْمُؤْنِسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ وَالْوَحْدَةِ، وَالْمُحدِثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ.

يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَيُهْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى آرَائِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمَسُّهُمْ، وَفِي صَلَاتِهَا تُبَارِكُ عَلَيْهِمْ، يَسْتَغْفِرُلَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ حَتَّى حِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّوَأَنعامُهُ.

إِنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَضِيَاءُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَمَجَالِسَ الْأَبْرَارِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي

---

(١) البرقي، الشيخ أحمد بن محمد: المحاسن، ج١، ص٢٢٧، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـ.

(٢) البرقي، الشيخ أحمد بن محمد: مرجع سابق،ج١، ص٢٢٩.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الذِّكْرُ فِيهِ يُعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ يُطَاعُ الرَّبُّ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَمَلِ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلهَمُ بِهِ السُّعَدَاءُ وَيُحَرَمُهُ الْأَشْقِيَاءُ، فَطُوبَى لِمَنْ لَمْ يَحرِمْهُ اللهُ مِنْهُ حَظَّهُ»[1].

(١) الطوسي، شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن بن علي: الأمالي، ص ٤٨٨، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

الصدفة وخلق الكون

◄ الصدفة وتفسيرات خلق الكون.

يقول الملحدون: ما هي المشكلة في الاعتقاد القائل بأنّ الكون وُجد صدفة؟ ولماذا تعتبرون وجود الله هو التفسير الأصح لوجود الكون وليس الصدفة؟

الجواب: تصوّر لو كانت هنالك سيارة واقفة على قارعة الطريق، وجاءك أحدهم وسألك: من أين جاءت هذه السيارة؟ ومن صنعها؟ ومن وضعها هناك؟

فهناك عدّة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: أن تكون السيارة هي التي صنعت نفسها.

الاحتمال الثاني: أنّ الصدفة هي التي صنعتها، أي أنّ وجود الرياح، والتربة والمعادن في الأرض، هذه كلّها تجمّعت بمرور الزمن وصنعت هذه السيارة.

الاحتمال الثالث: أنّ مجموعة من المهندسين والمهنيّين ممّن يملكون الخبرة والعلم والقدرة والحكمة هم من صنعوا تلك السيارة.

تُرى، من يقبل التفسير الأوّل والثاني؟!!

إنّ الأقرب إلى العقل هو أنّ السيارة قد صنعها صانع متعلّم قدير، حيث إنّه وضع كلّ جزء في مكانه، حتّى أنّك لا تجد (بُرغيّاً) واحداً في غير موقعه الصحيح.

والغريب أن الملحدين الذين ينكرون وجود خالق عالم حكيم قادر وينسبون وجود الكون للصدفة ومن ثمّ التطوّر، لا يقبلون تفسيراً لوجود أيّ شيء مهما كان

بسيطاً مثل قلم رصاص بالصدفة، فهم لا يقبلون تفسير الصدفة في وجود قلم عادي، ويقبلونها في وجود الكون العظيم!!

ففي مسألة السيارة لا يصدّق أحد أنّ السيارة صنعت نفسها، أو أنّ الصدفة صنعتها، مع أنّ أجزاءها موجودة في تربة الأرض، كيف وهذا الكون باعتراف علماء الفلك والفيزياء وعلماء التاريخ وكلّ من يؤمن بالعلم الحديث، يعتقد بأنّ الكون لم يكن موجوداً قبل خمسة عشر مليار عام ثمّ وُجد، فمن أوجده؟ ومن حوّل العدم إلى الوجود، ثمّ مَن خلق الحياة والوعي والعقل في البشر؟

أحدهم ضرب مثالاً بقضية (طائرة البوينغ ٧٤٧) التي كانت في يوم من الأيام تعتبر من الاختراعات الدقيقة، وهي قادرة على حمل المئات من الناس والطيران بهم أكثر من ثلاثة عشر ساعة في الفضاء، ونقلهم من جانب من الأرض إلى جانب آخر.

يقول أحدهم: هل يمكن أن نصدّق أنّ هذه الطائرة صُنعت بسبب مرور إعصار على الأرض، حيث كان هنالك كومة من الحديد والبلاستك وأشياء خردة على الأرض، فجاء الإعصار وأدّى إلى تركيب هذه الطائرة، مع أنّ الخلايا الحيّة أكثر تعقيداً من الطائرة، فهل يمكن أن نصدّق أنّ الإعصار صنع الطائرة؟ والجواب طبعاً لا، فكيف نصدّق أنّ إعصاراً ما أدّى إلى وجود حصان أو بعوضة، من خلال خلط الأجزاء المختلفة؟

ثمّ لو صدّقنا بأنّ الإعصار هو الذي ركّب الأجزاء في داخل جسم حصان، فمن أين جاءت روح الحصان؟

الطائرة لا روح فيها، لكن الإنسان والكائنات الحيّة فيها روح، ولها شعور وإدراك.

تركيب الأجزاء الذي لا يصدّق أحد بأنّ الإعصار يمكن أن يقوم به أمر، وخلق الروح في هذه الأجزاء أمر آخر.

نحن في تركيب الأجزاء بفعل الإعصار لا نقبل بهذا المنطق الطفولي الأجوف،

فكيف نقبل بأنّ الكون بما فيه من البشر، وما في البشر من روح وعقل ووعي، كلّ هذا جاء عن طريق إعصار، أي عن طريق الصدفة؟

يقول البروفيسور إيدوين كونكلين (Edwin Conklin): «إنّ القول بأنّ الحياة وجدت نتيجة (حادث اتّفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقّع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سبيل المصادفة»(١).

ويقول عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدر (Marlin B. Kreider): «إنّ الإمكان الرياضي في توافر العلل اللّازمة للخلق عن طريق المصادفة في نِسَبِها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء»(٢).

يقول أنتوني فلو (Antony Flew): «تقول القاعدة الفلسفيّة: إنّ البرهان الفلسفي يُعتبر متكاملاً إذا اجتمع فيه الدليل على صدق الرأي، مع الدليل على خطأ الرأي المقابل، لذلك أعجبني كثيراً تفنيد العالم جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) في كتابه علم الإله (The Science of God) للدليل الذي يسمّونه: برهان أو نظرية القرد (Monkey theorem).

يُشَبِّه القائلون بهذا الرأي إمكانية نشوء الحياة بالصدفة بمجموعة من القِردة، تدق باستمرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ويرون أنّ القردة يمكن أن تكتب بالصدفة، في إحدى محاولاتها اللانهائيّة، قصيدة لشكسبير (Sonnet).

يبدأ شرويدر تفنيده بعرض تجربة أجراها المجلس القومي البريطاني للفنون، وفيها وضع الباحثون ستة من القردة في قفص لمدة، وتركوا معها لوحة مفاتيح كمبيوتر، بعد أن درّبوهم على دق أزرارها.

كانت النتيجة ٥٠ صفحة مكتوبة، دون كلمة واحدة صحيحة، حتّى لو كانت هذه الكلمة من حرف واحد. بعد ذلك طبّق شرويدر هذه الاحتمالات على

---

(١) الميداني، عبد الرحمن بن حسن: صراع مع الملاحدة حتّى العظم، ص١١٢، دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.

(٢) الميداني، عبد الرحمن بن حسن: مرجع سابق، ص١١٣.

قصيدة (سوناتا) لشكسبير، فخرج بنتائج عَرَضها كالآتي:

- اخترت لشكسبير السوناتا التي تبدأ ببيت:

Shall I compare thee to a summer's day?

وأحصيت حروفها فوجدتها ٤٨٨ حرفاً، ترى ما هي احتماليّة أن نحصل بالطَرق على أزرار لوحة الكمبيوتر على هذه السوناتا بالصدفة (أي أن تترتب الـ ٤٨٨ حرفاً نفس ترتيبها في السوناتا)؟ إنّ الاحتمال هو واحد مقسوم على ٢٦ مضروبة في نفسها ٤٨٨ مرة، أي $٢٦^{-٤٨٨}$ وهو ما يعادل $١٠^{-٦٩٠}$.

- وعندما أحصى العلماء عدد الجسيمات في الكون (من إلكترونات، وبروتونات، ونيوترونات) فوجدوها $١٠^{٨٠}$ أي واحد وعلى يمينه ٨٠ صفراً، معنى ذلك أنه ليس هناك جسيمات تكفي لإجراء المحاولات، وسنحتاج إلى المزيد من الجسيمات بمقدار $١٠^{٦٠٠}$.

- وإذا حوَّلنا مادة الكون كلّها إلى رقاقات كمبيوتر (Computer Chips)، تزن كلٌّ منها جزءاً من المليون من الجرام، وافترضنا أنّ كلّ رقاقة تستطيع أن تجري المحاولات، بدلاً من القِردة، بسرعة مليون محاولة في الثانية، نجد أنّ عدد المحاولات التي تمت منذ نشأة الكون هي $١٠^{٩٠}$ محاولة، أي أنّك ستحتاج مرّة أخرى كوناً أكبر بمقدار $١٠^{٦٠٠}$! أو عمراً أطول للكون بنفس المقدار!

- يقيناً لن نحصل على سوناتا بالصدفة، حتّى لو كان الكاتب هو الكمبيوتر وليس القِردة.

أخبرت شرويدر بأنّ طرحه هذا أثبت لي أنّ «برهان القِردة» لا يعدو إلّا أن يكون كومة من النفايات، بالرغم من جرأة من يعرضون هذا البرهان، ويدّعون أنّ القِردة يمكن أن تكتب رواية كاملة لشكسبير، مثل هاملت أو عطيل، أو حتّى أعمال شكسبير كلّها.

وإذا كان هذا الرأي يعجز عن إثبات إمكانيّة كتابة سوناتا بالصدفة، فهل سينجح في تفسير نشأة الحياة بالصدفة من المادة غير الحيّة؟!

بهذا العرض لشرويدر انهار تماماً البرهان العقلي الذي استند إليه الملحدون، وإذا أضفنا إلى ذلك قوّة البرهان الذي يقدّمه التعقيد الهائل في بنية الكون وفي بنية وآلية عمل جزيء الـ (DNA)، اكتمل لدينا البرهان الفلسفي (الدليل على صدق الرأي مع الدليل على خطأ الرأي المقابل) على وجود الإله الحكيم القادر»[1].

هل ذهبت الصدفة إلى التقاعد؟

يقول الملحدون: نحن نفسّر الحياة بأنّ احتمال وجودها بالصدفة وارد، وما دامت الحياة وجدت فهي التي طورت نفسها.

ثمّ يدّعي هؤلاء بأنّ احتمال حصول الحياة بالصدفة وإن كان ولا يزال ضئيلاً، لكن الحياة وجدت في وقت ما بالصدفة ولمرة واحدة.

الجواب: معنى ذلك: أنّها وجدت مرة واحدة بالصدفة، ثمّ فيما بعد أقفلت الصدفة على نفسها حدوث الصدفة وتوقفت!!

هذا هو منطق الملحدين: مجرّد ادّعاءات وإعطاء تفسير غير عقلي: مرة واحدة حدثت هذه الحياة بالصدفة ثمّ توقفت عن العمل وإلى الأبد؟!

هل ذهبت الصدفة إلى التقاعد؟

أهذا هو تفسير علمي كما يدّعي هؤلاء؟

مأزق الصدفة!

يقول الملحدون: إنّنا عن طريق نظرية داروين (Darwin) توصّلنا إلى الكثير من الحقائق فيما يرتبط بتطوّر الكون، فهذه النظريّة هي نظرية

(١) Flew, Antony: There Is a God, pp. 75-78.

بديلة وصحيحة وعلميّة لنظريّة الإيمان بوجود الله، لأنّ الإيمان بوجود الله يجعلنا في مأزق حول كيف حدثت الحياة؟ بينما النظرية الداروينيّة حلّت المشكلة، ومن ثمّ فإنّ الصدفة عملت مرة واحدة في وجود الكون من العدم، ثمّ تطوّرت الأمور بشكل علميّ ودقيق.

الجواب: إنّ تفسير وجود الكون بالصدفة ليس نظرية علميّة، فكلّما وقعتم في مأزق قلتم: هذه حدثت بالصدفة! فهل هذا ما يقوله العلم؟!

أنتم تدّعون بأنّكم من أهل العلم وأنّ نظرية داروين (Darwin) تفسّر لكم كيف تطورت الحياة، لكن هل هي تفسر لكم كيف وجدت الحياة، وكيف وجد هذا الكون الدقيق المليء بالعجائب والغرائب إلى حد يقف العقل مدهوشاً أمامه هل يُعقل أنّه وجد بالصدفة؟

إنّ تشارلز داروين (Charles Darwin) قد أقرّ بنفسه بصعوبة تصوّر هذا الكون بدون وجود خالق له حيث يقول في سيرته الذاتية: «من الصعب جداً، بل من المستحيل، أن نتصوّر أنّ كوناً هائلاً ككوننا، وبه مخلوق يتمتّع بقدراتنا الإنسانيّة الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأنّ الحاجة هي أم الاختراع، وعندما أبحث حولي عن السبب الأوّل وراء هذا الوجود، أجدني مدفوعاً إلى القول بمصمّم ذكي، ومن ثمّ فإنّي أؤمن بوجود الإله»[1].

ثمّ إنّ معرفة تطوّر الحياة بهذا الشكل ليس فيه تناقض مع وجود الله تعالى.

لقد كنتُ في يوم من الأيام جالساً أنتظر وقت الصلاة، وأنا في ساحة الدار وإذا بي أسمع صوت طائرة هليكوبتر في الفضاء، كان الوقتُ بعد الغروب وكانت النجوم واضحة في السماء، فقلت لنفسي: إنّ الملحدين حينما يرون طائرة الهليكوبتر، أو يسمعون صوتها يقولون: لا يمكن أن تطير طائرة وتصعد إلى الفضاء، وفيها بشر يصعدون وينزلون بسلام، لا يمكن أن يكونَ ذلك قد حدث بالصدفة، فهم

---

(١) Darwin, Charles: The Autobiography of Charles Darwin 1809-1882, pp.92-93, Nora Barlow, 1958.

من خلال رؤيتهم لطائرة الهليكوبتر يؤمنون بوجود مصنّع لها ومهندسين، وهم استخدموا العلم والمعرفة والحكمة في صنعها، وإيمانهم بالصانع لهذه الطائرة إنّما هو بسبب أنّهم يرون أنّ كلّ جزء فيها إنّما هو في مكانه، لكنّهم حينما ينظرون إلى النجوم في السماء، وهي أكثر تعقيداً وأهم بكثير بما لا يقاس بطائرة الهليكوبتر يقولون: هذه وجدت بالصدفة!

لماذا الصدفة لا تعمل في طائرة الهليكوبتر، وتعمل في هذه النجوم والمجرّات؟

أمّا أن يقول قائل بأنّنا عرفنا كيف تعمل طائرة الهليكوبتر، وكيف وضعت هذه الأجزاء في مواضعها الصحيحة، وكيف رُكّبت الأجهزة التي تحمل طائرة الهليكوبتر إلى الفضاء ولذلك آمنّا بصانعها، فإنّنا نقول: هل إن جهلنا بطريقة تركيب الطائرة، وطريقة عملها، يلغي إيماننا بوجود مَن صنع هذه الطائرة؟

أنتم تقولون: نحن من خلال نظرية داروين(Darwin) عرفنا كيف تطوّرت الأمور–ومع قطع النظر عما لو كان هذا الادّعاء صحيحاً أو غير صحيح– ولكن هل هذا يلغي وجود مَن صنع هذه الحياة؟

ثم تعالوا نتأمّل ونفكّر، إنّنا نعلم أنّ أجزاء الحياة تتشكّل من ذرّات، والذرّات من الالكترونات، وعدد الالكترونات كبيرٌ جداً، هل من الصدفة أنّ ذلك العدد الهائل، أي مليارات المليارات من الالكترونات، كلّها جاءت بنفس المواصفات؟

إضافة إلى أنّ الالكترون مفروض أن يتغيّر وبشكل عشوائي من لحظة إلى أخرى، أي من المفروض الأخذ بعين الاعتبار أنّ الالكترون لا يحافظ على مواصفاته سوى لبرهة ضئيلة من الوقت.

لو نظرنا إلى النحاس والالكترونات والجزئيّات الموجودة فيه، لرأينا أنّها تملك اليوم نفس المواصفات التي كانت تملكها في القرون السابقة، وهي التي حافظت على وجود النحاس بشكله الموجود الآن وسابقاً.

السؤال: لماذا لم تتغيّر هذه الالكترونات؟ لماذا لا نرى انفجارات ذريّة في الكون بسبب انفلات الالكترون من مجاله وتغيير شكله بشكل عشوائي؟

أنت حينما ترى الكتروناً واحداً فكأنّك رأيت كلّ الالكترونات، لأنّ جزيّئات نحاس ما تملكه أنت اليوم -مثلاً- تتصرّف كجزيّئات النحاس في أيّ قطعة نحاس أخرى، وجزيّئات بقية المعادن تتصرّف بشكل آخر، ولهذا يبقى كلّ الكترون وكلّ جزء نحاس كما هو من دون تغيير من مكرو ثانية لأخرى ولقرن بعد آخر، فمَن الذي منع الالكترونات من أن تتغيّر بشكل عشوائي؟

مَن كبح جماح الالكترون ووضعه في الطابور مع زملائه ليكونوا جميعاً متماثلين؟

وبإرادة مَن بقيت هذه كما هي؟

هل بإرادة نفسها، وهي لا تفهم ولا تشعر؟

ولو قال أحدٌ: إنّ هذه إرادة النحاس، أي أنّ مادة النحاس أرادت أن تُبقى الالكترونات في النحاس لتعمل بشكل موحّد منذ ملايين السنوات وإلى الآن، ألا يعني ذلك الإيمان بتعدّد الآلهة؟

نحن المؤمنون نقول: إنّ الله مع قدرته اللّانهائيّة، وعلمه المطلق، واختياره اللّامحدود هو الذي صنع هذا الكون، ولا حدود لقدرة الله، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ومن ثمّ هو الذي جعل هذا الكون بهذا الشكل ابتداءً ممّا في الذرّات وانتهاءً بالمجرّات.

أمّا مسألة التطوّر أو الجمود، أي كون الإنسان قد خلق إنساناً، والقرد قرداً، والطير طيراً والزواحف زواحف، فذاك بحث آخر.

الكلام حول مَن أوجده، ومن جعله يتصرّف بهذا الشكل؟

الإيمان والصدفة.. أيّهما يتناقض مع العلم؟

يقول الملحدون: لنفترض أنّ هنالك رجلاً مثقّفاً متخرّجاً من الجامعة أو أستاذاً فيها يسمع بما يلي:

١. في زمن أسلافنا ولد شخصٌ ما لأمٍّ عذراء، وبدون تدخّل أيّ رجل في الموضوع، أي أنّه ولد من أمّ بلا أب.

٢. نفس الشخص الذي وُلد من دون أب جاء إلى رجل ميّت، وقد مضى على موته وقت يكفي لكي تنتشر منه رائحة كريهة، فناداه فعاد إلى الحياة فوراً.

٣. إنّ الشخص نفسه الذي لم يكن له أب، هذا كان باستطاعته أن يشفي الذين وُلدوا عميان، أو أن يشافي الذين أصيبوا بالبرص.

٤. إنّ هذا الشخص ارتفع إلى السماء سواء قبل أن يُقتل على الصليب -كما يقول المسلمون- أو بعد أن قُتل ودفن، فقام من قبره -كما يقول المسيحيّون-.

٥. إنّ هذا الشخص يسمعك، وباستطاعتك أن تخاطبه، وفي نفس الوقت قادر على أن يقرأ أفكار الناس، من دون أن يصرّحوا بها.

٦. إنّ هذا الشخص ربّما سيعاقِبُ بعضَ السيّئين أو يجازيهم بالخير إذا كانت لهم أعمال صالحة.

تُرى ماذا سيكون موقف عالم مفكّر مثقّف عندما يسمع هذا النوع من الإيمان؟

الجواب: لنفترض أنّ رجلاً مثقّفاً وهو أستاذ جامعة، أو طالب فيها يسمع مايلي:

١. حينما لم يكن هنالك أيّ شيء، لا حجر ولا مدر ولا بشر في الكون، تكوّنت بالصدفة غيوم، ثمّ تحوّلت هذه الغيوم إلى كواكب، ثمّ ظهر الماء، ثمّ بدون أب وأم وُلد حيوان، في صورة حشرة وحيدة الخلية، لا أب لها ولا أم.

٢. نفس هذا الحيوان الذي ولد من غير أب ولا أم بدأ يتطوّر من قِبل نفسه، يتطور إلى ما هو أفضل منه، أي أنّ هذه الحشرة تحوّلت إلى حيوان له عدّة خلايا،

وفي البداية كان يعيش في الماء ثمّ طوّر نفسه -وهو جاهل بالطبع ولا يعلم شيئاً- إلى حيوان برمائي، ثمّ ولد منه حيوان أكثر تطوّراً في اليابسة، وبدأ هكذا بدون أب، وبدون أم، يتطوّر إلى أنواع من الحيوانات والحشرات.

٣. بعد أن وُجد هذا الكون من العدم ومن دون أن يخلقه أحد، توقفت الصدفة، يعني وُجد الكون بالصدفة، ثمّ بالصدفة توقفت الصدفة، وبدأت الأمور تمشي حسب الانتخاب الأصلح، ومن ثمّ لا يمكن أن نتوقع في يوم من الأيام أن يوجد شيء آخر بالصدفة رغم أنّ عمل الصدفة هذا كان رائعاً، يعني كان أصلح!

٤. إنّ هذا الحيوان الذي تطوّر من حيوان وحيد الخلية إلى أن وصل إلى شكل الإنسان، أصبح لا ينتج إلّا مثله، توقّف تطوّر بقية الحيوانات، فالحيوان وحيد الخلية اليوم لا يتطوّر إلى حيوان عنده مجموعة من الخلايا، والحيوان البرمائي يبقى برمائي، والحيوان الذي يعيش في البر يبقى يعيش في البر فقط، والقرد الذي تطوّر إلى أن أصبح هذا الإنسان موجوداً متطوّراً بالانتخاب الطبيعي توقف عن التطوّر، وأصبح لا ينتج القرد إلّا قرداً، والطير إلّا طيراً، والسمكة إلّا سمكة، والإنسان إلّا إنساناً متشابهاً لما سبقه فلا تطور إضافي، أمّا لماذا توقف التطوّر عند هذه الحيوانات وهذه الحشرات؟ فلا أحد يعرف.

٥. ثمّ إنّ هذا الكون الذي وجد من دون علم وقدرة ومعرفة وتخطيط، تطوّر إلى أن أصبح شيئاً متطوّراً ومعقّداً، وفيه آثار العلم والحكمة والقدرة، والإنسان الذي تطوّر من حيوان لا يفهم ولا يعقل صار عنده الوعي والمعرفة والفهم!

والغريب أنّ التراب والهواء والماء والشمس، وهي كلّها بلا عقل ولا معرفة ولا حكمة، هذه التي نسمّيها (الطبيعة)، أنتجت شيئاً معقّداً يحتاج لمجرد فهمه إلى الفكر والمعرفة والحكمة والعلم.

تُرى ماذا سيكون موقف هذا العالم المثقّف الذي يدرس في الجامعة من هذه الخرافات؟!

الانتخاب الطبيعي

◂ جدليّة خلق الكون.

يقول الملحدون: إنّ تشارلز داروين (Charles Darwin) في الحقيقة كشف لنا عن قانون الانتخاب الطبيعي، ونحن نطبّق هذا القانون في فروع أخرى، أي نقول: إنّ كلّ ما هو موجود اليوم هو نتيجة انتخاب طبيعي.

الجواب: الكلام في نظرية داروين (Darwin) هو كلام طويل عريض، ولقد سبقت وأن أشرت إليها في كتابي «تهافت النظرية الداروينيّة»[1] ولا أريد الخوض فيها هنا، إلّا أنّ هنالك نقطة واحدة لابدّ من ذكرها وهي أنّ داروين ربّما اكتشف التطوّر كقانون، لكن السؤال:

من وضع القانون الذي اكتشفه الرجل؟

من اختار هذا القانون للأرض، ومن الذي أجراه في القمر وفي المريخ وباقي كواكب المنظومة الشمسيّة مثلاً؟

إذا كانت الصدفة هنا هي التي خلقت الحياة، فلماذا لم تخلقها في بقية الكواكب؟

وإذا كانت الصدفة قد طوّرت كلّ شيء فلماذا أنّها لا تخطئ في شيء؟

ألا يعني هذا أنّ الملحدين ليس فقط يؤمنون بأنّ الطبيعة هي التي خلقت نفسها، وخلقت الكون، بل ويؤمنون بعصمتها أيضاً.

---

(١) راجع كتاب: (تهافت النظرية الداروينيّة وسقوط النظريات التابعة) للمؤلف.

مرّة أخرى: مَن خلق الكون؟

يقول الملحدون: لا تضربوا لنا الأمثال بما هو موجود في الطبيعة، من الأشجار والحشرات والحيوانات وما فيها من دقّة وتعقيد، لأنّكم تريدون أن تثبتوا بهذا الأمر أنّ وجود هذا التعقيد ليس صدفة، ونحن نقول: لا، ليست (الصدفة) هي التفسير لوجود كلّ هذا الإبداع الرائع الموجود في النباتات والحشرات والحيوانات، ولكن البديل ليس هو (التصميم الذكي)، لأنّ (التصميم الذكي) يستوجب وجود مصمّم قام بتصميم كلّ شيء.

يقولون: لا تحصروا الإجابة بين إمّا (الصدفة) وإمّا (التصميم الذكي) فإنّ (التصميم) ليس البديل الوحيد للصدفة، بل (الانتخاب الطبيعي) هو البديل الأفضل.

وحينما يُسأل الملحدون: كيف يكون (الانتخاب الطبيعي) هو البديل الأفضل؟ لا يجيبون على ذلك إنّما يقفزون إلى سؤال آخر وهو: مَن خلق الخالق؟

الجواب: لنفترض أنّنا نقول: نحن لا نعرف كيف وُجد الخالق، فهل معنى ذلك أن ننكر وجوده؟

تُرى لو أنّ طفلاً سأل أباه: مَن صنع الطائرات؟ وكان الأب لا يعرف من صنعها، وقال: لا أعرف، فهل من حقّ الطفل أن يقول: إذن ليس هنالك من صنع الطائرة، لأنّ والده لا يعرف من صنعها؟

إنّ البشر فيما يرتبط بالخالق عاجزون، ليس فقط عن معرفة كنه ذاته ووجوده، بل حتّى عن معرفة صفاته، لأنّ الله غير محدود ونحن محدودون، ولا يمكن للمحدود أن يحيط باللّامحدود.

ربّنا لا يُؤيّن بأين، ولا يُكيّف بكيف، وفي ذلك تكمن قوّته وقدرته، فهو

حاكم وليس محكوماً.

أمّا (الانتخاب الطبيعي) الذي يقولون إنّه الحل البديل لهذه المشكلة فهو مجرد ادّعاء، لأنّه لعب بالألفاظ فقط وليس أكثر من ذلك.

إنّ الملحدين يقولون: إنّ التعقيد قابل للاختزال، وإنّ افتراض تعقيدٍ غير قابل للاختزال أمر غير صحيح، ثمّ يسهبون في الكلام عن اللّااحتمالية والأمثلة.. ولكن لو أنّنا جدلاً سلّمنا بكلامهم يبقى السؤال الحقيقي الذي لا يستطيعون الإجابة عليه هو: إذا لم يكن الله هو الذي خلق الكون فمن هو الخالق؟ من خلق الجزء الأول وإن كان صغيراً؟

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «في كتابي الصعود إلى جبل اللّااحتمال (Climbing Mount Improbable) وضحت هذه النقطة بمثال: تخيّل جبلاً أحد طرفيه منحدر بشكل حاد، من المستحيل تسلّقه، والطرف الآخر مُنحدِر بشكل متدرج لطيف حتّى القمة، في القمة يجلس نظام معقّد كالعين مثلاً، أو البكتريا ذات المحرّك المروحي، الفكرة السخيفة بأنّ تعقيداً كهذا يتجمّع بشكل آني يرمز بالانتقال من وادي الجبل إلى قمّته بقفزة واحدة.. بينما التطوّر على العكس من ذلك يذهب حول الجبل من الناحية الأخرى ويصعد المنحدر المتدرج بشكل بطيء.. مبدأ الصعود البطيء مقارنة بالقفزة الواحدة مبدأ بسيط جداً»[1].

ثمّ يقول: «الحياة الحقيقيّة تبحث عن المنحدر اللّطيف خلف الجبل اللّااحتمالي، في حين أنّ الخلوقيّين عميان عن كلّ ذلك ويركّزون على المنحدر الحاد القاسي في المقدمة»[2].

والجواب: هذا المثال -مثال الجبل- يصلح للضحك على الذقون وخداع الأطفال، وليس كإجابة على مسألة حدوث الخلق، مع مافيه من آيات العلم والقدرة والحكمة في النباتات والحشرات والحيوانات والإنسان، ذلك أنّ السؤال

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٢٣.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٢٤.

الأساسي هو في المثال السابق: من أين جاء هذا الجبل؟! ومن وضع نظاماً معقّداً كالعين مثلاً على قمّته؟

سواء قلنا بوجود منحدر حاد في جانب منه، ووجود طريق يمكن تسلّقه خطوة خطوة فإنّ المطلوب هو الإجابة على سؤال: من أين جاء الجبل؟ ومن صنعه؟ ومن جعل جانباً منه حاداً والآخر بشكل آخر؟

إنّ التراكم الذي تتحدّثون عنه لابدّ أنّه بدأ من مكان ما، والسؤال هو: من أتى بذلك المكان، أو ذلك الوجود الأوّلي؟ أنتم تقولون: بفعل التراكم حدث التطوّر.

ونقول: من أين بدأ؟ ومن بدأه، حتّى تَراكَمَ فيما بعد؟

هذا يشبه أنّ أحدهم يقول: البحيرة التي وُجدت في مكان ما إمّا أن يكون أوجدها شخص ما فجأة، وإمّا أنّها تكّونت بفعل قطرات المطر. ولكن السؤال هو: ومن أين جاءت تلك القطرات التي كوّنت البحيرة؟!

ومرة أخرى بناء على مثالك يبقى السؤال: من الذي جعل الجبل متدرج بشكل بسيط؟ من الذي خلق الجبل أساساً؟ من الذي أوجد هذا الطريق القائم على تراكم العديد من التغييرات البسيطة حسب تعبير داروين؟

إنّ سلسلة التراكم لابدّ أن تبدأ من نقطة ما، وهنا نسأل من أوجد هذه النقطة من العدم؟

يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew): «يواجه البيولوجيّون والفلاسفة الماديّون مأزقاً علميّاً لا يُحسدون عليه، وهو مأزق ذو جوانب متعدّدة لم يقدّموا تفسيراً لأيّ منها:

أوّلاً: من أين اكتسبت المادة غير الحيّة الغائيّة (أي أن يكون لها هدف وتوجّه) حتّى تصبح كائناً حيّاً؟

ثانياً: من أين اكتسبت المادة غير الحيّة (أو حتّى المادة الحيّة الأوّلية) القدرة على التكاثر، هذه القدرة اللّازمة لاستمرار الأنواع، وكذلك لترقّيها في

سلّم التطور؟

ثالثاً: من أين اكتسبت المادة غير الحيّة آلية التشفير، ومعالجة المعلومات المميِّزة لجميع الكائنات الحيّة؟

رابعاً: كيف تتحول المعلومات المكتوبة بالحبر إلى كائنات حيّة، عملية التشكيل (Morphogenesis)؟

وحتّى نتصوّر صعوبة الموقف الذي يواجهه الماديّون عند تفسير هذه المعضلات فلنطالع آراء أقطاب البيولوجيا في العالم:

- يقول أستاذ التاريخ الطبيعي والحفريات بجامعة هارفارد (Harvard University) آندرو كنول (Andrew Knoll):

إذا أردنا تقييم آخر ما توصّل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أنّنا:

١. مازلنا لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد!

٢. مازلنا لا نعرف تحت أيّة ظروف ظهرت الحياة!

٣. مازلنا لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب![١]

هذا بخصوص الجوانب الماديّة لنشأة الحياة، فكيف نجيب عن التساؤلات الفلسفيّة الأعقد منها؟

- ويقول عالم الفيزياء النووية جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder): «إنّ مجرّد وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة لا يفسّر لنا كيف نشأت. نستطيع أن نقول على أحسن تقدير: إنّ هذه الظروف سمحت بنشأة الحياة على كوكبنا واستمرارها، ولكن كلّ قوانين الطبيعة التي نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسّر نشأة الحياة من المادة غير الحيّة»[٢].

ثمّ يصرّح أنتوني فلو (Antony Flew) قائلاً: «هذه هي أيضاً قناعتي: إنّ

---

(١) Knoll, Andrew: PBS Nova interview, May 3, 2004.

(٢) Flew, Antony: There Is a God, pp. 128-132.

التفسير الوحيد المرضي عقلاً لوجود الحياة ذات الغاية، والقادرة على التكاثر والتي تحكمها آلية التشفير هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر»[1].

الحظ والصدفة يفسّران الحياة

يقول الملحدون: لا حاجة لنا إلى الإيمان بالله لتفسير الحياة، لأنّ ذلك يضمنه لنا الحظّ.

ثمّ يأتي التطوّر الطبيعيّ -حسب تعبيرهم- والانتخاب الأصلح.

الجواب: الملحدون مستعدّون للإيمان بكلّ شيء، إلّا الإيمان بالله عزّوجلّ، فلا مانع لديهم من الإيمان بالحظّ والصدفة وأيّ شيء آخر إلّا وجود الباري.

يقولون: لمرّة واحدة حدثت الصدفة!

وحينما نتساءل: كيف لا تعمل الصدفة الآن؟!

يسكتون ولا من جواب.

رفض نظرية الانتخاب الطبيعي.. لماذا؟

يقول الملحدون: أنتم تُغلقون أبواب العلم والتطوير، وتفترضون وجود الفرضيّات التي تؤمنون بها فقط، ولا تقبلون بالفرضيّات الأخرى؛ فمثلاً في قضيّة خلق الكون لا تقبلون إلّا بـ(الصدفة) أو (التصميم الذكي)، ولكن لماذا ترفضون (الانتخاب الطبيعي)؟ هل فكرتم فيه؟ هل فهمتم معناه؟ إنّه الحل الأفضل لمعضلة خلق الكون.

الجواب: إنّ موضوع الصدفة أو التصميم الذكي يرتبط بأصل وجود الكون، وهل أنّه جاء بالصدفة، أم بإرادة خالقه وبتصميم ذكي؟ بينما مسألة التطوّر فهي مرتبطة بما بعد وجود الكون، ووجود المادة الأوليّة فيه.

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٠٥.

فلا يمكن أن نعتبر التطوّر خياراً في أصل الخلق، وإنّما بعد ذلك.

هل جاء الكون من العدم؟

يقول الملحدون: يدّعي المؤمنون أنّ الكون جاء من العدم، أي من لا شيء، ولأنّه لا يمكن أن يأتي شيء من لا شيء فإنّهم يفترضون وجود الله.. إنّ في كلامهم مغالطة كبيرة وهي افتراض وجود العدم والذي أثبت العلم الحديث عدم وجوده، ذلك أنّ الفضاء الفارغ من أيّ شيء -العدم- يخالف أسس الفيزياء، ويخالف مبدأ عدم اليقين أو مبدأ الريبة (Uncertainty principle) الذي اكتشفه عالِم الفيزياء الألماني الكبير فيرنر هايزنبرج (Werner Heisenberg).

إنّ السؤال عن خلق الكون سؤالٌ قائمٌ على مغالطةٍ منطقيّة بحتة، يحاول فيها السائل خداع عقل المتلقّي من خلال افتراض وجود عمليّة خلق، وكلّ ما علينا هو العثور على الفاعل والخالق، وفي هذه الحالة يتمّ افتراض الفاعل والخالق هو الإله.

ترى هل سيختفي الإيمان بالله لو عرفنا أنَّ سبب نشوء الكون هو سببٌ طبيعيٌ بحت، وهو الأرجح علميًّا؟

يقول جورج بوليتزر (Georges Politzer) في كتابه: مبادىء أوّلية في الفلسفة (Elementary Principles of Philosophy): «الكون ليس شيئاً مخلوقاً، فإذا كان كذلك فهذا يقتضي أنّه خُلق في لحظة ما من قبل إله، وبالتالي ظهر إلى الوجود من لا شيء، ولقبول الخلق يجب على الإنسان أن يقبل في المقام الأوّل أنّه كانت توجد لحظة لم يكن فيها الكون موجوداً، ثمّ انبثق شيء من العدم، وهذا أمر لا يمكن للعلم أن يقبل به».

الجواب: بداية حينما يتحدّث الملحدون عن استحالة وجود العدم في زمان ما فإنّهم يتغاضون عن أقوال ونظريات علماء الفيزياء القائلين بقدوم الكون من العدم، والذين طرحوا نظرية الانفجار الكوني (Big Bang Theory)، والتي أرجعت نشأة الكون إلى انفجار كتلة مصمتة كانت قد وجدت قبل مليارات السنين، وبناء على هذه النظرية فإنّ الكثير من البحوث قد انصبّت حول السؤال التالي: من الذي حفّز هذه الكتلة على الانفجار؟ إلّا أنّ التدقيق العلمي يقودنا إلى سؤال أهمّ من هذا ويأتي في مرتبة قبله وهو: من الذي أوجد هذه الكتلة قبل الانفجار أساساً؟!

لا يمتلك الملحدون هنا أيّة إجابة منطقيّة واضحة، ذلك أنّهم لا يؤمنون بوجود خالق أوجد هذه الكتلة، فيلجؤون إلى وضع افتراضات قائمة على الصدفة والعشوائيّة، ودائماً ما يقدّمون إجابات مبهمة تُبنى على أساس أنّ العدم يمكن أن يتفاعل مع العدم فينتج عنه الوُجود! بمعنى آخر فإنّ (الصفر + الصفر) يمكن أن يساوي - في عقول الملحدين - واحد، بل أن يساوي ملايين.

يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew) في إجابته على سؤال: (هل يأتي شيء من لاشيء؟): «عندما تصدّى أرسطو (Aristotle) لمعضلة خلق العالم سقط في الشرك نفسه الذي سقط فيه معظم الفلاسفة السابقين واللّاحقين، ألا وهو عدم قدرتهم على تصوّز أنّ شيئاً يمكن أن يأتي من لاشيء، أي من العدم، لاشكّ أنّ هذه هي إحدى القضايا المحوريّة التي تشغل علماء الكونيّات والفلاسفة ورجال الدين.

من أساسيّات المنهج العقلي في الفلسفة، أن ننطلق عند تحليلنا لأيّ نظام من نقطة بداية لا نطرح لها سبباً ولا نطلب لها تفسيراً.

وقد اعتبر الفلاسفة الملحدون وجود الكون والقوانين الطبيعيّة التي تتحكّم فيه، هي نقطة البداية التي لايطلبون لها تفسيراً عند دراسة كلّ ما يتعلق بالكون».

يواصل فلو كلامه تحت عنوان (لا.. بل كون له بداية، ونشأ من العدم) فيقول:

«كانت هذه تصوّراتي قبل أن يطرح علماء الكونيّات نظرية الانفجار الكوني الأعظم (Big Bang Theory) كأكثر النظريات قبولاً لتفسير بداية خلق الكون، وتؤكّد النظرية أنّ الكون قد نشأ نتيجة لانفجار هائل حدث في نقطة تتجاوز كلّ قوانين الفيزياء المعروفة، وتسمّى هذه النقطة الـمُفردة (Singularity).

لقد ثبت علميّاً أنّ الكون له بداية ترجع إلى حوالي ١٣,٧ بليون سنة مضت.

لم يقف الأمر عند ذلك، فقد طرح العلم مفهوماً آخر شديد الدلالة، وهو أنّ الكون قد نشأ من العدم، فها هو الفيزيائي إدوارد تريون (Edward Tryon) يخبرنا (عام ١٩٧٣م) أنّ طاقة الكون عند بدايته كانت صفراً، ذلك لأنّ قوّة الجاذبيّة الممسكة بعناصر الكون تُمَثّل بالسالب في المعادلات الفيزيائيّة؛ إذ إنّها تعمل في اتجاه معاكس للقوى الأخرى، كالقوّة الطاردة المركزيّة التي تدفع بالإلكترونات بعيداً عن النواة، وتدفع بالكواكب بعيداً عن شموسها، كذلك إذا عادلنا الشحنات الموجبة بالشحنات السالبة لذرّات الكون أصبحت طاقة الكون صفراً.

كذلك يؤكّد ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) ومؤسسو فيزياء الكم (Quantum physic)، أنّ الفيزياء الحديثة تشير إلى نشأة الكون من عدم.

لاشكّ أنّ الفلاسفة الملحدين قد أصيبوا بالإحباط، لقد قدّم العلم الدليل على أمرين شديدي الأهميّة:

الأول: أنّ للكون بداية؛ وأنّه ليس مُغرقاً في القدم إلى ما لانهاية (ليس أزليّاً).

الثاني: أنّ الكون نشأ من العدم.

وهذا ما حاول الفلاسفة المؤمنون اثباته عقليّاً على مدى مئات السنين».

يقول فلو: «عندما التقيت لأول مرة (كفيلسوف ملحد) بنظريّة الانفجار الكوني الأعظم التي تصدّت لتفسير وجود الكون، أدركت أنّني أواجه نظريّة مختلفة، نظريّة تتماشى مع ما يطرحه سِفر التكوين، وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عمّن أحدث هذه البداية.

في البداية لم يتصوّر علماء الكونيّات الأبعاد الفلسفيّة والمعرفيّة الكبيرة وراء نظرية الانفجار الكوني الأعظم التي توصّلوا إليها، وعندما أدركوا الموقف بدؤوا في البحث عن مخرج مادي يفسّر كيف كانت بداية نشأة الكون.

حاول ستيفن هوكينج (Stephen Hawking) الخروج من المشكلة في كتابه تاريخ موجز للزمن (A Brief History of Time) بأن قال: «إذا لم يكن هنالك مفرّ من الإقرار بأنّ للكون بداية، فلا بأس من القول بكونٍ مكتفٍ بذاته» (أي أنشأ نفسه بنفسه) ما أجملها من مقولة أدبيّة! وما أبعدها عن الدليل والبرهان العلمي والفلسفي!

وكمحاولة يائسة يعلن الفيزيائي إدوارد تريون (Edward Tryon) «أنّه يمكن تفسير بداية الكون ببساطة بأنّه أحد الأشياء التي يمكن أن تحدث تلقائيّاً من وقت لآخر»! هل يكون ذلك آخر ما في جعبة العلماء الملحدين؟

وأخيراً، لم يجد هوكينج مفرّاً من الإقرار بأنّه يستحيل فيزيائيّاً معرفة كيف بدأ الانفجار الأعظم.

كذلك رفض أساطين فيزياء الكم (Quantum physic) اعتبار أنّ نشأة الكون من العدم كانت نشأة تلقائيّة.

إنّ إثبات أنّ طاقة الكون كانت صفراً عند نشأته (وما زالت)، لا يعني انتفاء الحاجة إلى خالق، ترى كيف تعطي طاقة مقدارها صفر، كلّ ما في الوجود من حولنا من بناء وإبهار وجمال؟!

الفلاسفة أيضاً تملّصوا من الإجابة؛ فلم يقبل الفلاسفة الملحدون الإقرار بأنّ الإله هو الذي خلق الكون، ويبنون رفضهم على تبنّيهم لمبدأ التثبّت، وهو ما يعبّرون عنه بقولهم: (ما لا نستطيع أن نرصده بحواسنا، لا وجود له).

إنّ من أشدّ المعارضين للبحث عن مصدر لنشأة الكون هو فيلسوف الإلحاد الشهير ديفيد هيوم (David Hume)، ولاشكّ أنّ أهمّ أخطاء هيوم المنهجيّة هي رفضه لمفهوم ارتباط السبب بالنتيجة، واعتبار أنّ العلاقة بينهما لا تخرج من توافق

بالمصادفة، ومن ثمّ فلا معنى للبحث عن سبب لنشأة الكون، أو لنشأة أيّ شيء آخر.

ويستمر الفلاسفة الملحدون في المماحكة، فيقولون: إنّ العدم (شيء) قديم لا أوّل له، ويرفضون اعتباره (لا شيء)! ويصرّون على إمكانيّة نشأة الطاقة الماديّة تلقائيّاً من هذا العدم القديم!.

لقد تصدّى ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne) لادّعاءات الملحدين بإعادة طرح ما يُعرف ببرهان «فترة الترك»، يقول سوينبرن: «إذا كان العدم يمتد إلى ما لا نهاية في القدم، وإذا كان للكون بداية، فلِمَ نشأ الكون في هذا الوقت الذي نشأ فيه؟ لم تُرك الكون دون نشأة لفترة، ثمّ حدث في وقت ما في الزمن اللّانهائي أن خرج الكون للوجود؟ لابدّ أنّ هنالك عاملاً مُرجّحاً دفعه للوجود»[1].

يخبرنا الفيلسوف الكبير جون ليسلي (John Leslie) «أنّ المفاهيم الفيزيائيّة كلّها، سواء السائدة الآن أو السائدة وقت الانفجار الكوني الأعظم، لا تتعارض مع القول بإله خلق الكون من العدم».

وأخيراً نعود إلى ستيفن هوكينج فنجده يقول مضطرّاً: «إذا كانت هناك معادلات تشير إلى احتماليّة نشأة شيء من لا شيء، فستظلّ هذه المعادلة دائماً في حاجة إلى من ينفخ فيها القدرة على الفعل، فالمعادلات لا تخلق، لكنها تصف الفعل» ويضيف مضطراً (في حوار أُجري معه بعد نشر كتابه موجز تاريخ الزمن): «إن توصلنا لمعادلات تشرح كيف بدأ العالم، لا يعني أنّ الإله غير موجود، لكن يعني أنّه لم يخلق الكون عشوائيّاً، ولكنّه خلقه تبعاً لقوانين»[2].

إذن المحصلة النهائيّة: هنالك إله قديم خلق الكون من عدم»[3].

إنّ من الافتراضات الغريبة التي طرحها بعض العلماء للتهرّب من الاقرار

(١) Swinburne, Richard: The Existence of God, p.142, Clarendon, 2004.

(٢) Hawking, Stephen: Black Holes and Baby Universes, p.172, Bantam Books, 1993.

(٣) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٧٨-٨٢.

بوجود الله عزّوجلّ هي:

إنّ العدم هو بالنتيجة «شيء» (Nothing is Something)، وإنّ الوجود قد نشأ تلقائيّاً من هذا «الشيء» الذي هو العدم!

يقول روي أبراهام فارجيس (Roy Abraham Varghese): «يطرح الملحدون عدداً من وجهات النظر، الأقرب إلى السخرية، ليفسّروا بنية الكون وما فيه من قوانين طبيعيّة منطقيّة.

من هذه التفسيرات ما طرحه الملحد المشاغب الفيزيائي فيكتور ستينجر (Victor Stenger) من أنّ ما نسميه قوانين الطبيعة لا تحتاج لخالق، وأنّها لا تقوم بتوجيه حقيقي لسلوك المادة، إنّها تقييدات اضطر الفيزيائيّون إلى القول بها عندما حاولوا توصيف سلوك المادة بطريقة رياضيّة! أي أنّ قوانين الطبيعة ليس لها وجود حقيقي وأنّها من وضعنا نحن.

ولاستكمال التهرّب من الإقرار بوجود عقل جبّار وراء ما في قوانين الطبيعة من منطقيّة، ووراء نشأة الكون من عدم، لجأ ستينجر إلى خداع مارسه الكثير من أمثاله من القدماء والمحدثين، لقد اعتبروا أنّ العدم «شيء»، وأنّ الوجود قد نشأ تلقائيّاً من هذا «الشيء» الذي هو العدم! أرجوك، لا تظن أنّني أَسخر، هذا ما قالوه بالفعل!!

لقد فات ستينجر وزمرة الملحدين، أنّ العدم يعني لا طاقة، لا مجالات فيزيائيّة، لا قوانين، لا فراغ ينشأ فيه الكون، لا بُعداً ماديّاً أو عقليّاً من أيّ نوع، إنّ العدم عدمٌ مُطلق (Absolute Nothingness)، لا يمكن أن يُنشئ شيئاً، حتّى لو أُعطيَ وقتاً لا نهائيّاً، في الحقيقة العدم ليس فيه وقت ومن ثمَّ، فإنّ ما أثبته العلم من أنّ طاقة الكون عند نشأته كانت صفراً يؤكّد الاحتياج إلى عقل منطقي جبار خالق يخرجه بكلّ ما فيه من انضباط من العدم المطلق، ولا ينفي الاحتياج إلى الإله»[1].

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١١٤-١١٥.

التصميم الذكي

◄ التصميم؛ حقيقةٌ لم يفهمها الملحدون

يقول الملحدون: إنّ (التصميم) ليس بالضرورة من فعل المصمّم، ولربّما يكون بسبب (الانتخاب الطبيعيّ)، وأنّ الذين يرفضون هذا (الانتخاب الطبيعي) لم يفهموه، أو أنّهم لا يريدون أن يفهموه.

الجواب: أنتم الذين لم تفهموا (التصميم) أو لا تريدون أن تفهموه، لأنّ كلمة (التصميم) تعني وجود تخطيط مسبق، ونظرية التصميم الذكي تقول: «إنّ نشأة الكون وبنيته، وكذلك نشأة الحياة والكائنات الحيّة تبلغ درجة هائلة من التعقيد، تستبعد تماماً أن تكون قد حدثت بشكل تلقائي عشوائي، وتُحتّم أن يكون وراءها مصمم ذكي عليم قادر»(١).

ترى هل الطبيعة التي لم تكن موجودة قامت بالتخطيط المسبق لنفسها، مع أنّها لم تكن موجودة؟

وكيف يمكن أن ننسب التصميم إلى التراب والهواء والشمس والقمر؟!

إنّ التصميم نتاج الإرادة والحريّة والاختيار.

فهل الشمس مختارة في عملها حين تشرق كلّ يوم من المشرق، وتغرب عند المغرب؟!

وهل الكرة الأرضيّة هي التي قرّرت أن تدور حول نفسها، ولها إرادة فيما

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٣٠.

تفعل؟

هل للنور إرادة في طبيعته، وانتشاره وسرعته؟

كيف ننسب (التصميم) إلى شيء لم يكن موجوداً قبل الخلق، أو إلى ما هو موجود، ولكنّه لا يفهم ولا يعقل وعاجز عن كلّ شيء؟.

إنّ هذا الكون العجيب بكلّ دقائقه وتفاصيله المبهرة والتي تمّ ترتيبها بأفضل ما يمكن لتشكّل بيئة مناسبة لحياة البشر، كلّ هذا الكون هل يُعقل أنّه جاء من دون وجود خالق أو مصمّم؟

يقول أنتوني فلو (Antony Flew): «بالرغم من أنّني كنت من قبل من المعترضين بشدة على أنّ دقّة التصميم تشير إلى وجود الإله، فإنّ إعادة النظر في البرهان -أي برهان التصميم- وفي أسلوب الاستدلال الفلسفي به، أوصلني إلى الإقرار بوجود إله حكيم خالق.

ولاشكّ أنّ ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوّع الكائنات الحيّة، قد أمدّ هذا البرهان بالكثير من الأدلّة (المقدمات)، التي أعانتني كثيراً في الوصول إلى هذا (الاستنتاج)»[1].

تصوّر أنّك نزلت في إحدى رحلاتك بأحد الفنادق، وعندما دخلت غرفتك وجدت أنّ الصورة المعلّقة فوق السرير نسخة مطابقة للصورة التي علّقتها منذ سنوات فوق فراشك في بيتك، كذلك السجّادة التي تغطّي أرضيّة الغرفة، بل إنّهم وضعوا في المزهرية نوع الزهور نفسه الذي تفضّله.

وعلى المنضدة التي في ركن الغرفة، وجدت الطبعة الأخيرة من ديوان الشعر الذي تفضل القراءة فيه من حين لآخر، كما وجدت الصحيفة التي اعتدت قراءتها يوميّاً.

(١) Flew, Antony: There Is a God, p.95.

وداخل الثلاجة، وجدت أنواع المشروبات والشيكولاته التي تحبّها، كما أنّ زجاجة المياه المعدنية من نفس النوع الذي تستخدمه في وطنك.

وعندما شَغّلت جهاز التلفزيون، وجدت أنّ الإرسال الداخلي للفندق يعرض باستمرار الأفلام المفضّلة عندك، وفي الحمام، وجدت على أحد الرفوف نفس الشامبو والصابون اللذين اعتدت على استخدامهما.

وكلّما جُلت ببصرك وجدت حولك تطابقاً بين ما تحبّه واعتدت عليه، وبين ما وفّرته لك إدارة الفندق، لا شكّ أنّ احتمال المصادفة يتناقض تدريجيّاً حتّى يثبت في يقينك أنّ أحداً قد أَطلَع إدراة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك.

يسمّي الفلاسفة المفاجآت التي قابلتك في الفندق، والتي تؤكّد أنّ هناك من يعرفك عن قرب ويعرف أنّك قادم إلى الفندق، ببرهان التناغم (Fine-Tuning Argument).

يصف الفيزيائي الكبير فريمان ديسون (Freeman Dyson) هذا البرهان بقوله: «كلّما ازدادت معارفنا التي تُظهِر التطابق بين دقائق بنية الكون وبين احتياجاتنا، ازداد شعوري بأنّ الكون قد أُعدّ لاستقبالنا»(١).

السؤال الذي يطرح نفسه، هل يرجع التوافق بين القوانين والثوابت الفيزيائيّة التي سمحت بظهور الحياة في كوننا، وبين نشأة ووجود الكائنات الحيّة إلى الصدفة؟ لم يعد أحد من الفيزيائيّين الكبار يقول بهذا الاحتمال، إذ إنّهم لا يتصوّرون إمكان حدوث هذا التناغم بهذه الدقة الهائلة في كون واحد عن طريق المصادفة»(٢).

التصميم.. صُنع مَن؟

يقول الملحدون: إنّ الحياة لم تأت صدفة، وحسب تعبير دوكنز

(١) Dyson, Freeman: Disturbing the Universe, p.250, Harper & Row, 1979.

(٢) Flew, Antony: There Is a God, pp. 113-114.

نفسه[1]: فإنّه ليس هنالك عالم أحياء يمتلك كامل قواه العقليّة يقترح الصدفة كتفسير لوجود الكون، فما الذي يبقى؟

التصميم..

لكن التصميم لا يعني أنّ هنالك مَن صمّم، بل قد يكون التصميم هو من صنع التطوّر، يعني أنّ الأمور بدأت من شيء بسيط، ثمّ تطوّرت إلى أن وصلت إلى ما هي عليه في الوقت الحاضر.

الجواب: إنّ هذا مجرّد تلاعب بالألفاظ.

فحينما تقولون: لا يوجد عالم أحياء يمتلك كامل قواه العقليّة يقترح الصدفة لتفسير الخلق، فمعنى ذلك أنّ هنالك تصميم.

لكن تنسبون التصميم إلى الجهل والعجز، لأنّكم تنسبون ذلك إلى الطبيعة، ونحن ننسبه إلى من هو أعلى من الطبيعة، إلى إله قادر حكيم عليم، وليس إلى الطبيعة الجاهلة، وفي أفضل الحالات فإنّ ذلك يعني أنّ الطبيعة هي التي خلقت نفسها، وهذا أمر محال.

لقد جعل الله في هذا الكون سنناً وقوانين تنظمه، وتدلّ هذه السنن بشكل واضح على أنّ هنالك إله قادر هو الذي أوجدها، يطلق العلماء اليوم على هذه السنن اسم القوانين الطبيعيّة، ويعرّفون القانون الطبيعي بأنّه «الانتظام والتناسق في الطبيعة، ومما لا شكّ فيه أنّ وجود الانتظام والتناسق هو من أهمّ ما يعطي قوانين الطبيعة دلالتها على وجود المصمّم الذكي.

ولكن الأكثر دلالة هو أنّ هذه القوانين تشمل الموجودات كلّها، وأنّها مترابطة مع بعضها البعض، وأنّه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضيّة دقيقة (Emphatically Precise-math)

والسؤال المحوري هنا هو: كيف تمّت صياغة الطبيعة في هذه

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٢١.

القوانين على هذه الهيئة؟

لم يجد معظم علماء الفيزياء الكبار إجابة على هذا السؤال، إلّا الإقرار بوجود إله خالق حكيم قادر.

هذا الاستنتاج البديهي لم يقل به علماء الفيزياء الكلاسيكيّة كإسحق نيوتن (Isaac Newton)، وجيمس ماكسويل (James Maxwell) فقط، لكن الكثيرين من أساطين الفيزياء الحديثة يعتقدون أنّ قوانين الطبيعة هي إرداة الإله الخالق.

يقول فيلسوف العلوم جون ليسلي (John Leslie) في كتابه العقل المطلق (Infinite Minds): «لا شكّ أن الكون قد أُعد لنشأة الحياة، عن طريق ضبط دقيق لقوانينه وثوابته الفيزيائيّة، ولكن ما يبهرني حقّاً، هو أنّ هذا التناغم والتوافق موجود بغزارة تفوق كثيراً القدر المطلوب لنشأة الحياة».

يضرب جون ليسلي مثالاً للتناغم بالطاقة الكهرومغناطيسيّة التي تتحكّم في جميع نظم الوجود، من أصغر مكوّناته (الذرّات) إلى أكبر موجوداته (المجرّات)، خاضعة لنفس القوانين (قوانين فيزياء الكم): «على مستوى الذرّات، تحافظ الطاقة الكهرومغناطيسيّة على الإلكترونات في مداراتها، بحيث لا تنفلت بعيداً تحت تأثير القوّة الطاردة المركزية، وفي الوقت نفسه، لا تغوص داخل نويّات الذرّات، وينطبق ذلك على جميع الذرّات من أصغرها إلى أكبرها.

كذلك تُـمَـكِّن هذه القوّة الواحدة، النظم المختلفة شديدة التباين من العمل بكفاءة، ابتداءً من الشفرة الجينيّة داخل الخليّة الحيّة، إلى الاحتراق داخل نجوم المجرّات المختلفة، وانبعاث الطاقة منها على مدى بلايين السنين.

كيف تسنَّى لقوّة واحدة، تقاس بوحدة لها مقدار واحد ثابت وتخضع لقوانين فيزيائيّة واحدة، أن تقوم بكلّ هذه الوظائف المتباينة، ذلك في الوقت الذي يبدو فيه أنّ كلاً من هذه الوظائف يحتاج لمقادير مختلفة وأشكال مختلفة من الطاقة؟».

حصل بول ديفيز (Paul Davies) على جائزة تمبلتون (Templeton Prize)

عن دراساته حول العلاقة بين ما في الطبيعة من منطق وانسجام، وبين قضية الألوهيّة.

وفي خطابه بمناسبة استلام الجائزة، أدهش ديفيز الحاضرين حين أعلن أنّ العلم لن يتجاوز حدّاً معيّناً من التقدّم إلّا إذا أقرّ بالمفاهيم الدينيّة.

وأضاف: «إنّه بالرغم من أنّ الملحدين لا يسألون من أين أتت قوانين الطبيعة، إلّا أنّهم جميعاً يقرّون بالانتظام في سلوكها»[1].

لذلك يُـخـطِّئُ ديفيز الملحدين في مفهومين يتمسّكون بهما، ويقفان حائلاً بينهم وبين الإيمان:

- **المفهوم الأوّل**: هو تفسيرهم لانتظام بنية الوجود، بأنّه لا يمكن إلّا أن يكون كذلك، بما أنّه قد وُجد على هذه الهيئة بالفعل! ونجيب عليهم بأنّ وجوداً أقلّ انتظاماً وانسجاماً كان يمكن أن يتشكّل ويبقى، هذا هو الأقرب إلى حالة الفوضى التي كانت سائدة عند نشأة الكون، ولكن لِـمَ ظهر الوجود على الهيئة الأمثل والأعقد والأصعب خلقاً وبقاءً؟

- **المفهوم الثاني**: من الحمق الشديد ما يقوله الماديّون من أنّ قوانين الطبيعة من إنشائنا نحن، وأنّها غير موجودة حقيقة في الطبيعة، لا أعتقد أنّ أحداً من الفيزيائيّين يعتقد أنّ قوانين نيوتن (مثلاً) من إنشاء البشر، لاشكّ أنّ قوانين الطبيعة لها وجود حقيقي، دور العلماء هو اكتشافها وصياغتها وليس اختراعها.

ويطرح ديفيز تساؤلاته الـمُـلحّة قائلاً:

- كيف تشكّلت قوانين الطبيعة؟
- ولماذا هذه القوانين بالذات وليس سواها؟

(١) Flew, Antony: There Is a God, p.107.

- كيف تنشأ الحياة التي تسلك بوعي وعقل وذكاء، من المادة غير الحيّة؟

ونختم حجج ديفيز بإجابته التي تصكّ عقول الملحدين حين يقول:

«إنّ قوانين الطبيعة قد تشكّلت منذ زمن سحيق، لتقوم لاحقاً بوظائف مطلوبة في وجود الإنسان الذي لم يكن قد خُلق بعد، ما أعجب هذا التصميم وهذا المقصد!»

يقول أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد جون فوستر (John Foster) في كتابه الإله خالِق القوانين (The divine lawmaker): «إذا أقررنا بوجود قوانين الطبيعة، فإنّ هذا الانتظام يمكن تفسيره ببساطة وعلى أكمل وجه، بوجود إله حكيم قادر»(١).

ويُعلِّق الفيلسوف ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne) على برهان التصميم بقوله: «إذا قلنا، مثلاً، أنّ جميع الأجسام تنجذب لبعضها تبعاً لمعادلة معيّنة (قانون الجاذبيّة)، فمن المنطقي والأيسر أن نعتبر أنّ امتثال جميع الأجسام ينبع من مصدر واحد، بدلاً من افتراض أنّ كلّ جسم قد التزم بهذا السلوك مصادفة دون ضابط، وأن الإنسان هو الذي شكّل من هذا التشابه العشوائي في سلوك الأجسام قانوناً».

ويتّفق سوينبرن مع جون فوستر بأنّ أفضل تفسير لهذا النظام هو وجود الإله الحكيم القادر الذي تصفه الأديان السماويّة.

ويعلق الفيلسوف أنتوني فلو (Antony Flew) قائلاً: «إنّ العلماء المقرّين بحكمة إلهيّة وراء الكون، لا يقومون بتقديم البراهين من أجل الدفاع عن مفهوم فلسفي، ولكنّهم يُعبّرون عن واقع أظهره العلم الحديث وفرضه على العقول المنطقيّة المنصفة، بحُجيّة أراها ملزمة وغير قابلة للدحض والتفنيد».(٢)

---

(١) Foster, John: The Divine Lawmaker: Lectures on Induction, Laws of Nature and the Existence of God, p.160, Clarendon, 2004.

(٢) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٨٤، ٩١، ٩٠، ٩٣، ٩٩.

تصميم ذكي أم أكوان متعدّدة؟

يقول الملحدون: إذا لم يعد أحد من العلماء الكبار -كما تزعمون- يطرح نظرية الصدفة فإنّ ذلك لا يعني أنّ الجواب على السؤال المهم (من خلق الكون؟) هو: الله؛ إنّما يطرح العلماء اليوم بديلين: إمّا القول بوجود مصمّم ذكي، أو القول بوجود أكوان متعدّدة (Multiverse) سادت فيها ظروف طبيعيّة مختلفة.

إنّ من أبرز علماء الكونيّات المناصرين لفكرة الأكوان المتعدّدة هو أستاذ الفلك وعالم الكونيّات البريطاني مارتن ريز (Martin Rees)، والذي يرى أنّ هذه الأكوان المتعدّدة توجد في أبعاد زمانيّة ومكانيّة مختلفة عن كوننا وعن بعضها البعض، ومن ثمَّ لن يشعر ساكن أحد هذه الأكوان بالأكوان الأخرى، كذلك قد يؤثّر بعض هذه الأكوان في البعض الآخر، وقد لا يؤثر.

يقول ريز: «من أجل أن يكون أحد هذه الأكوان المتعدّدة صالحاً لنشأة الحياة، لابدّ أن تتوافر فيه الظروف والقوانين والثوابت الفيزيائيّة السائدة في كوكبنا».

كما ويعرض ريز بعض الآليّات التي طرحها الفلكيّون لتفسير كيفيّة نشأة الأكوان المتعدّدة، من هذه الآليّات حدوث انفجارات كونيّة متعدّدة (Multiple Big Bangs) نشأ عن كلٍّ منها كونٌ منفصلٌ، ومنها نظرية الثقوب السوداء المتعدّدة التي ينشأ من طاقة كلٍّ منها كون مختلف.

الجواب: قبل أن نستعرض وجهة نظر علماء الفيزياء في هذه النظريّة نطرح عدّة نقاط:

- لنفترض أنّ هذه النظريّة صحيحة، وأنّ هنالك العديد من الأكوان

التي جاءت من الانفجارات الكونيّة المتعدّدة -حسبما تدّعون-، هل هذا الافتراض يجيب على السؤال الجوهري: من خلق الكون؟ وهل هذه النظريّة تلغي دور الله عزّوجلّ؟

- إنّ التفكير في مثل هذه النظريّة وأشباهها يزيد التعقيد بالنسبة إلى الملحدين، ذلك أنّ الكلام سابقاً كان في كون واحد وقد عجزوا عن الإجابة على السؤال: من خلق هذا الكون؟ فبالإقرار بهذه النظريّة عليهم أن يجيبوا على السؤال الأعقد: من الذي خلق هذه الأكوان المتعدّدة؟
- إنّ افتراض صحّة هذه النظريّة هو دليل يدعم إيمان الموحّدين وليس ادّعاء الملحدين، ذلك أنّنا حينما نشاهد كوناً واحداً فيه كلّ هذا الإتقان نصل إلى النتيجة الحتميّة القائلة بوجود خالق قادر أوجد كلّ هذا الاتقان، فإذا افترضنا تعدّد الأكوان فإنّ ذلك يعني زيادة الإتقان وكثرته مما يزيد من قوّة الدليل على وجود الخالق الواحد القادر المدبّر.
- إنّ النقاش الدائر بين العلماء حول هذه النظريّة، رفضاً وإيجاباً، يطرح نقطة مهمّة وهي: إذا كان الملحدون دائماً ما يتشدّقون بالعلم والعلماء، ويعتبرون أنّ كلّ ما توصّل إليه العلم هو الحقيقة المطلقة فالسؤال الآن هو: أين هي الحقيقة؟ هل الحق مع من يقول بالكون الواحد؟ أم أنّ الحق مع العلماء الذين يثبتون وجود أكوان متعدّدة؟ وبالتالي هل نستطيع أن نؤمن بكلّ النظريّات هذه دون تفكير ودراسة؟

أمّا بالعودة إلى البحث العلمي حول نظريّة تعدّد الأكوان فإنّنا نجد أنّ «معظم الفيزيائيّين والفلاسفة يسخرون من نظريّة الأكوان المتعدّدة، ونعرض هنا اعتراضات أحد كبار الفيزيائيّين وأحد كبار الفلاسفة:

يقول عالم الفيزياء بول ديفيز (Paul Davies): «من السهل أن ندّعي أنّنا إذا أعطينا أحد الأكوان عمراً أبديّاً (لابدّاية له) فإنّه يمكن أن ينشأ فيه أيّ شيء خلال

هذه الفترة اللّامتناهية الهائلة، إنّ هذا القول لا يمكن قبوله كتفسير لوجود الحياة في كوننا على الإطلاق.

كذلك إذا لجأنا إلى فيزياء الكوانتم، فإنّ أحداً لن يكون قادراً على إثبات أيّ شيء أو نفيه، فكلّه احتمالات، وفي نفس الوقت، نكون قد ألبسنا الأمر ثوباً علميّاً، بعد أن ألقينا بذور الشك في عقل وقلب كلّ إنسان.

إنّ مثل هذه المقولات الاعتباطيّة يمكن أن تُستخدم لإثبات أيّ شيء في أيّ مجال، بينما هي في الحقيقة لم تقدّم دليلاً واحداً على الإطلاق.

ينبغي أن يكون البرهان العلمي مثل طلقة الرصاص، مُحكمة التوجيه إلى هدف محدّد، ومن ثمّ فإنّ القول بأكوان متعدّدة إلى ما لانهاية من التعدّد، وقديمة إلى ما لا نهاية من القدم، من أجل أن تصيب إحداها الظُروف الملائمة لنشأة الحياة يُعتبر أسلوباً خطيراً للغاية؛ إذ يهدم مفهوم البرهان العلمي من أساسه»[1].

إن القول بالأكوان المتعدّدة التي تصادف أن يكون أحدها صالحاً لنشأة الحياة، يزيد من حجم المشكلة، إذ يجعلها حاصل (ضرب المشكلة× عدد الأكوان المفترضة)، إنّ ذلك يشبه التلميذ الذي لم يصدّق مُدرّسه حجّته بأنّ كلباً قد التهم كرّاسة واجباته المدرسيّة، فأجاب التلميذ بأنّ مجموعة من الكلاب (لايستطيع إحصاء عددها) هي التي التهمت الكرّاسة!!

إنّ القول بأنّ القوانين المناسبة لنشأة الحياة، قد ظهرت بالمصادفة عندما برد أحد الأكوان بعد الانفجار الكوني الذي أوجده تفسير غير كافٍ، فإن القوانين الفيزيائيّة الموجودة أثناء تَبَرُّد هذا الكون ينبغي أن تتبع قوانين أعلى، فكيف ظهرت هذه القوانين الأعلى؟ وستظلّ هناك دائماً الحاجة إلى إدراك مصدر القوانين الطبيعيّة الأعلى ثمّ الأعلى وهكذا، ومن ثمّ فإنّ منظور الأكوان المتعدّدة لا يلغي الاحتياج إلى تدخّل إلهي».

---

(١) Davies, Paul: Universes galore: Where will it all end?, Universe or Multiverse?, pp. 491-492, Cambridge University Press, 2013.

ويشارك الفيلسوف ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne) بول ديفيز في ازدرائه لفرضيّة الأكوان المتعدّدة، ويقول: «من السفه اللّجوء إلى القول بوجود تريليونات من الأكوان التي ترجع إلى تريليونات من السنين، من أجل تفسير وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة في كون واحد (هو كوننا)، في الوقت الذي يمكن أن يُفسّرَ القولُ بوجودِ واحدٍ (وجود إله) الأمرَ كلّه»[1].

إنّ فرضيّة الأكوان المتعدّدة التي حدث أن كانت ظروف أحدها مناسبة لنشأة الحياة، لا تجيب على نفس السؤال البديهي: كيف نشأت قوانين هذا الكون المناسب؟

وإذا رفضنا فرضيّة الأكوان المتعدّدة كتفسير لنشأة الحياة في كوننا، لا يبقى أمامنا إلّا أن نُقرّ بالإله الخالق للكون والحياة»[2].

◂ التشبّث بآراء فرديّة

يقول الملحدون: في نوفمبر ٢٠٠٥م قام مواطنو مدينة دوفر (Dover) في ولاية بنسلفينيا (Pennsylvania) بإقالة الهيئة التدريسيّة من المتطرّفين ذوي السمعة السيّئة الذين أرادوا أن يفرضوا تدريس ما يسمّى (التصميم الذكيّ).

عندما سمع بات روبرتسون (Pat Robertson)[3] بأنّه تمّ إبعاد الهيئة خاطب سكّان المدينة وحذّرهم قائلاً:

---

(١) Swinburne, Richard: Design Defended, Think (Spring 2004): p.17, Cambridge University Press.

(٢) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص٩٦-٩٨.

(٣) هو قس ذو نفوذ وتأثير واسعين في المجتمع الأمريكي. وهو مقدّم برامج إذاعيّة وتلفزيونيّة وصاحب الإمبراطوريّة الإعلاميّة الضخمة المعروفة باسم وكالة البث المسيحيّة (The Christian Broad casting Network) ورئيس التحالف المسيحي (The Christian Coalition) الذي ينتمي إلى عضويّته ويناصره الملايين من الأمريكيّين، ومرشح سابق لانتخابات الرئاسة الأمريكيّة.

«أحبّ أن أقول لسكّان دوفر (Dover) بأنّه لو حصلت كارثة في منطقتكم، لا تلجؤوا إلى الرّب لأنّكم رفضتموه من مدينتكم، ولا تتساءلوا لماذا لم يساعدكم عندما تبدأ المشاكل، هذا لو حصلت مشاكل، وأنا لا أقول بأنّها ستحصل، لكن لو بدأت تذكّروا فقط بأنّكم صوّتم لإخراج الله من مدينتكم، وفي حالة كتلك لا تسألوه العون، لأنّه ربّما ليس هناك»[1].

يقول الملحدون: أليس مثل هذا الكلام تخرّصاً؟

الجواب: مرّة أخرى: لسنا مكلّفين بأن نجيب على كلام أيّ شخص في أيّ مكان، وليس صحيحاً أن يستند الملحدون إلى كلمة يقولها مجهول هنا أو مجهول هناك لكي يستدلّوا بها على أنّ الله غير موجود، فما هو ربط هذا بذاك؟

لنفترض أنّ أحدهم اعتقد بأنّ إبعاد الهيئة التدريسيّة هو سبب محتمل لوقوع كارثة في المدينة، فهل ذلك دليل على أنّ الله غير موجود، أو أنّ الديانات ليست ملتزمة بالأخلاق؟!

(١) تصريح لبات روبرتسون (Pat Robertson) ضمن مقابلة أجراها معه تلفزيون البي بي سي (BBC):
http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/4427144.stm

التطوّر

◄ شبهة التطوّر

إنّ الملحدين مع شدّة نفخهم بناقوس العلم، وتنصيب أنفسهم كناطقين باسمه، وتعيينهم مَن هو العالِـم ومَن هو الجاهل، تراهم يسلكون مسلك غير العقلاء في دعم آرائهم بشبهات ونظريّات يدّعون أنّها علميّة، بينما هي مجرّد نظريّات ليس لها من الشواهد والأدلّة بحيث تصبح علماً.

ونظريّة التطوّر من هذا النوع، إذ لم يقم دليل حسّي أو عقلـيّ عليها، ولا إجماع من العلماء على صحّتها، والأعجب أنّهم يجعلون من هذه الفرضيّة ميزاناً لكلّ شيء، ويؤمنون بها إيماناً أعمى.

ثمّ إنّ النظريّة في أفضل حالاتها هي مجرّد نظريّة، لأنّ العلم لم يستطع بعدُ إثباتها، وعلى خلافها القانون، مثل قانون الجاذبيّة.

والواقع أنّ شبهة التطوّر ليست أوّل محاولة للملحدين على مرّ التاريخ في سبيل إثبات استغناء الوجود إلى الغير، وهناك شبهات هشّة أخرى مثل التناسخ، أو إرجاع الموجود إلى الوجود والقول بأزليّته، ونظريّات فلسفيّة لا تقوم إلّا على التخمين والتخرّص.

و قد بسّطنا الكلام حول النظريّة الداروينيّة في مبحث مستقلّ[١]، كما أشرنا إليها في أماكن مختلفة من هذا الكتاب، ولكن نشير هنا إلى أمور باختصار:

---

(١) راجع كتاب: (تهافت النظرية الداروينيّة وسقوط النظريات التابعة) للمؤلف.

أوّلاً: كيف يمكن إثبات التطوّر؟

إمّا أنّه يتمّ بمشاهدة نفس التطوّر، وهو لم يحصل بالضرورة ولم يدّعه أحد، لأنّه يتوقّف على مواكبة البشر واستقرائهم لعصور حصول التطوّر، كأن يروا تطوّر الإنسان -حسب زعمهم- من القرد أو ما شابهه، وهو واضح البطلان، لأنّ أوّل من تحدّث بهذه النظريّة هو تشارلز داروين (Charles Darwin) في كتابه أصل الأنواع (On the Origin of Species) عام ١٨٥٩م.

وإنّ منتهى ما شاهده البشر هو وجود أشياء كثيرة متشابهة، كتشابه الإنسان بالقرد في بعض النواحي الجسديّة، ولكن ما علاقة ذلك بالتطوّر؟

المدّعى هو أنّ كلّ شيء حصيلة التطوّر، فيجب بناءً عليه أن يسري هذا الشبه في كلّ شيء، وليس في بعضٍ دون بعض. فأيّ شبهٍ بين الماء والنار مثلاً، أو بين الحجر والإنسان؟!

ولو تنزّلنا، فإنّ الوجه من الاستدلال بوجود التشابه على التطوّر كون الشبيهين من أصل واحد، فمن أين جيء بهذا؟! فلعلّهما شبيهان بلا اشتراك في الأصل!!

ولو سلّمنا جدلاً بأنّ التشابه يمكن أن يكون ناشئاً من أحد أمرين:

إمّا بسبب التطوّر، أو بسبب آخر، وحينئذ فالدليل أعمّ من المدّعى، والاستشهاد به بضاعة المفلس.

ثانياً: العقلاء لا يبنون قناعاتهم على النظريّات، خصوصاً في المسائل ذات الأهميّة البالغة والخطيرة كالإيمان بوجود الخالق أو الكفر به، لأنّه يبقى في النظريّات احتمال الخلاف والبطلان.

فأيّ عاقل يعتمد على ما يحتمل فيه البطلان إذا كان الأمر شائكاً وحسّاساً؟!

كمثل رجل يريد أن يقفز من شاهق ويحمل حقيبة على ظهره، ودار الاحتمال بين أن يكون في الحقيبة مظلّة أو ملابس، هل تراه لو كان عاقلاً يقفز مع وجود الاحتمال الثاني؟

بل حتّى لو كانت نسبة الاحتمال الثاني -بكون ما في الحقيبة ملابس وليس مظلّة- ضئيلة مثلاً ١٠٪ ترى هل سيقدم على القفز أو يحجم عنه؟

ولو فعل الرجل ذلك وهبط بسلام يُساق مباشرة إلى دار المجانين، لأنّه عرّض نفسه للهلاك بلا احتياط، وخرج بذلك عن طريقة العقلاء كافّة وخالف العقل.

ثالثاً: لا يوجد تلازم بين نظريّة التطوّر وعدم وجود الصانع، لأنّ السؤال يعود: مَن صنع الخليّة الأولى، ومن فرض عليه هذا التطوّر؟!

رابعاً: لو ثبتت النظريّة، فهي دليل على وجود الصانع.

إنّ كلّ حركة تحتاج إلى محرّك، والشيء المتحرّك يتوقّف بتوقّف المحرّك، وكلّ طاقة إذا لم يأتها مدد تستهلك نفسها، فالتطوّر يدل على أنّ شيئاً يمدّه بالتطوير، وإلّا توقّف.

إذن فالتطوّر متوقف على قوّة خارجيّة، إذ المفروض أنّ الخلية الواحدة الأولى، لم تكن خليّتين، لا من حيث الفعليّة ولا من حيث القوّة، فإذن فإنّ انقسامها إلى خليّتين ناشئ من قدرة خارجيّة.

ولم يقل أحد بأنّ الأولى تحمل القوّة لما سيكون فيها بعد، لأنّه لا معنى لأن تكون حينئذ في زمن ما واحدة، بل تكون، منذ كانت، متطوّرة، وما الذي منعها من التطوّر، والمفروض عدم وجود مانع خارجيّ، فهي لم تكتمل قوّة خليتين، بل واحدة وتحمل قوّة الواحدة. وهذا ينافي اختلاف الاستعدادات في الكثرات مضافاً على أصل حصول الكثرات.

ولو تنزّلنا إلى القول بإمكان تطوّر الشيء الواحد إلى شيئين مختلفين (أي التكثّر)، فيجب أن يكونا مشتركين في جميع الصفات، ووجود الاختلاف بينهما دليل على وجود إرادة فرضته عليها. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾[1].

---

(١) سورة الرعد: ٤.

فكيف صار الشيئان اللذان يُسقيان بماء واحد نوعين مختلفين؟ فهذا الاختلاف الموجود في جميع الأشياء من البشر إلى الحجر دليل على إرادة خارجيّة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]

لنلقي نظرة على ما قاله الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew) حول نظرية التطوّر والأخطاء التي وقع فيها الملحدون: «تُعد نظرية التطوّر لعالم البيولوجيا الكبير تشارلز داروين (Charles Darwin) (تطور الكائنات الحيّة نتيجة لطفرات عشوائيّة تحدث بالصدفة) من أهمّ الحجج التي يستند إليها الملحدون، لتفسير تنوّع الكائنات الحيّة دون الحاجة إلى وجود إله خالق، لذلك أصبحت هذه النظريّة من موضوعات المناظرة المفضّلة بين الماديّين والمؤمنين».

ويضيف فلو: «في كتابي التطوّر الدارويني (Darwinian evolution) ذكرت أنّ مبدأ الانتخاب الطبيعي (Natural selection) (الذي يسمح للكائنات الحيّة بأن تمرّر الطفرات العشوائيّة الجيدة التي تحدث في جيناتها إلى الأجيال التالية) لا يُنشئ في الكائنات صفات جديدة، ولكنّه يقضي على الطفرات غير الصالحة التي تصيب الكائنات الحيّة.

ومما ساعد على شيوع هذا الخطأ، أنّ داروين استخدم اصطلاحات مثل: «الانتخاب الطبيعي» و«البقاء للأصلح»، وإذا كان داروين قد تنبّه بعد فترة لهذا الخطأ وعدل عن هذه الاصطلاحات إلى اصطلاح الصيانة الطبيعيّة (Natural Preservation) إلّا أنّ آخرين -مثل دوكنز (Dawkins)- التصقوا بالمفاهيم الخاطئة وصمّموا على استخدام مصطلحاتها، ليدعموا بذلك موقفهم الإلحادي.

ومن محاولات ريتشارد دوكنز لاستغلال مفهوم التطوّر لدعم الإلحاد، ما ذكره في كتابه الجين الأناني (The Selfish Gene) حيث يقول: «نحن (وباقي الحيوانات) آلات حيّة، روبوتات تمّ برمجتها لتحافظ على جيناتها (الشفرة الوراثيّة

(١) سورة الرعد: ٤.

الـمُمَيِّزة لكلّ جنس ولكلّ فرد)».

ويرى دوكنز أنّ الكائن الحي الأساسي هو الجين، وأنّه يُسَخِّر أجهزة الجسم المختلفة لتدبير أمور حياته، وضمان خلوده، عن طريق الانتقال إلى أجيال تالية.

ومع خطأ هذا المفهوم بيولوجيّاً، فإنّ دوكنز بذلك يضعنا في مصاف الحيوانات، وينزع عن الإنسان كلّ خصوصيّة ميَّزته عن غيره من الكائنات وجعلته كائناً متفرّداً.

ويُصرّ دوكنز على أنّ أفعالنا وسلوكنا الإنساني نتاج مباشر لجين واحد أو جينات قليلة، نختلف بها عن الحيوانات وتحدّد سلوكنا بشكل حتمي، بالرغم من أنّه قد ثبت أنّ الاتّجاهات السلوكيّة للكائنات إنّما هي نتاج العديد من الجينات، وليس جيناً واحداً أو جينات قليلة.

كذلك يصرّ على أنّ محاولاتنا لإكساب أبنائنا صفات حميدة لا طائل منها؛ إذ إنّنا قد وُلدنا أنانيّين لا نسعى إلّا للحفاظ على أنفسنا وعلى جيناتنا، وهل تستطيع الجينات الأنانيّة توجيهنا لأن نسلك سلوكاً يسوده الإيثار وإنكار الذات!

من ذلك ندرك خطأ دوكنز (بيولوجيّاً وتربويّاً) وسوء استغلاله لنظرية التطوّر.

إنّ التمحيص لموقف الملحدين من نظريّة التطوّر، قد كشف لي عن الكثير من سوء الفهم المحيط بالنظرية، ونَزَعَ عنها حجّيتها كدليل إلحادي، وسمح لي بتصحيح المسار، والبدء في الاقتناع بدور المصمم الذكي في إحداث التطوّر»[1].

فرضيّات لم تثبت علميّاً!

يقول الملحدون: إنّ هنالك مبادئ أساسيّة إذا آمنّا بها نصل إلى نتيجة أنّ الله غير موجود:

---

(١) Flew, Antony: There Is a God, pp. 78-81.

«أوّلاً: إنّ أعظم التحديات للذكاء الإنساني وعبر القرون كان شرح التعقيد الكبير واللّااحتمالية العظيمة التي تظهر في الكون.

ثانياً: الإغراء الطبيعي هو أن ننسب كلّ ما يبدو مصمّماً، إلى أن يكون مصمّماً بالفعل، وفي حالة المصنوعات الإنسانيّة الدقيقة كالساعة مثلاً فإن المصمّم كان بدون شك مهندساً ذكياً، ومن المغري تطبيق نفس المنطق على العين في الإنسان، والجناح في الطير، وجسم العنكبوت في الحشرات.

ثالثاً: فرضية المصمّم تُثير فوراً السؤال الأكبر عن مصدر المصمّم نفسه، كلّ المسألة بدأت من محاولة شرح لااحتماليّة منطقيّة. وهذا بوضوح ليس حلاً لأنّه يطرح شيئاً لااحتماليتهُ أكبر. ونحن هنا بحاجة إلى رافعة وليس خطاف سماوي، لأنّ الرافعة لوحدها تستطيع العمل بتدرّج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقّدة عظيمة اللااحتماليّة.

رابعاً: الرافعة الأبدع والأقوى حتّى الآن هي التطوّر الداروينيّ بالانتخاب الطبيعي، داروين(Darwin) ومن خلفه شرحوا لنا كيف أنّ الأحياء، بالرغم من لااحتماليّتهم الكبيرة والانطباع الذي يعطونه عن التصميم، إلّا أنّهم تطوّروا ببطء وبشكل تدريجي من بدايات بسيطة، وبإمكاننا القولَ بدون مخاطرة بأنّ التصميم في الكائنات الحيّة هو مجرد وهم.

خامساً: حتّى الآن ليس لدينا رافعة مماثلة للفيزياء، وشيء ما كنظرية الأكوان المتعدّدة يمكنها من حيث المبدأ أن تعمل ما عملته الداروينيّة في علم الأحياء.

شرحٌ من هذا النوع بشكل سطحي أقلّ إرضاءً من قرينه الداروينيّ

الطبيعي لأنّه يتطلّب كمية أكبر من الحظ، ولكن المبدأ الانثروبي يؤهّلنا لحظ أكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الإنساني يتقبّله بارتياح.

سادساً: لا يجب أن نفقد الآمل في إيجاد رافعة أفضل للفيزياء، أي شيء ما بقوّة الداروينيّة الطبيعيّة، ولكن حتّى في غياب الرافعة فإنّ وجود الروافع الضعيفة الحاليّة بدعمها من النظريّة الانثروبيّة فإنّها بوضوح أفضل بكثير من التفسير السماوي الذي يناقض نفسه حول موضوع التصميم الذكي.

ولو تقبّل الفرد الحجج المطروحة فإنّ المسلّمة الواقعيّة للدين وفرضيّة الإله لن تصمد، والاحتمال الأكبر هو أنّ الله غير موجود»[1].

الجواب: كما ترى فإنّ في هذه الأصول الأساسيّة للإلحاد الشيء الكثير من التلاعب بالألفاظ، وطرح النظريات المشكوك فيها وكأنّها حقائق لا شكّ فيها.

إنّ الملحدين يستندون إلى مجموعة فرضيات لم تثبت علميّاً، ثمّ يبنون عليها قضيّة يسمّونها علميّة! كيف يمكن لأساس غير ثابت أن يحمل بناءً ثابتاً؟

الداروينيّة كما عرضها داروين (Darwin) لم تصمد أمام العلم، والذين جاؤوا من بعده غيّروا وبدّلوا أصولها، لأنّ الأساس في الداروينيّة يقوم على توارث الصفات المكتسبة، والعلم أثبت أنّ الصفات المكتسبة لا تورث، لا في الأجسام ولا في النفوس. فالذي يتعلّم الطب فإنّ أولاده لا يُولدون أطباء، مهما اكتسب أبوهم من هذا العلم، وكذلك الصفات التي يتوارثها الأفراد في حياتهم، فالذي يجلس في الشمس حتّى يكتسب لوناً برونزيّاً لجلده، هل سيولد أولاده وأجسامهم برونزيّة؟ بالطبع لا.

وعلى كلّ حال هذه فرضيّة، ثمّ حينما يُستشكل عليهم يتوسّلون بالحظ ويقولون لعلّ هنالك فرضيّة تأتي في المستقبل لتشرح لنا الوجود ووجود الأكوان وإلى آخره.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦٠-١٦١.

حدث كيميائيّ ثمّ تطوّر

يقول الملحدون حول وجود الحياة على كوكب الأرض: «إنّ أصل الحياة كان حدثاً كيميائيّاً، أو سلسلة من الأحداث، حيث توفّرت الشروط الحيويّة لبداية التطوّر.

العنصر الأهم كان الوراثة أي ما هو موجود في الـ (DNA)، أو الأكثر احتمالاً شيء شبيه بها من حيث موضوع النسخ ولكن أقل ضبطاً، ربّما جزيئات(RNA) القريب لها، وبمجرّد أن يصبح هذا العنصر -نوع من الجزيئات القابلة للتوارث- موجوداً، يبدأ التطوّر الدارويني، وتبدأ الحياة المعقّدة بالظهور كنتيجة نهائيّة»[1].

الجواب: هل القول بأنّ أصل الحياة حدثٌ كيميائي- يفسّر الحياة؟

إنّ هذا الحادث يحتاج إلى من أحدثه، لأنّ عقلنا يقول: لا يوجد مُسَبَّبٌ بلا سبب، ولا حدث بلا مُحدث، ولا مصنوع بلا صانع، وإلّا فإنّ أيّ شيء يمكن تفسيره بهذا المعنى، ولا نحتاج أن نبحث عن أسرار الخليقة كما يدّعي الملحدون.

فإذا سأل أحدهم: كيف وُجدت السيارة؟

نقول: إنّ وجودها حدثٌ كيميائي ثمّ تطوّر! فلا حاجة إلى الإيمان بوجود صانع للسيارة

نحن نتساءل: كيف حدث هذا الحدث الكيميائي حتّى يتطوّر؟

لماذا الهروب من الحقيقة؟

يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (Antony Flew): «إنّ الحياة ليست مجرّد تفاعلات كيميائيّة معقّدة تنتهي ببناء البروتينات اللّازمة للحياة، وليست فقط اختزان المعلومات والصفات الوراثيّة ونقلها للأجيال التالية، إنّ المشكلة

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٣٩.

الأعقد التي تواجه الماديّين بخصوص طبيعة الحياة هي معضلة التشكيل (Morphogenesis).

يرى المفهوم السائد عند الماديّين الاختزاليّين (Reductionists) أنّ الـ(DNA) (الذي تتكوّن منه جينات الخلية) مسؤول عن كلّ صفات الكائن الجسميّة والنفسيّة والسلوكيّة، ولا شكّ أنّ هذه النظرة الاختزاليّة مفجعة في قصورها؛ إذ ثبت للبيولوجيّين أنّ الـ(DNA) -بالآليّات التي تمّ التوصل إليها حتّى الآن- يعجز تماماً عن تشكيل الكائن على هيئته الحقيقيّة (Morphogenesis) أي تحويله من مجرّد معلومات إلى وجود حقيقي.

يمكن أن نوضّح مفهوم التشكيل بطرح مثال يُقرّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحوّل كلمات نخطّها على أوراق نَصِفُ فيها هيئة إنسان مهما بلغت تفاصيلها ودقّتها إلى إنسان حقيقي (من لحم ودم)!

لقد أصبح من الضروري الإقرار بأنّ هناك نظاماً ما يزال مجهولاً هو المسؤول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ مازال مجهولاً مطلقاً»[1].

كيف بدأ التطوّر؟

يقول الملحدون: بمجرّد أن تصبح جزيئات الـ(DNA) أو الـ(RNA) موجودة يبدأ التطوّر الداروينى وتبدأ الحياة المعقّدة بالظهور كنتيجة نهائيّة.

الجواب: حسناً! أنتم تقولون إنّ الحياة تطوّرت، ونحن نريد أن نسأل:

كيف بدأت حتّى تطوّرت؟

لماذا تهربون من هذا السؤال الأساسي؟

---

(١) شريف، د.عمرو: مرجع سابق، ص١٠٢-١٠٣.

◂ التطوّر؛ نظريّة يسخّفها صاحبها!

يقول الملحدون: إنّ كلّ ما نراه هو نتيجة تراكم وانتخاب الأصلح.

الجواب: فيما يرتبط بالأعضاء البالغة الكمال والتعقيد لا يمكن تفسير انتخاب الأصلح وتفسير هذا الأمر بالتراكم. وقد اعترف داروين (Darwin) بذلك حينما تحدّث عن العين -باعتبار أنّ لها خصوصيّة في التعقيد غير القابل للاختزال- حيث قال: «الافتراض بأنّ العين بكلّ مواصفاتها التي لا تقبل التقليد، كالتركيز على مسافات مختلفة، أو السماح لكميّات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة، وتصحيح الشكل الكرويّ والانحراف اللونيّ، الافتراض بأنّ كلّ ذلك قد تشكّل بالانتخاب الطبيعي، يبدو -وأنا اعترف بهذا- من أعلى درجات السخف»[1]. هذا كلام داروين.

فبينما يركّز الملحدون على مسألة الانتخاب الطبيعي، ونظريّة التطوّر في تفسير ما هو موجود، إلّا أنّ صاحب النظرية يعتبر هذا التفسير في أعلى درجات السخف!.

◂ التطور نظريّة توقّفت عن التطوّر!

أغلب الملحدين يعتقدون بأنّ التطوّر هو الذي أدّى بالحياة إلى ما هي عليه، ويقولون: إنّ نظريّة (التطوّر) تُعتبر نظريّة علميّة، فلماذا ترفضون هذا الأمر؟.

الجواب: لازالت نظريّة (التطوّر) مجرّد «نظريّة» ولم تتحوّل إلى حقيقة علميّة، حتّى أنت استخدمت كلمة «نظريّة»، إضافة إلى أنّ هذه النظريّة ترى أنّ جسم الإنسان تطوّر من حيوان وحيد الخلية إلى هذا الكائن المعقّد، ونحن هنا نتساءل: لماذا توقّف هذا التطوّر منذ ملايين السنوات ولم يتطوّر جسمه؟ ولماذا لم يتطوّر عقله؟! فلا يزال الكلّ يمتلك ذات العقل بنفس المقدار.

---

(١) Darwin, Charles: On the origin of species, p.186, John Murray, 1859.

ثمّ إنّ غالب ما يؤمن به الملحدون هو أنّهم يقولون إنّ الكون مادي بحت، لكن حينما تسألهم عن العقل، وعن العواطف، والقيم الوجدانيّة، عن تلك الصفات التي تميّز الإنسان عن غيره من الجمادات والحيوانات، حينما تسألهم عن كلّ ذلك من أين جاءت هذه في الإنسان، يتوقفون عن الإجابة أو يتلاعبون بالألفاظ.

يقول بعض هؤلاء: «إنّ عواطف وأفكار الإنسان تظهر من خلال عمليّات متشابكة شديدة التعقيد في المخ»[1]، والملحد لا يؤمن بما وراء العالم الطبيعي، أي إنّه يقول لا توجد هنالك روح للإنسان بحيث تبقى بعد موت الجسد ولها صفاتها مثل العقل والعواطف، وحينما تسألهم عن أمور لا يمكن تفسيرها ماديّاً يقولون: «هناك الآن بعض الظواهر الطبيعيّة التي لم نفهمها بعد، وسنتمكّن في المستقبل من تقديم تفسيرات لهذه الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعيّة»[2]، باختصار: هم يقولون هذه أمور لم نكتشفها بعد!

وهذا ليس جواباً علميّاً!

أو حينما تسألهم مثلاً: من أين جاء هذا الكون؟ والعلم يقول إنّه لم يكن هنالك شيء قبل قرابة ١٤ مليار عام.

إنّ هذا الكون لم يكن موجوداً، فهذا «العدم» كيف تطوّر إلى وجود؟

يقولون: نعم نحن أشخاص متواضعون فعندما لا نعرف شيئاً نقول: لا نعرف.

فلماذا المؤمن حينما يُسأل عن شيء لا يعرفه ويقول: لا أعرف، تقولون له: أنت جاهل، وأن جوابك ليس علميّاً؟

وجوابكم هنا ألا يعتبر غير علمي؟!

إنّ الملحدين عندما يعجزون عن تفسير كثير من أمور الوجود يقولون: إنّ هذا أمر لم يُكتشف بعد، وربّما خلال المئتي سنة القادمة سنكتشفه!

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦.

هنا يأتي السؤال: لماذا لا تتركوننا نؤمن بالله حتى مئتي سنة حينها تكتشفون لنا هذه الأمور، وتصلون إلى حقائق تبيّنونها للناس وتثبتون بها نظريّتكم؟

هؤلاء يقولون: «ستتمكّن في المستقبل من تقديم تفسيرات لهذه الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعيّة، وإنّ معرفتنا لأسباب تكوّن قوس قزح لا يقلّل ذلك من روعته وجماله»[1].

ومع جهلهم هذا يدّعون أنّ هذا هو العلم.

فنسأل: ما دمت لا تفهم ولا تعرف، لماذا تنكر على غيرك ممّن يعرف ويفهم؟

أليس لو أنّ أحدهم قال: أنا لا أعرف القوانين في عالم الطب ولذلك لا أؤمن بالطب أصلاً.

يقال له: يجب عليك أن تؤمن بالطب حتّى تعرف هذه القوانين.

الانثروبيّة وسد فراغات التطوّر

يقولون: الانتخاب الطبيعي يعمل لأنّه تراكمي في اتّجاه واحد للحصول على نوعيّة أفضل، طبعاً إنّ الانتخاب الطبيعي بحاجة إلى بعض الحظ ليبدأ بالعمل.

وإذا سُئلوا من يضمن لكم الحظ؟

يقولون: المبدأ الانثروبي لمليارات الكواكب يضمن لنا ذلك الحظ.

ويضيفون: وربّما أنّ هناك بعض الفراغات الأخرى في نظريّة التطوّر مما يحتاج للحظ مع تحليلات انثروبيّة.

الجواب: أنتم تقولون: إنّنا نعيش على كوكب ملائم لنوع الحياة التي نحياها، أي أنّ شروط الحياة متوفرة في هذا الكوكب.

والسؤال هو: مَن وفّر هذه الشروط الملائمة بهذا الشكل الدقيق؟

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٦.

نحن نتساءل عن السبب الذي جعل الحياة على الكوكب ملائمة، ليس فقط في الأرض وإنّما في الكون كلّه، إنّكم تعترفون بأنّ وجودنا يأتي لأنّ القوانين الفيزيائيّة ملائمة بشكل كافٍ لتسمح بالحياة للنشوء، وتقرّون بأنّه ليس من المصادفة أن نرى النجوم في سماء الليل، وهي من الشروط الضروريّة لنشوء العناصر الكيميائيّة، وبدون الكيمياء لا توجد حياة، ولكن نعود لنسأل: من أوجد هذا النظام الدقيق؟ هل هو الانتخاب الطبيعي مع شيء من الحظ؟!.

وبحسب علماء الفيزياء فإنّه لو اختلفت الثوابت الفيزيائيّة عمّا هي عليه، ولو بمقدار بسيط جداً، فإنّ الكون سيتغيّر بشكل تصبح معه الحياة مستحيلة.

ولقد أورد مارتن ريس (Martin Rees) في كتابه[1] ستة ثوابت أساسيّة هي الثوابت التي يُعتقد بثبات قيمتها في كلّ الكون، وكلٌّ من هذه الثوابت لها قيمة دقيقة بمقدار معيّن، بمعنى أنّه لو تغيّر هذا الثابت، ولو بشكل بسيط فإنّ الكون سيكون غير ما نعرفه الآن بشكل كامل، ولم يكن ملائماً للحياة أبداً.

يقول ربّنا عزّوجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2] ويقول: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3] فالمقادير بهذه النسب ضرورية لنشوء الحياة وبقائها، وهذه المقادير الستة التي يذكرها مارتن ريس ثابتة.

أحد القيم الستة -كمثال- هو قيمة العامل المسمّى القوّة الشديدة (Strong Force)، وهي القوّة التي تربط أجزاء الجزيئات، وهي القوّة التي يجب التغلّب عليها عندما يحاول العلماء فتح الذرة أو فلقها، وقيمتها تسمّى حرف (طاء) (E) وهي القسم المتحوّل للطاقة من انصهار ذرّة «هيدروجين» وتحوّلها إلى «هيليوم»، ومقدار هذه القيمة في كوننا عبارة عن فاصل صفر نقطة صفر صفر سبعة (٠,٠٠٧). ولابدّ أن تكون النسبة بهذا المقدار حتّى نحصل على أيّة

(١) Rees,Martin: Just Six Numbers, Weidenfeld & Nicolson, 1999.

(٢) سورة القمر: ٤٩.

(٣) سورة الأعلى: ٣.

تفاعلات كيميائيّة.

والتفاعلات الكيميائيّة هي أحد شروط الحياة، فالكيمياء كما نعرفها اليوم هي عبارة عن تركيب وإعادة تركيب لذرّات العناصر البالغ عددها حوالي ٩٠، والتي نجدها في الجدول الدوري.

«الهيدروجين» هو الأبسط والأكثر انتشاراً لهذه العناصر، وكلّ العناصر الأخرى في الكون مصدرها «الهيدروجين» بواسطة الانصهار النووي، والانصهار النووي هو عبارة عن عملية معقّدة تحصل تحت ضغط حراري عالٍ جداً داخل النجوم، وبالنسبة للنجوم المتوسطة الحجم كما هو الحال في شمسنا فإنّ ذلك يولّد عناصر خفيفة كـ«الهيليوم»، وهو العنصر التالي في الجدول الدوري من ناحية الخفّة بعد «الهيدروجين»، لهذا نحتاج لنجوم أكبر وأكثر حرارة لتوليد معظم العناصر الثقيلة.

وفي سلسلة الانصهار النووي في هذه النجوم الكبيرة ربّما تنفجر في ما يسمى سوبر نوفا (Supernovas) قاذفة بمحتوياتها المتضمّنة عناصر الجدول الدوري على شكل غيوم غباريّة (Dust Clouds)، وهذه بدورها تتكثّف وتنشئ كواكب ونجوم جديدة منها شمسنا وأرضنا، وهذا هو السبب في أنّ الأرض غنيّة بالعناصر الأثقل من «الهيدروجين» المنتشر في كلّ مكان، هذه العناصر التي بدونها تستحيل الحياة.

إذن فيما يتعلق بهذا الأمر إنّ نسبة القوّة تحدّد بشكل دقيق إمكانيّة تشكّل المواد على الجدول الدوري، ولو كانت صغيرةً فمثلاً لو أنّ النسبة كانت (٠٠٦ , ٠) بدلاً من (٠٠٧ , ٠) فإن الكون لم يتكوّن من أيّ شيء غير «الهيدروجين»، وهذا يعني لن ينتج أي عنصر كيميائي مهم، ولو كانت النسبة أكبر أي كانت (٠٠٨ , ٠) مثلاً فإن كلّ «الهيدروجين» كان سينصهر مع بعضه لتشكيل عناصر ثقيلة، وكيمياء بدون «الهيدروجين» لا تستطيع تشكيل حياة بالطريقة التي نعرفها لسبب واحد ألا وهو عدم وجود الماء.

إذن النسبة المطلوبة هي (٠,٠٠٧) وهي النسبة الوحيدة التي تؤدّي لوجود عناصر بتنوّعها للحصول على كيمياء ملائمة للحياة.

و هنالك خمسة أنواع أخرى للعناصر ونسبها، ولا نريد الخوض فيها، لكن كلّ ثابت له نسبة تقع ضمن نطاق يجعل الحياة ملائمة في الأرض بحيث إنّ الحياة لن تكون ممكنة خارج هذا النطاق، فما الذي يقوله الملحدون في هذه النسب والمقادير ووجود العناصر؟

المؤمنون يقولون: إنّ ربّاً عالماً حكيماً قديراً هو الذي صمّم هذا الكون، ووضع لعناصرها هذه المقادير وهذه النسب، بحيث إنّ كلاً منها يقع داخل نطاقه لإنتاج الحياة، فما الذي يقوله الملحدون؟!!

والغريب في الأمر أنّ الملحدين يعترفون بهذه الحقائق العلميّة، وكذلك ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) يتكلّم عن هذه الحقائق في كتابه، ويذكرها بالتفصيل، ولكنّه في النهاية يتهرّب من الإجابة على الأسئلة المحرجة بعبارات استهزائيّة فيها هروب من أصل الموضوع، معتبراً كلام المؤمنين غير مقنع متجاهلاً صلب الموضوع، فهو يقول: «.. وكالعادة فإنّ جواب المؤمن ليس مقنعاً، لأنّه يترك موضوع وجود الله بدون شرح.. وبذلك فإنّ جواب المؤمنين يفشل تماماً في دفعنا باتّجاه حلّ المشكلة، ولا أجد أيّ بديل من إهماله.. ربّما أحد أسباب هذا العمى المدهش لدى الناس هو عدم وجود درجة معينة من الوعي لأولئك الناس -كالذي حصل عليه علماء الأحياء- بنظريّة الانتخاب الطبيعي وقدرتها في ترويض اللّااحتماليّة..»(١)

بالطبع فإنّ الملحدين هنا يقعون في مشكلة، فهل يقولون إنّها الصدفة؟ واحتمال الصدفة هو صفر في هذا المجال علميّاً، وكلامهم هنا هو كلام فارغ وطويل، وأحياناً يتوسّلون بالاستهزاء، يقولون مثلاً: إنّ تفسير المؤمنين هو أنّه هنالك إلهاً يمتلك ستة أزرار ويكرّرون هذه الكلمة: «الإله صاحب الستة أزرار»

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٤٥-١٤٦.

وكأنّه إذا استهزؤوا بالله تنحل المشكلة.

أو أحياناً يقولون: إنّه الانتخاب الطبيعي، وهذه النظريّة قادرة على ترويض اللّااحتماليّة.

لو افترضنا أنّ هنالك قانوناً اسمه الانتخاب الطبيعي فإنّ السؤال يأتي: مَن وضع هذا القانون، ومن جعل الانتخاب الطبيعي طبيعيّاً؟

ثمّ هنالك سؤال آخر: هل هذه العناصر الستة الثابتة لها الحريّة في أن تتغيّر؟ إذا كنتم أنتم تقولون بالانتخاب الطبيعي والتطوّر لماذا توقّف التطوّر هنا؟!

لماذا لا يتمّ انتخاب طبيعيّ آخر؟

فالأسئلة المطروحة على الملحدين هي التالي:

من خلق هذه العناصر؟

من جعل قوانينها ثابتة؟

من جعلها ثابتة وأوقفها عن أن تتغير وأن تتبدل؟

نحن نقول هنالك مبدع قادر حكيم عالم يعرف ما يفعل، وهو الذي قدّر الأشياء، وهو الذي صنع كلّ ذلك.

أنتم الذين تقولون لا وجود لعالِم -أو حسب تعبيركم: مصمّم ذكي-

ونحن نسأل: كيف اتفقت هذه العناصر على أن لا تتغير، وأن تُبقي نسبة وجودها ثابتة في هذه الحياة؟!

فهل هي التي قرّرت ذلك والجميع يعترف بأنّها لا تفهم نفسها ولا تعي ما الذي تفعله؟!

◂ الاعتراف بعدم حريّة العناصر!

يقول الملحدون: صحيح أنّ هذه العناصر ليست لها الحريّة، لكن هذه العناصر الستة بنسبها المعيّنة، تعتمد كلّيّاً على بعضها أو على شيء

آخر ليس معروفاً بعد، وبطرق لا نستطيع تخيّلها في أيّامنا هذه، ربّما تكون الثوابت الستة عديمة الحريّة في التغيير، تماماً كما في محيط الدائرة بالنسبة لمساحتها، لكن ربّما نكتشف سبب ذلك فيما بعد، ربّما سنعرف بأنّ هنالك طريقة واحدة لوجود الكون، ربّما سنعرف في المستقبل كوننا لا نحتاج لإله يضبط أزراره، لأنّه لا توجد هنالك أزرار أساساً.

الجواب: إنّ السؤال الذي لابدّ من طرحه هنا هو: لماذا وجب على الكون أن يكون بهذا الشكل الذي يبدو فيه، وكأنّه كان يعرف أنّ الإنسان سيأتي إلى الحياة، فيحتاج إلى الأوكسجين والماء ويحتاج إلى هذه العناصر وهذه النسب فأوجدها؟

هل من المعقول أنّ الكون بما فيه من الكواكب والنجوم كان يعلم الغيب فكان على معرفة سلفاً بخلق الإنسان؟ إذن لابدّ من أن تعترفوا بأنّ هنالك مصمّماً ذكيّاً، الأمر الذي تهربون من الإيمان به، أمّا إذا لم تقولوا بذلك فالسؤال الذي يأتي هو: لماذا كانت هنالك طريقة واحدة تتناسب بشكل مذهل لتطوّر الحياة في الكون؟

مع وجود ألوف، بل ملايين العوامل التي تمنع تكوّن الحياة، لماذا لم تعمل كلّ هذه العوامل المانعة للحياة بل عملت العوامل التي جعلت الحياة موجودة؟

وحسب مثال أحدهم يقول: إذا كان هنالك رجل محكوم بالإعدام رمياً بالرصاص، ووقف عشرة من الجنود وبأيديهم أسلحتهم الأوتوماتيكيّة، ومع إطلاق صفارة الضابط كان عليهم أن يطلقوا النار.

وفعلاً أطلق الجميع النار لكن أخطأ كلّ أعضاء فريق الإعدام العشرة في إصابة الهدف.

وهنا لابدّ من أنّ المحكوم بالإعدام يتساءل في نفسه: من الواضح أنّهم جميعاً أخطؤوني، وإلّا فلم أكن واقفاً هنا، وأفكّر في الأمر، لكن السؤال: لماذا أخطأ جميعهم؟ وما هو السبب؟

وواضح أنّه لابدّ من وجود سبب ما؛ إمّا أنّهم كانوا مرتشين أو كانوا سكارى، أو أنّ عمليّة الإعدام كانت مجرّد مسرحيّة، وإلّا لا يمكن لعشرة أشخاص أن

يخطئوا هدفاً معيّناً محدّداً سلفاً، والسؤال هنا: كيف أخطأت ملايين العوامل التي تحول دون تكوّن الحياة في هذا الكون وفي النهاية وُجد البشر، ومنهم الملحدون الذين ينكرون وجود خالقهم؟.

الوضوح والغموض في تفسير الأشياء

يقول الملحدون: «ربّما أدرك علماء الفراغات عجزهم عن تقديم أدلّة كالعين والجناح أو المحرك المروحي أو جهاز المناعة، وبالتالي فإنّهم يتشبّثون في أملهم الأخير في أصل الحياة. جذور التطوّر في نطاق الكيمياء الغير الحيويّة تبدو وكأنّها تؤمّن فراغاً أكبر من أيّ تحوّل في طريق التطوّر لاحقاً، بمعنى ما فهو فعلاً فراغ كبير، وهذا المعنى خاص جداً لكنه لا يعطي راحة للمتديّنين.

أصل الحياة يجب أن يكون قد حدث مرة واحدة فقط، وبذلك نسمح لأنفسنا بأن نعتبره حدثاً على قدر كبير من اللّاحتماليّة، بدرجة أكبر كثيراً مما يدركه أكثر الناس، وخط التطوّرات اللّاحقة مجرّد إعادات بشكل أو بآخر عبر ملايين من الأنواع الحيّة وبشكل مستقل وبشكل مستمر معاد عبر العصور الجيولوجيّة..»(١)

الجواب: في العادة يتكلّم المؤمنون بكلّ وضوح، فالكتب السماوية دائماً هي كتب واضحة يفهمها الجميع، فالقرآن الكريم مثلاً أنزله الله بلسان عربي مبين، لكن الملحدين حينما تعوزهم الأدلّة يتكلّمون بكلّ غموض، فما الذي فهمته من هذا الكلام الذي يقوله أحدهم؟

لا شيء، لأنّه يعتمد على الغموض في إظهار علمه، فمن لا يعرف الجواب على السؤال فهو يُطلق كلاماً غامضاً فيظنّ السائل بأنّه يملك الكثير من العلم ولذلك هو لم يفهم منه شيئاً.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٣٦-١٣٧.

إنّ الملحدين يعرفون مواضع نقاط الضعف في كلامهم ولذلك هم يحاولون دائماً البحث عن إجابات ملتوية وغامضة علّها تحلّ الإشكاليّة الأساسيّة التي تورّطوا فيها وهي: من الذي خلق هذا الكون وأوجده من العدم؟.

العبثيّة خلاصة نظريّة التطوّر

يقول الملحدون: إنّ الأشكال البدائيّة من الكائنات تطوّرت إلى أنظمة معقّدة من دون هدف مقصود؛ فإذا كان الإنسان اليوم موجوداً وهو بالغ التعقيد في جسمه، وكذلك فيما يرتبط بقواه الفكريّة والعقليّة وعواطفه فكلّ ذلك نتاج التطوّر من حالة بدائيّة إلى هذه الحالة، ولكن من دون هدف محدد لوجوده.

الجواب: هذا أمر غير معقول، لأنّنا نعرف أنّ أيّ تطوّر يحدث من دون هدف لن يكون بشكل دقيق، مثلاً يمكن أن يحدث زلزال بالصدفة، ويدمّر البيوت والبنايات والشوارع لكن هل يمكن للزلزال أن يبني بناية من عشرين طابقاً، وأن يضع فيها مصاعد كهربائيّة، وأن يرتّب غرف النوم فيها؟

نحن نعرف ما الذي يحدث لو نزل السيل من علوّ جبل إلى الوادي، فهو يمكن أن يحفر مجرى ماء غير منظّم، لكن لن يكون هذا المجرى مرتّباً مثل مسبح جميل.

منذ ملايين السنين حدثت براكين ولا تزال، وحدثت سيول ولا تزال، وحدثت زلازل ولا تزال، ولكن لم نجد أبداً أنّ البراكين والزلازل بنت شيئاً محكماً، خاصّة ونحن نجد أنّ كلّ عضو في الإنسان أو في الحيوان أو في النبات موجود في مكانه الصحيح، بحيث لا يمكن إحداث أيّ تغيير فيه إلّا بخلاف مصلحته، فكيف حدث كلّ ذلك بالصدفة، ومن دون هدف مقصود؟ كيف نقول إنّ كلّ عضو موجود في الإنسان له هدف مقصود، لكن وجود الإنسان نفسه بلا هدف مقصود؟

أليس ذلك يشبه أن نقول إنّ كلّ أجزاء السيّارة موجودة في أماكنها لهدف

مقصود، فالمقود في مكانه للتحكّم بسيرها يميناً وشمالاً، والعجلات في مكانها لهدف محدّد وهو تحرّك السيّارة، وكذلك بقيّة الأجزاء بما في ذلك أصغر برغي. ولكن السيّارة ككل لم تصنع لأيّ هدف!

هل يقبل ذلك أيّ عاقل؟

الدين والتطوّر

نظرية تطوّر الدين.

يقول الملحدون: «إنّ أقدم الديانات الإبراهيميّة الثلاث، وهي بدون شك الجد المشترك للديانتين اللّاحقتين هي اليهوديّة:

وهـي -كما يدّعون- مـن البداية كانت علـى شكل عبادة قبليّة لإله خشن وغليظ جداً، مهووس بالقيود الجنسـيّة بشـكل سقيم، وبرائحـة اللحم المحترق، وبتفوّقه على جميع الآلهة المنافسة وبمستوى تلك العشيرة الصحراويّة التي اختارها له، وفي عهد الاحتلال الرومانـي لفلسـطين نشأ الدين المسيحي علـى يـد بولس الطرسوسي (Saint Paul of Tarsus) كـديـن تـوحـيـدي مـتفرّع من اليهوديّة، ولكن أقلّ عنفاً وانعزاليّة منه، وانفتحت المسيحيّة من الخصوصيّة اليهوديّة للدعوة العامة في باقي أنحاء العالم، وبعد مئات السنين عاد محمّد وأتباعه للجذور اليهوديّة التوحيديّة الصارمة، بدون أن يأخذوا خصوصيّتها العرقيّة، ونشأ الإسلام على كتاب مقدس جديد اسمه القرآن، والذي احتوى على توجّه فكري جديد، ألا وهو نشر الدين بالقوّة العسكريّة.

المسيحيّة كذلك انتشرت بالسيف، فقد مارسها الرومان بعد أن حوّلها الإمبراطور قسطنطين من طائفة صغيرة لا مركزيّة وملاحقة،

إلى الدين الرسمي للدولة، ونشرت بالحملات الصليبيّة، وبعدها بحملات أوربيّة أخرى مرافقة بحملات تبشيريّة، وفيها يخص هدفي هنا ،فإن الديانات الإبراهيميّة الثلاث من الممكن اعتبارها ديناً واحداً دون تفريق، ما لم أذكر شيء آخر فإنّ الدين المسيحي هو المقصود ليس لشيء إلّا لكونه مألوفاً لديّ أكثرَ من غيره والفروق لا تهمّ بقدر التشابهات بين الديانات الثلاث.

ولن أناقش الديانات الأخرى كالبوذيّة أو الكونفوشيّة. الحق يقال بأنّ هذه المذاهب يجب أن تناقش كفلسفات وأنظمة أخلاقيّة للحياة، وليس كأديان»[1].

الجواب: مرّة أخرى: هذا مجرّد ادّعاء وليس كلاماً عقلانيّاً، وفيه خلط للأمر وكلام غير علمي وغير دقيق، إنّه ادّعاء أجوف أن يفترض أحد أنّ قضيّة الإيمان بالله هي قضيّة تطوّر من فكر شخص ما شعر بالضعف فاعتقد بوجود من خلق الكون وهو يدير الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ثمّ افترض أنّ هذا له صفات من صفات البشر، وأنّه قاس، وأنّه ضدّ النساء، وأنّه يأمر بقتل الأطفال، ثمّ تطوّرت هذه العقيدة إلـى معتقـدٍ أقلّ عنفاً وأكثر إنسانيّة، ثمّ تطوّر ذلك إلى أن أصبح إلهاً واحداً يدير الكون!!

ألا ترى كم هذا التفكير ساذج وبسيط وغير دقيق وغير علمي ؟!

وعلى كلّ حال فإنّ هذا الكلام ليس غريباً عن الملحدين فهم يتقوّلون على المؤمنين بالله بما لا يقولونه، ثمّ يعترضون عليهم ويفنّدون ما اختلقوه بإطلاق أحكام كليّة غير علميّة وغير دقيقة، بل يتعدّون ذلك إلى السبّ والشتم وليس أكثر من ذلك!!

فالملحد لا يناقش صفات الرب الموجودة في القرآن الكريم، بل يطلق أحكامه

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٩-٤٠.

جزافاً على الإله الذي وُصف في التوراة، ثمّ يلحق القرآن بالتوراة.

وهذا يشبه أن يأتي أحد ويذكر بعض ما كان يعتقده الفيزيائيّون القدماء ليقول: إنّ عقائد الفيزيائيّين الجدد هي نتيجة عقائد أولئك الذين كانوا يعيشون في العهد البرونزي وكانوا يعتقدون بهذه النظريّة الباطلة أو تلك، ثمّ يقرر بطلان النظريّات الموجودة اليوم في الفيزياء كلّها بناءً على بطلان ما سبقها!! ويدّعي أنّ الحقائق العلميّة التي توصّل إليها البشر كلّها باطلة!!

وعلى سبيل المثال نقول: في فلسفة الرومان كان الكون كلّه يقوم على أساس أنّ الأرض ثابتة وأنّها مسطّحة، وكانوا يعتقدون بعدم إمكانيّة الخرق للفضاء المحيط بها، هكذا كان يعتقد الفلكيّون القدماء، وحيث إنّ هذه النظريّات باطلة فهل يمكننا أن نقول إنّ ما توصّل إليه الفلكيّون اليوم باطل أيضاً!!

أي منطق هذا؟ ومن يقبله اليوم؟!!

ومثله من يأتي إلى عالم الطب ويذكر ما كان يؤمن به البشر في السابق حول جسم الإنسان، ويلحق ما توصل إليه العلماء اليوم من الحقائق بتلك النظريّات ويفنّدها ويدينها!!

وهكذا في بقيّة الأمور، بل يمكن القول إنّ صاحب كتاب وهم الإله (The God Delusion) عندما نرجع إلى تاريخه الشخصي نجد أنّه في أيام طفولته ما كان يميّز الهرّ من البرّ، ولو ترك لوحده ربّما كان يأكل عذرته، ويشرب بوله، ثمّ نقول إنّه اليوم كما كان في السابق يأكل العذرة ويشرب البول!

◂ وماذا عن نبيّ الإسلام؟

سؤال: وماذا عن انتشار الإسلام وما يقوله الملحدون من أنّ النبيّ محمّد هو الذي اختلق الديانة الإسلاميّة وجوهرها مأخوذ من اليهوديّة؟

الجواب: هذا الكلام أيضاً غير علمي وغير تاريخي وغير منطقي، ففي مكة

المكرّمة لم تكن اليهوديّة موجودة، والنبيّ محمّد ﷺ لم يكن يقرأ ولا كان يكتب ولم يدرس عند أحد، وإذا كانت هنالك قواسم مشتركة فهذه القواسم المشتركة لا تعني أنّ النبيّ محمد ﷺ جاء بدينه من الديانة اليهوديّة، وإلّا لقبلها بالكامل ولم يكن القرآن الكريم يفنّد مزاعم اليهود، ولا كان يدين الظالمين منهم في التاريخ.

إنّ وجود القواسم المشتركة لا يعني أنّ كلّ شيء باطل عند هذه الديانة أو تلك، لأنّ هذا يشبه أن نقول: إنّ الذين كانوا يؤمنون بعلم الفلك القديم الذي ثبت خطؤه كانوا يؤمنون بوجود الشمس والقمر، وما دام الفلكيّون اليوم يؤمنون بوجود الشمس والقمر، فهم أيضاً على باطل، باعتبار أنّ هنالك قاسم مشترك بين نظريّات الفلكيّين اليوم، وبين نظريّات الفلكيّين في القديم وهو الإيمان بوجود الشمس والقمر!.

أمّا فيما يرتبط بانتشار الإسلام بالسيف فهذه تهمه قديمة، وهي غير دقيقة وغير صحيحة، فالإسلام لم يرفع السيف لإدخال العقيدة في رؤوس الناس، ولو كان هذا صحيحاً فما بال المسلمين الأوائل في مكة قد آمنوا، ولم يكن حينها رسول الله ﷺ يملك أيّ قوّة، بل العكس كان كلّ من يدخل في هذا الدين الجديد إمّا أن يُقتل أو يُعذّب أو يطرد.

وكيف تفسّر إيمان الناس باليهوديّة والمسيحيّة والإسلام اليوم، وليس على رؤوس أحد منهم سيف يفرض عليهم الإيمان بهذه الديانات؟!

إنّ العكس هو الصحيح، فالإلحاد هو الذي انتشر بقوّة السلاح كما حدث في الاتّحاد السوفيتي السابق، وفي ظل الحكومات التي آمنت بنظريّة الإلحاد، حيث كانوا يقتلون الناس لأنّهم يؤمنون بالله، وكانوا يمنعون ارتياد المساجد والكنائس والمعابد في كلّ مكان، ويهدمونها ويمنعون الناس من ممارسة عبادتهم الشخصيّة.

إنّ الإلحاد هو الذي انتشر بالسيف، وفي أيّ مكان يرتفع السيف عن رؤوس الناس فإنّ الأكثريّة تؤمن بالله.

◄ الدين، بين الإيمان والتطوّر

يقول الملحدون: إنّ كلّ شيء تعرّض للتطوّر بما في ذلك الديانات؛ فالإنسان البدائي كان يعيش في بيئة بدائيّة، من حيث مسكنه ومأكله وعلاقاته، وكانت أفكاره عن الدين أيضاً بدائيّة، فاخترع لنفسه إلهاً من الخشب، أو الشجر، أو عبد بعض الأشخاص، أو الكواكب والنجوم، ثمّ تطوّرت أفكاره لكن ليس تطوّراً بطيئاً كما هو في الانتخاب الطبيعيّ في الماديّات، بل كان سريعاً بسبب وجود علماء وقساوسة يستفيدون من الدين.

الجواب:

أوّلاً: الملحدون كالعادة يدّعون شيئاً بلا دليل، ثمّ يصدّقون ادّعاءهم، ثمّ يستدلّون بذلك على أمور أخرى، فمثلاً يقولون إنّ الحياة جاءت عن طريق الصدفة في البداية، ثمّ بدأت تتطوّر حسب قانون محدّد وهو قانون الانتخاب الطبيعي.

فكيف أصبح الانتخاب الطبيعي قانوناً؟ وكيف أنّ الطبيعة التزمت بهذا القانون ولم تتجاوزه؟!

ومن قال إنّ الحياة وجدت صدفة؟ وبأيّ دليل؟

كلّ هذا ادّعاء في ادّعاء، لكن الملحدين يبنون بقيّة الأمور على هذا الادّعاء.

ثانياً: في الوقت الذي كان هنالك أشخاص يعبدون الشجر والحجر والكواكب كان هنالك من يؤمن بالله، فالإيمان بالله لم يأت كتطوّر من ذلك الإيمان الخاطئ، واليوم أيضاً نجد إلى جانب المؤمنين بإله واحد، الألوف من الديانات الأخرى التي يعبد بعض أتباعها الأصنام وبعضها يعبد الحيوانات، وحتّى في بعض المدن المتقدّمة مثل اليابان هنالك أقوام يعبدون الإبرة، كما أنّ هنالك في الهند من يعبد الأبقار، أو يعبدون الفئران، فالقضيّة في الدين ليست قضيّة تطوّر، فكما أنّ البشر

اليوم موجودون إلى جانب الحشرات والحيوانات والأشجار، وليس بعضها قد تطوّر من بعض حيث لكلّ موجود حياته الخاصّة به وإنتاجه الخاص وتكاثره وتناسله، كذلك فيما يرتبط بالديانات.

فلو ادّعى أحد أنّ الإنسان يتطوّر اليوم من الحشرات، فما الذي تقولون؟!

يقولون: لا، إنّما الإنسان يولد من الإنسان ولا يتطوّر من الحشرات، ولكن لماذا لا نجد الحشرات تتطوّر إلى الإنسان اليوم؟ يقولون هذا أمر بطيء يأخذ ملايين السنوات، فلو أنّك بقيت مئة مليون عام لربّما رأيت أنّ الخنفساء تتحوّل إلى دكتور ومهندس وطبيب وأستاذ جامعة، لكن هذا يحتاج إلى وقت طويل!

وفي قضيّة الديانات إنّ ادّعاء الملحدين بأنّ الإنسان هو الذي اخترع المعبود، وتصوَّرَه في صورة شجر، أو صنع صنماً وتصوّر فيه روح الإله، ثمّ تطوّر الأمر إلى أن جاء من يقول بأنّ الله لا يُرى وهو غيب، فهذا تطوّر مثل تطوّر الطبيعة.

أقول: إنّ هذا الكلام مجرّد ادّعاء وهو غير صحيح، بدليل ما ذكرناه من أنّك تجد إلى جانب المؤمنين بالأشجار والأحجار والأصنام والكواكب كآلهة هنالك من يؤمن بالله الواحد الأحد الذي خلق كلّ هذه الأشياء، التي هي مخلوقات له فلماذا لا يتطوّر إيمان أولئك إلى الإيمان بالله؟

الدين كامل لا متطوّر

يقول الملحدون: معظم الأديان تطوّرت، ومهما كانت نظريّة تطور الأديان فعليها أن تفسر السرعة الهائلة للعمليّة التي تطوّر فيها الدين، فبوجود الظروف المواتية تستطيع الأديان الازدهار.

ثم يقولون: ليس هنالك دين متكامل، وإنّما دائماً الدين يتطوّر، فقط يستثنون من ذلك دين السينتولوجي (Scientology) وأيضاً ديانة المورمون (Mormonism) في الولايات المتحدة الامريكية.

يقول ريتشارد دوكنز في كتابه وهم الإله: «المثال عن الدين

المصمّم كلياً -من غير التطوّر- هو المورمون (Mormonism)، جوزيف سميث (Joseph Smith) العبقريّ الكاذب الذي اخترعه ذهب إلى حد تأليف كتاب مقدّس جديد بشكل كامل اسمه كتاب المورمون (Book of Mormon)، ألّف تاريخاً مزيّفاً لأمريكا، كتبه بلغة انكليزيّة مزيّفة تعود للقرن السابع عشر، ولكن المورمونيّة على أيّة حال تطوّرت منذ زمن صناعتها في القرن التاسع عشر، وأصبحت أحد أديان أمريكا التي تُعتبر رئيسيّة، وهناك بعض الشائعات عن مرشح للرئاسة الأمريكيّة ممن ينتمون إليها»[١].

الجواب: أكثر الأديان جاءت متكاملة لا متطوّرة. وأساساً فإنّ الدين هو كامل، يصلح لزمانه ولقومه، إنّما الذي يحدث أنّ بعض الناس يُضيفون إلى هذا الدين أشياء ليست منه، أو يحرّفونه عن مواضعه، وهذا ما حدث في التاريخ.

وكلّما حدث ذلك أرسل الله نبيّاً جديداً، ليعيد الدين إلى نقائه الأوّل.

الأنبياء عليهم السلام في الحقيقة كانوا يأتون بالديانات كاملة لزمانهم. والإسلام دليل واضح على الدين المصمَّم سلفاً، الكامل في تشريعاته الذي جاء به النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وصرّح بذلك حينما جاءت الآيه المباركة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[٢]، وفي هذا الدين بصائر متكاملة لا نقص فيها، فالجانب المعرفي في الإسلام متكامل، إلى جانب الأحكام الشرعيّة، والأحكام الخاصّة والعامة، وما يرتبط بعلاقات الناس بعضها ببعض، ومسائل المعاملات إلى مسائل الإرث والموت والدفن وإلى آخره. هذا دين كامل لم يتم فيه التطوّر كما يدّعي الملحدون وإنّما نزل متكاملاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[٣].

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) سورة فصلت: ٤٢.

ثمّ إنّ الدين هو الذي طوّر حياة الناس، وليست حياة الناس هي التي طوّرت الدين. فمَن من المؤرخين، أو من الذين يحترمون عقولهم يمكنه أن يدّعي بأنّ العرب تطوّروا أوّلاً، ثمّ طوّروا معتقداتهم؟!

إنّ الكل يعرف بأنّ العرب كانوا يعبدون الأصنام، وعلاقاتهم الاجتماعية كانت قائمة على الغزو، وكانوا يئدون البنات وهن أحياء، ولم يكونوا يملكون حتّى علامة بسيطة من علامات الحضارة، لا في عالم الصناعة والثقافة، ولا في عالم الزراعة والتجارة، وحينما جاء النبي محمّد ﷺ بالقرآن الكريم تطوّرت حياتهم، وأصبح أولئك العرب المتخلّفون روّاد الحضارات وبُناة المدنيات، فأين التطوّر في هذا الدين؟

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ الملحدين حينما يريدون إثبات أنّ الديانات هي نتاج تطوّر عقائد الناس الأوليّة بسبب تطوّر حياتهم المدنيّة، لا يذهبون إلى الإسلام ولا يدرسونه ولا يرغبون فيه، فبالإضافة إلى إلحادهم فهم أيضاً عنصريّون، يبحثون عن ديانة ما موجودة في مجاهل أفريقيا أو في غابات الأمازون، ويستدلّون بها على تطوّر الدين على أيدي الناس، لكنّهم لا يأخذون الإسلام بعين الاعتبار، فكما أنّ داروين (Darwin) حينما بحث في الأنواع المختلفة من الموجودات كانت دراسته ناقصة بالقطع واليقين، لأنّ في عهده لم تكن الوسائل قد تطوّرت بحيث يستطيع أن يدرس حياة الكائنات الحيّة، ويذهب إلى مختلف مناطق العالم ويدرس الحفريات الموجودة.. كذلك هؤلاء فإن عملهم ناقص، يضربون مثالاً بشيء شاذ لاستنباط قانون عام وشامل.

◂ مثال شاذ واستدلال مضحك

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «إنّ إحدى الطوائف المشهورة في جزيرة تانا (Tanna) في هبريد الجديدة (New Hebrides) (المعروفة باسم: فانواتو (Vanuatu) منذ عام

١٩٨٠م). هذه الطائفة لا تـزال مـوجودة، وتدور هذه الطائفة حول مبشّر يُسمى جون فروم (John Frum)، هناك ذكر لجون فروم في سجلّات الحكومة البريطانيّة يعود لعام ١٩٤٠م، وبالرغم من صغر عمر الأسطورة عنه، فلا أحد يعرف إن كان شخصاً حقيقيّاً أم لا.

فإحدى الأساطير تصفه كرجل قصير، له صوت حاد وشعر مصفّف، يلبس معطفاً بأزرار لامعة، أصدر العديد من النبوءات الغريبة، وتكبّد مشاقّاً لكي يقلب الناس ضد المبشّرين، وفي النهاية عاد إلى الأسلاف بعد أن وعد بعودته ظافرًا مع شحنة عظيمة.

ورؤيته عن القيامة تتضمّن كارثة عظيمة: جبال تسطح، ووديان تمتلئ، والعجائز سيستعيدون صباهن، والأمراض ستختفي، والبيض سيُطردون من الجزيرة بدون عودة، وستصل إلى الجزيرة شحنة بكميّات كبيرة مما يحتاج الناس بحيث إنّ كلّ واحد سيحصل على كلّ ما يريد.

أكثر ما يُقلق الحكومة هو أنّ جون فروم (John Frum) هذا تنبّأ بأنّه عند عودته سيحضر معه عملة جديدة تحمل صورة جوزة الهند، ولذلك فإنّه على السكان المحليّين أن يتخلّصوا من كلّ العُمَل الخاصة بالرجل الأبيض، في عام ١٩٤١م أدّى ذلك إلى حصول موجة شراء فاقت كلّ التوقّعات، الجميع توقّف عن العمل، وتضرّر اقتصاد الجزيرة بشكل حاد، وإدارة الاحتلال سجنت زعماء الحركة، ولكن لم ينفع ذلك للقضاء على الطائفة، وهجر الناس -نتيجة تنبؤات هذا الرجل وتعليماته- الكنائس والمدارس.

بعد ذلك بفترة قصيرة نشأ تلقين جديد بأنّ جون فروم هو ملك أمريكا، وبحكمته أرسل فرق جيش أمريكيّة إلى جزر هيبريد الجديدة،

وأعجب العجائب حصل حيث كان ما بين هؤلاء رجال سود، ولم يكونوا فقراء كأهل الجزيرة أنفسهم، ولكن يملكون من الأشياء تماماً كما هو الحال في الجنود البيض. وإثارة عارمة اجتاحت الجزيرة حيث ظنوا أنّ القيامة قد اقتربت، وبدا بأن كلّ شخص يحضّر نفسه لوصول جون فروم. أحد القادة قال بأنّ جون فروم سيأتي من أمريكا بطائرة، وبدأ المئات من الرجال بتنظيف الأحراش في مركز الجزيرة حتّى يكون هناك مهبط للطائرة، والمهبط له برج مراقبة مصنوع من قصب البامبو وفيه مراقب للحركة الجويّة يلبس سمّاعات رأس مزيّفة مصنوعة من الخشب، وعبارة طائرة رسمت على المهبط لتعريف طائرة جون فروم بمكان هبوطها.

في عام ١٩٥٠م أبحر الشاب ديفيد أتينبوروغ (David Attenborough) إلى منطقة تانا مع مصور اسمه جيفري موليغان (Geoffrey Mulligan) لتحرّي موضوع طائفة جون فروم. حيث وجدوا العديد من الأدلّة على انتشار هذا الدين، وتعرّفوا على الكاهن الأعلى في هذه الديانة، وهو رجل اسمه نامباس (Nambas). وكان نامباس هذا يدّعي بأنّه يتكلّم مع جون فروم بشكل منتظم بواسطة الراديو. والراديو هذا الخاص بفروم كان عبارة عن امرأة عجوز مع سلك كهربائي يلف خصرها، كانت تصاب بحالة هلوسة وتتكلّم بصورة غير مترابطة. وكان نامباس يفسر هذا بأنّها كلمات جون فروم، ويدّعي بأنّه عرف مسبقاً بقدوم أتينبوروغ لرؤيته لأنّ جون فروم أخبره بذلك عبر الراديو، أتينبوروغ طلب أن يرى الراديو ولكن طلبه رُفض وتغيّر الموضوع، وسأل نامباس عمّا إذا كان رأى جون فروم، فهزّ الرجل رأسه بالإيجاب بشكل مؤكد، وقال: أنا أرى جون فروم كثيراً. فسأله: كيف هو شكله؟ فأشار بإصبعه على الرجل

نفسه قال: هو يشبهك أنت، له وجه أبيض، وهو طويل يعيش في أمريكا الجنوبيّة. تلك التفاصيل تناقض الأسطورة عن أنّ جون فروم كان قصير القامة، وهذه إحدى الطرق التي تتطوّر بها الأساطير.

من الأمور المسلَّم بها لدى أتباع هذا الدين بأنّ عودة جون فروم ستكون في الخامس عشر من شباط فبراير، ولكن ليس من المعروف في أيّ عام. وفي ١٥ شباط من كلّ عام يجتمع أتباعه لاحتفال ديني للترحيب بقدومه، وحتّى الآن لم يعد، ولكنّهم لم ييأسوا.

ديفيد أتينبوروغ قال لأحد أفراد الطائفة واسمه سام (Sam):

يا سام لقد مضى تسعة عشر عامًا منذ الوقت الذي قال فيه جون أنّ الشحنة ستصل. لقد وعد ووعد ولكن الشحنة لم تصل بعد، أليست تسعة عشر عامًا وقتًا طويلاً للانتظار؟

فرفع سام عينيه من الأرض ونظر إلى الرجل قائلاً: إذا كنت أنت تستطيع الانتظار لألفي عام حتّى يعود السيّد المسيح، ولم يعد بعد، فأنا إذن أستطيع انتظار جون أكثر من ١٩ عاماً.

روبيرت بوكمان (Robert Buckman) في كتابه: هل باستطاعتنا أن نكونا صالحين بدون الإله (Can We Be Good without God) يقتبس تمامًا نفس الرد السريع والمدهش لصانع جون فروم، ولكن هذه المرّة لصحفي كندي بعد حوالي ٤٠ عاماً من لقاء أتينبوروغ»[١].

فيقول الملحدون: هذا المثال لجون فروم ولديانته ولوعوده هي المثال لكلّ الديانات.

الجواب: هذه هي طريقة الملحدين في النقاش العلمي! فهم يبحثون عن قضيّة

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٠٦-٢٠٨.

شاذّة تقوم على أساس الأسطورة، مثل جزيرة لم يسمع عنها أحد، وقصّة لا تجد لها أثراً إلّا في كتب الملحدين، لا بمعنى أنّه لا يوجد هنالك من يؤمن بشخص مثل جون فروم، ولكن بمعنى أنّهم يبحثون عن قضية ما في مكان ما، ويفسّرون تلك القضيّة بطريقتهم، ثمّ يقولون: كلّ الديانات هكذا!

فهل السيد المسيح عليه السلام هو جون فروم؟

وهل إبراهيم الخليل عليه السلام، وموسى بن عمران عليه السلام، ومحمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم قضاياهم كلّها مثل هذه؟

لماذا يفتّش الملحدون عن قضايا لم يسمع بها أحد ليجعلوها مثالاً لهم، ودليلاً على مدّعاهم، ولا يبحثون عن الديانات الكبرى التي لها ملايين الأتباع؟

إنّ السبب واضح وهو: أنّ هذه الديانات وما يرتبط بها معروف للجميع، فلا يستطيع الملحدون أن يخترعوا تفاسير جديدة لها، ومن ثمّ فإنّهم لا يتناولون ظهور هذه الديانات لتحقيق مآربهم، وتفسير نظريّاتهم القائمة على الخرافات.

ولأنّهم لا يريدون الاعتراف بالغيب، ولا بأيّ تفسير من العلماء الآخرين، فإنّهم يصدّرون الأحكام جزافاً ويبنون عليها نظريّاتهم.

إنّ الملحدين لهم أحكام مسبقة يبحثون لها عن أدلّة وبراهين. وغالباً ما تكون أدلّتهم هي قضايا تافهة، أو حوادث شاذّة، ولا تدلّ أبداً على ما يريدون الوصول إليه، لكنّهم يدّعون أنّ هذا هو الواقع فعليك أن تقبل، وإلّا فأنت لست ممن يعتمد على العلم! لأنّ العلم محكور عليهم، ومايعتبرونه علماً هو أوهامهم، فهي عندهم علم! وما عدى ذلك جهل.

السيّد المسيح عليه السلام قضيّته واضحة؛ أين بُعث؟ وأين كان يعيش؟ ومالذي قاله؟ وما لذي فعله؟ كلّ ذلك معروف، لكن «نبي» الملحدين المعاصر وهو ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins)، بعد أن يضرب مثالاً لقضيّة جون فروم يقول: «ربّما بدأت المسيحيّة بطائفة محليّة مثل طائفة جون فروم، وبالتأكيد فإنّ بعض الدارسين مثل غيزا فيرميس (Geza Vermes) وهو

بـروفيـسـور فـي الـدراسـات الـيـهـوديّــة فـي جـامـعـة أوكـسـفـورد (Oxford University) يقترح بأنّ السيد المسيح كان واحداً من العديد من الشخصيّات المؤثّرة التي ظهرت في فلسطين في وقتها، ومحاطاً بالعديد من الأساطير المشابهة. العديد من تلك الطوائف اندثرت، والتي بقيت -في رأيه- هي التي نراها حتّى اليوم»[1].

ثمّ يقول كلاماً غريباً وهو: «أنّ موت شخصيّة مؤثّرة في العالم الحديث مثل هيلا سيلاسي (Haile Selassie)، وإلفس برسلي (Elvis Presley)، والأميرة ديانا (Princess Diana) يعطينا فرصاً أخرى لدراسة النشوء السريع للطوائف وظواهر تطوّر ميماتها!»[2]

والجواب: أنا أسأل سؤالاً بسيطاً: ما دخل هيلا سيلاسي، وإلفس برسلي، والأميرة ديانا في مسألة الإيمان بالله وفي قضيّة الديانات؟

ألا ترى، كيف أنّهم يستخفّون بعقول الناس إلى هذه الدرجة!!

أيضرب المثال للسيّد المسيح عليه السلام بهيلا سيلاسي، الحاكم الطاغوت في أثيوبيا، الذي حكم بالحديد والنار، ثمّ مات واندثر! ولا يؤمن أحد من الناس به، لأنّه لم يترك حكمةً ولا تعليمة أخلاقيّة واحدة، ولا هم يحزنون.

أحكام مطلقة يصدرها الملحدون، وإذا لم تصدّقها فأنت عندهم ممن لا يؤمن بالعلم!

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٠٩.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٠٩.

التلقين

الإلحاد.. تلقينٌ أيضاً

يقول الملحدون: إنّ سبب الدين هو (التلقين)؟

الجواب: منذ بداية البدايات، كيف بدأ الإيمان بالدين؟ ولماذا اختار الناس القدماء الإيمان بالدين والتزموا به؟ هل كان هنالك من يلقّنهم؟

أنت تقول: إنّ سبب إيمان الناس هو (التلقين).

وأقول: قد يكون بعض هذا الكلام صحيحاً في المجتمعات المتديّنة، ولكن كيف أصبحت هذه المجتمعات متديّنة في البدء؟ وقبل وجود (التلقين)، كيف بدأ الالتزام بالدين والإيمان بوجود الله؟!

أضف إلى ذلك: إذا تمّ استخدام (التلقين) من أجل أمور جيّدة، فهل هذا يجعل الشيء الذي تمّ (التلقين) به أمراً غير صحيح لأنّه جاء بـ(التلقين)؟!

إذا كنت تقوم بتلقين ابنك مثلاً بضرورة الاهتمام بالدراسة وبالعلم وقراءة الكتب، ثمّ جاءك من يقول لك: إن سبب اهتمام أولادك بالعلم والدراسة هو (التلقين).. فهل هذا يجعل الدراسة والتعليم أمراً باطلاً أو سيّئاً؟ وهل علينا أن نرفض التعليم لأنّه يأتي نتيجة (التلقين)؟!

ثمّ أليس ما يقوم به الملحد بالنسبة إلى أولاده هو تلقينٌ أيضاً؟!

فهو أيضاً يلقّن ولده الإلحاد وأن لا يؤمن بشيء.

لماذا (باؤك) تجر و(بائي) لا تجر؟.

هل (التلقين) سبب الإيمان؟

يقول الملحدون: هنالك مجموعة من الأفكار التي يبثّها المؤمنون. هذه الأفكار لا قيمة لها حقيقة وفي واقع الحال، وإنّما تصبح لها قيمة وتبقى لأنّها تعتمد على (التلقين).

منها مثلاً:

١. يقال لك: إنّك ستحيى بعد موتك.

٢. يقال لك: إنّ الإيمان بالله هو أهمّ عبادة، وعندما تجد بأنّ إيمانك يهتزّ فإنّ عليك العمل بجدّ ومثابرة لترميمه، وأن تطلب من الله أن يساعدك في ذلك.

٣. يقال لك: لو أنّك قُتلت شهيداً فسيكون لك مكان خاص في الجنّة، وأنّ الجنّة مكان رائع وفيها سوف تتمتع باثنتين وسبعين حورية عذراء.

٤. يقال لك: إنّ الإيمان عبادة وإن لم يكن لك دليل عليه، وكلّما كان إيمانك ينافي الأدلّة العقليّة كلّما كان إيمانك أكبر، وأنّ المؤمنين المتازين لديهم قدرات على الإيمان بأشياء غريبة لا أساس لها من الصحة، ولا يمكن أن يكون لها أساس عند مواجهة الأدلّة، وأنّ هؤلاء لهم أجر عظيم.

٥. يقال لك: إنّ على الجميع -حتّى الملحدين- أن يحترموا هذا الشكل من الإيمان بالله.

٦. يقال لك: هنالك فعلاً أشياء مقدّسة، لكن غريبة مثل الثالوث المقدّس، وقيام القيامة وصعود المسيح للسماء. لكن نحن لم نُخلق لفهمها فلا تحاول ذلك لأنّ محاولة فهمها ستقضي عليها، بل تعلّم

كيف تقبلها بوصفها أشياء غامضة.

الجواب:

أوّلاً: إنّ الذين يؤمنون بالله إذا اقتنعوا بإيمانهم اقتناعاً عقليّاً وفطريّاً ووجدانيّاً فإنّهم يقبلون ما يترتب عليه، وهذا أمر طبيعي.

فمثلاً: حينما نؤمن بأنّ هنالك نظاماً في دولة من الدول، وأنّ هنالك قوانين لابدّ من احترامها، وأنّ هذا النظام له شرعيّته بسبب انتخاب الناس له، وأنّ هنالك إدارة للدولة عن طريق انتخاب الناس لمن يمثّلونهم فيها، إذا قبلنا هذا الأمر فلابدّ أن نقبل بمتطلّبات ذلك ومنها: أن نحترم هذا الشرطي الموجود في الشارع، وذلك القاضي في تلك المحكمة، وندفع الضرائب التي علينا.

إنّه من الطبيعي أن يقال لك بأنّ صاحب القانون في الدولة سوف يطلب منك أشياء معيّنة، كأن تحترم غيرك من الذين يعيشون معك في الوطن، وهذا بالطبع من نتائج الإيمان بوجود قانون في هذا البلد ووجود نظام سياسي وإداري معيّن، فشرطي المرور مثلاً يمثّل قسم الشرطة، والشرطة جزء من وزارة الداخلية، ووزارة الداخلية جزء من رئاسة الوزراء، ورئاسة الوزراء جزء من النظام السياسي القائم الذي انتخبه الناس.. فلابدّ من إطاعة هذا الشرطي كنتيجة لقبولك للنظام السياسي، فهل في ذلك شيء من الخطأ؟

ثانياً: نحن نؤمن فعلاً بأنّ هنالك حياة بعد الموت، ما الضير في ذلك؟ فهل الإيمان بالحياة بعد الحياة جريمة حتّى يستدلّ الملحدون به على عدم وجود الله عزّوجلّ، لأنّ من مستتبعات الإيمان بالله هو الإيمان بالحياة بعد الموت!

كيف يعتبر الملحدون الإيمان بالحياة بعد الموت، جريمة لابدّ أن نتنكّر لها؟ مع أنّنا نرى أنّ الحياة بعد الموت موجودة في الجمادات، ففي كلّ شتاء تموت الأرض وفي كلّ ربيع تحيا الأرض من جديد. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم: ٢٤.

لقد رأينا كيف أنّ النطفة تتشكّل في داخل الرحم، ثمّ تنتهي مرحلة الرحم ويُولد الجنين في هذا العالم، وكما أنّ الجنين لو أُعطي الوعي والفهم وهو في رحم أمّه، وقيل له بأنّ هنالك حياة بعد خروجك من هذا الرحم، فإنّه ربّما ينكر ذلك، لكنّنا نعرف أنّ هذه حقيقة.

ثالثاً: نحن نؤمن بأنّ من يموت إن كان مجرماً يدخل النار، وإن كان صالحاً يدخل الجنّة، نعم هذا هو الثواب لكلّ شخص صالح وليس فقط لمن يموت شهيدًا!

كما نؤمن بأنّ من يدخل الجنّة يستمتع بالحور، وما الضير في ذلك؟

ثمّ إنّ الإيمان هو أهمّ العبادات، هذا صحيح، فحينما يكون هنالك ربٌّ قائم على الكون، قيّومٌ على ما خلق، مهيمن على كلّ ما سواه، وأنّ العباد حينما يموتون يذهبون إليه، فيجازي المحسن إحساناً والمسيء عذاباً، فإنّ الإيمان بالله سيكون إذن أهمّ أنواع العبادة، ولكن لا نطلب الإيمان بدون أدلّة.

فمن قال لكم إنّ المؤمنين بالله يطالبون الناس أن يؤمنوا بدون دليل؟!

ومن قال إنّ المؤمنين يتميّزون بأنّهم يؤمنون بأشياء لا أساس لها؟

بالعكس تمامًا، إنّهم يؤمنون بأشياء لها كلّ الأساس، منها: أنّهم يقولون بما أنّ الله عزّوجلّ قد خلق هذا الكون كلّه بلحظة إرادة؛ فإذن يمكنه أن يقوم بأعمال تكون في غاية الغرابة بالنسبة إلينا، أي بأمور نحن غير قادرين على فعلها، كما أنّنا لا نستطيع بلحظة إرادة أن نخلق قطعة ورق أو قطعة خشب، بينما ربّ العالمين خلق هذا الكون كلّه بلحظة إرادة، كذلك هو قادرٌ على أن يفعل أشياء غريبة في نظرنا القاصر، مثل وجود الجنّة والنار، ووجود الحياة بعد الموت، والقيامة والصعود إلى السماء.

أمّا الثالوث فهو غير مقدّس عندنا، بل نؤمن بالله الواحد الأحد، ونؤمن أنّ ما سوى الله هو مخلوق لله بشراً كان أم حجراً أم مدراً أم نهراً.

◂ التلقين.. استهانة بالعقل واستقلاليّة الفكر

يقول الملحدون: إنّ التربية و(التلقين) وليس العقل هما السبب في إيمان الناس بالدين، بدليل أنّك لو كنت متديّناً فالاحتمال الأكبر أنك تكون على دين آبائك، فلو ولدت في ولاية اركنساس (Arkansas) بالولايات المتحدة الأمريكيّة ستفكّر بأنّ المسيحيّة هي الدين الحق، وأنّ الإسلام كذبة كبرى، ولكن لو أنّك ولدت في مكة فإنّك ستكون ضحيّة (التلقين الديني) منذ مرحلة الطفولة إلى الكهولة، وستُلقّن بأنّ الإسلام هو الحق وأنّ غيره من الديانات كذبة كبرى، فأنت إذن ضحيّة (التلقين الديني) في مرحلة الطفولة، سواءً في ولاية اركنساس أو مكة[1].

الجواب: قد يكون ذلك في بعض الجزئيّات صحيحاً، ولكن هل معنى ذلك أنّ الدين بشكل عام هو نتيجة (التلقين)؟ مع أنّنا نرى بأنّ غالبيّة الذين يؤمنون بالدين يؤمنون به إيماناً حقيقيّاً وليس نتيجة (للتلقين).

والسؤال الأهم: هل (التلقين) يجبر الإنسان في كلّ مراحل حياته -منذ بداية الشباب إلى الشيخوخة- على أن يبقى متديّناً، لأنّه تلقّى بعض (التلقين) في صغره؟

إذا كان كذلك لم يكن باستطاعة الناس أن يتطوّروا في أيّ مجال من مجالات الحياة، لأنّ آباءهم كانوا يعيشون في الكهوف والغابات، ويلقّنون أبناءهم تربية تتناسب مع الحياة في الكهوف والغابات، فكان لابدّ أن يستمروا على ما كان عليه آباؤهم، كنسخ متكرّرة من جهاز الاستنساخ لاتتغيّير ولا تتطوّر، وهذا غير صحيح.

إنّ باستطاعة الإنسان أن يتجاوز ما تلقّاه في طفولته، وهذا ما يفعله الناس، فليس تديّن كلّ إنسان بسبب ما تلقّاه في صغره.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٦.

وليس ادّعاء الملحدين بأنّ (التلقين) سبب إيمان الناس بالديانات إلّا استهانا بالإنسان وباستقلاليّة الفكر وإلغاء لوجود العقل الذي يرجع إليه الناس في أمورهم في شتّى المراحل، خاصّة وأنّ كلّ إنسان يحاكم نفسه عمّـا جرى عليه في مرحلة الطفولة، ويغيّر الكثير من أفكاره الطفوليّة وعاداته وتقاليده، فلماذا حينم يرجع الأمر إلى الدين تقولون إنّ هذا سببه (التلقين) في طفولة المؤمنين؟

وأنا أسأل: هؤلاء الملحدون الذين يُلقون المحاضرات ويكتبون الكتب ويشجّعون الناس على الإلحاد، ألم يكن لهم آباء وأمّهات على دين معيّن، وعلى طريقة معيّنة، فكيف إذن خرجوا شذوذاً من القاعدة وتركوا الدين، وهل هناك عبقريّة خاصّة يتمتّع بها هؤلاء دون غيرهم؟!

الإلحاد قائم على التلقين أيضاً

يقول الملحدون: إنّ العقائد الدينيّة قائمة على (التلقين)، فباعتبار أنّ الطفل منذ أن يُولد في بيئة دينيّة يجد من يلقّنه معتقداته الدينيّة سواء أبوه وأمّه أو المحيط، من إيمانه بوجود الله إلى إيمانه ببعثة الأنبياء وحينما يكبر فإنّه سيؤمن بوجود الله بسبب (التلقين) الذي تلقاه في صغره، وليس بسبب العلم.

الجواب: الإلحاد أيضاً هو بسبب (التلقين)، واحترام الناس للقوانين بسبب (التلقين)، بل العلوم كلّها قائمة على (التلقين).

(التلقين) هو أسلوب من أساليب التعليم والتربية، فلا يصحّ أن يلغي أحد كلّ ما يأتي به (التلقين)، فقط لأنّه جاء عن طريق (التلقين).

إنّك تلقّن ابنك الكلام فيتعلّم كيف ينطق، وتلقّنه الكتابة فيتعلّم كيف يكتب، وتلقّنه طريقة العمل فيعمل.

الإعلام اليوم قائم على (التلقين)، فالناس يُلقّنون بوجود قوانين وبوجود نظام سياسي في البلد، فيخضعون لذلك، وكل هذا (تلقين).

وكذلك يفعل الملحدون، فمن يولد في بيئة ملحدة يكبر على الإلحاد بسبب (التلقين)، فلماذا تلقينكم بالإلحاد صحيح، وتلقين المؤمنين بالدين باطل؟

إنّ الأخلاقيّات قائمة على (التلقين) وهذا أمر جيد. وهذا يعني أنّ (التلقين) في المجال الجيد هو تلقين جيد، وفي المجال السيّء هو تلقين سيّء. أنت حينما تتحدّث حول التدخين مثلاً في الإعلام، وتدعو الناس إلى الامتناع عن التدخين باعتباره مضرّاً تقوم بعملية (التلقين)، وهو من نوع التلقين النافع.

أمّا أن يأتي شخص ويقول: يا أيّها الناس! لا تتركوا التدخين، بل دخّنوا، وتعودّوا على التدخين، لأنّ الذين يتركون التدخين إنّما يفعلون ذلك بسبب (التلقين)، أو يقول أحدهم: لا تلتزموا بالقوانين لأنّ القوانين إنّما أصبحت مقدّسة بسبب (التلقين)، ولا تلتزموا بالقواعد الأخلاقيّة، لأنّ الناس آمنوا بها بسبب (التلقين) فهذا تلقين سيّء.

نحن نعرف أنّ هؤلاء حينما يتحدّثون عن (التلقين) في القضايا الدينيّة ربّما يريدون القول بأنّ الإيمان ليس من القضايا الوجدانيّة، وإنّما هي طارئة على فطرة الإنسان وهذا غير صحيح، لأنّنا نتساءل حينئذ عن أوائل من آمنوا بالله وبدؤوا (التلقين) به، لماذا بحثوا عن وجود الرب؟

لماذا كان الإنسان على مرّ التاريخ يتساءل عمّن خلق الكون؟

أليس لأنّ ضميره كان يدفعه إلى ذلك؟

أليس لأنّ العقل الإنساني يقول له إنّ كلّ ما هو مصنوع فله صانع، وكلّ من هو مخلوق فله خالق؛ فمن خلق الكون، ومن خلق الإنسان؟

أليس العقل والضمير والوجدان والفكر السليم كلّها تؤكّد للإنسان: أنّ هذا الكون العظيم وراءه حكمة وعلم وقدرة، ألا ترى أنّك إذا وجدت بيتاً مبنيّاً بشكل رائع تبحث عن ذلك المهندس المبدع الذي وضع تصاميمه، وحتماً لن تقول بأنّ قرداً لا يفهم ولا يعقل هو الذي صنعه؟ نحن بوجداننا بحثنا عن وجود الله، وذلك بسبب إيحاءات الضمير والوجدان وليس بسبب (التلقين).

نعم (التلقين) فيما بعد أمر طبيعي، فأنت حينما تكتشف أمراً صحيحاً تلقّن أولادك به، فما المانع من ذلك؟ هل لأنّك تلقّن طفلك هذا الإيمان يصبح باطلاً؟!

وعلى كلّ حال فإن الإيمان بوجود الله عزّوجلّ إنّما يأتي أوّلاً من خلال أوامر العقل، وإيحاءات الوجدان، وإثارة الضمير وليس (التلقين) إلّا لتثبيته فيما بعد.

◂ التلقين وانتهاك حقوق الطفل.

يقول الملحدون: إنّ المتديّنين يمارسون (التلقين)، خاصّة بالنسبة إلى الأطفال، وهذا خطأ فادح، يقول الطبيب النفسي نيكولاس هامفري (Nicholas Humphrey): «إنّ التعليم الدينيّ والأخلاقيّ للأطفال، وخاصّة ما يحصل عليه الأطفال في المنزل، حيث يُسمح للأهل أن يقرّروا لأطفالهم ما هو الحقّ وما هو الباطل، وما هو الصحيح وما هو الخاطئ، أمر غير مقبول لأنّ للطفل حقّه الإنساني بأن لا يتم إعاقة عقله بتعريضه لأفكار مؤذية للآخرين كائناً من يكونوا، فالأهل لا يملكون رخصة إلهيّة لحشو أولادهم بأفكارهم الشخصيّة، ولا حق لهم بالحد من أفق المعارف لأطفالهم، وتربيتهم في بيئة من العقائد والغيبيّات، أو الإصرار عليهم بأن يتبعوا نفس الصراط لمعتقدهم الضيّق.

وباختصار؛ للأطفال الحق بأن لا تُحشى عقولهم بهراء لا معنى له، ومن واجبنا كمجتمع أن نحميهم من هذا. وبالتالي يجب علينا ألّا نسمح للأهل بأن يلقّنوا أولادهم -على سبيل المثال- الإيمان بحرفيّة الكتاب المقدّس، أو بأنّ الكواكب تؤثّر على حياتهم، تماماً كما لا نسمح لهم باستخدام العنف ضدّ أطفالهم أو حبسهم في زنزانة»[1].

الجواب: من حقّ الآباء أن يعلّموا الأطفال ما هو الحقّ وما هو الباطل، وما

(١) من محاضرة له بعنوان: ماذا يجب أن نقول للأطفال؟.

هو الخير وما هو الشرّ، وما هو الصحيح وما هو الخاطئ. بل هذا واجبهم أيضاً، فلو منعنا الآباء من تعليم أطفالهم ذلك لارتكب الأطفال بحقّ أنفسهم أخطاء مميتة.

كيف يسمح الملحد لنفسه بأن يُطالب الآباء بأن لا يعّلموا أطفالهم الصحّ والخطأ، وهل الملحدون لا يأمرون أولادهم بشيء ولا ينهونهم عن شيء؟ هل إذا وجدوا أنّ الطفل الذي لا يتجاوز عمره العشر سنوات قد حمل سكيناً وهجم على أخته، ألا يقولون له بأن هذا العمل خاطئ، أم أنّهم يتركونه حتّى يرتكب الجريمة بنفسه؟

ثمّ إنّ الأطفال حتّى لو لُقّنوا في طفولتهم أيّ شيء، فإنّهم إذا كبروا فإنّ باستطاعتهم أن يبدّلوا ويتغيّروا، بدليل أنّ الملحدين دائماً يشيدون بأولئك الذين تمرّدوا على عقائد عوائلهم، وتركوا الإيمان بالله وهم كثيرون كما يزعمون. فلماذا يخافون من هذا (التلقين) حسب تعبيرهم، إذا كان باستطاعة الطفل إذا كبر أن يتخلّص منه؟

وفي الواقع فإنّ الملحدين إنّما يريدون الادّعاء بأنّ الإيمان إنّما هو نتيجة (التلقين) وليس نتيجة العقل، بينما الأمر ليس كذلك قطعاً.

تُرى لو علّم الأبوان أطفالهم بأنّ هنالك ما هو صحيح وما هو خطأ، كأن يعلموهم بأنّ الصدق صحيح والكذب خطأ، فهل حينما يكبر الطفل على الصدق، وقد قال له أبوه إنّ الصدق أمرٌ صحيح وإنّ الكذب أمر خاطئ، يكون ما لقّنه أبواه خطأ، وأين الإشكال لو قالا له إنّ الصدق صحيح وإنّ الكذب خطأ؟

ألا يحتاج الأطفال إلى أن يتعلّموا، وأن يذهبوا إلى المدارس، وأن يحترموا المعلّمين، ويحترموا العلم، وأن يتعلّموا القراءة والكتابة؟

أليس من حقّ الآباء بل من واجبهم أن يربّوا الأولاد على الأخلاقيّات الصالحة، مثل الوفاء والتعاون؟

هل صحيحٌ أن نقول إنّ الذي يؤمن بأنّ الصدق صحيح هو نتيجة (التلقين)

وليس نتيجة العقل، لأنّ أبواه قالا له في يوم من الأيام إنّ الصدق صحيح وإنّ الكذب خطأ؟

كيف يصادر الملحدون عقول أنفسهم ويستهزئون بما عليه الناس الصالحون في الحياة، وكأنّ تلقين الأمور الأخلاقيّة خطأ، وإنّه لابدّ أن نترك الأطفال ليفعلو ما يريدون وما يشاؤون!

لقد أُجريت تجربة في بريطانيا، في مجال التعليم، حيث تمّ تأسيس مدرسة لا يُجبر التلاميذ فيها على التزام منهج معيّن، ولا على التقيّد بأيّة قواعد وأصول، بخلاف المدارس الأخرى التي لها قوانينها، وقواعدها وأصولها.

فالتجربة كانت قائمة على إلغاء القوانين، وسُمح للأطفال أن يقرّروا م يريدون. وكانت التجربة فاشلة جدّاً، حيث انتهت بعدم تعلّم الأطفال للدروس، والتجرّؤ على ارتكاب الجرائم، فقد خرّجت هذه المدرسة أطفال شوارع مجرمين، ونزلاء السجون. فكيف ينادي الملحدون بعدم تلقين الأطفال ما هو الصح وم هو الخطأ؟

نعم، إنّ مشكلة هؤلاء هي مع الإيمان بالله، فهم يرون أنّ من حق الآباء أن يلقّنوا الأبناء أيّ شيء ما عدا الإيمان بالله، مع العلم أنّ تلقين الإلحاد عند الملحدين أشدّ وأفظع من أيّ تلقين آخر.

فخلال فترة الحكم الشيوعي في الاتّحاد السوفيتي السابق، وفي أوربا الشرقيّة وفيتنام وكومبوديا، حيث ارتكبت الفظائع بحق المتديّنين كان (التلقين) هو سلاح الملحدين الأوّل للأطفال والكبار في كلّ مكان، ولا يزال الأمر كذلك في الصين وكوريا الشماليّة، إنّ (التلقين) مستمرّ من قبل الآباء، والمعلّمين، والمسؤولين الحكوميّين في كلّ مراكز الدولة، ويتمّ تلقين الأطفال الإلحاد، ولكن لا أحد من الملحدين يرفع صوته ويدين هذا (التلقين)، هنا تلقينهم لا بأس به! فهم يرون أنّ تلقين الملحد لأولاده بالإلحاد ليس انتهاكاً لحقوق الأطفال، أمّا تلقين المؤمن لأطفاله بالإيمان فهو انتهاك لحقوق الأطفال! هذا هو منطق الملحدين.

علم الغائيّة

◂ الفطرة وعلم الغائيّة

يقول الملحدون: الأطفال يؤمنون إيماناً غائيّاً فهم يؤمنون بالغايات، ولذلك تجد أنّ الطفل يسأل: لماذا تكون الغيوم في السماء؟

الجواب: لأجل المطر.

لماذا هنالك صخور مدبّبة في الأرض؟

الجواب: لكي تستطيع الحيوانات أن تفرك جلدها بها.

لماذا هناك شمس؟

لكي نرى الأشياء في النهار.

فتعيين الغرض الوظيفي لكلّ شيء يسمّى علم الغائيّة (Teleology). فالأطفال غائيّون بالفطرة ولكن بعض الناس يكبرون فتنمو عقولهم ويلغون فكرة الغائيّة، وبعضهم لا يلغي الغائيّة، أي أنّ الإيمان بوجود الغايات هو إيمان طفولي، إذن فالإيمان بوجود غاية للحياة موروث من الطفولة.

الجواب: إنّ الإجابة على هذا الكلام تكمن في تعابير الملحدين أنفسهم. فهم يقولون: الأطفال غائيّون بالفطرة. نعم! يُولد الإنسان وفي داخله ما يرشده إلى الخير أو الشر، وإلى الصح أو الخطأ، إلّا إذا تربّى تربية خاطئة. فالطفل بفطرته يتبع الحق ولذلك فإنّه لا يسرق، ولا يكذب، فهو بريء ليست له نيّات شرّيرة،

والطفل أيضاً يؤمن بالغاية من وجود الأشياء.

أمّا أنّ بعض الناس تبقى لديهم هذه الطريقة في التفكير، أي يبقون مؤمنين بفكرة الغائيّة، فهذا طبيعي بالنسبة إلى الناس سليمي الفكر والروح والعقل والضمير.

الغائيّة الفطريّة مصدر الإيمان

يربط الملحدون بين الإيمان والغائيّة الطفوليّة، ويقولون: إنّ ما نراه من إيمان لدى الكبار إنّما هو مرتبط بطفولتهم، فقد كانوا يبحثون عن الغايات وكان الجواب الذي يسمعونه منذ الصغر هو: الله.. فكانوا إذا سألوا سؤالاً، يُقال لهم: الله خلق هذا.. الله أوجد هذا.. الله اختار هذا.. ولذلك فإنّهم حينما كبروا لم يستطيعوا الانفكاك عن الغائيّة الطفوليّة.

إنّ الغائيّة الطفوليّة تهيّئنا للتدّين، فإذا كان لكلّ شيء هدف وغاية فلمن ترجع كلّ هذه الأهداف والغايات؟ بطبيعة الحال سيكون جواب المؤمنين هو: الله..

الجواب: إنّ نسبة الإيمان والتديّن إلى الطفل لإسقاط قيمته باعتبار أنّه يرتبط بالحالة الطفوليّة، مجرّد ادّعاء والهدف منه إسقاط الفكرة تماماً.

تُرى، لو قال أحدٌ ما: إنّ الأطفال لا يحبّون قتل الطيور، ولا قطع الأشجار بدون سبب، وهذه حالة طفوليّة، نعم يكبر بعض الناس ولا يحبون العدوان على الطبيعة لأنّهم ورثوا ذلك من طفولتهم، فهل معنى ذلك أنّ علينا أن نقتل الطيور، وأن نعتدي على الطبيعة التي خلقها الله وأن نقطع الأشجار بدون سبب؟!

أو أن نقول: إنّ الأطفال لا يحبّون قتل الأطفال من أمثالهم وهذه حالة طفوليّة إذن حينما نكبر علينا أن نقبل بفكرة قتلهم؟!

الكتب المقدّسة

وجود الله شيء وما نُسب له شيء آخر

يقول الملحدون: إنّ الكتاب المقدّس بشقّيه العهد القديم والجديد يتضمّن أحكاماً قاسية بالنسبة إلى بعض الشعوب، فحتّى المسيحيّة والسيد المسيح -الذي هو تطوّر كبير فيما وعظ به وما قاله عن التوراة والتي يبدو فيها الإله قاسياً- حتّى السيد المسيح هذا هو رحيم لداخل جماعته، وليس كذلك بالنسبة إلى من هم خارج جماعته.

ويستفيضون كثيراً في الحديث عمّا جاء في هذين الكتابين، ويمكن القول بأنّهم يقومون بتشريح هذين الكتابين تشريحاً سيّئاً، لإظهار أنّ الدين ليس أخلاقيّاً وأنّه يدعو إلى القسوة، ويذكرون قصصاً وكلمات مبعثرة في هذا المجال.

الجواب:

أوّلاً: ذكرنا سابقاً أنّ الحديث عن وجود الله شيء، والحديث عمّا نُسب إلى الله شيء آخر، ولكن حينما يعوز الملحدين الدليل على إنكار وجود الله، يذكرون كلمة هنا وكلمة هناك لا ارتباط لها بمسألة وجود الخالق، ليستدلّوا بها على عدم وجوده.

مثلاً ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) في كتابه وهم الإله (The God Delusion) يذكر قضايا جانبيّة بالتمام والكمال ولا ارتباط لها بوجود

الله تعالى وليستند إليها في إنكار وجود الخالق.

ثانيًا: إنّ الكتاب المقدّس مورد تساؤل حتّى لدى المسيحيّين، أمّا بالنسبة للمسلمين فهم يؤمنون بالقرآن الكريم، والذي تطرّق إلى كلّ ما في التوراة والإنجيل ولكن بصورته الحقيقيّة، يعني إذا كان في التوراة أنّ النبي يعقوب عليه السلام تصارع مع ربّه، فصرعه وجلس على صدره، ولمّا طالبه الربّ بأن يقوم من مكانه لكي يدير شؤون الكون قال: لا أبارحك حتّى تباركني، فاضطرّ ربّه أن يجعله نبيّاً[1]، فهذا غير وارد في القرآن تمامًا، إنّما أنبياء الله عليهم السلام عباد مكرمون، والله يكلّفهم بتبليغ الرسالة ويعصمهم من الزلل، وهكذا في كثير من الموارد، فإنّ أكثر من مليار ونصف من البشر يؤمنون بالقرآن الكريم ولا يؤمنون بالتوراة ولا بالإنجيل الموجودين حاليّاً. بل حتّى بعض المؤمنين بهما ربّما يشكّكون في بعض ما ورد فيهما، ولكنّهم لا يشكّون في وجود الله تعالى.

أي أنّهم يقولون لعلّ بعض الكلام الوارد في الكتاب المقدّس ليس صحيحاً، لأنّ الإنجيل أساساً لا يُنسب إلى السيّد المسيح عليه السلام شخصيّاً، إنّما هي مجموعة أناجيل كتبها أشخاص آخرون والخطأ بالنسبة لها وارد.

القدسيّة.. بين الكتاب وما جاء فيه

يقول الملحدون: «إنّ المتطرّفين يؤمنون بأنّهم على حقّ لأنّهم قرؤوا الحقيقة في كتاب مقدّس، ويعرفون مقدّماً بأنّه لا شيء يمكن أن يحرفهم عن إيمانهم. الحقيقة في كتابهم المقدّس تعتبر من البديهيّات وليست نتيجة برهان عقلانيّ. الكتاب على حقّ وعندما تبدو الأدلّة وكأنّها تناقضه فعندها يجب رفض الأدلّة، وليس الكتاب.

وعلى العكس من ذلك فإنّ ما أؤمن به كعالم وعلى سبيل المثال (نظرية التطوّر) فإنّ ما أؤمن به ليس لأنّني قرأت كتابًا مقدّسًا، بل

(١) راجع سفر التكوين ٣٢: ٢٤-٣٠.

لأنّني درست الأدلّة، وهذا موضوع مختلف تماماً.

إنّ الإيمان بكتب التطوّر لا يأتي من كونها مقدّسة، بل لأنّها تقدّم أدلّة كثيرة ومسندة بشكل دامغ»[1].

الجواب: هل إنّ المؤمنين بالله تعالى وبالأنبياء والرسل عليهم السلام، إنّما آمنوا لأنّهم وجدوا ذلك في كتاب مقدّس، أم أنّهم آمنوا أوّلاً، ثمّ بحثوا عن الكتاب المقدّس؟

لماذا الكذب والدجل؟!

أليس في الكتب المقدّسة أدلّة عقلانيّة، وبراهين منطقيّة، وآيات وجدانيّة تدفع الشخص إلى الإيمان بالله؟

ثمّ من أين جاء الإيمان بالكتاب المقدّس؟ وأيّهما سبق الآخر؛ الإيمان بالكتاب المقدّس ثمّ الإيمان بما جاء فيه، أم الإيمان بما جاء في الكتاب المقدّس ثمّ الإيمان بأنّه مقدّس؟

لا شكّ أنّ الذي يعتبر كتاباً ما مقدّساً إنّما آمن بذلك عن قناعة، وإلّا فمن يفرض عليه الإيمان بالكتاب المقدّس؟

وكما أنّ الملحد كان مختاراً في أن يؤمن أو لا يؤمن، وقد اختار الإلحاد ،كذلك المؤمن كان مختاراً، ولم يكن مؤمناً في البداية، ولـمّـا وجد الأدلّة على الإيمان آمن بها، فلماذا يتّهم الملحد المؤمنين بالله أنّهم لا يتّبعون الأدلّة، وأنّهم إذا وجدوا دليلاً مقنعًا يضربون بالدليل عرض الحائط، ويؤمنون بالكتاب المقدّس؟!

نعم.. أحيانًا يكون الشخص مؤمنًا بكتاب معين وبشخص معين، وإذا لم يفهم شيئاً يتّهم فهمه، وليس ذلك الكتاب، أو الشخص.

وهذا مثل من يذهب إلى طبيب معيّن، ويعرف سلفاً أنّه طبيب حاذق، فإذا أمره بشيء ولم يعرف سببه، أو أعطاه دواءً ولم يعرف ضرورة أخذ ذلك الدواء، ولا كيفيّة عمله في جسمه، فهو يتّهم نفسه وليس الطبيب.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٨٥.

فهذا قد يكون وارداً بالنسبة لمن يؤمن بالكتب المقدّسة، لكن اتّهام جميع المؤمنين بأنّهم يجدون أدلّة كثيرة دامغة ضدّ كتابهم المقدّس، لكنّهم مع ذلك يتشبّثون به، إنّ هذا الاتّهام هو اتّهام تعسفي..

فهل هنالك من يجبرهم على ذلك؟

وكيف يكون الأمر يسمّيه الملحدون بالوهم، مقنعاً لمئات الملايين من الناس، وفيهم كبار العلماء والأطباء وأصحاب الفكر، وهل العلماء هم فقط الذين يلحدون، وهم أقلّ الأقليّة؟!

إن الملحدين في العادة يمدحون أنفسهم كثيراً!

يقول أحدهم: أنا بصفتي عالماً!

وهل أنت الوحيد من العلماء في هذا الكون؟ أليس هنالك أستاذة جامعات، ومؤسّسون لمراكز علميّة، ومحقّقون، ومَن حصلوا على أرفع الشهادات في العالم وهم يؤمنون بالله؟

أم أنّ كلّ من تعلّم أصبح بالضرورة ملحدًا؟

ما لكم كيف تحكمون؟!

أمّا (نظريّة التطوّر) فقد سبق وأن بيّنا أنّها لا تزال في إطار النظريّة، وهنالك ألوف من العلماء الذين يرفضونها ليس من منطلق ديني، ولا لأنّ هذه النظرية تناقض الكتاب المقدّس، وإنّما من منطلق علمي بحت.

وأنا شخصيّاً ناقشت هذه النظريّة في كتاب لي[1]، ولم أستشهد فيه بالآيات القرآنيّة، ولا بنصوص من التوراة والإنجيل، ناقشته من حيث الأدلّة العلميّة، وليس لأنّه يناقض كتابي المقدّس، وأعلن لكلّ من يدّعي بأنّ المؤمنين يردّون نظريّة التطوّر لأنّها تناقض كتابهم المقدّس، أعلن لهم بأنّني أتحدّاكم أن تثبتوا ذلك.

ثمّ إنّ المنصف إذا قرأ القرآن الكريم يعلم أنّ فيه آيات كثيرة تذكّر بالحقائق

(١) راجع كتاب: (تهافت النظرية الداروينيّة وسقوط النظريات التابعة) للمؤلف.

العقليّة، وليست آيات تعبّديّة، حتّى يقول الملحد إنّنا نستدلّ بالنصّ دون العقل، وكلّ ما يشير إليه القرآن حول الخالق وتوحيده هو من هذا القبيل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]. فهو يذكّر بهذه الحقيقة التي يستفيق لها كلّ عاقل لدى التذكّر بها، وأمثالها بالمئات.

◂ بين العملة المزيّفة والعملة الحقيقيّة

يقول الملحدون: لو أنّنا نظرنا إلى كتاب التوراة فإنّنا نجد فيه الكثير من ارتكاب العنف والقتل، وحتّى ارتكاب الزنا مذكور في هذا الكتاب. كما أنّ الكثير من هذه الأمور تأتي على شكل أوامر مباشرة من الله. وربّما نجد مثل ذلك أيضاً في الإنجيل، وليس فقط في التوراة، أي العهد القديم والعهد الجديد.. إذن فهذه الكتب تحرّض على أفعال مرفوضة من العقل، وتخالف الأخلاق فكيف نسمح لأنفسنا بقبول هذه التعاليم الواردة في هذه الكتب؟

الجواب: إنّ الدين لا يتلخّص في الكتاب المقدّس، سواء في العهد القديم أو العهد الجديد، ولا المتدينون هم بالضرورة فقط المسيحيّون، وبالنسبة إليّ فإنّ النصّ المقدّس الذي أعتمده هو القرآن الكريم، فهل يجد الملحدون أيّة أمور مما يُنسب إلى الله تعالى في العهد القديم أو الجديد في القرآن الكريم؟

هل هنالك في القرآن أوامر بقتل الأبرياء؟

هل في القرآن أوامر بقتل الأطفال؟

هل في القرآن أمر بالزنا؟

إنّنا نرفض كلّ ما يمسُّ الأنبياء والرسل عليهم السلام في أيّ كتاب جاء، ونعترض على بعض ما جاء في التوراة والإنجيل، ونعتقد أنّ النص الصحيح هو ما جاء في

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

القرآن الكريم، وليس ما هو موجود في التوراة أو الإنجيل. فلنناقش هذا النصّ، وهذا الدين الذي نعتقد أنّه أكمل الديانات وأنّه صحّح الحقائق التي تمّ تحريفها في الكتب الأخرى.

وفي مقارنة بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن الكريم يتبيّن الفرق بين العملة المزيّفة والعملة الحقيقيّة:

ففي قصّة موسى عليه السلام جاء في التوراة أنّ هذا النبي ذهب إلى أعلى جبل سيناء، ليناجي ربّه ويأخذ منه الألواح المنقوشة من قبله، وكان الناس في الأسفل فلم يضيّعوا الوقت. بل طلبوا صنع الأصنام وكما جاء في سفر الخروج:

«وَلَـمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُم اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ»(١).

وبحسب التوراة فإنّ هارون عليه السلام أمر الجميع بأن يُخرجوا كلّ ما لديهم من ذهب، ثمّ أذابه وصنع منه العجل الذهبي، وبنى مذبحاً إلى جنب هذا الإله حتّى يبدأ الناس بالتضحية له.

«فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَائْتُونِي بِهَا، فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ، فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ». فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ»(٢).

وموسى عليه السلام سارع بالنزول من الجبل، حاملاً الألواح الحجريّة التي نُقشت

---

(١) سفر الخروج ٣٢: ١.

(٢) سفر الخروج ٣٢: ٢-٦.

عليها الوصايا العشر، وعندما رأى العجل الذهبي غضب لدرجة أنّه أوقع الألواح من يده وتحطّمت، ثمّ أمسك بالعجل الذهبي وأحرقه، وطحنه إلى رماد وخلطها بالماء وأرغم الناس على ابتلاعه.

«فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ»(١).. «وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ، وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»(٢).

ثمّ قال للجميع أنّ عليهم أن يستلّوا سيوفهم ويقتلوا أكبر عدد ممكن من الناس، ووصل العدد لحوالي ثلاثة آلاف، وبعد ذلك كانت الضربة الأخيرة بإرسال الطاعون على من بقي من الناس.

«فَقَالَ لَهُمْ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ». فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُلٍ»(٣).

هذا النصّ والتفاصيل في التوراة يختلف تماماً عمّا في القرآن، ذلك أنّ القرآن الكريم يذكر أنّ الله واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمّها بعشر فيقول عزّوجلّ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(٤)، وحينما أبطأ موسى عليه السلام في المجيء قال بعض الناس لهارون عليه السلام: اصنع لنا إلها كما لهم آلهة، ورفض هارون عليه السلام ذلك، ونصحهم بعدم الشرك بالله وانتظار مجيء موسى عليه السلام، لكن رجلاً اسمه السامري استغلّ رغبة أولئك في أن يروا إلهاً

---

(١) سفر الخروج ٣٢: ١٥.

(٢) سفر الخروج ٣٢: ١٩-٢٠.

(٣) سفر الخروج ٣٢: ٢٧-٢٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٢.

ماديّاً فجمع الذهب منهم وأذابه، وصنع منه عجلاً جسداً له خوار.

يقول عزّوجلّ:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾[1].

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾[2]

وحاشا للنبيّ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصنع صنماً يُعبد مِن دون الله تعالى، بل فعَله السامري، وحينما جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أحرق العجل وذرّ رماده في البحر، ولم يُجبر أحداً على أن يأكل من رماد ذلك العجل، ثمّ أمر الله أولئك القوم أن يقتلوا أنفسهم، وليس غيرهم، لكنّه عفا عنهم ولم يذكر القرآن الكريم أنّ أحداً منهم قُتل بل قال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

---

(١) سورة طه: ٨٣-٩١.

(٢) سورة طه: ٩٥-٩٧.

(٣) سورة البقرة: ٥٤.

هل في هذه القصّة حسب ما جاء في القرآن الكريم من غرابة؟!

أليس من الطبيعي أن يتعرّض الناس للامتحان؟

لقد نجح بعضهم وفشل آخرون، فعندما ذهب نبيّهم إلى الطور لمناجاة الربّ لكي يأتي بأوامره المنظّمة لشؤونهم ولكنّه أبطأ عنهم عبد بعضهم العجل وليس كلّهم.

هذا يحدث في كلّ الديانات، وفي كلّ الثورات، ومع كلّ الإصلاحيّين حتّى من الملحدين؛ فعندما يغيب الزعيم والقائد وحامل الراية ينقلبون على أنفسهم.

ونستطيع القول إنّ ذلك حدث مع كلّ الأنبياء عليهم السلام، كما حدث مع كلّ الثورات، حتّى سرت المقولة المعروفة: الثورة تأكل أبناءها.

إنّك ترى أحياناً حركة معارضة تنادي بالعدل وبالحريّة، ولكنّها عندما تنتصر تنقلب على نفسها، فتمارس الظلم والطغيان كما فعل الذين سبقوهم. هل هذا يعني أنّ الدعوة للإصلاح خطأ، والمطالبة بالعدالة خطأ، والسعي للحريّة خطأ؟

الدين صحيح لكن أحياناً ينقلب الناس عليه وعلى ما جاء به من المثل والقيم، وأحياناً يستغلّ بعض الأشرار الدين للتغطية على آثامهم، كما يفعل الملحدون حيث نجد أنّهم يستغلّون بعض النصوص الواردة في التوراة لضرب الدين من أساسه.

مثلاً يقول هؤلاء: «إنّ التصفية المذهبيّة للشعوب التي بدأت في عهد موسى تصل أقصى دمويّتها في سفر يوشع، سفر يتميّز بمذابحه المتعطّشة للدماء والحقد على الآخر الذي يتوجّب ذبحه.. يوشع، وفي معركة أريحا، اهتزّت الحيطان ووقعت، ليس هنالك أحدٌ مثل يشوع الشيخ عند الإله في معركة أريحا. «**وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ**»[١]»[٢].

---

(١) سفر يشوع ٦: ٢١.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٤٨.

وأيضاً في مكان آخر في التوراة هنالك نصّ يقول: «**وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ**»[١].

ويستند الملحدون أيضاً إلى ما جاء في الكتاب المقدّس في سفر العدد، حيث يلاقي بنو إسرائيل شخصاً يجمع الحطب في الغابة في اليوم المحرّم العمل به -أي يوم السبت- فيوقفوه ويسألون الله ماذا يفعلون به؟ «**فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلاً يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». فَأَخْرَجَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ، فَمَاتَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى**»[٢]. يقول الملحدون هنا: ألم يكن لهذا الرجل المسالم زوجة وأطفال؟ ولماذا قتلوه؟

طبعًا في كلّ الديانات وكلّ القوانين تجد العقاب لمن يخالفها، ولكن العقاب في الدين الصحيح يتناسب مع الجريمة، وليس أكثر من ذلك. فلا يُقتل الرجل لأنّه عمل في اليوم المحرّم عليه العمل، يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾[٣] أي أنّ العقاب يتناسب مع الجريمة، بل القرآن يأخذ على الذين يكون عقابهم أشدّ من الجريمة ويقول: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾[٤].

ومرة أخرى نقول إنّ العملة المزيّفة ليست كالأصليّة، فمن أراد الحكم على الأديان فليحكم على الصحيح منها، أمّا التكلم بشكل تعميمي على أنّ الكتب المقدّسة ليس فيها شيء من الأخلاق أو الرحمة، مع خلط الصحيح منها بالمفترى، كلّ هذا هو تزييف للحقائق، وإلّا فإنّ من يعود إلى القرآن الكريم وما فيه يجد كيف أنّه يأسس لنظام اجتماعي قائم على مكارم الأخلاق.

إنّ عمل الملحدين يشبه أن يحكم المرء على كلّ الأطباء بالاعتقال لأنّ هنالك

---

(١) سفر التثنية ٢٠: ١٦-١٧.

(٢) سفر العدد ١٥: ٣٥-٣٦.

(٣) سورة المائدة: ٤٥.

(٤) سورة الشعراء: ١٣٠.

طبيب مزيّف، أو يخلط ما بين العملات المزيّفة والصحيحة، ثمّ يحكم على كلّها بالتزييف.

ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى

يقول الملحدون: بالإشارة إلى ما ذُكر في العهد الجديد -أي الإنجيل- من أنّ الإنسان بطبعه توارث الذنب من أبيه آدم الذي أكل من الشجرة المحرّمة عليه، يقولون بأنّ هذا الأمر فعلاً مستغرب باعتبار أنّ الخطيئة التي ارتكبها آدم كان يكفيها مجرّد عقاب بسيط وبعض التوبيخ، لكن تلك الخطيئة أصبحت أمّاً وأباً لكلّ ذنب ومعصية، وحُرم بنو آدم ونسل هذا النبيّ من جنّات عدن، ومنعت عنهم الحياة الأبديّة، ولعنوا لأجيال وحكم عليهم بالعمل الشاق في الحقول، وآلام الولادة بسبب خطيئة أبيهم، فلماذا كلّ ذلك الانتقام؟ ولماذا يستمرّ معنا كما هو الحال في العهد القديم؟

ويقول هؤلاء: إنّ العهد الجديد أضاف ظلماً آخر، لا يقارن حتّى بالعهد القديم، حيث إنّك ترى أنّ ديناً يتبنّى أداة للتعذيب والإعدام كرمز مقدّس، وهو الصليب، وتلبس غالباً حول العنق، ويقول بعض هؤلاء: لو أعدم المسيح قبل عشرين عامًا، أي في هذا العصر، فإنّ الأطفال كانوا سيلبسون في المدارس الكاثوليكيّة كراسي إعدام كهربائيّة صغيرة حول أعناقهم، عوضاً عن الصليب. فلماذا أصبحت أداة إعدام شخص ما -أي الصليب- رمزاً دينيّاً؟

الجواب: كما ذكرنا سابقاً فإنّ الملحدين يأخذون ما جاء في هذا الدين أو ذاك من الأساطير والخرافات ثمّ يضربون به الديانات كلّها. نحن أيضاً ومعنا أكثر من مليار ونصف من البشر، لا يؤمنون ببعض ما ذُكر في الكتاب المقدّس ممّا ينافي قدسيّة الأنبياء عليهم السلام، حتّى إنّ إعدام السيّد المسيح ليس صحيحاً عند المسلمين،

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(١) فكيف يُتّخذ الصليب شعاراً للدين؟!

وقضيّة أنّ أبناء آدم توارثوا الذنب من أبيهم فهو غير وارد على الإطلاق في القرآن الكريم وفي تعاليم الإسلام، بل القرآن يقول عكس ذلك إذ يصرّح: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٢)، فلا يعاقب الأبناء بذنوب آبائهم، ولا الآباء بذنوب أبنائهم، ولا أيّ شخص بذنب غيره إلّا إذا كانت هنالك مشاركة فعليّة في الذنب.

أمّا قضيّة أن آدم ارتكب الخطيئة فكلّ أبنائه حُرموا من جنّات عدن، فهذا غير صحيح أيضاً، ذلك أنّ آدم خُلق للأرض أوّلاً وليس للجنّة، فقد أخبر ربّنا عزّوجلّ الملائكة قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣)، وإنّما أخذه الله إلى الجنة وأباح له كلّ شيء، وحرّم عليه الشجرة لكي يتعرّف على نقاط ضعفه، ويكتشف عدوّه إبليس ويتعرّف على أحابيله وطريقته، تمامًا كما نرى اليوم أنّ البشر أحلّت لهم أمور كثيرة بالملايين، وحُرّمت عليهم أمور معدودة، ولكن كثيراً من الناس يذهبون وراء ما هو محرّم عليهم ويتركون ما هو محلل لهم. فالخمرة مثلاً محرّمة بحسب الشريعة الإسلاميّة، وهناك نصوص في المسيحيّة تحرّمها أيضاً، هذه المادّة السائلة هي واحدة من آلاف السوائل الأخرى المحلّلة، كلّ ذلك حلال، لكنّ البعض يترك الحلال ويذهب وراء الحرام.

أحياناً تجد أنّ الطريق مفتوح للحصول على حاجات المرء من الحلال لكنّه يذهب وراء الحرام، فطريق التجارة مفتوح لجميع الناس، وطريقة استصلاح الأرض بالزراعة مفتوحة، وكذلك أنواع التبادل التجاري ما بين البشر مفتوح، لكن البعض يذهب وراء المتاجرة بالمخدرات مثلاً.

---

(١) سورة النساء: ١٥٧.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٤، سورة الإسراء: ١٥، سورة فاطر: ١٨، سورة الزمر: ٧.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

كما أنّ طريق الحصول على الملذات الجنسية مفتوح عن طريق الزواج، لكن البعض يذهب وراء الزنا، ومن ثمّ فليس البشر هم الذين ورثوا الذنب من أبيهم آدم وحُرموا من الجنّة بسبب ذلك، وإنّما هم الذين يرتكبون الخطايا والآثام بإرادتهم.

ثمّ إنّ المسلمين كما ذكرنا لا يتّخذون الصليب رمزًا لدينهم، ولا يعلّقونه على رقابهم، ولا يعتقدون بأنّ المسيح عليه السلام صُلب أصلاً.

وحديث الملحدين بأنّ المسيح عليه السلام لو أُعدم الآن فإن أطفال المدارس الكاثوليكيّة كانوا يعلّقون كراسي إعدام كهربائيّة في أعناقهم هومجرّد تهريج على الدين من خلال افتراض أمر ليس موجوداً ولن يكون.

وعلى كلّ حال فإنّ نظريّة أنّ السيّد المسيح عليه السلام أعدم لكي يكفّر عن خطيئة آدم المتوارثة في بنيه غير صحيحة، ولا يؤمن بها المسلمون جميعًا ولا بقيّة الناس، من غير بعض المسيحيّين بالطبع.

ومن هنا فإنّ عبادة السيّد المسيح عليه السلام باعتباره مخلّصاً ليست صحيحة، وأن التركيز الذي جاء في المسيحيّة على الذنب أيضا غير صحيح.

افتراءات على أنبياء الله عليهم السلام

من حياة الخليل عليه السلام

يقول الملحدون: إبراهيم وهو عمُّ لوط هو الأب المؤسّس للديانات التوحيديّة الثلاث؛ اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، وتلك المنزلة الأبويّة تجعله مثلاً أعلى، ولكن كيف يمكن أن نجعله كذلك ونحن نجد أموراً مرعبة في حياة إبراهيم، وفي تصرّفاته؟

فمثلاً في باكورة حياته الطويلة ذهب إبراهيم لمصر هرباً من المجاعة مع زوجته سارة، ولأنّ امرأته كانت جميلة فمن الطبيعي أنّها ستكون مرغوبة من قبل المصريّين، وبالتالي ستكون في خطر، وكذلك سيكون زوجها، ولذلك قرّر إبراهيم أن يتظاهر بأنّ زوجته هي أخته، ومن ثمّ أُخذت وضُمت لحريم فرعون، وأصبح إبراهيم غنيّاً بفضل فرعون، لكن الله لم يوافق على هذه الصفقة اللطيفة، وأرسل طاعوناً على فرعون ومنزله وحده، فغضب فرعون وطلب من إبراهيم تفسيراً لما حصل وطرده من مصر.

ويستشهدون على ذلك بهذا النص الذي ورد في الإنجيل: «وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا، وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ، فَيَكُونُ إِذَا

رَآكِ المِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ، قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفسي مِنْ أَجْلِكِ»، فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا المَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا، وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَ إِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ، فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ، فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟، لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ!»، فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالاً فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ»[1]

وأيضًا يأتي في سفر التكوين أنّ إبراهيم قدّم زوجته إلى ملك جرار «أبيمالك» مرّة أخرى على أنها أخته، وليست زوجته: «وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ، فَجَاءَ الله إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ المَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْل»، وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟، أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلاَمَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هذَا»[2].

«تلك الأحداث غير الساره في سيرة إبراهيم تبدو كهفوات فقط عند مقارنتها بالقصة البغيضة عن كيف أنّه كان في طريقه لذبح ابنه

(١) سفر التكوين ١٢: ١٠-٢٠.

(٢) سفر التكوين ٢٠: ١-٥.

إسحاق[١].

الربّ أمر إبراهيم بتقديم قربان على النار من الابن الذي طالما حلم بأن يكون لديه، فبنى إبراهيم مذبحاً، ووضع حطب النار عليه، وربط ابنه إسحاق فوق الحطب، والسكينة الحادة كانت في يده عندما تدخّل ملاك بشكل دراميّ، ومعه أخبار بأنّ الخطة تغيّرت في اللّحظة الأخيرة، ويبدو أنّ الربّ كان يمزح فقط ليختبر إيمانه.

والإنسان الخلوق المعاصر سيتساءل بالتأكيد عن مدى إمكانيّة تعافي الطفل بعد صدمة نفسيّة كهذه؟ وبمقاييس الأخلاق الحاليّة فإنّ تلك القصة تحتوي على العنف ضدّ الأطفال»[٢]. وفي العادة لا يمكن أن نقبل بهذا الأمر فقط لأنّ إبراهيم قد أُمر بذلك، فهل يمكن أن نقبل من أيّ مجرم إذا كان في جهاز الشرطة أو الجيش إذا ارتكب جريمة القتل بأنّه كان ينفّذ الأوامر؟

الجواب:

أوّلاً: إنّ الملحد الذي لا يؤمن بوجود الله، كيف يتحدّث وكأنّه يؤمن به فيعترض على ما أمر به نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وما نهاه عنه، ليبيّن أنّ إله المؤمنين ليس ملتزماً بالأخلاق؟

فمن لا يؤمن بوجود الله، ولا بالأنبياء عليهم السلام يكفيه أمام هذه القصة أن يقول: كلّ هذا خرافة، ومن اختراعات المؤمنين، وهي لم تقع أصلاً.

ثانياً: إنّ إبراهيم عليه السلام نبيّ عظيم من أنبياء الله الكرام، ولم يكن مؤسّساً للديانات الثلاث، كما يدّعي الملحدون دائماً، ولا كان هو الذي اخترع الإله الواحد، فهذا ادّعاء غير صحيح لا تاريخيّاً ولا واقعيّاً.

---

(١) طبعاً هذا عند المسيحين واليهود، أما عند المسلمين فالابن الذي رآه نبي الله إبراهيم عليه السلام في المنام أنّه يذبحه، وحاول أن يفعل هو إسماعيل، وليس إسحاق.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٤٣.

ذلك أنّ الدعوة إلى عبادة الله سبقت وجود النبيّ إبراهيم عليه السلام، وليس هو من دعا إليها أو كان مؤسّساً لها، نعم هو مثل بقية الأنبياء عليهم السلام دعا إلى عبادة الواحد الأحد، والالتزام بالمثل والقيم الأخلاقيّة، وهذا النبيّ بعد أن كبر ابنه وشبّ -ولم يكن طفلاً كما يدّعي الملحدون- وأصبح مكتمل القوى العقليّة، رأى في المنام أنّه يذبحه، ولشدّة إيمانه بالله -وهو أمر طبيعي في مثله من الأنبياء عليهم السلام- فإنّه حاول أن ينفّذ ما رأى، وأخبر ولده بذلك: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[1]، والولد لم يرفض وإنّما قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، ولم يصنع إبراهيم عليه السلام نارًا كما يقول الملحدون استناداً إلى ما جاء في بعض الكتب، وإنّما أخذه بعيدًا إلى منطقة «منى» وهناك ظهر الشيطان لإبراهيم عليه السلام ثلاث مرات ينهاه عن تنفيذ هذا الأمر، فرجمه إبراهيم الخليل، وحينما أراد أن يقوم بالذبح جاءه الملاك وقال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[3]، وانتهت القصّة بأنّ نبي الله إسماعيل عليه السلام لم يُذبح.

إنّ ماحدث لإبراهيم عليه السلام كان امتحاناً له، وكان رمزاً لكلّ مؤمن لكي يكون مستعدّاً دائماً كي يقدّم أفضل ما عنده في سبيل ربّه، وأي ضير في ذلك؟!!

إنّ مئات الآلاف من المسلمين يحجّون اليوم إلى بيت الله الحرام، ويمشون على خطى إبراهيم الخليل عليه السلام؛ حيث يطوفون حول البيت الذي بناه آدم وجدّده إبراهيم عليه السلام وطهّره النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من الأصنام على يد عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ويسعون بين الصفا والمروة كما فعلت هاجر وهي تبحث عن الماء لولدها، ثمّ يذهبون لعرفات ثمّ مزدلفة، ثمّ إلى منى، ويرمون ثلاث نصب ترمز إلى الخبائث المتمثّلة في إبليس، ويذبحون الذبائح، ويقسمون لحومها على الفقراء والمساكين.

وهذه الحركة العظيمة التي يتقرّب بها الناس إلى ربّهم، وتزيدهم ورعاً وتقوى

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢.

(٣) سورة الصافات: ١٠٥

والتزاماً بالأخلاقيّات، وتقديم المساعدات للفقراء والمساكين، كلّها هي تقليد لإبراهيم الخليل، وما يذبح هناك من ملايين الخراف وتعطى للفقراء والمحتاجين كلّها تقليد لإبراهيم عليه السلام في محاولته ذبح ولده.

تعالوا لنناقشكم في عظمة حركة الحج وفوائدها، ومنافعها للأفراد والجماعات وللأمّة، وهي سير على خطى إبراهيم الخليل، فهل كان ما فعله إبراهيم عليه السلام خطأ؟

النبيّ إبراهيم عليه السلام رمز التسليم والتضحية

يقول الملحدون: ربّما يقول المؤمنون بأنّ تضحية إبراهيم بابنه لا يجب أن تُترجم حرفيّاً كواقعة، ولكنّنا نقول لهم: إذا كانت الغالبية العظمى من الناس في عصرنا لايزالون يأخذون الكتاب المقدّس كأحداث ووقائع تاريخيّة حتميّة، ثمّ نتساءل إذا لو لم نأخذ القصة حرفيًّا فكيف علينا أن نأخذها؟ أن نأخذها كحكاية؟ حكاية عن ماذا؟

ويضيف هؤلاء: لا شيء في قصّة إبراهيم يستحق التقدير، أنأخذها كدرس في الأخلاق؟ ما نوع الأخلاق التي يمكن أن نستوحيها من تلك القصّة المروّعة؟ ثمّ لابدّ أن يكون لدينا أساس أخلاقيّ مستقلّ والذي بواسطته نقرّر ما هو التصرف الأخلاقي وما هو التصرف الغير أخلاقي، والأساس الأخلاقي هذا يجب أن يكون خارج الكتاب المقدّس حتّى نستند إليه.

إنّ المتديّنين سيحاولون أن يعطوا شخصيّة الإله بعض الحشمة في تلك القصة المروّعة، فهم يقولون: أليس جيداً أن ينقذ الله حياة إسحاق -حسب اعتقاد المسيحيّين- وإسماعيل -حسب اعتقاد المسلمين- في اللّحظة الأخيرة؟

الجواب: في قصّة نبي الله إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بابنه دروس

أخلاقيّة كبرى، لكن قبل أن أبيّن بعضها دعني أقول: إنّ الأساس الذي لابدّ أن نرجع إليه نحن البشر، سواءً كنّا مؤمنين أو ملحدين، في القضايا الأخلاقيّة هو الوجدان الإنساني، وما يوحي الضمير إلى المرء، وما توحيه إليه الفطرة وما يأمر به العقل.

فالموازين هي: العقل، والفطرة، والضمير. ومعلوم سلفاً أنّ كلّ إنسان عنده هذه الأمور الثلاث.

فالعقل يأمره بالخير وينهاه عن الشر، وضميره يدفعه للعمل الصالح ويمنعه عن ارتكاب الجريمة، وفطرته السليمة تدلّه على الموازين والمثل والقيم التي يدير الله الكون على أساسها.

فبعيداً عن الكتب المقدّسة عند المؤمنين، هنالك الوجدان الأخلاقي الذي نستند إليه، ولذلك نحن حينما نتحدّث مع الملحدين لا نتحدّث بالقرآن، ولا عن الإنجيل أو التوراة، لأنّهم ينكرون أنّها كتب مقدّسة، بل نتكلم بما في ضمائرهم.

نقول لهم: هل التضحية في سبيل المثل العليا أمر جيد أم لا؟

هل يرى الملحدون أنّ تضحية الجنود في سبيل الدفاع عن وطنهم، هي محترمة عندهم ولها أساس أخلاقي، أم لا؟

وهل الذين قاوموا النازيّة في أوروبا، ومنعوا سيطرة هتلر عليها، وقاوموا سلطته على البشريّة، وضحّوا بأنفسهم، هل عملهم هذا كان صحيحاً، أم لا؟

فإذا كنا نقول إنّ التضحية في سبيل المثل العليا هي قمّة الأخلاق، وذلك مثل أن تضحّي بمالك في سبيل عائلتك، أو تضحي بعائلتك في سبيل أمّتك، أو تضحّي بأمّتك في سبيل البشريّة جمعاء.

فهل الذين فقدوا حياتهم دفاعاً عن حريّة الآخرين، هل كان لعملهم هذا أساس أخلاقي أم لا؟

هل القائد الذي يأمر جنوده بالتقدّم نحو العدوّ، وهو يعلم أنّهم ربّما يُقتلون

قائد عاقل ويتصرّف بحكمة، أم أنّه قائد مجنون ولا يلتزم بالأخلاق؟

وبما أنّ الله عزّوجلّ عند المؤمنين هو الطهر الطاهر القدّوس، فإنّه إذا أمر أحدًا بأن يضحّي في سبيله بنفسه، أو بعائلته، أو بماله فهو قمّة العمل الأخلاقي، لأنّه من حق كلّ شخص أن يضحّي بحياته في سبيل حقّه، فإذا كان هناك لص يريد أن يستولي على سيارتك، ولنفترض أنّها سيارة مستعملة لا قيمة كبيرة لها، هل يجوز لك أن تدافع عن سيارتك، حتّى وإن اعتدى عليك اللص وحاول قتلك؟

وهل يلومك الناس إذا ضحّيتَ بحياتك دفاعاً عن حقّك وملكك؟

الجواب: طبعًا لا، لأنّك تدافع عن حقّ من حقوقك، فكيف إذا حاول أحد أن يضحّي بابنه في سبيل الله، وهو مصدر كلّ القيم والمثل؟

وإذا كنّا نقول إنّ الله هو الذي خلق البشر من دون حاجة منه إليهم، وأنّ الله طلب من أحد عباده أن يضحي بابنه في سبيله، فهل في ذلك أيّ ضير؟

خاصّة وأنّنا نعرف أنّه في نهاية المطاف فإنّ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام لم يذبح ولده، وإنّما كان امتحاناً من الله له ولولده!

إنّ الملحدين يحاسبون المؤمنين على ذبح لم يحدث، ولا يحاسبون أنفسهم على ما ارتكبوه في التاريخ من ذبح الألوف من دون حق!

ثمّ يقول قائلهم: إنّ إسحاق أو إسماعيل رُوّع في هذه القضيّة.

وهذا صحيح، ولكنّه سما في عالم المثل والقيم، حيث رضي بأن يضحّي بنفسه في سبيل الله ولم يحدث ذلك. أنت تطلب من شخص أن ينفق كلّ أمواله امتحاناً له، وحينما يكون مستعدّاً لذلك تقول: لا، فقط كنت أريد أن أختبرك، فما المانع في ذلك؟

هل يأتي الملحد ويقول: إنّك روّعته! لا بأس، روّعتُه لكن في سبيل ماذا؟!!

في سبيل أن يتعلّم.. وأن يسمو على المال، ويكون مستعدّاً لبذله في سبيل شيء أعلى.

أليس كلّ الصالحين الذين دخلوا في صراعات مع الأشرار، كانوا يعرفون أنّهم يُقتلون فيها دفاعاً عن المثل والقيم، ألا يعتبر هؤلاء شهداء في نظر شعوبهم وأممهم إذا ما قُتلوا؟

أمّا أن يقول الملحدون: مَن يزيل الآثار النفسيّة من ذهن إسماعيل، فإنّ الجواب على ذلك هو:

أوّلاً: لا يجوز للملحدين أن يتباكو على ذلك، وهم الذين قتلوا الملايين في حروبهم، وروّعوا ملايين الأطفال في الاتحاد السوفييتي السابق، وفي كمبوديا، والصين وغيرها، ولم تهتز لهم شعرة.

ثانياً: إنّ نبي الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان راضياً بأن يُذبح في سبيل الله، فما دخلهم في ذلك؟

ثالثاً: كيف يتحدّث الملحدون عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكأنّهم فعلا كانوا مرسلين من قبل الله، بينما هم ينكرون وجود الله؟ فأنت حينما لا تقبل بوجود الله لا يمكنك أن تقبل الإنجيل على أساس أنّه كتاب الله، أو القرآن على أساس أنّه كتاب الله، ومن ثمّ تقول إنّ الله قاس أو لا يلتزم بالأخلاقيّات. وحينما تكفر بالأنبياء فلا يجوز لك أن تستشهد بما فعلوا وبما قالوا أصلاً.

خرافات الكتب المحرّفة

يقول الملحدون: في قصة لوط والتي ينقلها سفر التكوين نجد أموراً غير أخلاقيّة ولا يمكن أن نقبلها، فقد جاء ملكان على هيئة رجال إلى لوط لتحذيره، ودفعه لترك البلدة قبل أن يمطر عليها الكبريت، ورحّب لوط بالضيوف الملائكة في بيته، «فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ. وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا، فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا

لِنَعْرِفَهُمَا»، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ، وَقَالَ: «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي، هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»[1].

هل هذا من الأخلاق في شيء، وهل الذين يدّعون أنّ الدين يأتي بالأخلاق يقبلون مثل هذا التصرّف من نبيّ؟!

الجواب: قوم نبي الله لوط عليه السلام كانوا يمارسون الشذوذ الجنسيّ، وحينما جاء الملائكة إلى نبيّهم في صورة رجال اجتمع قومه حول بيته، وطالبوه بأن يسلّم أولئك الملائكة إليهم، ونبيّ الله لوط عليه السلام لم يعرض بناته عليهم، لكي يفعلوا بهنّ ما يريدون، إنّما عرض عليهم الزواج، وهذا أمر طبيعي.

إنّك إذا رأيت من هو شاذ جنسيّاً فربّما تقول له: بدل هذا العمل الشنيع الذي تمارسه، تزوّج الزواج الطبيعي من امرأة.

أمّا ادّعاء البعض بأنّ العرض الذي قدّمه النبيّ لوط عليه السلام إلى قومه كان لفعل الزنا، فهذا غير صحيح.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هنالك بعض النصوص لدى أصحاب بعض الديانات وهي محرّفة وغير صحيحة، فلا يجوز الاستناد إليها لإنكار الدين وإنكار الأخلاق في الديانات، تماماً كما أنّ بعض الأطباء ينطقون بالخرافات، فهل هذا دليل على أنّ علم الطب خطأ ولابدّ أن نكفر به، وأن نعتبر جميع الأطباء دجّالين؟!!

ما أكثر الخرافات الموجودة في حياة البشر، سواء عند الأطباء، أو المهندسين، أو السياسيّين، أو علماء الاجتماع، أو علماء الطبيعة، أو الفيزيائيّين، أو المتخصّصين في علم طبقات الأرض، أو الزراعة!

هنالك خرافات عند جميع الناس، وجميع الفئات، وجميع الطبقات، هل

---

(١) سفر التكوين١٩: ٣-٨.

هذه الخرافات هي دليل على أنّ العلوم كلّها باطلة، وأنّ العلماء كلّهم يستحقّون الإعدام مثلاً؟.

افتراء على نبيّ اللّه

يقول الملحدون: حينما نقرأ الإنجيل والتوراة نجد انعدام الأخلاق لدى الأنبياء، أو نجد العنف الشديد لدى الربّ، حيث يُنزل عذابه على بعض الأقوام ويحرقهم أو يقطّعهم، فمثلاً في قصّة لوط يأتي الملائكة إليه لتحذيره ودفعه لترك البلدة قبل أن يُمطر عليها الكبريت، ويُرحّب بالضيوف الملائكة في بيته، بينما يجتمع رجال سدوم حول بيته ويسألونه أن يسلّم الملائكة لهم حتّى يستطيعوا ممارسة اللّواط معهم.

وحسب تعبير سفر التكوين يقول رجال أهل سدوم: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا»[1]، وكلمة «نَعْرِفَهُمَا» هي النسخة المعتمدة كمعنى تلطيفي للواط، والذي يبدو مضحكاً جداً في موقف كهذا.

وكياسة لوط في رفض طلبهم يقترح علينا بأنّ الله ربّما يخطّط لشيء ما، وذلك عندما اختاره من بين الجميع كالرجل الوحيد الصالح في سدوم، ولكن الهالة على لوط تتبخّر عندما يعرض رفضه ويقول: «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي، هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»[2].

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) تعليقاً على ما جاء في هذا النص: «مهما قالت لنا هذه القصّة الغريبة، فإنّها بالتأكيد تخبرنا

(١) سفر التكوين١٩: ٥.

(٢) سفر التكوين١٩: ٧-٨.

مدى احترام النساء في تلك الحضارة المتديّنة بعنف، وعندما تحصل القصّة فإنّ المساومة التي يضحّي فيها لوط بعذريّة بناته كانت غير ضروريّة، لأنّ الملائكة نجحوا في طرد اللصوص بأن جعلوهم عمياناً بمعجزة فجائيّة، وبعدها فوراً حذّروا لوط بأنّ عليه أن يرحل مع عائلته فوراً لأنّ المدينة ستدمّر، وكلّ العائلة هربت باستثناء زوجته المنحوسة، والتي حوّلها الرب لكومة ملح، لأنّها ارتكبت معصية -ربّما نعتبرها بسيطة بالمقارنة بالعقوبة- وهي التطلّع للوراء، لمشاهدة تلك الألعاب الناريّة.

وابنتا لوط تظهران بشكل مختصر مرة أخرى في القصة، فبعد أن تحوّلت أمّهما لكومة ملح عاشتا مع أبيهما في كهف في الجبال، تتحرّقان على مصاحبة رجل، وقرّرتا أن تُسكرا والدهما وتناما معه، ولوط لم يكن في وضع يسمح له بملاحظة ابنته الكبرى التي اقتربت من سريره، أو عندما تركته، ولكنّه لم يكن سكراناً بشكل لم يسمح له بجعلها تحمل منه[1]، وفي الليلة التالية اتّفقت البنتان على أنّ دور الصغرى قد حان، ومرّة أخرى جعلها لوط حامل»[2].

سؤال الملحدين هو: لو أنّ تلك العائلة المريبة كانت هي أفضل عائلة موجودة في سدوم أخلاقيّاً، فكيف يتصرّف ربّ هذه الأسرة هكذا؟ وكيف يقدّم بناته للزنا؟ بل كيف له أن ينام مع ابنتيه، واحدة

(١) ورد في سفر التكوين١٩: ٣١-٣٦: «وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ، هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا، فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا».

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٤٠-٢٤١.

بعد الأخرى وتحملان منه؟

الجواب: بداية نعوذ بالله من هذه الأكاذيب على أنبياء الله العظام عليهم السلام.

إنّ حكاية نبي الله لوط عليه السلام مع قومه المنقولة في الإنجيل هي في مجملها صحيحة، لكن في التفاصيل ليس الأمر كذلك.

إنّ الله بعث لوط عليه السلام إلى قومه لمنعهم من ارتكاب المعاصي والموبقات والظلم والطغيان والشذوذ الجنسيّ لكنّهم رفضوا الإيمان بالله، واستمرّوا على جهالتهم حتّى حاولوا الاعتداء على ضيوف نبيّ الله لوط عليه السلام وهم من الملائكة.

كانوا قوماً مجرمين وإنّما جاء نبيّ الله عليه السلام لهدايتهم فكيف يمكن اتّهامه -والعياذ بالله- هو بما ينهاهم عنه.

إنّ نبيّ الله لوط عليه السلام لم يعرض على القوم -كما ذكرنا- ابنتيه لممارسة الحرام معهما، وإنّما عرض عليهم الزواج الطبيعي، كما كان يدعو دائماً.

وما ذكر من أنّ ابنتي لوط نامتا معه هي قضيّة غير صحيحة إطلاقاً، ولا وجود لهذه القضيّة في القرآن الكريم، بل على العكس، فإنّ الإسلام يرى أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطأ والمعصية والظلم والعدوان، وهذا هو الأمر الطبيعي، فلا يمكن لأيّ نبيّ أن يدعو إلى الأخلاق الفاضلة ولا يلتزم هو بتلك الأخلاق، ومن ثمّ فلا يجوز للملحدين أن يستشهدوا بهذه القصّة على عدم التزام الأنبياء عليهم السلام بالأخلاق.

وبعبارة أخرى نستطيع القول: إنّ المسلمين يأخذون على الكتاب المقدّس مثل هذه المسائل، ولذلك يعتبرون هذا الكتاب محرّفاً بسبب وجود مثل هذه الحكايات، تُرى، لماذا لا يأخذ الملحدون بما يقوله الإسلام، وهو آخر الديانات وأكملها، بينما نراهم يستشهدون بما جاء في كتب لا يُعتمد عليها؟!

وأساساً كتاب الإنجيل إلى الآن ليس كتاباً يقينيّاً حتّى لدى المسيحيّين، على عكس القرآن الكريم، أي إنّ المسلمين يرون أنّ القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا تناقض فيه، ويمكن أن يحتجّ من يريد الاحتجاج

بالقرآن على المسلمين، أو للمسلمين به.

أمّا الاحتجاج بالكتاب المقدّس على جميع المؤمنين بالله وبالأنبياء، فهو أمر غير صحيح.

قصّة مماثلة

يقول الملحدون: «حكاية لوط والسدوميّين لها إعادة مماثلة بشكل مخيف في الفصل التاسع عشر من سفر القضاة، حيث كان أحد رجال الدين يسافر مع محظيّته في منطقة جيفا، وقد أمضوا ليلتهم بضيافة رجل عجوز، وبينما كانوا يتناولون العشاء أتى رجال المدينة يقرعون الباب، ويطلبون من صاحب المنزل أن يسلّمهم الضيف الذَكَر حتّى (يتعرّفوا عليه) أي يمارسوا معه اللواط، وبشكل مطابق تقريباً لما قاله لوط قال العجوز: «لاَ يَا إِخْوَتِي. لاَ تَفْعَلُوا شَرّاً. بَعْدَمَا دَخَلَ هذَا الرَّجُلُ بَيْتِي لاَ تَفْعَلُوا هذِهِ الْقَبَاحَةَ. هُوَ ذَا ابْنَتِي الْعَذْرَاءُ وَسُرِّيَّتُهُ. دَعُونِي أُخْرِجْهُمَا، فَأَذِلُّوهُمَا وَافْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ. وَأَمَّا هذَا الرَّجُلُ فَلاَ تَعْمَلُوا بِهِ هذَا الأَمْرَ الْقَبِيحَ»[1]، ومرة أخرى الأخلاقيّات المحقّرة للمرأة تحضر بكلّ قوّة ووضوح.

إنّني أجد العبارة «افْعَلُوا بِهِمَا مَا يَحْسُنُ فِي أَعْيُنِكُمْ» تثير القشعريرة لأنّها تعني: تمتعوا باغتصاب ابنتي وعشيقة الرجل، ولكن قدّموا الاحترام لضيفي لأنّه قبل كلّ شيء رجلٌ ذكر، وبالرغم من التماثل بين القصّتين (أي قصّة لوط وهذه القصّة) فإنّ خاتمتها كانت أقلّ سعادة للعشيقة من مثيلتها لابنتي لوط.

رجل الدين سلّمها للعصابة التي اغتصبتها بشكل جماعيّ طوال

---

(١) سفر القضاة ١٩: ٢٣-٢٤.

الليل، وبتعبير الإنجيل: «فَعَرَفُوهَا وَتَعَلَّلُوا بِهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ إِلَى الصَّبَاحِ. وَعِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَطْلَقُوهَا. فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصَّبَاحِ وَسَقَطَتْ عِنْدَ بَابِ بَيْتِ الرَّجُلِ حَيْثُ سَيِّدُهَا هُنَاكَ إِلَى الضَّوْءِ»[1] وفي الصباح وجد الرجل محظيّته ساجدة على درج المنزل، وقال بطريقة نعتبرها اليوم فظة وقاسية: «قُومِي نَذْهَبْ»، ولكنها لم تتحرّك، فقد كانت ميتة. «وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ وَأَمْسَكَ سُرِّيَّتَهُ وَقَطَّعَهَا مَعَ عِظَامِهَا إِلَى اثْنَتَيْ عَشَرَةَ قِطْعَةً، وَأَرْسَلَهَا إِلَى جَمِيعِ تُخُومِ إِسْرَائِيلَ»[2].

دعونا نحسن الظن ونضعها مع باقي الأمور الغريبة الموجودة في كلّ مكان في الإنجيل. في واقع الأمر فإنّ الموضوع ليس غريباً إلى هذه الدرجة التي نقرأه فيها، لقد كان هناك دافع هو إشعال روح الانتقام، لأنّ هذه الحركة أشعلت حرباً انتقاميّة تجاه عشيرة بنيامين، حيث خسر أكثر من ستين ألف رجل حياتهم، كما يصف سفر القضاة ذلك بتواضع في فصله العشرين»[3].

الجواب: مرّة أخرى نؤكّد أنّه ليس كلّ ما جاء في الإنجيل والتوراة مطابق للواقع، وليس كلّ ما جاء فيه هو حقيقة على لسان الله تعالى أو ألسنة الأنبياء عليهم السلام.

نحن نرى أنّ من جملة امتيازات القرآن الكريم أنّه صحّح ما جاء في الكتب السابقة من تحريف، سواء فيما يرتبط بالأحكام، أو فيما يرتبط بالأنبياء عليهم السلام.

لا شكّ أنّ هنالك أموراً في الكتاب المقدّس لا يقبلها الكثير من المؤمنين، سواءً في الديانة المسيحيّة أو في بقيّة الديانات، فالمسلمون يرفضون بعض الأمور الموجودة في هذا الكتاب. والقرآن الكريم عند المسلمين صحّح التحريفات

---

(١) سفر القضاة ١٩: ٢٥-٢٦.

(٢) سفر القضاة ١٩: ٢٩.

(٣) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٢.

الموجودة في الكتب السابقة، ولا يجوز لنا أن نستشهد بشيء خاطئ في مكانٍ ما على كلّ القضايا الأخرى. هل يجوز إذا وجدنا خطأً في كتابة الكلمات في كتاب أحد الملحدين أن نقول إنّ كلّ الملحدين يُخطؤون في كتابة الجمل مثلاً؟

كما أنّه لا يمكن أن يحدث مثل ما جاء في سفر القضاة، إلّا أن يكون له تفسير عند المسيحيّين فلابدّ أن يقدّموا ما يجدون.

أمّا لماذا لا يمكن أن يحدث ذلك؟

لأنّه أساساً لا يمكن لشخص أن يأتي ويقول للناس: لا تسرقوا، بينما يكون هو عضواً في عصابة من اللصوص!!

إنّ الأنبياء عليهم السلام بدون استثناء رجال صالحون، وكانوا يدعون مجتمعاتهم إلى الصلاح، وهذا أمرٌ لا غبار عليه، ولا يمكن لرجلٍ فاسد أن يدعو إلى الصلاح ويتّبعه الناس، ومن ثمّ يتأثّرون بقوله ولا يتأثّرون بعمله.

وأخيراً نقول: مجدّداً ما ربط عمل رجل عجوز في غابر التاريخ لا يُعلم أنّه حقيقة أو لا بموضوع وجود الخالق عزّوجلّ؟! نعم إنّه ديدن الملحدين الهروب دوماً من أصل الموضوع وهو وجود الله عزّوجلّ والتشبّث بقصص شاذّة مثل هذه القصّة.

هل أخطأ السيّد المسيح عليه السلام؟

يقول الملحدون: إنّ رأي السيّد المسيح بالعلاقات العائليّة رأي خاطئ لأنّه -حسب النصّ الذي يذكرونه- كان عيسى عليه السلام معاكساً بل عاقّاً حتّى مع أمّه، وأنّه شجّع تلاميذه أن يتركوا عائلاتهم ويتّبعوه.

ويستدلّون في ذلك بقول السيّد المسيح: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا،

فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا»[1].

ويقولون: أليس هذا ما يفعله المتطرّفون اليوم، حيث يدفعون الشخص لمقاطعة عائلته، ليسهل لهم غسيل دماغه؟

الجواب: إنّ السيّد المسيح عليه السلام لم يطلب من أحد أن يبغض والديه، وعشيرته، وإنّما طلب من تلاميذه أن يختاروا الله تعالى إذا تناقض ذلك مع حبّهم لعشيرتهم، وهذا الأمر إنّما هو في مورد معيّن، وقد أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة وكلمة السيّد المسيح عليه السلام هي عندما يكون الأمر دائراً بين أمرين: إمّا الانحياز إلى الله والقيم والمثل والمبادئ التي أمر باتّباعها في هذه الحياة، وإمّا اتّباع الأم أو الأب أو الأخت أو الزوجة أو النفس، عندما تكون على باطل.

هنا يكون المطلوب أن يترك الإنسان كلّ ما عدى الله، وكلّ ما هو مخالف للمبادئ والمثل والقيم ليتبع أمر ربّه.

تُرى، لو دار الأمر بين أن يكون الشخص ظالماً مثل نيرون الذي انحاز إلى زوجته، ويحرق روما بناءً على أوامرها، وبين أن يترك زوجته وينحاز إلى العدالة والخير ويمتنع عن ظلم الناس، ألا يجب عليه أن يترك زوجته؟ كذلك الأمر مع الأب والأم والأخت والنفس الأمّارة بالسوء.

أمّا أنّ السيّد المسيح كان عاقّاً لأمّه فالواقع التاريخي يكذّب الملحدين تماماً، يقول السيّد المسيح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر: ٢٦.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[١] -كما يقول القرآن-، هذه الآية الكريمة جاء بها النبيّ صلى الله عليه وآله الذي كان مخلصاً لوالديه، وكان مخلصاً لأهله، ويمتدح زوجته خديجة عليها السلام، وابنته فاطمة عليها السلام دائماً.

إذن ليست هذه المقولة هي بشكل عام بمعنى أنّ على كلّ من يريد أن يكون مسيحيًّا أو مسلماً أن ينفصل عن عائلته، وعن أبيه وأمه وإخوته وأخواته وعشيرته.

◂ هل كان قتل السيّد المسيح عليه السلام مقدّراً؟

يقول الملحدون: إنّ قتل السيد المسيح إذا كان مخطّطاً من قبل الله للتكفير عن خطيئة بني آدم، فليس من العدل أن يعلّق أحدٌ الذنب بأعناق يهوذا واليهود عبر القرون، أي أنّ يهوذا الإسخريوطي قد عُومل بطريقة غير عادلة تاريخيّاً، لأنّ السيد المسيح كان مقرّراً أن تتمّ خيانته لكي يُصلب كتكفير عن خطيئة آدم، وما دام أنّ ذلك كان مخطّطاً له، وكان لابدّ أن يقع لمصلحة الإنسان، فلماذا ندين من ارتكب الخيانة وأخبر عن مكان اختفائه، ولماذا نعتبر الذين قتلوه قد ارتكبوا ذنباً؟

الجواب: إنّ هذا الكلام مردود لما ذكرنا من أنّ السيد المسيح عليه السلام لم يُصلب كما نعتقد، ولا نعتقد أنّ غفران الله لذنوب البشر كان من خلال تعذيب عيسى بن مريم عليه السلام لأنّ الله لو أراد أن يغفر ذنوب الناس لغفرها لهم دون أن يتعذّب نبي عظيم، ويتمّ صلبه ثمناً لذلك.

وعلى كلّ حال فإنّ أيّ جريمة ليست عمليّة مخطّطة من قبل الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى خلق البشر مختارين، ولم يجبرهم على العمل، ولذلك فإنّهم يُثابون

(١) سورة مريم: ٣٠- ٣٢.

إذا عملوا الخير، ويُعاقبون إذا عملوا الشر. وإذا كان السيّد المسيح عليه السلام -كما يعتقد المسيحيّون- قد قُتل فهي جريمة ارتكبها من قتله، ولا دخل لله في ذلك.

الأخلاق

◄ الأخلاق بين تفسير الأنبياء وتفسير الملحدين.

وهنا سؤال يُطرح في العادة من قبل الملحدين حول قضية الأخلاق عند البشر، باعتبار أنّ الدين في العادة له تعاليم أخلاقيّة، ويدّعي المؤمنون بأنّه بقطع النظر عن أيّ شيء فإنّ للأديان تأثيرها الإيجابي على أخلاق الناس، ومن ثمّ فلو حذفنا الدين من حياة الناس لن تكون هنالك أخلاق عندهم.

يقول الملحدون: الأمر ليس كذلك، فإنّ الدين أمر طارئ، والأخلاق سابقة على الديانات، ومن ثمّ فلا يمكن أن نقول إنّ الديانات هي التي صنعت أخلاقيّات الناس، وما دمنا لا نرى فائدة من الدين في مجال المعرفة، فلا فائدة له أيضاً في مجال الأخلاق.

الجواب:

أوّلاً: الادّعاء بأنّ الأخلاق سابقة على الديانات مجرّد ادّعاء، وليس له أيّ دليل.

ثانياً: لو افترضنا أنّ هذا الأمر صحيح، ألا يكفي أنّ الديانات تؤكّد على الأخلاق، وتقوّي في الناس التزامهم بالقضايا الأخلاقيّة؟.

ثالثاً: ما يراه المؤمنون هو أنّ الأخلاق أمر وجداني عند الإنسان، أي أنّ الذي صمّم هذا الكون، وخلقه عن إرادة وتصميم وعلم وحكمة، ووضع كلّ شيء في

مكانه فيما يرتبط بعالم المادّة، فهو الذي زوّد الإنسان بضميره ووجدانه. والضمائر عند الناس هي التي تدفعهم إلى الالتزام بالأخلاق، فالإنسان يولد وضميره يدفعه إلى الالتزام بالصدق والوفاء بالوعد والإيثار والكرم وما شابه ذلك. والديانات إنّما تذكّره بها في داخله، تماما كما أنّ الإنسان يولد مؤمناً بربّه. ويدلّه على ذلك وجدانه وضميره وعقله.. وكلّ ذلك يدفعه إلى البحث عن معرفة ربّه. إنّما الأنبياء يذكّرون الناس بما في ضمائرهم. فكما يكون الشخص أحياناً غافلاً عن الشمس ومنشغلاً بنفسه فيأتي مَن يذكّره ويرفع حجاب الغفلة عن عينه، كذلك من يغفل عن ربّه حيث يأتي النّبي ويرفع حجاب الغفلة عن ضميره ووجدانه.

وهكذا الأمر أيضاً بالنسبة إلى الأخلاق، فالأنبياء عليهم السلام يذكّرون الناس بما في فطرتهم، من حبّ الصدق والخير والصلاح.

رابعاً: لا يوجد لدى الملحدين تفسيرٌ مقنع للأخلاق، ولأنّهم لا يجدون تفسيراً فهم يتكلّمون كلاماً طويلاً لعلّ من يسمعهم يُصاب بالسأم، فيظهر التصديق لهم حتّى يتخلص من ثرثرتهم.

وفيما يلي عبارات نبي الملحدين ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) حول تفسير وجود الأخلاق عند البشر، وأترك الحكم للقارئ حتّى يعرف كيف أنّ هؤلاء يحاولون فقط أن يصيبوا القارئ بالدوار، ليظنّ القارئ أنّ لهم تفسيراً علميّاً للأشياء:

يقول هذا الرجل في كتابه تحت عنوان: (هل للميول الأخلاقيّة أصل دارويني؟):

«العديد من الكتب ومنها كتاب روبرت هيند (Robert Hinde) لماذا الخير طيّب (Why Good is Good)، ومايكل شيرمر (Michael Shermer) في كتابه علم الخير والشرّ (The Science of Good and Evil)، وروبرت باكمان (Robert Buckman) في كتابه هل نستطيع أن نكون صالحين بدون الله؟ (Can We be Good Without God?)، ومارك هاوزر (Marc Hauser)

في كتابه العقل الأخلاقي(Moral Minds) كلّها تناقش بأنّ معنى الصح والخطأ يمكن أن يأتي من الماضي الداروني، وهذا القسم هو وجهة نظري الخاصّة في هذا الموضوع.

تبدو فكرة (الانتخاب الطبيعي) غير ملائمة بالمرّة لشرح مقدار الخير الذي نمتلكه، أو حتّى شعورنا عن القيم الأخلاقيّة كالأمانة والتعاطف والأسف، (الانتخاب الطبيعي) يستطيع شرح الجوع والخوف والرغبة الجنسيّة، وكلّ ما يمكن أن يساهم مباشرة في بقائنا أو الحفاظ على جيناتنا، ولكن ماذا عن الشفقة التي نشعر بها عند رؤيتنا ليتيم يبكي، أو أرملة عجوز قانطة تشكو الوحدة؟ ما الذي يدفعنا لإرسال هديّة من مجهول أو نقود أو ملابس لضحايا التسونامي في الطرف الآخر من العالم، ممن لم نرهم قط، واحتمال أن يردّوا الجميل لنا هو أقلّ من أن نفكّر به؟ من أين يأتي هذا السامري المتأصّل فينا؟ أليس الخير متناقضاً مع نظرية (الجين الأنانيّ)؟».

ثمّ يجيب الرجل على نفسه قائلاً: «لا.. هذا فهم خاطئ للنظرية ومحزن. من الضروري أن نركّز على الكلمات الصحيحة وذلك بالتركيز على (الجين الأنانـيّ)، لأنّ ذلك المصطلح هو على النقيض مع مصطلح (الكائن الأنانـيّ) مثلاً أو (الجنس الأنانـيّ).

دعوني أشرح ذلك: المنطق الدراويني يفرض علينا استنتاج أنّ وحدات الحياة في تدرّجها الطبقيّ والتي تبقى وتنتقل من خلال (الانتخاب الطبيعي) تميل إلى أن تكون أنانيّة، والوحدات التي تستمر ستستمر على حساب الوحدات المنافسة لها في نفس الدرجة في الطبقيّة، وهذا بالضبط ما تعنيه الأنانيّة بهذا الصدد.

السؤال هو: على أيّ درجة يكون فعل هذه المورّثات؟ كلّ فكرة (الجين الأنانيّ) -ولنركز على الكلمة الأخيرة- هو أنّ وحدات (الانتخاب الطبيعي) (الوحدة التي تهتمّ بذاتها) ليست الكائن الحي الأنانيّ وليست المجموعة الأنانيّة أو الصنف الأنانيّ، بل هو المورثة (الجين) الأنانيّ. إنّ الجين بهذا الصدد هو من يبقى للأجيال

أو لا يبقى، وعلى عكس الجينات (والميمات أيضاً) فإنّ الكائن الحي أو المجموعة أو الصنف ليسوا بالوحدات التي يمكن أن تخدمنا بهذا المعنى، لأنّهم ببساطة لا يصنعون نسخًا متطابقة لأنفسهم ولا يتنافسون في موضوع النسخ الذاتي، وهذا بالضبط ما تفعله المورّثات، وهذا هو الأصل المنطقي الذي يبـرّر اختيار المورّثة فقط لتكون الوحدة (الأنانيّة) بالمعنى الداروينيّ لكلمة الأنانيّة.

إنّ الطريقة البديهيّة للمورّثات لضمان أنانيّتها البقائيّة في علاقتها مع المورّثات الأخرى هو أن تبرمج الكائنات لتكون أنانيّة، وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء المورّثات التي تملكها، ولكن ظروف أخرى تصلح لخطط بقائيّة أخرى. وهناك بعض الظروف ليست نادرة بأيّ شكل حيث تضمن المورّثة بقاءها بجعل الكائن يتصرّف بطريقة إيثاريّة، وهذه الظروف أصبحت مفهومة بشكل جيّد في أيّامنا وتُصنّف على فئتين رئيسيّتين:

المورّثة التي تبرمج الكائن لإيثار الأقارب الحاملين لنفس النوع من المورّثات، أي أنّ هذه المورّثة ستخدم المورّثات المشابهة لها فقط، ومورّثة كهذه ستتزايد في بنك المورّثات بحيث إنّ التصرّف الإيثاري سيصبح هو المعيار العادي لدى هذا الكائن. المثال الأوضح على ذلك هو رعاية الأطفال، ولكنّه ليس بالمثال الوحيد فالنحل والنمل وسوس الخشب ونقّار الدف كلّها طوّرت مجتمعات يقوم فيها الكبار برعاية صغارهم(والذين يتقاسمون المورّثات الإيثاريّة معهم غالباً)، وبشكل عام وكما استعرض زميلي هملتون فالحيوانات تميل لرعاية من يقاسمونهم مورّثاتهم، والدفاع عنهم وتحذيرهم من الخطر، وإيثارهم لأنّهم إحصائيّاً قادرين على حمل نفس النسخ من المورّثة نفسها.

النوع الرئيسي من الإيثار والذي له تفسير دارويني متكامل هو الإيثار المتبادل على قاعدة (حكّ لي ظهري لأحكّ لك). هذه النظرية قدّمها لأوّل مرة في ميدان (التطوّر الطبيعي) العالم روبرت تريفيرس (Robert Trivers)، وغالباً ما يعبّر عنها بمصطلاحات رياضيّة تخصّ ألعاب الرهان ولا تعتمد على تقاسم

المورّثات. وبالتأكيد تعمل بشكل ممتاز وحتّى بشكل أفضل بين كائنات متباينة ومختلفة وتسمّى عندها بالمتعايشات. المبدأ هو نفسه في التبادل والمقايضة الذي يعتمده الإنسان؛ فالصيّاد يحتاج للرمح والحدّاد يحتاج لحماً، وعدم وجود التساوي بينهما يؤدّي لعقدٍ من نوع ما، النحل يحتاج للرحيق، والزهور بحاجة إلى اللقاح. الزهور لا تستطيع الطيران، وبالتالي فإنّها تدفع للنحل الرحيق كعمولة لاستعمالها أجنحتها. الطير المسمّى بمرشد العسل يستطيع إيجاد عُش النحل ولكنّه لا يستطيع اقتحامه، والغرير (البادجر) يستطيع اقتحامه، ولكنّه بدون أجنحة للبحث عنهم. مرشد النحل يقود الغرير (والإنسان في بعض الأحيان) للعسل بطريقة طيران مغرية، ولا تُستعمل تلك الطريقة في الطيران لأيّ غرض آخر، والطرفان يستفيدان من الصفقة. ربّما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لا يستطيع المكتشف تحريكه بمفرده ويطلب المساعدة من الآخرين، رغم أنّهم سيقاسمونه به، لأنّه بدون مساعدتهم لن يحصل على أيّ شيء. ومملكة الحياة غنية بأمثلة كهذه على العلاقات المشتركة: الثيران الأمريكيّة مثلاً، والعصفور ناقر الثيران، الزهور الحمر والطائر الونّان، البقر والبكتيريا المعويّة، الإيثار المشترك يعمل لأنّ اللّاتناظر في الاحتياجات والمقدرات يساعدها في ذلك، ولذلك تعمل بنجاح أكبر بين الكائنات المختلفة حيث إنّ اللّاتناظر أكبر وأوضح.

عند الإنسان تعتبر النقود والمدّخرات أدوات قابلة لإجراء دفوعات مؤجّلة، والأطراف في صفقة ما تتبادل بدون أن تُسلّم أو تستلم البضائع بشكل مباشر، بل تحتفظ بما يشبه الدَين للمستقبل أو حتّى بيع الديون إلى الآخرين، وعلى حد علمي ليس هناك كائنات حيوانيّة غير إنسانيّة ممن لديهم ما يوازي النقود، ولكن الذاكرة الفرديّة والشخصيّة تلعب دوراً موازياً بشكل غير رسمي. الخفافيش المصّاصة للدماء يتعلّمون مَن الذي يستطيعون الاعتماد عليه من أبناء عشيرتهم لدفع ديونهم (بالقيء الدموي)، ومن أولئك الذين يغشّون. و(الانتخاب الطبيعي) يفضّل أولئك المهيّئين بما يتعلّق بعدم تناظر الاحتياجات والفرص للعطاء عند المقدرة، والتوقّف عنه عند عدم الاستطاعة، وتفضّل أيضًا الميول لتذكر الواجبات

مثل تذمّر الدببة، ومراقبة شروط التبادل، ومعاقبة الغشّاشين الذين يأخذون ولا يعطون عندما يأتي دورهم.

وبما أنّه سيكون هناك غش بشكل دائم، فإن الحل المتوازن سيكون بفرض عقاب على الغشّاشين في قوانين لعبة الإيثار المتبادل...»[1].

هكذا يستمر نبيّ الملحدين في كلامه، حيث يطلق ترّهاته وكأنّها حقائق لا تقبل الجدل، ويتعب القارئ بكلامه الطويل الممل وكأنّه يقدّم تفسيراً كونيّاً لوجود الأخلاق في وجدان الإنسان بسبب (الانتخاب الطبيعي). ويستمر الرجل في مثل هذا الكلام عشر صفحات، وهو مجرّد تصفيف كلمات، وادّعاءات فارغة، وتفاسير غير مقنعة لا يجد الإنسان ما يدفعه إلى قبولها، على عكس ما يقوله الأنبياء عليهم السلام.

فعندما يأتي نبيّ من قبل الله، ويقول كلاماً فإنّ ضمائر الناس تستجيب لكلامه، لأنّهم يجدون فيه الحقيقة، تمامًا كما أنّ من يشير إليك في النهار إلى الشمس ويقول: هذه شمسٌ مشرقة فتراها فتقول: هذا المدّعي صادق في كلامه لأنّي رأيتها. وحينما يقول لك النبيّ: إنّ كلّ ما تراه عيناك لا بدّ له من خالق، وأنت في واقع الحال تجد هذا الكون بعظمته موجوداً، فلابدّ أنّ هناك من أوجده فتؤمن به.

أو يقول لك: إنّك حينما جئت إلى هذه الحياة كان الله قد أودع فيك ضميراً يدفعك إلى الإيمان، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، وإنّ لك وجداناً يدلّك إلى الخير ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3] ووجدانك هذا يدعوك إلى الخير، ويعاتبك على عمل الشرّ، فضمير المجرم يؤنّبه على ما يفعل، حتّى لو كانت مصلحته تكمن في جريمته، فعندما يقول النبيّ ذلك، تجده في وجدانك، أما تصفيف كلمات جوفاء، وإطلاق أحكام لها بداية وليس

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص ٢١٤-٢١٨.

(٢) سورة الإنسان: ٣.

(٣) سورة القيامة: ١-٢.

لها نهاية لتفسير الأخلاق عند الناس، وضرب مثال بأنّ هذا الحيوان يحتاج إلى الرحيق والرحيق يحتاج إلى اللّقاح، وذلك تفسير الأخلاق فهو أمر لانجده في ضمائرنا، إضافة إلى أنّ السؤال هو مَن فعل كلّ ذلك في الطبيعة؟ ومن أعطى للإنسان دوافع لعمل الخير؟

هذا هو السؤال الذي يعجز الملحدون عن الإجابة عليه.

الأخلاق.. بين الثواب والعقاب

يقول الملحدون: لا ارتباط للدين بالأخلاق، فالناس لا يلتزمون بالأخلاق لأنّهم يخافون الله، ولا دور للإيمان بوجود الله في التزامهم بالعمل الصالح، والقول الصالح، والفعل الصالح.

وحينما يُطرح -مثلاً- السؤال التالي: لماذا يجب أن نكون من الصالحين إذا لم يكن هنالك ربٌّ يعاقبنا على الخطأ، ويثيبنا على الأعمال الصالحة؟ يقولون إنّ هذا السؤال دنيء لأنّه يعني أنّ السبب الوحيد للصلاح هو لأجل تحصيل رضى الله، أو لتجنّب غضبه

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «هل تعني أن تقول لي بأنّ السبب الوحيد الذي تحاول لأجله أن تكون صالحاً هو لتحصل على رضا الله ومكافأته، أو لتفادي غضبه وعقوبته؟ هذا ليس أخلاقيّاً بل هذا نفاق، وتلميع للمظاهر فقط، أن ترمق النظر لكاميرا المراقبة العظيمة في السماء، أو الميكرفون التجسّسي في رأسك، والذي يراقب كلّ حركاتك وحتّى أدنى الأفكار الطائشة في الرأس»[1].

هذا يعني أنّك لست ملتزماً في الحقيقة بالأخلاق، لكن أمام الكاميرا والميكرفون تتظاهر بأنّك ملتزم بها.

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٢٧.

وكما يقول ألبرت أينشتاين (Albert Einstein): «لو أنّ الناس صالحون فقط لخوفهم من العقوبة، وطمعهم للمكافأة فإنّنا صنف يُؤسَف لنا بالتأكيد»، فهل إذا اختفى الإيمان بالله فإنّ البشر يتحوّلون إلى وحوش وقساة وأنانيّين يهتمّون بالمتعة وبأنفسهم؟

الجواب:

أوّلاً: حينما نقول إنّ الله يراقب أعمال الناس، ويحاسبهم على ما يفعلون ويجازيهم على أعمالهم: إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشرّ، فلا يعني أنّنا نقول إنّ الله يجبر الناس على الصلاح، وأن كلّ من آمن بالله سيكون من الصالحين فوراً.

ثانياً: المؤمنون يعتقدون أنّ الأمور الأخلاقيّة مودعة في ضمائر الناس، وكما أنّه لا يوجد شيءٌ من دون أن يكون أحد أوجده، سواءً كان وجوداً ماديّاً أو معنويّاً فإنّه لا يمكن أن تكون الأخلاق في ضمائر الناس، من دون أن يكون أحدٌ ما قد وضعها هناك، فحينما نرى أنّ الذي يعيش في غابات الأمازون والذي يعيش في قلب الحضارة في أوروبا أو في أمريكا، أو الذي يعيش في آسيا وأفريقيا، كلّهم متساوون في اعتبار الصدق أمراً حسناً والكذب قبيحاً فهذا يعني أنّ الأمور الأخلاقيّة موجودة في ضمائر جميع الناس، وهم متشابهون في ذلك ومتساوون.

وأمّا دور الإيمان بالله فهو التأكيد على هذا الذي يأمر به الضمير.

إنّ وجدان الإنسان يدفعه إلى الصدق، وخوفه من الله يدفعه على الالتزام بما يقول له ضميره، فالذي يؤمن بالله ويرغب في ثوابه، ويخاف من عقابه، يزداد مراقبة لنفسه، والتزاماً بالمفردات الأخلاقيّة.

ثالثاً: إنّ مسألة الخوف من العقاب والرغبة في الثواب هي أيضاً مسألة وجدانيّة، ذلك أنّ جميع الناس لا يريدون أن يُعاقبوا على أخطائهم، كما أنّهم يرغبون في أن يكونوا صالحين ولا يرتكبوا الأخطاء، والقوانين الوضعيّة تستفيد من هذه الحالة عند البشر حيث تتركّز القوانين على معاقبة المجرم وعلى تشجيع الملتزم، فمسألة أنّ الشخص يفكر في وجود كاميرا كبيرة في السماوات، أو ميكرفونات تسجّل

على الإنسان أفكاره ونيّاته، هذه مسأله يعمل بها البشر في صورة وجود كاميرات في كلّ مكان.

فما هو العيب في أن يشعر المرء بأنّه مراقب من قبل الله، كما يشعر بأنّه مراقب من قبل الكاميرات الموجودة في كلّ مكان في هذه الأيام؟

رابعاً: لولا وجود العقاب ومراقبة الكاميرات لتحوَّلَ الناس إلى وحوش وقساة، ليس فقط في غابات الأمازون ومجاهل أفريقيا، وإنّما في وسط البلدان المتقدمة حضاريّاً كأمريكا وبريطانيا.

فإذا قلنا (لولا وجود هذه الكاميرات لارتكب المجرمون الكثير من الجرائم) فهل يعني ذلك أنّ علينا أن نرفض القوانين، لأنّ الناس لا يلتزمون بها إلّا من خلال العقاب والثواب؟

لماذا تصرف الحكومات المتقدّمة ملايين الدولارات لوضع كاميرات مراقبة في المطارات، ومحلّات التسوّق، والمحلّات العامة، وفي كلّ مكان، حتّى أنّك في الولايات المتحدة الأمريكيّة إذا خرجتَ من بيتك إلى أقرب مركز للتسوّق ورجعت للبيت، فسوف تلتقط الكاميرات في الشوارع والأزقة مئة وخمسين صورة لك، أمّا في لندن فإنّ الكاميرا تلتقط لك خمسين صورة بمجرّد خروجك من البيت وعودتك إليه، لماذا يفعلون ذلك؟ ألا يعني ذلك أنّه لولا وجود الكاميرات لتحوّل الناس إلى قساة وأنانيّين يهتمّون بمصالحهم الذاتيّة؟!

ثمّ لنرى بالفعل، إذا تعطلّت هذه الكاميرات التي وضعها البشر في كلّ مكان، فعلى ماذا يتنافس الناس، على الخير أم على السرقة، على العطاء ومساعدة الآخرين أم على ارتكاب الإجرام؟

ألم يحدث في نيويورك حينما انقطعت الكهرباء إنّ الألوف من الناس خرجوا إلى الشوارع، وكسروا بوّابات المحلّات التجاريّة، وسرقوا ما استطاعوا أن يسرقوه.

وكذلك حدث هذا الأمر في كندا، الفخورة باستقرارها وسلامتها فعندما أضرب رجال الأمن في منتريال في الساعة الثامنة من يوم ١٧ تشرين الثاني

١٩٦٩م، في الساعه ١١:٢٠ تعرض أوّل بنك للسرقة، وعند الظهر أغلقت معظم متاجر المدينة أبوابها بسبب السرقات، وبعد بضع ساعات أحرق سوّاق التاكسي كراجاً لسيّارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. وقام أحد القنّاصين من السقف بقتل شرطي محلي، كما حصلت اقتحامات في العديد من الفنادق والمطاعم، والحصيلة كانت: ستة بنوك تعرّضت للسرقة، ومئة متجر، وحدث ١٢ حريق، و٤٠ سيارة محمّلة ببضائع على واجهات المحلات المهشّمة، وكانت الأضرار بملايين الدولارات في الممتلكات، حتّى أنّ المسؤولين في المدينة اضطروا أن يستعينوا بالجيش لإحلال النظام.

ألا يعني ذلك أنّ البشر بحاجة إلى الشعور بأنّهم مراقبون؟

خامساً: لو افترضنا العكس وأنّ جميع الناس كفروا بالله وبالدين وبالجنّة والنار وبالحساب والعقاب، هل يزداد الناس التزاماً بالأخلاق؟

سادساً: هل أكثريّة السجناء في الحقّ العام والحقّ الخاص، والمعتقلين بجرائم مختلفة، من القتل إلى الجرح، إلى التجارة بالمخدرات، هل هؤلاء فعلاً من الملتزمين بالدين الذين يخافون ربّهم، ولا يتركون الصلاة والدعاء ويصلّون ويصومون؟!

أم أنّ أكثر السجناء هم من الذين لا يؤمنون بوجود الله، ولا يرون أنّهم محاسَبون على أعمالهم، أو على أقلّ التقادير فإنّ ٩٩٪ من روّاد السجون كانوا في حالة ارتكابهم للجريمة لا يحسبون حساب «الكاميرا الكونيّة» وميكرفونات التجسّس على أفكارهم وأعمالهم المودعة في ضمائرهم.

حقاً إنّ الإلحاد هو الذي يدفع إلى عدم الالتزام بالأخلاق وإلى ارتكاب الجريمة.

◂ الأخلاق.. والتفسير الداروينى

يقول الملحدون: لدينا أربعة أسباب جيّدة من الناحية الداروينيّة لتفسير تمتّع الأفراد بالإيثار والكرم والأخلاق الحميدة تجاه الآخرين:

السبب الأوّل: هو وجود القرابة الوراثيّة كحالة خاصّة.

السبب الثاني: وجود ردّ الجميل المتبادل، أي عمل المعروف بتوقّع الدفع لاحقاً.

السبب الثالث: المنافع الداروينيّة الناتجة من وجود السمعة الحسنة للكرم واللطف.

السبب الرابع: هو وجود منفعة إضافيّة للكرم المتبادل، كطريقة شراء دعاية أصيلة غير قابلة للتزييف.

ويضيف هؤلاء: معظم الوقت فيما قبل التاريخ عاش الإنسان في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الإيثار الأربعة المذكورة من أجل التطوّر، يعني أنّ الإنسان لا يقوم بالإيثار للإيثار وإنّما يفعل ذلك لتطوّر الحياة، فنحن عشنا في قرى، أو قبلها في مجموعات متجوّلة كما يفعل قرد البابون وبشكل جزئي معزولين عن الجيران أو القرى القريبة. معظم الذين يشاركونك الحياة من الأقارب وقراباتهم لك أكثر بكثير من القرابة للعشيرة الأخرى، وهناك الكثير من الفرص لتطوّر الإيثار، وبشكل عام كنا لنقابل الفرد الآخر من العشيرة مرّة تلو أخرى، بغضّ النظر عن كونه قريبا أم لا، هذه ظروف مثاليّة لتطوّر الإيثار المتبادل، وهي أيضاً الشروط المثاليّة لبناء السمعة والإعلان عنها للشخص بأحد أو جميع الطرق الأربعة التي ذكرناها.

الجواب: بعيداً عن الجمل غير المفهومة التي يطلقها أصحاب الباطل بشكل عام والملحدون بشكل خاص، لو طرحنا هذا السؤال: لماذا تقوم الأم بإيثار أولادها على نفسها، سواءً في أمور جزئيّة كأن تجوع حتّى يشبع الولد، أو أن تعطش حتّى يرتوي صغيرها؟، أو في أمور أكبر من ذلك كأن تضحّي الأم بحياتها من أجل حياة أولادها، فلماذا تفعل ذلك؟

هل تفعله للدعاية وللشهرة، كما هو أحد الأسباب التي يذكرها الملحدون؟

أو تفعل ذلك لأنّها تحصل على منفعة ولو متأخّرة من وراء ذلك؟

هل تفعل هذا الأمر لردّ الجميل المتبادل، ولا جميل للجنين على أمّه بعد؟

هل تفعل ذلك لمنافع دعائيّة وهو أن تُشتهر بأنّها أمّ مضحية؟

كيف تستطيع أن تفسر هذه الأخلاق العالية بتفاسير ماديّة داروينيّة؟

إنّ الأمهات في مجاهل أفريقيا، وفي غابات الأمازون، شأنهم شأن اللّاتي يعشن في البلدان المتقدمة، يضحّين بحياتهنّ من أجل صغارهنّ، لا بحثاً عن السمعة، ولا عن المنفعة، ولا لتبادل مصلحة مع الصغار.

نعم يمكن أن يكون أمثال هؤلاء الملحدين الذين لا يهتمّون إلّا بمصالحهم الماديّة لا يقومون بأيّ عمل إلّا بدافع «الجين الأناني» الذي يؤمنون به في حياتهم، أمّا بالنسبة إلى الأمّهات الطبيعيّات فإنّهن لا يقمن بتضحياتهنّ لكي تُعرض أعمالهنّ في المجلّات والجرائد وعلى شاشات التلفاز، ولا يبحثن عمّن يراهن في جوف الليل.

تضحّي الأمّ بمنامها وبراحتها وبصحتها وبسلامتها من أجل صغيرها دون أن تبحث عن السمعة أوالشهرة ولا عن المصلحة والمنفعة، وليس لذلك أيّ تفسير سوى أنّ هذه الأخلاق أودعها الله في نفوس الأمّهات، وهنّ يقدّمن التضحية لأولادهنّ من دون أيّ دافع مصلحي، أو رغبة ماديّة.

هل الأخلاق قيم متغيّرة؟

يقول الملحدون: إنّ الأخلاق هي عبارة عن قيم متغيّرة، فلربّما كان شيء ما قبيحاً قبل مائة عام، لكنّه مقبول الآن. ومن ثمّ فلا يجوز لنا أن نبحث عن قواعد جامدة في سلوكيّات البشر ونعتبرها قيماً أخلاقيّة. ولذلك نحن لسنا بحاجة إلى الدين حتّى يبيّن لنا ما هو صحيح وما هو خطأ، وما هو صالح وما هو غير صالح.

الجواب: بداية لا يمكن أن نقول أنّ كلّ القواعد الأخلاقيّة متغيّرة.

نعم.. ربّما يكون شيءٌ ما مرفوضاً في زمن معيَّن ومقبولاً في زمن آخر، ولكن السؤال هو التالي: هل من الصحيح أن نقول مثلاً إنّ الصدق ليس له قيمة حقيقيّة ولا يجب أن نلتزم به، لأنّه ربّما سيأتي مجتمع لا يرى أنّ الصدق من الأخلاق الحسنة، بل يرجّح الكذب على الصدق؟ وكذلك بالنسبة إلى مسألة الأمانة وغيرها من المفردات الأخلاقيّة، هل يمكن أن تتغيّر كقيمة من القيم الأخلاقيّة في المستقبل؟!

إذا كانت بعض الأمور مرفوضة سابقاً، وأصبحت مقبولة فيما بعد، فإنّ ذلك لا يشمل قطعاً تلك الأسس الأخلاقيّة الصحيحة، لأنّ الله أقام الكون على الحقّ والعدل والصدق والأمانة، وغيرها من الأسس الثابتة.

فحتّى لو جاء مجتمع يرفض بعض هذه الأمور فإنّه سوف ينتهي إلى الانهيار يقيناً، فأيّ شخص يحترم عقله يعرف أنّ المجتمع السليم الذي يتطوّر إلى الأفضل، هو المجتمع الذي يلتزم بالأسس الأخلاقيّة، مثل الأمانة والصدق والصلاح واحترام حقوق الآخرين.

ومن الاستخفاف بالعقل أن نقول: هذه أمور ليست مطلقة بل هي قابلة للتغيير.

إنّ هذا يشبه أن يقول أحدٌ ما: إنّ للزراعة أصولها، ولكن في السابق كانت بعض الأصول الزراعيّة بشكل معين والآن قد تغيّرت، إذن يمكن أن يأتي يوم لا نحتاج إلى زراعة البذور في التربة، بل نزرعها في الهواء!!، ربّما يأتي يوم لا نحتاج إلى سقي الزراعة بالماء، فلماذا نلتزم الآن بأصول الزراعة وهي ستتغيّر في المستقبل!

ونستدّل بذلك على تغيّر بعض أصول الزراعة!.

إنّ الملحدين يستشهدون بقضايا بسيطة جزئيّة جانبيّة ثمّ يستنبطون منها أموراً كليّة أساسيّة، وهذا أمر غير علمي ومخالف للعقل.

فأنْ تكون بعض المجتمعات في يوم من الأيام ترفض شيئاً، ثمّ تقبله فيما بعد يختلف عن مسألة الأسس الأخلاقيّة.

إنّ المؤمنين يرون أنّ هنالك قواعد مطلقة في الأخلاق، ولا بدّ من الالتزام بها لمصلحة الإنسان، وهذه القواعد جاءت بها الديانات السماويّة.

صحيح أنّ البشر ربّما يتوصّلون إلى مثلها بعقولهم، لأنّ العقل أيضاً حجّة من حجج الله، ولكن بشكل عام فإنّ الديانات هي التي جاءت بالقواعد الأخلاقيّة التي تكشف عن سنّة الله في الحياة، وسنّته في كلّ أمور الكون.

فربّنا يفي بوعده، ويطالب البشر بالوفاء بالوعد، وربّنا لا يخلف العهد، ويطالب الناس بأن لا يخلفوا العهود، ولأنّ الله أقام الكون على العدل فإنّ المجتمع الذي لا يلتزم به سينهار، ولا يستطيع أن يتقدّم في شيء.

إضافة إلى ذلك فإنّ الاستدلال مِن قِبل الملحدين بأنّ الله غير موجود، لأنّ الأسس الأخلاقيّة لا ارتباط لها بالدين يشبه مَن يستدلّ بأنّ الشمس غير موجودة، لأنّ بعض القوانين في علم الزراعة تتغيّر وليست مطلقة!

نحن نعرف أنّ الذي يريد أن يصل إليه الملحدون في الفصل بين الدين والأخلاق هو الادّعاء بأنّ الدين لا قيمة له، ومِن ثمّ فلا داعي للالتزام به، لا من الناحية العلميّة باعتبار أنّه لم يثبت عندهم وجود الله، ولا من الناحية الاجتماعيّة باعتبار أنّه لا فائدة من الدين للمجتمعات. وحينما تقول إنّ الدين ينفع في تثبيت الأصول الأخلاقيّة في المجتمعات يقولون: لا ارتباط للدين بالقضايا الأخلاقيّة.

وربّما يقول البعض: إنّ كثيراً من الذين يتظاهرون بالتديّن ارتكبوا جرائم، وآخرهم كان هتلر (Hitler) الذي فعل ما فعل تحت شعار الصليب المعقوف.

غير أنّ ارتكاب بعض أدعياء الدين جرائم وموبقات هو مثل أنّ يوجد بعض أدعياء الطبّ أيضاً ومن ثمّ يرتكبون جرائم ويعالجون الناس بشكل خاطئ، وكذلك فإنّنا قد نرى من يستخدم عملة مزيّفة في السوق. فهل يجوز لنا القول: لا وجود للعملة الصحيحة، لأنّ هنالك من يزوّر العملة؟

وإنّه لا وجود للطبّ، لأنّ هنالك أطباء مزوّرون؟

نحن نتحدّث عن الواقعيّات، ولا نتحدّث عمّا يفعله الأدعياء.

ثمّ إنّه لا يمكن إنكار تأثير الدين في إصلاح الناس، لأنّ الدوافع الدينيّة من أهمّ الدوافع عند البشر، شاء الملحدون أم أبوا.

إنّ كثيراً من الناس إنّما يقومون بأعمال الخير لأنّهم يريدون كسب رضا الله، وكثير من الناس يمتنعون عن ارتكاب الشرّ لأنّ قيمهم الدينيّة تمنعهم من ذلك، فهل يمكن إنكار هذا الأمر؟!

الأخلاق وانتخاب الطبيعة

يقول الملحدون: في البداية كانت الدوافع الماديّة هي وراء المواقف الأخلاقيّة، هذه الدوافع هي في الإيثار -مثلاً- تقديم الدعم للأقربين من أجل الشهرة، أو من أجل الحصول على دعم مماثل، أو من أجل المصلحة، لكن فيما بعد هذه الأهداف وضعت جانباً، وأصبحت الرغبة في الإيثار رغبة مستقلّة.

ومن هنا «فإنّ (الانتخاب الطبيعي) في زمن الأسلاف عندما كنّا نعيش في مجموعات جوّالة كالبابون بُرمجت في عقولنا الميول الإيثاريّة إلى جانب الميول الجنسيّة والجوع والخوف من الأجنبي وما شابه ذلك، وعندما يقرأ زوجان من الأذكياء اليوم كتاب داروين فإنّهما يعرفان أنّ السبب النهائي لاندفاعهم الجنسي هو التكاثر، ويعلمون بأنّ المرأة لن تحمل لأنّها أخذت حبوب منع الحمل»[1]، فهل تتوقّف رغبتهما الجنسيّة لأنّ الهدف النهائيّ من ذلك لا يتحقّق وهو التكاثر بسبب استخدام حبوب منع الحمل؟ بل أصبحت الرغبة الجنسيّة مستقلة، وهكذا الأمر في كلّ القضايا الأخلاقيّة.

الجواب: ليس الأمر كما يقول هؤلاء، لا قديماً ولا حديثاً، لأنّ الرغبة الجنسيّة مغروسة في النفس، وهي مستقلّة تماماً عن هدفها الذي ساقه داروين، فالرغبة

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٢١.

الجنسيّة حاجة قويّة موجودة بشكل مستقل عن هدفها النهائي، وكانت هي كذلك منذ البداية وحتّى الآن، ولم يطرأ عليها تغيير.

إنّ الملحدين يريدون منّا أن ننظر إلى الدوافع الأخلاقيّة كما ننظر إلى الدوافع الجنسيّة، بأن ننظر إلى اللطف والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة وكأنّها مثل أيام الأسلاف كانت لمبادلة المعروف بالمعروف، والحصول على المصلحة والشهرة لكن في أيّامنا هذه لم تعد تلك القيود موجودة، لأنّ المجتمعات كبرت ولم تعد العشائريّة والقبليّة هي الحاكمة، فالإيثار ربّما لا يكون لقريب، ولا لمن نبادله المصلحة، لكن القاعدة بقيت، فهي كالرغبة الجنسيّة، أصبحت مستقلّة.

ثمّ إنّ ادّعاء الملحدين بأنّ الهدف من العمل الجنسيّ هو التكاثر ليس من اكتشافات داروين فليس هو الذي اكتشف الهدف من وراء العمليّة الجنسيّة.

. إنّ هدف الرجل من خلال العمل الجنسيّ هو الجنس، والتكاثر يأتي كنتيجة، فلا يرتبط الذكر بالأنثى، لا في عالم الحيوانات ولا في عالم النباتات ولا في عالم الإنسان، من أجل التكاثر، وإنّما الهدف هو إشباع الغريزة، فهل الحصان حينما ينزو على أنثاه هو بسبب رغبته في التكاثر أو معرفته بالتكاثر؟

يقول الملحدون: الحيوان لا يعي ذلك لكن الطبيعة تعي، ولا نعرف كيف أنّ الطبيعة في نظر الملحدين أصبحت عاقلة وأكثر وعياً وفهماً من الكائنات الحيّة بما فيها الإنسان نفسه!

والغريب أنّ الملحدين يُنكرون على خالق الكون أن يكون قد صمّم بذكاء ما أراد خلقه، لأنّهم لا يعترفون بوجود الخالق ومن ثمّ لا يعترفون بوجود (تصميم ذكي) أوجد هذا الكون، لكنّهم ينسبون (التصميم الذكي) للطبيعة، يقولون إنّ الطبيعة صمّمت بذكاء.

طبعاً هنالك علم خارق وحكمة بالغة في كلّ ما نراه في الخلق، لكنّه ليس من فعل الطبيعة العمياء بل من فعل خالقها.

هل الالتزام بالقوانين يخالف الأخلاق؟!

يقول الملحدون: إنّ الكتاب المقدّس فيه قصص وحكايات لا يمكن أن نقبلها.

و يستدلّون بما جاء في هذا الكتاب حول الطوفان، وأنّ ربّنا عزّوجلّ أغرق البشريّة بسبب عدم إيمانهم به، بينما نجّى الحيوانات، فربّنا قضى على البشريّة كلّها، وحفظ عائلة واحدة هي عائلة نوح ومن آمن به، وعددهم قليل.

أو يقولون في قصّة لوط إنّ الله دمّر مدينة بأكملها وقضى على كلّ مَن كان فيها، بمن فيها زوجة لوط لأنّها تجرّأت ونظرت إلى خلفها وكان ذلك محرّماً عليها، فكانت من الغابرين، ومن خلال ذلك يحاول هؤلاء أن يبيّنوا أنّ الكتاب المقدّس يروّج لأمور شرّيرة تخالف الأخلاق.

الجواب: إنّ من السذاجة بمكان أن يستدلّ أحد بقضيّة لا يعرف ظروفها الموضوعيّة، ولا عواملها وأسبابها، ويعتبرها دليلاً على مبتغاه.

فقصّة نبي الله نوح عليه السلام يجب أن تؤخذ وتدرس بكلّ جوانبها وتفاصيلها، لنعرف إن كان ما جرى على قوم نبي الله نوح عليه السلام عدلاً وقسطاً أم لا؟ فمثلاً عندما ندخل في تفاصيل هذه القصّة كما جاءت في القرآن الكريم، نجد أنّ النبيّ نوح عليه السلام بقي يدعو قومه ٩٥٠ عاماً، وكانت دعوته ليست دعوة إلى الإيمان بوجود الله تعالى فقط، وإنّما إلى الالتزام بالأسس الأخلاقيّة، لكنهم رفضوا ذلك جيلاً بعد جيل، حتّى أصبح الجوّ مسموماً إلى درجة أنّه كلّما ولد لهم أطفال أبرياء تحوّلوا تحت تأثير الآباء إلى أشرار.

نحن نريد أن نسأل: إذا كان من حقّ أيّ نظام معاقبة المجرمين مهما كان عددهم، أليس من حقّ الله أن يعاقب المجرمين وهم عبيده؟

كيف يدّعي الملحدون أنّهم يلتزمون بالقوانين، وأنّهم يقبلون بالعقوبات

الواردة في مختلف القوانين الوضعيّة، كما في قضايا المرور وفي غيرها، ويعتبرون ذلك عدلاً، ثمّ ينكرون على الله ذلك؟!

فهل من الصحيح الالتزام بقانون العقوبات، بما في ذلك عقوبة الإعدام أو السجن المؤبّد أم لا؟

فإذا كان الجواب نعم فنسأل: إذا قضى ربّنا عزّوجلّ على مجتمع كان جميع أفراده من الأشرار بالعقوبة، فهل هذا يعتبر ذلك خطأً ومخالفاً للأخلاق؟!

لو افترضنا أنّ عائلة مكوّنة من خمسة أشخاص كان جميعهم مجرمين: أحدهم قاتل، والثاني سارق مسلّح، والثالث أحرق مدينة، والرابع قتل أبرياء، والخامس اغتصب نساء، هل يجوز للقوانين أن تعاقب هذه العائلة؟ أم أنّ هذا مخالف للأخلاق؟

إنّ معاقبة المجرم بما يستحقّ، ومجازات الصالحين بما يستحقّون، هو عين الأخلاق.

أمّا عن قصة النبيّ لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهل أحاط الملحدون بكلّ ما جاء في الكتب المقدّسة وما روي من الأنبياء حول هذه القصّة؟!

لو كان هنالك مجتمع لا يلتزم بأصول الزراعة فإنّه بلا شك سيُحرم من وجود الأشجار، فلأنّه لم يلتزم بقواعد وأصول الزراعة فمن الطبيعي أن يحرم من الثمار.

كذلك يحرم من الحياة من لا يلتزم بأصول الحياة، أي يرفض الأسس التي أقيمت الحياة عليها، وواضح أنّ حياة البشر تختلف عن حياة الغابات، فلابدّ أن ينظّم الناس حياتهم على أُسس وقواعد صحيحة، فإذا خالفوا تلك الأسس فهم لا يستحقّون الحياة.

كما هو الأمر في القاتل المحترف، فإذا حُكم عليه بالقتل، فهل سيقال إنّ هذا خلاف الأخلاق؟

وكما هو الأمر على مستوى الأفراد كذلك على مستوى الجماعات مهما كان عدد أفرادها.

الثواب والعقاب

◂ الحسنة تخصّ، والسيّئة تعم.

يقول الملحدون: إنّ هنالك من يعتقد بأنّ أيّة كارثة تقع في الأرض كالطوفان، أو الزلازل، أو ما شابه ذلك فهي نتيجة ذنوب بعض العباد.

ويقول أحدهم إنّ القس ميشيل براي (Michael Bray) صرّح في مقابلة تلفزيونيّة بأنّه ربّما يكون المواطنون الأبرياء ضحايا غير مقصودين عندما يقرّر الله أن يضرب مدينة بكارثة طبيعية، لأنّ في المدينة بعض المذنبين.

«فمثلاً في عام ٢٠٠٥م ضرب فيضان مدينة نيو اورلنز (New Orleans) الجميلة كنتيجة لإعصار كاترينا، وصدرت تقارير عن القس بات روبرتسون (Pat Robertson) أحد أشهر الإنجيليّين التلفزيونيّين في أمريكا، وأحد المرشّحين السابقين للرئاسة، بأنّه ألقى باللّائمة على إحدى الكوميديّات المثليّات التي تعيش في مدينة نيو اورلنز (New Orleans).

لابدّ أنّك تفكّر بأنّ إلهاً كلّيّ القدرة سيستخدم أسلوباً أكثر دقّة في تحديد الهدف لو أراد عقاب مذنبٍ ما، كأن يصاب المذنب بالسكتة القلبيّة، عوضاً عن معاقبة مدينة كاملة كانت لسوء حظ ساكنيها

مكان سكن فيه زوجٌ من السحاقيّات الكوميديّات»[1].

ومن ثمّ يقول الملحدون: كيف تريدوننا أن نؤمن بإله يقسو على مدينة بأكملها بسبب وجود مذنب واحد؟

الجواب: ليس المؤمنون مكلّفين بأنّ يجيبوا على تخرّصات كلّ إنسان يدّعي أمراً ما.

نحن نعرف أنّ هنالك عقاباً من قبل الله عزّوجلّ لبعض عباده، وأحياناً يكون العقاب يشمل المذنبين، ويشمل غيرهم لأنّهم لم يمنعوا المذنبين، وهذا أمر طبيعيّ موجود في القانون الوضعيّ، فلو أنّ أحداً حاول أن يقوم بعمليّة إرهابيّة ويفجّر عبوة ناسفة في تجمّع للناس، وكان هنالك مجموعة من الأشخاص يعرفون ذلك ولم يمنعوه، ولم ينكروا عليه، ولم يخبروا عنه الشرطة، أليس القانون يحاسبهم ويعاقبهم، لأنّهم عرفوا وسكتوا؟

قد تقع جريمة كبيرة في مكان ما فيشمل العقاب من ارتكب، ومَن ساعد، ومَن شجّع، ومن سكت، فأين الخلل في هذا الأمر؟

إضافة إلى أنّنا لا نستطيع أن نفسّر أيّ زلزال أو إعصار بتفسير ينطق به أحدهم، فليس كلّ من ينطق بشيء هو يمثّل الدين وجميع المتديّنين.

هذا رأيه، أمّا حقيقة تفسير ما حدث فهو أمر آخر.

◂ الرحمة والنقمة.. ثواب وعقاب

يقول أحد الملحدين: وهو جورج كارلين (GEORGE CARLIN):

«إنّ الدين أقنع الناس بأنّ هناك رجلاً خفيّاً يعيش في السماء، ويراقب كلّ ما تفعل في كلّ لحظه من كلّ يوم، وهذا الشخص الخفي لديه لائحة بعشرة أشياء لا يريدك أن تفعلها، وإن فعلت أيّاً من تلك العشر؛

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٣٩.

فإنّ لديه مكاناً خاصّاً مليئاً بالنار والدخان والحريق والتعذيب والألم، وسيرسلك إلى هناك حيث تعيش وتعاني وتحترق وتختنق وتصيح وتصرخ إلى أبد الآبدين وإلى نهاية الأزمان، ولكنه يحبّك طبعاً»(١).

ما هو الجواب على هذا الكلام؟

الجواب: إنّ تلخيص الدين الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام، والذي يحتوي على قيم ومُثُل عليا، وشرائع وأحكام ومبادئ ومواعظ، إنّ تلخيص كلّ ذلك بهذه الجملة، دليل على أنّ الملحدين الذين تعوزهم الأدلّة يتشبّثون بكلّ قشّة، وأنّه لا مانع لديهم من أن يدّعوا ما ليس صحيحاً، ويكذبوا عشرين كذبة في السطر الواحد من كتاباتهم لكي يُثبتوا عدم وجود الله عزّوجلّ.

وفي الإجابة على هذه الجملة أقول:

أوّلاً: الدين لم يجبر الناس على الاقتناع بشيء، إنّما الناس اقتنعوا بأنفسهم، والفرق بينهما مثل أن نقول بأنّ الشمس أقنعت الناس بأنّ هنالك كرة ملتهبة في السماء ترشّ النور والضوء والدفء على الأرض. بينما الحقيقة أنّ الشمس لم تقنع الناس بوجودها، إنّما الناس اقتنعوا بأنّ هنالك شمساً في السماء لأنّهم رأوها ورأوا آثارها.

ثانياً: كيف استطاع الدين الذي تعتبرونه خرافة وتقولون إنّ الله وهْم، كيف استطاع أن يقنع الملايين من الناس بالالتزام به حيث فشلتم أنتم، وأنتم تدّعون بأنّكم تنطقون باسم العلم، فهل أنتم وحدكم من يؤمن بالعلم وبالمنطق، وغيركم يتبع الأوهام؟

وإذا كان العلم كلّه عندكم، والوهم عند الآخرين، فكيف انهزم علمكم أمام أوهام غيركم؟

ثالثاً: الدين لا يقول إنّ هنالك رجلاً خفيّاً، إنّما يقول ربّاً عظيماً مختلفاً تماماً

(١) Woo, Richard: God Or Allah, Truth Or Bull?, p.205, Strategic Book Group, 2011.

عن البشر، ولعظمته المطلقة لا يمكن أن نتخيّله أو نتصوّره، وهو فوق المخلوقين، ولايحتويه العقل والخيال لأنّه خالق الجميع، ولا يمكن للمطلق أن يستوعبه المحدود.

وأمّا أنّه يعيش في السماء! فالجواب هو: لا.. فليس لله مكان، لأنّه خلق المكان فلا يحدّه مكان، ولا يحيط به زمان لأنّه خلق الزمان.

وأمّا أنّه يراقب كلّ ما يفعله الفرد، فنعم، بدليل أنّ كلّ شيء يراقب الإنسان، فلو أنّ أحدًا مات قبل مئة ألف عام أو مليون عام فإنّ العلم البشري اليوم قادر على أن يكتشف بأيّ مرضٍ مات وكيف مات، إذن هنالك أدلّة على مرضه، وهذا يعني أنّ هنالك من يراقبه، ويسجّل عليه كلّ ما يفعل.

وأمّا أنّ هذا الشخص (أي الله) لديه لائحة بعشرة أشياء لا يريدك أن تفعلها، فهذا كلامٌ سخيف، فربّنا عزّوجلّ يأمرنا بكلّ ما هو خير، أي بآلاف من الأشياء الطيّبة الخيّرة، وينهانا عن عدد أقلّ من الأشياء الخبيثة الشريرة، وهو يريدك أن تكون إنساناً صالحاً ولا تكون شريراً.

وأمّا أنّك إن فعلت تلك الأشياء العشرة فإنّ هنالك مكاناً مليئاً بالنار ينتظرك! فنعم.

هنالك جهنّم، لكن إلى جنب جهنم هنالك الجنّة أيضاً، تماماً كما أنّ أيّ نظام يحترم نفسه عنده جوائز لمن يلتزم بالقانون، وعنده عقاب لمن لا يلتزم به. فما هو الضير في هذا الأمر؟

وأمّا أنّ ربّك يحبّك، فهو يحبّ المطيعين فقط ولا يحبّ العاصين، أي أنّه يحبّك إذا كنت صالحاً، تمامًا كما أن القانون يعاقب من يخالف ويضرّ ويرتكب الشّر، بينما يحبّ من لا يفعل ذلك، فربّنا يحبّ المطيعين، والصالحين، ومن يقوم بعمل الخير، وأصحاب الخير، ويكره الشّر وأصحاب الشّر.

وهناك طوائف كثيرة لا يحبّهم الله تعالى، كما ذكر في كتابه الكريم:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1].
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2].
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[3].
- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[4].
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[5].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[6].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[7].
- ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾[8].
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[9].
- ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[10].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[11].
- ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[12].

---

(١) سورة البقرة: ١٩٠. سورة المائدة: ٨٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٤) سورة آل عمران: ٣٢.

(٥) سورة آل عمران: ٥٧ و١٤٠.

(٦) سورة النساء: ٣٦. ولاحظ: سورة لقمان: ١٨ وسورة الحديد: ٢٣.

(٧) سورة النساء: ١٠٧.

(٨) سورة النساء: ١٤٨.

(٩) سورة المائدة: ٦٤.

(١٠) سورة الأنعام: ١٤١. سورة الأعراف: ٣١.

(١١) سورة الأنفال: ٥٨.

(١٢) سورة النحل: ٢٣.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[١].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٢].

أمّا أن تقولوا بأنّ من يرتكب الشّر فإن الله مع ذلك يحبّه، فهذا استهزاء بعقولكم، وليس استهزاءً بالدين فقط.

الإعدام بين الشرائع الدينيّة والقوانين الوضعيّة

يقول الملحدون: إنّ الديانات تتسم بسمة العنف والقسوة، وهي تطبّق القتل وإراقة الدماء لأبسط الأمور.

«إنّ أحد أعنف العقوبات في العهد القديم هي التي تنفّذ بحقّ الكافر، ولا تزال تُطبّق في بعض الدول.

مثلاً المادة رقم (295-C) في القانون الباكستاني تفرض عقوبة الموت لتلك الجريمة الكبرى -أي الكفر- في ١٨ من شهر آب سنة ٢٠٠١م حُكم على الطبيب المحاضر يونس شيخ بالموت لكفره، وجريمته كانت بأنّه قال لطلابه بأنّ محمّد بن عبد الله لم يكن مسلماً قبل أن يخترع ذلك الدين في الأربعين من عمره، فكتب أحد عشر طالباً من طلّابه تقريراً للسلطات عن مخالفته هذه.

وقانون الكفر يطبّق في باكستان بشكل خاصّ ضدّ المسيحيّين، مثل ذلك الرجل المسيحي: آوغستين عاشق كنغري مسيح (Augustine Ashiq ‘Kingri’ Masih) والذي حكم عليه بالموت في فيصل آباد عام ٢٠٠٠م.

أوغستين كمسيحيّ لم يكن مسموحاً له بالزواج من حبيبة قلبه،

---

(١) سورة الحجّ: ٣٨.

(٢) سورة القصص ٧٦.

لأنّها كانت مسلمة، وبشكل لا يُصدّق لا يسمح القانون الباكستانيّ (والإسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم، وبالتالي حاول الرجل أن يعتنق الإسلام، وعندها اتُّهم أنّه يفعل ذلك لدوافع أخرى.

وليس من الواضح في التقرير الذي قرأتُه بأنّ تلك كانت هي الجريمة الرئيسيّة، أو أنّها كانت بسبب الزعم بأنّه قال شيئاً عن أخلاق النبيّ، وفي كلتا الحالتين فإنّ الأمر بالتأكيد لا يستدعي عقوبة الموت في أيّ بلد لديها قانون مستقل عن التعصّب الديني.

وفي أفغانستان في سنة ٢٠٠٦م حُكم على عبد الرحمن بالموت لأنّه اعتنق المسيحيّة. هل الرجل قتل أحداً؟ هل آذى أحداً؟ هل سرق شيئاً؟ هل تسببّ بالضرر إلى أحد؟

لا، وإنّما كلّ ما فعله هو أنّه غيّر معتقده بشكل شخصي وداخلي، أصبح تفكيره مختلفاً عن التفكير الذي يروق للحزب الحاكم في بلده. ولنتذكّر بأنّ ذلك لم يحدث في فترة طالبان بل في فترة الحريّة الأفغانيّة تحت سلطة حامد كرزاي (Hamid Karzai)، والذي تسلّم السلطة من الحلفاء الذين قادتهم أمريكا. السيّد عبد رحمان تخلّص من الإعدام بعد كلّ ذلك، ولكن فقط بادّعائه الجنون، وبعد الكثير من الضغوط العالميّة، وهو الآن لاجئ في إيطاليا ليتفادى القتل من قبل المتطرّفين المتحمّسين لأداء واجباتهم الإسلاميّة. وللعلم فإنّ ذلك القانون لا يزال نافذًا في أفغانستان المتحرّرة: إنّ عقوبة الردّة هي الموت. ولنتذكّر هنا بأن الردّة لا تعني أيّ ضرر يلحق بشخص أو أيّ شيء آخر. إنّها فقط جريمة فكريّة، كما وصفها جورج أورويل (George Orwell) في كتابه، والعقوبة الرسميّة في القانون الإسلامي هي الموت. وكمثال على تنفيذ ذلك الحكم في ٣ أيلول عام ١٩٩٢م تمّ قطع رأس صادق

عبدالكريم مال الله أمام الجموع في السعودية، لأنّه اتّهم رسمياً بالكفر والارتداد»[1].

الجواب: إنّ عقوبة الإعدام موجودة في كلّ من الشرائع الدينيّة، والقوانين الوضعيّة على سواء، ويتمّ الإعدام في الولايات المتحدة الأمريكيّة، كما يتمّ في كثير من البلدان، وإنّ أكثر من نفّذ هذه العقوبة هي السلطات الحاكمة في ظل حكم الملحدين الشيوعيّين في الاتّحاد السوفيتي السابق، ولا تزال تطبّق في الصين الملحدة، وفي كوريا الشماليّة الملحدة.

والحديث حول حكم الإعدام، وهل هو صحيح أو غير صحيح يجب أن يُؤخذ بشكل عام. وليس في قانون هذه الدولة أو تلك، فمثلاً في دستور الولايات المتحدة الأمريكيّة، وهو دستور غير ديني، بل يرفض الالتزام بالدين رسميّاً، أي أنّه دستور علماني يوجد حكم الإعدام، وفي جميع مناطق العالم، هنالك أحكام بالإعدام في ظروف معيّنة. وقد يقول قائل من الملحدين: نعم الإعدام في مقابل القتل مسموح به.

أقول: ولماذا؟ إذا كنّا نريد أن نعتبر الإعدام جريمة، مع قطع النظر عن أسباب هذه الجريمة، فإنّنا نتساءل عن وجود الإعدام لدى الملحدين، وفي دساتير كلّ الدول، خاصّة في الحكومات الملحدة؟

ألم يكن الإعدام موجودًا في زمن ستالين (Stalin) مثلاً، وما بعده وما قبله وهو ملحد الملحدين؟

فلماذا يحسب الملحدون ذلك على الدين، ولا يحسبونه على الإلحاد، وفي الأنظمة الحياديّة؟

ثم أن نعتبر ما تفعله أفغانستان أو الحكومة السعودية هو ما يأمر به الدين فهو غير صحيح.

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٩٠-٢٩١.

طبعاً إنّ هذا الكلام الذي يقوله الملحدون محاولة لتبرئة طالبان من ارتكاب الجرائم، فهو يحاول القول بأنّه في زمن طالبان لم يحدث قطع للرؤوس، ولا قتل للناس وإنّما حصل ذلك في زمن كرزاي في زمن التحرّر، إنّ صاحب هذا الكلام جاهل بمعنى الكلمة للحوادث اليوميّة التي وقعت والتي تقع في أفغانستان. اذهب إلى الانترنت واكتب «حكم طالبان»، أو اسأل عمّن قُتلوا في زمن طالبان، وأسباب ذلك القتل وسترى أنّ الألوف قُتلوا، والألوف قُطعت رؤوسهم، والذين قطعت رؤوسهم لم يكونوا من المرتدّين، بل من الشيعة وهم مسلمون بالتمام والكمال، ومعنى ذلك أنّ من الممكن للمسلم أن يقتل مسلماً، وليس بالضرورة أن يقتل غير المسلم، وليس بالضرورة أن يقتله لكفره أو ارتداده.

أمّا النظام السعودي فهو لا يُحسب على الإسلام، لا من قريب ولا من بعيد، صحيح أنّ الوهّابيّين يستخدمون الإسلام كغطاء لطريقتهم في الحكم، فهم يدّعون الإيمان بالشورى في الإسلام لكنّهم يعيّنون وليّ العهد ووليّ وليّ العهد وهذا جاري منذ مئة عام. أين هذا من الإسلام؟ لا دخل للإسلام في الموضوع طبعاً، لا من قريب ولا من بعيد.

إنّهم يحتكرون الأموال، وفي الإسلام الاحتكار حرام، كما يذبحون من يخالفهم من المؤمنين، وليس لأنّهم ارتدوا عن الدين!!

لماذا نحسب كلّ ذلك على الدين، وعلى الإسلام؟

إذا ذبحت الحكومة السعوديّة شخصاً لارتداده، يأخذ الملحدون الواقعة كدليل على أنّ الدين قوّة شريرة! بينما يغضّون الطرف عن قتل علماء الشيعة وعظمائهم مثل سماحة آية الله الشهيد الشيخ النمر رحمه الله من قبل نفس هذا النظام، كما يغضّون الطرف عن قتل طالبان للشيعة.

انظروا كيف يستنبط الملحدون أحكامهم المطلقة من قضايا بسيطة عاديّة!

ثمّ إنّنا نتساءل: في زمن صدّام حسين الذي لم يكن ملتزماً بالدين، وإنّما كان علمانيّاً، وحزبه كان يعتبر الدين رجعيّة، قتل الألوف من الناس تحت شعار

«وحدة، حريّة، اشتراكيّة» فهل يصح لأحد أن يقول: إنّ الحريّة قوّة شريرة في العالم، لأنّ صدّام قتل الناس باسم الحريّة، وأنّ وحدة الكلمة والتعاون بين الناس كأفراد وكجماعات وشعوب وأمم، أيضاً قوّة شريرة، لأنّ صدّام قتل الآلاف باسم الوحدة والحريّة والاشتراكيّة؟!

قضايا شائكة

الدفاع عن كرامة المثليّين

يقول الملحدون: «في أفغانستان، وتحت حكم طالبان، كانت العقوبة الرسميّة للمثليّة الجنسيّة «اللّواط» هي الإعدام، وبطريقة تبدو شهيّة للبعض، وذلك بدفن الشخص حيّاً تحت جدار يُدفع فوق الضحيّة. الجريمة (اللّواط) هنا تـمّت بشكل شخصي، ومُورست بين شخصين بالغين لم يتسبّبوا بالأذى لأيّ كان، وهنا لدينا مرّة ثانية علامة مفارقة لتلك الأحكام الدينيّة المطلقة.

وبلدي أنا -بريطانيا- ليس له الحق في التعالي هنا، المثليّة الجنسيّة الشخصيّة كانت تُعتبر جريمة حتّى عام ١٩٦٧م، وفي عام ١٩٥٤م انتحر عالم الرياضيات البريطاني آلآن تورينغ (Alan Turing)، والذي كان مؤهّلاً إلى جانب جون فون نيومان (John von Neumann) للقب مخترع الكومبيوتر بعد أن اتُّهم بجريمة المثليّة الجنسيّة. أعترف هنا بأنّ تورينغ لم يُدفن حيّاً بهدم حائط على رأسه بواسطة دبابة -كما حدث في أفغانستان-، بل أُعطي الخيار بين عامين في السجن وبين معالجة هرمونيّة، والتي كانت في واقعها محاولة إخصاء كيميائيّة كانت ستؤدّي إلى نموّ أثداء له، والجهة الأخرى كان خياره الشخصي تفاحة

قام بحقنها بالسيانيد وأكلها ومات»[1].

الجواب: غريب! شخص كان لوطيّاً ثمّ أرادوا أن يحقنوه بمادة تؤدّي به إلى أن يصبح شبيه المرأة، وتحقق له أمنيته بأن يكون منكوحاً يتعاقب عليه الرجال، لكن لأنّه لم يكن يريد ذلك، ولأنّ القانون كان ربّما يسجنه سنتين فإنّه قد انتحر. فلابدّ في نظر الملحدين من إقامة النياحة عليه! ولابدّ أن نتّهم الدين بذلك ونعتبره قوّة شريرة! لأنّ رجلاً ما أراد اللواط، وحينما وجد أنّ القانون لا يسمح له انتحر!

والسؤال هنا هو: لو أنّ رجلاً مارس الجنس مع فتاة قاصر، أو أنّ هذه الفتاة القاصر باختيارها تعرّت أمام رجل فاعتدى عليها فعاقبه القانون، فعلينا أن نقول: القانون قوّة شريرة في العالم، لأنّ هذا القانون أراد أن يحكم على رجل مارس الجنس باختياره مع امرأة قاصر بالسجن، إذن فلابدّ أن نرفض القانون ونعتبر القانون قوّة شريرة؟!.

ثمّ إنّ قتل آلآن تورينغ (Alan Turing) لنفسه، تمّ في ظل نظام الحكم البريطاني العلماني، فما هو ارتباطه بالدين؟

الملفت للنظر هنا أنّ الملحدين عادة ما يدافعون عن الجرائم حتّى لو كانت جريمة قتل، ما دام أنّ الطرف ملحد، والقانون غير ديني بل لو أنّ ملحداً قتل ألوفاً من المؤمنين فإنّ عمله مبرّر عند الملحدين لأنّه أراد أن يردع المؤمنين الذين يعتقدون بالأحكام المطلقة، وأراد أن يمنع الإيمان بكتاب مقدّس. وتجد الدفاع عن ستالين (Stalin) الذي ارتكب الجرائم لأنّ ستالين كان ملحدًا. أو تمجيد الذين أرادوا إعدام السيد المسيح عليه السلام والدفاع عنهم، وتمجيد كلّ من هو ضدّ المؤمنين والمسلمين حتّى لو قتلهم وذبحهم، كأنّ شغل الملحدين الشاغل هو الدفاع عن اللّوطيّين وعن القتلة وعن المجرمين، إذا كانوا ضدّ الدين. ففي منطق الملحدين من يؤمن بالدين فلابدّ من قتله!

أعود وأكرّر إذا كان كلّ ما يقول هؤلاء صحيحاً، وأنّ الدين قوّة شرّيرة، وأنّه

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٩٢-٢٩٣.

سبب الجرائم، وأنّه اعتداء على إنسانيّة الإنسان، فهل الملايين من الناس الذين يؤمنون بالدين فقدوا عقولهم وأصبحوا مجانين؟ وهل العلمانيّون الملحدون هم فقط أصحاب العقول، لأنّهم فهموا كلّ هذا وجهله المؤمنون؟

◂ النياحة والعزاء على المثليّين

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «إنّ موقف الطالبان الأمريكيّين -أي الأمريكيون الذين يفكّرون بطريقة الطالبان- تجاه المثليّة الجنسيّة يُجسّد أحكام تديّنهم المطلقة.

لتستمع إلى الأب جيري فالويل (Jerry Falwell) مؤسّس جامعة الحريّة: «الإيدز ليس فقط عقوبة الله للمثليّين الجنسيّين، بل إنّه عقوبة الله للمجتمع الذي يتقبّل المثليّين». الشيء الذي ألاحظه في أولئك الناس هو هذا الحبّ المسيحي للآخر. من ذا الذي يصوّت مرّة بعد أخرى لرجل قليل الاطّلاع ومتعصّب مثل السيناتور جيسي هيلم (Jesse Helms) الجمهوري في كارولينا الشمالية. رجل سمح لنفسه بقول التالي: «صحيفة نيويورك تايمز وواشنطن بوست متخمتان بالمثليّين، بين كلّ اثنين هناك مثليّ أو سحاقيّة». الجواب هو أنّ أولئك المصوّتون الذين يرون الأخلاقيّات من منظارها الديني الضيق، ويشعرون بالتهديد من أيّ شخص لا يشاركهم إيمانهم المطلق.

بات روبرستون (Pat Robertson) يقول: «المثليّون يريدون أن يأتوا للكنيسة ويعرقلوا القُدّاس، ويرشّوا الدم حولهم، محاولين إصابة الناس بالإيدز، ويبصقون في وجه القساوسة».

غاري بوتر (Gary Potter) رئيس الحركة الكاثوليكيّة للمسيحيّين قال: «عندما تتسلّم الأغلبيّة المسيحيّة قيادة هذا البلد فلن يبقى هنالك مذاهب شيطانيّة، ولا توزيع مجاني للأفلام الإباحيّة، ولا مزيد من

الكلام عن حقوق المثليّين، بعد أن تستلم الأغلبيّة المسيحيّة زمام الأمور ستصبح التعدّديّة غير أخلاقيّة، ولن تسمح الدولة لأيّ كان بارتكاب الشّر».

الأب فريد فيلبس (Fred Phelps) من كنيسة بورو الغربيّة هو خطيب لامع آخر متلبّس بكره شديد للمثليّين، عندما ماتت أرملة مارتن لوثر كينغ (Martin Luther King) رتّب الأب فريد مظاهرة في جنازتها وأعلن قائلاً: «الله يكره اللّوطيّين، وكل الذين يقبلون بهم، ولهذا فإنّ الله يكره كوريتا سكوت كينغ (Coretta Scott King) وهو الآن يعذّبها بالنار، وبالكبريت حيث لا تموت الديدان أبداً، ولا تخبو النار ودخان عذابها يصعد عالياً إلى أبد الآبدين».

لقد رتّب فيلبس ٢٢ ألف مظاهرة مناهضة للمثليّة منذ عام ١٩٩١م -أي بمعدل مظاهر كلّ أربعة أيام- في أمريكا وكندا والأردن والعراق، وعرض المتظاهرون شعارات مثل «نشكر الله على الإيدز». ومن الأمور الجذّابة في موقع هذا الرجل نرى جهاز عَدّاد آلي لعدد الأيّام في الجحيم لبعض الشخصيّات المثليّة المتوفّية.

المواقف تجاه المثليّين تفضح الكثير عن شكل الأخلاقيّات المستوحاة من الدين»[١].

الجواب: كما تلاحظ فإنّ الملحدين يقيمون النياحة والعزاء على المثليّين في كلّ مكان، ويرفعون عقيدتهم لأنّ شخصاً ما ربّما يكون مشهوراً أو مجهولاً تكلّم ضدّ المثليّين، ثمّ يطلقون الأحكام المطلقة كعادتهم ضدّ الدين، ويعتبرونه لذلك قوّة شرّيرة في العالم.

فكم من التصاريح المماثلة لهذه موجودة لدى من لا يؤمن بالدين؟ وكم من

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٩٣-٢٩٥.

التصاريح الرزينة موجودة عند المؤمنين بالديانات؟

كم من تضحيات قام بها المؤمنون بالله لإنقاذ الآخرين؟ أروني كم تضحية قدّمها الملحدون من أجل غيرهم؟

قد يكون لرجل عقيدة ما في قضيّة ما، كيف نطلق من خلال رأيه حكماً مطلقاً على الأديان في العالم كلّه، وننسى جميع الإيجابيّات التي في الأديان؟

إنّ لصدّام حسين الكثير من التصريحات بالقتل والنفي، وقد نفّذها بالفعل بحق المؤمنين، لماذا لا نضع ذلك في حساب الملحدين والذين لا يؤمنون بالدين؟

قد تقول: حتّى صدّام في محاكمته كان يحمل القرآن. أقول: نعم، حينما كان حاكماً لم يكن يحمل القرآن، ولا كان يستشهد بالقرآن، ولا يريد القرآن، وقتل الكثير من المفسّرين والعلماء والخطباء والمؤلّفين الذين كانوا يتكلّمون عن الدين، لكن حينما أصبح في السجن حمل القرآن لكي يقول: القرآن يمجّد الحياة، وهذا كلام صحيح. فلكي يدافع عن نفسه حمل القرآن، لأنّ في القرآن تمجيد للحياة الإنسانيّة. فهذا دليل لنا وليس علينا.

إنّ الإطالة في ذكر أقوال شخص هنا وشخص هناك، ومحاولة القفز إلى الأمام لن تحلّ أصل الإشكاليّة وهي هل الله موجود أم لا؟ إن كان موجوداً فلنستمع له ولنتبع ما يقول، وإن لم يكن موجوداً - كما تدّعون- فأثبتوا لنا ذلك.

الإجهاض في نظر الملحدين

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين يمنعون الإجهاض، ويشنّون حرباً على هذه العمليّة، مع أنّ البويضة هي مجرّد بذرة في الحياة، وليست هي كلّ الحياة.. المؤمنون يرون أنّ الإجهاض خطأ في ضوء القيم الدينيّة المطلقة، بل هو جريمة كاملة.

ويضيفون: لا نعرف كيف نشرح المفارقة العجيبة، حيث إنّ أولئك الذين يعارضون بشدة إطفاء حياة بويضة يتحمّسون بشكل كبير

وأكثر من المعتاد لإهلاك حياة شخص بالغ، بحجج تافهة.

ثمّ يضربون لنا مجموعة من الأمثلة فيقولون: الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن (George W. Bush) مثلاً هو من أشدّ المناهضين للإجهاض ويعتبر نفسه من أشدّ المدافعين عن الحياة الإنسانيّة طالما كانت في مرحلة البويضة، لدرجة أنّه منع الكثير من الأبحاث الطبيّة والتي كانت لتنقذ حياة الكثيرين.

إنّ السبب الرئيسي لرفض عقوبة الإعدام هو احترام حياة الإنسان، ولكن جورج بوش ومنذ عام ١٩٧٦م حينما رفعت المحكمة العليا المنع عن عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة الأمريكيّة ترأس عدداً من الإعدامات عندما كان حاكماً لولاية تكساس (Texas) أكثر من أي حاكم آخر في تاريخ هذه الولاية، بمعدّل إعدام كلّ أربعة أيام، وأصبحت تكساس مسؤولة عن حوالي ثُلث الإعدامات التي جرت في كلّ الولايات الخمسين، والرئيس بوش ترأس عدداً من الإعدامات عندما كان حاكماً لتلك الولاية.

تقرير الصحافي كارلسون (Tucker Carlson) الذي نشر في السي إن إن (CNN) ذكر أنّه شاهد بوش يسخر مقلّداً سجينة تنتظر الإعدام وتلتمس منه -حينما كان عمدة للولاية- التأجيل. ربّما لاقت تلك المرأة تعاطفاً أكبر لو أنّها أشارت إلى أنّها كانت يوماً مّا بويضة، لكن عندما أصبحت بالغة فإنّ جورج بوش لم يتعاطف معها.

ويبدو أنّ تناول موضوع البويضة له من الأثر الكبير على العديدين من المؤمنين، حتّى أنّ الأم تريزا (Mother Teresa) قالت في خطابها عند حصولها على جائزة نوبل للسلام: «الإجهاض هو الخطر الأكبر على السلام».

ثمّ يستشهد الملحدون بقول رانـدل تيري (Randall Terry) مؤسّس حركة الإنقاذ. هذه المؤسّسة كانت تتدخّل لإدخال الرعب في الكادر الطبّي العامل في مؤسّسات الإجهاض، يقول راندل تيري: «عندما أصبح أنا أو أحد مثلي حاكماً للبلد، من الأفضل أن تهربوا -وخطابه إلى الكادر الطبي العامل في مؤسّسات الإجهاض- لأنّنا سنجدكم وسنحاكمكم وسنعدمكم، وأعني كلّ كلمة قلتُها، سأجعل ذلك جزءاً من مهمتي، أن تحاكَموا جميعكم وتُعدَموا».

وهذا الرجل يعلن بأنّ مصدر كلامه هذا هو إيمانه المسيحيّ، فهو يقول: «هدفنا هو دولة مسيحيّة، لدينا واجبات إنجيليّة، والله نادانا لنفتح هذا البلد، نحن لا نريد مساواة ولا نريد تعدّدية، هدفنا يجب أن يكون بسيطاً، علينا أن نكون دولة مسيحيّة مبنيّة على قوانين الله، على الوصايا العشر، ولا حرج علينا في هذا».

ثمّ يتحدّث الملحدون عن عملية الإجهاض فيقولون: إنّ البويضة إذا أُسقطت لا تعاني من شيء، فهي لا تعاني من الآلام، إذا أُسقطت قبل أن تمتلك جهازاً عصبيّاً، وحتّى لو كانت في عمرٍ لها فيه جهاز عصبيّ فإنّها بالتأكيد لا تعاني الكثير، ثمّ إنّ المرأة الحامل ستعاني إنْ لم تُجهض، وعلى أيّة حال ربّما أنّ البويضة لا تمتلك جهازاً عصبيّاً، ألا يجب على الأم ذات الجهاز العصبيّ المكتمل أن يكون لها رأي، وأن يُسمح لها بالإجهاض؟

الجواب: نستغرب كيف أنّ الملحدين يدافعون عن كلّ ما هو شاذ، مثل الإجهاض، والشذوذ الجنسي، والزنا، ويستشهدون دائماً بقضايا جانبيّة، ويهملون الكثير من الأمور المهمّة من كلّ ذلك.

إنّ الدفاع عن الإجهاض تحت ذريعة أنّ المؤمنين الذين يمنعون عمليّات

الإجهاض هم أنفسهم الذين يقتلون الناس البالغين، هو مجرّد ادّعاء. فهل الأم تريزا مثلاً التي كانت تطالب بمنع الإجهاض قتلت أحدًا، أو حتّى المؤسّسات والأشخاص والعلماء والقساوسة ورجال الدين الذين يخالفون الإجهاض، هل هم من المجرمين الذين يرتكبون جرائم القتل؟

ومثال جورج بوش الابن مثال غير صحيح، لماذا؟ ليس لأنّ جورج بوش الابن كان رجلاً تقيّاً ورعاً، وإنّما لأنّ هذا الرجل ببساطة لا يمثّل الدين لا من قريب ولا من بعيد، فكيف تُؤخذ أعماله على أساس أنّها مرجعيّة دينيّة، حتّى يقال كيف أنّ هذا الرجل وهو مرجع ديني يمنع من الإجهاض، وفي نفس الوقت يوافق على إجراء أحكام الإعدام؟ أو كيف أنّه في مكانٍ ما يدافع عن حقوق الحيوانات، وفي مكانٍ آخر يتدخّل في العراق ويقضي على الألوف من الناس؟ هذا السؤال يجب أن يُسأل به جورج بوش أو أيّ رئيس من أمثاله، لكن أن نعتبر ذلك مثالاً ونموذجاً للمتديّنين والمؤمنين بالله وبالديانات، فهذا غير صحيح أبداً.

إضافة إلى أنّ هذا الرجل كان يعاني من التناقض في مواقفه، وواضح أنّ أيّ مجرم ربّما يعاني من التناقض في أعماله، فربّما يكون الذي يقتل إنساناً بالغاً يمتنع عن قتل دجاجة أو حتّى نملة، وحينئذ نحاسبه قائلين: كيف أنت الذي تتورّع عن قتل دجاجة ترتكب جريمة قتل بحق إنسانٍ بالغ؟ أو كيف أنّك تتورّع هناك ولا تتورّع هنا؟

أمّا أن نعتبر كلّ مجرم يرتكب جريمة، وعنده بعض الجوانب الإنسانيّة دليلاً على أنّ الإنسانيّة والعواطف هي سبب الشرّ، ونقول إنّ الدين سبب كلّ المصائب والشرور لأنّ المتديّنين يرتكبون جريمة الإعدام من جهة ويمنعون الإجهاض من جهة أخرى، إنّ مثل هذا الاستدلال لا يقبل به من يحترم عقله.

وأمّا قضيّة كون البويضة هي بذرة الإنسان فأقول: إذا نحن سمحنا لكلّ ما هو مجرّد بذرة أن يُقضى عليه، يعني قلنا مثلاً: من حق الناس أن يحرقوا بذور الأشجار، والثمار، والنباتات، لأنّها لا تزال مجرّد بذور، فمعنى ذلك أن لا تكون

لنا أشجار ولا نباتات ولا ثمار. كذلك الأمر فيما يرتبط بمسألة بويضة الإنسان.

وهنا نحن نتساءل لو أنّ أمّ أحد الملحدين، مثلاً أمّ ريتشارد دوكنز الذي يرفع اليوم راية الإلحاد كانت قد أجهضته، فلم يكن له وجود، ألم يكن ذلك أفضل؟ وهل هذا الرجل يدافع عن إجهاض نفسه الآن حينما كان بويضة؟ لو أُعطي له العقل والوعي وهو بويضة، هل كان يقبل بعمليّة الإجهاض لنفسه حتّى لا يولد في هذه الحياة؟ فما دام أنّه يدافع عن الإجهاض فياليت أنّ أمّه قضت عليه وهو في رحمها، قبل أن يأتي إلى هذا العالم ويرفع راية الدفاع عن الإلحاد والإجهاض واللّواط.

هذا بالإضافة إلى أنّ إدانة بعض الذين يدّعون الإيمان، واعتبار أعمالهم ميزاناً ونسبتها إلى دينهم، ومن ثمّ استنتاج أنّه لا وجود لله على أساس قاعدة: أنّ هذا المتديّن يرتكب جريمة، إذن الله غير موجود، كلّ ذلك هراء في هراء وفيه استخفاف بعقول الناس.

بالإضافة إلى أنّ فتح باب الإجهاض أمر خطير حقّاً، لأنّنا إذا قلنا بجواز الإجهاض، وأنّ أيّة امرأة حامل إذا انزعجت من قضية ما، أو عانت من الوحام في فترة الحمل، أو دخلت في عراك مع زوجها، فيسمح لها بأن تسقط جنينها، نكون قد ارتكبنا جريمة بحق البشريّة وبحق الأم نفسها أيضاً، وهل الإجهاض عمليّة سهلة؟

نعم يجوز الإجهاض في حالات خاصّة. مثل أن يكون استمرار الحمل خطراً على حياة الأم، فتقدّم حياتها على حياة بويضتها.

أمّا الكلام بأنّ المؤمنين لا يهتمّون برأي الأم وهي بالغ، فالجواب أنّ كلّ عاقل لا يهتمّ برأي أيّ إنسان إذا كان خاطئاً، فلو رأينا مثلاً أنّ أحد الشباب يريد أن يرتكب جريمة الانتحار، فهل نحترم رأيه ونقول: ما دام يمتلك نفسه، فمن حقّه أن يرمي بنفسه في النار، أو من على مرتفع، أو يلمس سلكاً كهربائيّاً عارياً، أو أي شيء من هذا القبيل؟

هل الرأي محترم على كلّ حال؟ وماذا عن محاكمة أولئك الملحدين الذين قتلوا الألوف؟ ماذا عن النظام الموجود في كوريا الشماليّة مثلاً؟ هل الملحدون يحاكمون الإلحاد بناءً على ما يرتكبه هذا النظام من جرائم، أو أيّ نظام ملحد في التاريخ؟ وكم من أنظمة إلحاديّة قامت خلال القرن العشرين، وكانت ترفع راية الإلحاد وتحارب الإيمان، وتقتل كلّ من يعارضها من المؤمنين وغير المؤمنين، أم أنّ الإلحاد يكفي عند الملحدين لتبرير عمل صاحبه، مهما ارتكب من جرائم بحقّ البالغين والأطفال والنساء وغيرهم والإنسانيّة جميعاً؟

الإجهاض بين الإطلاق والتقييد

يقول الملحدون: إنّ المشكلة في قضيّة الإجهاض هي إصدار حكم مطلق، وهذا ما يفعله المؤمنون بالله وبالديانات، حيث يقول المتديّنون: «إنّ البويضة طفل، وقتلها هو جريمة قتل، هذا كلّ شيء.. انتهى». هكذا -وبكل بساطة- تُصدر المواقف المطلقة.

الجواب: إذا كانت مشكلة الملحدين مع الأحكام المطلقة، فلماذا هم أكثر الناس إصداراً للأحكام المطلقة؟ ولماذا لا يحاربون الأحكام المطلقة فيما يرتبط مثلاً بجريمة السرقة؟ ثمّ لماذا يحرّم القانون السرقة بشكل مطلق، ويحرّم القانون القتل بشكل مطلق، ويحرّم القانون مصادرة الحريّات بشكل مطلق؟ هل فعلاً الأحكام المطلقة مشكلة حقيقيّة في كلّ شيء وفي كلّ مكان؟ وهل من الصحيح أن نقول: لا لجميع الأحكام المطلقة؟

إضافة إلى أنّ الأحكام المطلقة دائماً فيها استثناءات، وهي موجودة في جميع الديانات وجميع القوانين، وجميع الأعراف. فحينما نقول مثلاً: إنّ أكل الميتة حرام، أو نقول إنّ شرب الخمر حرام، فطبعاً هنالك استثناء من ذلك، كأن يكون أحدٌ في حالة العطش الشديد في صحراء لا يجد إلّا الخمر، بحيث إذا لم يشرب يموت، فمن واجبه أن يشرب، وإذا وقعت مجاعة في مكانٍ ما ولم يجد الناس ما يأكلون إلّا

جثث الحيوانات الميتة، فمن الجائز أكلها، لكن حينما نتحدّث عن قانون مثل أكل الميتة، فنصدر القانون بشكل مطلق، وتبقى الاستثناءات في مكانها.

◂ بين القيل والقال

يقول الملحدون: هنالك الكثير من الشخصيّات المشهورة المتديّنة تتكلم بكلام لا يتناسب والعقل والحضارة التي وصلنا إليها اليوم، كما أنّ كلامهم يحتوي على الكثير من الانحطاط الأخلاقي، فمثلاً هنالك شخصيّة تُدعى آن كولتير (Ann Coulter) قالت في مجلة الآونيون (The Onion): «يجب أن نحتلّ بلادهم، ونقتل زعماءهم، ونحوّلهم إلى المسيحيّة»[١].

وكذلك آخرون من بينهم عضو الكونغرس بوب دورنان (Bob Dornan) قال: «لا تستعمل كلمة (gay) -التي تعني المثليّ الجنسي- إلّا في حالة كونها مختصراً للجملة (Got Aids Yet?)»[٢]، والتي تعني هل أصابك الإيدز بعد؟ وفي هذا الكلام إهانة للمثليّين اللّوطيّين.

الجنرال وليم ج. بو كين (William G. Boykin) قال: «إنّ جورج بوش لم يُنتخب من أغلبيّة المصوّتين في أمريكا، ولكنّه تعيّن في منصبه من قبل الله»[٣].

وعبارة أخرى جاءت في معرض الحديث عن قوانين الحفاظ على البيئة من قبل نائب رونالد ريغان (Ronald Reagan) للشؤون الداخليّة جيمز وات (James Watt) قال: «لا يجب علينا حماية البيئة

---

(١) www.adultthought.ucsd.edu/Culture_War/The_American_Taliban.html

(٢) www.azquotes.com/quote/581269

(٣) Vallely, Paul: Re-imagining security, P: 59, British Council, 2004.

لأنّ عودة المسيح ويوم الحساب قريبة جدًا»[١].

يقول ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): «الطالبان الأفغانيّين والأمريكيّين مثال جيد على ما يحدث عندما يأخذ الناس كتابهم المقدّس بشكل حرفي وجديّ. إنّهم يقدّمون لنا مثالاً عصريّاً عما سيؤول له الحال تحت السلطة الدينيّة للعهد القديم»[٢].

الجواب: الملحدون أيضًا يقولون أموراً غير صحيحة، ولكن هل يسمحون لنا أن نعتبر كلّ ما يقوله أيّ ملحد في أيّ مكان دليلاً ضدّ الإلحاد؟

فلو جاءت امرأة ما لم يُسمع بها من قبل وقالت: «يجب أن نحتلّ بلاد الآخرين ونقتل زعماءهم ونحوّلهم إلى المسيحيّة». فإنّ الملحدين يحسبون هذه الكلمة على المسيحيّة كدين، وعلى كلّ من يؤمن بالله، لأنّ امرأة واحدة من المتطرّفين قالت هذه الكلمة. أمّا إذا أُهين المثليّ الجنسيّ فهي الطامّة الكبرى، ويجب أن نرفض الدين بالمطلق لأنّ أحدهم قال إنّ (GAY) هي عبارة عن ثلاثة حروف لثلاث كلمات، فلو قال قائل إنّ «G» تعني (Got)، و(A) تعني (Aids)، و(Y) تعني (Yet) فيعتبرها الملحدون طامّة كبرى، ومن ثمّ فلا بدّ أن نعتبر أنّ الدين قوّة شرّيرة في العالم!

أو أنّ نائب رونالد ريغن للشؤون الداخلية قال: «يجب أن لا نهتمّ بالبيئة لأنّ عودة المسيح ويوم الحساب قريبة جدًا»، وبنظر الملحدين إنّ ذلك دليل على عدم وجود الباري، وإنّ الدين قوّة شرّيرة!

أنا أتساءل:

كم هنالك من المؤمنين بالله وبالكتب المقدّسة يقدّمون خدمات في مجال البيئة، وحقوق الإنسان والتطوّر العلمي، وإدارة البلاد، وتوزيع الثروة بشكل عادل، لماذا كلّ ذلك لا يحسب لحساب الدين، لكن إذا صرّح أحدهم تصريحاً سيّئاً في

---

(١) Akers, Michael: Enriching Christian Doctrine and Character, P: 59, AuthorHouse, 2009.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٢٩٢.

مجال ما يحسب على الدين؟!!

وما ارتباط ذلك بوجود الله، حتّى يذكره دوكنز في كتابه الذي اختار له عنوان (وهم الإله)؟

تُرى، كم يستدل هؤلاء بالقيل والقال، ويعتبرونها أدلّة علميّة!

عالم الآخرة

◂ لماذا الخوف من الموت؟

يقول الملحدون: لا داعي للإيمان بالحياة بعد الموت، لكي لا نخاف ونتألّم من موتنا، أو موت أقربائنا.

إنّ الفيلسوف برتراند راسل (Bertrand Russell) يقول في أطروحته التي صدرت عام ١٩٢٥م تحت عنوان (ما أؤمن به): «أؤمن بأنّني عندما أموت فإنّني سأتعفّن ولن يبقى منّي شيء، لست شابّاً ولازلتُ أحبّ الحياة، ولكن عليّ أن أزدري الارتعاش من رعب فكرة الزوال. السعادة بحدّ ذاتها سعادة حقيقيّة لأنّ لها نهاية، ولا يفقد الحبّ أو الفكر قيمته بسبب أنّه لا يدوم. الكثير من الرجال وقفوا مرفوعي الرأس على المشانق، هذا الفخر ذاته يرشدنا لمكانة الإنسان في الكون، حتّى عندما بدأنا نرتجف أمام نوافذ العلم المفتوحة بعد الطمأنينة الدافئة للأساطير الإنسانيّة التقليديّة فإنّ هذا الهواء النقي يمنحنا قوّة، والفضائيّات اللّامتناهية لها عظمتها الذاتيّة»[١].

ويقولون: «الموت مثل انتقال المرء من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب، ومن مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة، فلا داعي للخوف من الموت».

---

(١) Russell, Bertrand: The Basic Writings of Bertrand Russell, P: 348, Taylor & Francis Group, 2009.

الجواب: ثمّ ماذا؟ يعني إذا كان هنالك من لا يصاب بالاكتئاب بسبب فكرة الموت بدون الإيمان بالله، هل هذا دليل على عدم وجود الحياة بعد الموت؟ وهل نظرية راسل (Russell) وعدم خوفه من الموت، مع إيمانه بأنّه سيتلاشى ويتعفّن هو عزاء لجميع الناس؟

أنا من الذين يؤمنون بالموت وحتميّته وأخاف منه، وهذا خوف طبيعي عند جميع البشر، لأنّ الموت -كما يقول الإمام علي عليه السلام-: وارد كريه، لأنّه يفصلنا عن الحياة التي نعيشها الآن، ويقطع علاقتنا الاجتماعيّة والأسريّة، ويأخذنا إلى واقع مجهول لا نعرفه.

هذا هو سبب الاكتئاب من فكرة الموت والخوف منه، فكيف تعطيني العزاء بأن تقول لي: كنتَ طفلاً، فأصبحت شابّاً، ثمّ أصبحت كهلاً فأصبحت عجوزًا..؟ كلّ ذلك يختلف عن الموت تماماً فحينما كنت طفلاً، وكانت لي علاقات مع أقربائي لم تنقطع هذه العلاقات حينما كبرت، ولم تتوقّف حياتي كما تتوقف حينما أموت. كيف تستطيع أن تستبدل عزاءك بالإيمان بوجود حياة بعد الموت بأن تقول: أنت متَّ في صغرك وأصبحت شابّاً، أو تقول: إنّك لم تكن موجوداً قبل أن تولد وكنت ميتاً مليارات السنين وبناءً على ذلك فلا تخافنّ من الموت. وتدّعي بأنّ هذا دليل كافٍ على عدم الإيمان بالحياة بعد الموت..إنّ هذا يختلف تماماً عن ذاك فأنا الآن موجود، أخاف من الموت، لأنّه يجعلني عدماً بناءً على نظريّة الملحدين، أو يأخذني إلى مجهول لا أعرف كيف سأكون بعد الموت، بناءً على اعتقاد المؤمنين.

وهنا أشير إشارة سريعة إلى نقطة مهمّة وهي: أنّ الملحدين كثيراً ما يستشهدون استشهاداً انتقائيّاً بكلام فيلسوف هنا أوعالم هناك، ترى لماذا لا ينقل هؤلاء كلام ابنة الفيلسوف برتراند راسل (Bertrand Russell) حول والدها وأفكاره؟ أم أنّ نقل مثل هذا الكلام لا يخدم مصالحهم فلذلك يتغاضون عنه؟

انظروا إلى ما كتبته كاترين تيت (Katharine Tait) ابنة راسل في كتابها أبي برتراند راسل (My Father, Bertrand Russell) حيث تخبرنا أنّ أباها كان

يشعر دائماً بوجود مكان شاغر في عقله وفي قلبه، مكان كان يشغله الربّ عندما كان راسل صبيًّا، ثمّ أصبح خاوياً ولم يعثر على شيء يملؤه.

وتقول كاترين بأنّ والدها كان يشعر دائماً أنّ جوهر الإنسان لا ينتمي إلى هذا العالم المادي، وأنّه أخذ منه بداياته الفلسفيّة، وكان طوال حياته يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة.(١)

◂ لماذا يخاف المؤمنون من الموت؟

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين بالحياة بعد الموت يتظاهرون بأنّهم مؤمنون حقّاً بهذه الحياة، إلّا أنّهم في حقيقة الأمر يُنكرون ذلك، وإلّا لرأيتهم يفرحون إذا ماتوا أو إذا مات لهم عزيز، والواقع يكذّب ذلك، فهم يبكون ويخافون من الموت، وإذا قيل لأحدهم بأنّه سيموت خلال أيّام فإنّه يُصاب بالاكتئاب والخوف.

«إنّ استطلاعات الرأي تُظهر أنّ ٩٥٪ من الشعب الأمريكي يؤمنون بأنّهم سيقومون من موتهم، أي ستكون لهم حياة بعد الموت، مع قطع النظر عن إيمانهم إذا كان حقيقيّاً أو مجرّد تمنّي، وأنّهم ليسوا صادقين في ذلك، إلّا أنّهم جميعاً يخافون من الموت ولا يفرحون به، وإذا مات أحد رأيت مجالس العزاء تُعقد، وأهله وأصدقاؤه يبكون عليه.

لو كانوا فعلاً صادقين ألا يجب عليهم جميعاً أن يتصرّفوا مثل رئيس الدير في آمبلفورث (Ampleforth) عندما قال له الكاردينال بازل هيوم (Basil Hume) بأنّه يحتضر فشعر رئيس الدير بالفرح لأجله، وقال: «مبروك.. إنّها أخبار سارّة فعلاً، كم كنتُ أتمنى أن أرافقك». رئيس الدير على ما يبدو كان مؤمناً صادقاً، لكن كون قصّته

(١) Tait, Katharine: My Father, Bertrand Russell, p.189, Harcourt Brace Jovanovich, 1975.

نادرة وغير متوقّعة هو السبب الذي يجعلها متميّزة تشدّ انتباهنا لدرجة الضحك.

لماذا لا يتصرّف كلّ المسيحيّين والمسلمين بطريقة رئيس الدير عندما يسمعون بأنّ صديقًا لهم قد توفي؟

عندما يقول طبيبٌ لامرأة مؤمنة بأنّ لها بضعة أشهر فقط في الحياة، لماذا لا تضيء بالفرح واللّهفة المفرحة، كما لو كانت قد حصلت على إجازة في جُزر سيشيل (Seychelles)؟

لماذا لا يعطيها زوّارها رسائل لتوصلها لمن رحلوا قبلها؟

لماذا لا يتكلّم المؤمنون بتلك الطريقة عندما يكونون في حضرة إنسان يحتضر؟ هل لأنّهم لا يؤمنون بتلك الأمور لكنّهم يتظاهرون بالإيمان بها، أو أنّهم يؤمنون بذلك ولكنّهم يخافون الموت نفسه؟»[١]

الجواب: الملحد جميع أدلّته وبراهينه وقصصه شاذّة ونادرة وأحياناً خياليّة وغير صحيحة، فلماذا باء الملحدين دائماً تجرّ وباء المؤمنين لا تجر؟

وهم يقعون في تناقض عندما يستدلّون بأمور شاذّة ثمّ يقولون: إنّ ما فعله صاحب الدير كان شاذّاً! نحن نقول إنّ الإيمان بالحياة بعد الموت لا يجعلنا سعداء بالموت، والسبب مفارقة الأحبّة، نعم، هنالك حياة بعد الموت، لكن مفارقة أحبّتنا تؤلمنا على كلّ حال، إضافة إلى أنّنا لا نعرف هل نحن مرضيّون عند الله أم لا؟.

وكما قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام حينما بكى عند موته قائلاً: «**إِنَّمَا أَبْكِي لِخَصْلَتَيْنِ لِهَوْلِ الْـمُطَّلَعِ وَ فِرَاقِ الأَحِبَّة**»[٢].

فهل إذا آمنّا بوجود الحياة بعد الموت فإنّ علينا أن نرحب بمفارقة الأحبّة؟ ما هذا المنطق الأجوف!

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦١-٣٦٢.

(٢) الكليني، العلامة الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق: مرجع سابق، ج١، ص٤٦١.

أنت إذا آمنت بأنّ عزيزاً لك سوف يفارقك إلى دولة أخرى، وبسببٍ من الأسباب لن تلتقي به مرّة أخرى، ألا تبكي عند فراقه؟

هل إيمانك بأنّه حيّ يُرزق ولكن بعيداً عنك، ولن تلتقي به يكفي كعزاء لك؟ هل يكون ذلك دافعاً لك لكي تضحك عند مفارقته؟

لو أنّ أحداً حُكم عليه ظلماً وعدواناً بالسجن المؤبّد، وكان عليه أن يودّع أحبّته ألا يبكي ويبكون عليه لأنّه يفارقهم إلى السجن؟ مع أنّهم يعلمون أنه حيّ، لكنّ مفارقة الأحبّة صعبة.

نحن بشر وعندنا عواطف، فقضيّة عدم الترحيب بالموت لا يعني أنّنا لا نؤمن بوجود الحياة بعد الموت، بل نؤمن بوجودها، ولكن يعزّ علينا أن نفارق أحبّتنا كما أنّنا بالطبع لا ندري إنْ كانت أعمالنا حسنة ونحن مرضيّون عند ربّنا أم لا؟ مع معرفتنا بأنّنا ارتكبنا خطايا، وأنّ الله لو أراد أن يحاسبنا على ذلك لعاقبنا، فخوفنا من الموت ليس لأنّنا لا نؤمن بالحياة بعد الموت أو إنّنا لا نؤمن بالجنّة، وإنّما هو لأنّ هذه المفارقة يرافقها القلق على مصيرنا، إضافة إلى البكاء لفراق الأحبّة.

لنضرب مثالاً: لو أُعطي الوعي لطفل على وشك أن يُولد، وهو لايزال في رحم أمّه، وأنّه سوف يفارق الرحم إلى الدنيا لكنّه مع ذلك يأتي باكياً، مع إيمانه بأنّ هنالك حياة أوسع بعد الولادة، فلماذا يبكي؟

لعدّة أسباب:

- **السبب الأوّل**: لأنّه إذا كان توءماً لأخ له داخل الرحم، وكان عليه أن يأتي إلى الدنيا قبل أخيه، لا يدري هل أخاه سيولد معه أم لا، فهو يبكي لفراقه.
- **السبب الثاني**: لأنّه يترك المكان الدافئ الذي يعيش فيه في داخل الرحم، ولا يعرف عن حياة الدنيا شيئاً.
- **السبب الثالث**: يخاف إذا ولد ربّما يفقد عضواً من أعضائه، فهل حينئذ يقال له: أنت كاذب لا تؤمن بوجود حياة خارج الرحم، وإلّا لما كنت تبكي؟

عالم البرزخ بين الوجود والعدم

يقول الملحدون: هنالك من يدّعي بوجود عالم اسمه عالم البرزخ، والكلام عن هذا العالم كالحديث عن القصص الخياليّة التي تحتوي على الكثير من الأساطير والتهويل.

لماذا يجب علينا أن نؤمن بعالم اسمه البرزخ؟ ولماذا يجب أن نخاف منه؟ لأنّه وبكلّ بساطة -حسب ادّعاء هؤلاء- هو عالم فيه الكثير من العذاب للمذنبين، إنّه كغرفة انتظار لأرواح الموتى ذوي الذنوب التي لا تكفي لإرسالهم مباشرة إلى الجحيم، ولكنّهم لا يزالون محتاجين للتطهير والفحص قبل أن يتمّ إرسالهم إلى الجنّة الخالية من الذنوب.

إنّها الأفكار الغير معقولة التي يطرحها الفكر الديني!

ويضيف هؤلاء: «في العصور الوسطى قامت الكنيسة ببيع صكوك الغفران مقابل المال. الناس كانت تدفع لتقليل عدد معيّن من الأيام في البرزخ، والكنيسة وبدقّة تقطع الأنفاس أصدرت شهادات موقّعة تحدّد عدد الأيام التي تربحها بعد أن دفعتَ ثمنها المحدَّد. الكنيسة الكاثوليكيّة مؤسّسة قام ربحها ربّما على كلمة «الحرام» التي اُخترعت خصّيصاً لأجلها، ومن بين كلّ الطرق والحيل لقنص الأموال فإنّ بيع صكوك الغفران هو إحدى أبشع طرق النصب في التاريخ، له ما يقابله حديثاً على الانترنت وهو ما يُعرف برسائل نيجيريا، لكنّ فكرة صكوك الغفران كانت أكثر نجاحاً بكثير»[1].

الجواب: لا يمكن أن نكفر بحقيقة ما فقط من خلال استبعادها، فإذا قلنا بأنّ عالم الرحم هو برزخٌ ما بين عالم الأرواح وعالم الدنيا لأنّ الجنين يتكوّن في داخل الرحم، ثمّ ينتقل إلى عالم الدنيا، فهل يجوز لأحد أن يقول: إنّ التلقين على هذا

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦٤.

الكلام يعني محاولة دفع الناس إلى الإيمان بوجود عالم الرحم، وهذا دليل على لامعقوليّة وجود عالم الرحم، لأنّه شكل من أشكال استقبال المهاجرين إلى الحياة، وأنّ عالم الرحم غرفة انتظار للناس قبل مجيئهم إلى الدنيا!

فمجرّد استبعاد هذا الأمر لا يعني أنّه غير موجود، إنّ عالم الرحم موجود وهو برزخٌ حيث يتهيّأ الطفل لكي يعيش في هذا العالم المادّيّ، ومن ثمّ يحتاج الإنسان فيه ليس فقط إلى الروح وإنّما إلى الجسد، وهذا الجسد يتكوّن في عالم الرحم، ثمّ يُؤتى بالطفل إلى الدنيا، ثمّ يكبر ثمّ يموت ويذهب إلى عالم البرزخ، وعالم البرزخ بالنسبة إلى الحياة الأبديّة هي غرفة انتظار، أو سمّها ممراً، أوسمّها ما شئت.

فما المشكلة في وجود هذا العالم؟

إنّ مجرد الاستهزاء بالبرزخ واعتباره غرفة انتظار، هل يلغيه أو ينفيه لأنّك لا تريد الإيمان به؟

هذا هو منطق الملحدين.

فهم من جهة يُطلقون الأحكام المطلقة بلا دليل، ومن جهة أخرى يستهزؤون بما لا يؤمنون به، ثمّ يبنون حجّتهم عليه، ولذلك تجد في كلّ صفحة من صفحات كتبهم التحقير لما لا يؤمنون به، يعني بمجرّد أنّهم لا يؤمنون بشيء يحقّرونه، ولا يراعون مشاعر الآخرين، فعندما يتناولون مسألة وجود الله، وهو قدس الأقداس عند المؤمنين لا يتورّعون عن السبّ والشتيمة، على طريقة أولاد الشوارع، وكلّ ذلك يسمونه علماً.

هل فعلاً هذه طريقة علميّة في مناقشة أمور مهمّة أساسيّة ترتبط بمصائرنا؛ مثل وجود الله، ووجود عالم الآخرة، ووجود الجنّة والنار؟

هذه القضايا العظيمة هل يمكن نفيها بالاستهزاء والتحقير والسب والشتيمة، كما يفعل الملحدون؟

بينما تجد أنّ ربّنا عزّوجلّ في الكتاب المقدّس لدى المسلمين وهو القرآن الكريم يذكر آراء المخالفين، من الذين لا يؤمنون بوجود الله، والذين يرفضون

دعوة الأنبياء عليهم السلام، ولا يؤمنون بعالم الآخرة، يذكر عقائدهم بكلّ احترام، ولا يستهزئ أو يحقّر الذين لا يؤمنون.

أمّا مسألة بيع صكوك الغفران من قبل الكنيسة الكاثوليكيّة في العصور الوسطى، فهذا خطأ من الأخطاء التي ارتكبتها الكنيسة، ولا ارتباط لذلك بوجود عالم البرزخ أو عدم وجوده، أي أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة في تلك العصور استغلّت إيمان الناس بعالم الآخرة استغلالاً سيّئاً، وهل ذلك يعني أنّ عالم الآخرة غير موجود؟

تُرى لو قام اليوم شخص ببيع شهادات الطبّ في مقابل المال، هل ذلك يعني عدم وجود علم الطب مثلاً؟

إنّ استغلال الكنيسة، أو حتّى مجموعة من اللصوص في نيجيريا، لقضيّة ما لا يعني أنّ تلك القضية غير موجودة.

إذا كان البعض في نيجيريا يرسل رسائل عبر الانترنت يبيّن للناس أنّهم قد ربحوا مبلغاً من المال في اليانصيب ويحتالون بذلك، فهل معنى ذلك أنّه لا وجود للمال، ولا وجود للأرباح، ولا وجود لما يحتاج الناس إليه وما يرغبون فيه؟

◄ بين الدعاء وصكوك الغفران

يقول الملحدون: «إنّ البابا بيوس العاشر (Pope Pius X) قام في عام ١٩٠٣م بتحديد جداول بعدد الأيام التي يستطيع كلّ من في التدرّج الكنسيّ إعطاءها للإعفاء من عذاب البرزخ، فللكردينالات مئتا يوم، ولرؤساء الأساقفة مئة يوم، وللأساقفة خمسون يوماً فقط. وفي هذا الوقت على أيّ حال لم تبع صكوك الغفران بالمال مباشرة، فمنذ القرون الوسطى لم يكن المال هو العملة الوحيدة التي يستطيع البشر دفعها للحصول على إجازة من البرزخ، بل كان بالإمكان الدفع من خلال الصلوات أيضاً، الصلوات الشخصيّة والأدعية خلال

حياتك أو صلوات الآخرين لأجلك بعد موتك، أي أنّ الدعاء كان للبيع أيضاً، فلو كان الفرد غنيّاً فباستطاعته شراء الراحة لروحه إلى الأبد»[1].

الجواب: المقارنة بين صكوك الغفران والدعاء هي مقارنة باطلة. هذا يشبه أن نقول: إنّ من يقول بأنّ عليك أن تكون رجلاً من الصالحين، وتدفع المال للفقراء، وتقيم مؤسّسات تعليميّة، وتبني مراكز للأيتام ومدارس للطلّاب، هذا مثل صكوك الغفران! ففي صكوك الغفران كنت تدفع المال فتصبح إنساناً صالحاً، وبهذه الأعمال أيضاً تكون صالحاً وبذلك تدّعي أنّ القيام بمثل هذه الأعمال خطأ!

أنت بهذه الأعمال تكون صالحاً فعلاً، ولكن بصكوك الغفران لا، فلماذا المقارنة ما بين الدعاء وما بين صكوك الغفران؟ لضرب هذا بذاك أو العكس؟

◂ الخيانة والاستهزاء لا تدلّ على العدم

يقول الملحدون: إنّ المؤمنين يعتقدون بأنّهم بحاجة ماسّة إلى إرسال الأدعية والصلوات لهم في عالم البرزخ بعد موتهم، ولذلك فهم يؤسّسون المؤسّسات الخيريّة والتعليميّة في هذه الدنيا كي يقوم كلّ من يستفيد من هذه المؤسسات بالدعاء لهم، وبذلك يحصلون على راحة أرواحهم في عالم البرزخ، ويكسبون الامتيازات في ذلك العالم، ويشبّهون ذلك بصكوك الغفران.

ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) يتحدّث عن مؤسّس كليّته في جامعة أكسفورد فيقول: «لقد أنشئت عام ١٣٧٩م من قبل أحد أعظم المحسنين في ذلك القرن، وليم ويكيهام (William of Wykeham) الذي كان أسقف ونشستر (Winchester).. وقد استعمل ويكيهام غناه ونفوذه لتأسيس

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦٤.

مؤسّستين تعليميّتين عظيمتين، التعليم كان مهمّـاً لويكيهام، ولكن وبما هو ثابت في كتب التاريخ فإن الهدف الرئيسي لتأسيس الكليّة هو جعل الكليّة كمعبد كبير حيث الصلوات تقرأ شفاعة لروحه، لقد خُصّصت موارد لخدمة عشرة قساوسة وثلاثة كتّاب صلوات وستة عشر مرنّماً، وأوصى بأنّه في حالة ضعف موارد الكليّة ماليّاً فسيكونون هم الوحيدين الذين يبقى دخلهم سارياً، ويكيهام ترك الكليّة الجديدة بأيدي الهيئة الإداريّة، مجموعة ذاتيّة الانتقاء والتي استمرّت لأكثر من ٦٠٠ عام.. يبدو أنّه كان واثقاً بأنّنا سوف نستمرّ بالدعاء لروحه خلال هذه القرون.

الآن يوجد قس واحد في الكليّة وبدون أيّ كاتب صلوات، وهذا الشلال المتواصل من الصلوات على روح ويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلّصت إلى صلاتين في العام»[1].

الجواب: السؤال هنا هو: هل أنّ هذا الرجل قد قام بعمل صحيح أو غير صحيح، سواء كانت نيّته أن يدعو الناس له، أو لم تكن نيّته كذلك؟ لماذا تُدين هذه الكليّة وأنت تدرّس فيها؟ فهي مثل أغلب الجامعات الكبرى في العالم قد أسّستها المؤسّسات الدينيّة؛ إمّا الكنائيس وإمّا الأساقفة، وهذا عمل جيد، لكنّ الملحدين يُدينون هذا العمل الجيد. أتدرون لماذا؟ لأنّ من أسّس هذه الكليّات كان مؤمناً بالله ويطلب من الناس الدعاء لهم بعد موتهم.

ثمّ يقول: «الآن يوجد قس واحد في الكليّة وبدون أيّ كاتب صلوات، وهذا الشلال المتواصل من الصلوات على روح ويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلّصت إلى صلاتين في العام».

ثمّ ماذا؟

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦٤-٣٦٥.

هذا الاستهزاء بالرجل من خلال القول بأنّه قام بهذا العمل لكي يدعو الناس له ولكن الناس تركوا ذلك، إذن على الناس أن يكفروا بوجود الله وبعالم البرزخ!

وما علاقة الدليل بالمدّعى؟ شخص يطلب أن تدعو له، وحيث لم يدع له الناس، فوجود عالم البرزخ كذب!

هذه هي طريقة استدلال الملحد؛ يأتيك بقضية فرديّة، ثمّ يستدلّ بها على مسألة لا ارتباط لها به.

ويواصل ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) حديثه حول وليم ويكيهام (William of Wykeham) فيقول: «بمفهوم زمانه فإنّ ويكيهام فعل بشكل مشابه لشخص غنيّ في أيامنا، من الذين يهبون الكثير من المال لمؤسّسة تضمن لهم تجميد أجسادهم وإبقاءها معزولة عن الهزّات الأرضيّة والحروب النوويّة والأخطار الأخرى حتّى زمن لاحق، حيث يكون الطب قد توصل إلى معرفة كيفيّة إرجاعهم وشفاء العلّة التي كانوا يشكون منها، لكن هل نحن الأعضاء الإداريّين اللّاحقين على اتّصال بالمؤسّس؟

المئات من المحسنين ماتوا، واثقين ممن وظّفوهم ودفعوا لهم، ليصلّوا لهم في البرزخ، لا أستطيع تمالك نفسي من التساؤل: كم من الأعمال الفنيّة والكنوز المعماريّة في القرون الوسطى بدأت كعربون من أجل الأبديّة، والتي تمّت خيانتها الآن؟»[1].

الجواب: إذا كان أمثال ريتشارد دوكنز قد خان الأمانة باعترافه[2]، ولم يصلّ لراحة روح ويكيهام، ولا أهتمّ به كمؤسّس لتلك الكليّة، واكتفى بالاستهزاء به لأنّه كان يؤمن بوجود عالم البرزخ، فهل هذا دليل على عدم وجود الحياة بعد الموت، لأنّ رجلاً ملحداً كريتشارد دوكنز جاء بعد هذه السنين وكفر بوجود الله

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦٥.

(٢) يقول دوكنز: «حتّى أنّني أشعر ببعض الذنب -كأحد الأعضاء من الهيئة الإدارية- لخيانة الأمانة».

ولم يؤمن بعالم البرزخ، ثمّ يعترف بأنّ كثيراً من الأعمال الفنيّة والكنوز المعماريّة في القرون الوسطى أُنشئت من أجل راحة مَن فعل ذلك في عالم البرزخ، إذن هذا عربون من أجل الأبديّة وتمّت خيانتها! ثمّ ماذا؟

أهذا دليل على عدم وجود عالم البرزخ؟

إنّ استدلال هؤلاء الملحدين على عدم وجود عالم البرزخ لأنّهم خانوا من كان يؤمن بها، أي أنّ مَن قام بعمل صالح إنّما فعل ذلك من أجل راحة روحه في عالم البرزخ، وأراد أن يدعو الآخرون له لكن الناس خانوه، إذن فعالم البرزخ غير موجود. أليس هذا الاستدلال مضحكاً؟

وتعالوا نرى، كيف أنّ دوكنز يستهزئ بالبراهين والأدلّة على وجود عالم البرزخ، مدّعياً كذباً أنّ الدليل الوحيد الموجود على عالم البرزخ هو ما ذكرته الموسوعة الكاثوليكيّة (Catholic Encyclopedia)، ويذكر الدليل قائلاً: «لو أنّ الموتى ذهبوا مباشرة للجنّة أو لجهنّم وفقاً لذنوبهم على الأرض لما كان هناك أيّ معنى للصلاة من أجلهم، فلماذا الدعاء للميّت إذا لم يكن هناك إيمانٌ بأنّ قوّة الدعاء تؤمّن بعض العزاء لأولئك الذين لم تنقطع عنهم بعد رحمة الله».

ثم يستهزئ بهذا الكلام قائلاً: «نحن فعلاً ندعو للميت، أليس كذلك؟ ولهذا فإنّ البرزخ موجود، وإلّا فإنّ صلواتنا ليس لها معنى! هذا هو مثال لما يتمّ القبول به بكل جديّة كبرهان في الفكر الدينيّ»[1].

أليس الرجل يستدلّ بنفس الطريقة في إنكار وجود عالم البرزخ؟

يقول: نحن نخون مَن قاموا بأعمال صالحة ومفيدة للبشريّة، وكانوا يرجون أن يأتي أناس يدعون لهم، ولأنّنا نخونهم ولا ندعو لهم إذن عالم البرزخ غير موجود!

غريب إنّ أهم دليل عند هذا الملحد على عدم وجود عالم البرزخ هو أنّه شخصيّاً يخون الذين قاموا بالأعمال الصالحة، وأقاموا المشاريع النافعة التعليميّة

---

(١) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص٣٦٥.

كجامعة أكسفورد ولا يدعو لأصحابها، إذن عالم البرزخ غير موجود، هذا هو أهمّ استدلال عند الملحدين على عدم وجود البرزخ!

هذا الأسلوب غير علمي، وغير وجداني، وعقيم في الاستنتاج، ويتمّ استخدامه بإطار واسع في تدعيم حجج المنكرين لعالم البرزخ.

إنّ الملحدين بشكل عام حينما يذكرون براهينهم فهي مجرّد كلمات خطابيّة، واستدلالات بلا معنى، وأمثلة لا ارتباط لها بحقيقة الموضوع، ثمّ إطلاق أحكام مطلقة، وهذا ظاهر وجلي في كلّ كتابات الملحدين.

الخوف من جهنّم

يقول الملحدون: إنّ صبّ الاهتمام على الجحيم والنار والعذاب في يوم القيامة هو أحد أساليب المتديّنين لدفع الناس للإيمان. وهذا فيه انتهاك للحقوق الإنسانيّة، خاصّة فيما يرتبط بالأطفال، حيث يتمّ تخويف الأطفال من خلال بعض المسرحيّات أو من خلال الكلمات التي تقال لهم عن الجحيم.

الجواب: أعتقد أنّ الملحدين يخافون من الحديث عن جهنّم بسبب أمر لا شعوريّ، ذلك لأنّ وجدانهم يدفعهم إلى أن يحسبوا حساباً لما قد يتعرّضون له من العقاب. ولإسكات صوت الضمير يُدينون المتديّنين لأنّهم يتحدّثون عن جهنّم، وهذا دليل على أنّهم بالفعل يخافون من جهنّم، وإنّما ينكرون وجودها، ويرفضون الحديث عنها لإسكات ضمائرهم.

هم يقولون: لماذا يتمّ الحديث عن النار وعن العقاب، وليس عن الراحة حتّى بعد الموت؟.. وسؤالنا هو: لماذا يذكر المشرّعون للقوانين، ورجال الدول العقوبات الموجودة في القوانين؟

أليس من الغريب أن نقول إنّ على جميع الناس أن يخافوا من مخالفة القانون، لأنّ مخالفة القانون تؤدّي إلى عقوبات، فما من قانون يُنتهك حتّى لو كان بسيطاً

يرتبط بقواعد مرور السيارات مثلاً إلّا وله عقاب في القانون، وهذه طبيعة الحياة الاجتماعية فهل في ذلك انتهاك للحقوق الإنسانيّة؟

لو كنا نعيش في الغابات لقلنا بأنّه لا يوجد عقاب لانتهاك القانون، لكن مادمنا نعيش في وسط المدَنيّة فإنّ وجود القانون ضروريّ، ومعنى وجود القانون أنّ من ينتهكه يُعاقَب، ومن يلتزم به يُثاب، فلماذا يجوز للناس أن يتحدّثوا عن عقوبات مخالفة القانون، ولا يجوز للمتديّن أن يتحدّث عن العذاب لمخالفة أوامر الله تعالى وارتكاب الظلم والطغيان والعدوان ومصادرة الحقوق؟

إنّ وجود الآخرة هو الأمر الأساس في جميع الديانات، لكنّ الملحدين يريدون ألّا يتحدث أحدٌ عن الحياة بعد الموت، وعن وجود الجنّة والنار.

ثمّ إن كانوا ينكرون الحياة بعد الموت فلماذا لا يريدون الحديث عن جهنم فهي غير موجودة حسب اعتقادهم؟!

وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون

يقول الملحدون: إنّ إيماننا بأنّ الحياة الدنيا هي الحياة الحقيقيّة، ولا حياة وراءها هو الذي يجعلها أعظم قيمة، بينما الذين يقولون بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة يسلبون من هذه الحياة روعتها.

الجواب: هذا غير صحيح، لأنّ من يقول للأطفال وهم صغار بأنّ وراء مرحلة الطفولة، التي هي مرحلة اللهو واللعب، حياة جديّة في شبابكم، وفي كهولتكم، وفي شيخوختكم، فلابدّ أن تهتموا في مرحلة الطفولة بالتعلم والتربية، واستيعاب المهن المختلفة، لأنّ هنالك حياة أخرى لكم تنتظركم، هو الذي يعطي لحياتهم في الطفولة قيمة، وليس من يقول لهم إنّ هذه الفترة التي تعيشونها هي وحيدة، ولا وجود لحياة أخرى وراء ذلك.

عن السعادة

السعادة بين الإلحاد والدين

سؤال: أليس من الممكن أن يكون أحدهم ملحداً وسعيداً ومتوازناً ومقتنعاً بفكره بشكل كامل؟

الجواب: ما معنى السعادة حتّى نرى: هل الذين يُؤمنون بالله هم الأكثر سعادة، أم الذين لا يؤمنون؟

هل الملتزمون بالأخلاق الفاضلة أكثر سعادة، أم الذين لا يؤمنون بها ولا يضعون أيّة حدود لتصرّفاتهم، ولا مانع يحجزهم عن الظلم والتعدي؟!

فما هي السعادة حتّى نعرف هل بالإمكان أن يكون أحدهم ملحداً وسعيداً في آن واحد، أو أنّ ذلك غير ممكن؟

ترى، إذا لم نؤمن بوجود من يحاسبنا على أعمالنا، ولم نؤمن بعالم الآخرة، ولا بوجود الحساب والكتاب، والجنّة والنار، لماذا نلتزم بالحدود والقانون والقيم؟

وإذا كانت السعادة الشخصيّة هي الميزان، فهل يسمح لنا الملحدون بأن نستخدم المخدرات، لأنّ من يستخدمها سعيد بذلك؟

هل يسمح الملحدون لشخص ما بأن يسرق، ويظلم غيره حتّى يعيش سعيداً، ولو على حسابهم!

ليس من السعادة أن يعيش الإنسان على حساب الحقيقة، مهما ظنّ الملحدون خلاف ذلك.

◄ السعادة برؤية موضوعيّة

يقول الملحدون: إنّ بعض المؤمنين بالله من المسيحيّين واليهود والمسلمين والهندوس والبوذيّين تعساء، بينما بعض الملحدين سعداء، مما يعني أنّه لا توجد علاقة بين السعادة والإيمان.

الجواب:

أوّلاً: أغلب المؤمنين بالله سعداء، وليسوا تعساء.

وثانياً: لا يمكن الأخذ بالشواذّ كدليل وبرهان وميزان للبناء عليه. نعم هنالك في المؤمنين بالله من هو ليس بسعيد، ولكن عدم سعادته لا ارتباط له بإيمانه. تماماً كما أنّنا نجد أنّ أغلب المتزوّجين سعداء لكن هنالك بينهم بعض التعساء أيضاً، وأولئك التُعساء من المتزوجين لا ارتباط لتعاستهم بزواجهم، وإنّما لها أسباب أخرى. إضافة إلى أنّ المؤمنين بالله لا يدّعون دائماً بأنّ من آمن بالله يصبح بالضرورة أكثر سعادة، فالمؤمنون بالله لا يتحدّثون عن السعادة المطلقة إلّا في الآخرة وفي الجنّة بالتحديد، وكلّ المؤمنين يتكلّمون عن الدنيا كدار بلاء وابتلاء، وكمكان فيه أسباب للسعادة وأسباب للتعاسة، لأنّ الله خلط في الحياة الدنيا الظلمة والنور، والخير والشر، والسعادة والشقاء، وخلقنا في وسط هذه المعمعة لكي يمتحننا.

فلم يقل المؤمنون للناس إنّكم إذا آمنتم بالله وبالأنبياء عليهم السلام ستكون دنياكم جنّة لا شرّ فيها، وسعادة لا شقاء فيها، ما ادّعى أحدٌ من المؤمنين هذا، لا من الأنبياء ولا من الأولياء ولا من غيرهم.

وكلام الملحدين إنّما هو تقوّل على المؤمنين، فالملحد يدّعي بأنّ المؤمنين بالله يقولون لو آمنتم بالله فحياتكم ستكون سعادة بلا شقاء، وخيراً بلا شرّ، وغنىً بلا فقر، وحياة بلا موت، ثمّ يقولون: نحن نجد أنّ بعض المؤمنين لا يتمتّعون بذلك، إذن الإيمان غير صحيح. هذا تقوّل على المؤمنين لأنّهم لم يقولوا بذلك لكي تفنّدوه بادّعاء العكس.

ثالثاً: إنّ السعادة الحقيقيّة هي السعادة الدائمة وليست السعادة القصيرة التي يتبعها شقاء وتعاسة، ولذلك فإنّ المؤمنين يرون أنّ هذه الدنيا هي فترة زمنيّة قصيرة مقارنة بالآخرة وتحتوي على السعادة والشقاء، ولكن السعيد الحقيقي هو من يحصل على السعادة الدائمة في يوم الجزاء، لأنّ السعادة هناك تستمر مدى الحياة.

وهكذا فإنّ السعيد الحقيقي هو من يستعدّ لذلك العالم الذي لا تنتهي سعادته، ومن هنا فإنّ المؤمنين يعملون بكلمة أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «**مَنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي صَلَاحِهَا سَعَدَ، مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ فِي لَذَّاتِهَا شَقِيَ وَ بَعُدَ**»[1]

◂ إمّا ربح كبير أو خسارة كبيرة

يقول الملحدون: «لنفترض بأنّنا آمنّا بأنّ هنالك احتمالاً صغيراً لوجود الله، وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول بأنّك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راهنت على عدم وجوده، وليس لو راهنت على وجوده، والذي يعني ضياع وقت ثمين في عبادته وتقديم الأضاحي له، والقتال في سبيله والموت لأجله...الخ»[2]، فلماذا ننشغل ونخسر الأفضل في هذه الحياة، ونعيش تعساء؟!

الجواب: هل الملحدون على مرّ التاريخ كانوا أسعد من غيرهم؟

هل الملحدون لم يضيّعوا وقتاً ثميناً على أشياء تافهة، بل على أمور كانت فيها الخسارة بالمطلق؟

هل الملحدون يصرفون أوقاتهم دائماً على أشياء ثمينة، ولا يضيّعون أيّ وقت على ما لا ينفع في شيء؟

(١) الآمدي، الشيخ عبد الواحد بن محمد التميمي: مرجع سابق، ص٦٠٥.

(٢) دوكنز، ريتشارد: مرجع سابق، ص١٠٧-١٠٨.

لنفترض أنّ عبادة الله لا تؤدّي إلى نتيجة كما تقولون. السؤال هو: هل نحن من الذين لا نضيّع أوقاتنا على أمور لا تؤتي بنتائج؟ على الأقلّ مع الإيمان فإنّ احتمال الربح مع وجود الله كبير، كما أنّ احتمال الخسارة بعدم الإيمان به كبير أيضاً، إنّ الأمر دائر بين سعادة مطلقة في الجنّة، أو شقاء أبدي في النار.

الفصل الثالث

أنتوني فلو

تراجع أشرس الملحدين عن الإلحاد

قبل البدء

ماذا لو أعلن أحد الملحدين ارتداده عن الإلحاد وإيمانه بوجود خالقٍ لهذا الكون؟!

ماذا لو قال أحد زعماء الإلحاد: إنّني كنت مخطأً؟

ماذا لو فنّد أحد مؤسّسي الإلحاد الأفكار والنظريّات التي وضعها بنفسه كمنهج للملحدين؟

ترى هل سيقرُّ الملحدون عندها بالخطأ ويتراجعون عن مغالطاتهم؟

إنّ هذه الأسئلة ليست فرضيّات وإنّما هي واقع متحقّق في كثير من الأوقات، ذلك أنّ الإنسان كثيراً ما كان ينتبه -في لحظة وعي- إلى أخطائه وخطاياه، ومن ثمّ يتوب ويعود إلى الصواب، وهذا متحقّق في كثير من مجالات الحياة، ولاسيما في مجال الإيمان والكفر وكلّ ما يتعلّق بهما، فكم من مجاميع من البشر -و منذ الزمن الغابر- انحرفتِ عن جادّة الحق، إلّا أنّ البعض منهم عاد إلى الطريق الصحيح، وصحح مساره بعد انحرافه.

وفي زماننا الحاضر نزلت صاعقة قاصمة على الملحدين حينما أعلن أحد أشرس المدافعين عن الإلحاد تحوّله من ضفة الإلحاد إلى الإيمان، وآمن بوجود إله وخالق؛ إنّه أنتوني فلو (Antony Flew) أستاذ الفلسفة البريطاني الشهير، والذي تزعّم حركة الإلحاد في العالم لما يزيد عن نصف قرن، وكتب أكثر من ثلاثين كتاباً وبحثاً فلسفيّاً كانت بمثابة جدول أعمال الملحدين طوال النصف الثاني من القرن العشرين.

لقد ارتأيت أن أنقل لكم قصّة أنتوني فلو لكي يرى المشكّكون كيف أنّ أحد أكابر الملحدين قد تراجع عن أقواله، ولكي يرى العالم كيف أنّ الملحدين كانوا يقدّسونه قبل إعلان تراجعه، ويتّهمونه بالخرف ويحاربونه بعد إعلانه.

مع التأكيد على نقطة مهمّة وهي: أنّ وجود الله تعالى ثابت وأدلّته واضحة جليّة، بل إنّ وجوده عزّوجلّ لا يتأثّر بإيمان وكفر البشر، فحتّى لو كفر كلّ الناس ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]، كما أنّ تراجع أيّ ملحد عن أفكاره لا يزيد في إيماننا بوجود الله تعالى ذرّة واحدة فنحن نؤمن بالله وبوجوده إيماناً راسخاً، لا نحتاج فيه إلى قول فلان أو علان.

كما لابدّ من الإشارة إلى أنّ ذكر قصّة أنتوني فلو لا يعني أنّنا نؤمن بالضرورة بجميع أقواله.

نتساءل هنا: تُرى هل كانت ردود أفعال الملحدين متّزنة وأطروحاتهم منطقيّة وخالية من المغالطات في ردّهم على فلو كما يدّعون دائما؟! أم أنّ ما حصل كشف النقاب عن واقعهم الحقيقي، وأظهر منهجهم القائم على التكبّر والكذب والدجل؟

(١) سورة الممتحنة: ٦.

من هو أنتوني فلو؟

- أنتونـي جيرارد نيوتن فلو[1] (Antony Garrard Newton Flew) أستاذ الفلسفة البريطاني، اشتهر بكتاباته الكثيرة في فلسفة الأديان والإلحاد.
- ولد فـي لندن (١١ فبراير١٩٢٣م)، وتلقّـى تعليمه في مدرسة سانت فيـث (St Faith's School) بـكـامـبردج (Cambridge) تـلـيـهـا مدرسـة كينجزوود (Kingswood) بمدينة باث (bath).
- يقال إنّه قد اقتنع بفكرة عدم وجود الله منذ أن كان عمره خمسة عشر عاماً.
- خلال الحرب العالمية الثانية درس اليابـانيّة فـي مدرسـة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة بجامعة لندن، وكان ضابط مخابرات في سلاح الجو الملكي.
- كان يرى بأنّه ينبغي للمرء أن يكفر بوجود الله إلى أن يظهر دليل على

(١) تمّ الاعتماد في إعداد هذا الملحق على عدّة مصادر منها:

فلـو، انتـوني: هنـاك إلـه (There Is a God)، ترجمـة جنـات جمـال، مركـز براهـين للأبحـاث والدراسـات، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

شريـف، د. عمـرو: رحلـة عقـل.. هكـذا يقـود العلـم أشرس الملاحـدة إلى الإيـمان، ص١١٣، مكتبـة الـشروق الدوليـة، الطبعـة الرابعـة، ٢٠١١م.

عبدالأعـلى، سـلمان: أنتـوني فلـو ومغالطـات الملحديـن، مركـز بـيروت لدراسـات الـشرق الأوسـط، ٢٠١٦م.

ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

Flew, Antony: There Is a God, HarperCollins, 2007.

وجوده، كما أنّه كان ينتقد فكرة الحياة بعد الموت.

- كان أنتوني طوال حياته ملحداً، وألّف العديد من الكتب التي تردّ فكرة الإله، وتجاوزت كتبه الثلاثين كتاباً تدور حول فكرة الإلحاد، يقول فلو:

«كانت أوائل أعمالي المعادية للإله ورقتي البحثيّة سنة ١٩٥٠م وعنوانها: علم اللّاهوت والتزييف (Theology and Falsification)، تلك الورقة أُعيد طباعتها تحت عنوان مقالات جديدة في اللّاهوت الفلسفي (New Essays In Philosophical Theology) سنة ١٩٥٥م، وكانت محاولة لقياس مدى تأثير ما كانت تسمّى آنذاك (الثورة في الفلسفة) على الموضوعات اللّاهوتيّة».

- كان يُعدّ من أكبر ملاحدة العصر الحديث، وكانت كتاباته الغزيرة جدول أعمال الفكر الإلحادي طوال النصف الثاني من القرن العشرين.

يقول روي أبراهام فارجيس(Roy Abraham Varghese) في مقدمة كتاب أنتوني فلو هناك إله (There is A God): «يمكننا القول، دون أن نجترئ على الدقّة العلميّة، إنّ سير أنتوني فلو (Sir Antony Flew) أستاذ الفلسفة البريطاني الشهير قد تزعّم حركة الإلحاد في العالم لما يزيد عن نصف قرن، فقد ألّف أكثر من ثلاثين كتاباً وبحثاً فلسفيّاً كانت بمثابة جدول أعمال الفكر الإلحادي طوال النصف الثاني من القرن العشرين، كما يمكن القول-دون أدنى مبالغة- إنّه خلال المائة عام الماضية لم يعرض أيّ فيلسوف -من ذوي الوزن- الفكر الإلحادي بالأسلوب العميق المنظّم كما فعل أنتوني فلو، فقد طرح حججاً جديدة ضدّ الإيمان بالله، كما رسم بأفكاره الأصليّة خارطة الطريق للفلاسفة الذين عارضوا الإيمان».

ويقول الدكتور رمسيس عوض في كتابه (ملحدون معاصرون): «إذا

المناظرات التالية:

١. مناظرة جامعة ولاية تكساس الشمالية في عام ١٩٧٦م: وكانت مع الفيلسوف الديني الكبير د.توماس وارين (Thomas Warren)، واستمرت أربع ليال بدأت في العشرين من سبتمبر، وكان يحضرها ما بين ٥-٧ آلاف شخص كلّ ليلة.

٢. مناظرة أخرى في ولاية تكساس في عام ١٩٩٨م: وحضرها زهاء أربعة آلاف شخص، وكانت عبارة عن أربعة من الملاحدة في مواجهة أربعة من كبار الفلاسفة الدينيّين.

٣. مناظرة مهمّة على صفحات المجلّات الفلسفيّة مع الفيلسوف الديني الكبير تيري ميث (Terry Miethe).

٤. مناظرة في ثمانينيّات القرن العشرين مع ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne) أستاذ فلسفة الأديان بأكسفورد.

٥. مناظرة مع وليم لين كريج (William Lane Craig) في عام ١٩٩٨م.

٦. مناظرة حاسمة عقدت في جامعة نيويورك عام ٢٠٠٤م، وفيها أعلن أنتوني فلو بأنّه صار يقبل فكرة (الوجود الإلهي) وفسّر ذلك بأنّ ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل في بنية الكون يشير إلى وجود مصمّم ذكي.

- حينما أعلن تراجعه عن الإلحاد في أواخر عمره تعرّض لحملة تشهير ضخمة من المواقع الإلحاديّة في العالم، وهجوم قاسٍ من الملحدين بل ومن كبارهم، وذلك لأنّه ولخمسين عاماً كان يُعتبر من أهمّ منظّري الإلحاد في العالم.

حدث غير متوقّع

فـي التاسع من ديسمبر عام ٢٠٠٤م، فوجئ العالم بخبر مازال صداه يتردّد فـي الأوسـاط الفلسـفيّة والعلميّـة والثقافيّـة الدينيّـة؛ لقـد أعلن أنتوني فلو (Antony Flew) -بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاماً- أنّه أصبح يؤمن بوجود إله، وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس (Associated Press) الخبر تحت عنوان:

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلميّة»

والتي تابعت لتقول:

«أستاذ الفلسفة البريطاني الذي قاد مسيرة الإلحاد لأكثر من نصف قرن، غيّر الآن آراءه. فهو الآن يؤمن بوجود الإله، بصورة أو بأخرى، بناء على الأدلّة العلميّة».

أصاب الخبر الملحدين من زملاء أنتوني فلو وتلاميذه بهستيريا عارمة، حتّى امتلأ إعلام العالم الغربي بسخريّتهم وازدرائهم لهذا التحول!

يقول روي أبراهـام فارجيـس (Roy Abraham Varghese): «نزل خبر إقراره بأنّ (هناك إله) على الفلاسفة والمفكّرين الملحدين كالصاعقة، فانبروا للدفاع عن إيمانهم المقدّس بالإلحاد! وعبّروا عن سخطهم وازدرائهم لهذا التحوّل، وكالوا للرجل كلّ ما لا يليق من التهم والنقائص».

وقد طُلب من أنتوني فلو مراراً أن يُصدر كتاباً يعرض فيه رحلته، من صبي مؤمن إلى رجل ملحد إلى شيخ في الثمانين يؤمن بوجود الإله، وأخيراً صدر عام

٢٠٠٧م الكتاب المنتظر تحت عنوان:

«هناك إله:

كيف عَدَلَ أشرسُ مُلحد عن الإلحاد»

There is a God:

How the worlds most notorious atheist changed his mind.

ردود أفعال غاضبة

بقدر ما كانت الصدمة قويّة كانت ردود الأفعال كذلك، فقد استشاط الملحدون غضباً من الرجل، وكالوا كلّ أنواع التهم له، وتهرّبوا من منطقه العلمي منشغلين بتلفيق التهم إليه.

لقد امتلأت وسائل الإعلام المختلفة بردود الأفعال، وأصبح خبره الحدث الأهم، حتّى كتبت مجلة تايم (Time) الأمريكيّة تعليقاً على صدور كتابه الجديد تقول: «على رأس الاكتشافات العلميّة المبهرة في القرن العشرين، يأتي اكتشاف أنّ هناك إلهاً»

إنّ ردود الأفعال من قبل الملحدين تميّزت بعدم اتّزانها، كما أنّها لم تسلم من المغالطات وتوجيه الاتّهامات الجائرة، فنجد مثلاً ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) يعلّق على خبر إيمان أنتوني فلو بقوله: «إنّ فلو قد أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كبر في السن، وإنّه أعلن أنّ هناك إلهاً حتّى يملأ الإعلام ضجيجاً حوله».

وعلى خطى دوكنز نجد الكاتب بسام البغدادي مترجم كتاب وهم الإله إلى اللغة العربية في مقال له بعنوان: (لماذا أشهر أنتوني فلو إسلامهُ؟)، حيث يُقلّل من أهميّة هذا الحدث، بل ومن القيمة العلميّة له ولآرائه، فنجده مثلاً يقول بأنّ أنتوني فلو يتحدّث في غير تخصّصه، فهو فيلسوف وليس متخصّصاً في علم البيولوجيا!! وغيرها من المغالطات التي وقع فيها دوكنز والبغدادي وغيرهما، والتي تدلّ على مقدار ما شعر به هؤلاء من ذعر واضطراب وخيبة أمل.

لقد تلاشت واختفت لغة العلم والمنطق في ردود أفعال الملحدين، وذلك نتيجة لهول صدمتهم من إيمان ملحد شهير بحجم أنتوني فلو (Antony flew).

ترى أين ذهبت أدلّة الملحدين وبراهينهم بعد إعلان إيمان أنتوني فلو؟!

ولماذا خرست الألسن وعجزت عن الرد العلمي الذي طالما تبجّحوا به؟!

الحكاية بلسان أنتوني فلو

منذ[1] أعلنت تحوّلي عن الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، وأنا أُسأل كثيراً عن الأسباب وراء ذلك، كما طُلب منّي مراراً أن أكتب حول هذا التحوّل.

إنّ قناعتي الحاليّة تدفعني إلى أن أقدّم ما يمكن أن يطلق عليه شهادتي وقراري الأخير، إنّه باختصار: **أؤمن حاليّاً أنّ هناك إله.**

وفي مستهلّ الحديث؛ هناك شيء ينبغي أن أزيل عنه اللبس، فعندما انتشرت تقارير تغيير فكري؛ عن طريق وسائل الإعلام، والإنترنت، تسرّع بعض المعلّقين زاعماً أنّ تقدّمي في العمر له صلة بهذا التحوّل، لقد قيل إنّ الخوف تمركز بقوّة في عقلي، وتلك الانتقادات خلُصت إلى أنّ توقّعاتي بقرب انتقالي إلى الحياة الآخرة؛ دفعتني للتحوّل على فراش الموت.

وواضح أنّ هؤلاء الناس لم يكونوا على اطّلاع بكتاباتي الـمُنكرة لوجود الآخرة، ولا حتّى على آرائي الحاليّة عن الموضوع؛ فعلى مدار أكثر من خمسين سنة، لم يكن إنكاري مختصّاً بعدم وجود إله فقط، بل كان أيضاً إنكاراً لوجود الآخرة كذلك، فمحاضراتي في جيفورد (Gifford Lectures) والتي نشرت تحت عنوان منطق الفناء (The Logic of Mortality)؛ مثّلت الذروة في معالجة هذه الفكرة، وهذه هي المسألة الوحيدة التي لم أغير رأيي فيها.

ولا شكّ أنّ قُرَّائي يعرفون أنّ هذه ليست المرة الأولى التي أغير فيها رأيي في

---

(١) لمن أراد التوسّع والاطّلاع أكثر على ما كتبه أنتوني فلو مراجعة كتابه (There is a God)، أو النسخة المترجمة: (هناك إله).

أمر هام، بناءً على دراسات عميقة، فقد سبق أن تحوّلت من الماركسية إلى الدفاع القوي عن فكرة السوق الحر، كما تراجعت منذ عشرين عاماً عن رأيي السابق بأنّ أفعال الإنسان توجّهها العوامل الماديّة فقط.

تشكّل الملحد

وُلدت في لندن عام ١٩٢٣م، ونشأت في بيت مسيحي ملتزم؛ إذ كان والدي كاهناً إنجليزيّاً كبيراً ومن النشطاء في الكنيسة، كما كان محاضراً ثمّ رئيساً لكليّة الدراسات الدينيّة في كمبريدج.

منذ طفولتي لم أكن مهتمّاً بالدراسات والممارسات الدينيّة، كما أنّني لا أعرف لماذا لم أشعر بالتقديس والاحترام الواجبين أثناء وجودي في كنيسة المدرسة! باختصار لم أشعر في صغري بأيّ رغبة في التواصل مع الرب.

مازلت، حتّى الآن، لا أدري سبباً لهذا العزوف عن الدين في صباي، كلّ ما أستطيع قوله هو أنّ بذرة الإيمان التي كانت داخلي عند التحاقي بالمدرسة، ماتت قبل تخرّجي.

لا أدري على وجه التحديد، متى وكيف توجّهت إلى الإلحاد بالرغم من النشأة الدينيّة، وبالتأكيد فإنّ هنالك عوامل كثيرة شاركت في تشكيل قناعاتي الإلحاديّة.

يمثّل إحساسي «بمعضلة الشر والألم» أحد العوامل المبكّرة وراء اندفاعي تجاه الإلحاد، لقد كنت في طفولتي وصباي، خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، كثير السفر مع والدي إلى فرنسا وألمانيا، أتذكّر جيداً اللّافتات والشارات خارج المدن الصغيرة معلنة أنّ: «اليهود غير مرغوب في وجودهم هنا». أتذكّر الشارات على مدخل مكتبة عامة مصرّحة أنّ: «اللائحة التنفيذيّة لتلك المؤسّسة تمنع إعطاء أيّ كتب لمستعيرين يهود»، ومازلت أذكر المسيرات الهادرة التي رأيتها في بافاريا (Bavaria)[1]، والتي تضم آلاف الفتيان من فرق الكشّافة بملابسهم

(١) إحدى الولايات الاتحادية الستة عشر المكوّنة لجمهورية ألمانيا الاتحادية. عاصمتها وكبرى مدنها هي مدينة ميونيخ التي تقع شمالاً من جبال الألب.

المميزة، والتي تتوعّد المعادين للنازيّة بالهلاك.

ارتسمت هذه المشاهد في عقلي في فترة صباي، وظلّت بكلّ ماتحمله من كُره، تمثّل تناقضاً مع ما تربّيت عليه في عقيدتي المسيحيّة من أنّ «الله محبة»؛ إذ كيف يسمح من يحبّنا بهذه الشرور؟!

كنت دائم النقاش مع أقراني -في المدرسة- ومع من هم أكبر منّي عُمراً، حول القضايا الإيمانيّة التي يطرحها الكهنة، وكنت غير مقتنع على الإطلاق لفكرة الرب (كُلِّي الوجود- كُلِّي العلم- كُلِّي القدرة).

وما إن بلغت سن الخامسة عشر، حتّى أعلنت لزملائي رفض الإقرار بوجود الإله، لقد نجحت في أن أخفي قناعاتي الجديدة عن والديَّ لفترة طويلة حتّى لا أعكر صفو البيت.

وبحلول شهر يناير عام ١٩٤٦م، وكنت قد قاربت الثالثة والعشرين من عمري، ذاع الخبر بأنّني قد أصبحت ملحداً دهريًّا، وأنّ قناعتي لا رجعة فيها، فشعر من في البيت أنّه لا طائل من مناقشة هذا الأمر معي.

◂ تشكّل الفيلسوف

لقد ورثت عن والدي الحكمة والعقليّة المدقّقة المحلّلة الناقدة، كما شجّعني الجو الذي وفّره ناظر المدرسة في كينجزوود (Kingswood) على كسب المعرفة واستخدام الفكر.

في عام ١٩٤٢م، انتهيت من دراستي بالمدرسة، والتحقت بجامعة أكسفورد لدراسة الآداب، ولـمّـا كانت الحرب العالمية الثانية مستعرة، تمّ تجنيدي في عمل غير قتالي في القوات الجويّة.

بعد انتهاء الحرب في يناير عام ١٩٤٦م، عدت إلى جامعة أكسفورد التي أصبحت بعد الحرب مكاناً يموج بالحوارات والمناقشات السياسيّة والثقافيّة، وفي صيف ١٩٤٧م اجتزت الامتحان النهائي وتخرّجت حاصلاً على مرتبة الشرف

الأولى، وقرّرت أن أتخصّص في الفلسفة.

بدأت دراساتي العليا في الفلسفة بجامعة أكسفورد تحت إشراف جلبرت رايل (Gilbert Ryle) الذي كان أستاذاً لفلسفة الميافيزيقيا (الإلهيات- الغيبيّات)، ثمّ أصبح عام ١٩٤٧م رئيساً لأقسام الفلسفة الثلاثة بالجامعة.

في عام ١٩٤٨م حصلت على منحة لدراسة الفلسفة العقليّة، كما طُلب منّي في الوقت نفسه أن أقوم بالتدريس في أكسفورد.

لقد تعلّمت من أستاذي جلبرت رايل (Gilbert Ryle) القاعدة الذهبيّة التي ظلّت تحكم تفكيري وسلوكي طوال حياتي: «**أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا**».

لقد كنت كثير الحضور والمشاركة في نادي سقراط بجامعة أكسفورد، وقدّمت للنادي بحثي المعنون بـ: زيف علم اللّاهوت (Theology and Falsification)، ولاقى البحث قبولاً كبيراً، فبالرغم من أنّني أُؤيّد فيه فكرة الإلحاد، فإنّني كنت أدعو فيه أيضاً إلى الدخول في الحوار مع الآخرين، واعتُبر بحثي هذا الضربة القاضية للفلسفة الوضعيّة المنطقيّة آنذاك.

في نهاية عام ١٩٥٠ أصبحت محاضراً في فلسفة الأخلاق بجامعة (Aberdeen) باسكوتلندا، وقد اشتهرت حينها بأنّني: «شارح فلسفة أكسفورد اللغويّة».

يمكن باختصار القول: إنّ اهتمامي بالفلسفة بدأ منذ وجودي في مدرسة كينجزوود (Kingswood)، وإنّني كنت أقرب ما أكون من الفلسفة عندما كنت أحضر لقاءات نادي سقراط بأكسفورد، وربّما كان اختياري للدراسات العليا تحت إشراف جلبرت رايل (Gilbert Ryle) وهو نقطة التحوّل في حياتي إلى احتراف الفلسفة، وهي النقطة التي حرقت عندها مراكبي مع التخصّصات الأخرى.

كانت فلسفة الإلهيّات أكثر فروع الفلسفة إثارة لاهتمامي، كما كتبت في فلسفة اللغة والمنطق والأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم، وكتبت كذلك حول

قضايا حريّة الإرادة والحياة بعد الموت وغيرها.

إنكاري للإله

لم أكتف بانكار وجود الإله بل رميت بالكرة في ملعب المتديّنين، ففي عام ١٩٧٦م كتبت كتابي فرضيّة الإلحاد (The presumption of Atheism) حيث وَضعتُ الكُرة في ملعب المتديّنين؛ إذ أكّدت أنّ إثبات الوجود الإلهي يقع على عاتق المؤمنين، وأنّ عليهم أن يطرحوا من الحجج ما يفحم الملحدين؛ إذ إنّ «البيّنة على من ادَّعى» ذلك بعد أن كان المنهج في فلسفة الأديان يضع على الملحدين مسؤوليّة إثبات عدم وجود الإله، بدعوى أنّ الشعور بوجود الإله إحساس فطري.

لقد هزّ هذا الطرح موقف المتديّنين من جذوره، فلم يحدث أن واجه الإيمان بوجود الإله مثل هذا التحدي من قبل.

وذكرت أنّ إثبات الوجود الإلهي ينبغي أن يمرّ بالمراحل التي يمرّ بها أيّ افتراض علمي أو فلسفي، وهي:

- تعريف مفهوم الإله الذي نطرح إثبات وجوده للبحث.
- تحديد كيف تتمّ دراسة الظاهرة المعروضة للبحث (كلّ ظاهرة يناسبها منهج خاص).
- طرح وتحليل الأدلّة التي تشير إلى صدق هذا المفهوم (افتراض وجود الإله).

وكنت مصمّماً على التمسّك بالنفي حتّى يُقدّم الآخرون البرهان على وجود الإله، كنت أطرح هذا المنهج وأنا أدرك تماماً أنّ إثبات أمر ما أصعب كثيراً من نفيه.

وقد جاء أقوى اعتراض على ما طالبت به المؤمنين من قِبل الفيلسوف الأمريكي ألفين بلانتنجا (Alvin Planting) لقد أصرّ على أنّ «الإيمان شعور فطري»، وأنّ الاعتقاد في وجود الإله مثل الاعتقاد في مفاهيم أساسيّة أخرى،

كالاعتقاد بأنّ للآخرين عقولاً كعقولنا، والاعتقاد في صحّة حواسنا، والقول بأنّ الكلّ أكبر من الجزء،.. إنّنا نؤمن بصحة هذه المفاهيم دون الحاجة إلى أن نسوق الدليل عليها.

بعد أن اكتملت قناعاتي الإلحاديّة التي بلورتها عام ١٩٧٦م في كتابي فرضيّة الإلحاد (The Presumption of Atheism) انصرفت إلى مختلف فروع الفلسفة الأخرى وإلى علم الاجتماع وإلى السياسة.

جدَّ على ذلك اهتمامي بالقفزات العلميّة الهائلة، خاصّة نظريّة الانفجار الكوني الأعظم (Big Bang Theory) التي تفسّر نشأة الكون، وكذلك اكتشاف تركيب وآليّة عمل المادة الوراثيّة في الخلايا الحيّة (DNA).

وبالرغم من ذلك، ظلّ الاهتمام بفلسفة الأديان هو المسيطر على اتّجاهاتي الفكريّة، ويبدو أنّ الآخرين صاروا يعتبرونني المسؤول الأوّل عن الفكر الإلحادي، فدُعيت للمشاركة في الكثير من المناقشات التي كانت تأخذ صورة من ثلاث؛ إمّا مناظرات عامّة، أو حوارات محدودة، أو مساجلات في الصحف والمجلات الفلسفيّة المتخصّصة.

وعلى سبيل المثال أذكر المناظرة التي وقعت عام ١٩٧٦م في جامعة ولاية تكساس الشمالية مع الفيلسوف الديني الكبير د. توماس وارين (Thomas Warren)، والتي استمرت أربع ليالٍ، وحضرها ما بين ٥-٧ آلاف شخص كلّ ليلة.

اعتمدت حجج د.وارين ضد الإلحاد على مهاجمة نظرية التطوّر لداروين (Darwin)، لذلك سألني د.وارين إن كنت أؤمن بأنّه كان يوجد في يوم من الأيام كائن نصفه إنسان ونصفه قرد؟

أجبت بأنّ هذا السؤال مثل السؤال عن متى نعتبر أنّ إنساناً ما قد صار أصلعاً، وفسَّرتُ رَدِّي قائلاً: لا شكّ أنّ أستاذي جلبرت رايل كان أصلعاً، إذ كانت رأسه خالية تماماً من الشعر كقشرة البيضة، أمّا إذا نظرنا إلى الرجال عندما

يتساقط الشعر تدريجيّاً من رؤوسهم شعرةً شعرة، فليس من السهل تحديد متى صار الرجل أصلع! فلا شكّ أنّ التطوّر أمر شديد البطء والتدريج.

ومن أقوى صياغاتي التي قلتها في هذه المناظرة، والتي تعكس قناعاتي الإلحاديّة وقتها، ما يلي:

أ. إنّ القول بأنّ هناك إلهاً، فيه من التضاد كالتضاد في الحديث عن الأعزب المتزوج أو عن الدائرة المربعة.

ب. أؤمن بأنّ الوجود لا بداية له ولا نهاية له، ولم يُطرح عليَّ في حياتي مبرّر عقلي وجيه لأغيّر قناعتي هذه.

ج. أؤمن بأنّ الكائنات الحيّة قد نشأت تلقائيّاً من المادة غير الحيّة، على مدى دهور مغرقة في القدم.

وبالرغم من الترحاب والضيافة الكريمة التي قُوبلت بها، فقد انتهت المناظرة وكلّ واحد من المتناظرين متمسّك بموقفه.

◂ إرهاصات تصحيح المسار

تُعد نظريّة التطوّر لعالم البيولوجيا تشارلز داروين (Charles Darwin) (تطوّر الكائنات الحيّة نتيجة لطفرات عشوائيّة تحدث بالصدفة) من أهمّ الحجج التي يستند إليها الملاحدة، لتفسير تنوّع الكائنات الحيّة دون الحاجة إلى وجود إله خالق، لذلك أصبحت هذه النظريّة من موضوعات المناظرة المفضّلة بين الماديّين والمؤمنين.

إنّ التمحيص لموقف الملحدين من نظريّة التطوّر، قد كشف لي عن الكثير من سوء الفهم المحيط بالنظريّة، ونَزَعَ عنها حجيّتها كدليل إلحادي، وسمح لي بتصحيح المسار، والبدء في الاقتناع بدور المصمّم الذكي في إحداث التطوّر.

ثمّ جاءت اللّحظة الحاسمة، ففاجأت الجميع في أهمّ مناظراتي العلنيّة التي عُقدت في جامعة نيويورك عام ٢٠٠٤م بأنّني قد صرت أقبل فكرة «الوجود

الإلهي»!، وفسّرت ذلك بأنّ ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل في بنية الكون يشير إلى وجود مصمّم ذكي، كذلك فإنّ البحوث الحديثة حول أصل الحياة، وما تَكَشَّف من بنية شديدة التعقيد وطريقة أداء مذهلة لجزيء الـ(DNA)، يؤكّد حتميّة وجود المصمّم الذكي.

وقد نقلت وكالة أنباء الأسوشيتد برس (Associated Press) هذا الخبر إلى أرجاء الأرض مع تعليق صادق طريف: «لاشكّ أنّ أعظم الإكتشافات المبهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أنّ هناك إلهاً».

تقول القاعدة الفلسفيّة: إنّ البرهان الفلسفي يُعتبر متكاملاً إذا اجتمع فيه الدليل على صدق الرأي، مع الدليل على على خطأ الرأي المقابل، لذلك أعجبني كثيراً تفنيد العالم جيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) في كتابه علم الإله (Science of God) للدليل الذي يسمّونه: «برهان القرد».

يُشَبِّه القائلون بهذا الرأي إمكانيّة نشوء الحياة بالصدفة بمجموعة من القِردة، تجلس وراء لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ويرون أنّ القردة يمكن أن تكتب بالصدفة، في إحدى محاولاتها اللّانهائيّة، قصيدة لشكسبير.

يبدأ شرويدر تفنيده بعرض تجربة أجراها المجلس القومي البريطاني للفنون، وفيها وضع الباحثون ستة من القردة في قفص لمدة شهر، وتركوا معها لوحة مفاتيح كمبيوتر، بعد أن درّبوهم على دق أزرارها.

كانت النتيجة ٥٠ صفحة مكتوبة، دون كلمة واحدة صحيحة، حتّى لو كانت هذه الكلمة من حرف واحد.

وهذا يعني أنّنا بالقطع واليقين لن نحصل على قصيدة شكسبير بالصدفة، حتّى لو كان الكاتب هو الكمبيوتر وليس القِردة.

إنّ للصدفة قانوناً، فالمتخصّصون لم يتركوا كلّ مدّعٍ ينسب إليها ما يشاء، ليستر بها جهله وتهافت أدلّته، لـقد حـدد المتخصّصون مـا يُعرف بمقدار الاحتمال الملزِم (Probability Bound Universal)، الذي يستحيل بعده تفسير حدوث أمر ما

بالصدفة وحدها.

وإذا كان برهان القرد يعجز عن إثبات إمكانيّة كتابة قصيدة بالصدفة، فهل سينجح في تفسير نشأة الحياة بالصدفة من المادة غير الحيّة؟!

بهذا العرض لجيرالد شرويدر (Gerald Schroeder) انهار تماماً البرهان العقلي الذي يستند إليه الملحدون، وإذا أضفنا إلى ذلك قوّة البرهان الذي يقدّمه التعقيد الهائل في بنية الكون وفي بنية وآليّة عمل جزيء الـ(DNA)، اكتمل لدينا البرهان الفلسفي (الدليل على صدق الرأي مع الدليل على خطأ الرأي المقابل) على وجود الإله الحكيم القادر.

◄ اكتشافي للإله

يبدأ أنتوني فلو (Antony Flew) عرض موقفه الإيماني الجديد بهذه الحكاية الرمزيّة:

تصوَّر أنّ بعض رجال قبيلة بدائيّة وجدوا على شاطئ جزيرتهم المنعزلة جهاز هاتف محمول (موبايل) يعمل عن طريق الأقمار الصناعيّة، أخذ الرجال البدائيّون يضغطون على مفاتيح أرقام الهاتف في تتابعات عشوائيّة، وكانوا في كلّ مرّة يسمعون ضوضاء مختلفة بأصوات مختلفة، كان تفسيرهم الأوّل أنّ هذه الأصوات تأتي من داخل الهاتف.

بعد محاولات عديدة لاحظ بعض من علماء القبيلة أنّهم يحصلون على نفس الضوضاء وبنفس الصوت إذا ضغطوا على مفاتيح بنفس التتابع، فتوصّلوا إلى أنّ هذا الشيء المُكوَّن من الزجاج والمعدن، ذا الألوان الزاهية، الذي يُصدر ما يشبه الصوت الإنساني، يتجاوب مع ما نعطيه من تعليمات.

استدعى حكيم القبيلة علماءها للتشاور، وأخبرهم أنّه قد فكّر كثيراً فيما نقلوه إليه من أخبار، وتوصّل إلى أنّ ما يسمعونه عن طريق هذا الشيء إنّما هي أصوات لبشر مثلهم، يعيشون في مكان بعيد ويتحدّثون بلغة مختلفة، وأنّ هذا الشيء يقوم

بالتواصل (بطريقة ما) مع هؤلاء البشر، وطالب الحكيمُ العلماءَ ببذل الجهد من أجل استكشاف وتحقيق فهم أفضل للعالم من حولهم.

ضحك العلماء ساخرين ممّا توصل إليه الحكيم، وقالوا: انظر، عندما نحطّم هذا الشيء سيختفي الصوت، مما يثبت أنّ هذه التركيبة من الزجاج والمعدن والألوان هي التي تصدر الأصوات التي نسمعها، ولا شيء غير ذلك، وانهالوا على الهاتف المحمول بصخرة حطّمته إلى أشلاء.

تؤكّد هذه الحكاية الرمزيّة أنّ مفاهيمنا الـمُسبقة توجّه تحليلنا للظواهر وللبراهين والحجج. والصواب أن ندع للبراهين والحجج الجديدة الفرصة لأن تعيد تشكيل مفاهيمنا وآراءنا، إنّ تمسّكنا بمفاهيمنا السابقة كثيراً ما يعيقنا عن التفكير في مفاهيم أرحب عن العالم.

كذلك تُظهر الحكاية أنّ للحقيقة مستويات معرفة متعدّدة، فهناك فهم العوام، وفهم العلماء، وفهم الحكماء، ويتوقّف إدراكنا لهذه المستويات على قدرتنا على الانطلاق بفكرنا دون قيود من مقدّمات ومسلّمات خاطئة.

إنّ هذا هو نفس الحاجز العقلي الذي واجه زملائي (السابقين) الملحدين عندما أعلنت قناعتي بوجود إله، بناءً على ما أظهره العلم الحديث من حقائق، فأخذوا يردّدون في شبه هستيريا (خالية من المنطق والبرهان العلمي أو الفلسفي) مفاهيم تعيقهم عن التفكير الصحيح وتقف بهم عند مستوى ضحل من الإدراك، مثل قولهم:

- لاينبغي أن نبحث عن تفسير لكيفيّة وجود الكون، وعلينا أن نقبل فقط أنّه موجود.
- إذا كان من العسير علينا قبول فكرة وجود خالق للكون، فمن باب أولى لن نقبل فكرة وجود خالق للحياة، ولا مفرّ أمامنا من التسليم بأنّ الحياة قد نشأت ذاتيّاً بالصدفة من المادة غير الحيّة.

أمام هذه الدعاوى أطرح على الملحدين سؤالاً مهمّـاً وهو:

ما الذي تنتظرونه من حيثيّات عقليّة أو علميّة حتّى تقبلوا إعادة النظر في رفضكم لأن يكون هناك عقل ذكي وراء هذا الوجود؟

عقيدتي الجديدة

آن الأوان لأن أطرح عقيدتي حول الإله الخالق، وأطرح أدلّتي على ذلك:

لقد صرت على قناعة كاملة بأنّ الكون ظهر إلى الوجود عن طريق خالق ذكي، وأنّ ما في الوجود من قوانين ثابتة متناغمة تعكس مايمكن أن نسمّيه فكر الإله.

كما أؤمن أنّ نشأة الحياة والتنوّع الهائل للكائنات الحيّة لا ينشأ إلّا عن مصدر سماوي.

لماذا أصبحت هذه قناعتي، بعد أن ظللت ملحداً لأكثر من نصف قرن؟

إنّ العلم الحديث يُجَلِّي خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

- **أوّلاً**: الكون له بداية، ونشأ من العدم.
- **ثانياً**: أنّ الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة.
- **ثالثاً**: نشأت الحياة بكلّ مافيها من دقّة وغائيّة من المادة غير الحيّة.
- **رابعاً**: أنّ الكون، بما فيه من موجودات وما فيه من قوانين، يهيّئ الظروف المُثلى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بـــ: المبدأ البشري (Anthropic Principle)
- **خامساً**: أنّ القدرات العليا للعقل البشري لايمكن أن تكون نتاجاً مباشراً للنشاط الكهروكيميائي للمخ.

ليست معطيات العلم الحديث فقط هي التي دفعتني لتغيير قناعاتي، ولكني أيضاً أعدتُ النظر في البراهين الفلسفيّة التقليديّة التي قادتني من قبل إلى الإلحاد، ثمّ طبقت نفس القاعدة السقراطيّة المنهجيّة التي عشت عليها طوال حياتي الفلسفيّة:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا» فقادني البرهان، هذه المرّة، إلى الإيمان.

قد تسأل: كيف، وأنت فيلسوف، تخوض في هذه القضايا العلميّة؟

أجيب على هذا التساؤل بطرح السؤال التالي: هل ما أطرحه عليكم هو علم أم فلسفة؟

عندما ندرس بناء الذرّة من جسيمات تحت ذرّيّة (إلكترونات وبروتونات ونيوترونات وكواركات) فنحن نتحدّث في العلم، أمّا عندما نسأل كيف نشأت هذه الجسيمات من العدم، ولماذا؟ فنحن نتحدّث في الفلسفة.

وعندما أعلنت عام ٢٠٠٤م، أنه لايمكن تفسير نشأة الحياة تلقائيّاً من المادة غير الحيّة، فلم أكن أتحدّث في الكيمياء أو الفيزياء أو الوراثة، ولكن كنت أتساءل (كفيلسوف) عن معنى أن يكون الشيء حيّاً، وعن علاقة ذلك بالحقائق الكيميائيّة والفيزيائيّة والوراثيّة.

فالفيلسوف هو الذي يخرج المعلومات العلميّة باستنتاجات معرفيّة.

ولحسن الحظ، فإنّ علماء القرن العشرين البارزين، قد توصّلوا إلى استنتاج فلسفي معرفي هائل، يفسر العديد من الظواهر الطبيعيّة المحيطة بنا، وهو أنّ هذا الكون بما فيه من حياة لا يُنشئه إلّا مصمّم ذكي.

ومن ثمّ، توصّل الكثير من العلماء والفلاسفة المعاصرين إلى أنّه لايمكن تفسير الأبعاد الخمسة المشار إليها سابقاً، إلّا بالإقرار بوجود إله حكيم قادر.

لقد أنجزت الفلسفة مهمّتها الأساسيّة بنجاح عظيم، عندما توصّلت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود العقل مطلق العلم ومطلق القدرة، الذي هو الإله الخالق، الذي خلق الكون ليكون مُعدّاً لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذي هو الإنسان.

ينبغي أن أقرّ هنا أنّ توصّلي إلى وجود الإله وصفاته، كان عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخلٍ يخرق قوانين الطبيعة، لقد كان توصّلي إلى وجود الإله وإلى

بعض صفاته، رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

خاتمة المطاف

أكرّر: إنّ رحلتي إلى الإله كانت رحلة عقليّة صرفة، لقد تتبّعت البرهان إلى حيث قادني، فقادني هذه المرَّة إلى الإله الحيّ المكتفي بذاته، الأزلي الأبدي غير المادي، كلّي الوجود، كلّي العلم، كلّي القدرة.

لذلك ما أحوجنا إلى المزيد من المعرفة عن الإله! ثمّ ما أحوجنا إلى التواصل معه.

عودة إلى القصة الرمزيّة، عن الرجال الذين عثروا على الهاتف المحمول على شاطئ جزيرتهم، إذا كانت القصّة قد انتهت برفض العلماء لتأويل حكيم الجزيرة للموقف، ورفضهم لدعوته للبحث والتواصل مع الآخرين، فلنتصوّر للقصّة نهاية أخرى:

تُرى ماذا لو اقتنع العلماء بتأويل حكيم الجزيرة، وجدُّوا في البحث عن الأذكياء الذين اخترعوا هذه الآلة؟ ماذا لو هَمَّ بعض العلماء بفكّ شفرة الأصوات التي استمعوا لها؟ لاشكّ أنّ حياتهم ستكون مختلفة، ونظرتهم للعالم ستكون مختلفة، سيعرفون أنّهم ليسوا وحدهم، بل ربّما نجحوا في التواصل مع هؤلاء الآخرين.

إذا كانت رحلة الفلاسفة العقليّة ورحلة العلماء البحثيّة قد توصّلت إلى القول بالإله الحكيم القادر، فلا مانع عندي من تَقبّل فكرة أن يكشف الإله عن نفسه لمخلوقاته من خلال الوحي وإرسال الرسل، إذا وجدت الدليل على ذلك.

هناك من يقول: إنّه قد نجح في التواصل مع الإله، بينما لم يحدث ذلك لي بعد.. ربّما يأتي اليوم الذي أسمع فيه من يناديني: «الآن هل تسمعني؟»!!

الفصل الرابع

أهل البيت عليهم السلام والاستدلال على وجود الله

السلام على الدُّعاةِ إلى الله وَالأَدِلّاء عَلى مَرْضاةِ الله

كان رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أشدّ الناس حرصاً على هداية البشر ولذلك فإنّهم لم يألوا جهداً في سبيل هداية العباد وإنقاذهم من ظلمات الشرك والضلال.

فهم بحق الدُّعاة إلى الله ولذلك كان حريّاً بنا أن نستضيء بنور هديهم، ونقتبس من علومهم خاصّة أنّ أسلوبهم في الدعوة إلى الله تعالى تميّز بميّزات مهمّة، ومنها:

- مخاطبتهم لفطرة الإنسان التي أودعها الله تعالى فيه، واستخراج الكنوز المدفونة داخل ضميره.
- التذكير الدائم بنعم الله عزّوجلّ التي تدّل عليه، وتحرّك العقول نحو البحث عن المنعم والخالق.
- قدرتهم على مخاطبة كلّ الناس بمختلف مستويات عقلوهم.
- اعتمادهم على الخطاب المتمازج بين خطاب العقل وخطاب الضمير دون إغفال دور أيّ منهما.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة»**.[1]

---

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج١١ ص ٦٠.

ولذلك أضع بين يديك -عزيزي القارئ- في نهاية هذا الكتاب ما ذكره الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حول التوحيد، والذي أملاه على تلميذه النجيب المفضل بن عمر الجعفي الكوفيّ وهو المعروف باسم (توحيد المفضل) سائلا الله تعالى أن ينير قلوبنا بنور هدايته ويأخذ بأيدينا جميعاً إلى حصن ولايته المتمثّل بكلمة لا إله إلّا الله.

البدايات

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ حَدَّثَنِي الْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَرَ قَالَ[1]:

كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ بَعْدَ الْعَصْرِ جَالِساً فِي الرَّوْضَةِ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ، وَأَنَا مُفَكِّرٌ فِيمَا خَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً ﷺ مِنَ الشَّرَفِ وَالْفَضَائِلِ، وَمَا مَنَحَهُ وَأَعْطَاهُ وَشَرَّفَهُ وَحَبَاهُ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْأُمَّةِ، وَمَا جَهِلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ وَخَطِيرِ مَرْتَبَتِهِ، فَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ فَجَلَسَ بِحَيْثُ أَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ إِذْ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَتَكَلَّمَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ الْعِزَّ بِكَمَالِهِ، وَحَازَ الشَّرَفَ بِجَمِيعِ خِصَالِهِ، وَنَالَ الْحُظْوَةَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ.

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنَّهُ كَانَ فَيْلَسُوفاً ادَّعَى الْمَرْتَبَةَ الْعُظْمَى، وَالْمَنْزِلَةَ الْكُبْرَى، وَأَتَى عَلَى ذَلِكَ بِمُعْجِزَاتٍ بَهَرَتِ الْعُقُولَ، وَضَلَّتْ فِيهَا الْأَحْلَامُ، وَغَاصَتِ الْأَلْبَابُ عَلَى طَلَبِ عِلْمِهَا فِي بِحَارِ الْفِكْرِ، فَرَجَعَتْ خَاسِئَاتٍ وَهِيَ حُسَّرٌ، فَلَمَّا اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ الْعُقَلَاءُ وَالْفُصَحَاءُ وَالْخُطَبَاءُ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، فَقَرَنَ اسْمَهُ بِاسْمِ نَامُوسِهِ، فَصَارَ يُهْتَفُ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الصَّوَامِعِ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا دَعْوَتُهُ، وَعَلَتْهَا كَلِمَتُهُ، وَظَهَرَتْ فِيهَا حُجَّتُهُ، بَرّاً وَبَحْراً، سَهْلاً وَجَبَلاً، فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ مُرَدَّداً فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، لِيَتَجَدَّدَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ذِكْرُهُ، وَلِئَلَّا يُخْمَلَ أَمْرُهُ.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: دَعْ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ فَقَدْ تَحَيَّرَ فِيهِ عَقْلِي، وَضَلَّ فِي أَمْرِهِ فِكْرِي،

---

(١) الجعفي، الصحابي الجليل المفضل بن عمر: توحيد المفضل، تحقيق وتعليق: كاظم المظفر، داوري، الطبعة الثالثة.

وَحَدَّثْنَا فِي ذِكْرِ الْأَصْلِ الَّذِي نَمْشِي لَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ ابْتِدَاءَ الْأَشْيَاءِ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِإِهْمَالٍ لَا صَنْعَةَ فِيهِ وَلَا تَقْدِيرَ، وَلَا صَانِعَ وَلَا مُدَبِّرَ، بَلِ الْأَشْيَاءُ تَتَكَوَّنُ مِنْ ذَاتِهَا بِلَا مُدَبِّرٍ، وَعَلَى هَذَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي غَضَباً وَغَيْظاً وَحَنَقاً، فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّ اللهِ أَلْحَدْتَ فِي دِينِ اللهِ، وَأَنْكَرْتَ الْبَارِيَ جَلَّ قُدْسُهُ الَّذِي خَلَقَكَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصَوَّرَكَ فِي أَتَمِّ صُورَةٍ، وَنَقَلَكَ فِي أَحْوَالِكَ حَتَّى بَلَغَ إِلَى حَيْثُ انْتَهَيْتَ، فَلَوْ تَفَكَّرْتَ فِي نَفْسِكَ وَصَدَقَكَ[1] لَطِيفُ حِسِّكَ لَوَجَدْتَ دَلَائِلَ الرُّبُوبِيَّةِ وَآثَارَ الصَّنْعَةِ فِيكَ قَائِمَةً، وَشَوَاهِدَهُ جَلَّ وَتَقَدَّسَ فِي خَلْقِكَ وَاضِحَةً، وَبَرَاهِينَهُ لَكَ لَائِحَةً.

فَقَالَ: يَا هَذَا إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ كَلَّمْنَاكَ، فَإِنْ ثَبَتَتْ لَكَ حُجَّةٌ تَبِعْنَاكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ فَلَا كَلَامَ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ فَمَا هَكَذَا تُخَاطِبُنَا، وَلَا بِمِثْلِ دَلِيلِكَ تُجَادِلُ فِينَا، وَلَقَدْ سَمِعَ مِنْ كَلَامِنَا أَكْثَرَ مِمَّا سَمِعْتَ فَمَا أَفْحَشَ فِي خِطَابِنَا، وَلَا تَعَدَّى فِي جَوَابِنَا، وَإِنَّهُ الْحَلِيمُ الرَّزِينُ، الْعَاقِلُ الرَّصِينُ، لَا يَعْتَرِيهِ خُرْقٌ[2]، وَلَا طَيْشٌ وَلَا نَزَقٌ[3]، يَسْمَعُ كَلَامَنَا وَيُصْغِي إِلَيْنَا وَيَتَعَرَّفُ حُجَّتَنَا، حَتَّى إِذَا اسْتَفْرَغْنَا[4] مَا عِنْدَنَا، وَظَنَنَّا أَنَّا قَطَعْنَاهُ دَحَضَ حُجَّتَنَا بِكَلَامٍ يَسِيرٍ وَخِطَابٍ قَصِيرٍ، يُلْزِمُنَا بِهِ الْحُجَّةَ، وَيَقْطَعُ الْعُذْرَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ لِجَوَابِهِ رَدّاً، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَخَاطِبْنَا بِمِثْلِ خِطَابِهِ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَخَرَجْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ مَحْزُوناً مُفَكِّراً فِيمَا بُلِيَ بِهِ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنْ كُفْرِ هَذِهِ الْعِصَابَةِ وَتَعْطِيلِهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى مَوْلَايَ عليه السلام فَرَآنِي مُنْكَسِراً، فَقَالَ: مَا لَكَ.. فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا سَمِعْتُ مِنَ الدَّهْرِيَّيْنِ، وَبِمَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمَا.

---

(١) صدقك: أي قال لك صدقاً.

(٢) الخرق: ضعف الرأي وسوء التصرف والحمق.

(٣) النزق: هو الطيش والخفة عند الغضب.

(٤) لعله من الإفراغ بمعنى الصب. يقال: استفرغ مجهوده، أي بذل طاقته

فَقَالَ عليه السلام: يَا مُفَضَّلُ لَأُلْقِيَنَّ عَلَيْكَ مِنْ حِكْمَةِ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، وَالسِّبَاعِ وَالْبَهَائِمِ، وَالطَّيْرِ وَالْهَوَامِّ، وَكُلِّ ذِي رُوحٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالنَّبَاتِ، وَالشَّجَرَةِ الْمُثْمِرَةِ وَغَيْرِ ذَاتِ الثَّمَرِ، وَالْحُبُوبِ وَالْبُقُولِ؛ الْمَأْكُولِ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِ الْمَأْكُولِ، مَا يَعْتَبِرُ بِهِ الْمُعْتَبِرُونَ، وَيَسْكُنُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ الْمُلْحِدُونَ، فَبَكِّرْ عَلَيَّ غَداً.

المجلس الأول

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَانْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِهِ فَرِحاً مَسْرُوراً، وَطَالَتْ عَلَيَّ تِلْكَ اللَّيْلَةُ انْتِظَاراً لِمَا وَعَدَنِي بِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ، فَاسْتُوذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، وَقُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى حُجْرَةٍ كَانَ يَخْلُو فِيهَا وَنَهَضْتُ بِنُهُوضِهِ، فَقَالَ: اتْبَعْنِي فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ وَدَخَلْتُ خَلْفَهُ، فَجَلَسَ وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ عليه السلام:

يَا مُفَضَّلُ كَأَنِّي بِكَ وَقَدْ طَالَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ انْتِظَاراً لِمَا وَعَدْتُكَ.

فَقُلْتُ: أَجَلْ يَا مَوْلَايَ.

فَقَالَ عليه السلام: يَا مُفَضَّلُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَهُوَ بَاقٍ وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا، وَالشُّكْرُ عَلَى مَا مَنَحَنَا، فَقَدْ خَصَّنَا مِنَ الْعُلُومِ بِأَعْلَاهَا، وَمِنَ الْمَعَالِي بِأَسْنَاهَا، وَاصْطَفَانَا عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بِعِلْمِهِ، وَجَعَلَنَا مُهَيْمِنِينَ عَلَيْهِمْ بِحِكَمِهِ.

فَقُلْتُ: يَا مَوْلَايَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَكْتُبَ مَا تَشْرَحُهُ.

وَكُنْتُ أَعْدَدْتُ مَعِي مَا أَكْتُبُ فِيهِ.

فَقَالَ لِي: افْعَلْ يَا مُفَضَّلُ.

جهل الشكاك بأسباب الخلقة ومعانيها

إِنَّ الشُّكَّاكَ جَهِلُوا الْأَسْبَابَ وَالْمَعَانِيَ فِي الْخِلْقَةِ، وَقَصُرَتْ أَفْهَامُهُمْ عَنْ تَأَمُّلِ

الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ فِيمَا ذَرَأَ[1] الْبَارِي جَلَّ قُدْسُهُ وَبَرَأَ[2] مِنْ صُنُوفِ خَلْقِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْوَعْرِ، فَخَرَجُوا بِقِصَرِ عُلُومِهِمْ إِلَى الْجُحُودِ، وَبِضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعُنُودِ، حَتَّى أَنْكَرُوا خَلْقَ الْأَشْيَاءِ، وَادَّعَوْا أَنَّ تَكَوُّنَهَا بِالْإِهْمَالِ، لَا صَنْعَةَ فِيهَا وَلَا تَقْدِيرَ، وَلَا حِكْمَةَ مِنْ مُدَبِّرٍ وَلَا صَانِعٍ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَصِفُونَ، و﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

فَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَغَيِّهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ بِمَنْزِلَةِ عُمْيَانٍ دَخَلُوا دَاراً قَدْ بُنِيَتْ أَتْقَنَ بِنَاءٍ وَأَحْسَنَهُ، وَفُرِشَتْ بِأَحْسَنِ الْفُرُشِ وَأَفْخَرِهِ، وَأُعِدَّ فِيهَا ضُرُوبُ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَآرِبِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا وَلَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا، وَوُضِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ، عَلَى صَوَابٍ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَحِكْمَةٍ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ فِيهَا يَمِيناً وَشِمَالًا، وَيَطُوفُونَ بُيُوتَهَا إِدْبَاراً وَإِقْبَالًا، مَحْجُوبَةً أَبْصَارُهُمْ عَنْهَا، لَا يُبْصِرُونَ بُنْيَةَ الدَّارِ وَمَا أُعِدَّ فِيهَا، وَرُبَّمَا عَثَرَ بَعْضُهُمْ بِالشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وُضِعَ مَوْضِعَهُ، وَأُعِدَّ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ جَاهِلٌ لِلْمَعْنَى فِيهِ وَلِمَا أُعِدَّ وَلِمَاذَا جُعِلَ كَذَلِكَ، فَتَذَمَّرَ وَتَسَخَّطَ، وَذَمَّ الدَّارَ وَبَانِيَهَا، فَهَذِهِ حَالُ هَذَا الصِّنْفِ فِي إِنْكَارِهِمْ مَا أَنْكَرُوا مِنْ أَمْرِ الْخِلْقَةِ وَثَبَاتِ الصَّنْعَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا عَزَبَتْ[4] أَذْهَانُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ، وَالْعِلَلِ فِي الْأَشْيَاءِ، صَارُوا يَجُولُونَ فِي هَذَا الْعَالَمِ حَيَارَى فَلَا يَفْهَمُونَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ خِلْقَتِهِ، وَحُسْنِ صَنْعَتِهِ، وَصَوَابِ هَيْئَتِهِ، وَرُبَّمَا وَقَفَ بَعْضُهُمْ عَلَى الشَّيْءِ يَجْهَلُ سَبَبَهُ وَالْإِرْبَ[5] فِيهِ، فَيُسْرِعُ إِلَى ذَمِّهِ وَوَصْفِهِ بِالْإِحَالَةِ وَالْخَطَإِ، كَالَّذِي أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ الْمَنَانِيَّةُ[6] الْكَفَرَةُ، وَجَاهَرَتْ بِهِ الْمُلْحِدَةُ الْمَارِقَةُ الْفَجَرَةُ، وَأَشْبَاهُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ، الْمُعَلِّلِينَ أَنْفُسَهُمْ

---

(١) ذرأ اللهّ الخلق: خلقهم.

(٢) برأه: خلقه من العدم.

(٣) سورة التوبة: ٣٠.

(٤) أي غابت.

(٥) الإرب: - بالفتح- المهارة أو الحاجة.

(٦) أو المانويّة: هم أصحاب الحكيم الفارسّي مانى بن فاتك الذي ظهر في أيّام سابور« ثانى ملوك الدولة الساسانية» ومذهبة مزيج من المجوسيّة والنصرانية.

بِالْمُحَالِ[1]، فَيَحِقُّ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَهَدَاهُ لِدِينِهِ، وَوَفَّقَهُ لِتَأَمُّلِ التَّدْبِيرِ فِي صَنْعَةِ الْخَلائِقِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَا خُلِقُوا لَهُ مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ، وَصَوَابِ التَّقْدِيرِ، بِالدَّلالَةِ الْقَائِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صَانِعِهَا أَنْ يُكْثِرَ حَمْدَ اللهِ مَوْلاهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ فِي الثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَادَةِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ يَقُولُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

تهيئة العالم وتأليف أجزائه

يا مُفَضَّلُ..

أَوَّلُ الْعِبَرِ وَالدَّلالَةِ عَلَى الْبَارِي جَلَّ قُدْسُهُ تَهْيِئَةُ هَذَا الْعَالَمِ، وَتَأْلِيفُ أَجْزَائِهِ وَنَظْمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِفِكْرِكَ، وَخَبَرْتَهُ بِعَقْلِكَ؛ وَجَدْتَهُ كَالْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ الْمُعَدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ؛ فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبِسَاطِ، وَالنُّجُومُ مُضِيئَةٌ كَالْمَصَابِيحِ، وَالْجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدٌّ، وَالْإِنْسَانُ كَالْمَلِكِ ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَالْمُخَوَّلِ[3] جَمِيعَ مَا فِيهِ، وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ الْحَيَوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، فَفِي هَذَا دَلالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وَحِكْمَةٍ وَنِظَامٍ وَمُلائَمَةٍ، وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ الَّذِي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ، جَلَّ قُدْسُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَكَرُمَ وَجْهُهُ، وَلا إِلَهَ غَيْرُهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْجَاحِدُونَ، وَجَلَّ وَعَظُمَ عَمَّا يَنْتَحِلُهُ الْمُلْحِدُونَ.

خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم

نَبْدَأُ يَا مُفَضَّلُ بِذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَاعْتَبِرْ بِهِ..

فَأَوَّلُ ذَلِكَ مَا يُدَبَّرُ بِهِ الْجَنِينُ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ مَحْجُوبٌ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ؛ ظُلْمَةِ

---

(١) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهّم بأمور يحكم العقل السليم باستحالتها.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) من التخويل وهو الإعطاء والتمليك.

الْبَطْنِ، وَظُلْمَةِ الرَّحِمِ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ، حَيْثُ لَا حِيلَةَ عِنْدَهُ فِي طَلَبِ غِذَاءٍ، وَلَا دَفْعِ أَذًى، وَلَا اسْتِجْلَابِ مَنْفَعَةٍ، وَلَا دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَإِنَّهُ يَجْرِي إِلَيْهِ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ مَا يَغْذُوهُ الْمَاءُ وَالنَّبَاتُ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ غِذَاؤُهُ.

ولادة الجنين وغذاؤه وطلوع أسنانه وبلوغه

حَتَّى إِذَا كَمَلَ خَلْقُهُ، وَاسْتَحْكَمَ بَدَنُهُ، وَقَوِيَ أَدِيمُهُ[١] عَلَى مُبَاشَرَةِ الْهَوَاءِ، وَبَصَرُهُ عَلَى مُلَاقَاةِ الضِّيَاءِ، هَاجَ الطَّلْقُ[٢] بِأُمِّهِ، فَأَزْعَجَهُ أَشَدَّ إِزْعَاجٍ، وَأَعْنَفَهُ حَتَّى يُولَدَ، فَإِذَا وُلِدَ صَرَفَ ذَلِكَ الدَّمَ الَّذِي كَانَ يَغْذُوهُ مِنْ دَمِ أُمِّهِ إِلَى ثَدْيِهَا، وَانْقَلَبَ الطَّعْمُ وَاللَّوْنُ إِلَى ضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْغِذَاءِ، وَهُوَ أَشَدُّ مُوَافَقَةً لِلْمَوْلُودِ مِنَ الدَّمِ، فَيُوَافِيهِ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَحِينَ يُولَدُ قَدْ تَلَمَّظَ[٣] وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ طَلَباً لِلرِّضَاعِ، فَهُوَ يَجِدُ ثَدْيَ أُمِّهِ كَالْإِدَاوَتَيْنِ[٤] الْمُعَلَّقَتَيْنِ لِحَاجَتِهِ.

فَلَا يَزَالُ يَتَغَذَّى بِاللَّبَنِ مَا دَامَ رَطْبَ الْبَدَنِ، رَقِيقَ الْأَمْعَاءِ، لَيِّنَ الْأَعْضَاءِ، حَتَّى إِذَا يُحَرِّكُ وَاحْتَاجَ إِلَى غِذَاءٍ فِيهِ صَلَابَةٌ لِيَشْتَدَّ وَيَقْوَى بَدَنُهُ طَلَعَتْ لَهُ الطَّوَاحِنُ مِنَ الْأَسْنَانِ وَالْأَضْرَاسِ[٥] لِيَمْضَغَ[٦] بِهَا الطَّعَامَ فَيَلِينَ عَلَيْهِ، وَيَسْهُلَ لَهُ إِسَاغَتُهُ.

فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُدْرِكَ؛ فَإِذَا أَدْرَكَ وَكَانَ ذَكَراً طَلَعَ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ الذَّكَرِ، وَعِزَّ الرَّجُلِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنْ حَدِّ الصِّبَا، وَشَبَهِ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى يَبْقَى وَجْهُهَا نَقِيّاً مِنَ الشَّعْرِ لِتَبْقَى لَهَا الْبَهْجَةُ وَالنَّضَارَةُ الَّتِي تُحَرِّكُ الرَّجُلَ، لِمَا فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ.

اعْتَبِرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَا يُدَبِّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ هَلْ تَرَى مِثْلَهُ

---

(١) الأديم: الجلد المدبوغ.

(٢) الطلق: وجع الولادة.

(٣) تلمّظ: إذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه.

(٤) الإداوة: إناء صغير من جلد يتّخذ للماء، جمعه أداوى.

(٥) الطواحن: هي الأضراس، وتطلق الأضراس غالبا على المآخير والأسنان على المقاديم.

(٦) مضغ الطعام: لاكه بلسانه.

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِالْإِهْمَالِ، أَفَرَأَيْتَ لَوْلَمْ يَجرِإِلَيْهِ ذَلِكَ الدَّمُ وَهُوَفِي الرَّحِمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَذْوِي وَيَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ النَّبَاتُ إِذَا فَقَدَ الْمَاءَ؟!

وَلَوْلَمْ يُزْعِجْهُ الْمَخَاضُ عِنْدَ اسْتِحْكَامِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي الرَّحِمِ كَالْمَوْءُودِ[1] فِي الْأَرْضِ؟!

وَلَوْلَمْ يُوَافِقْهُ اللَّبَنُ مَعَ وِلَادَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَمُوتُ جُوعاً أَوْ يَغْتَذِي بِغِذَاءٍ لَا يُلَائِمُهُ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ بَدَنُهُ؟!

وَلَوْلَمْ تَطْلُعْ لَهُ الْأَسْنَانُ فِي وَقْتِهَا أَلَمْ يَكُنْ سَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَضْغُ الطَّعَامِ، وَإِسَاغَتُهُ أَوْ يُقِيمُهُ عَلَى الرَّضَاعِ فَلَا يَشْتَدُّ بَدَنُهُ وَلَا يَصْلُحُ لِعَمَلٍ، ثُمَّ كَانَ يَشْغَلُ أُمَّهُ بِنَفْسِهِ عَنْ تَرْبِيَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ؟!

حال من لا ينبت في وجهه الشعر وعلة ذلك

وَلَوْلَمْ يَخْرُجِ الشَّعْرُفِي وَجْهِهِ فِي وَقْتِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي هَيْئَةِ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ، فَلَا تَرَى لَهُ جَلَالَةً وَلَا وَقَاراً؟!

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا مَوْلَايَ فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَبْقَى عَلَى حَالَتِهِ، وَلَا يَنْبُتُ الشَّعْرُفِي وَجْهِهِ، وَإِنْ بَلَغَ الْكِبَرَ.

فَقَالَ عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْصُدُهُ[3] حَتَّى يُوَافِيَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَآرِبِ إِلَّا الَّذِي أَنْشَأَهُ خَلْقاً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ تَوَكَّلَ لَهُ بِمَصْلَحَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ، فَإِنْ كَانَ الْإِهْمَالُ يَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْبِيرِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَمْدُ وَالتَّقْدِيرُ يَأْتِيَانِ بِالْخَطَإِ وَالْمُحَالِ لِأَنَّهُمَا ضِدُّ الْإِهْمَالِ، وَهَذَا فَظِيعٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَجَهْلٌ مِنْ قَائِلِهِ، لِأَنَّ الْإِهْمَالَ لَا يَأْتِي بِالصَّوَابِ، وَالتَّضَادَّ لَا يَأْتِي بِالنِّظَامِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدُونَ عُلُوّاً كَبِيراً.

---

(١) وأد البنت: دفنها في التراب وهي حية، كما كان العرب يفعلون ذلك في العهد الجاهلي.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٢.

(٣) يرصده: أي يرقبه.

حال المولود لو ولد عاقلا

وَلَوْ كَانَ الْمَوْلُودُ يُولَدُ فَهِماً[١] عَاقِلاً لَأَنْكَرَ الْعَالَمَ عِنْدَ وِلَادَتِهِ، وَلَبَقِيَ حَيْرَانَ تَائِهَ الْعَقْلِ إِذَا رَأَى مَا لَمْ يَعْرِفْ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَرَ مِثْلَهُ مِنِ اخْتِلَافِ صُوَرِ الْعَالَمِ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُشَاهِدُهُ، سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، وَيَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ سُبِيَ مِنْ بَلَدٍ وَهُوَ عَاقِلٌ يَكُونُ كَالْوَالِهِ الْحَيْرَانِ، فَلَا يُسْرِعُ إِلَى تَعَلُّمِ الْكَلَامِ، وَقَبُولِ الْأَدَبِ كَمَا يُسْرِعُ الَّذِي سُبِيَ صَغِيراً غَيْرَ عَاقِلٍ، ثُمَّ لَوْ وُلِدَ عَاقِلاً كَانَ يَجِدُ غَضَاضَةً[٢] إِذَا رَأَى نَفْسَهُ مَحْمُولاً مُرْضَعاً مُعَصَّباً بِالْخِرَقِ مُسَجًّى[٣] فِي الْمَهْدِ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ هَذَا كُلِّهِ لِرِقَّةِ بَدَنِهِ وَرُطُوبَتِهِ حِينَ يُولَدُ، ثُمَّ كَانَ لَا يُوجَدُ لَهُ مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالْوَقْعِ مِنَ الْقُلُوبِ مَا يُوجَدُ لِلطِّفْلِ فَصَارَ يَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا غَبِيّاً[٤] غَافِلاً عَمَّا فِيهِ أَهْلُهُ، فَيَلْقَى الْأَشْيَاءَ بِذِهْنٍ ضَعِيفٍ، وَمَعْرِفَةٍ نَاقِصَةٍ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَزَايَدُ فِي الْمَعْرِفَةِ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَشَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، وَحَالاً بَعْدَ حَالٍ، حَتَّى يَأْلَفَ الْأَشْيَاءَ، وَيَتَمَرَّنَ وَيَسْتَمِرَّ عَلَيْهَا، فَيَخْرُجَ مِنْ حَدِّ التَّأَمُّلِ لَهَا وَالْحَيْرَةِ فِيهَا إِلَى التَّصَرُّفِ وَالِاضْطِرَارِ إِلَى الْمَعَاشِ بِعَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ، وَإِلَى الِاعْتِبَارِ وَالطَّاعَةِ وَالسَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

وَفِي هَذَا أَيْضاً وُجُوهٌ أُخَرُ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ يُولَدُ تَامَّ الْعَقْلِ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ لَذَهَبَ مَوْضِعُ حَلَاوَةِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ، وَمَا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ لِلْوَالِدَيْنِ فِي الِاشْتِغَالِ بِالْوَلَدِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَمَا يُوجِبُ التَّرْبِيَةَ لِلْآبَاءِ عَلَى الْأَبْنَاءِ مِنَ الْمُكَافَأَةِ بِالْبِرِّ وَالْعَطْفِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ[٥]، ثُمَّ كَانَ الْأَوْلَادُ لَا يَأْلَفُونَ آبَاءَهُمْ، وَلَا يَأْلَفُ الْآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ، لِأَنَّ الْأَوْلَادَ كَانُوا يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَرْبِيَةِ الْآبَاءِ وَحِيَاطَتِهِمْ، فَيَتَفَرَّقُونَ عَنْهُمْ حِينَ يُولَدُونَ، فَلَا

---

(١) الفهم:- بفتح فكسر- السريع الفهم.

(٢) الغضاضة: هى الذلة والمنقصة- جمعها غضائض.

(٣) التسجية: هى التغطية بثوب يمد على الجسم.

(٤) على وزن فعيل- وهو القليل الفطنة.

(٥) أي بأن يبّر الأبناء بآبائهم والعطف عليهم عند حاجة الآباء إلى ذلك في كبرهم وضعفهم، وجزاء لما عانوا من الشدائد في سبيل تربية الأبناء

يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ نِكَاحِ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ وَذَوَاتِ الْمَحَارِمِ مِنْهُ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُهُنَّ، وَأَقَلُّ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْقَبَاحَةِ بَلْ هُوَ أَشْنَعُ وَأَعْظَمُ وَأَفْظَعُ وَأَقْبَحُ وَأَبْشَعُ لَوْ خَرَجَ الْمَوْلُودُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَهُوَ يَعْقِلُ أَنْ يَرَى مِنْهَا مَا لَا يَحِلُّ لَهُ وَلَا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَرَاهُ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ أُقِيمَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْخِلْقَةِ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ وَخَلَا مِنَ الْخَطَإِ دَقِيقُهُ وَجَلِيلُهُ؟

منفعة الأطفال في البكاء

اعْرِفْ يَا مُفَضَّلُ مَا لِلْأَطْفَالِ فِي الْبُكَاءِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي أَدْمِغَةِ الْأَطْفَالِ رُطُوبَةً إِنْ بَقِيَتْ فِيهَا أَحْدَثَتْ عَلَيْهِمْ أَحْدَاثاً جَلِيلَةً، وَعِلَلًا عَظِيمَةً مِنْ ذَهَابِ الْبَصَرِ وَغَيْرِهِ، وَالْبُكَاءُ يُسِيلُ تِلْكَ الرُّطُوبَةَ مِنْ رُؤُوسِهِمْ، فَيُعْقِبُهُمْ ذَلِكَ الصِّحَّةَ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَالسَّلَامَةَ فِي أَبْصَارِهِمْ، أَفَلَيْسَ قَدْ جَازَ أَنْ يَكُونَ الطِّفْلُ يَنْتَفِعُ بِالْبُكَاءِ وَوَالِدَاهُ لَا يَعْرِفَانِ ذَلِكَ، فَهُمَا دَائِبَانِ[1] لِيُسْكِتَانِهِ، وَيَتَوَخَّيَانِ[2] فِي الْأُمُورِ مَرْضَاتَهُ لِئَلَّا يَبْكِيَ، وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ أَنَّ الْبُكَاءَ أَصْلَحُ لَهُ، وَأَجْمَلُ عَاقِبَةً، فَهَكَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَنَافِعُ لَا يَعْرِفُهَا الْقَائِلُونَ بِالْإِهْمَالِ، وَلَوْ عَرَفُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْضُوا عَلَى الشَّيْءِ أَنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يَعْلَمُونَ السَّبَبَ فِيهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا لَا يَعْرِفُهُ الْمُنْكِرُونَ يَعْلَمُهُ الْعَارِفُونَ وَكَثِيراً مَا يَقْصُرُ عَنْهُ عِلْمُ الْمَخْلُوقِينَ مُحِيطٌ بِهِ عِلْمُ الْخَالِقِ جَلَّ قُدْسُهُ وَعَلَتْ كَلِمَتُهُ.

فَأَمَّا مَا يَسِيلُ مِنْ أَفْوَاهِ الْأَطْفَالِ مِنَ الرِّيقِ، فَفِي ذَلِكَ خُرُوجُ الرُّطُوبَةِ الَّتِي لَوْ بَقِيَتْ فِي أَبْدَانِهِمْ لَأَحْدَثَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمُورَ الْعَظِيمَةَ، كَمَنْ تَرَاهُ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الرُّطُوبَةُ فَأَخْرَجَتْهُ إِلَى حَدِّ الْبَلَهِ وَالْجُنُونِ وَالتَّخْلِيطِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُتْلِفَةِ كَالْفَالِجِ[3] وَاللَّقْوَةِ[4] وَمَا أَشْبَهَهُمَا، فَجَعَلَ اللهُ تِلْكَ الرُّطُوبَةَ تَسِيلُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ فِي

---

(١) الدؤوب: الجد والتعب.

(٢) التوخي. التحرّي والقصد

(٣) الفالج: داء يحدث في أحد شقي البدن، فيبطل إحساسه وحركته.

(٤) اللقوة: داء يصيب الوجه، يعوج منه الشدق إلى أحد جانبي العنق، جمعه لقاء وألقاء.

صِغَرِهِمْ لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الصِّحَّةِ فِي كِبَرِهِمْ، فَتَفَضَّلَ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا جَهِلُوهُ، وَنَظَرَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْرِفُوهُ، وَلَوْ عَرَفُوا نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ لَشَغَلَهُمْ ذَلِكَ مِنَ التَّمَادِي فِي مَعْصِيَتِهِ، فَسُبْحَانَهُ مَا أَجَلَّ نِعْمَتَهُ وَأَسْبَغَهَا عَلَى الْمُسْتَحِقِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ[١] عُلُوّاً كَبِيراً.

آلات الجماع وهيئتها

انْظُرِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ كَيْفَ جُعِلَتْ آلَاتُ الْجِمَاعِ فِي الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى جَمِيعاً عَلَى مَا يُشَاكِلُ ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ آلَةً نَاشِرَةً تَمْتَدُّ حَتَّى تَصِلَ النُّطْفَةُ إِلَى الرَّحِمِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَى أَنْ يَقْذِفَ مَاءَهُ فِي غَيْرِهِ، وَخَلَقَ لِلْأُنْثَى وِعَاءً قَعِراً[٢] لِيَشْتَمِلَ عَلَى الْمَاءَيْنِ جَمِيعاً، وَيَحْتَمِلَ الْوَلَدَ، وَيَتَّسِعَ لَهُ وَيَصُونَهُ حَتَّى يَسْتَحْكِمَ، أَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ تَدْبِيرِ حَكِيمٍ لَطِيفٍ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أعضاء البدن وفوائد كل منها

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي أَعْضَاءِ الْبَدَنِ أَجْمَعَ وَتَدْبِيرِ كُلٍّ مِنْهَا لِلْإِرْبِ؛ فَالْيَدَانِ لِلْعِلَاجِ، وَالرِّجْلَانِ لِلسَّعْيِ، وَالْعَيْنَانِ لِلاهْتِدَاءِ، وَالْفَمُ لِلاغْتِذَاءِ، وَالْمَعِدَةُ لِلْهَضْمِ، وَالْكَبِدُ لِلتَّخْلِيصِ، وَالْمَنَافِذُ لِتَنْفِيذِ الْفُضُولِ، وَالْأَوْعِيَةُ لِحَمْلِهَا، وَالْفَرْجُ لِإِقَامَةِ النَّسْلِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ إِذَا مَا تَأَمَّلْتَهَا وَأَعْمَلْتَ فِكْرَكَ فِيهَا وَنَظَرَكَ وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا قَدْ قُدِّرَ لِشَيْءٍ عَلَى صَوَابٍ وَحِكْمَةٍ.

زعم الطبيعيين وجوابه

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: يَا مَوْلَايَ إِنَّ قَوْماً يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ الطَّبِيعَةِ.

فَقَالَ عليه السلام: سَلْهُمْ عَنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ: أَهِيَ شَيْءٌ لَهُ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ أَمْ لَيْسَتْ كَذَلِكَ؟ فَإِنْ أَوْجَبُوا لَهَا الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ فَمَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِثْبَاتِ

---

(١) يقال: أبطل أي جاء بالباطل.

(٢) القعر من كلّ شيء: عمقه ونهاية أسفله.

الْخَالِقِ فَإِنَّ هَذِهِ صَنْعَتُهُ[1]، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهَا تَفعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَالَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ عَمْدٍ وَكَانَ فِي أَفْعَالِهَا مَا قَدْ تَرَاهُ مِنَ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ عُلِمَ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الَّذِي سَمَّوْهُ طَبِيعَةً هُوَ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ الْجَارِيَةُ عَلَى مَا أَجْرَاهَا عَلَيْهِ.

عملية الهضم وتكون الدم

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي وُصُولِ الْغِذَاءِ إِلَى الْبَدَنِ وَمَا فِيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ؛ فَإِنَّ الطَّعَامَ يَصِيرُ إِلَى الْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ، وَتَبْعَثُ بِصَفْوِهِ إِلَى الْكَبِدِ فِي عُرُوقٍ دِقَاقٍ وَاشِجَةٍ[2] بَيْنَهُمَا قَدْ جُعِلَتْ كَالْمُصَفِّي لِلْغِذَاءِ لِكَيْلَا يَصِلَ إِلَى الْكَبِدِ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَنْكَاهَا[3]، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَبِدَ رَقِيقَةٌ لَا تَحْتَمِلُ الْعُنْفَ، ثُمَّ إِنَّ الْكَبِدَ تَقْبَلُهُ فَيَسْتَحِيلُ بِلُطْفِ التَّدْبِيرِ دَماً، وَيُنْفِذُهُ إِلَى الْبَدَنِ كُلِّهِ فِي مَجَارِي مُهَيَّأَةٍ لِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمَجَارِي الَّتِي تُهَيَّأُ لِلْمَاءِ لِيَطَّرِدَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَيَنْفُذَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الْخَبَثِ وَالْفُضُولِ إِلَى مَفَايِضَ[4] قَدْ أُعِدَّتْ لِذَلِكَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ جِنْسِ الْمِرَّةِ الصَّفْرَاءِ جَرَى إِلَى الْمَرَارَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ السَّوْدَاءِ جَرَى إِلَى الطِّحَالِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْبِلَّةِ وَالرُّطُوبَةِ جَرَى إِلَى الْمَثَانَةِ، فَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ التَّدْبِيرِ فِي تَرْكِيبِ الْبَدَنِ، وَوَضْعِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مِنْهُ مَوَاضِعَهَا، وَإِعْدَادِ هَذِهِ الْأَوْعِيَةِ فِيهِ لِتَحْمِلَ تِلْكَ الْفُضُولَ لِئَلَّا تَنْتَشِرَ فِي الْبَدَنِ فَتُسْقِمَهُ وَتَنْهَكَهُ، فَتَبَارَكَ مَنْ أَحْسَنَ التَّقْدِيرَ، وَأَحْكَمَ التَّدْبِيرَ، وَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحِقُّهُ.

أول نشوء الأبدان تصوير الجنين في الرحم

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: صِفْ نُشُوءَ الْأَبْدَانِ وَنُمُوَّهَا حَالًا بَعْدَ حَالٍ حَتَّى تَبْلُغَ

---

(١) لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع، فلم يسمّونه بالطبيعة، وهي ليست بذات علم ولا إرادة ولا قدرة؟.

(٢) الواشجة: مؤنث الواشج اسم فاعل بمعنى المشتبك، يقال: وشجت العروق والأغصان إذا اشتبكت. والمراد بالواشجة هنا الموصلة او الواصلة.

(٣) نكأ القرحة قشرها قبل أن تبرأ فندبت.

(٤) المفايض: المجارى، مأخوذة من فاض الماء، وفي بعض النسخ بالغين من غاض الماء غيضاً، أي نضب وذهب في الأرض.

التَّمَامَ وَالْكَمَالَ.

قَالَ عليه السلام: أَوَّلُ ذَلِكَ تَصْوِيرُ الْجَنِينِ فِي الرَّحِمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ، وَلَا تَنَالُهُ يَدٌ، وَيُدَبِّرُهُ حَتَّى يَخْرُجَ سَوِيّاً مُسْتَوْفِياً جَمِيعَ مَا فِيهِ قِوَامُهُ وَصَلَاحُهُ مِنَ الْأَحْشَاءِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعَوَامِلِ إِلَى مَا فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ مِنَ الْعِظَامِ وَاللَّحْمِ وَالشَّحْمِ وَالْعَصَبِ وَالْمُخِّ وَالْعُرُوقِ وَالْغَضَارِيفِ[١]، فَإِذَا خَرَجَ إِلَى الْعَالَمِ تَرَاهُ كَيْفَ يَنْمُو بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى شَكْلٍ وَهَيْئَةٍ لَا تَتَزَايَدُ وَلَا تَنْقُصُ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ إِنْ مُدَّ فِي عُمُرِهِ أَوْ يَسْتَوْفِيَ مُدَّتَهُ قَبْلَ ذَلِكَ هَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ؟

اختصاص الإنسان بالانتصاب والجلوس دون البهائم

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ مَا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي خَلْقِهِ تَشَرُّفاً وَتَفَضُّلاً عَلَى الْبَهَائِمِ؛ فَإِنَّهُ خُلِقَ يَنْتَصِبُ قَائِماً، وَيَسْتَوِي جَالِساً لِيَسْتَقْبِلَ الْأَشْيَاءَ بِيَدَيْهِ وَجَوَارِحِهِ وَيُمْكِنَهُ الْعِلَاجُ وَالْعَمَلُ بِهِمَا، فَلَوْ كَانَ مَكْبُوباً عَلَى وَجْهِهِ كَذَوَاتِ الْأَرْبَعِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئاً مِنَ الْأَعْمَالِ.

تخصص الإنسان بالحواس دون غيره

انْظُرِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْحَوَاسِ[٢] الَّتِي خُصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي خَلْقِهِ، وَشُرِّفَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ كَيْفَ جُعِلَتِ الْعَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ كَالْمَصَابِيحِ فَوْقَ الْمَنَارَةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُطَالَعَةِ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ تُجْعَلْ فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي تَحْتَهُنَّ كَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ فَتَعْتَرِضَهَا الْآفَاتُ، وَيُصِيبَهَا مِنْ مُبَاشَرَةِ الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ مَا يُعَلِّلُهَا وَيُؤَثِّرُ فِيهَا وَيَنْقُصُ مِنْهَا، وَلَا فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي وَسَطَ الْبَدَنِ كَالْبَطْنِ وَالظَّهْرِ فَيَعْسُرَ تَقَلُّبُهَا وَاطِّلَاعُهَا نَحْوَ الْأَشْيَاءِ.

فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مَوْضِعٌ كَانَ الرَّأْسُ أَسْنَى الْمَوَاضِعِ لِلْحَوَاسِّ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الصَّوْمَعَةِ لَهَا، فَجَعَلَ الْحَوَاسَّ خَمْساً تَلْقَى خَمْساً لِكَيْ لَا يَفُوتَهَا

(١) الغضاريف: جمع غضروف وهو كلّ عظم رخص لين.

(٢) هي الأعضاء التي تؤمّن مناسباتنا مع المحيط الخارجي، وهي خمسة أعضاء اللمس والذوق والشم والبصر والسمع

شَيْءٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ؛ فَخَلَقَ الْبَصَرَ لِيُدْرِكَ الْأَلْوَانَ، فَلَوْ كَانَتِ الْأَلْوَانُ وَلَمْ يَكُنْ بَصَرٌ يُدْرِكُهَا لَمْ تَكُنْ فِيهَا مَنْفَعَةٌ، وَخَلَقَ السَّمْعَ لِيُدْرِكَ الْأَصْوَاتَ فَلَوْ كَانَتِ الْأَصْوَاتُ وَلَمْ يَكُنْ سَمْعٌ يُدْرِكُهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِرْبٌ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَوَاسِّ ثُمَّ هَذَا يَرْجِعُ مُتَكَافِياً فَلَوْ كَانَ بَصَرٌ وَلَمْ تَكُنِ الْأَلْوَانُ لَمَا كَانَ لِلْبَصَرِ مَعْنًى، وَلَوْ كَانَ سَمْعٌ وَلَمْ تَكُنْ أَصْوَاتٌ لَمْ يَكُنْ لِلسَّمْعِ مَوْضِعٌ.

فَانْظُرْ كَيْفَ قَدَّرَ بَعْضَهَا يَلْقَى بَعْضاً، فَجَعَلَ لِكُلِّ حَاسَّةٍ مَحْسُوساً يَعْمَلُ فِيهِ، وَلِكُلِّ مَحْسُوسٍ حَاسَّةً تُدْرِكُهُ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ جُعِلَتْ أَشْيَاءُ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْحَوَاسِّ وَالْمَحْسُوسَاتِ لَا تَتِمُّ الْحَوَاسُّ إِلَّا بِهَا كَمِثْلِ الضِّيَاءِ وَالْهَوَاءِ فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ ضِيَاءٌ يُظْهِرُ اللَّوْنَ لِلْبَصَرِ لَمْ يَكُنِ الْبَصَرُ يُدْرِكُ اللَّوْنَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَوَاءٌ يُؤَدِّي الصَّوْتَ إِلَى السَّمْعِ لَمْ يَكُنِ السَّمْعُ يُدْرِكُ الصَّوْتَ، فَهَلْ يَخْفَى عَلَى مَنْ صَحَّ نَظَرُهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الَّذِي وَصَفْتُ مِنْ تَهْيِئَةِ الْحَوَاسِّ وَالْمَحْسُوسَاتِ بَعْضُهَا يَلْقَى بَعْضاً وَتَهْيِئَةِ أَشْيَاءَ أُخَرَ بِهَا تَتِمُّ الْحَوَاسُّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَمَلٍ وَتَقْدِيرٍ مِنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ؟

فيمن عدم البصر والسمع والعقل

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَنْ عَدِمَ الْبَصَرَ مِنَ النَّاسِ وَمَا يَنَالُهُ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ، وَلَا يُبْصِرُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَلْوَانِ وَبَيْنَ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَلَا يَرَى حُفْرَةً إِنْ هَجَمَ عَلَيْهَا، وَلَا عَدُوّاً إِنْ أَهْوَى إِلَيْهِ بِسَيْفٍ، وَلَا يَكُونُ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى أَنْ يَعْمَلَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَاتِ مِثْلِ الْكِتَابَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالصِّيَاغَةِ حَتَّى أَنَّهُ لَوْلَا نَفَاذُ ذِهْنِهِ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْحَجَرِ الْمُلْقَى.

وَ كَذَلِكَ مَنْ عَدِمَ السَّمْعَ يَخْتَلُّ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ؛ فَإِنَّهُ يَفْقِدُ رَوْحَ الْمُخَاطَبَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ، وَيَعْدَمُ لَذَّةَ الْأَصْوَاتِ وَاللُّحُونِ الْمُشْجِيَةِ وَالْمُطْرِبَةِ، وَتَعْظُمُ الْمَئُونَةُ عَلَى النَّاسِ فِي مُحَاوَرَتِهِ حَتَّى يَتَبَرَّمُوا بِهِ، وَلَا يَسْمَعُ شَيْئاً مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ وَأَحَادِيثِهِمْ حَتَّى يَكُونَ كَالْغَائِبِ وَهُوَ شَاهِدٌ، أَوْ كَالْمَيِّتِ وَهُوَ حَيٌّ.

فَأَمَّا مَنْ عَدِمَ الْعَقْلَ فَإِنَّهُ يُلْحَقُ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ بَلْ يَجْهَلُ كَثِيراً مِمَّا تَهْتَدِي إِلَيْهِ

الْبَهَائِمُ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ صَارَتِ الْجَوَارِحُ وَالْعَقْلُ وَسَائِرُ الْخِلَالِ[1] الَّتِي بِهَا صَلَاحُ الْإِنْسَانِ وَالَّتِي لَوْ فَقَدَ مِنْهَا شَيْئاً لَعَظُمَ مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَلَلِ يُوَافِي خَلْقَهُ عَلَى التَّمَامِ حَتَّى لَا يَفْقِدَ شَيْئاً مِنْهَا، فَلِمَ كَانَ كَذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ خُلِقَ بِعِلْمٍ وَتَقْدِيرٍ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: فَلِمَ صَارَ بَعْضُ النَّاسِ يَفْقِدُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فَيَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلُ مَا وَصَفْتَهُ يَا مَوْلَايَ؟

قَالَ عليه السلام: ذَلِكَ لِلتَّأْدِيبِ وَالْمَوْعِظَةِ لِمَنْ يَحِلُّ ذَلِكَ بِهِ وَلِغَيْرِهِ بِسَبَبِهِ، كَمَا يُؤَدِّبُ الْمُلُوكُ النَّاسَ لِلتَّنْكِيلِ وَالْمَوْعِظَةِ فَلَا يُنْكَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَلْ يُحْمَدُ مِنْ رَأْيِهِمْ، وَيُتَصَوَّبُ مِنْ تَدْبِيرِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ لِلَّذِينَ تَنْزِلُ بِهِمْ هَذِهِ الْبَلَايَا مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِنْ شَكَرُوا وَأَنَابُوا مَا يَسْتَصْغِرُونَ مَعَهُ مَا يَنَالُهُمْ مِنْهَا حَتَّى إِنَّهُمْ لَوْ خُيِّرُوا بَعْدَ الْمَوْتِ لَاخْتَارُوا أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الْبَلَايَا لِيَزْدَادُوا مِنَ الثَّوَابِ.

الأعضاء المخلوقة أفرادا وأزواجا

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي خُلِقَتْ أَفْرَاداً وَأَزْوَاجاً وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالتَّقْدِيرِ وَالصَّوَابِ فِي التَّدْبِيرِ؛ فَالرَّأْسُ مِمَّا خُلِقَ فَرْداً وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ صَلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أُضِيفَ إِلَى رَأْسِ الْإِنْسَانِ رَأْسٌ آخَرُ لَكَانَ ثِقْلاً عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ؟ لِأَنَّ الْحَوَاسَّ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مُجْتَمِعَةٌ فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ لَوْ كَانَ لَهُ رَأْسَانِ فَإِنْ تَكَلَّمَ مِنْ أَحَدِهِمَا كَانَ الْآخَرُ مُعَطَّلاً لَا إِرْبَ فِيهِ وَلَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمَا جَمِيعاً بِكَلَامٍ وَاحِدٍ كَانَ أَحَدُهُمَا فَضْلاً لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِأَحَدِهِمَا بِغَيْرِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ مِنَ الْآخَرِ لَمْ يَدْرِ السَّامِعُ بِأَيِّ ذَلِكَ يَأْخُذُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْأَخْلَاطِ.

وَالْيَدَانِ مِمَّا خُلِقَ أَزْوَاجاً وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ خَيْرٌ فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ يَدٌ وَاحِدَةٌ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يُخِلُّ بِهِ[2] فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَالَجَتِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّجَّارَ وَالْبَنَّاءَ

---

(١) الخلال: جمع خلة وهي الخصلة.

(٢) يقال: أخل بالشيء إذا قصّر فيه.

لَوْ شَلَّتْ إِحْدَى يَدَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَالِجَ صِنَاعَتَهُ؟ وَإِنْ تَكَلَّفَ ذَلِكَ لَمْ يُحْكِمْهُ وَلَمْ يَبْلُغْ مِنْهُ مَا يَبْلُغُهُ إِذَا كَانَتْ يَدَاهُ تَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْعَمَلِ.

الصوت والكلام وآلاته في الإنسان

أَطِلِ الْفِكْرَ يَا مُفَضَّلُ فِي الصَّوْتِ وَالْكَلَامِ وَتَهْيِئَةِ آلَاتِهِ فِي الْإِنْسَانِ؛ فَالْحَنْجَرَةُ كَالْأُنْبُوبَةِ لِخُرُوجِ الصَّوْتِ، وَاللِّسَانُ وَالشَّفَتَانِ وَالْأَسْنَانُ لِصِيَاغَةِ الْحُرُوفِ وَالنَّغْمِ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ لَمْ يُقِمِ السِّينَ، وَمَنْ سَقَطَتْ شَفَتُهُ لَمْ يُصَحِّحِ الْفَاءَ، وَمَنْ ثَقُلَ لِسَانُهُ لَمْ يُفْصِحِ الرَّاءَ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِذَلِكَ الْمِزْمَارُ الْأَعْظَمُ؛ فَالْحَنْجَرَةُ تُشْبِهُ قَصَبَةَ الْمِزْمَارِ، وَالرِّئَةُ تُشْبِهُ الزِّقَّ[1] الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ لِتَدْخُلَ الرِّيحُ، وَالْعَضَلَاتُ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الرِّئَةِ لِيَخْرُجَ الصَّوْتُ كَالْأَصَابِعِ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الزِّقِّ حَتَّى تَجْرِيَ الرِّيحُ فِي الْمَزَامِيرِ، وَالشَّفَتَانِ وَالْأَسْنَانُ الَّتِي تَصُوغُ الصَّوْتَ حُرُوفاً وَنَغْماً كَالْأَصَابِعِ الَّتِي تَخْتَلِفُ فِي فَمِ الْمِزْمَارِ فَتَصُوغُ صَفِيرَهُ أَلْحَاناً، غَيْرَ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُ الصَّوْتِ يُشْبِهُ الْمِزْمَارَ بِالْآلَةِ وَالتَّعْرِيفِ فَإِنَّ الْمِزْمَارَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمُشَبَّهُ بِمَخْرَجِ الصَّوْتِ.

قَدْ أَنْبَأْتُكَ بِمَا فِي الْأَعْضَاءِ مِنَ الْغِنَاءِ فِي صَنْعَةِ الْكَلَامِ، وَإِقَامَةِ الْحُرُوفِ، وَفِيهَا مَعَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مَآرِبُ أُخْرَى:

فَالْحَنْجَرَةُ لِيُسْلَكَ فِيهَا هَذَا النَّسِيمُ إِلَى الرِّئَةِ فَتَرَوَّحَ عَلَى الْفُؤَادِ بِالنَّفَسِ الدَّائِمِ الْمُتَتَابِعِ الَّذِي لَوْ حُبِسَ شَيْئاً يَسِيراً لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ.

وَبِاللِّسَانِ تُذَاقُ الطُّعُومُ، فَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا وَيَعْرِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُلْوَهَا مِنْ مُرِّهَا، وَحَامِضَهَا مِنْ مُرِّهَا، وَمَالِحَهَا مِنْ عَذْبِهَا، وَطَيِّبَهَا مِنْ خَبِيثِهَا، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مَعُونَةٌ عَلَى إِسَاغَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

وَالْأَسْنَانُ لِمَضْغِ الطَّعَامِ حَتَّى يَلِينَ وَتَسْهُلَ إِسَاغَتُهُ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَالسَّنَدِ لِلشَّفَتَيْنِ تُمْسِكُهُمَا وَتَدْعَمُهُمَا مِنْ دَاخِلِ الْفَمِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فَإِنَّكَ تَرَى مَنْ سَقَطَتْ

(١) المراد بالزق هنا الجلد الذي يستعمل في المزمار.

أَسْنَانُهُ مُسْتَرْخِيَ الشَّفَةِ وَمُضْطَرِبَهَا.

وَ بِالشَّفَتَيْنِ يَتَرَشَّفُ[1] الشَّرَابَ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي يَصِلُ إِلَى الْجَوْفِ مِنْهُ بِقَصْدٍ وَقَدْرٍ، لَا يَثُجُّ[2] ثَجّاً فَيَغَصَّ بِهِ الشَّارِبُ، أَوْ يَنْكَأَ فِي الْجَوْفِ، ثُمَّ هُمَا بَعْدَ ذَلِكَ كَالْبَابِ الْمُطْبَقِ عَلَى الْفَمِ يَفْتَحُهَا الْإِنْسَانُ إِذَا شَاءَ، وَيُطْبِقُهَا إِذَا شَاءَ.

وَ فِيمَا وَصَفْنَا مِنْ هَذَا بَيَانُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ يَتَصَرَّفُ وَيَنْقَسِمُ إِلَى وُجُوهٍ مِنَ الْمَنَافِعِ كَمَا تَتَصَرَّفُ الْأَدَاةُ الْوَاحِدَةُ فِي أَعْمَالٍ شَتَّى، وَذَلِكَ كَالْفَأْسِ تُسْتَعْمَلُ فِي النِّجَارَةِ وَالْحَفْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ.

الدماغ وأغشيته والجمجمة وفائدتها

وَ لَوْ رَأَيْتَ الدِّمَاغَ إِذَا كُشِفَ عَنْهُ لَرَأَيْتَهُ قَدْ لُفَّ بِحُجُبٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ لِتَصُونَهُ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَتُمْسِكَهُ فَلَا يَضْطَرِبَ، وَلَرَأَيْتَ عَلَيْهِ الْجُمْجُمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْبَيْضَةِ كَيْمَا تَقِيهِ هَدَّ الصَّدْمَةِ وَالصَّكَّةِ الَّتِي رُبَّمَا وَقَعَتْ فِي الرَّأْسِ، ثُمَّ قَدْ جُلِّلَتِ الْجُمْجُمَةُ بِالشَّعْرِ حَتَّى صَارَتْ بِمَنْزِلَةِ الْفَرْوِ لِلرَّأْسِ، يَسْتُرُهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، فَمَنْ حَصَّنَ الدِّمَاغَ هَذَا التَّحْصِينَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ وَجَعَلَهُ يَنْبُوعَ الْحِسِّ، وَالْمُسْتَحِقَّ لِلْحِيطَةِ وَالصِّيَانَةِ بِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ مِنَ الْبَدَنِ وَارْتِفَاعِ دَرَجَتِهِ وَخَطِيرِ مَرْتَبَتِهِ.

الجفن وأشفاره

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ.. الْجَفْنَ عَلَى الْعَيْنِ كَيْفَ جُعِلَ كَالْغِشَاءِ، وَالْأَشْفَارَ[3] كَالْأَشْرَاحِ[4]، وَأَوْلَجَهَا[5] فِي هَذَا الْغَارِ، وَأَظَلَّهَا بِالْحِجَابِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الشَّعْرِ.

---

(١) ترشّف الشراب أي بالغ في مصه.

(٢) ثجّ يثجّ ثجاً: أسال.

(٣) الأشفار جمع شفر وهو أصل منبت الشعر في الجفن.

(٤) الأشراح: العرى.

(٥) أولجها: أدخلها.

الفؤاد ومدرعته

يَا مُفَضَّلُ.. مَنْ غَيَّبَ الْفُؤَادَ فِي جَوْفِ الصَّدْرِ وَكَسَاهُ الْمِدْرَعَةَ(١) الَّتِي غِشَاؤُهُ، وَحَصَّنَهُ بِالْجَوَانِحِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ لِئَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِ مَا يَنْكَؤُهُ(٢).

الحلق والمريء

مَنْ جَعَلَ فِي الْحَلْقِ مَنْفَذَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا لِمَخْرَجِ الصَّوْتِ وَهُوَ الْحُلْقُومُ الْمُتَّصِلُ بِالرِّئَةِ، وَالْآخَرُ مَنْفَذاً لِلْغِذَاءِ وَهُوَ الْمَرِيءُ(٣) الْمُتَّصِلُ بِالْمَعِدَةِ الْمُوصِلُ الْغِذَاءِ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ عَلَى الْحُلْقُومِ طَبَقاً يَمْنَعُ الطَّعَامَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الرِّئَةِ فَيَقْتُلَ.

الرئة ومنافذ البول والغائط

مَنْ جَعَلَ الرِّئَةَ مِرْوَحَةَ الْفُؤَادِ؛ لَا تَفْتُرُ وَلَا تَخْتَلُّ لِكَيْلَا تَتَحَيَّرَ(٤) الْحَرَارَةُ فِي الْفُؤَادِ فَتُؤَدِّيَ إِلَى التَّلَفِ.

مَنْ جَعَلَ لِمَنَافِذِ الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ أَشْرَاجاً(٥) تَضْبِطُهُمَا لِئَلَّا يَجْرِيَا جَرَيَاناً دَائِماً فَيَفْسُدَ عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْشُهُ، فَكَمْ عَسَى أَنْ يُحْصِيَ الْمُحْصِي مِنْ هَذَا بَلِ الَّذِي لَا يُحْصَى مِنْهُ وَلَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ أَكْثَرُ.

المعدة والكبد

مَنْ جَعَلَ الْمَعِدَةَ عَصَبَانِيَّةً شَدِيدَةً ،وَ قَدَّرَهَا لِهَضْمِ الطَّعَامِ الْغَلِيظِ، وَمَنْ جَعَلَ

---

(١) كأن المراد بالمدرعة هنا الثوب الجديد فالمدرعة في الأصل جبّة مشقوقة المقدم، ولكن الذي يريده الإمام من حدّ قولهم درع إذا لبس درع الحديد.

(٢) نكأه: جرحه وآذاه.

(٣) المري: هو العرق الذي يمتلئ ويدر باللبن جمعه مرايا، وقد أبان الإمام وظيفة المرى وعمله بتعبير لطيف.

(٤) تحيرت الحرارة: تردّدت كأنها لا تدري كيف تجري فتجمّعت.

(٥) الأشراج جمع شرج وهو في الأصل الشقاق في القوس، وقد استعار الإمام منها معنى لمنافذ البول والغائط.

الْكَبِدَ رَقِيقَةً نَاعِمَةً لِقَبُولِ الصَّفْوِ[1] اللَّطِيفِ مِنَ الْغِذَاءِ، وَلِتَهْضِمَ وَتَعْمَلَ مَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْ عَمَلِ الْمَعِدَةِ إِلَّا اللهُ الْقَادِرُ.

أَتَرَى الْإِهْمَالَ يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟

كَلَّا بَلْ هُوَ تَدْبِيرُ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ قَادِرٍ عَلِيمٍ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ خَلْقِهِ إِيَّاهَا لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

المخ والدم والأظفار والأذن ولحم الأليتين والفخذين

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ لِمَ صَارَ الْمُخُّ الرَّقِيقُ مُحَصَّناً فِي أَنَابِيبِ الْعِظَامِ، هَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِيَحْفَظَهُ وَيَصُونَهُ؟

لِمَ صَارَ الدَّمُ السَّائِلُ مَحْصُوراً فِي الْعُرُوقِ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ فِي الظُّرُوفِ[2] إِلَّا لِتَضْبِطَهُ فَلَا يَفِيضَ؟

لِمَ صَارَتِ الْأَظْفَارُ عَلَى أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ إِلَّا وِقَايَةً لَهَا وَمَعُونَةً عَلَى الْعَمَلِ؟

لِمَ صَارَ دَاخِلُ الْأُذُنِ مُلْتَوِياً كَهَيْئَةِ اللَّوْلَبِ[3] إِلَّا لِيَطَّرِدَ فِيهِ الصَّوْتُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمْعِ، وَلِيَكْسِرَ حُمَّةَ الرِّيحِ فَلَا يَنْكَأَ فِي السَّمْعِ؟

لِمَ حَمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَى فَخِذَيْهِ وَأَلْيَتَيْهِ هَذَا اللَّحْمَ إِلَّا لِيَقِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَلَا يَتَأَلَّمُ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَيْهَا كَمَا يَأْلَمُ مَنْ نَحَلَ جِسْمُهُ وَقَلَّ لَحْمُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ حَائِلٌ يَقِيهِ صَلَابَتَهَا؟

من أعطى الإنسان ما أعطى؟

مَنْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ ذَكَراً وَأُنْثَى إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ مُتَنَاسِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ مُتَنَاسِلًا إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ مُؤَمِّلًا؟ وَمَنْ أَعْطَاهُ آلَاتِ الْعَمَلِ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا إِلَّا مَنْ

---

(١) الصفو من كلّ شيء: خالصه وخياره.

(٢) الظروف جمع ظرف وهو كلّ ما يستقرّ فيه غيره ويغلب استعماله للقربة والسقاء.

(٣) اللّولب: آلة من خشب أو حديد ذات محور ذي دوائر حلزونية ناتئة أو داخلة، جمعه لوالب.

جَعَلَهُ مُحْتَاجاً؟ وَمَنْ جَعَلَهُ مُحْتَاجاً إِلَّا مَنْ ضَرَبَهُ بِالْحَاجَةِ[1]؟ وَمَنْ ضَرَبَهُ بِالْحَاجَةِ إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ بِتَقْوِيمِهِ[2]؟ وَمَنْ خَصَّهُ بِالْفَهْمِ إِلَّا مَنْ أَوْجَبَ الْجَزَاءَ؟ وَمَنْ وَهَبَ لَهُ الْحِيلَةَ إِلَّا مَنْ مَلَّكَهُ الْحَوْلَ[3]؟ وَمَنْ مَلَّكَهُ الْحَوْلَ إِلَّا مَنْ أَلْزَمَهُ الْحُجَّةَ؟ مَنْ يَكْفِيهِ مَا لَا تَبْلُغُهُ حِيلَتُهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَدَى شُكْرِهِ؟

فَكِّرْ وَتَدَبَّرْ مَا وَصَفْتُهُ هَلْ تَجِدُ الْإِهْمَالَ يَأْتِي عَلَى مِثْلِ هَذَا النِّظَامِ وَالتَّرْتِيبِ، تَبَارَكَ اللهُ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ.

الفؤاد وثقبه المتصلة بالرئة

أَصِفُ لَكَ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ الْفُؤَادَ.. اعْلَمْ أَنَّ فِيهِ ثُقَباً مُوَجَّهَةً نَحْوَ الثُّقَبِ الَّتِي فِي الرِّئَةِ تُرَوِّحُ عَنِ الْفُؤَادِ، حَتَّى لَوِ اخْتَلَفَتْ تِلْكَ الثُّقَبُ وَتَزَايَلَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لَمَا وَصَلَ الرَّوْحُ إِلَى الْفُؤَادِ، وَلَهَلَكَ الْإِنْسَانُ، أَفَيَسْتَجِيزُ ذُو فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ بِالْإِهْمَالِ، وَلَا يَجِدُ شَاهِداً مِنْ نَفْسِهِ يزعه[4] عَنْ هَذَا الْقَوْلِ؟

لَوْ رَأَيْتَ فَرْداً مِنْ مِصْرَاعَيْنِ فِيهِ كَلُّوبٌ[5] أَكُنْتَ تَتَوَهَّمُ أَنَّهُ جُعِلَ كَذَلِكَ بِلَا مَعْنًى؟ بَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّهُ مَصْنُوعٌ يَلْقَى فَرْداً آخَرَ فَيُبْرِزُهُ لِيَكُونَ فِي اجْتِمَاعِهِمَا ضَرْبٌ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَهَكَذَا تَجِدُ الذَّكَرَ مِنَ الْحَيَوَانِ كَأَنَّهُ فَرْدٌ مِنْ زَوْجٍ مُهَيَّأٌ مِنْ فَرْدٍ أُنْثَى فَيَلْتَقِيَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ دَوَامِ النَّسْلِ وَبَقَائِهِ، فَتَبّاً[6] وَخَيْبَةً وَتَعْساً لِمُنْتَحِلِي الْفَلْسَفَةِ كَيْفَ عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَذِهِ الْخِلْقَةِ الْعَجِيبَةِ حَتَّى أَنْكَرُوا التَّدْبِيرَ وَالْعَمْدَ فِيهَا.

---

(١) أي سبب له أسباب الاحتياج او خلقه بحيث يحتاج.

(٢) أي تكفل يرفع حاجته وتقويم اوده.

(٣) الحول مصدر بمعنى القدرة والقوّة على التصرف وجودة النظر والحذق.

(٤) يزعه: يكفّه ويمنعه.

(٥) الكلوب: المهماز أو حديدة معطوفة الرأس يجربها الجمر أو خشبة في رأسها عقافة منها أو من حديد والجمع كلاليب.

(٦) تباً لفلان تنصبه على المصدر بإضمار فعل أي ألزمه الله هلاكاً وخسراناً.

فرج الرجل والحكمة فيه

لَوْكَانَ فَرْجُ الرَّجُلِ مُسْتَرْخِياً كَيْفَ كَانَ يَصِلُ إِلَى قَعْرِالرَّحِمِ حَتَّى يُفْرِغَ النُّطْفَةَ فِيهِ؟ وَلَوْكَانَ منعضاً[1] أَبَداً كَيْفَ كَانَ الرَّجُلُ يَتَقَلَّبُ فِي الْفِرَاشِ، أَوْ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَشَيْءٌ شَاخِصٌ أَمَامَهُ؟ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مَعَ قُبْحِ الْمَنْظَرِتَحْرِيكُ الشَّهْوَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعاً، فَقَدَّرَ اللهُ جَلَّ اسْمُهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ لَا يَبْدُو لِلْبَصَرِفِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلَا يَكُونَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْهُ مَؤُنَةٌ، بَلْ جَعَلَ فِيهِ قُوَّةَ الِانْتِصَابِ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ لِمَا قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنْ دَوَامِ النَّسْلِ وَبَقَائِهِ.

منفذ الغائط

اعْتَبِرِالْآنَ يَا مُفَضَّلُ بِعِظَمِ النِّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْأَذَى، أَلَيْسَ مِنْ حُسْنِ التَّقْدِيرِفِي بِنَاءِ الدَّارِأَنْ يَكُونَ الْخَلَاءُ فِي أَسْتَرِمَوْضِعٍ مِنْهَا؟ فَكَذَا جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَنْفَذَ الْمُهَيَّأَ لِلْخَلَاءِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي أَسْتَرِمَوْضِعٍ مِنْهُ، فَلَمْ يَجْعَلْهُ بَارِزاً مِنْ خَلْفِهِ، وَلَا نَاشِزاً مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، بَلْ هُوَمُغَيَّبٌ فِي مَوْضِعٍ غَامِضٍ مِنَ الْبَدَنِ، مَسْتُورٌ مَحْجُوبٌ، يَلْتَقِي عَلَيْهِ الْفَخِذَانِ، وَتَحْجُبُهُ الْأَلْيَتَانِ بِمَا عَلَيْهِمَا مِنَ اللَّحْمِ فَتُوَارِيَانِهِ، فَإِذَا احْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْخَلَاءِ وَجَلَسَ تِلْكَ الْجِلْسَةَ أَلْفَى[2] ذَلِكَ الْمَنْفَذُ مِنْهُ مُنْصَبّاً مُهَيَّأً لِانْحِدَارِالثُّفْلِ[3]، فَتَبَارَكَ مَنْ تَظَاهَرَتْ آلَاؤُهُ، وَلَا تُحْصَى نَعْمَاؤُهُ.

الطواحن من أسنان الإنسان

فَكِّرْيَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الطَّوَاحِنِ[4] الَّتِي جُعِلَتْ لِلْإِنْسَانِ؛ فَبَعْضُهَا حِدَادٌ[5] لِقَطْعِ

---

(١) المنعض كأنّه مأخوذ من العض وهو القرن يريد أنّه صلب شديد

(٢) الفى. وجد

(٣) الثفل- بالضم- ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة.

(٤) الطواحن جمع طاحن وهو الضرس.

(٥) حداد أي قاطعة.

الطَّعَامِ وَقَرْضِهِ، وَبَعْضُهَا عُرَاضٌ[1] لِمَضْغِهِ وَرَضِّهِ، فَلَمْ يَنْقُصْ وَاحِدٌ مِنَ الصِّفَتَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِمَا جَمِيعاً.

الشعر والأظفار وفائدة قصهما

تَأَمَّلْ وَاعْتَبِرْ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ فِي خَلْقِ الشَّعْرِ وَالْأَظْفَارِ فَإِنَّهُمَا لَمَّا كَانَا مِمَّا يَطُولُ وَيَكْثُرُ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى تَخْفِيفِهِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا جُعِلَا عَدِيمَا الْحِسِّ لِئَلَّا يُؤْلِمَ الْإِنْسَانَ الْأَخْذُ مِنْهُمَا، وَلَوْ كَانَ قَصُّ الشَّعْرِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ مِمَّا يُوجَدُ لَهُ أَلَمٌ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بَيْنَ مَكْرُوهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَدَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَتَّى يَطُولَ فَيَثْقُلَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يُخَفِّفَهُ بِوَجَعٍ وَأَلَمٍ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: فَلِمَ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ خِلْقَةً لَا تَزِيدُ فَيَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى النُّقْصَانِ مِنْهُ؟

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ للهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ نِعَماً لَا يَعْرِفُهَا فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، اعْلَمْ أَنَّ آلَامَ الْبَدَنِ وَأَدْوَاءَهُ[2] تَخْرُجُ بِخُرُوجِ الشَّعْرِ فِي مَسَامِّهِ[3]، وَبِخُرُوجِ الْأَظْفَارِ مِنْ أَنَامِلِهَا، وَلِذَلِكَ أُمِرَ الْإِنْسَانُ بِالنُّورَةِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ، وَقَصِّ الْأَظْفَارِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، لِيُسْرِعَ الشَّعْرُ وَالْأَظْفَارُ فِي النَّبَاتِ فَتَخْرُجَ الْآلَامُ وَالْأَدْوَاءُ بِخُرُوجِهِمَا، وَإِذَا طَالَا تَحَيَّرَا وَقَلَّ خُرُوجُهُمَا فَاحْتَبَسَتِ الْآلَامُ وَالْأَدْوَاءُ فِي الْبَدَنِ، فَأَحْدَثَتْ عِلَلًا وَأَوْجَاعاً.

وَ مَنَعَ مَعَ ذَلِكَ الشَّعْرَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ، وَتُحْدِثُ عَلَيْهِ الْفَسَادَ وَالضُّرَّ، لَوْ نَبَتَ الشَّعْرُ فِي الْعَيْنِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَعْمَى الْبَصَرُ؟ وَلَوْ نَبَتَ فِي الْفَمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيُنَغِّصُ عَلَى الْإِنْسَانِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ؟ وَلَوْ نَبَتَ فِي بَاطِنِ الْكَفِّ أَلَمْ يَكُنْ سَيَعُوقُهُ عَنْ صِحَّةِ اللَّمْسِ وَبَعْضِ الْأَعْمَالِ؟ وَلَوْ نَبَتَ فِي فَرْجِ الْمَرْأَةِ وَعَلَى ذَكَرِ الرَّجُلِ أَلَمْ

---

(١) عراض جمع عريض ضدّ طويل، وربّما أريد به المعارضة وهي السن التي في عرض الفم أو ما يبدو من الفم عند الضحك.

(٢) الادواء جمع داء وهو المرض والعلة.

(٣) المسام من الجلد ثقبه ومنافذه كمنابت الشعر، ومنهم من يجعلها جمع سم اي الثقب مثل محاسن وحسن.

يَكُنْ سَيُفْسِدُ عَلَيْهِمَا لَذَّةَ الْجِمَاعِ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ تَنَكَّبَ[١] الشَّعْرُ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ.

ثُمَّ لَيْسَ هَذَا فِي الْإِنْسَانِ فَقَطْ بَلْ تَجِدُهُ فِي الْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَسَائِرِ الْمُتَنَاسِلاتِ، فَإِنَّكَ تَرَى أَجْسَامَهَا مُجَلَّلَةً بِالشَّعْرِ، وَتَرَى هَذِهِ الْمَوَاضِعَ خَالِيَةً مِنْهُ، لِهَذَا السَّبَبِ بِعَيْنِهِ فَتَأَمَّلِ الْخِلْقَةَ كَيْفَ تَتَحَرَّزُ[٢] وُجُوهَ الْخَطَأِ وَالْمَضَرَّةِ، وَتَأْتِي بِالصَّوَابِ وَالْمَنْفَعَةِ.

شعر الركب والإبطين

إِنَّ الْمَنَّانِيَّةَ وَأَشْبَاهَهُمْ حِينَ أَجْهَدُوا فِي عَيْبِ الْخِلْقَةِ وَالْعَمْدِ[٣] عَابُوا الشَّعْرَ النَّابِتَ عَلَى الرُّكَبِ وَالْإِبْطَيْنِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ رُطُوبَةٍ تَنْصَبُّ إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، فَيَنْبُتُ فِيهَا الشَّعْرُ كَمَا يَنْبُتُ الْعُشْبُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمِيَاهِ، أَفَلَا تَرَى إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَسْتَرَ وَأَهْيَأَ لِقَبُولِ تِلْكَ الْفَضْلَةِ مِنْ غَيْرِهَا؟ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ تُعَدُّ مِمَّا يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَؤُونَةِ هَذَا الْبَدَنِ وَتَكَالِيفِهِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، فَإِنَّ اهْتِمَامَهُ بِتَنْظِيفِ بَدَنِهِ، وَأَخْذِ مَا يَعْلُوهُ مِنَ الشَّعْرِ، مِمَّا يَكْسِرُ بِهِ شِرَّتَهُ[٤]، وَيَكُفُّ عَادِيَتَهُ[٥]، وَيَشْغَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْفَرَاغُ مِنَ الْأَشَرِ[٦] وَالْبِطَالَةِ.

الريق وما فيه من المنفعة

تَأَمَّلِ الرِّيقَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ؛ فَإِنَّهُ جُعِلَ يَجْرِي جَرَيَاناً دَائِماً إِلَى الْفَمِ لِيَبُلَّ الْحَلْقَ وَاللَّهَوَاتِ[٧] فَلَا يَجِفَّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ لَوْ جُعِلَتْ كَذَلِكَ كَانَ فِيهِ هَلَاكُ

---

(١) تنكّب عنه: عدل عنه وتجنبه.

(٢) احترز منه وتحرّز أي تحفّظه وتوقّاه كأنّه جعل نفسه في حرز منه

(٣) يقال فعله عمداً وعن عمد أي قصدا لا عن طريق الصدفة.

(٤) الشرة: الحدة والنشاط او الشر.

(٥) العادية: الحدة والغضب او الشغل او الظلم والشر.

(٦) الأشر: البطر وشدة الفرح.

(٧) اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

الْأَسْنَانِ، ثُمَّ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسِيغَ[1] طَعَاماً إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْفَمِ بِلَّةٌ تُنْفِذُهُ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْمُشَاهَدَةُ، وَاعْلَمْ أَنَّ الرُّطُوبَةَ مَطِيَّةُ الْغِذَاءِ، وَقَدْ تَجْرِي مِنْ هَذِهِ الْبِلَّةِ إِلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنَ الْمِرَّةِ[2] فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ تَامٌّ لِلْإِنْسَانِ، وَلَوْ يَبِسَتِ الْمِرَّةُ لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ.

محاذير كون بطن الإنسان كهيئة القباء

وَلَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ جَهَلَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَضَعَفَةِ الْمُتَفَلْسِفِينَ بِقِلَّةِ التَّمْيِيزِ وَقُصُورِ الْعِلْمِ: لَوْ كَانَ بَطْنُ الْإِنْسَانِ كَهَيْئَةِ الْقَبَاءِ[3]، يَفْتَحُهُ الطَّبِيبُ إِذَا شَاءَ فَيُعَايِنُ مَا فِيهِ، وَيُدْخِلُ يَدَهُ فَيُعَالِجُ مَا أَرَادَ عِلَاجَهُ أَلَمْ يَكُنْ أَصْلَحَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُصْمَتاً[4] مَحْجُوباً عَنِ الْبَصَرِ وَالْيَدِ، لَا يُعْرَفُ مَا فِيهِ إِلَّا بِدَلَالَاتٍ غَامِضَةٍ، كَمِثْلِ النَّظَرِ إِلَى الْبَوْلِ وَجَسِّ الْعِرْقِ وَمَا أَشْبَهَ؟

ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالشُّبْهَةُ، حَتَّى رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَباً لِلْمَوْتِ، فَلَوْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ أَنَّ هَذَا لَوْ كَانَ هَكَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا فِيهِ أَنْ كَانَ يَسْقُطُ عَنِ الْإِنْسَانِ الْوَجَلُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْمَوْتِ، وَكَانَ يَسْتَشْعِرُ الْبَقَاءَ وَيَغْتَرُّ بِالسَّلَامَةِ، فَيُخْرِجُهُ ذَلِكَ إِلَى الْعُتُوِّ[5] وَالْأَشَرِ[6]، ثُمَّ كَانَتِ الرُّطُوبَاتُ الَّتِي فِي الْبَطْنِ تَتَرَشَّحُ وَتَتَحَلَّبُ[7] فَيُفْسِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَقْعَدَهُ وَمَرْقَدَهُ وَثِيَابَ بِذْلَتِهِ وَزِينَتِهِ، بَلْ كَانَ يُفْسِدُ عَلَيْهِ عَيْشَهُ، ثُمَّ إِنَّ الْمَعِدَةَ وَالْكَبِدَ وَالْفُؤَادَ إِنَّمَا تَفْعَلُ أَفْعَالَهَا بِالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ مُحْتَبَسَةً فِي الْجَوْفِ، فَلَوْ كَانَ فِي الْبَطْنِ فَرْجٌ يَنْفَتِحُ حَتَّى يَصِلَ الْبَصَرُ إِلَى رُؤْيَتِهِ، وَالْيَدُ إِلَى

---

(١) أساغ الطعام يسيغه سيغا: سهل مطعمه.

(٢) المرّة: خلط من أخلاط البدن وهو الصفراء أو السوداء والجمع مرار

(٣) القباء- بالفتح- ثوب يلبس فوق الثياب جمعه أقبية.

(٤) مصمت اسم مفعول الذي لا جوف له.

(٥) العتو: الاستكبار وتجاوز الحد.

(٦) الأشر- بفتحتين- من أشر أي بطر ومرح فهو أشر.

(٧) ترشّح وتحلّب بمعنى واحد وهو السيلان.

عِلَاجِهِ، لَوَصَلَ بَرْدُ الْهَوَاءِ إِلَى الْجَوْفِ فَمَازَجَ الْحَرَارَةَ الْغَرِيزِيَّةَ، وَبَطَلَ عَمَلُ الْأَحْشَاءِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الْإِنْسَانِ، أَفَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ مَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ سِوَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْخِلْقَةُ خَطَأٌ وَخَطَلٌ (١).

الطعم والنوم والجماع

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّعْمِ وَالنَّوْمِ وَالْجِمَاعِ وَمَا دُبِّرَ فِيهَا، فَإِنَّهُ جُعِلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي الطِّبَاعِ نَفْسِهِ مُحَرِّكٌ يَقْتَضِيهِ وَيَسْتَحِثُّ بِهِ؛ فَالْجُوعُ يَقْتَضِي الطُّعْمَ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَقِوَامُهُ، وَالْكَرَى (٢) يَقْتَضِي النَّوْمَ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَإِجْمَامُ (٣) قُوَاهُ، وَالشَّبَقُ (٤) يَقْتَضِي الْجِمَاعَ الَّذِي فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ.

وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى أَكْلِ الطَّعَامِ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَاجَةِ بَدَنِهِ إِلَيْهِ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ طِبَاعِهِ شَيْئاً يَضْطَرُّهُ إِلَى ذَلِكَ كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَتَوَانَى (٥) عَنْهُ أَحْيَاناً بِالثِّقْلِ وَالْكَسَلِ حَتَّى يَنْحَلَ بَدَنُهُ فَيَهْلِكَ، كَمَا يَحْتَاجُ الْوَاحِدُ إِلَى الدَّوَاءِ لِشَيْءٍ مِمَّا يَصْلُحُ بِهِ بَدَنُهُ فَيُدَافِعُ بِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَى الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى النَّوْمِ بِالْفِكْرِ فِي حَاجَتِهِ إِلَى رَاحَةِ الْبَدَنِ وَإِجْمَامِ قُوَاهُ كَانَ عَسَى أَنْ يَتَثَاقَلَ عَنْ ذَلِكَ فَيَدْفَعَهُ حَتَّى يُنْهَكَ بَدَنُهُ.

وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُ لِلْجِمَاعِ بِالرَّغْبَةِ فِي الْوَلَدِ كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ أَنْ يَفْتُرَ عَنْهُ حَتَّى يَقِلَّ النَّسْلُ أَوْ يَنْقَطِعَ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْوَلَدِ وَلَا يَحْفِلُ بِهِ.

فَانْظُرْ كَيْفَ جُعِلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْإِنْسَانِ وَصَلَاحُهُ

---

(١) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب.

(٢) الكرى: النعاس.

(٣) الإجمام من الجمام وهو الراحة يقال: جم الفرس إذا ذهب إعياؤه.

(٤) الشبق بفتحتين شدة الشهوة.

(٥) يتواني: يقصر.

مُحرِّكاً مِنْ نَفسِ الطَّبعِ يُحرِّكُهُ لِذلِكَ وَيحْدُوهُ عَلَيْهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ قُوًى أَرْبعاً: قُوَّةً جاذِبَةً تَقبَلُ الْغِذَاءَ وَتُورِدُهُ عَلى الْمَعِدَةِ، وَقُوَّةً ماسِكَةً تَحْبِسُ الطَّعَامَ حَتَّى تَفْعَلَ فِيهِ الطَّبِيعَةُ فِعْلَهَا، وَقُوَّةً هاضِمَةً وَهِيَ الَّتِي تَطْبُخُهُ، وَتَسْتَخْرجُ صَفْوَهُ، وَتَبُثُّهُ فِي الْبَدَنِ، وَقُوَّةً دافِعَةً تَدْفعُهُ، وَتَحْدُرُ الثُّفْلَ[1] الْفَاضِلَ بَعْدَ أَخْذِ الْهَاضِمَةِ حَاجَتَهَا، فَفَكِّرْ فِي تَقْدِيرِ هَذِهِ الْقُوَى الْأَرْبَعِ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَأَفْعَالِهَا وَتَقْدِيرِهَا لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَالْإِرْبِ فِيهَا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ.

فَلَوْلَا الْجَاذِبَةُ كَيْفَ كَانَ يَتَحَرَّكُ الْإِنْسَانُ لِطَلَبِ الْغِذَاءِ الَّذِي بِهِ قِوَامُ الْبَدَنِ، وَلَوْلَا الْمَاسِكَةُ كَيْفَ كَانَ يَلْبَثُ الطَّعَامُ فِي الْجَوْفِ حَتَّى تَهْضِمَهُ الْمَعِدَةُ، وَلَوْلَا الْهَاضِمَةُ كَيْفَ كَانَ يَنْطَبِخُ[2] حَتَّى يَخْلُصَ مِنْهُ الصَّفْوُ الَّذِي يَغْذُو الْبَدَنَ وَيَسُدُّ خَلَلَهُ[3]، وَلَوْلَا الدَّافِعَةُ كَيْفَ كَانَ الثُّفْلُ الَّذِي تُخَلِّفُهُ الْهَاضِمَةُ يَنْدَفِعُ وَيَخْرُجُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَكَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِلُطْفِ صُنْعِهِ، وَحُسْنِ تَقْدِيرِهِ هَذِهِ الْقُوَى بِالْبَدَنِ، وَالْقِيَامِ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُ.

وَسَأُمَثِّلُ لَكَ فِي ذَلِكَ مِثَالًا: إِنَّ الْبَدَنَ بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْمَلِكِ لَهُ فِيهَا حَشَمٌ[4] وَصِبْيَةٌ وَقُوَّامٌ[5] مُوَكَّلُونَ بِالدَّارِ؛ فَوَاحِدٌ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ الْحَشَمِ وَإِيرَادِهَا[6] عَلَيْهِمْ، وَآخَرُ لِقَبْضِ مَا يَرِدُ وَخَزْنِهِ إِلَى أَنْ يُعَالَجَ وَيُهَيَّأَ، وَآخَرُ لِعِلَاجِ ذَلِكَ وَتَهْيِئَتِهِ وَتَفْرِيقِهِ، وَآخَرُ لِتَنْظِيفِ مَا فِي الدَّارِ مِنَ الْأَقْذَارِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْهَا، فَالْمَلِكُ فِي هَذَا هُوَ الْخَلَّاقُ الْحَكِيمُ مَلِكُ الْعَالَمِينَ، وَالدَّارُ هِيَ الْبَدَنُ، وَالْحَشَمُ هُمُ الْأَعْضَاءُ، وَالْقُوَّامُ هُمْ هَذِهِ الْقُوَى الْأَرْبَعُ.

---

(١) الثفل هو ما يستقر في أسفل الشيء من كدرة.

(٢) انطبخ مطاوع طبخ تقول طبخ اللحم اي أنضجه.

(٣) الخلل جمع خلّة- بالفتح- وهي الثقبة.

(٤) الحشم: الخدم والعيال أو من يغضبون له أو يغضب لهم من أهل وعبيد وجيرة.

(٥) لعل القوّام جمع قيّم إذ القيّم على الأمر هو المتولى عليه.

(٦) أورده إيراداً أي أحضره المورد ثمّ استعمل لمطلق الإحضار.

وَ لَعَلَّكَ تَرَى ذِكْرَنَا هَذِهِ الْقُوَى الْأَرْبَعَ وَأَفْعَالَهَا بَعْدَ الَّذِي وَصَفْتُ فَضْلاً وَتَزْدَاداً[١]، وَلَيْسَ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْقُوَى عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي كُتُبِ الْأَطِبَّاءِ، وَلا قَوْلُنَا فِيهِ كَقَوْلِهِمْ، لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوهَا عَلَى مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ، وَتَصْحِيحِ الْأَبْدَانِ، وَذَكَرْنَاهَا عَلَى مَا يُحْتَاجُ فِي صَلَاحِ الدِّينِ وَشِفَاءِ النُّفُوسِ مِنَ الْغَيِّ[٢]، كَالَّذِي أَوْضَحْتُهُ بِالْوَصْفِ الشَّافِي، وَالْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ فِيهَا.

قوى النفس وموقعها من الإنسان

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي فِي النَّفْسِ وَمَوْقِعَهَا مِنَ الْإِنْسَانِ أَعْنِي الْفِكْرَ وَالْوَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْحِفْظَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ نُقِصَ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ[٣] الْحِفْظَ وَحْدَهُ كَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُ؟ وَكَمْ مِنْ خَلَلٍ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ وَمَعَاشِهِ وَتَجَارِبِهِ إِذَا لَمْ يَحْفَظْ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ، وَمَا أَخَذَهُ وَمَا أَعْطَى، وَمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ، وَمَا قَالَ وَمَا قِيلَ لَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَسَاءَ بِهِ، وَمَا نَفَعَهُ مِمَّا ضَرَّهُ، ثُمَّ كَانَ لَا يَهْتَدِي لِطَرِيقٍ لَوْ سَلَكَهُ مَا لَا يُحْصَى، وَلَا يَحْفَظُ عِلْماً وَلَوْ دَرَسَهُ عُمُرَهُ، وَلا يَعْتَقِدُ دِيناً وَلَا يَنْتَفِعُ بِتَجْرِبَةٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْتَبِرَ شَيْئاً عَلَى مَا مَضَى، بَلْ كَانَ حَقِيقاً أَنْ يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ!

النعمة على الإنسان في الحفظ والنسيان

فَانْظُرْ إِلَى النِّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْخِلَالِ، وَكَيْفَ مَوْقِعُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا دُونَ الْجَمِيعِ، وَأَعْظَمُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْحِفْظِ النِّعْمَةُ فِي النِّسْيَانِ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا النِّسْيَانُ لَمَا سَلَا[٤] أَحَدٌ عَنْ مُصِيبَةٍ، وَلَا انْقَضَتْ لَهُ حَسْرَةٌ، وَلَا مَاتَ لَهُ حِقْدٌ، وَلَا اسْتَمْتَعَ بِشَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَعَ تَذَكُّرِ الْآفَاتِ، وَلَا رَجَاءَ غَفْلَةٍ مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا فَتْرَةً

---

(١) لعل الأصل في الكلمة مزيداً من الزيادة أو تزيداً من قولك تزيّد الرجل في حديثه أي زخرفه وزاد فيه على الحقيقة، وتزيّد في الشيء أي تكلّف الزيادة فيه.

(٢) الغي: الضلال والهلاك والخيبة.

(٣) الخلال جمع خلّة بالفتح- وهي الخصلة والصفة.

(٤) سلا الشيء وسلا عنه: نسيه وهجره وطابت نفسه عنه وذهل عن ذكره.

مِنْ حَاسِدٍ.

أَفَلَا تَرَى كَيْفَ جُعِلَ فِي الْإِنْسَانِ الْحِفْظُ وَالنِّسْيَانُ، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ مُتَضَادَّانِ، وَجُعِلَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ضَرْباً مِنَ الْمَصْلَحَةِ؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الَّذِينَ قَسَّمُوا الْأَشْيَاءَ بَيْنَ خَالِقَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ وَقَدْ تَرَاهَا تَجْتَمِعُ عَلَى مَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَالْمَنْفَعَةُ؟

اختصاص الإنسان بالحياء دون بقية الحيوانات

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى مَا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ دُونَ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ الْجَلِيلِ قَدْرُهُ الْعَظِيمِ غَنَاؤُهُ أَعْنِي الْحَيَاءَ؛ فَلَوْلَاهُ لَمْ يُقْرَ ضَيْفٌ[1]، وَلَمْ يُوفَ بِالْعِدَاتِ، وَلَمْ تُقْضَ الْحَوَائِجُ، وَلَمْ يُتَحَرَّ الْجَمِيلُ، وَلَمْ يُتَنَكَّبِ[2] الْقَبِيحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأُمُورِ الْمُفْتَرَضَةِ أَيْضاً إِنَّمَا يُفْعَلُ لِلْحَيَاءِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَوْلَا الْحَيَاءُ لَمْ يَرْعَ حَقَّ وَالِدَيْهِ، وَلَمْ يَصِلْ ذَا رَحِمٍ، وَلَمْ يُؤَدِّ أَمَانَةً، وَلَمْ يَعِفَّ عَنْ فَاحِشَةٍ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَفَى الْإِنْسَانُ جَمِيعَ الْخِلَالِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُهُ وَتَمَامُ أَمْرِهِ.

اختصاص الإنسان بالمنطق والكتابة

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ مَا أَنْعَمَ اللهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ هَذَا الْمَنْطِقِ الَّذِي يُعَبِّرُ بِهِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، وَمَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ، وَيُنْتِجُهُ فِكْرُهُ، وَبِهِ يَفْهَمُ عَنْ غَيْرِهِ مَا فِي نَفْسِهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ الْمُهْمَلَةِ الَّتِي لَا تُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهَا بِشَيْءٍ، وَلَا تَفْهَمُ عَنْ مُخْبِرٍ شَيْئاً.

وَكَذَلِكَ الْكِتَابَةُ الَّتِي بِهَا تُقَيَّدُ أَخْبَارُ الْمَاضِينَ لِلْبَاقِينَ، وَأَخْبَارُ الْبَاقِينَ لِلْآتِينَ، وَبِهَا تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِي الْعُلُومِ وَالْآدَابِ وَغَيْرِهَا، وَبِهَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ ذِكْرَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ وَالْحِسَابِ، وَلَوْلَاهُ لَانْقَطَعَ أَخْبَارُ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ عَنْ بَعْضٍ،

---

(١) قرى الضيف: أضافه.

(٢) يتنكّب: يتجنّب.

وَأَخْبَارُ الْغَائِبِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَدَرَسَتِ الْعُلُومُ، وَضَاعَتِ الْآدَابُ، وَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، وَمَا رُوِيَ لَهُمْ مِمَّا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ.

وَلَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّهَا مِمَّا يُخْلَصُ إِلَيْهِ بِالْحِيلَةِ وَالْفِطْنَةِ وَلَيْسَتْ مِمَّا أُعْطِيَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَلْقِهِ وَطِبَاعِهِ وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ النَّاسُ فَيَجْرِي بَيْنَهُمْ، وَلِهَذَا صَارَ يَخْتَلِفُ فِي الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ وَكَذَلِكَ لِكِتَابَةِ الْعَرَبِيِّ وَالسِّرْيَانِيِّ وَالْعِبْرَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْكِتَابَةِ الَّتِي هِيَ مُتَفَرِّقَةٌ فِي الْأُمَمِ إِنَّمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا كَمَا اصْطَلَحُوا عَلَى الْكَلَامِ، فَيُقَالُ لِمَنِ ادَّعَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً فِعْلٌ أَوْ حِيلَةٌ فَإِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَالْحِيلَةَ عَطِيَّةٌ وَهِبَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ لَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ لِسَانٌ مُهَيَّأٌ لِلْكَلَامِ، وَذِهْنٌ يَهْتَدِي بِهِ لِلْأُمُورِ، لَمْ يَكُنْ لِيَتَكَلَّمَ أَبَداً، وَلَوْلَمْ تَكُنْ لَهُ كَفٌّ مُهَيَّئَةٌ، وَأَصَابِعُ لِلْكِتَابَةِ، لَمْ يَكُنْ لِيَكْتُبَ أَبَداً، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا كَلَامَ لَهَا وَلَا كِتَابَةَ، فَأَصْلُ ذَلِكَ فِطْرَةُ الْبَارِي جَلَّ وَعَزَّ، وَمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ فَمَنْ شَكَرَ أُثِيبَ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ما يُعلم وما لا يُعلم

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ عِلْمَهُ وَمَا مُنِعَ؛ فَإِنَّهُ أُعْطِيَ جَمِيعَ عِلْمِ مَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَمِمَّا فِيهِ صَلَاحُ دِينِهِ مَعْرِفَةُ الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالدَّلَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ الْقَائِمَةِ فِي الْخَلْقِ، وَمَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَمُوَاسَاةِ أَهْلِ الْخُلَّةِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ تُوجَدُ مَعْرِفَتُهُ وَالْإِقْرَارُ وَالِاعْتِرَافُ بِهِ فِي الطَّبْعِ وَالْفِطْرَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مُوَافِقَةٍ أَوْ مُخَالِفَةٍ.

وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ عِلْمَ مَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُ؛ كَالزِّرَاعَةِ وَالْغِرَاسِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْأَرَضِينَ، وَاقْتِنَاءِ الْأَغْنَامِ وَالْأَنْعَامِ، وَاسْتِنْبَاطِ الْمِيَاهِ، وَمَعْرِفَةِ الْعَقَاقِيرِ الَّتِي يُسْتَشْفَى

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

بِهَا مِنْ ضُرُوبِ الْأَسْقَامِ، وَالْمَعَادِنِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا أَنْوَاعُ الْجَوَاهِرِ، وَرُكُوبِ السُّفُنِ، وَالْغَوْصِ فِي الْبَحْرِ، وَضُرُوبِ الْحِيَلِ فِي صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَالْحِيتَانِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الصِّنَاعَاتِ، وَوُجُوهِ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ، وَيَكْثُرُ تَعْدَادُهُ، مِمَّا فِيهِ صَلَاحُ أَمْرِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَأُعْطِيَ عِلْمَ مَا يَصْلُحُ بِهِ دِينُهُ وَدُنْيَاهُ، وَمُنِعَ مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي شَأْنِهِ وَلَا طَاقَتِهِ أَنْ يَعْلَمَ؛ كَعِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَبَعْضُ مَا قَدْ كَانَ أَيْضاً، كَعِلْمِ مَا فَوْقَ السَّمَاءِ، وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ، وَمَا فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، وَأَقْطَارِ الْعَالَمِ، وَمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَمَا فِي الْأَرْحَامِ وَأَشْبَاهِ هَذَا مِمَّا حُجِبَ عَنِ النَّاسِ عِلْمُهُ.

وَ قَدِ ادَّعَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ هَذِهِ الْأُمُورَ فَأَبْطَلَ دَعْوَاهُمْ مَا يَبِينُ مِنْ خَطَئِهِمْ فِيمَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ وَيَحْكُمُونَ بِهِ فِيمَا ادَّعَوْا عِلْمَهُ، فَانْظُرْ كَيْفَ أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ عِلْمَ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِدِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَحُجِبَ عَنْهُ مَا سِوَى ذَلِكَ، لِيَعْرِفَ قَدْرَهُ وَنَقْصَهُ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ فِيهِمَا صَلَاحُهُ.

ستر عمر الإنسان

تَأَمَّلِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ مَا سُتِرَ عَنِ الْإِنْسَانِ عِلْمُهُ مِنْ مُدَّةِ حَيَاتِهِ فَإِنَّهُ لَوْ عَرَفَ مِقْدَارَ عُمُرِهِ وَكَانَ قَصِيرَ الْعُمُرِ لَمْ يَتَهَنَّأْ بِالْعَيْشِ مَعَ تَرَقُّبِ الْمَوْتِ وَتَوَقُّعِهِ لِوَقْتٍ قَدْ عَرَفَهُ، بَلْ كَانَ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ فَنِيَ مَالُهُ، أَوْ قَارَبَ الْفَنَاءَ، فَقَدِ اسْتَشْعَرَ الْفَقْرَ وَالْوَجَلَ مِنْ فَنَاءِ مَالِهِ وَخَوْفِ الْفَقْرِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ فَنَاءِ الْعُمُرِ أَعْظَمُ مِمَّا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ فَنَاءِ الْمَالِ، لِأَنَّ مَنْ يَقِلُّ مَالُهُ يَأْمُلُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ مِنْهُ فَيَسْكُنُ إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَيْقَنَ بِفَنَاءِ الْعُمُرِ اسْتَحْكَمَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ.

وَإِنْ كَانَ طَوِيلَ الْعُمُرِ، ثُمَّ عَرَفَ ذَلِكَ وَثِقَ بِالْبَقَاءِ، وَانْهَمَكَ فِي اللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي، وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَتَهُ، ثُمَّ يَتُوبُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ لَا يَرْضَاهُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَقْبَلُهُ، أَلَا تَرَى لَوْ أَنَّ عَبْداً لَكَ عَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يُسْخِطُكَ سَنَةً، وَيُرْضِيكَ يَوْماً أَوْ شَهْراً لَمْ تَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَمْ يَحُلَّ عِنْدَكَ مَحَلَّ الْعَبْدِ الصَّالِحِ دُونَ

أَنْ يُضْمِرَ طَاعَتَكَ وَنُصْحَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَفِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ عَلَى تَصَرُّفِ الْحَالاتِ، فَإِنْ قُلْتَ أَوَلَيْسَ قَدْ يُقِيمُ الإِنْسَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ حِيناً ثُمَّ يَتُوبُ فَتُقْبَلُ تَوْبَتُهُ؟ قُلْنَا إِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ لِغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ لَهُ، وَتَرْكِهِ مُخَالَفَتَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَدِّرَهَا فِي نَفْسِهِ، وَيَبْنِيَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، فَيَصْفَحُ اللهُ عَنْهُ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِالْمَغْفِرَةِ، فَأَمَّا مَنْ قَدَّرَ أَمْرَهُ عَلَى أَنْ يَعْصِيَ مَا بَدَا لَهُ ثُمَّ يَتُوبَ آخِرَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يُحَاوِلُ خَدِيعَةَ مَنْ لَا يُخَادَعُ بِأَنْ يَتَسَلَّفَ[1] التَّلَذُّذَ فِي الْعَاجِلِ، وَيَعِدَ وَيُمَنِّيَ نَفْسَهُ التَّوْبَةَ فِي الْآجِلِ، وَلِأَنَّهُ لَا يَفِي بِمَا يَعِدُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ النُّزُوعَ مِنَ التَّرَفُّهِ وَالتَّلَذُّذِ وَمُعَانَاةَ[2] التَّوْبَةِ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْكِبَرِ وَضَعْفِ الْبَدَنِ أَمْرٌ صَعْبٌ وَلَا يُؤْمَنُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعَ مُدَافَعَتِهِ بِالتَّوْبَةِ أَنْ يُرْهِقَهُ الْمَوْتُ فَيَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ تَائِبٍ، كَمَا قَدْ يَكُونُ عَلَى الْوَاحِدِ دَيْنٌ إِلَى أَجَلٍ وَقَدْ يَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهِ فَلَا يَزَالُ يُدَافِعُ بِذَلِكَ حَتَّى يَحِلَّ الْأَجَلُ وَقَدْ نَفِدَ الْمَالُ، فَيَبْقَى الدَّيْنُ قَائِماً عَلَيْهِ، فَكَانَ خَيْرَ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُسْتَرَ عَنْهُ مَبْلَغُ عُمُرِهِ، فَيَكُونَ طُولَ عُمُرِهِ يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ، فَيَتْرُكَ الْمَعَاصِيَ، وَيُؤْثِرَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَا هُوَ الْآنَ قَدْ سُتِرَ عَنْهُ مِقْدَارُ حَيَاتِهِ وَصَارَ يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يُقَارِفُ الْفَوَاحِشَ وَيَنْتَهِكُ الْمَحَارِمَ[3]، قُلْنَا: إِنَّ وَجْهَ التَّدْبِيرِ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْعَوِي[4] وَلَا يَنْصَرِفُ عَنِ الْمَسَاوِئِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ مَرَحِهِ وَمِنْ قَسَاوَةِ قَلْبِهِ، لَا مِنْ خَطَإٍ فِي التَّدْبِيرِ، كَمَا أَنَّ الطَّبِيبَ قَدْ يَصِفُ لِلْمَرِيضِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ، فَإِنْ كَانَ الْمَرِيضُ مُخَالِفاً لِقَوْلِ الطَّبِيبِ، لَا يَعْمَلُ بِمَا يَأْمُرُهُ، وَلَا يَنْتَهِي عَمَّا يَنْهَاهُ عَنْهُ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِفَتِهِ، وَلَمْ تَكُنِ الْإِسَاءَةُ فِي ذَلِكَ لِلطَّبِيبِ، بَلْ لِلْمَرِيضِ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ.

---

(١) التسلّف: الاقتراض كأنّه يجرى معاملة مع ربّه، بأن يتصرّف في اللّذات عاجلًا ويعد ربّه في عوضها التوبة ليؤدّي إليه آجلا.

(٢) المعاناة: مقاساة العناء والمشقة.

(٣) المحارم جمع محرم وهو الحرام.

(٤) الارعواء: الكف عن الشيء، أو الندم على الشيء والانصراف عنه وتركه.

وَلَئِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ مَعَ تَرَقُّبِهِ لِلْمَوْتِ كُلَّ سَاعَةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَنِ الْمَعَاصِي فَإِنَّهُ لَوْ وَثِقَ بِطُولِ الْبَقَاءِ كَانَ أَحْرَى بِأَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْكَبَائِرِ الْفَظِيعَةِ، فَتَرَقُّبُ الْمَوْتِ عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الثِّقَةِ بِالْبَقَاءِ، ثُمَّ إِنَّ تَرَقُّبَ الْمَوْتِ وَإِنْ كَانَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يَلْهَوْنَ عَنْهُ وَلَا يَتَّعِظُونَ بِهِ فَقَدْ يَتَّعِظُ بِهِ صِنْفٌ آخَرُ مِنْهُمْ، وَيَنْزِعُونَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُؤْثِرُونَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَجُودُونَ بِالْأَمْوَالِ، وَالْعَقَائِلِ[1] النَّفِيسَةِ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُحْرَمَ هَؤُلَاءِ الِانْتِفَاعَ بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ لِتَضْيِيعِ أُولَئِكَ حَظَّهُمْ مِنْهَا.

الأحلام وامتزاج صادقها بكاذبها

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي الْأَحْلَامِ كَيْفَ دَبَّرَ الْأَمْرَ فِيهَا؛ فَمَزَجَ صَادِقَهَا بِكَاذِبِهَا، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كُلُّهَا تَصْدُقُ لَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَنْبِيَاءَ، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا تَكْذِبُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنْفَعَةٌ، بَلْ كَانَتْ فَضْلًا لَا مَعْنَى لَهُ، فَصَارَتْ تَصْدُقُ أَحْيَاناً فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ فِي مَصْلَحَةٍ يَهْتَدِي لَهَا أَوْ مَضَرَّةٍ يَتَحَذَّرُ مِنْهَا، وَتَكْذِبُ كَثِيراً لِئَلَّا يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا كُلَّ الِاعْتِمَادِ.

الأشياء المخلوقة لمآرب الإنسان

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرَاهَا مَوْجُودَةً مُعَدَّةً فِي الْعَالَمِ مِنْ مَآرِبِهِمْ؛ فَالتُّرَابُ لِلْبِنَاءِ، وَالْحَدِيدُ لِلصِّنَاعَاتِ، وَالْخَشَبُ لِلسُّفُنِ وَغَيْرِهَا، وَالْحِجَارَةُ لِلْأَرْحَاءِ[2] وَغَيْرِهَا، وَالنُّحَاسُ لِلْأَوَانِي، وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ لِلْمُعَامَلَةِ وَالذَّخِيرَةِ، وَالْحُبُوبُ لِلْغِذَاءِ، وَالثِّمَارُ لِلتَّفَكُّهِ، وَاللَّحْمُ لِلْمَأْكَلِ، وَالطِّيبُ لِلتَّلَذُّذِ، وَالْأَدْوِيَةُ لِلتَّصَحُّحِ[3]، وَالدَّوَابُّ لِلْحُمُولَةِ، وَالْحَطَبُ لِلتَّوَقُّدِ، وَالرَّمَادُ لِلْكِلْسِ[4]، وَالرَّمْلُ

(١) العقائل جمع عقيلة والعقيلة من الإبل هي الكريمة، والعقيلة من كلّ شيء هي اكرمه.
(٢) الأرحاء جمع رحى وهي الطاحونة.
(٣) التصحّح من صحّح المريض: أزال مرضه.
(٤) الكلس: ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها.

لِلْأَرْضِ، وَكَمْ عَسَى أَنْ يُحْصِيَ الْمُحْصِي مِنْ هَذَا وَشِبْهِهِ.

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ دَاخِلًا دَخَلَ دَاراً فَنَظَرَ إِلَى خَزَائِنَ مَمْلُوءَةٍ مِنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَرَأَى كُلَّمَا فِيهَا مَجْمُوعاً مُعَدّاً لِأَسْبَابٍ مَعْرُوفَةٍ، أَكَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ بِالْإِهْمَالِ، وَمِنْ غَيْرِ عَمْدٍ؟ فَكَيْفَ يَسْتَجِيزُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ هَذَا مِنْ صُنْعِ الطَّبِيعَةِ فِي الْعَالَمِ، وَمَا أُعِدَّ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؟

اعْتَبِرْ يَا مُفَضَّلُ بِأَشْيَاءَ خُلِقَتْ لِمَآرِبِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهَا مِنَ التَّدْبِيرِ؛ فَإِنَّهُ خُلِقَ لَهُ الْحَبُّ لِطَعَامِهِ، وَكُلِّفَ طَحْنَهُ وَعَجْنَهُ وَخَبْزَهُ، وَخُلِقَ لَهُ الْوَبَرُ لِكِسْوَتِهِ، فَكُلِّفَ نَدْفَهُ وَغَزْلَهُ وَنَسْجَهُ، وَخُلِقَ لَهُ الشَّجَرُ فَكُلِّفَ غَرْسَهَا وَسَقْيَهَا وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا، وَخُلِقَتْ لَهُ الْعَقَاقِيرُ لِأَدْوِيَتِهِ، فَكُلِّفَ لَقْطَهَا[1] وَخَلْطَهَا وَصُنْعَهَا، وَكَذَلِكَ تَجِدُ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ، فَانْظُرْ كَيْفَ كُفِيَ الْخِلْقَةَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِيهَا حِيلَةٌ، وَتُرِكَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَوْضِعُ عَمَلٍ وَحَرَكَةٍ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ، لِأَنَّهُ لَوْ كُفِيَ هَذَا كُلَّهُ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ مَوْضِعُ شُغْلٍ وَعَمَلٍ لَمَا حَمَلَتْهُ الْأَرْضُ أَشَراً وَبَطَراً، وَلَبَلَغَ بِهِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَتَعَاطَى أُمُوراً فِيهَا تَلَفُ نَفْسِهِ، وَلَوْ كُفِيَ النَّاسُ كُلَّمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لَمَا تَهَنَّؤُوا بِالعَيْشِ، وَلَا وَجَدُوا لَهُ لَذَّةً.

أَلَا تَرَى لَوْ أَنَّ امْرَأً نَزَلَ بِقَوْمٍ فَأَقَامَ حِيناً بَلَغَ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَخِدْمَةٍ لَتَبَرَّمَ بِالْفَرَاغِ، وَنَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى التَّشَاغُلِ بِشَيْءٍ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ طُولُ عُمُرِهِ مَكْفِيّاً لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، فَكَانَ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ جُعِلَ لَهُ فِيهَا مَوْضِعُ شُغْلٍ، لِكَيْلَا تُبْرِمَهُ الْبِطَالَةُ، وَلِتَكُفَّهُ عَنْ تَعَاطِي مَا لَا يَنَالُهُ وَلَا خَيْرَ فِيهِ إِنْ نَالَهُ.

الخبز والماء رأس معاش الإنسان

وَاعْلَمْ يَا مُفَضَّلُ أَنَّ رَأْسَ مَعَاشِ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ الْخُبْزُ وَالْمَاءُ؛ فَانْظُرْ كَيْفَ دُبِّرَ

---

(١) اللقط مصدر من لقط الشيء: أخذه من الأرض بلا تعب، ولقط الطائر الحب: أخذه بمنقاره

الْأَمْرُ فِيهِمَا، فَإِنَّ حَاجَةَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْمَاءِ أَشَدُّ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى الْخُبْزِ، وَذَلِكَ أَنَّ صَبْرَهُ عَلَى الْجُوعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى الْعَطَشِ، وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْخُبْزِ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِشُرْبِهِ وَوُضُوئِهِ وَغُسْلِهِ وَغَسْلِ ثِيَابِهِ وَسَقْيِ أَنْعَامِهِ وَزَرْعِهِ، فَجُعِلَ الْمَاءُ مَبْذُولًا لَا يُشْتَرَى، لِتَسْقُطَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْمَئُونَةُ فِي طَلَبِهِ وَتَكَلُّفِهِ، وَجُعِلَ الْخُبْزُ مُتَعَذِّراً لَا يُنَالُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ وَالْحَرَكَةِ، لِيَكُونَ لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ شُغْلٌ يَكُفُّهُ عَمَّا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْفَرَاغُ مِنَ الْأَشَرِ وَالْعَبَثِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّبِيَّ يُدْفَعُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ تَكْمُلْ ذَاتُهُ لِلتَّعْلِيمِ كُلُّ ذَلِكَ لِيَشْتَغِلَ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا جَنَيَا عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ الْمَكْرُوهَ الْعَظِيمَ، وَهَكَذَا الْإِنْسَانُ لَوْ خَلَا مِنَ الشُّغْلِ لَخَرَجَ مِنَ الْأَشَرِ وَالْعَبَثِ وَالْبَطَرِ إِلَى مَا يَعْظُمُ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ قَرُبَ مِنْهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَنْ نَشَأَ فِي الْجِدَةِ[1] وَرَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ وَالتَّرَفُّهِ وَالْكِفَايَةِ وَمَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ.

اختلاف صور الناس

اعْتَبِرْ لِمَ لَا يَتَشَابَهُ النَّاسُ وَاحِدٌ بِالْآخَرِ كَمَا تَتَشَابَهُ الْوُحُوشُ وَالطَّيْرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَرَى السِّرْبَ مِنَ الظِّبَاءِ وَالْقَطَا تَتَشَابَهُ حَتَّى لَا يُفَرَّقُ بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْهَا وَبَيْنَ الْأُخْرَى، وَتَرَى النَّاسَ مُخْتَلِفَةً صُوَرُهُمْ وَخَلْقُهُمْ حَتَّى لَا يَكَادُ اثْنَانِ مِنْهُمْ يَجْتَمِعَانِ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يَتَعَارَفُوا بِأَعْيَانِهِمْ وَحُلَاهُمْ لِمَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ، وَلَيْسَ يَجْرِي بَيْنَ الْبَهَائِمِ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِعَيْنِهِ وَحِلْيَتِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ التَّشَابُهَ فِي الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ لَا يَضُرُّهَا شَيْئاً وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَشَابَهَ التَّوْأَمُ تَشَابُهاً شَدِيداً فَتَعْظُمُ الْمَئُونَةُ عَلَى النَّاسِ فِي مُعَامَلَتِهِمَا، حَتَّى يُعْطَى أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَيُؤْخَذُ أَحَدُهُمَا بِذَنْبِ الْآخَرِ، وَقَدْ يَحْدُثُ مِثْلُ هَذَا فِي تَشَابُهِ الْأَشْيَاءِ فَضْلًا عَنْ تَشَابُهِ الصُّوَرِ، فَمَنْ لَطُفَ بِعِبَادِهِ بِهَذِهِ الدَّقَائِقِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْطُرُ

(١) الجدة- بالتخفيف- الغنى.

بِالْبَالِ حَتَّى وَقَفَ بِهَا عَلَى الصَّوَابِ إِلَّا مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ؟

لَوْرَأَيْتَ تِمْثَالَ الْإِنْسَانِ مُصَوَّراً عَلَى حَائِطٍ وَقَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا ظَهَرَهُنَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ لَمْ يَصْنَعْهُ صَانِعٌ أَكُنْتَ تَقْبَلُ ذَلِكَ؟ بَلْ كُنْتَ تَسْتَهْزِئُ بِهِ. فَكَيْفَ تُنْكِرُ هَذَا فِي تِمْثَالٍ مُصَوَّرٍ جَمَادٍ وَلَا تُنْكِرُفِي الْإِنْسَانِ الْحَيِّ النَّاطِقِ؟

نمو أبدان الحيوان وتوقفها

لِمَ صَارَتْ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ وَهِيَ تَغْتَذِي أَبَداً لَا تَنْمِي بَلْ تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنَ النُّمُوِّ ثُمَّ تَقِفُ وَلَا تَتَجَاوَزُهَا لَوْ لَا التَّدْبِيرُفِي ذَلِكَ فَإِنَّ تَدْبِيرَالْحَكِيمِ فِيهَا أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا عَلَى مِقْدَارٍ مَعْلُومٍ غَيْرِمُتَفَاوِتٍ فِي الْكَبِيرِوَالصَّغِيرِ، وَصَارَتْ تَنْمِي حَتَّى تَصِلَ إِلَى غَايَتِهَا، ثُمَّ تَقِفُ، ثُمَّ لَا تَزِيدُ، وَالْغِذَاءُ مَعَ ذَلِكَ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَوْتَنْمِي نُمُوّاً دَائِماً لَعَظُمَتْ أَبْدَانُهَا، وَاشْتَبَهَتْ مَقَادِيرُهَا حَتَّى لَا يَكُونَ لِشَيْءٍ مِنْهَا حَدٌّ يُعْرَفُ.

الوجع والألم

لِمَ صَارَتْ أَجْسَامُ الْإِنْسِ خَاصَّةً تَثْقُلُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْمَشْيِ وَتَجْفُوعَنِ الصِّنَاعَاتِ اللَّطِيفَةِ إِلَّا لِتَعْظِيمِ الْمَئُونَةِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِلْمَلْبَسِ وَالْمَضْجَعِ وَالتَّكْفِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَوْكَانَ الْإِنْسَانُ لَا يُصِيبُهُ أَلَمٌ وَلَا وَجَعٌ بِمَ كَانَ يَرْتَدِعُ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَيَتَوَاضَعُ للهِ، وَيَتَعَطَّفُ عَلَى النَّاسِ؟

أَمَا تَرَى الْإِنْسَانَ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَجَعٌ خَضَعَ وَاسْتَكَانَ، وَرَغِبَ إِلَى رَبِّهِ فِي الْعَافِيَةِ، وَبَسَطَ يَدَهُ بِالصَّدَقَةِ، وَلَوْكَانَ لَا يَأْلَمُ مِنَ الضَّرْبِ بِمَ كَانَ السُّلْطَانُ يُعَاقِبُ الدُّعَّارَ(١)؟ وَيُذِلُّ الْعُصَاةَ الْمَرَدَةَ؟ وَبِمَ كَانَ الصِّبْيَانُ يَتَعَلَّمُونَ الْعُلُومَ وَالصِّنَاعَاتِ؟ وَبِمَ كَانَ الْعَبِيدُ يَذِلُّونَ لِأَرْبَابِهِمْ وَيُذْعِنُونَ لِطَاعَتِهِمْ؟ أَفَلَيْسَ هَذَا تَوْبِيخَ ابْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَذَوِيهِ الَّذِينَ جَحَدُوا التَّدْبِيرَ؟ وَالْمَانَوِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْوَجَعَ وَالْأَلَمَ؟

لولا وجود الذكور والاناث

---

(١) الدّعّار: جمع داعر وهو الخبيث.

وَلَوْلَمْ يُولَدْ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَّا ذَكَرٌ فَقَطْ أَوْ أُنْثَى فَقَطْ أَلَمْ يَكُنِ النَّسْلُ مُنْقَطِعاً؟ وَبَادَ مَعَ أَجْنَاسِ الْحَيَوَانِ؟ فَصَارَ بَعْضُ الْأَوْلَادِ يَأْتِي ذُكُوراً، وَبَعْضُهَا يَأْتِي إِنَاثاً لِيَدُومَ التَّنَاسُلُ وَلَا يَنْقَطِعُ.

نبات اللحية للرجل دون المرأة

لِمَ صَارَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ إِذَا أَدْرَكَا تَنْبُتُ لَهُمَا الْعَانَةُ، ثُمَّ تَنْبُتُ اللِّحْيَةُ لِلرَّجُلِ، وَتَتَخَلَّفُ عَنِ الْمَرْأَةِ، لَوْلَا التَّدْبِيرُ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمَّا جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الرَّجُلَ قَيِّماً وَرَقِيباً عَلَى الْمَرْأَةِ، وَجَعَلَ الْمَرْأَةَ عِرْساً وَخَوَلًا[1] لِلرَّجُلِ، أَعْطَى الرَّجُلَ اللِّحْيَةَ لِمَا لَهُ مِنَ الْعِزِّ وَالْجَلَالَةِ وَالْهَيْبَةِ، وَمَنَعَهَا الْمَرْأَةَ لِتَبْقَى لَهَا نَضَارَةُ الْوَجْهِ وَالْبَهْجَةُ الَّتِي تُشَاكِلُ الْمُفَاكَهَةَ[2] وَالْمُضَاجَعَةَ، أَفَلَا تَرَى الْخِلْقَةَ كَيْفَ تَأْتِي بِالصَّوَابِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَتَتَخَلَّلُ مَوَاضِعَ الْخَطَأِ، فَتُعْطِي وَتَمْنَعُ عَلَى قَدْرِ الْإِرْبِ[3] وَالْمَصْلَحَةِ بِتَدْبِيرِ الْحَكِيمِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: ثُمَّ حَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ فَقَامَ مَوْلَايَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَالَ عليه السلام: بَكِّرْ[4] إِلَيَّ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فَانْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِهِ مَسْرُوراً بِمَا عَرَفْتُهُ، مُبْتَهِجاً بِمَا أُوتِيتُهُ، حَامِداً للهِ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ، شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ عَلَى مَا مَنَحَنِي بِمَا عَرَّفَنِيهِ مَوْلَايَ وَتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيَّ، فَبِتُّ فِي لَيْلَتِي مَسْرُوراً بِمَا مَنَحَنِيهِ، مَحْبُوراً بِمَا عَلَّمَنِيهِ.

---

(١) الخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية وهو يستعمل بلفظ واحد للجميع.

(٢) المفاكهة: هي الممازحة والمضاحكة.

(٣) الإرب: الحاجة والغاية.

(٤) بكّر: أتاه بكرة.

المجلس الثاني

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي بَكَّرْتُ إِلَى مَوْلَايَ، فَاسْتُؤْذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ عليه السلام:

الْحَمْدُ للهِ مُدَبِّرِ الْأَدْوَارِ(١)، وَمُعِيدِ الْأَكْوَارِ(٢) طَبَقاً(٣) عَنْ طَبَقٍ، وَعَالَماً بَعْدَ عَالَمٍ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾(٤) عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَجَلَّتْ آلَاؤُهُ، لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، يَشْهَدُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ قُدْسُهُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٥) فِي نَظَائِرَ لَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٦)، وَلِذَلِكَ قَالَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ إِلَيْكُمْ».

ثُمَّ أَطْرَقَ الْإِمَامُ عليه السلام هُنَيْئَةً وَقَالَ: يَا مُفَضَّلُ الْخَلْقُ حَيَارَى عَمِهُونَ(٧)، سُكَارَى فِي طُغْيَانِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَبِشَيَاطِينِهِمْ وَطَوَاغِيتِهِمْ يَقْتَدُونَ، بُصَرَاءُ عُمْيٌ لَا يُبْصِرُونَ،

---

(١) الأدوار جمع دور مصدر بمعنى الحركة.

(٢) الأكوار جمع كور- بالفتح- مصدر بمعنى الجماعة الكثيرة أو القطيع من الإبل والبقر ويقال كلّ دور كور والمراد استيناف قرن بعد قرن وزمان بعد زمان.

(٣) الطبق: وجه الأرض ولعلّ المراد به معنى الحال يقال: الدهر أطباق- أي أحوال تختلف.

(٤) سورة النجم: ٣١.

(٥) سورة الزلزلة: ٧-٨.

(٦) سورة فصلت: ٤٢.

(٧) عمهون، جمع عمه- بفتح فكسر- وهو المتردد في الضلال والمتحير في أمره أو طريقه.

نُطَقَاءُ بُكْمٌ[1] لاَ يَعْقِلُونَ، سُمَعَاءُ[2] صُمٌّ[3] لاَ يَسْمَعُونَ، رَضُوا بِالدُّونِ[4]، وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، حَادُوا[5] عَنْ مَدْرَجَةِ[6] الْأَكْيَاسِ[7]، وَرَتَعُوا فِي مَرْعَى الْأَرْجَاسِ[8] الْأَنْجَاسِ، كَأَنَّهُمْ مِنْ مُفَاجَأَةِ الْمَوْتِ آمِنُونَ، وَعَنِ الْمُجَازَاةِ مُزَحْزَحُونَ.

يَا وَيْلَهُمْ مَا أَشْقَاهُمْ، وَأَطْوَلَ عَنَاءَهُمْ، وَأَشَدَّ بَلاَءَهُمْ، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[9].

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَبَكَيْتُ لِمَا سَمِعْتُ مِنْهُ.

فَقَالَ عليه السلام: لَا تَبْكِ تَخَلَّصْتَ إِذْ قَبِلْتَ، وَنَجَوْتَ إِذْ عَرَفْتَ.

أبنية أبدان الحيوان وتهيئتها

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: أَبْتَدِئُ لَكَ بِذِكْرِ الْحَيَوَانِ لِيَتَّضِحَ لَكَ مِنْ أَمْرِهِ مَا وَضَحَ لَكَ مِنْ غَيْرِهِ، فَكِّرْ فِي أَبْنِيَةِ أَبْدَانِ الْحَيَوَانِ، وَتَهْيِئَتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَلَا هِيَ صِلَابٌ كَالْحِجَارَةِ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَا تَنْثَنِي[10] وَلَا تَتَصَرَّفُ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَا هِيَ عَلَى غَايَةِ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ، فَكَانَتْ لَا تَتَحَامَلُ وَلَا تَسْتَقِلُّ بِأَنْفُسِهَا، فَجُعِلَتْ مِنْ لَحْمٍ رَخْوٍ يَنْثَنِي، تَتَدَاخَلُهُ عِظَامٌ صِلَابٌ، يُمْسِكُهُ عَصَبٌ، وَعُرُوقٌ تَشُدُّهُ، وَتُضَمُّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَغُلِفَتْ فَوْقَ ذَلِكَ بِجِلْدٍ يَشْتَمِلُ عَلَى الْبَدَنِ كُلِّهِ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ هَذِهِ

---

(١) بكم، جمع أبكم وهو الاخرس.

(٢) سمعاء، جمع سميع بمعنى السامع والمسمع وهو للمبالغة.

(٣) الصم، جمع أصم وهو الذي انسدّت أذنه وثقل سمعه أو ذهب عنه بتاتاً.

(٤) الدون، أريد به هنا معنى الخسيس الحقير السافل.

(٥) حادوا: مالوا.

(٦) مدرجة جمع مدارج: ما يساعد على التوصل الى ما هو أفضل أو أعلى منه.

(٧) الأكياس: جمع كيّس بتشديد الياء- أي الفطن الحسن الفهم والأدب

(٨) الأرجاس: لعله جمع رجس- بالكسر- القذر والمأثم أو كلّ ما استقذر من العمل والعمل المؤدّي الى العذاب.

(٩) سورة الدخان: ٤١.

(١٠) لا تنثني: لا تنعطف ولا تميل.

التَّماثِيلُ الَّتِي تُعْمَلُ مِنَ العِيدَانِ، وَتُلَفُّ بِالْخِرَقِ، وَتُشَدُّ بِالْخُيُوطِ، وَتُطَلَى فَوْقَ ذَلِكَ بِالصَّمْغِ، فَتَكُونُ الْعِيدَانُ بِمَنْزِلَةِ الْعِظَامِ، وَالْخِرَقُ بِمَنْزِلَةِ اللَّحْمِ، وَالْخُيُوطُ بِمَنْزِلَةِ الْعَصَبِ وَالْعُرُوقِ، وَالطِّلَاءُ بِمَنْزِلَةِ الْجِلْدِ، فَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ الْحَيَوَانُ الْمُتَحَرِّكُ حَدَثَ بِالْإِهْمَالِ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ جَازَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ التَّمَاثِيلِ الْمَيِّتَةِ فَإِنْ كَانَ هَذَا غَيْرَ جَائِزٍ فِي التَّمَاثِيلِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا يَجُوزَ فِي الْحَيَوَانِ.

أجساد الأنعام وما أعطيت وما منعت

وَ فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ بَعْدَ هَذَا فِي أَجْسَادِ الْأَنْعَامِ؛ فَإِنَّهَا حِينَ خُلِقَتْ عَلَى أَبْدَانِ الْإِنْسِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ وَالْعَصَبِ أُعْطِيَتْ أَيْضاً السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لِيَبْلُغَ الْإِنْسَانُ حَاجَتَهُ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عُمْياً صُمّاً لَمَا انْتَفَعَ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَلَا تَصَرَّفَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَآرِبِهِ، ثُمَّ مُنِعَتِ الذِّهْنَ وَالْعَقْلَ لِتَذِلَّ لِلْإِنْسَانِ، فَلَا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إِذَا كَدَّهَا الْكَدَّ الشَّدِيدَ، وَحَمَّلَهَا الْحِمْلَ الثَّقِيلَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ عَبِيدٌ مِنَ الْإِنْسِ يَذِلُّونَ وَيُذْعِنُونَ بِالْكَدِّ الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ عَدِيمِي الْعَقْلِ وَالذِّهْنِ، فَيُقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: إِنَّ هَذَا الصِّنْفَ مِنَ النَّاسِ قَلِيلٌ، فَأَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ فَلَا يُذْعِنُونَ بِمَا تُذْعِنُ بِهِ الدَّوَابُّ مِنَ الْحَمْلِ وَالطَّحْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَا يُغْرَوْنَ[1] بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهُ، ثُمَّ لَوْ كَانَ النَّاسُ يُزَاوِلُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بِأَبْدَانِهِمْ لَشُغِلُوا بِذَلِكَ عَنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُحْتَاجُ مَكَانَ الْجَمَلِ الْوَاحِدِ وَالْبَغْلِ الْوَاحِدِ إِلَى عِدَّةِ أَنَاسِيَّ، فَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ يَسْتَفْرِغُ النَّاسَ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِمْ عَنْهُ فَضْلٌ لِشَيْءٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ، مَعَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ التَّعَبِ الْفَادِحِ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَالضِّيقِ وَالْكَدِّ فِي مَعَاشِهِمْ.

---

(١) لا يغرون: أي لا يؤثر فيهم الإغراء والتحريض على جميع الاعمال التي يحتاج إليها الخلق من ذلك العمل الذي تأتي به الدوابّ.

خلق الأصناف الثلاثة من الحيوان

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَفِي خَلْقِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِمَّا فِيهِ صَلَاحُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، فَالْإِنْسُ لَمَّا قُدِّرُوا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي ذِهْنٍ وَفِطْنَةٍ وَعِلَاجٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَاتِ مِنَ الْبِنَاءِ وَالتِّجَارَةِ وَالصِّيَاغَةِ وَالْخِيَاطَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ خُلِقَتْ لَهُمْ أَكُفٌّ كِبَارٌ ذَوَاتُ أَصَابِعَ غِلَاظٍ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الْقَبْضِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَأَوْكَدُهَا هَذِهِ الصِّنَاعَاتُ.

آكلات اللحم من الحيوان

وَآكِلَاتُ اللَّحْمِ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ تَكُونَ مَعَايِشُهَا مِنَ الصَّيْدِ خُلِقَتْ لَهُمْ أَكُفٌّ لِطَافٌ مُدْمَجَةٌ[1]، ذَوَاتُ بَرَاثِنَ[2] وَمَخَالِبَ[3]، تَصْلُحُ لِأَخْذِ الصَّيْدِ، وَلَا تَصْلُحُ لِلصِّنَاعَاتِ.

وَآكِلَاتُ النَّبَاتِ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونُوا لَا ذَوَاتَ صَنْعَةٍ وَلَا ذَاتَ صَيْدٍ خُلِقَتْ لِبَعْضِهَا أَظْلَافٌ تَقِيهَا خُشُونَةَ الْأَرْضِ إِذَا حَاوَلَتْ طَلَبَ الْمَرْعَى، وَلِبَعْضِهَا حَوَافِرُ مُلَمْلَمَةٌ[4] ذَوَاتُ قَعْرٍ[5] كَأَخْمَصِ الْقَدَمِ تَنْطَبِقُ عَلَى الْأَرْضِ عِنْدَ تَهَيُّئِهَا لِلرُّكُوبِ وَالْحَمُولَةِ.

تَأَمَّلِ التَّدْبِيرَ فِي خَلْقِ آكِلَاتِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَيَوَانِ حِينَ خُلِقَتْ ذَوَاتُ أَسْنَانٍ حِدَادٍ، وَبَرَاثِنَ شِدَادٍ، وَأَشْدَاقٍ[6] وَأَفْوَاهٍ وَاسِعَةٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طُعْمُهَا[7] اللَّحْمَ خُلِقَتْ خِلْقَةً تُشَاكِلُ ذَلِكَ، وَأُعِينَتْ بِسِلَاحٍ وَأَدَوَاتٍ تَصْلُحُ لِلصَّيْدِ، وَكَذَلِكَ تَجِدُ سِبَاعَ الطَّيْرِ ذَوَاتَ مَنَاقِيرَ وَمَخَالِبَ مُهَيَّأَةٍ لِفِعْلِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الْوُحُوشُ ذَوَاتَ مَخَالِبَ كَانَتْ قَدْ أُعْطِيَتْ مَا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّهَا لَا تَصِيدُ وَلَا تَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَلَوْ كَانَتِ السِّبَاعُ

---

(١) مدمجة أي مستقيمة محكمة متداخلة.

(٢) البراثن جمع برثن بالضم- من السباع والطير بمنزلة الاصبع من الإنسان.

(٣) المخالب جمع مخلب- بالكسر- وهو الظفر خصوصا من السباع

(٤) ململمة أي مجموعة بعضها إلى بعض.

(٥) قعر كلّ شيء أقصاه.

(٦) الأشداق جمع شدق- بالفتح او الكسر- زاوية الفم من باطن الخدين.

(٧) الطعم- بالضم- الطعام.

ذَوَاتَ أَظْلَافٍ كَانَتْ قَدْ مُنِعَتْ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَعْنِي السِّلَاحَ الَّذِي تَصِيدُ بِهِ وَتَتَعَيَّشُ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الصِّنْفَيْنِ مَا يُشَاكِلُ صِنْفَهُ وَطَبَقَتَهُ، بَلْ مَا فِيهِ بَقَاؤُهُ وَصَلَاحُهُ.

ذوات الأربع واستقلال أولادها

انْظُرِ الْآنَ إِلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ كَيْفَ تَرَاهَا تَتْبَعُ أُمَّاتِهَا[١] مُسْتَقِلَّةً بِأَنْفُسِهَا، لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْحَمْلِ وَالتَّرْبِيَةِ كَمَا تَحْتَاجُ أَوْلَادُ الْإِنْسِ، فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ أُمَّاتِهَا مَا عِنْدَ أُمَّهَاتِ الْبَشَرِ مِنَ الرِّفْقِ وَالْعِلْمِ بِالتَّرْبِيَةِ، وَالْقُوَّةِ عَلَيْهَا بِالْأَكُفِّ وَالْأَصَابِعِ الْمُهَيَّأَةِ، لِذَلِكَ أُعْطِيَتِ النُّهُوضَ وَالِاسْتِقْلَالَ بِأَنْفُسِهَا.

وَ كَذَلِكَ تَرَى كَثِيراً مِنَ الطَّيْرِ كَمِثْلِ الدَّجَاجِ وَالدُّرَّاجِ[٢] وَالْقَبْجِ[٣] تَدْرُجُ وَتَلْقُطُ حِينَ تَنْقَابُ عَنْهَا الْبَيْضَةُ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا ضَعِيفاً لَا نُهُوضَ فِيهِ كَمِثْلِ فِرَاخِ الْحَمَامِ وَالْيَمَامِ[٤] وَالْحُمَّرِ[٥] فَقَدْ جُعِلَ فِي الْأُمَّهَاتِ فَضْلُ عَطْفٍ عَلَيْهَا، فَصَارَتْ تَمُجُّ[٦] الطَّعَامَ فِي أَفْوَاهِهَا بَعْدَ مَا تُوعِيهِ[٧] حَوَاصِلُهَا[٨]، فَلَا تَزَالُ تَغْذُوهَا حَتَّى تَسْتَقِلَّ بِأَنْفُسِهَا، وَلِذَلِكَ لَمْ تُرْزَقِ الْحَمَامُ فِرَاخاً كَثِيرَةً مِثْلَ مَا تُرْزَقُ الدَّجَاجُ لِتَقْوَى الْأُمُّ عَلَى تَرْبِيَةِ فِرَاخِهَا، فَلَا تَفْسُدُ وَلَا تَمُوتُ، فَكُلًّا أُعْطِيَ بِقِسْطٍ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ.

---

(١) الأمّات جمع أم وقيل إنها تستعمل في البهائم، وأمّا في الناس فهي أمّهات

(٢) الدُرّاج طائر شبيه بالحجل وأكبر منه أرقط بسواد وبياض قصير المنقار يطلق على الذكر والأنثى، جمعه دراريج وواحدته دراجة والتاء للوحدة لا للتأنيث.

(٣) القبج- بفتحتين- طائر يشبه الحجل وفي القاموس هو الحجل والواحدة قبجة تقع على الذكر والأنثى.

(٤) اليمام: الحمام الوحشي.

(٥) الحمّر: طائر أحمر اللون والواحدة حمرة.

(٦) تمجّ الطعام أي ترمي به.

(٧) توعيه من أوعى الزاد ونحوه- أي جعله في الوعاء.

(٨) الحواصل كأنهّا جمع حوصلة وحوصلاء وهي من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان.

انْظُرْ إِلَى قَوَائِمِ الْحَيَوَانِ كَيْفَ تَأْتِي أَزْوَاجاً لِتَتَهَيَّأَ لِلْمَشْيِ، وَلَوْ كَانَتْ أَفْرَاداً لَمْ تَصْلُحْ لِذَلِكَ، لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْقُلُ قَوَائِمَهُ يَعْتَمِدُ عَلَى بَعْضٍ، فَذُو الْقَائِمَتَيْنِ يَنْقُلُ وَاحِدَةً وَيَعْتَمِدُ عَلَى وَاحِدَةٍ، وَذُو الْأَرْبَعِ يَنْقُلُ اثْنَتَيْنِ وَيَعْتَمِدُ عَلَى اثْنَتَيْنِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَافٍ لِأَنَّ ذَا الْأَرْبَعِ لَوْ كَانَ يَنْقُلُ قَائِمَتَيْنِ مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهِ وَيَعْتَمِدُ عَلَى قَائِمَتَيْنِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ لَمْ يَثْبُتْ عَلَى الْأَرْضِ كَمَا يَثْبُتُ السَّرِيرُ وَمَا أَشْبَهَهُ، فَصَارَ يَنْقُلُ الْيُمْنَى مِنْ مَقَادِيمِهِ مَعَ الْيُسْرَى مِنْ مَآخِيرِهِ، وَيَنْقُلُ الْأُخْرَيَيْنِ أَيْضاً مِنْ خِلَافٍ، فَيَثْبُتُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَسْقُطُ إِذَا مَشَى.

انقياد الحيوانات للإنسان

أَمَا تَرَى الْحِمَارَ كَيْفَ يَذِلُّ لِلطَّحْنِ وَالْحَمُولَةِ، وَهُوَ يَرَى الْفَرَسَ مُودَعاً مُنَعَّماً، وَالْبَعِيرَ لَا يُطِيقُهُ عِدَّةُ رِجَالٍ لَوِ اسْتَعْصَى كَيْفَ كَانَ يَنْقَادُ لِلصَّبِيِّ؟ وَالثَّوْرَ الشَّدِيدَ كَيْفَ كَانَ يُذْعِنُ لِصَاحِبِهِ حَتَّى يَضَعَ النِّيرَ[1] عَلَى عُنُقِهِ وَيَحْرِثَ بِهِ، وَالْفَرَسَ الْكَرِيمَ يَرْكَبُ[2] السُّيُوفَ وَالْأَسِنَّةَ بِالْمُوَاتَاةِ لِفَارِسِهِ، وَالْقَطِيعَ مِنَ الْغَنَمِ يَرْعَاهُ وَاحِدٌ وَلَوْ تَفَرَّقَتِ الْغَنَمُ فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي نَاحِيَةٍ لَمْ يَلْحَقْهَا، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَصْنَافِ الْمُسَخَّرَةِ لِلْإِنْسَانِ كَانَتْ كَذَلِكَ إِلَّا بِأَنَّهَا عُدِمَتِ الْعَقْلَ وَالرَّوِيَّةَ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ تَعْقِلُ وَتَتَرَوَّى فِي الْأُمُورِ كَانَتْ خَلِيقَةً أَنْ تَلْتَوِيَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَآرِبِهِ حَتَّى يَمْتَنِعَ الْجَمَلُ عَلَى قَائِدِهِ، وَالثَّوْرُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَتَتَفَرَّقُ الْغَنَمُ عَنْ رَاعِيهَا، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ.

افتقاد السباع للعقل والروية

وَكَذَلِكَ هَذِهِ السِّبَاعُ لَوْ كَانَتْ ذَاتَ عَقْلٍ وَرَوِيَّةٍ فَتَوَازَرَتْ[3] عَلَى النَّاسِ كَانَتْ خَلِيقَةً أَنْ تَجْتَاحَهُمْ، فَمَنْ كَانَ يَقُومُ لِلْأُسْدِ وَالذِّئَابِ وَالنُّمُورِ وَالدِّبَبَةِ لَوْ تَعَاوَنَتْ

---

(١) النير - بالكسر - الخشبة المعترضة في عنقي الثورين بأداتها والجمع أنيار ونيران.

(٢) يركب السيوف والأسنة أي يلقي نفسه عليها.

(٣) توازرت أي اجتمعت واتحدت.

وَتَظَاهَرَتْ عَلَى النَّاسِ؟ أَفَلا تَرَى كَيْفَ حُجِرَ[1] ذَلِكَ عَلَيْهَا، وَصَارَتْ مَكَانَ مَا كَانَ يُخَافُ مِنْ إِقْدَامِهَا وَنِكَايَتِهَا، تَهَابُ مَسَاكِنَ النَّاسِ وَتُحْجِمُ عَنْهَا، ثُمَّ لَا تَظْهَرُ وَلَا تَنْتَشِرُ لِطَلَبِ قُوتِهَا إِلَّا بِاللَّيْلِ، فَهِيَ مَعَ صَوْلَتِهَا كَالْخَائِفِ مِنَ الْإِنْسِ بَلْ مَقْمُوعَةٌ[2] مَمْنُوعَةٌ مِنْهُمْ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَسَاوَرَتْهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِمْ.

عطف الكلب على الإنسان ومحاماته عنه

ثُمَّ جُعِلَ فِي الْكَلْبِ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ السِّبَاعِ عَطْفٌ عَلَى مَالِكِهِ، وَمُحَامَاةٌ عَنْهُ، وَحَافِظٌ لَهُ، يَنْتَقِلُ عَلَى الْحِيطَانِ وَالسُّطُوحِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِحِرَاسَةِ مَنْزِلِ صَاحِبِهِ وَذَبِّ الدَّغَّارِ[3] عَنْهُ، وَيَبْلُغُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِصَاحِبِهِ أَنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ دُونَهُ، وَدُونَ مَاشِيَتِهِ وَمَالِهِ، وَيَأْلَفُهُ غَايَةَ الْإِلْفِ[4] حَتَّى يَصْبِرَ مَعَهُ عَلَى الْجُوعِ وَالْجَفْوَةِ، فَلِمَ طُبِعَ الْكَلْبُ عَلَى هَذِهِ الْأُلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ إِلَّا لِيَكُونَ حَارِساً لِلْإِنْسَانِ؟ لَهُ عَيْنٌ[5] بِأَنْيَابٍ[6] وَمَخَالِبَ وَنُبَاحٌ هَائِلٌ لِيَذْعَرَ مِنْهُ السَّارِقُ، وَيَتَجَنَّبَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَحْمِيهَا وَيَخْفِرُهَا[7].

وجه الدابة وفمها وذنبها

يَا مُفَضَّلُ تَأَمَّلْ وَجْهَ الدَّابَّةِ كَيْفَ هُوَ فَإِنَّكَ تَرَى الْعَيْنَيْنِ شَاخِصَتَيْنِ أَمَامَهَا؛ لِتُبْصِرَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا لِئَلَّا تَصْدِمَ حَائِطاً، أَوْ تَتَرَدَّى فِي حُفْرَةٍ، وَتَرَى الْفَمَ مَشْقُوقاً شَقّاً فِي أَسْفَلِ الْخَطْمِ[8]، وَلَوْ شُقَّ كَمَكَانِ الْفَمِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مُقَدَّمِ الذَّقَنِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ بِفِيهِ وَلَكِنْ بِيَدِهِ تَكْرِمَةً لَهُ

---

(١) حجر عليه الأمر: حرمه ومنعه.

(٢) مقموعة: مقهورة ذليلة.

(٣) أي ودفع الهجوم عنه. وفي نسخة: وذب الذعار عنه.

(٤) الألف- بفتح فسكون- المحبة والأنس.

(٥) العين- بالفتح- الغلظة في الجسم والخشونة.

(٦) الأنياب جمع ناب وهو السن خلف الرباعية.

(٧) يخفرها: يجيرها ويؤمنها.

(٨) خطم الدابّة: مقدم أنفها وفمها.

عَلَى سَائِرِ الآكِلاتِ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلدَّابَّةِ يَدٌ تَتَنَاوَلُ بِهَا الْعَلَفَ جُعِلَ خُرْطُومُهَا(١) مَشْقُوقاً مِنْ أَسْفَلِهِ لِتَقْبِضَ عَلَى الْعَلَفِ ثُمَّ تَقْضَمَهُ، وَأُعِينَتْ بِالْجَحْفَلَةِ(٢) لِتَتَنَاوَلَ بِهَا مَا قَرُبَ وَمَا بَعُدَ.

اعْتَبِرْ بِذَنَبِهَا وَالْمَنْفَعَةِ لَهَا فِيهِ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الطَّبَقِ(٣) عَلَى الدُّبُرِ، وَالْحَيَاءِ جَمِيعاً يُوَارِيهِمَا وَيَسْتُرُهُمَا، وَمِنْ مَنَافِعِهَا فِيهِ أَنَّ مَا بَيْنَ الدُّبُرِ وَمَرَاقِّي الْبَطْنِ مِنْهَا وَضَرٌ(٤) يَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الذُّبَابُ وَالْبَعُوضُ، فَجُعِلَ لَهَا الذَّنَبُ كَالْمِذَبَّةِ(٥) تَذُبُّ بِهَا عَنْ تِلْكَ الْمَوَاضِعِ، وَمِنْهَا أَنَّ الدَّابَّةَ تَسْتَرِيحُ إِلَى تَحْرِيكِهِ وَتَصْرِيفِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ قِيَامُهَا عَلَى الْأَرْبَعِ بِأَسْرِهَا، وَشُغِلَتِ الْمُقَدِّمَتَانِ بِحَمْلِ الْبَدَنِ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالتَّقَلُّبِ كَانَ لَهَا فِي تَحْرِيكِ الذَّنَبِ رَاحَةٌ، وَفِيهِ مَنَافِعُ أُخْرَى يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَهْمُ فَيُعْرَفُ مَوْقِعُهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الدَّابَّةَ تَرْتَطِمُ فِي الْوَحَلِ(٦) فَلا يَكُونُ شَيْءٌ أَعْوَنَ عَلَى نُهُوضِهَا مِنَ الْأَخْذِ بِذَنَبِهَا، وَفِي شَعْرِ الذَّنَبِ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ كَثِيرَةٌ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي مَآرِبِهِمْ.

ثُمَّ جُعِلَ ظَهْرُهَا مُسَطَّحاً مَبْطُوحاً عَلَى قَوَائِمَ أَرْبَعٍ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ رُكُوبِهَا، وَجُعِلَ حَيَاهَا بَارِزاً مِنْ وَرَائِهَا لِيَتَمَكَّنَ الْفَحْلُ مِنْ ضَرْبِهَا، وَلَوْ كَانَ أَسْفَلَ الْبَطْنِ -كَمَا كَانَ الْفَرْجُ مِنَ الْمَرْأَةِ- لَمْ يَتَمَكَّنِ الْفَحْلُ مِنْهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَهَا كِفَاحاً(٧) كَمَا يَأْتِي الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ.

---

(١) الخرطوم: الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين.

(٢) الجحفلة هي لذات الحافر كالشفة للإنسان.

(٣) الطبق- بفتحتين- مصدر الغطاء جمعه أطباق.

(٤) الوضر: مصدر الوسخ.

(٥) المذبة: ما يذب به الذباب.

(٦) الوحل: الطين الرقيق جمعه وحول وأوحال.

(٧) الكفاح: الملاقاة وجها لوجه.

الفيل ومشفره

تَأَمَّلْ مِشْفَرَ[1] الْفِيلِ وَمَا فِيهِ مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ الْيَدِ فِي تَنَاوُلِ الْعَلَفِ وَالْمَاءِ وَازْدِرَادِهِمَا إِلَى جَوْفِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ رَقَبَةٌ يَمُدُّهَا كَسَائِرِ الْأَنْعَامِ، فَلَمَّا عَدِمَ الْعُنُقَ أُعِينَ مَكَانَ ذَلِكَ بِالْخُرْطُومِ الطَّوِيلِ لِيَسْدُلَهُ فَيَتَنَاوَلَ بِهِ حَاجَتَهُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي عَوَّضَهُ مَكَانَ الْعُضْوِ الَّذِي عَدِمَ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ إِلَّا الرَّؤُوفُ بِخَلْقِهِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا بِالْإِهْمَالِ كَمَا قَالَتِ الظَّلَمَةُ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا بَالُهُ لَمْ يُخلقْ ذَا عُنُقٍ كَسَائِرِ الْأَنْعَامِ؟ قِيلَ: إِنَّ رَأْسَ الْفِيلِ وَأُذُنَيْهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَثِقْلٌ ثَقِيلٌ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى عُنُقٍ عَظِيمٍ لَهَدَّهَا وَأَوْهَنَهَا، فَجَعَلَ رَأْسَهُ مُلْصَقاً بِجِسْمِهِ لِكَيْلَا يَنَالَهُ مِنْهُ مَا وَصَفْنَاهُ، وَخَلَقَ لَهُ مَكَانَ الْعُنُقِ هَذَا الْمِشْفَرَ لِيَتَنَاوَلَ بِهِ غِذَاءَهُ، فَصَارَ مَعَ عَدَمِ الْعُنُقِ مُسْتَوْفِياً مَا فِيهِ بُلُوغُ حَاجَتِهِ.

حياء الأنثى من الفيلة

انْظُرِ الْآنَ كَيْفَ جُعِلَ حَيَاءُ الْأُنْثَى مِنَ الْفِيلَةِ فِي أَسْفَلِ بَطْنِهَا، فَإِذَا هَاجَتْ لِلضِّرَابِ ارْتَفَعَ وَبَرَزَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ الْفَحْلُ مِنْ ضَرْبِهَا، فَاعْتَبِرْ كَيْفَ جُعِلَ حَيَاءُ الْأُنْثَى مِنَ الْفِيلَةِ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، ثُمَّ جُعِلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخُلَّةُ لِيَتَهَيَّأَ لِلْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ قِوَامُ النَّسْلِ وَدَوَامُهُ.

الزرافة وخلقتها

فَكِّرْ فِي خَلْقِ الزَّرَافَةِ، وَاخْتِلَافِ أَعْضَائِهَا، وَشِبْهِهَا بِأَعْضَاءِ أَصْنَافٍ مِنَ الْحَيَوَانِ؛ فَرَأْسُهَا رَأْسُ فَرَسٍ، وَعُنُقُهَا عُنُقُ جَمَلٍ، وَأَظْلَافُهَا أَظْلَافُ بَقَرَةٍ، وَجِلْدُهَا جِلْدُ نَمِرٍ، وَزَعَمَ نَاسٌ مِنَ الْجُهَّالِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ نِتَاجَهَا مِنْ فُحُولٍ شَتَّى، قَالُوا وَسَبَبُ ذَلِكَ

---

(١) المشفر: الشفة وتستعمل للبعير إلا أن الإمام الصّادق عليه السلام عدل المعنى الى خرطوم الفيل إذ هو بمثابة الشفاه، بل هو شفاهه الحقيقيّة التي بها يتناول العلف والماء.

أَنَّ أَصْنَافاً مِنْ حَيَوَانِ الْبَرِّإِذَا وَرَدَتِ الْمَاءَ تَنْزُو عَلَى بَعْضِ السَّائِمَةِ، وَيُنْتَجُ مِثْلُ هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي هُوَ كَالْمُلْتَقَطِ مِنْ أَصْنَافٍ شَتَّى، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْ قَائِلِهِ، وَقِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِالْبَارِئِ جَلَّ قُدْسُهُ.

وَلَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانِ يُلْقِحُ كُلَّ صِنْفٍ، فَلَا الْفَرَسُ يُلْقِحُ الْجَمَلَ، وَلَا الْجَمَلُ يُلْقِحُ الْبَقَرَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّلْقِيحُ مِنْ بَعْضِ الْحَيَوَانِ فِيمَا يُشَاكِلُهُ وَيَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا يُلْقِحُ الْفَرَسُ الْحِمَارَ فَيَخْرُجُ بَيْنَهُمَا الْبَغْلُ، وَيُلْقِحُ الذِّئْبُ الضَّبُعَ فَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا السِّمْعُ(١)، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ فِي الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا عُضْوُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَمَا فِي الزَّرَافَةِ عُضْوٌ مِنَ الْفَرَسِ، وَعُضْوٌ مِنَ الْجَمَلِ، وَأَظْلَافٌ مِنَ الْبَقَرَةِ، بَلْ يَكُونُ كَالْمُتَوَسِّطِ بَيْنَهُمَا، الْمُمْتَزِجِ مِنْهُمَا، كَالَّذِي تَرَاهُ فِي الْبَغْلِ فَإِنَّكَ تَرَى رَأْسَهُ وَأُذُنَيْهِ وَكَفَلَهُ(٢) وَذَنَبَهُ وَحَوَافِرَهُ وَسَطاً بَيْنَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مِنَ الْفَرَسِ وَالْحِمَارِ، وَشَحِيجَهُ(٣) كَالْمُمْتَزِجِ مِنْ صَهِيلِ الْفَرَسِ وَنَهِيقِ الْحِمَارِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَتِ الزَّرَافَةُ مِنْ لِقَاحِ أَصْنَافٍ شَتَّى مِنَ الْحَيَوَانِ كَمَا زَعَمَ الْجَاهِلُونَ، بَلْ هِيَ خَلْقٌ عَجِيبٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ خَالِقُ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ كُلِّهَا، يَجْمَعُ بَيْنَ مَا يَشَاءُ مِنْ أَعْضَائِهَا فِي أَيِّهَا شَاءَ، وَيُفَرِّقُ مَا شَاءَ مِنْهَا فِي أَيِّهَا شَاءَ، وَيَزِيدُ فِي الْخِلْقَةِ مَا شَاءَ، وَيَنْقُصُ مِنْهَا مَا شَاءَ، دَلَالَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ جَلَّ وَتَعَالَى.

فَأَمَّا طُولُ عُنُقِهَا وَالْمَنْفَعَةُ لَهَا فِي ذَلِكَ فَإِنَّ مَنْشَأَهَا وَمَرْعَاهَا فِي غَيَاطِلَ(٤) ذَوَاتِ أَشْجَارٍ شَاهِقَةٍ ذَاهِبَةٍ طُولاً فِي الْهَوَاءِ فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى طُولِ الْعُنُقِ لِتَتَنَاوَلَ بِفِيهَا أَطْرَافَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ فَتَتَقَوَّتَ مِنْ ثِمَارِهَا.

---

(١) السمع- بكسر فسكون- ولد الذئب من الضبع والأنثى سمعة.

(٢) الكفل- بفتحتين- من الدابّة: العجز أو الردف والجمع أكفال

(٣) الشحيج من شحج البغل: صوّت وغلظ صوته.

(٤) الغياطل جمع غيطل وهو الشجر الكثير الملتف.

القرد والفرق بينه وبين الإنسان

تَأَمَّلْ خِلْقَةَ الْقِرْدِ وَشِبْهَهُ بِالْإِنْسَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْضَائِهِ؛ أَعْنِي الرَّأْسَ، وَالْوَجْهَ، وَالْمَنْكِبَيْنِ، وَالصَّدْرَ، وَكَذَلِكَ أَحْشَاؤُهُ شَبِيهَةٌ أَيْضاً بِأَحْشَاءِ الْإِنْسَانِ، وَخُصَّ مَعَ ذَلِكَ بِالذِّهْنِ وَالْفِطْنَةِ الَّتِي بِهَا يَفْهَمُ عَنْ سَائِسِهِ مَا يُومِئُ إِلَيْهِ، وَيَحْكِي كَثِيراً مِمَّا يَرَى الْإِنْسَانَ يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَشَمَائِلِهِ فِي التَّدْبِيرِ فِي خِلْقَتِهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِلْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ طِينَةِ الْبَهَائِمِ وَسِنْخِهَا[1]، إِذْ كَانَ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهَا هَذَا الْقُرْبَ، وَأَنَّهُ لَوْلَا فَضِيلَةٌ فَضَّلَهُ بِهَا فِي الذِّهْنِ وَالْعَقْلِ وَالنُّطْقِ كَانَ كَبَعْضِ الْبَهَائِمِ، عَلَى أَنَّ فِي جِسْمِ الْقِرْدِ فُضُولاً أُخْرَى تَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ كَالْخَطْمِ[2]، وَالذَّنَبِ الْمُسَدَّلِ، وَالشَّعْرِ الْمُجَلِّلِ لِلْجِسْمِ كُلِّهِ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ مَانِعاً لِلْقِرْدِ أَنْ يُلْحَقَ بِالْإِنْسَانِ لَوْ أُعْطِيَ مِثْلَ ذِهْنِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ وَنُطْقِهِ، وَالْفَصْلُ الْفَاصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ النَّقْصُ فِي الْعَقْلِ وَالذِّهْنِ وَالنُّطْقِ.

إكساء أجسام الحيوانات وخلقة أقدامها

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى لُطْفِ اللهِ جَلَّ اسْمُهُ بِالْبَهَائِمِ كَيْفَ كُسِيَتْ أَجْسَامُهَا هَذِهِ الْكِسْوَةَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ وَالصُّوفِ لِتَقِيَهَا مِنَ الْبَرْدِ، وَكَثْرَةِ الْآفَاتِ؛ أُلْبِسَتِ الْأَظْلَافَ وَالْحَافِرَ وَالْأَخْفَافَ لِتَقِيَهَا مِنَ الْحَفَاءِ[3]، إِذْ كَانَتْ لَا أَيْدِيَ لَهَا وَلَا أَكُفَّ وَلَا أَصَابِعَ مُهَيَّأَةً لِلْغَزْلِ وَالنَّسْجِ فَكُفُوا بِأَنْ جُعِلَ كِسْوَتُهُمْ فِي خَلْقِهِمْ بَاقِيَةً عَلَيْهِمْ مَا بَقُوا، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَجْدِيدِهَا وَاسْتِبْدَالٍ بِهَا، فَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ ذُو حِيلَةٍ، وَكَفٍّ مُهَيَّأَةٍ لِلْعَمَلِ، فَهُوَ يَنْسِجُ وَيَغْزِلُ، وَيَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ الْكِسْوَةَ، وَيَسْتَبْدِلُ بِهَا حَالاً بَعْدَ حَالٍ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ مِنْ جِهَاتٍ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِصَنْعَةِ اللِّبَاسِ عَنِ الْعَبَثِ، وَمَا تُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْكِفَايَةُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَسْتَرِيحُ إِلَى خَلْعِ كِسْوَتِهِ إِذَا شَاءَ، وَلُبْسِهَا إِذَا شَاءَ،

---

(١) النسخ: الأصل.

(٢) الخطم من الدابّة: مقدم أنفها وفمها.

(٣) الحفاء هو المشي بلا خف ولا نعل.

وَمِنْهَا أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْكِسْوَةِ ضُرُوباً لَهَا جَمَالٌ وَرَوْعَةٌ فَيَتَلَذَّذُ بِلُبْسِهَا وَتَبْدِيلِهَا، وَكَذَلِكَ يَتَّخِذُ بِالرِّفْقِ مِنَ الصَّنْعَةِ ضُرُوباً مِنَ الْخِفَافِ [١] وَالنِّعَالِ يَقِي بِهَا قَدَمَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ مَعَايِشُ لِمَنْ يَعْمَلُهُ مِنَ النَّاسِ، وَمَكَاسِبُ يَكُونُ فِيهَا مَعَايِشُهُمْ، وَمِنْهَا أَقْوَاتُهُمْ وَأَقْوَاتُ عِيَالِهِمْ، فَصَارَ الشَّعْرُ وَالْوَبَرُ وَالصُّوفُ يَقُومُ لِلْبَهَائِمِ مَقَامَ الْكِسْوَةِ، وَالْأَظْلَافُ [٢] وَالْحَوَافِرُ وَالْأَخْفَافُ مَقَامَ الْحِذَاءِ.

مواراة البهائم عند إحساسها بالموت

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي خِلْقَةٍ عَجِيبَةٍ جُعِلَتْ فِي الْبَهَائِمِ فَإِنَّهُمْ يُوَارُونَ [٣] أَنْفُسَهُمْ إِذَا مَاتُوا كَمَا يُوَارِي النَّاسُ مَوْتَاهُمْ، وَإِلَّا فَأَيْنَ جِيَفُ هَذِهِ الْوُحُوشِ وَالسِّبَاعِ وَغَيْرِهَا لَا يُرَى مِنْهَا شَيْءٌ؟ وَلَيْسَتْ قَلِيلَةً فَتَخْفَى لِقِلَّتِهَا، بَلْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنَ النَّاسِ لَصَدَقَ، فَاعْتَبِرْ فِي ذَلِكَ بِمَا تَرَاهُ فِي الصَّحَارِي وَالْجِبَالِ مِنْ أَسْرَابِ الظِّبَاءِ [٤] وَالْمَهَا [٥]، وَالْحَمِيرِ الْوَحْشِ، وَالْوُعُولِ [٦] وَالْأَيَائِلِ [٧]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُحُوشِ وَأَصْنَافِ السِّبَاعِ مِنَ الْأُسْدِ وَالضِّبَاعِ، وَالذِّئَابِ وَالنُّمُورِ وَغَيْرِهَا، وَضُرُوبِ الْهَوَامِّ وَالْحَشَرَاتِ، وَدَوَابِّ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ أَسْرَابُ الطَّيْرِ مِنَ الْغِرْبَانِ وَالْقَطَاةِ، وَالْإِوَزِّ وَالْكَرَاكِي [٨]، وَالْحَمَامِ وَسِبَاعِ الطَّيْرِ جَمِيعاً، وَكُلُّهَا لَا يُرَى مِنْهَا إِذَا مَاتَتْ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ يَصِيدُهُ قَانِصٌ أَوْ يَفْتَرِسُهُ سَبُعٌ، فَإِذَا أَحَسُّوا بِالْمَوْتِ كَمَنُوا فِي مَوَاضِعَ خَفِيَّةٍ فَيَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَامْتَلَأَتِ الصَّحَارِي مِنْهَا حَتَّى تَفْسُدَ رَائِحَةُ الْهَوَاءِ، وَتَحْدُثُ

---

(١) الخفاف جمع خف- بالضم- وهو ما يلبس بالرجل.

(٢) الأظلاف: جمع ظلف، وهو ظفر كلّ ما اجتر من الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر للفرس.

(٣) يوارون أنفسهم: يخفونها.

(٤) الظباء جمع ظبية وهي أنثى الغزال.

(٥) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية.

(٦) الوعول جمع وعل وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين.

(٧) الأيائل جمع أُيل، حيوان من ذوات الظلف للذكور منه قرون متشعبة لا تجويف فيها، أمّا الإناث فلا قرون لها.

(٨) الكراكي جمع كركي: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب قليل اللحم.

الْأَمْرَاضُ وَالْوَبَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا بِالَّذِي يَخْلُصُ إِلَيْهِ النَّاسُ وَعَمِلُوهُ بِالتَّمْثِيلِ (١) الْأَوَّلِ الَّذِي مُثِّلَ لَهُمْ كَيْفَ جُعِلَ طَبْعاً وَإِذْكَاراً فِي الْبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا لِيَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ مَعَرَّةِ (٢) مَا يَحْدُثُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْفَسَادِ؟!

الفطن التي جعلت في البهائم

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي الْفِطَنِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي الْبَهَائِمِ لِمَصْلَحَتِهَا بِالطَّبْعِ وَالْخِلْقَةِ لُطْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ لِئَلَّا يَخْلُوَ مِنْ نِعَمِهِ جَلَّ وَعَزَّ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا بِعَقْلٍ وَرَوِيَّةٍ؛ فَإِنَّ الْأُيَّلَ (٣) يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ فَيَعْطَشُ عَطَشاً شَدِيداً، فَيَمْتَنِعُ مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَدِبَّ السَّمُّ فِي جِسْمِهِ فَيَقْتُلَهُ، وَيَقِفُ عَلَى الْغَدِيرِ وَهُوَ مَجْهُودٌ عَطَشاً، فَيَعِجُّ عَجِيجاً عَالِياً، وَلَا يَشْرَبُ مِنْهُ، وَلَوْ شَرِبَ لَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ، فَانْظُرْ إِلَى مَا جُعِلَ مِنْ طِبَاعِ هَذِهِ الْبَهِيمَةِ مِنْ تَحَمُّلِ الظَّمَأِ الْغَالِبِ الشَّدِيدِ خَوْفاً مِنَ الْمَضَرَّةِ فِي الشُّرْبِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْمُمَيِّزُ يَضْبِطُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

وَالثَّعْلَبُ إِذَا أَعْوَزَهُ الطُّعْمُ تَمَاوَتَ وَنَفَخَ بَطْنَهُ حَتَّى يَحْسَبَهُ الطَّيْرُ مَيِّتاً، فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ لِتَنْهَشَهُ وَثَبَ عَلَيْهَا فَأَخَذَهَا، فَمَنْ أَعَانَ الثَّعْلَبَ الْعَدِيمَ النُّطْقِ وَالرَّوِيَّةِ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ بِتَوْجِيهِ الرِّزْقِ لَهُ مِنْ هَذَا وَشِبْهِهِ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الثَّعْلَبُ يَضْعُفُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تَقْوَى عَلَيْهِ السِّبَاعُ مِنْ مُسَاوَرَةِ الصَّيْدِ أُعِينَ بِالدَّهَاءِ وَالْفِطْنَةِ وَالِاحْتِيَالِ لِمَعَاشِهِ.

وَالدُّلْفِينَ يَلْتَمِسُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَيَكُونُ حِيلَتُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ السَّمَكَ فَيَقْتُلَهُ وَيَسْرَحَهُ حَتَّى يَطْفُوَ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَكْمُنُ تَحْتَهُ وَيُثَوِّرُ الْمَاءَ الَّذِي عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَتَبَيَّنَ شَخْصُهُ، فَإِذَا وَقَعَ الطَّيْرُ عَلَى السَّمَكِ الطَّافِي وَثَبَ إِلَيْهَا فَاصْطَادَهَا، فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ كَيْفَ جُعِلَتْ طَبْعاً فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ لِبَعْضِ الْمَصْلَحَةِ.

---

(١) المراد بالتمثيل ما ذكره الله تعالى في قصة قابيل.

(٢) المعرّة: الأمر القبيح والمساءة والإثم والأذى.

(٣) الأيَّل: حَيَوَانٌ مِنْ فَصِيلَةِ الأَيَلِيَّاتِ، مِنْ رُتْبَةِ شَفْعِيَّاتِ الأظْلَافِ، لِذُكُورِهِ قُرُونٌ مُتَشَعِّبَةٌ بِهَا تَجْوِيفٌ يُعْرَفُ أيضاً بِالوَعْلِ.

التنين والسحاب

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي يَا مَوْلَايَ عَنِ التِّنِّينِ[1] وَالسَّحَابِ، فَقَالَ عليه السلام:

إِنَّ السَّحَابَ كَالْمُوَكَّلِ بِهِ يَخْتَطِفُهُ حَيْثُمَا ثَقِفَهُ[2] كَمَا يَخْتَطِفُ حَجَرُ الْمِغْنَاطِيسِ الْحَدِيدَ، فَهُوَ لَا يُطْلِعُ رَأْسَهُ فِي الْأَرْضِ خَوْفاً مِنَ السَّحَابِ، وَلَا يَخْرُجُ إِلَّا فِي الْقَيْظِ[3] مَرَّةً إِذَا صَحَتِ السَّمَاءُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا نُكْتَةٌ[4] مِنْ غَيْمَةٍ.

قُلْتُ: فَلِمَ وَكَّلَ السَّحَابَ بِالتِّنِّينِ يَرْصُدُهُ وَيَخْتَطِفُهُ إِذَا وَجَدَهُ؟

قَالَ عليه السلام: لِيَدْفَعَ عَنِ النَّاسِ مَضَرَّتَهُ.

لا تزدري الشيء الصغير

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: قَدْ وَصَفْتَ لِي يَا مَوْلَايَ مِنْ أَمْرِ الْبَهَائِمِ مَا فِيهِ مُعْتَبَرٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ فَصِفْ لِيَ الذَّرَّةَ وَالنَّمْلَةَ وَالطَّيْرَ.

فَقَالَ عليه السلام: يَا مُفَضَّلُ تَأَمَّلْ وَجْهَ الذَّرَّةِ الْحَقِيرَةِ الصَّغِيرَةِ هَلْ تَجِدُ فِيهَا نَقْصاً عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهَا؟ فَمِنْ أَيْنَ هَذَا التَّقْدِيرُ وَالصَّوَابُ فِي خَلْقِ الذَّرَّةِ إِلَّا مِنَ التَّدْبِيرِ الْقَائِمِ فِي صَغِيرِ الْخَلْقِ وَكَبِيرِهِ؟

انْظُرْ إِلَى النَّمْلِ وَاحْتِشَادِهِ فِي جَمْعِ الْقُوتِ وَإِعْدَادِهِ؛ فَإِنَّكَ تَرَى الْجَمَاعَةَ مِنْهَا إِذَا نَقَلَتِ الْحَبَّ إِلَى زُبْيَتِهَا[5] بِمَنْزِلَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ يَنْقُلُونَ الطَّعَامَ أَوْ غَيْرَهُ، بَلْ لِلنَّمْلِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ مِثْلُهُ، أَمَا تَرَاهُمْ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى النَّقْلِ كَمَا يَتَعَاوَنُ النَّاسُ عَلَى الْعَمَلِ، ثُمَّ يَعْمِدُونَ إِلَى الْحَبِّ فَيُقَطِّعُونَهُ قِطَعاً لِكَيْلَا يَنْبُتَ فَيَفْسُدَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَصَابَهُ نَدًى أَخْرَجُوهُ فَنَشَرُوهُ حَتَّى يَجِفَّ، ثُمَّ لَا يَتَّخِذُ

---

(١) التنين: الحيّة العظيمة والجمع تنانين.

(٢) ثقفه: أدركه وظفر به.

(٣) القيظ: حميم الصيف وشدة الحرّ والجمع أقياظ وقيوظ.

(٤) النكتة: النقطة السوداء في الأبيض أو البيضاء في الأسود والجمع نكت ونكات.

(٥) الزبية: الرابية لا يعلوها ماء جمعها زبى.

النَّمْلُ الزُّبْيَةَ إِلَّا فِي نَشَزٍ(١) مِنَ الْأَرْضِ كَيْلَا يُفِيضَ السَّيْلُ فَيُغْرِقَهَا، وَكُلُّ هَذَا مِنْهُ بِلَا عَقْلٍ وَلَا رَوِيَّةٍ بَلْ خِلْقَةٌ خُلِقَ عَلَيْهَا لِمَصْلَحَةٍ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ.

انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ اللَّيْثُ(٢) وَتُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ أَسَدَ الذُّبَابِ وَمَا أُعْطِيَ مِنَ الْحِيلَةِ وَالرِّفْقِ فِي مَعَاشِهِ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ حِينَ يُحِسُّ بِالذُّبَابِ قَدْ وَقَعَ قَرِيباً مِنْهُ تَرَكَهُ مَلِيّاً حَتَّى كَأَنَّهُ مَوَاتٌ لَا حَرَاكَ بِهِ، فَإِذَا رَأَى الذُّبَابَ قَدِ اطْمَأَنَّ وَغَفَلَ عَنْهُ دَبَّ دَبِيباً دَقِيقاً حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ بِحَيْثُ تَنَالُهُ وَثْبَتُهُ، ثُمَّ يَثِبُ عَلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ، فَإِذَا أَخَذَهُ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ بِجِسْمِهِ كُلِّهِ مَخَافَةَ أَنْ يَنْجُوَ مِنْهُ، فَلَا يَزَالُ قَابِضاً عَلَيْهِ حَتَّى يُحِسَّ بِأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ وَاسْتَرْخَى، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَيْهِ فَيَفْتَرِسُهُ وَيَحْيَا بِذَلِكَ مِنْهُ.

فَأَمَّا الْعَنْكَبُوتُ فَإِنَّهُ يَنْسِجُ ذَلِكَ النَّسْجَ فَيَتَّخِذُهُ شَرَكاً وَمَصِيدَةً لِلذُّبَابِ، ثُمَّ يَكْمُنُ فِي جَوْفِهِ، فَإِذَا نَشِبَ فِيهِ الذُّبَابُ أَحَالَ(٣) عَلَيْهِ يَلْدَغُهُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ، فَيَعِيشُ بِذَلِكَ مِنْهُ.

فَذَلِكَ يَحْكِي صَيْدَ الْكِلَابِ وَالْفُهُودِ، وَهَذَا يَحْكِي صَيْدَ الْأَشْرَاكِ وَالْحَبَائِلِ، فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الدُّوَيْبَّةِ الضَّعِيفَةِ كَيْفَ جُعِلَ فِي طَبْعِهَا مَا لَا يَبْلُغُهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ فِيهَا، فَلَا تَزْدَرِي بِالشَّيْءِ إِذَا كَانَتِ الْعِبْرَةُ فِيهِ وَاضِحَةً كَالذَّرَّةِ وَالنَّمْلَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَعْنَى النَّفِيسَ قَدْ يُمَثَّلُ بِالشَّيْءِ الْحَقِيرِ فَلَا يَضَعُ مِنْهُ ذَلِكَ(٤)، كَمَا لَا يَضَعُ مِنَ الدِّينَارِ وَهُوَ مِنْ ذَهَبٍ أَنْ يُوزَنَ بِمِثْقَالٍ مِنْ حَدِيدٍ.

جسم الطائر وخلقته

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ جِسْمَ الطَّائِرِ وَخِلْقَتَهُ؛ فَإِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طَائِراً فِي الْجَوِّ خُفِّفَ جِسْمُهُ، وَأُدْمِجَ(٥) خَلْقُهُ، وَاقْتُصِرَ بِهِ مِنَ الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ عَلَى اثْنَتَيْنِ، وَمِنَ

---

(١) النشز - بفتحتين - المكان المرتفع جمعه نشاز وأنشاز.

(٢) الليث: ضرب من العناكب والجمع ليوث ومليثة.

(٣) أحال: أقبل ووثب.

(٤) أي لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثيله بالشيء الحقير.

(٥) أدمج خلقه: لفّه وأحسنه.

الْأَصَابِعِ الْخَمْسِ عَلَى أَرْبَعٍ، وَمِنْ مَنْفَذَيْنِ لِلزِّبْلِ وَالْبَوْلِ عَلَى وَاحِدٍ يَجْمَعُهُمَا، ثُمَّ خُلِقَ ذَا جُؤْجُؤٍ[1] مُحَدَّدٍ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرِقَ الْهَوَاءَ كَيْفَ مَا أَخَذَ فِيهِ، كَمَا جُعِلَتِ السَّفِينَةُ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ لِتَشُقَّ الْمَاءَ وَتَنْفُذَ فِيهِ، وَجُعِلَ فِي جَنَاحَيْهِ وَذَنَبِهِ رِيشَاتٌ طِوَالٌ مِتَانٌ لِيَنْهَضَ بِهَا لِلطَّيَرَانِ، وَكُسِيَ كُلُّهُ الرِّيشَ لِيَتَدَاخَلَهُ الْهَوَاءُ فَيُقِلَّهُ[2].

وَلَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طُعْمُهُ الْحَبَّ وَاللَّحْمَ يَبْلَعُهُ بَلْعاً بِلَا مَضْغٍ نُقِصَ مِنْ خِلْقَةِ الْإِنْسَانِ وَخُلِقَ لَهُ مِنْقَارٌ صُلْبٌ جَاسٍ يَتَنَاوَلُ بِهِ طُعْمَهُ، فَلَا يَنْسَحِجُ[3] مِنْ لَقْطِ الْحَبِّ، وَلَا يَتَقَصَّفُ[4] مِنْ نَهْشِ اللَّحْمِ، وَلَمَّا عَدِمَ الْأَسْنَانَ وَصَارَ يَزْدَرِدُ الْحَبَّ صَحِيحاً وَاللَّحْمَ غَرِيضاً[5] أُعِينَ بِفَضْلِ حَرَارَةٍ فِي الْجَوْفِ تَطْحَنُ لَهُ الطُّعْمَ طَحْناً يَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَضْغِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّ عَجَمَ الْعِنَبِ[6] وَغَيْرِهِ يَخْرُجُ مِنْ أَجْوَافِ الْإِنْسِ صَحِيحاً، وَيُطْحَنُ فِي أَجْوَافِ الطَّيْرِ لَا يُرَى لَهُ أَثَرٌ، ثُمَّ جُعِلَ مِمَّا يَبِيضُ بَيْضاً وَلَا يَلِدُ وِلَادَةً لِكَيْلَا يَثْقُلَ عَنِ الطَّيَرَانِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْفِرَاخُ فِي جَوْفِهِ تَمْكُثُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ لَأَثْقَلَتْهُ وَعَاقَتْهُ عَنِ النُّهُوضِ وَالطَّيَرَانِ، فَجُعِلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ مُشَاكِلًا لِلْأَمْرِ الَّذِي قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ صَارَ الطَّائِرُ السَّائِحُ فِي هَذَا الْجَوِّ يَقْعُدُ عَلَى بَيْضِهِ فَيَحْضُنُهُ أُسْبُوعاً، وَبَعْضُهَا أُسْبُوعَيْنِ، وَبَعْضُهَا ثَلَاثَةَ أَسَابِيعَ، حَتَّى يَخْرُجَ الْفَرْخُ مِنَ الْبَيْضَةِ، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَيْهِ فَيَزُقُّهُ الرِّيحَ لِتَتَّسِعَ حَوْصَلَتُهُ لِلْغِذَاءِ، ثُمَّ يُرَبِّيهِ وَيُغَذِّيهِ بِمَا يَعِيشُ بِهِ.

فَمَنْ كَلَّفَهُ أَنْ يَلْقُطَ الطُّعْمَ وَالْحَبَّ يَسْتَخْرِجُهُ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي حَوْصَلَتِهِ وَيَغْذُو بِهِ فِرَاخَهُ؟ وَلِأَيِّ مَعْنًى يَحْتَمِلُ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ وَلَيْسَ بِذِي رَوِيَّةٍ وَلَا تَفَكُّرٍ؟ وَلَا يَأْمُلُ فِي

---

(١) الجؤجؤ من الطائر والسفينة: الصدر والجمع جآجئ

(٢) يقلّه: يحمله ويرفعه.

(٣) ينسحج: أي ينتشر.

(٤) يتقصّف: أي يتكسّر.

(٥) الغريض: كلّ أبيض طري.

(٦) عجم العنب: ما كان في جوف العنب من النوى الصغير.

فِرَاخِهِ مَا يُؤَمِّلُ الْإِنْسَانُ فِي وَلَدِهِ مِنَ الْعِزِّ وَالرِّفْدِ[1]، وَبَقَاءِ الذِّكْرِ، فَهَذَا مِنْ فِعْلِهِ يَشْهَدُ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى فِرَاخِهِ لَعَلَّهُ لَا يَعْرِفُهَا وَلَا يُفَكِّرُ فِيهَا وَهِيَ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ لُطْفاً مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ.

الدجاجة وحضن البيض

انْظُرْ إِلَى الدَّجَاجَةِ كَيْفَ تُهَيَّجُ لِحِضْنِ الْبَيْضِ وَالتَّفْرِيخِ، وَلَيْسَ لَهَا بَيْضٌ مُجْتَمِعٌ، وَلَا وَكْرٌ مُوَطَّأٌ، بَلْ تَنْبَعِثُ وَتَنْتَفِخُ وَتَقْوَى[2] وَتَمْتَنِعُ مِنَ الطُّعْمِ حَتَّى يُجْمَعَ لَهَا الْبَيْضُ فَتَحْضُنُهُ وَتُفَرِّخُ، فَلِمَ كَانَ ذَلِكَ مِنْهَا إِلَّا لِإِقَامَةِ النَّسْلِ؟ وَمَنْ أَخَذَهَا بِإِقَامَةِ النَّسْلِ وَلَا رَوِيَّةَ لَهَا وَلَا تَفْكِيرَ لَوْلَا أَنَّهَا مَجْبُولَةٌ عَلَى ذَلِكَ؟!

خلق البيضة

اعْتَبِرْ بِخَلْقِ الْبَيْضَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمُحِ[3] الْأَصْفَرِ الْخَاثِرِ[4]، وَالْمَاءِ الْأَبْيَضِ الرَّقِيقِ، فَبَعْضُهُ يَنْشُو مِنْهُ الْفَرْخُ، وَبَعْضُهُ لِيَغْتَذِيَ بِهِ إِلَى أَنْ تَنْقَابَ عَنْهُ الْبَيْضَةُ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ نُشُوءُ الْفَرْخِ فِي تِلْكَ الْقِشْرَةِ الْمُسْتَحْفَظَةِ[5] الَّتِي لَا مَسَاغَ لِشَيْءٍ إِلَيْهَا جُعِلَ مَعَهُ فِي جَوْفِهَا مِنَ الْغِذَاءِ مَا يَكْتَفِي بِهِ إِلَى وَقْتِ خُرُوجِهِ مِنْهَا كَمَنْ يُحْبَسُ فِي حَبْسٍ حَصِينٍ لَا يُوصَلُ إِلَى مَنْ فِيهِ فَيُجْعَلُ مَعَهُ مِنَ الْقُوتِ مَا يَكْتَفِي بِهِ إِلَى وَقْتِ خُرُوجِهِ مِنْهُ.

حوصلة الطائر

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي حَوْصَلَةِ الطَّائِرِ وَمَا قُدِّرَ لَهُ؛ فَإِنَّ مَسْلَكَ الطُّعْمِ إِلَى الْقَانِصَةِ[6] ضَيِّقٌ لَا يَنْفُذُ فِيهِ الطَّعَامُ إِلَّا قَلِيلًا قَلِيلًا، فَلَوْ كَانَ الطَّائِرُ لَا يَلْقُطُ حَبَّةً ثَانِيَةً حَتَّى تَصِلَ

(١) الرفد- بالكسر- المعونة والعطاء والجمع أرفاد ورفود.

(٢) تقوى من القوى أي الجوع فكأن الدجاجة تبيت جائعة.

(٣) المح- بالضم- صفرة البيض، وفي بعض النسخ بالخاء المعجمة أي مخ.

(٤) خثر اللبن: ثخن واشتد فهو خاثر.

(٥) المستحفظة من استحفظه السر أو المال: سأله أن يحفظه.

(٦) القانصة للطير كالمعدة للإنسان جمعها قوانص.

الْأُولَى إِلَى الْقَانِصَةِ لَطَالَ عَلَيْهِ، وَمَتَى كَانَ يَسْتَوْفِي طُعْمَهُ فَإِنَّمَا يَخْتَلِسُهُ اخْتِلَاساً لِشِدَّةِ الْحَذَرِ، فَجُعِلَتْ لَهُ الْحَوْصَلَةُ كَالْمِخْلَاةِ[1] الْمُعَلَّقَةِ أَمَامَهُ لِيُوعِيَ فِيهَا مَا أَدْرَكَ مِنَ الطُّعْمِ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ تُنْفِذُهُ إِلَى الْقَانِصَةِ عَلَى مَهْلٍ، وَفِي الْحَوْصَلَةِ أَيْضاً خُلَّةٌ أُخْرَى فَإِنَّ مِنَ الطَّائِرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَزُقَّ فِرَاخَهُ فَيَكُونُ رَدُّهُ لِلطُّعْمِ مِنْ قُرْبٍ أَسْهَلَ عَلَيْهِ.

اختلاف ألوان الطير

قَالَ الْمُفَضَّلُ فَقُلْتُ: إِنَّ قَوْماً مِنَ الْمُعَطِّلَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ فِي الطَّيْرِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ امْتِزَاجِ الْأَخْلَاطِ وَاخْتِلَافِ مَقَادِيرِهَا بِالْمَرَجِ[2] وَالْإِهْمَالِ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ هَذَا الْوَشْيُ الَّذِي تَرَاهُ فِي الطَّوَاوِيسِ وَالدُّرَّاجِ[3]، وَالتَّدَارُجِ عَلَى اسْتِوَاءٍ وَمُقَابَلَةٍ كَنَحْوِ مَا يُخَطُّ بِالْأَقْلَامِ كَيْفَ يَأْتِي بِهِ الِامْتِزَاجُ الْمُهْمَلُ عَلَى شَكْلٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ؟ وَلَوْ كَانَ بِالْإِهْمَالِ لَعَدِمَ الِاسْتِوَاءِ لَكَانَ مُخْتَلِفاً.

ريش الطائر ووصفه

تَأَمَّلْ رِيشَ الطَّيْرِ كَيْفَ هُوَ فَإِنَّكَ تَرَاهُ مَنْسُوجاً كَنَسْجِ الثَّوْبِ مِنْ سُلُوكٍ[4] دِقَاقٍ، قَدْ أُلِّفَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ كَتَأْلِيفِ الْخَيْطِ إِلَى الْخَيْطِ، وَالشَّعْرَةِ إِلَى الشَّعْرَةِ، ثُمَّ تَرَى ذَلِكَ النَّسْجَ إِذَا مَدَدْتَهُ يَنْفَتِحُ قَلِيلًا وَلَا يَنْشَقُّ لِتُدَاخِلَهُ الرِّيحُ فَيَقِلَّ الطَّائِرُ إِذَا طَارَ، وَتَرَى فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ عَمُوداً غَلِيظاً مَتِيناً قَدْ نُسِجَ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الشَّعْرِ لِيُمْسِكَهُ بِصَلَابَتِهِ، وَهُوَ الْقَصَبَةُ الَّتِي فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَجْوَفُ لِيَخِفَّ عَلَى الطَّائِرِ، وَلَا يَعُوقَهُ عَنِ الطَّيَرَانِ.

الطائر الطويل الساقين

هَلْ رَأَيْتَ يَا مُفَضَّلُ هَذَا الطَّائِرَ الطَّوِيلَ السَّاقَيْنِ وَعَرَفْتَ مَا لَهُ مِنَ الْمَنْفَعَةِ فِي

---

(١) المخلاة: ما يجعل فيه العلف ويعلق في عنق الدابّة والجمع مخال.

(٢) المرج: الاضطراب واللبس والفساد والاختلاط.

(٣) الدراج طائر تقدم ذكره.

(٤) السلوك جمع سلك وهو الخيط ينظم فيه الخرز ونحوه.

طُولِ سَاقَيْهِ؟ فَإِنَّهُ أَكْثَرُ ذَلِكَ فِي ضَحْضَاحٍ[1] مِنَ الْمَاءِ فَتَرَاهُ بِسَاقَيْنِ طَوِيلَيْنِ كَأَنَّهُ رَبِيئَةٌ[2] فَوْقَ مَرْقَبٍ[3]، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ مَا يَدِبُّ فِي الْمَاءِ، فَإِذَا رَأَى شَيْئاً مِمَّا يَتَقَوَّتُ بِهِ خَطَا خُطُوَاتٍ رَقِيقاً حَتَّى يَتَنَاوَلَهُ، وَلَوْ كَانَ قَصِيرَ السَّاقَيْنِ وَكَانَ يَخْطُو نَحْوَ الصَّيْدِ لِيَأْخُذَهُ يُصِيبُ بَطْنُهُ الْمَاءَ فَيَثُورُ وَيُذْعَرُ مِنْهُ فَيُفَرَّقُ عَنْهُ، فَخُلِقَ لَهُ ذَلِكَ الْعَمُودَانِ لِيُدْرِكَ بِهِمَا حَاجَتَهُ، وَلَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ مَطْلَبُهُ، تَأَمَّلْ ضُرُوبَ التَّدْبِيرِ فِي خَلْقِ الطَّائِرِ؛ فَإِنَّكَ تَجِدُ كُلَّ طَائِرٍ طَوِيلِ السَّاقَيْنِ طَوِيلَ الْعُنُقِ، وَذَلِكَ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ تَنَاوُلِ طُعْمِهِ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ طَوِيلَ السَّاقَيْنِ قَصِيرَ الْعُنُقِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا أُعِينَ مَعَ الْعُنُقِ بِطُولِ الْمَنَاقِيرِ لِيَزْدَادَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ سُهُولَةً وَإِمْكَاناً، أَفَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تُفَتِّشُ شَيْئاً مِنَ الْخِلْقَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ؟

العصافير وطلبها للأكل

انْظُرْ إِلَى الْعَصَافِيرِ كَيْفَ تَطْلُبُ أُكُلَهَا بِالنَّهَارِ، فَهِيَ لَا تَفْقِدُهُ وَلَا تَجِدُهُ مَجْمُوعاً مُعَدّاً بَلْ تَنَالُهُ بِالْحَرَكَةِ وَالطَّلَبِ، وَكَذَلِكَ الْخَلْقُ كُلُّهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ قَدَّرَ الرِّزْقَ كَيْفَ فَرَّقَهُ فَلَمْ يُجْعَلْ مِمَّا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ إِذْ جَعَلَ بِالْخَلْقِ حَاجَةً إِلَيْهِ، وَلَمْ يُجْعَلْ مَبْذُولاً يُنَالُ بِالْهُوَيْنَا[4] إِذْ كَانَ لَا صَلَاحَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ يُوجَدُ مَجْمُوعاً مُعَدّاً كَانَتِ الْبَهَائِمُ تَنْقَلِبُ عَلَيْهِ، وَلَا تَنْقَلِعُ عَنْهُ، حَتَّى تَبْشَمَ[5] فَتَهْلِكَ، وَكَانَ النَّاسُ أَيْضاً يَصِيرُونَ بِالْفَرَاغِ إِلَى غَايَةِ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ حَتَّى يَكْثُرَ الْفَسَادُ وَتَظْهَرَ الْفَوَاحِشُ.

معاش البوم والهام والخفاش

أَعَلِمْتَ مَا طُعْمُ هَذِهِ الْأَصْنَافِ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِاللَّيْلِ كَمِثْلِ الْبُومِ

---

(١) الضحضاح: الماء اليسير أو القريب القعر.

(٢) الربيئة: العين التي ترقب، أو الطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو.

(٣) المرقب: الموضع المرتفع يعلوه الرقيب جمعه مراقب.

(٤) الهوينا: التؤدة والرفق، وهي تصغير الهوني، والهونى تأنيث الأهون.

(٥) تبشم أي تتخم من الطعام.

وَالْهَامِ[1] وَالْخُفَّاشِ؟

قُلْتُ: لَا يَا مَوْلَايَ.

قَالَ عليه السلام: إِنَّ مَعَاشَهَا مِنْ ضُرُوبٍ تَنْتَشِرُ فِي الْجَوِّ مِنَ الْبَعُوضِ وَالْفَرَاشِ وَأَشْبَاهِ الْجَرَادِ وَالْيَعَاسِيبِ[2]، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الضُّرُوبَ مَبْثُوثَةٌ فِي الْجَوِّ لَا يَخْلُو مِنْهَا مَوْضِعٌ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ سِرَاجاً بِاللَّيْلِ فِي سَطْحٍ أَوْ عَرْصَةِ دَارٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الضُّرُوبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنَ الْقُرْبِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَأْتِي مِنَ الصَّحَارِي وَالْبَرَارِي، قِيلَ لَهُ: كَيْفَ يُوَافِي تِلْكَ السَّاعَةَ مِنْ مَوْضِعٍ بَعِيدٍ؟ وَكَيْفَ يُبْصِرُ مِنْ ذَلِكَ الْبُعْدِ سِرَاجاً فِي دَارٍ مَحْفُوفَةٍ بِالدُّورِ فَيَقْصِدُ إِلَيْهِ؟ مَعَ أَنَّ هَذِهِ عِيَاناً تَتَهَافَتُ عَلَى السِّرَاجِ مِنْ قُرْبٍ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا مُنْتَشِرَةٌ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَوِّ، فَهَذِهِ الْأَصْنَافُ مِنَ الطَّيْرِ تَلْتَمِسُهَا إِذَا خَرَجَتْ فَتَتَقَوَّتُ بِهَا، فَانْظُرْ كَيْفَ وُجِّهَ الرِّزْقُ لِهَذِهِ الطُّيُورِ الَّتِي لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِاللَّيْلِ مِنْ هَذِهِ الضُّرُوبِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَوِّ، وَاعْرِفْ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي خَلْقِ هَذِهِ الضُّرُوبِ الْمُنْتَشِرَةِ الَّتِي عَسَى أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّهَا فَضْلٌ لَا مَعْنَى لَهُ.

خلقة الخفاش

خُلِقَ الْخُفَّاشُ خِلْقَةً عَجِيبَةً بَيْنَ خِلْقَةِ الطَّيْرِ وَذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، هُوَ إِلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ أَقْرَبُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذُو أُذُنَيْنِ نَاشِزَتَيْنِ[3]، وَأَسْنَانٍ وَوَبَرٍ، وَهُوَ يَلِدُ وِلَاداً، وَيَرْضِعُ وَيَبُولُ، وَيَمْشِي إِذَا مَشَى عَلَى أَرْبَعٍ، وَكُلُّ هَذَا خِلَافُ صِفَةِ الطَّيْرِ، ثُمَّ هُوَ أَيْضاً مِمَّا يَخْرُجُ بِاللَّيْلِ، وَيَتَقَوَّتُ بِمَا يَسْرِي[4] فِي الْجَوِّ مِنَ الْفَرَاشِ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَقَدْ قَالَ قَائِلُونَ: إِنَّهُ لَا طُعْمَ لِلْخُفَّاشِ، وَإِنَّ غِذَاءَهُ مِنَ النَّسِيمِ وَحْدَهُ. وَذَلِكَ يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

---

(١) الهام جمع هامة: نوع من البوم الصغير تألف القبور والاماكن الخربة.

(٢) اليعاسيب جمع يعسوب وهو ذكر النحل وأميرها.

(٣) الناشز: ما كان ناتئا مرتفعا عن مكانه.. وفي نسخة ناشر بالراء أي مبسوط.

(٤) يسرى: يسير في الليل.

أَحَدُهُمَا خُرُوجُ الثُّفْلِ[1] وَالْبَوْلِ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذَا لاَ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ طُعْمٍ، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ ذُو أَسْنَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَا يَطْعَمُ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ لِلْأَسْنَانِ فِيهِ مَعْنًى، وَلَيْسَ فِي الْخِلْقَةِ شَيْءٌ لَا مَعْنَى لَهُ، وَأَمَّا الْمَآرِبُ فِيهِ فَمَعْرُوفَةٌ حَتَّى أَنَّ زِبْلَهُ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْإِرْبِ فِيهِ خِلْقَتُهُ الْعَجِيبَةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَصَرُّفِهَا فِيمَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ لِضَرْبٍ مِنَ الْمَصْلَحَةِ.

حيلة الطائر ابن تمرة بالحسكة ومنفعتها

فَأَمَّا الطَّائِرُ الصَّغِيرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ ابْنُ تُمَّرَةَ[2] فَقَدْ عَشَّشَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ فِي بَعْضِ الشَّجَرِ فَنَظَرَ إِلَى حَيَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ نَحْوَ عُشِّهِ فَاغِرَةً فَاهَا تَبْغِيهِ لِتَبْتَلِعَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتَقَلَّبُ وَيَضْطَرِبُ فِي طَلَبِ حِيلَةٍ مِنْهَا إِذْ وَجَدَ حَسَكَةً فَحَمَلَهَا، فَأَلْقَاهَا فِي فَمِ الْحَيَّةِ فَلَمْ تَزَلِ الْحَيَّةُ تَلْتَوِي وَتَتَقَلَّبُ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ أُخْبِرْكَ بِذَلِكَ كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَوْ بِبَالِ غَيْرِكَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ حَسَكَةٍ مِثْلُ هَذِهِ الْمَنْفَعَةِ؟ أَوْ يَكُونُ مِنْ طَائِرٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ مِثْلُ هَذِهِ الْحِيلَةِ؟ اعْتَبِرْ بِهَذَا وَكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ فِيهَا مَنَافِعُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِحَادِثٍ يَحْدُثُ أَوْ خَبَرٍ يُسْمَعُ بِهِ.

النحل عسله وبيوته

انْظُرْ إِلَى النَّحْلِ وَاحْتِشَادِهِ فِي صَنْعَةِ الْعَسَلِ، وَتَهْيِئَةِ الْبُيُوتِ الْمُسَدَّسَةِ، وَمَا تَرَى فِي ذَلِكَ مِنْ دَقَائِقِ الْفِطْنَةِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَمَلَ رَأَيْتَهُ عَجِيباً لَطِيفاً، وَإِذَا رَأَيْتَ الْمَعْمُولَ وَجَدْتَهُ عَظِيماً شَرِيفاً مَوْقِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْفَاعِلِ أَلْفَيْتَهُ غَبِيّاً جَاهِلاً بِنَفْسِهِ فَضْلاً عَمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَفِي هَذَا أَوْضَحُ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الصَّوَابَ وَالْحِكْمَةَ فِي هَذِهِ الصَّنْعَةِ لَيْسَ لِلنَّحْلِ بَلْ هِيَ لِلَّذِي طَبَعَهُ عَلَيْهَا، وَسَخَّرَهُ فِيهَا لِمَصْلَحَةِ النَّاسِ.

---

(١) الثفل - بالضم - الكدرة المستقرة في أسفل الشيء.

(٢) تمرة أو ابن تمرة طائر أصغر من العصفور.

الجراد وبلاؤه

انْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَرَادِ مَا أَضْعَفَهُ وَأَقْوَاهُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ خَلْقَهُ رَأَيْتَهُ كَأَضْعَفِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ دَلَفَتْ[١] عَسَاكِرُهُ نَحْوَ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَحْمِيَهُ مِنْهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ لَوْ جَمَعَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ[٢] لِيَحْمِيَ بِلَادَهُ مِنَ الْجَرَادِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، أَفَلَيْسَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ أَنْ يَبْعَثَ أَضْعَفَ خَلْقِهِ إِلَى أَقْوَى خَلْقِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ؟

انْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ يَنْسَابُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَ السَّيْلِ، فَيَغْشَى السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، وَالْبَدْوَ وَالْحَضَرَ، حَتَّى يَسْتُرَ نُورَ الشَّمْسِ بِكَثْرَتِهِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْأَيْدِي مَتَى كَانَ تَجْتَمِعُ مِنْهُ هَذِهِ الْكَثْرَةُ، وَفِي كَمْ سَنَةٍ كَانَ يَرْتَفِعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى الْقُدْرَةِ الَّتِي لَا يَئُودُهَا شَيْءٌ وَلَا يُكْثِرُ عَلَيْهَا.

وصف السمك

تَأَمَّلْ خَلْقَ السَّمَكِ وَمُشَاكَلَتَهُ لِلْأَمْرِ الَّذِي قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خُلِقَ غَيْرَ ذِي قَوَائِمَ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَشْيِ إِذْ كَانَ مَسْكَنُهُ الْمَاءَ، وَخُلِقَ غَيْرَ ذِي رِيَةٍ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَنَفَّسَ وَهُوَ مُنْغَمِسٌ فِي اللُّجَّةِ، وَجُعِلَتْ لَهُ مَكَانَ الْقَوَائِمِ أَجْنِحَةٌ شِدَادٌ يَضْرِبُ بِهَا فِي جَانِبَيْهِ كَمَا يَضْرِبُ الْمَلَّاحُ بِالْمَجَاذِيفِ مِنْ جَانِبَيِ السَّفِينَةِ، وَكَسَا جِسْمَهُ قُشُوراً مِتَاناً مُتَدَاخِلَةً كَتَدَاخُلِ الدُّرُوعِ وَالْجَوَاشِنِ[٣] لِتَقِيَهُ مِنَ الْآفَاتِ، فَأُعِينَ بِفَضْلِ حِسٍّ فِي الشَّمِّ لِأَنَّ بَصَرَهُ ضَعِيفٌ وَالْمَاءُ يَحْجُبُهُ فَصَارَ يَشَمُّ الطُّعْمَ مِنَ الْبُعْدِ الْبَعِيدِ فَيَنْتَجِعُهُ[٤] فَيَتَّبِعُهُ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَعْلَمُ بِهِ وَبِمَوْضِعِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ فِيهِ إِلَى صِمَاخِهِ[٥] مَنَافِذَ فَهُوَ يَعُبُّ الْمَاءَ بِفِيهِ، وَيُرْسِلُهُ مِنْ صِمَاخَيْهِ، فَيَتَرَوَّحُ إِلَى ذَلِكَ كَمَا

---

(١) دلف دلفاً ودلفاناً: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه.

(٢) الرجل - بالفتح - جمع راجل وهو من يمشي على رجليه لا راكباً.

(٣) الجواشن جمع جوشن وهو الدرع او الصدر.

(٤) ينتجع: يطلب الكلاء في موضعه.

(٥) الصماخ - بالكسر - خرق الأذن الباطن الماضي الى الرأس، والجمع صمخ وأصمخة.

يَتَرَوَّحُ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَى تَنَسُّمِ هَذَا النَّسِيمِ.

فَكِّرِ الْآنَ فِي كَثْرَةِ نَسْلِهِ وَمَا خُصَّ بِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّكَ تَرَى فِي جَوْفِ السَّمَكَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْبَيْضِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَتَّسِعَ لِمَا يَغْتَذِي بِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا يَأْكُلُ السَّمَكَ، حَتَّى إِنَّ السِّبَاعَ أَيْضاً فِي حَافَاتِ الْآجَامِ[1] عَاكِفَةٌ عَلَى الْمَاءِ أَيْضاً كَيْ تُرْصِدَ السَّمَكَ فَإِذَا مَرَّ بِهَا خَطِفَتْهُ، فَلَمَّا كَانَتِ السِّبَاعُ تَأْكُلُ السَّمَكَ، وَالطَّيْرُ يَأْكُلُ السَّمَكَ، وَالنَّاسُ يَأْكُلُونَ السَّمَكَ، وَالسَّمَكُ يَأْكُلُ السَّمَكَ، كَانَ مِنَ التَّدْبِيرِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ.

سعة حكمة الخالق

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ سَعَةَ حِكْمَةِ الْخَالِقِ وَقِصَرَ عِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ فَانْظُرْ إِلَى مَا فِي الْبِحَارِ مِنْ ضُرُوبِ السَّمَكِ، وَدَوَابِّ الْمَاءِ وَالْأَصْدَافِ، وَالْأَصْنَافِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعْرَفُ مَنَافِعُهَا إِلَّا الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ يُدْرِكُهُ النَّاسُ بِأَسْبَابٍ تُحْدَثُ مِثْلُ الْقِرْمِزِ[2]، فَإِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ النَّاسُ صِبْغَهُ بِأَنَّ كَلْبَةً تَجُولُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَوَجَدَتْ شَيْئاً مِنَ الصِّنْفِ الَّذِي يُسَمَّى الْحَلَزُونَ[3] فَأَكَلَتْهُ، فَاخْتَضَبَ خَطْمُهَا[4] بِدَمِهِ، فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى حُسْنِهِ فَاتَّخَذُوهُ صِبْغاً، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِمَّا يَقِفُ النَّاسُ عَلَيْهِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ، وَزَمَاناً بَعْدَ زَمَانٍ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: وَحَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ، فَقَامَ مَوْلَايَ عليه السلام إِلَى الصَّلَاةِ ،وَقَالَ عليه السلام: بَكِّرْ إِلَيَّ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. فَانْصَرَفْتُ وَقَدْ تَضَاعَفَ سُرُورِي بِمَا عَرَّفَنِيهِ، مُبْتَهِجاً بِمَا مَنَحَنِيهِ، حَامِداً للهِ عَلَى مَا آتَانِيهِ، فَبِتُّ لَيْلَتِي مَسْرُوراً مُبْتَهِجاً.

---

(١) الآجام جمع الجمع للأجمة: الشجر الكثير الملتف.

(٢) القرمز صبغ أحمر.

(٣) الحلزون: دويبة تكون في صدف وهي المعروفة بالبزّاق.

(٤) الخطم مقدم أنف الدابّة وفمها.

المجلس الثالث

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ بَكَّرْتُ إِلَى مَوْلَايَ، فَاسْتُؤْذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَأَذِنَ لِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ عليه السلام:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي اصْطَفَانَا، وَلَمْ يَصْطَفِ عَلَيْنَا، اصْطَفَانَا بِعِلْمِهِ، وَأَيَّدَنَا بِحِلْمِهِ، مَنْ شَذَّ عَنَّا فَالنَّارُ مَأْوَاهُ، وَمَنْ تَفَيَّأَ بِظِلِّ دَوْحَتِنَا فَالْجَنَّةُ مَثْوَاهُ.

قَدْ شَرَحْتُ لَكَ يَا مُفَضَّلُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، وَمَا دُبِّرَ بِهِ، وَتَنَقُّلَهُ فِي أَحْوَالِهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الِاعْتِبَارِ، وَشَرَحْتُ لَكَ أَمْرَ الْحَيَوَانِ، وَأَنَا أَبْتَدِئُ الْآنَ بِذِكْرِ السَّمَاءِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْفَلَكِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيَاحِ وَالْجَوَاهِرِ الْأَرْبَعَةِ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّارِ وَالْمَطَرِ وَالصَّخْرِ وَالْجِبَالِ وَالطِّينِ وَالْحِجَارَةِ وَالنَّخْلِ وَالشَّجَرِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالْعِبَرِ.

لون السماء

فَكِّرْ فِي لَوْنِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ؛ فَإِنَّ هَذَا اللَّوْنَ أَشَدُّ الْأَلْوَانِ مُوَافَقَةً وَتَقْوِيَةً لِلْبَصَرِ، حَتَّى إِنَّ مِنْ صِفَاتِ الْأَطِبَّاءِ لِمَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ أَضَرَّ بِبَصَرِهِ إِدْمَانَ النَّظَرِ إِلَى الْخُضْرَةِ وَمَا قَرُبَ مِنْهَا إِلَى السَّوَادِ، وَقَدْ وَصَفَ الْحُذَّاقُ مِنْهُمْ لِمَنْ كَلَّ بَصَرُهُ الِاطِّلَاعَ فِي إِجَّانَةٍ[1] خَضْرَاءَ مَمْلُوءَةٍ مَاءً، فَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ اللهُ جَلَّ وَتَعَالَى أَدِيمَ السَّمَاءِ بِهَذَا اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ إِلَى السَّوَادِ لِيُمْسِكَ الْأَبْصَارَ الْمُتَقَلِّبَةَ عَلَيْهِ فَلَا يَنْكَأُ فِيهَا بِطُولِ مُبَاشَرَتِهَا لَهُ، فَصَارَ هَذَا الَّذِي أَدْرَكَهُ النَّاسُ بِالْفِكْرِ وَالرَّوِيَّةِ وَالتَّجَارِبِ يُوجَدُ

(١) الإجانة- بكسر فتشديد- إناء تغسل فيه الثياب والجمع أجاجين

مَفْرُوغاً مِنْهُ فِي الْخِلْقَةِ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ لِيَعْتَبِرَ بِهَا الْمُعْتَبِرُونَ، وَيُفَكِّرَ فِيهَا الْمُلْحِدُونَ ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

طلوع الشمس وغروبها

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا لإِقَامَةِ دَوْلَتَيِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ؛ فَلَوْ لَا طُلُوعُهَا لَبَطَلَ أَمْرُ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ يَسْعَوْنَ فِي مَعَايِشِهِمْ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي أُمُورِهِمْ، وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا يَتَهَنَّوْنَ بِالعَيْشِ مَعَ فَقْدِهِمْ لَذَّةَ النُّورِ وَرَوْحَهُ، وَالإِرْبُ فِي طُلُوعِهَا ظَاهِرٌ مُسْتَغْنٍ بِظُهُورِهِ عَنِ الإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ وَالزِّيَادَةِ فِي شَرْحِهِ، بَلْ تَأَمَّلِ الْمَنْفَعَةَ فِي غُرُوبِهَا؛ فَلَوْلَا غُرُوبُهَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ هُدُوءٌ وَلَا قَرَارٌ، مَعَ عِظَمِ حَاجَتِهِمْ إِلَى الْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ لِسُكُونِ أَبْدَانِهِمْ، وَجُمُومِ حَوَاسِّهِمْ[2]، وَانْبِعَاثِ الْقُوَّةِ الْهَاضِمَةِ لِهَضْمِ الطَّعَامِ، وَتَنْفِيذِ الْغِذَاءِ إِلَى الأَعْضَاءِ، ثُمَّ كَانَ الْحِرْصُ يَسْتَحْمِلُهُمْ مِنْ مُدَاوَمَةِ الْعَمَلِ وَمُطَاوَلَتِهِ عَلَى مَا يَعْظُمُ نِكَايَتُهُ فِي أَبْدَانِهِمْ، فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَوْلَا جُثُومُ[3] هَذَا اللَّيْلِ بِظُلْمَتِهِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هُدُوءٌ وَلَا قَرَارٌ حِرْصاً عَلَى الْكَسْبِ وَالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ، ثُمَّ كَانَتِ الأَرْضُ تَسْتَحْمِي بِدَوَامِ الشَّمْسِ بِضِيَائِهَا، وَيُحْمَى كُلُّ مَا عَلَيْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ، فَقَدَّرَهَا اللهُ بِحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، تَطْلُعُ وَقْتاً وَتَغْرُبُ وَقْتاً، بِمَنْزِلَةِ سِرَاجٍ يُرْفَعُ لأَهْلِ الْبَيْتِ تَارَةً لِيَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ، ثُمَّ يَغِيبُ عَنْهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ لِيَهْدَؤُوا وَيَقِرُّوا، فَصَارَ النُّورُ وَالظُّلْمَةُ مَعَ تَضَادِّهِمَا مُنْقَادَيْنِ مُتَظَاهِرَيْنِ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَالَمِ وَقِوَامُهُ.

الفصول الأربعة من السنة

ثُمَّ فَكِّرْ بَعْدَ هَذَا فِي ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ وَانْحِطَاطِهَا لإِقَامَةِ هَذِهِ الأَزْمِنَةِ الأَرْبَعَةِ مِنَ السَّنَةِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ فَفِي الشِّتَاءِ تَعُودُ الْحَرَارَةُ فِي الشَّجَرِ

(١) سورة التوبة: ٣٠.

(٢) الجموم مصدر جمّ تقول جمّ القوم: استراحوا وكثروا.

(٣) الجثوم مصدر من قولهم جثم الليل أي انتصف.

وَالنَّبَاتِ فَيَتَوَلَّدُ فِيهِمَا مَوَادُّ الثِّمَارِ، وَيَتَكَثَّفُ[1] الْهَوَاءُ فَيَنْشَأُ مِنْهُ السَّحَابُ وَالْمَطَرُ، وَتَشْتَدُّ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ وَتَقْوَى، وَفِي الرَّبِيعِ تَتَحَرَّكُ وَتَظْهَرُ الْمَوَادُّ الْمُتَوَلِّدَةُ فِي الشِّتَاءِ، فَيَطْلُعُ النَّبَاتُ، وَتَنَوَّرُ[2] الْأَشْجَارُ، وَيَهِيجُ الْحَيَوَانُ لِلسِّفَادِ، وَفِي الصَّيْفِ يَحْتَدِمُ الْهَوَاءُ فَتَنْضَجُ الثِّمَارُ، وَتَتَحَلَّلُ فُضُولُ الْأَبْدَانِ، وَيَجِفُّ وَجْهُ الْأَرْضِ، فَتَهَيَّأُ لِلْبِنَاءِ وَالْأَعْمَالِ، وَفِي الْخَرِيفِ يَصْفُو الْهَوَاءُ، وَتَرْتَفِعُ الْأَمْرَاضُ، وَتَصِحُّ الْأَبْدَانُ، وَيَمْتَدُّ اللَّيْلُ، فَيُمْكِنُ فِيهِ بَعْضُ الْأَعْمَالِ لِطُولِهِ، وَيَطِيبُ الْهَوَاءُ فِيهِ إِلَى مَصَالِحَ أُخْرَى لَوْ تَقَصَّيْتُ لِذِكْرِهَا لَطَالَ فِيهَا الْكَلَامُ.

حركة الشمس

فَكِّرِ الْآنَ فِي تَنَقُّلِ الشَّمْسِ فِي الْبُرُوجِ الِاثْنَيْ عَشَرَ[3] لِإِقَامَةِ دَوْرِ السَّنَةِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَهُوَ الدَّوْرُ الَّذِي تَصِحُّ بِهِ الْأَزْمِنَةُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ السَّنَةِ الشِّتَاءُ وَالرَّبِيعُ وَالصَّيْفُ وَالْخَرِيفُ تَسْتَوْفِيهَا عَلَى التَّمَامِ، وَفِي هَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ دَوَرَانِ الشَّمْسِ تُدْرِكُ الْغَلَّاتُ وَالثِّمَارُ، وَتَنْتَهِي إِلَى غَايَاتِهِمْ، ثُمَّ تَعُودُ فَيَسْتَأْنِفُ النُّشُوَّ وَالنُّمُوَّ، أَلَا تَرَى أَنَّ السَّنَةَ مِقْدَارُ مَسِيرِ الشَّمْسِ مِنَ الْحَمَلِ إِلَى الْحَمَلِ، فَبِالسَّنَةِ وَأَخَوَاتِهَا يُكَالُ الزَّمَانُ مِنْ لَدُنْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْعَالَمَ إِلَى كُلِّ وَقْتٍ وَعَصْرٍ مِنْ غَابِرِ الْأَيَّامِ، وَبِهَا يَحْسُبُ النَّاسُ الْأَعْمَارَ، وَالْأَوْقَاتَ الْمُوَقَّتَةَ لِلدُّيُونِ، وَالْإِجَارَاتِ، وَالْمُعَامَلَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَبِمَسِيرِ الشَّمْسِ تَكْمُلُ السَّنَةُ، وَيَقُومُ حِسَابُ الزَّمَانِ عَلَى الصِّحَّةِ.

انْظُرْ إِلَى شُرُوقِهَا عَلَى الْعَالَمِ كَيْفَ دُبِّرَ أَنْ يَكُونَ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ تَبْزُغُ فِي مَوْضِعٍ مِنَ السَّمَاءِ فَتَقِفُ لَا تَعْدُوهُ لَمَا وَصَلَ شُعَاعُهَا وَمَنْفَعَتُهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْجِهَاتِ، لِأَنَّ الْجِبَالَ وَالْجُدْرَانَ كَانَتْ تَحْجُبُهَا عَنْهَا، فَجُعِلَتْ تَطْلُعُ أَوَّلَ النَّهَارِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَتَشْرُقُ عَلَى مَا قَابَلَهَا مِنْ وَجْهِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ لَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَغْشَى جِهَةً بَعْدَ جِهَةٍ حَتَّى

---

(١) يتكثّف الهواء: أي يغلظ ويكثر.

(٢) تنوّر الأشجار أي تخرج نَوْرها أي زهرها أو الأبيض منه.

(٣) بروج السماء الاثنا عشر هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَشْرُقَ عَلَى مَا اسْتَتَرَعَنْهَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، فَلَا يَبْقَى مَوْضِعٌ مِنَ الْمَوَاضِعِ إِلَّا أَخَذَ بِقِسْطِهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ مِنْهَا، وَالْإِرْبِ الَّتِي قُدِّرَتْ لَهُ، وَلَوْ تَخَلَّفَتْ مِقْدَارَ عَامٍ، أَوْ بَعْضَ عَامٍ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ حَالُهُمْ، بَلْ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ بَقَاءٌ.

أَفَلَا تَرَى كَيْفَ كَانَ يَكُونُ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْأُمُورُ الْجَلِيلَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ فِيهَا حِيلَةٌ فَصَارَتْ تَجْرِي عَلَى مَجَارِيهَا لَا تَفْتَلُ[1] وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْ مَوَاقِيتِهَا لِصَلَاحِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بَقَاؤُهُ.

القمر ومعرفة الشهور

اسْتَدِلَّ بِالْقَمَرِ؛ فَفِيهِ دَلَالَةٌ جَلِيلَةٌ تَسْتَعْمِلُهَا الْعَامَّةُ فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ، وَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ حِسَابُ السَّنَةِ، لِأَنَّ دَوْرَهُ لَا يَسْتَوْفِي الْأَزْمِنَةَ الْأَرْبَعَةَ، وَنُشُوَّ الثِّمَارِ وَتَصَرُّمَهَا، وَلِذَلِكَ صَارَتْ شُهُورُ الْقَمَرِ وَسِنُوهُ تَتَخَلَّفُ عَنْ شُهُورِ الشَّمْسِ وَسِنِيهَا، وَصَارَ الشَّهْرُ مِنْ شُهُورِ الْقَمَرِ يَنْتَقِلُ فَيَكُونُ مَرَّةً بِالشِّتَاءِ وَمَرَّةً بِالصَّيْفِ.

ضوء القمر

فَكِّرْ فِي إِنَارَتِهِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَالْإِرْبِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الْحَاجَةِ إِلَى الظُّلْمَةِ لِهُدُوءِ الْحَيَوَانِ وَبَرْدِ الْهَوَاءِ عَلَى النَّبَاتِ لَمْ يَكُنْ صَلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ اللَّيْلُ ظُلْمَةً دَاجِيَةً لَا ضِيَاءَ فِيهَا، فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى الْعَمَلِ بِاللَّيْلِ لِضِيقِ الْوَقْتِ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي النَّهَارِ، وَلِشِدَّةِ الْحَرِّ وَإِفْرَاطِهِ فَيَعْمَلُ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ أَعْمَالًا شَتَّى كَحَرْثِ الْأَرْضِ، وَضَرْبِ اللَّبِنِ، وَقَطْعِ الْخَشَبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَجُعِلَ ضَوْءُ الْقَمَرِ مَعُونَةً لِلنَّاسِ عَلَى مَعَايِشِهِمْ إِذَا احْتَاجُوا إِلَى ذَلِكَ، وَأُنْساً لِلسَّائِرِينَ.

وَجُعِلَ طُلُوعُهُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ دُونَ بَعْضٍ، وَنُقِصَ مَعَ ذَلِكَ عَنْ نُورِ الشَّمْسِ وَضِيَائِهَا لِكَيْلَا يَنْبَسِطَ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ انْبِسَاطَهُمْ بِالنَّهَارِ، وَيَمْتَنِعُوا مِنَ الْهُدُوءِ

(١) لا تفتل: أي لا تنصرف ولا تزول.

وَالْقَرَارِ فَيُهْلِكَهُمْ ذَلِكَ، وَفِي تَصَرُّفِ الْقَمَرِ خَاصَّةً فِي مُهَلِّهِ[1] وَمُحَاقِهِ[2] وَزِيَادَتِهِ وَنُقْصَانِهِ وَكُسُوفِهِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى خَالِقِهِ الْمُصَرِّفِ لَهُ هَذَا التَّصْرِيفَ لِصَلَاحِ الْعَالَمِ مَا يَعْتَبِرُ بِهِ الْمُعْتَبِرُونَ.

النجوم واختلاف مسيرها

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي النُّجُومِ وَاخْتِلَافِ مَسِيرِهَا؛ فَبَعْضُهَا لَا تُفَارِقُ مَرَاكِزَهَا مِنَ الْفَلَكِ وَلَا تَسِيرُ إِلَّا مُجْتَمِعَةً، وَبَعْضُهَا مُطْلَقَةٌ تَنْتَقِلُ فِي الْبُرُوجِ، وَتَفْتَرِقُ فِي مَسِيرِهَا، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَسِيرُ سَيْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا عَامٌّ مَعَ الْفَلَكِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ، وَالْآخَرُ خَاصٌّ لِنَفْسِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، كَالنَّمْلَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَى الرَّحَى، فَالرَّحَى تَدُورُ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَالنَّمْلَةُ تَدُورُ ذَاتَ الشِّمَالِ، وَالنَّمْلَةُ فِي ذَلِكَ تَتَحَرَّكُ حَرَكَتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا بِنَفْسِهَا فَتَتَوَجَّهُ أَمَامَهَا، وَالْأُخْرَى مُسْتَكْرَهَةٌ مَعَ الرَّحَى تَجْذِبُهَا إِلَى خَلْفِهَا.

فَاسْأَلِ الزَّاعِمِينَ أَنَّ النُّجُومَ صَارَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِالْإِهْمَالِ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ، وَلَا صَانِعٍ لَهَا: مَا مَنَعَهَا أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا رَاتِبَةً[3]؟ أَوْ تَكُونَ كُلُّهَا مُنْتَقِلَةً؟ فَإِنَّ الْإِهْمَالَ مَعْنًى وَاحِدٌ، فَكَيْفَ صَارَ يَأْتِي بِحَرَكَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ عَلَى وَزْنٍ وَتَقْدِيرٍ؟ فَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ مَسِيرَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى مَا يَسِيرَانِ عَلَيْهِ بِعَمْدٍ وَتَدْبِيرٍ وَحِكْمَةٍ وَتَقْدِيرٍ، وَلَيْسَ بِإِهْمَالٍ كَمَا يَزْعُمُ الْمُعَطِّلَةُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَلِمَ صَارَ بَعْضُ النُّجُومِ رَاتِباً؟ وَبَعْضُهَا مُنْتَقِلًا؟ قُلْنَا: إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كُلُّهَا رَاتِبَةً لَبَطَلَتِ الدَّلَالَاتُ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا مِنْ تَنَقُّلِ الْمُنْتَقِلَةِ وَمَسِيرِهَا فِي كُلِّ بُرْجٍ مِنَ الْبُرُوجِ، كَمَا يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَشْيَاءَ مِمَّا يُحْدُثُ فِي الْعَالَمِ بِتَنَقُّلِ الشَّمْسِ وَالنُّجُومِ فِي مَنَازِلِهَا، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا مُنْتَقِلَةً لَمْ يَكُنْ لِمَسِيرِهَا مَنَازِلُ تُعْرَفُ، وَلَا رَسْمٌ يُوقَفُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهِ بِمَسِيرِ الْمُنْتَقِلَةِ مِنْهَا بِتَنَقُّلِهَا فِي الْبُرُوجِ الرَّاتِبَةِ،

---

(١) مهلّه: أي ظهوره.

(٢) المحاق: هو آخر الشهر القمري وقيل ثلاث ليال من آخره.

(٣) راتبة أي ثابتة غير متحركة.

كَمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى سَيْرِ السَّائِرِ عَلَى الْأَرْضِ بِالْمَنَازِلِ الَّتِي يَجْتَازُ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ تَنَقُّلُهَا بِحَالٍ وَاحِدٍ لَاخْتَلَطَ نِظَامُهَا، وَبَطَلَتِ الْمَآرِبُ فِيهَا، وَلَسَاغَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّ كَيْنُونَتَهَا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ تُوجِبُ عَلَيْهَا الْإِهْمَالَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي وَصَفْنَا، فَفِي اخْتِلَافِ سَيْرِهَا، وَتَصَرُّفِهَا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَآرِبِ وَالْمَصْلَحَةِ أَبْيَنُ دَلِيلٍ عَلَى الْعَمْدِ وَالتَّدْبِيرِ فِيهَا.

فوائد بعض النجوم

فَكِّرْ فِي هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي بَعْضِ السَّنَةِ، وَتَحْتَجِبُ فِي بَعْضِهَا، كَمِثْلِ: الثُّرَيَّا، وَالْجَوْزَاءِ [١]، وَالشِّعْرَيَيْنِ [٢]، وَسُهَيْلٍ [٣]، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ بِأَسْرِهَا تَظْهَرُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ فِيهَا عَلَى حِيَالِهِ دَلَالَاتٌ يَعْرِفُهَا النَّاسُ، وَيَهْتَدُونَ بِهَا لِبَعْضِ أُمُورِهِمْ، كَمَعْرِفَتِهِمُ الْآنَ بِمَا يَكُونُ مِنْ طُلُوعِ الثَّوْرِ [٤] وَالْجَوْزَاءِ إِذَا طَلَعَتْ، وَاحْتِجَابِهَا إِذَا احْتَجَبَتْ، فَصَارَ ظُهُورُ كُلِّ وَاحِدٍ وَاحْتِجَابُهُ فِي وَقْتٍ غَيْرِ الْوَقْتِ الْآخَرِ لِيَنْتَفِعَ النَّاسُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى حِدَتِهِ.

وَمَا جُعِلَتِ الثُّرَيَّا وَأَشْبَاهُهَا تَظْهَرُ حِيناً وَتَحْتَجِبُ حِيناً إِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَكَذَلِكَ جُعِلَتْ بَنَاتُ نَعْشٍ [٥] ظَاهِرَةً لَا تَغِيبُ لِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ؛ فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَعْلَامِ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا النَّاسُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِلطُّرُقِ الْمَجْهُولَةِ، وَكَذَلِكَ إِنَّهَا لَا تَغِيبُ وَلَا تَتَوَارَى، فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مَتَى أَرَادُوا أَنْ يَهْتَدُوا بِهَا إِلَى حَيْثُ شَاؤُوا، وَصَارَ الْأَمْرَانِ جَمِيعاً عَلَى اخْتِلَافِهِمَا مُوَجَّهَيْنِ نَحْوَ الْإِرْبِ وَالْمَصْلَحَةِ، وَفِيهِمَا مَآرِبُ أُخْرَى عَلَامَاتٌ وَدَلَالَاتٌ، عَلَى أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ كَالزِّرَاعَةِ وَالْغِرَاسِ وَالسَّفَرِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَأَشْيَاءَ مِمَّا يَحْدُثُ فِي الْأَزْمِنَةِ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالرِّيَاحِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَبِهَا

---

(١) الجوزاء: برج في السماء، سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه.

(٢) الشعريان: تثنية الشعرى- بالكسر- وهو الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر.

(٣) سهيل- بالتصغير- نجم بهي طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ.

(٤) الثور: برج في السماء من البروج الاثني عشر.

(٥) بنات نعش الكبرى: سبعة كواكب تشاهدها جهة القطب الشمالي، وبقربها سبعة أخرى تسمى بنات نعش الصغرى.

يَهْتَدِي السَّائِرُونَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِقَطْعِ الْقِفَارِ الْمُوحِشَةِ وَاللُّجَجِ[1] الْهَائِلَةِ.

مَعَ مَا فِي تَرَدُّدِهَا فِي كَبِدِ السَّمَاءِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً وَمُشْرِقَةً وَمُغْرِبَةً مِنَ الْعِبَرِ فَإِنَّهَا تَسِيرُ أَسْرَعَ السَّيْرِ وَأَحَثَّهُ[2]، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ بِالْقُرْبِ مِنَّا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَنَا سُرْعَةُ سَيْرِهَا بِكُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ أَلَمْ تَكُنْ تَسْتَخْطِفُ الْأَبْصَارَ بِوَهْجِهَا وَشُعَاعِهَا كَالَّذِي يَحْدُثُ أَحْيَاناً مِنَ الْبُرُوقِ إِذَا تَوَالَتْ وَاضْطَرَمَتْ فِي الْجَوِّ؟ وَكَذَلِكَ أَيْضاً لَوْ أَنَّ أُنَاساً كَانُوا فِي قُبَّةٍ مُكَلَّلَةٍ بِمَصَابِيحَ تَدُورُ حَوْلَهُمْ دَوَرَاناً حَثِيثاً لَحَارَتْ أَبْصَارُهُمْ حَتَّى يَخِرُّوا لِوُجُوهِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ مَسِيرُهَا فِي الْبُعْدِ الْبَعِيدِ لِكَيْلَا تَضُرَّ فِي الْأَبْصَارِ وَتُنْكَأَ فِيهَا، وَبِأَسْرَعِ السُّرْعَةِ لِكَيْلَا تَتَخَلَّفَ عَنْ مِقْدَارِ الْحَاجَةِ فِي مَسِيرِهَا، وَجُعِلَ فِيهَا جُزْءاً يَسِيراً مِنَ الضَّوْءِ لِيَسُدَّ مَسَدَّ الْأَضْوَاءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَمَرٌ، وَيُمْكِنُ فِيهِ الْحَرَكَةُ إِذَا حَدَثَتْ ضَرُورَةٌ كَمَا قَدْ يَحْدُثُ الْحَادِثُ عَلَى الْمَرْءِ فَيَحْتَاجُ إِلَى التَّجَافِي[3] فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الضَّوْءِ يُهْتَدَى بِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْرَحَ مَكَانَهُ، فَتَأَمَّلِ اللُّطْفَ وَالْحِكْمَةَ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ حِينَ جُعِلَ لِلظُّلْمَةِ دَوْلَةٌ وَمُدَّةٌ لِحَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَجُعِلَ خِلَالَهَا شَيْءٌ مِنَ الضَّوْءِ لِلْمَآرِبِ الَّتِي وَصَفْنَا.

الأجرام السماوية تدل على الخالق

فَكِّرْ فِي هَذَا الْفَلَكِ بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَنُجُومِهِ وَبُرُوجِهِ تَدُورُ عَلَى الْعَالَمِ هَذَا الدَّوَرَانَ الدَّائِمَ بِهَذَا التَّقْدِيرِ وَالْوَزْنِ لِمَا فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهَذِهِ الْأَزْمَانِ الْأَرْبَعَةِ الْمُتَوَالِيَةِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَصْلَحَةِ كَالَّذِي بَيَّنْتُ وَشَخَّصْتُ لَكَ آنِفاً، وَهَلْ يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ أَنَّ هَذَا تَقْدِيرٌ مُقَدَّرٌ، وَصَوَابٌ وَحِكْمَةٌ مِنْ مُقَدِّرٍ حَكِيمٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا، فَمَا مَنَعَهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا

---

(١) اللجج جمع لجة: معظم الماء.

(٢) أسرع السير وأحثّه كلاهما بمعنى واحد.

(٣) التجافي من تجاف أي لم يلزم مكانه.

فِي دُولَابٍ[1] يَرَاهُ يَدُورُ، وَيَسْقِي حَدِيقَةً فِيهَا شَجَرٌ وَنَبَاتٌ، فَيَرَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْ آلَاتِهِ مُقَدَّراً بَعْضُهُ يَلْقَى بَعْضاً عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ تِلْكَ الْحَدِيقَةِ، وَمَا فِيهَا وَبِمَ كَانَ يُثْبِتُ هَذَا الْقَوْلَ لَوْ قَالَهُ؟ وَمَا تَرَى النَّاسَ كَانُوا قَائِلِينَ لَهُ لَوْ سَمِعُوهُ مِنْهُ؟ أَفَيُنْكِرُ أَنْ يَقُولَ فِي دُولَابِ خَشَبٍ مَصْنُوعٍ بِحِيلَةٍ قَصِيرَةٍ لِمَصْلَحَةِ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ أَنَّهُ كَانَ بِلَا صَانِعٍ وَمُقَدِّرٍ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ فِي هَذَا الدُّولَابِ الْأَعْظَمِ الْمَخْلُوقِ بِحِكْمَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا أَذْهَانُ الْبَشَرِ لِصَلَاحِ جَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا أَنَّهُ شَيْءٌ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ بِلَا صَنْعَةٍ وَلَا تَقْدِيرٍ، لَوِ اعْتَلَّ هَذَا الْفَلَكُ كَمَا تَعْتَلُّ الْآلَاتُ الَّتِي تُتَّخَذُ لِلصِّنَاعَاتِ وَغَيْرِهَا أَيُّ شَيْءٍ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْحِيلَةِ فِي إِصْلَاحِهِ؟

مقادير الليل والنهار

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي مَقَادِيرِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ كَيْفَ وَقَعَتْ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ هَذَا الْخَلْقِ؛ فَصَارَ مُنْتَهَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا امْتَدَّ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ[2]، أَفَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ النَّهَارُ يَكُونُ مِقْدَارُهُ مِائَةَ سَاعَةٍ أَوْ مِائَتَيْ سَاعَةٍ أَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ بَوَارُ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ؟ أَمَّا الْحَيَوَانُ فَكَانَ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَقِرُّ طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَلَا الْبَهَائِمُ كَانَتْ تُمْسِكُ عَنِ الرَّعْيِ لَوْ دَامَ لَهَا ضَوْءُ النَّهَارِ، وَلَا الْإِنْسَانُ كَانَ يَفْتُرُ عَنِ الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَنْهَكُهَا أَجْمَعَ، وَيُؤَدِّيهَا إِلَى التَّلَفِ، وَأَمَّا النَّبَاتُ فَكَانَ يَطُولُ عَلَيْهِ حَرُّ النَّهَارِ وَوَهْجُ الشَّمْسِ حَتَّى يَجِفَّ وَيَحْتَرِقَ، كَذَلِكَ اللَّيْلُ لَوِ امْتَدَّ مِقْدَارَ هَذِهِ الْمُدَّةِ كَانَ يَعُوقُ أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ حَتَّى تَمُوتَ جُوعاً، وَتَخْمُدُ الْحَرَارَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَنِ النَّبَاتِ حَتَّى يَعْفَنَ وَيَفْسُدَ كَالَّذِي تَرَاهُ يَحْدُثُ عَلَى النَّبَاتِ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

---

(١) الدولاب- بالفتح- كلّ آلة تدور على محور والجمع دواليب.

(٢) يتساوى الليل والنهار في جميع أنحاء العالم مرتين في الخريف يوم ٢٣ أيلول ومرة ثانية في الربيع يوم ٢٢ مارس. ويطول الليل في الشتاء بتاريخ ٢١ كانون الأول حتّى يبلغ طوله في العراق أكثر من أربعة عشر ساعة، ثمّ يطول النهار في الصيف بتاريخ ٢١ حزيران ويزيد طوله في العراق على أربعة عشر ساعة.

الحر والبرد وفوائدهما

اعْتَبِرْ بِهَذَا الْحَرِّ وَالْبَرْدِ كَيْفَ يَتَعَاوَرَانِ[1] الْعَالَمَ، وَيَتَصَرَّفَانِ هَذَا التَّصَرُّفَ فِي الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالاِعْتِدَالِ لِإِقَامَةِ هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ السَّنَةِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ، ثُمَّ هُمَا بَعْدَ دِبَاغِ الْأَبْدَانِ الَّتِي عَلَيْهَا بَقَاؤُهَا وَفِيهِمَا صَلَاحُهَا فَإِنَّهُ لَوْلَا الْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَتَدَاوُلُهُمَا الْأَبْدَانَ لَفَسَدَتْ وَأَخْوَتْ[2] وَانْتَكَثَتْ[3]، فَكِّرْ فِي دُخُولِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ بِهَذَا التَّدْرِيجِ وَالتَّرَسُّلِ؛ فَإِنَّكَ تَرَى أَحَدَهُمَا يَنْقُصُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، وَالْآخَرَ يَزِيدُ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُنْتَهَاهُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَلَوْ كَانَ دُخُولُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ مُفَاجَأَةً لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالْأَبْدَانِ وَأَسْقَمَهَا، كَمَا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ خَرَجَ مِنْ حَمَّامٍ حَارٍّ إِلَى مَوْضِعِ الْبُرُودَةِ لَضَرَّهُ ذَلِكَ، وَأَسْقَمَ بَدَنَهُ، فَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا التَّرَسُّلَ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ إِلَّا لِلسَّلَامَةِ مِنْ ضَرَرِ الْمُفَاجَأَةِ، وَلِمَ جَرَى الْأَمْرُ عَلَى مَا فِيهِ السَّلَامَةُ مِنْ ضَرَرِ الْمُفَاجَأَةِ لَوْلَا التَّدْبِيرُ فِي ذَلِكَ؟

فَإِنْ زَعَمَ زَاعِمٌ: أَنَّ هَذَا التَّرَسُّلَ فِي دُخُولِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ إِنَّمَا يَكُونُ لِإِبْطَاءِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَانْحِطَاطِهَا، سُئِلَ عَنِ الْعِلَّةِ فِي إِبْطَاءِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَانْحِطَاطِهَا، فَإِنِ اعْتَلَّ فِي الْإِبْطَاءِ بِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقَيْنِ، سُئِلَ عَنِ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ، فَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَرْقَى مَعَهُ إِلَى حَيْثُ رَقِيَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ حَتَّى اسْتَقَرَّ عَلَى الْعَمْدِ وَالتَّدْبِيرِ.

لَوْلَا الْحَرُّ لَمَا كَانَتِ الثِّمَارُ الْجَاسِيَةُ[4] الْمُرَّةُ تَنْضَجُ فَتَلِينُ وَتَعْذُبُ حَتَّى يُتَفَكَّهَ بِهَا رَطْبَةً وَيَابِسَةً، وَلَوْلَا الْبَرْدُ لَمَا كَانَ الزَّرْعُ يُفْرِخُ[5] هَكَذَا وَيَرِيعُ[6] الرَّيْعَ الْكَثِيرَ الَّذِي

---

(١) يتعاوران: يتداولان.

(٢) أخوت: جاعت.

(٣) انتكثت: انتقضت وانتبذت.

(٤) الجاسية: أي الصلبة.

(٥) يفرخ الزرع: أي تنبت أفراخه وهي ما يخرج في أصوله من صغاره.

(٦) يريع الريع أي تنمو الغلة وتزداد.

يَتَّسِعُ لِلْقُوتِ وَمَا يُرَدُّ فِي الْأَرْضِ لِلْبَذْرِ، أَفَلَا تَرَى مَا فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ مِنْ عَظِيمِ الْغِنَاءِ وَالْمَنْفَعَةِ، وَكِلَاهُمَا مَعَ غِنَائِهِ وَالْمَنْفَعَةِ فِيهِ يُؤْلِمُ الْأَبْدَانَ وَيَمَضُّهَا(١)، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِمَنْ فَكَّرَ، وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ فِي مَصْلَحَةِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ.

الريح وما فيها

وَ أُنَبِّهُكَ يَا مُفَضَّلُ عَلَى الرِّيحِ وَمَا فِيهَا أَلَسْتَ تَرَى رُكُودَهَا إِذَا رَكَدَتْ كَيْفَ يُحْدِثُ الْكَرْبَ الَّذِي يَكَادُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النُّفُوسِ وَيُمْرِضُ الْأَصِحَّاءَ وَيَنْهَكُ الْمَرْضَى وَيُفْسِدُ الثِّمَارَ وَيُعَفِّنُ الْبُقُولَ وَيُعْقِبُ الْوَبَاءَ فِي الْأَبْدَانِ وَالْآفَةَ فِي الْغَلَّاتِ فَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ هُبُوبَ الرِّيحِ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ فِي صَلَاحِ الْخَلْقِ.

الهواء والأصوات

وَ أُنَبِّئُكَ عَنِ الْهَوَاءِ بِخُلَّةٍ أُخْرَى؛ فَإِنَّ الصَّوْتَ أَثَرٌ يُؤَثِّرُهُ اصْطِكَاكُ الْأَجْسَامِ فِي الْهَوَاءِ، وَالْهَوَاءُ يُؤَدِّيهِ إِلَى الْمَسَامِعِ، وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ طُولَ نَهَارِهِمْ وَبَعْضَ لَيْلِهِمْ، فَلَوْ كَانَ أَثَرُ هَذَا الْكَلَامِ يَبْقَى فِي الْهَوَاءِ كَمَا يَبْقَى الْكِتَابُ فِي الْقِرْطَاسِ لَامْتَلَأَ الْعَالَمُ مِنْهُ، فَكَانَ يَكْرُبُهُمْ وَيَفْدَحُهُمْ، وَكَانُوا يَحْتَاجُونَ فِي تَجْدِيدِهِ وَالِاسْتِبْدَالِ بِهِ إِلَى أَكْثَرَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي تَجْدِيدِ الْقَرَاطِيسِ، لِأَنَّ مَا يُلْفَظُ مِنَ الْكَلَامِ أَكْثَرُ مِمَّا يُكْتَبُ، فَجَعَلَ الْخَلَّاقُ الْحَكِيمُ جَلَّ قُدْسُهُ هَذَا الْهَوَاءَ قِرْطَاساً خَفِيّاً يَحْمِلُ الْكَلَامَ رَيْثَمَا يَبْلُغُ الْعَالَمُ حَاجَتَهُمْ، ثُمَّ يُمْحَى فَيَعُودُ جَدِيداً نَقِيّاً، وَيَحْمِلُ مَا حَمَلَ أَبَداً بِلَا انْقِطَاعٍ، وَحَسْبُكَ بِهَذَا النَّسِيمِ الْمُسَمَّى هَوَاءً عِبْرَةً وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ فَإِنَّهُ حَيَاةُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ، وَالْمُمْسِكُ لَهَا مِنْ دَاخِلٍ بِمَا يَسْتَنْشِقُ مِنْهُ مِنْ خَارِجٍ بِمَا يُبَاشِرُ مِنْ رَوْحِهِ، وَفِيهِ تَطَّرِدُ هَذِهِ الْأَصْوَاتُ، فَيُؤَدِّي الْبُعْدَ الْبَعِيدَ وَهُوَ الْحَامِلُ لِهَذِهِ الْأَرْوَاحِ يَنْقُلُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ.

أَلَا تَرَى كَيْفَ تَأْتِيكَ الرَّائِحَةُ مِنْ حَيْثُ تَهُبُّ الرِّيحُ فَكَذَلِكَ الصَّوْتُ وَهُوَ الْقَابِلُ

(١) يمضّها: يوجعها ويؤلمها.

لِهَذَا الْحَرِّ وَالْبَرْدِ اللَّذَيْنِ يَتَعَاقَبَانِ عَلَى الْعَالَمِ لِصَلَاحِهِ، وَمِنْهُ هَذِهِ الرِّيحُ الْهَابَّةُ فَالرِّيحُ تَرُوحُ عَنِ الْأَجْسَامِ، وَتُزْجِي السَّحَابَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ لِيَعُمَّ نَفْعُهُ حَتَّى يَسْتَكْثِفَ فَيَمْطُرَ، وَتَفُضُّهُ حَتَّى يَسْتَخِفَّ فَيَتَفَشَّى، وَتُلْقِحُ الشَّجَرَ، وَتُسِيرُ السُّفُنَ، وَتُرْخِي الْأَطْعِمَةَ، وَتُبَرِّدُ الْمَاءَ، وَتَشُبُّ النَّارَ، وَتُجَفِّفُ الْأَشْيَاءَ النَّدِيَّةَ، وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّهَا تُحْيِي كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، فَلَوْ لَا الرِّيحُ لَذَوَى النَّبَاتُ، وَلَمَاتَ الْحَيَوَانُ، وَحُمَّتِ الْأَشْيَاءُ وَفَسَدَتْ.

هيئة الأرض

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْجَوَاهِرَ الْأَرْبَعَةَ[1] لِيَتَّسِعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ سَعَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ وَامْتِدَادُهَا، فَلَوْ لَا ذَلِكَ كَيْفَ كَانَتْ تَتَّسِعُ لِمَسَاكِنِ النَّاسِ وَمَزَارِعِهِمْ وَمَرَاعِيهِمْ وَمَنَابِتِ أَخْشَابِهِمْ وَأَحْطَابِهِمْ وَالْعَقَاقِيرِ الْعَظِيمَةِ وَالْمَعَادِنِ الْجَسِيمِ غَنَاؤُهَا، وَلَعَلَّ مَنْ يُنْكِرُ هَذِهِ الْفَلَوَاتِ[2] الْخَاوِيَةَ، وَالْقِفَارَ الْمُوحِشَةَ، فَيَقُولُ: مَا الْمَنْفَعَةُ فِيهَا؟ فَهِيَ مَأْوَى هَذِهِ الْوُحُوشِ وَمَحَالُّهَا وَمَرَاعِيهَا، ثُمَّ فِيهَا بَعْدُ مُتَنَفَّسٌ وَمُضْطَرَبٌ لِلنَّاسِ إِذَا احْتَاجُوا إِلَى الِاسْتِبْدَالِ بِأَوْطَانِهِمْ، فَكَمْ بَيْدَاءَ وَكَمْ فَدْفَدٍ[3] حَالَتْ قُصُوراً وَجِنَاناً بِانْتِقَالِ النَّاسِ إِلَيْهَا، وَحُلُولِهِمْ فِيهَا، وَلَوْ لَا سَعَةُ الْأَرْضِ وَفُسْحَتُهَا لَكَانَ النَّاسُ كَمَنْ هُوَ فِي حِصَارٍ ضَيِّقٍ لَا يَجِدُ مَنْدُوحَةً عَنْ وَطَنِهِ إِذَا أَحْزَنَهُ أَمْرٌ يَضْطَرُّهُ إِلَى الِانْتِقَالِ عَنْهُ.

ثُمَّ فَكِّرْ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ حِينَ خُلِقَتْ رَاتِبَةً رَاكِنَةً فَتَكُونَ مَوْطِناً مُسْتَقَرّاً لِلْأَشْيَاءِ، فَيَتَمَكَّنُ النَّاسُ مِنَ السَّعْيِ عَلَيْهَا فِي مَآرِبِهِمْ، وَالْجُلُوسِ عَلَيْهَا لِرَاحَتِهِمْ، وَالنَّوْمِ لِهُدُوئِهِمْ، وَالْإِتْقَانِ لِأَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَجْرَاجَةً مُنْكَفِئَةً لَمْ يَكُونُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُتْقِنُوا الْبِنَاءَ وَالنِّجَارَةَ وَالصِّنَاعَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بَلْ كَانُوا

---

(١) المراد بالجواهر الأربعة هي التراب والماء والهواء والنار.

(٢) الفلوات جمع فلات وهي الصحراء الواسعة.

(٣) الفدفد: الفلاة والجمع فدافد.

لَا يَتَهَنَّوْنَ بِالعَيْشِ وَالْأَرْضُ تَرْتَجُّ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا يُصِيبُ النَّاسَ حِينَ الزَّلَازِلِ عَلَى قِلَّةِ مَكْثِهَا حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى تَرْكِ مَنَازِلِهِمْ، وَالْهَرَبِ عَنْهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَلِمَ صَارَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ تُزَلْزَلُ؟ قِيلَ لَهُ إِنَّ الزَّلْزَلَةَ وَمَا أَشْبَهَهَا مَوْعِظَةٌ وَتَرْهِيبٌ؛ يُرَهَّبُ بِهَا النَّاسُ لِيَرْعَوُوا وَيَنْزِعُوا عَنِ الْمَعَاصِي، وَكَذَلِكَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَجْرِي فِي التَّدْبِيرِ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَاسْتِقَامَتُهُمْ وَيُدَّخَرُ لَهُمْ إِنْ صَلَحُوا مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِوَضِ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَرُبَّمَا عُجِّلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا صَلَاحاً لِلْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَرْضَ فِي طِبَاعِهَا الَّذِي طَبَعَهَا اللهُ عَلَيْهِ بَارِدَةٌ يَابِسَةٌ، وَكَذَلِكَ الْحِجَارَةُ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِجَارَةِ فَضْلُ يُبْسٍ فِي الْحِجَارَةِ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الْيُبْسَ أَفْرَطَ عَلَى الْأَرْضِ قَلِيلاً حَتَّى تَكُونَ حَجَراً صَلْداً أَكَانَتْ تُنْبِتُ هَذَا النَّبَاتَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْحَيَوَانِ؟ وَكَانَ يُمْكِنُ بِهَا حَرْثٌ أَوْ بِنَاءٌ؟ أَفَلَا تَرَى كَيْفَ نَقَصَتْ مِنْ يُبْسِ الْحِجَارَةِ وَجُعِلَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ لِتَتَهَيَّأَ لِلِاعْتِمَادِ.

فوائد الماء

وَمِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ جَلَّ وَعَلَا فِي خِلْقَةِ الْأَرْضِ أَنَّ مَهَبَّ الشَّمَالِ أَرْفَعُ مِنْ مَهَبِّ الْجَنُوبِ، فَلِمَ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كَذَلِكَ إِلَّا لِتَنْحَدِرَ الْمِيَاهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَتَسْقِيَهَا وَتَرْوِيَهَا، ثُمَّ تُفِيضَ آخِرَ ذَلِكَ إِلَى الْبَحْرِ، فَكَمَا يُرْفَعُ أَحَدُ جَانِبَيِ السَّطْحِ، وَيُخْفَضُ الْآخَرُ لِيَنْحَدِرَ الْمَاءُ عَنْهُ وَلَا يَقُومَ عَلَيْهِ كَذَلِكَ جُعِلَ مَهَبُّ الشَّمَالِ أَرْفَعُ مِنْ مَهَبِّ الْجَنُوبِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ بِعَيْنِهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَبَقِيَ الْمَاءُ مُتَحَيِّراً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَكَانَ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ أَعْمَالِهَا، وَيَقْطَعُ الطُّرُقَ وَالْمَسَالِكَ.

ثُمَّ الْمَاءُ لَوْ لَا كَثْرَتُهُ وَتَدَفُّقُهُ فِي الْعُيُونِ وَالْأَوْدِيَةِ وَالْأَنْهَارِ لَضَاقَ عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِشُرْبِهِمْ وَشُرْبِ أَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَسَقْيِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَأَصْنَافِ غَلَّاتِهِمْ وَشُرْبِ مَا يَرِدُهُ مِنَ الْوُحُوشِ وَالطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ وَتَتَقَلَّبُ فِيهِ الْحِيتَانُ وَدَوَابُّ الْمَاءِ، وَفِيهِ مَنَافِعُ أُخَرُ أَنْتَ بِهَا عَارِفٌ وَعَنْ عَظِيمِ مَوْقِعِهَا غَافِلٌ، فَإِنَّهُ سِوَى الْأَمْرِ الْجَلِيلِ الْمَعْرُوفِ

مِنْ عَظِيمِ غَنَائِهِ فِي إِحْيَاءِ جَمِيعِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ يُمْزَجُ بِالْأَشْرِبَةِ فَتَلَذُّ وَتَطِيبُ لِشَارِبِهَا، وَبِهِ تُنَظَّفُ الْأَبْدَانُ وَالْأَمْتِعَةُ مِنَ الدَّرَنِ(١) الَّذِي يَغْشَاهَا، وَبِهِ يُبَلُّ(٢) التُّرَابُ فَيَصْلُحُ لِلْأَعْمَالِ، وَبِهِ يُكَفُّ عَادِيَةُ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَتْ، وَأَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَبِهِ يَسْتَحِمُّ الْمُتْعَبُ الْكَالُّ(٣) فَيَجِدُ الرَّاحَةَ مِنْ أَوْصَابِهِ، إِلَى أَشْبَاهِ هَذَا مِنَ الْمَآرِبِ الَّتِي تَعْرِفُ عِظَمَ مَوْقِعِهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَإِنْ شَكَكْتَ فِي مَنْفَعَةِ هَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الْمُتَرَاكِمِ فِي الْبِحَارِ وَقُلْتَ: مَا الْإِرْبُ فِيهِ؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُكْتَنَفُ وَمُضْطَرَبُ مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَصْنَافِ السَّمَكِ، وَدَوَابِّ الْبَحْرِ، وَمَعْدِنِ اللُّؤْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ وَالْعَنْبَرِ(٤)، وَأَصْنَافٍ شَتَّى تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَحْرِ، وَفِي سَوَاحِلِهِ مَنَابِتُ الْعُودِ الْيَلَنْجُوجِ(٥)، وَضُرُوبٍ مِنَ الطِّيبِ وَالْعَقَاقِيرِ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ مَرْكَبٌ لِلنَّاسِ وَمَحْمِلٌ لِهَذِهِ التِّجَارَاتِ الَّتِي تُجْلَبُ مِنَ الْبُلْدَانِ الْبَعِيدَةِ كَمِثْلِ مَا يُجْلَبُ مِنَ الصِّينِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَمِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الصِّينِ، فَإِنَّ هَذِهِ التِّجَارَاتِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَحْمِلٌ إِلَّا عَلَى الظَّهْرِ لَبَارَتْ وَبَقِيَتْ فِي بُلْدَانِهَا، وَأَيْدِي أَهْلِهَا، لِأَنَّ أَجْرَ حَمْلِهَا يُجَاوِزُ أَثْمَانَهَا فَلَا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ لِحَمْلِهَا، وَكَانَ يَجْتَمِعُ فِي ذَلِكَ أَمْرَانِ؛ أَحَدُهُمَا فَقْدُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ تَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَالْآخَرُ انْقِطَاعُ مَعَاشِ مَنْ يَحْمِلُهَا وَيَتَعَيَّشُ بِفَضْلِهَا.

فوائد الهواء

وَهَكَذَا الْهَوَاءُ لَوْلَا كَثْرَتُهُ وَسَعَتُهُ لَاخْتَنَقَ هَذَا الْأَنَامُ مِنَ الدُّخَانِ وَالْبُخَارِ الَّذِي يَتَحَيَّرُ فِيهِ، وَيَعْجِزُ عَمَّا يُحَوَّلُ إِلَى السَّحَابِ وَالضَّبَابِ أَوَّلًا أَوَّلًا فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ صِفَتِهِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ.

---

(١) الدرن: هو الوسخ جمعه أدران.

(٢) بلّه الماء: نداه.

(٣) الكالّ اسم فاعل من كلّ: تعب وأعيا.

(٤) العنبر هو الطيب والزعفران، أو حوت قد يبلغ طوله نحوا من ٦٠ قدماً ضخم الرأس.

(٥) اليلنجوج: العود الطيب الرائحة.

منافع النار

وَ النَّارُ أَيْضاً كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَبْثُوثَةً كَالنَّسِيمِ وَالْمَاءِ كَانَتْ تُحْرِقُ الْعَالَمَ وَمَا فِيهِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ ظُهُورِهَا فِي الْأَحَايِينِ لِغَنَائِهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَالِحِ جُعِلَتْ كَالْمَخْزُونَةِ فِي الْأَجْسَامِ، فَتُلْتَمَسُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَتُمْسَكُ بِالْمَادَّةِ وَالْحَطَبِ مَا احْتِيجَ إِلَى بَقَائِهَا، لِئَلَّا تَخْبُوَ فَلَا هِيَ تُمْسَكُ بِالْمَادَّةِ وَالْحَطَبِ فَتَعْظُمَ الْمَئُونَةُ فِي ذَلِكَ، وَلَا هِيَ تَظْهَرُ مَبْثُوثَةً فَتُحْرِقَ كُلَّ مَا هِيَ فِيهِ، بَلْ هِيَ عَلَى تَهْيِئَةٍ وَتَقْدِيرٍ اجْتَمَعَ فِيهَا الِاسْتِمْتَاعُ بِمَنَافِعِهَا، وَالسَّلَامَةُ مِنْ ضَرَرِهَا.

ثُمَّ فِيهَا خُلَّةٌ أُخْرَى وَهِيَ: أَنَّهَا مِمَّا خُصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ دُونَ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ، لِمَا لَهُ فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ فَإِنَّهُ لَوْ فَقَدَ النَّارَ لَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرَرِ فِي مَعَاشِهِ، فَأَمَّا الْبَهَائِمُ فَلَا تَسْتَعْمِلُ النَّارَ وَلَا تَسْتَمْتِعُ بِهَا، وَلَمَّا قَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا هَكَذَا خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ كَفّاً وَأَصَابِعَ مُهَيَّئَةً لِقَدْحِ النَّارِ وَاسْتِعْمَالِهَا، وَلَمْ يُعْطِ الْبَهَائِمَ مِثْلَ ذَلِكَ، لَكِنَّهَا أُعِينَتْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجَفَاءِ وَالْخَلَلِ فِي الْمَعَاشِ لِكَيْلَا يَنَالَهَا فِي فَقْدِ النَّارِ مَا يَنَالُ الْإِنْسَانَ عِنْدَ فَقْدِهَا، وَأُنَبِّئُكَ مِنْ مَنَافِعِ النَّارِ عَلَى خِلْقَةٍ صَغِيرَةٍ عَظِيمٍ مَوْقِعُهَا وَهِيَ هَذَا الْمِصْبَاحُ الَّذِي يَتَّخِذُهُ النَّاسُ فَيَقْضُونَ بِهِ حَوَائِجَهُمْ مَا شَاؤُوا فِي لَيْلِهِمْ، وَلَوْلَا هَذِهِ الْخُلَّةُ لَكَانَ النَّاسُ تُصْرَفُ أَعْمَارُهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ فِي الْقُبُورِ، فَمَنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُبَ أَوْ يَحْفَظَ أَوْ يَنْسِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؟ وَكَيْفَ كَانَ حَالُ مَنْ عَرَضَ لَهُ وَجَعٌ فِي وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ فَاحْتَاجَ إِلَى أَنْ يُعَالِجَ ضِمَاداً أَوْ سَفُوفاً[1] أَوْ شَيْئاً يَسْتَشْفِي بِهِ؟ فَأَمَّا مَنَافِعُهَا فِي نَضْجِ الْأَطْعِمَةِ، وَدَفَاءِ الْأَبْدَانِ، وَتَجْفِيفِ أَشْيَاءَ، وَتَحْلِيلِ أَشْيَاءَ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَأَظْهَرُ مِنْ أَنْ تَخْفَى.

الصحو والمطر وتعاقبهما

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي الصَّحْوِ وَالْمَطَرِ كَيْفَ يَتَعَاقَبَانِ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ لِمَا فِيهِ

(١) السفوف- بالفتح-: ما تسفّه من دواء ونحوه. وسفّ الدواء ونحوه: أخذه غير ملتوت.

صَلاحُهُ، وَلَوْ دَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَلَيْهِ كَانَ فِي ذَلِكَ فَسَادُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَمْطَارَ إِذَا تَوَالَتْ عَفِنَتِ الْبُقُولُ وَالْخُضَرُ، وَاسْتَرْخَتْ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ، وَحُصِرَ الْهَوَاءُ فَأَحْدَثَ ضُرُوباً مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَفَسَدَتِ الطُّرُقُ وَالْمَسَالِكُ، وَأَنَّ الصَّحْوَ إِذَا دَامَ جَفَّتِ الْأَرْضُ، وَاحْتَرَقَ النَّبَاتُ، وَغِيضَ مَاءُ الْعُيُونِ وَالْأَوْدِيَةِ فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالنَّاسِ، وَغَلَبَ الْيُبْسُ عَلَى الْهَوَاءِ، فَأَحْدَثَ ضُرُوباً أُخْرَى مِنَ الْأَمْرَاضِ، فَإِذَا تَعَاقَبَا عَلَى الْعَالَمِ هَذَا التَّعَاقُبَ اعْتَدَلَ الْهَوَاءُ، وَدَفَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَادِيَةَ الْآخَرِ، فَصَلَحَتِ الْأَشْيَاءُ وَاسْتَقَامَتْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَلِمَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَضَرَّةٌ الْبَتَّةَ؟ قِيلَ لَهُ: لِيَمُضَّ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ وَيُؤْلِمَهُ بَعْضَ الْأَلَمِ فَيَرْعَوِيَ عَنِ الْمَعَاصِي، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَقُمَ بَدَنُهُ احْتَاجَ إِلَى الْأَدْوِيَةِ الْمُرَّةِ الْبَشِعَةِ لِيَقُومَ طِبَاعُهُ وَيَصْلُحَ مَا فَسَدَ مِنْهُ كَذَلِكَ إِذَا طَغَى وَاشْتَدَّ احْتَاجَ إِلَى مَا يَمُضُّهُ وَيُؤْلِمُهُ لِيَرْعَوِيَ، وَيَقْصُرَ عَنْ مَسَاوِيهِ وَيُثْبِتَهُ عَلَى مَا فِيهِ حَظُّهُ وَرُشْدُهُ، وَلَوْ أَنَّ مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ قَسَمَ فِي أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ قَنَاطِيرَ[1] مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ أَلَمْ يَكُنْ سَيَعْظُمُ عِنْدَهُمْ، وَيَذْهَبُ لَهُ بِهِ الصَّوْتُ؟ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ مَطْرَةٍ رَوَاءٍ يَعُمُّ بِهِ الْبِلَادُ، وَيَزِيدُ فِي الْغَلَّاتِ أَكْثَرَ مِنْ قَنَاطِيرِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي أَقَالِيمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، أَفَلَا تَرَى الْمَطْرَةَ الْوَاحِدَةَ مَا أَكْبَرَ قَدْرَهَا، وَأَعْظَمَ النِّعْمَةَ عَلَى النَّاسِ فِيهَا، وَهُمْ عَنْهَا سَاهُونَ، وَرُبَّمَا عَاقَتْ عَنْ أَحَدِهِمْ حَاجَةٌ لَا قَدْرَ لَهَا فَيَتَذَمَّرُ وَيَسْخَطُ إِيثَاراً لِلْخَسِيسِ قَدْرُهُ عَلَى الْعَظِيمِ نَفْعُهُ جَمِيلاً مَحْمُوداً لِعَاقِبَتِهِ وَقِلَّةَ مَعْرِفَتِهِ لِعَظِيمِ الْغَنَاءِ وَالْمَنْفَعَةِ فِيهَا.

مصالح نزول المطر على الأرض

تَأَمَّلْ نُزُولَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَالتَّدْبِيرَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ جُعِلَ يَنْحَدِرُ عَلَيْهَا مِنْ عُلْوٍ لِيَغْشَى مَا غَلُظَ وَارْتَفَعَ مِنْهَا فَيُرْوِيَهُ، وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا يَأْتِيهَا مِنْ بَعْضِ نَوَاحِيهَا لَمَا عَلَا الْمَوَاضِعَ الْمُشْرِفَةَ مِنْهَا، وَيَقِلُّ مَا يُزْرَعُ فِي الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الَّذِي يُزْرَعُ سَيْحاً[2] أَقَلُّ

(١) القناطير جمع قنطار وهو المال الكثير أو وزن اختلف مقدار موزونه مع الأيام.

(٢) زراعة السيح هي الزراعة التي تحصل عن طريق الأنهر والمياه الجارية

مِنْ ذَلِكَ، فَالْأَمْطَارُ هِيَ الَّتِي تُطَبِّقُ الْأَرْضَ، وَرُبَّمَا تُزْرَعُ هَذِهِ الْبَرَارِي الْوَاسِعَةُ، وَسُفُوحُ الْجِبَالِ وَذُرَاهَا فَتُغِلُّ الْغَلَّةَ الْكَثِيرَةَ، وَبِهَا يَسْقُطُ عَنِ النَّاسِ فِي كَثِيرٍمِنَ الْبُلْدَانِ مُئُونَةُ سِيَاقِ الْمَاءِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَمَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَاجُرِوَالتَّظَالُمِ، حَتَّى يَسْتَأْثِرَ بِالْمَاءِ ذُو الْعِزِّ وَالْقُوَّةِ، وَيُحْرَمُهُ الضُّعَفَاءُ، ثُمَّ إِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَنْحَدِرَ عَلَى الْأَرْضِ انْحِدَاراً جُعِلَ ذَلِكَ قَطْراً شَبِيهاً بِالرَّشِّ لِيَغُورَ فِي قَعْرِ الْأَرْضِ فَيُرْوِيَهَا، وَلَوْ كَانَ يَسْكُبُهُ انْسِكَاباً كَانَ يَنْزِلُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَا يَغُورُ فِيهَا، ثُمَّ كَانَ يَحْطِمُ الزُّرُوعَ الْقَائِمَةَ إِذَا انْدَفَقَ عَلَيْهَا، فَصَارَ يَنْزِلُ نُزُولًا رَقِيقاً فَيُنْبِتُ الْحَبَّ الْمَزْرُوعَ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ وَالزَّرْعَ الْقَائِمَ، وَفِي نُزُولِهِ أَيْضاً مَصَالِحُ أُخْرَى؛ فَإِنَّهُ يُلَيِّنُ الْأَبْدَانَ، وَيَجْلُو كَدَرَ الْهَوَاءِ فَيَرْتَفِعُ الْوَبَاءُ الْحَادِثُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَغْسِلُ مَا يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِوَالزَّرْعِ مِنَ الدَّاءِ الْمُسَمَّى بِالْيَرَقَانِ[1] إِلَى أَشْبَاهِ هَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَوَ لَيْسَ قَدْ يَكُونُ مِنْهُ فِي بَعْضِ السِّنِينَ الضَّرَرُ الْعَظِيمُ الْكَثِيرُلِشِدَّةِ مَا يَقَعُ مِنْهُ، أَوْ بَرَدٍ[2] يَكُونُ فِيهِ تَحَطُّمُ الْغَلَّاتِ وَبَخُورَةٍ يُحْدِثُهَا فِي الْهَوَاءِ فَيُوَلِّدُ كَثِيراً مِنَ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْآفَاتِ فِي الْغَلَّاتِ؟ قِيلَ: بَلَى، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْفَرْطُ لِمَا فِيهِ مِنْ صَلَاحِ الْإِنْسَانِ، وَكَفِّهِ عَنْ رُكُوبِ الْمَعَاصِي وَالتَّمَادِي فِيهَا، فَيَكُونُ الْمَنْفَعَةُ فِيمَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ دِينِهِ أَرْجَحَ مِمَّا عَسَى أَنْ يُرْزَأَ فِي مَالِهِ.

منافع الجبال

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَرْكُومَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسَبُهَا الْغَافِلُونَ فَضْلًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا، وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهَا الثُّلُوجُ فَتَبْقَى فِي قِلَالِهَا[3] لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَذُوبُ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِي مِنْهُ الْعُيُونُ الْغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ الْعِظَامُ، وَيَنْبُتُ فِيهَا ضُرُوبٌ مِنَ النَّبَاتِ وَالْعَقَاقِيرِ

---

(١) اليرقان: آفة للزرع أو دود يسطو على الزرع.

(٢) البرد: ماء الغمام يتجمد في الهواء البارد ويسقط على الأرض حبوبا.

(٣) القلال: جمع قلّة، أعلى الرأس والجبل وكلّ شيء.

الَّتِي لَا يَنْبُتُ مِثْلُهَا فِي السَّهْلِ، وَيَكُونَ فِيهَا كُهُوفٌ وَمَعَاقِلُ لِلْوُحُوشِ مِنَ السِّبَاعِ الْعَادِيَةِ[١]، وَيُتَّخَذَ مِنْهَا الْحُصُونُ وَالْقِلاَعُ الْمَنِيعَةُ لِلتَّحَرُّزِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَيُنْحَتَ مِنْهَا الْحِجَارَةُ لِلْبِنَاءِ وَالْأَرْحَاءِ[٢]، وَيُوجَدَ فِيهَا مَعَادِنُ لِضَرْبٍ مِنَ الْجَوَاهِرِ، وَفِيهَا خِلاَلٌ أُخَرُ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُقَدِّرُ لَهَا فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.

أنواع المعادن واستفادة الإنسان منها

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الْمَعَادِنِ وَمَا يُخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُخْتَلِفَةِ مِثْلِ الْجِصِّ وَالْكِلْسِ وَالْجِبْسِينِ وَالزَّرْنِيخِ[٣] وَالْمَرْتَكِ[٤] وَالتُّوتِيَاءِ[٥] وَالزِّئْبَقِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ وَضُرُوبِ الْحِجَارَةِ، وَكَذَلِكَ مَا يُخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْقَارِ وَالْمُومِيَا وَالْكِبْرِيتِ وَالنِّفْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ فِي مَآرِبِهِمْ، فَهَلْ يَخْفَى عَلَى ذِي عَقْلٍ أَنَّ هَذِهِ كُلَّهَا ذَخَائِرُ ذُخِرَتْ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لِيَسْتَخْرِجَهَا فَيَسْتَعْمِلَهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؟

ثُمَّ قَصُرَتْ حِيلَةُ النَّاسِ عَمَّا حَاوَلُوا مِنْ صَنْعَتِهَا عَلَى حِرْصِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَوْ ظَفِرُوا بِمَا حَاوَلُوا مِنْ هَذَا الْعِلْمِ كَانَ لَا مَحَالَةَ سَيَظْهَرُ وَيَسْتَفِيضُ فِي الْعَالَمِ حَتَّى تَكْثُرَ الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَيَسْقُطَا عِنْدَ النَّاسِ فَلَا تَكُونُ لَهُمَا قِيمَةٌ، وَيَبْطُلُ الِانْتِفَاعُ بِهِمَا فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَلَا كَانَ يَجْبِي السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ، وَلَا يَدَّخِرُهُمَا أَحَدٌ لِلْأَعْقَابِ، وَقَدْ أُعْطِيَ النَّاسُ مَعَ هَذَا صَنْعَةَ الشَّبَهِ[٦] مِنَ النُّحَاسِ،

---

(١) العادية: المعتدية.

(٢) الأرحاء: جمع رحى وهي الطاحون.

(٣) الزرنيخ عنصر معروف يوجد منفرداً وعلى حالة كبر تيور الزرنيخ وهو جسم صلب لونه سنجابي لماع متبلور يتطاير بالحرارة من غير أنّ يصهر ولا يذوب في الماء، وإذا خلط الزرنيخ مع الكلس حلق الشعر.

(٤) المرتك وتضاف إليه غالبا كلمة الذهبي وهو أكسيد الرصاص عبارة عن بلورات صغيرة مسحوقة يدخل في تركيب مرهم للبواسير.

(٥) التوتيا هي أوكسيد الزنك غير النقي مخلوطاً مع الزرنيخ.

(٦) الشبه: هو النحاس الأصفر.

وَالزُّجَاجِ مِنَ الرَّمْلِ، وَالْفِضَّةِ مِنَ الرَّصَاصِ، وَالذَّهَبِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا لَا مَضَرَّةَ فِيهِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أُعْطُوا إِرَادَتَهُمْ فِي مَا لَا ضَرَرَ فِيهِ، وَمُنِعُوا ذَلِكَ فِيمَا كَانَ ضَارّاً لَهُمْ لَوْ نَالُوهُ.

وَمَنْ أَوْغَلَ فِي الْمَعَادِنِ انْتَهَى إِلَى وَادٍ عَظِيمٍ يَجْرِي مُنْصَلِتاً بِمَاءٍ غَزِيرٍ لَا يُدْرَكُ غَوْرُهُ وَلَا حِيلَةَ فِي عُبُورِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ مِنَ الْفِضَّةِ، تَفَكَّرِ الْآنَ فِي هَذَا مِنْ تَدْبِيرِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ، فَإِنَّهُ أَرَادَ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- أَنْ يَرَى الْعِبَادُ قُدْرَتَهُ وَسَعَةَ خَزَائِنِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَوْ شَاءَ أَنْ يَمْنَحَهُمْ كَالْجِبَالِ مِنَ الْفِضَّةِ لَفَعَلَ لَكِنْ لَا صَلَاحَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فَيَكُونُ فِيهَا كَمَا ذَكَرْنَا سُقُوطُ هَذَا الْجَوْهَرِ عِنْدَ النَّاسِ، وَقِلَّةُ انْتِفَاعِهِمْ بِهِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ الشَّيْءُ الظَّرِيفُ مِمَّا يُحْدِثُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَوَانِي وَالْأَمْتِعَةِ فَمَا دَامَ عَزِيزاً قَلِيلاً فَهُوَ نَفِيسٌ جَلِيلٌ آخِذُ الثَّمَنِ، فَإِذَا فَشَا وَكَثُرَ فِي أَيْدِي النَّاسِ سَقَطَ عِنْدَهُمْ، وَخَسَّتْ قِيمَتُهُ وَنَفَاسَةُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عِزَّتِهَا.

النبات وما فيه من ضروب المآرب

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذَا النَّبَاتِ وَمَا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَآرِبِ؛ فَالثِّمَارُ لِلْغِذَاءِ، وَالْأَتْبَانُ[1] لِلْعَلَفِ، وَالْحَطَبُ لِلْوُقُودِ، وَالْخَشَبُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ النِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا، وَاللِّحَاءُ[2] وَالْوَرَقُ وَالْأُصُولُ وَالْعُرُوقُ وَالصُّمُوغُ لِضُرُوبٍ مِنَ الْمَنَافِعِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كُنَّا نَجِدُ الثِّمَارَ الَّتِي نَغْتَذِي بِهَا مَجْمُوعَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَمْ تَكُنْ تَنْبُتُ عَلَى هَذِهِ الْأَغْصَانِ الْحَامِلَةِ لَهَا كَمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنَ الْخَلَلِ فِي مَعَاشِنَا؟ وَإِنْ كَانَ الْغِذَاءُ مَوْجُوداً فَإِنَّ الْمَنَافِعَ بِالْخَشَبِ وَالْحَطَبِ وَالْأَتْبَانِ وَسَائِرِ مَا عَدَدْنَاهُ كَثِيرَةٌ عَظِيمٌ قَدْرُهَا جَلِيلٌ مَوْقِعُهَا، هَذَا مَعَ مَا فِي النَّبَاتِ مِنَ التَّلَذُّذِ بِحُسْنِ مَنْظَرِهِ وَنَضَارَتِهِ الَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ مِنْ مَنَاظِرِ الْعَالَمِ وَمَلَاهِيهِ.

---

(١) لم يرد في معاجم اللغة العربية لفظ الأتبان على معنى التبن المعروف ولعلّ اللفظ قد غيره النسّاخ والصحيح تبن.

(٢) اللّحاء: قشر العود أو الشجر.

الريع في النبات وسببه

فكِّرْ يامُفضَّلُ فِي هَذَا الرَّيْعِ الَّذِي جُعِلَ فِي الزَّرْعِ فَصارَتِ الْحَبَّةُ الْوَاحِدَةُ تُخَلِّفُ مِائَةَ حَبَّةٍ وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ، وَكَانَ يَجُوزُ لِلْحَبَّةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهَا، فَلِمَ صارَتْ تَرِيعُ هَذَا الرَّيْعَ إِلَّا لِيَكُونَ فِي الْغَلَّةِ[1] مُتَّسَعٌ لِمَا يَرِدُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَذْرِ، وَمَا يَتَقَوَّتُ الزُّرَّاعُ إِلَى إِدْرَاكِ زَرْعِهَا الْمُسْتَقْبَلِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَلِكَ لَوْ أَرَادَ عِمَارَةَ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ كَانَ السَّبِيلُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُعْطِيَ أَهْلَهُ مَا يَبْذُرُونَهُ فِي أَرْضِهِمْ، وَمَا يَقُوتُهُمْ إِلَى إِدْرَاكِ زَرْعِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَجِدُ هَذَا الْمِثَالَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ، فَصَارَ الزَّرْعُ يَرِيعُ هَذَا الرَّيْعَ لِيَفِيَ بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْقُوتِ وَالزِّرَاعَةِ، وَكَذَلِكَ الشَّجَرُ وَالنَّبْتُ وَالنَّخْلُ يَرِيعُ الرَّيْعَ الْكَثِيرَ فَإِنَّكَ تَرَى الْأَصْلَ الْوَاحِدَ حَوْلَهُ مِنْ فِرَاخِهِ أَمْراً عَظِيماً فَلِمَ كَانَ كَذَلِكَ إِلَّا لِيَكُونَ فِيهِ مَا يَقْطَعُهُ النَّاسُ وَيَسْتَعْمِلُونَهُ فِي مَآرِبِهِمْ، وَمَا يُرَدُّ فَيُغْرَسُ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ الْأَصْلُ مِنْهُ يَبْقَى مُنْفَرِداً لَا يُفْرِخُ وَلَا يَرِيعُ لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُقْطَعَ مِنْهُ شَيْءٌ لِعَمَلٍ وَلَا لِغَرْسٍ، ثُمَّ كَانَ إِنْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ انْقَطَعَ أَصْلُهُ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ خَلَفٌ.

بعض النباتات وكيف تصان

تَأَمَّلْ نَبَاتَ هَذِهِ الْحُبُوبِ مِنَ الْعَدَسِ وَالْمَاشِ وَالْبَاقِلَاءِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي أَوْعِيَةٍ مِثْلِ الْخَرَائِطِ لِتَصُونَهَا وَتَحْجُبَهَا مِنَ الْآفَاتِ إِلَى أَنْ تَشْتَدَّ وَتَسْتَحْكِمَ، كَمَا قَدْ تَكُونُ الْمَشِيمَةُ[2] عَلَى الْجَنِينِ لِهَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ.

وَأَمَّا الْبُرُّ[3] وَمَا أَشْبَهَهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مُدْرَجاً فِي قُشُورٍ صِلَابٍ عَلَى رُؤُوسِهَا أَمْثَالُ الْأَسِنَّةِ مِنَ السُّنْبُلِ لِيُمْنَعَ الطَّيْرُ مِنْهُ لِيَتَوَفَّرَ عَلَى الزُّرَّاعِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَوَلَيْسَ قَدْ يَنَالُ الطَّيْرُ مِنَ الْبُرِّ وَالْحُبُوبِ؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى عَلَى هَذَا قُدِّرَ الْأَمْرُ فِيهَا لِأَنَّ الطَّيْرَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ فِي مَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ حَظّاً، وَلَكِنْ

---

(١) الغلة: الدخل من كراء دار وفائدة أرض ونحو ذلك والجمع غلات وغلال.

(٢) المشيمة: غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة.

(٣) البرّ: هو القمح.

حُصِنَتِ الْحُبُوبُ بِهَذِهِ الْحُجُبِ لِئَلَّا يَتَمَكَّنَ الطَّيْرُ مِنْهَا كُلَّ التَّمَكُّنِ فَيَعْبَثَ بِهَا، وَيُفْسِدَ الْفَسَادَ الْفَاحِشَ، فَإِنَّ الطَّيْرَ لَوْ صَادَفَ الْحَبَّ بَارِزاً لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَحُولُ دُونَهُ لَأَكَبَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْسِفَهُ أَصْلًا فَكَانَ يَعْرِضُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَبْشَمَ[1] الطَّيْرُ فَيَمُوتَ، وَيَخْرُجَ الزَّارِعُ مِنْ زَرْعِهِ صِفْراً، فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوِقَايَاتُ لِتَصُونَهُ، فَيَنَالَ الطَّائِرُ مِنْهُ شَيْئاً يَسِيراً يَتَقَوَّتُ بِهِ، وَيَبْقَى أَكْثَرُهُ لِلْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ أَوْلَى بِهِ إِذْ كَانَ هُوَ الَّذِي كَدَحَ فِيهِ وَشَقِيَ بِهِ وَكَانَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الطَّيْرُ.

الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات

تَأَمَّلِ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ الشَّجَرِ وَأَصْنَافِ النَّبَاتِ؛ فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى الْغِذَاءِ الدَّائِمِ كَحَاجَةِ الْحَيَوَانِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَفْوَاهٌ كَأَفْوَاهِ الْحَيَوَانِ، وَلَا حَرَكَةٌ تَنْبَعِثُ بِهَا لِتَنَاوُلِ الْغِذَاءِ جُعِلَتْ أُصُولُهَا مَرْكُوزَةً فِي الْأَرْضِ لِتَنْزِعَ مِنْهَا الْغِذَاءَ فَتُؤَدِّيَهُ إِلَى الْأَغْصَانِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْوَرَقِ وَالثَّمَرِ فَصَارَتِ الْأَرْضُ كَالْأُمِّ الْمُرَبِّيَةِ لَهَا وَصَارَتْ أُصُولُهَا الَّتِي هِيَ كَالْأَفْوَاهِ مُلْتَقِمَةً لِلْأَرْضِ لِتَنْزِعَ مِنْهَا الْغِذَاءَ، كَمَا تُرْضِعُ أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ أُمَّهَاتُهَا، أَلَمْ تَرَ إِلَى عَمَدِ الْفَسَاطِيطِ[2] وَالْخِيَمِ كَيْفَ تُمَدُّ بِالْأَطْنَابِ[3] مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِتَثْبُتَ مُنْتَصِبَةً فَلَا تَسْقُطُ وَلَا تَمِيلُ، فَهَكَذَا تَجِدُ النَّبَاتَ كُلَّهُ لَهُ عُرُوقٌ مُنْتَشِرَةٌ فِي الْأَرْضِ، مُمْتَدَّةٌ إِلَى كُلِّ جَانِبٍ لِتُمْسِكَهُ وَتُقِيمَهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ كَيْفَ كَانَ يَثْبُتُ هَذَا النَّخْلُ الطِّوَالُ، وَالدَّوْحُ الْعِظَامُ فِي الرِّيحِ الْعَاصِفِ، فَانْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ كَيْفَ سَبَقَتْ حِكْمَةَ الصِّنَاعَةِ فَصَارَتِ الْحِيلَةُ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الصُّنَّاعُ فِي ثَبَاتِ الْفَسَاطِيطِ وَالْخِيَمِ مُتَقَدِّمَةً فِي خَلْقِ الشَّجَرِ، لِأَنَّ خَلْقَ الشَّجَرِ قَبْلَ صَنْعَةِ الْفَسَاطِيطِ وَالْخِيَمِ، أَلَا تَرَى عَمَدَهَا وَعِيدَانَهَا مِنَ الشَّجَرِ، فَالصِّنَاعَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْخِلْقَةِ.

---

(١) يبشم الطعام: أي يتخم من الطعام.

(٢) الفساطيط: جمع فسطاط بيت من شعر.

(٣) الأطناب: جمع طنب حبل طويل يشد به سرادق البيت

خلق الورق ووصفه

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ خَلْقَ الْوَرَقِ؛ فَإِنَّكَ تَرَى فِي الْوَرَقَةِ شِبْهَ الْعُرُوقِ مَبْثُوثَةً فِيهَا أَجْمَعَ، فَمِنْهَا غِلَاظٌ مُمْتَدَّةٌ فِي طُولِهَا وَعَرْضِهَا، وَمِنْهَا دِقَاقٌ تَتَخَلَّلُ تِلْكَ الْغِلَاظَ، مَنْسُوجَةً نَسْجاً دَقِيقاً مُعْجَماً، لَوْ كَانَ مِمَّا يُصْنَعُ بِالْأَيْدِي كَصَنْعَةِ الْبَشَرِ لَمَا فُرِغَ مِنْ وَرَقِ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عَامٍ كَامِلٍ، وَلَاحتِيجَ إِلَى آلَاتٍ وَحَرَكَةٍ وَعِلَاجٍ وَكَلَامٍ، فَصَارَ يَأْتِي مِنْهُ فِي أَيَّامٍ قَلَائِلَ مِنَ الرَّبِيعِ مَا يَمْلَأُ الْجِبَالَ وَالسَّهْلَ وَبِقَاعَ الْأَرْضِ كُلَّهَا بِلَا حَرَكَةٍ وَلَا كَلَامٍ إِلَّا بِالْإِرَادَةِ النَّافِذَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْأَمْرِ الْمُطَاعِ.

وَاعْرِفْ مَعَ ذَلِكَ الْعِلَّةَ فِي تِلْكَ الْعُرُوقِ الدِّقَاقِ فَإِنَّهَا جُعِلَتْ تَتَخَلَّلُ الْوَرَقَةَ بِأَسْرِهَا لِتَسْقِيَهَا وَتُوصِلَ الْمَاءَ إِلَيْهَا، بِمَنْزِلَةِ الْعُرُوقِ الْمَبْثُوثَةِ فِي الْبَدَنِ لِتُوصِلَ الْغِذَاءَ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ، وَفِي الْغِلَاظِ مِنْهَا مَعْنًى آخَرُ فَإِنَّهَا تُمْسِكُ الْوَرَقَةَ بِصَلَابَتِهَا وَمَتَانَتِهَا لِئَلَّا تَنْهَتِكَ وَتَتَمَزَّقَ، فَتَرَى الْوَرَقَةَ شَبِيهَةً بِوَرَقَةٍ مَعْمُولَةٍ بِالصَّنْعَةِ مِنْ خِرَقٍ قَدْ جُعِلَتْ فِيهَا عِيدَانٌ مَمْدُودَةٌ فِي طُولِهَا وَعَرْضِهَا لِتَتَمَاسَكَ فَلَا تَضْطَرِبَ، فَالصِّنَاعَةُ تَحْكِي الْخِلْقَةَ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُدْرِكُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ.

العجم والنوى والعلة في خلقه

فَكِّرْ فِي هَذَا الْعَجَمِ وَالنَّوَى وَالْعِلَّةِ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ جُعِلَ فِي جَوْفِ الثَّمَرَةِ لِيَقُومَ مَقَامَ الْغَرْسِ إِنْ عَاقَ دُونَ الْغَرْسِ عَائِقٌ، كَمَا يُحْرَزُ الشَّيْءُ النَّفِيسُ الَّذِي تَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، فَإِنْ حَدَثَ عَلَى الَّذِي فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْهُ حَادِثٌ وُجِدَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ يُمْسِكُ بِصَلَابَتِهِ رَخَاوَةَ الثِّمَارِ وَرِقَّتَهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَتَشَدَّخَتْ(١) وَتَفَسَّخَتْ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا الْفَسَادُ، وَبَعْضُهُ يُؤْكَلُ وَيُسْتَخْرَجُ دُهْنُهُ فَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ ضُرُوبٌ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مَوْضِعُ الْإِرْبِ فِي الْعَجَمِ وَالنَّوَى فَكِّرِ الْآنَ فِي هَذَا الَّذِي تَجِدُهُ فَوْقَ النَّوَاةِ مِنَ الرُّطْبَةِ، وَفَوْقَ الْعَجَمِ مِنَ الْعِنَبَةِ، فَمَا الْعِلَّةُ فِيهِ؟ وَلِمَا ذَا يَخْرُجُ

---

(١) تشدّخت: تكسّرت.

فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ ذَلِكَ مَا لَيْسَ فِيهِ مَأْكَلٌ كَمِثْلِ مَا يَكُونُ فِي السِّدْرِ(١) وَالدُّلْبِ(٢) وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟ فَلِمَ صَارَ يَخْرُجُ فَوْقَهُ هَذِهِ الْمَطَاعِمُ اللَّذِيذَةُ إِلَّا لِيَسْتَمْتِعَ بِهَا الْإِنْسَانُ؟

موت الشجر وتجدد حياته

فَكِّرْ فِي ضُرُوبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ فِي الشَّجَرِ؛ فَإِنَّكَ تَرَاهُ يَمُوتُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَوْتَةً، فَتَحْتَبِسُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ فِي عُودِهِ، وَيَتَوَلَّدُ فِيهِ مَوَادُّ الثِّمَارِ، ثُمَّ يَحْيَا وَيَنْتَشِرُ، فَيَأْتِيكَ بِهَذِهِ الْفَوَاكِهِ نَوْعاً بَعْدَ نَوْعٍ، كَمَا تُقَدَّمُ إِلَيْكَ أَنْوَاعُ الْأَطْبِخَةِ الَّتِي تُعَالَجُ بِالْأَيْدِي وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، فَتَرَى الْأَغْصَانَ فِي الشَّجَرِ تَتَلَقَّاكَ بِثِمَارِهَا حَتَّى كَأَنَّهَا تُنَاوِلُكَهَا عَنْ يَدٍ، وَتَرَى الرَّيَاحِينَ تَتَلَقَّاكَ فِي أَفْنَانِهَا(٣) كَأَنَّهَا تَجِيئُكَ بِأَنْفُسِهَا، فَلِمَنْ هَذَا التَّقْدِيرُ إِلَّا لِمُقَدِّرٍ حَكِيمٍ؟ وَمَا الْعِلَّةُ فِيهِ إِلَّا تَفْكِيهُ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الثِّمَارِ وَالْأَنْوَارِ؟ وَالْعَجَبُ مِنْ أُنَاسٍ جَعَلُوا مَكَانَ الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ جُحُودَ الْمُنْعِمِ بِهَا.

خلق الرمان

وَاعْتَبِرْ بِخَلْقِ الرُّمَّانَةِ وَمَا تَرَى فِيهَا مِنْ أَثَرِ الْعَمْدِ وَالتَّدْبِيرِ؛ فَإِنَّكَ تَرَى فِيهَا كَأَمْثَالِ التِّلَالِ مِنْ شَحْمٍ مَرْكُومٍ فِي نَوَاحِيهَا، وَحَبٍّ مَرْصُوفٍ رَصْفاً كَنَحْوِ مَا يُنْضَدُ بِالْأَيْدِي، وَتَرَى الْحَبَّ مَقْسُوماً أَقْسَاماً، وَكُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا مَلْفُوفاً بِلَفَائِفَ مِنْ حُجُبٍ مَنْسُوجَةٍ أَعْجَبَ النَّسْجِ وَأَلْطَفَهُ، وَقِشْرَهُ يَضُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَمِنَ التَّدْبِيرِ فِي هَذِهِ الصَّنْعَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَشْوُ الرُّمَّانَةِ مِنَ الْحَبِّ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَبَّ لَا يَمُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً، فَجُعِلَ ذَلِكَ الشَّحْمُ خِلَالَ الْحَبِّ لِيَمُدَّهُ بِالْغِذَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّ أُصُولَ الْحَبِّ مَرْكُوزَةٌ فِي ذَلِكَ الشَّحْمِ؟ ثُمَّ لُفَّ بِتِلْكَ اللَّفَائِفِ لِتَضُمَّهُ وَتُمْسِكَهُ فَلَا يَضْطَرِبَ، وَغُشِيَ فَوْقَ ذَلِكَ بِالْقِشْرَةِ الْمُسْتَحْصِفَةِ لِتَصُونَهُ وَتُحْصِنَهُ مِنَ الْآفَاتِ، فَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ

---

(١) السدر: شجر النّبق جمعه سدور.

(٢) الدلب: شجر عظيم عريض الورق لا زهر له ولا ثمر والواحدة دلبة.

(٣) الأفنان: جمع فنن وهو الغصن المستقيم.

كَثِيرٍ مِنْ وَصْفِ الرُّمَّانَةِ، وَفِيهِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لِمَنْ أَرَادَ الإِطْنَابَ، وَالتَّذَرُّعَ فِي الْكَلَامِ، وَلَكِنْ فِيمَا ذَكَرْتُ لَكَ كِفَايَةٌ فِي الدَّلَالَةِ وَالِاعْتِبَارِ.

اليقطين

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي حَمْلِ الْيَقْطِينِ الضَّعِيفِ مِثْلَ هَذِهِ الثِّمَارِ الثَّقِيلَةِ مِنَ الدُّبَّاءِ وَالْقِثَّاءِ[1] وَالْبِطِّيخِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ، فَإِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَحْمِلَ مِثْلَ هَذِهِ الثِّمَارِ جُعِلَ نَبَاتُهُ مُنْبَسِطاً عَلَى الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ يَنْتَصِبُ قَائِماً كَمَا يَنْتَصِبُ الزَّرْعُ وَالشَّجَرُ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَ مِثْلَ هَذِهِ الثِّمَارِ الثَّقِيلَةِ، وَلتقصف قَبْلَ إِدْرَاكِهَا وَانْتِهَائِهَا إِلَى غَايَاتِهَا، فَانْظُرْ كَيْفَ صَارَ يَمْتَدُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِيُلْقِيَ عَلَيْهَا ثِمَارَهُ، فَتَحْمِلَهَا عَنْهُ، فَتَرَى الْأَصْلَ مِنَ الْقَرْعِ[2] وَالْبِطِّيخِ مُفْتَرِشاً لِلْأَرْضِ، وَثِمَارُهُ مَبْثُوثَةً عَلَيْهَا، وَحَوَالَيْهِ كَأَنَّهُ هِرَّةٌ مُمْتَدَّةٌ وَقَدِ اكْتَنَفَتْهَا جِرَاؤُهَا لِتَرْضَعَ مِنْهَا.

موافاة أصناف النبات في الوقت المناسب

وَ انْظُرْ كَيْفَ صَارَتِ الْأَصْنَافُ تُوَافِي فِي الْوَقْتِ الْمُشَاكِلِ لَهَا مِنْ حَمَارَّةِ[3] الصَّيْفِ وَوَقْدَةِ الْحَرِّ فَتَلَقَّاهَا النُّفُوسُ بِانْشِرَاحٍ وَتَشَوُّقٍ إِلَيْهَا، وَلَوْ كَانَتْ تُوَافِي الشِّتَاءَ لَوَافَقَتْ مِنَ النَّاسِ كَرَاهَةً لَهَا، وَاقْشِعْرَاراً[4] مِنْهَا، مَعَ مَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ لِلْأَبْدَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ شَيْءٌ مِنَ الْخِيَارِ فِي الشِّتَاءِ فَيَمْتَنِعُ النَّاسُ مِنْ أَكْلِهِ إِلَّا الشَّرِهَ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ مِنْ أَكْلِ مَا يَضُرُّهُ وَيُسْقِمُ مَعِدَتَهُ.

النخل والخشب

فَكِّرْ يَا مُفَضَّلُ فِي النَّخْلِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا صَارَ فِيهِ إِنَاثٌ تَحْتَاجُ إِلَى التَّلْقِيحِ جُعِلَتْ فِيهِ ذُكُورَةٌ لِلِّقَاحِ مِنْ غَيْرِ غِرَاسٍ، فَصَارَ الذَّكَرُ مِنَ النَّخْلِ بِمَنْزِلَةِ الذَّكَرِ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي

---

(١) القثّاء: نوع من النبات ثمره يشبه ثمر الخيار الواحدة قثاءة

(٢) القرع: نوع من اليقطين، الواحدة قرعة.

(٣) الحمّارة: شدة الحرّ.

(٤) اقشعرّ: تغير لونه.

يُلْقِحُ الْإِنَاثَ لِتَحْمِلَ، وَهُوَ لَا يَحْمِلُ.

تَأَمَّلْ خِلْقَةَ الْجِذْعِ كَيْفَ هُوَ فَإِنَّكَ تَرَاهُ كَالْمَنْسُوجِ نَسْجاً مِنْ خُيُوطٍ مَمْدُودَةٍ كَالسَّدَى، وَأُخْرَى مَعَهُ مُعْتَرِضَةٌ كَاللُّحْمَةِ[1]، كَنَحْوِ مَا يُنْسَجُ بِالْأَيْدِي، وَذَلِكَ لِيَشْتَدَّ وَيَصْلُبَ وَلَا يَتَقَصَّفَ مِنْ حَمْلِ الْقَنَوَاتِ الثَّقِيلَةِ، وَهَزِّ الرِّيَاحِ الْعَوَاصِفِ إِذَا صَارَ نَخْلَةً، وَلِيَتَهَيَّأَ لِلسُّقُوفِ وَالْجُسُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُتَّخَذُ مِنْهُ إِذَا صَارَ جِذْعاً.

وَكَذَلِكَ تَرَى الْخَشَبَ مِثْلَ النَّسْجِ فَإِنَّكَ تَرَى بَعْضَهُ مُدَاخِلًا بَعْضُهُ بَعْضاً طُولًا وَعَرْضاً كَتَدَاخُلِ أَجْزَاءِ اللَّحْمِ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مَتَانَةٌ لِيَصْلُحَ لِمَا يُتَّخَذُ مِنْهُ مِنَ الْآلَاتِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْتَحْصَفاً[2] كَالْحِجَارَةِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي السُّقُوفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبَةُ كَالْأَبْوَابِ وَالْأَسِرَّةِ وَالتَّوَابِيتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَمِنْ جَسِيمِ الْمَصَالِحِ فِي الْخَشَبِ أَنَّهُ يَطْفُو عَلَى الْمَاءِ، فَكُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ هَذَا مِنْهُ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَعْرِفُ جَلَالَةَ الْأَمْرِ فِيهِ، فَلَوْلَا هَذِهِ الْخُلَّةُ كَيْفَ كَانَتْ هَذِهِ السُّفُنُ وَالْأَظْرَافُ تَحْمِلُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الْحَمُولَةِ؟ وَأَنَّى كَانَ يَنَالُ النَّاسُ هَذَا الرِّفْقَ وَخِفَّةَ الْمَئُونَةِ فِي حَمْلِ التِّجَارَاتِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ؟

وَكَانَتْ تَعْظُمُ الْمَئُونَةُ عَلَيْهِمْ فِي حَمْلِهَا حَتَّى يُلْقَى كَثِيرٌ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ مَفْقُوداً أَصْلًا أَوْ عَسُرَ وُجُودُهُ.

العقاقير واختصاص كلّ منها

فَكِّرْ فِي هَذِهِ الْعَقَاقِيرِ وَمَا خُصَّ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْعَمَلِ فِي بَعْضِ الْأَدْوَاءِ؛ فَهَذَا يَغُورُ فِي الْمَفَاصِلِ فَيَسْتَخْرِجُ الْفُضُولَ الْغَلِيظَةَ مِثْلَ الشَّيْطَرَجِ[3]، وَهَذَا يَنْزِفُ

---

(١) اللّحمة: ما سدي به بين سدى الثوب أي ما نسج عرضا وهو خلاف سواه والجمع لحم.

(٢) أراد بالمستحصف: الشديد المحكم كأنه الحجارة.

(٣) شيطرج هندي هو الخامشة وهو نبت يوجد بالقبور الخراب له ورق عريض ودقيق ينتشر أعلاه إذا برد الجو وزهره أحمر إلى بياض، يخلف بزر أسود أصغر من الخردل ورائحته ثقيلة حادّة وطعمه الى مرارة.

الْمِرَّةَ السَّوْدَاءَ(١) مِثْلَ الْأَفْتِيمُونِ(٢)، وَهَذَا يَنْفِي الرِّيَاحَ مِثْلَ السَّكْبِينَجِ(٣)، وَهَذَا يُحَلِّلُ الْأَوْرَامَ وَأَشْبَاهَ هَذَا مِنْ أَفْعَالِهَا، فَمَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْقُوَى فِيهَا إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا لِلْمَنْفَعَةِ؟ وَمَنْ فَطَّنَ النَّاسَ لَهَا إِلَّا مَنْ جَعَلَ هَذَا فِيهَا؟ وَمَتَى كَانَ يُوقَفُ عَلَى هَذَا مِنْهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ -كَمَا قَالَ الْقَائِلُونَ؟ وَهَبِ الْإِنْسَانُ فَطَنَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِذِهْنِهِ وَلَطِيفِ رَوِيَّتِهِ وَتَجَارِبِهِ، فَالْبَهَائِمُ كَيْفَ فَطَنَتْ لَهَا حَتَّى صَارَ بَعْضُ السِّبَاعِ يَتَدَاوَى مِنْ جِرَاحَةٍ إِنْ أَصَابَتْهُ بِبَعْضِ الْعَقَاقِيرِ فَيَبْرَأُ، وَبَعْضُ الطَّيْرِ يَحْتَقِنُ مِنَ الْحُصْرِ يُصِيبُهُ بِمَاءِ الْبَحْرِ فَيَسْلَمُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَلَعَلَّكَ تُشَكِّكُ فِي هَذَا النَّبَاتِ النَّابِتِ فِي الصَّحَارِي وَالْبَرَارِي حَيْثُ لَا أُنْسَ وَلَا أَنِيسَ فَتَظُنُّ أَنَّهُ فَضْلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ طُعْمٌ لِهَذِهِ الْوُحُوشِ، وَحَبُّهُ عَلَفٌ لِلطَّيْرِ، وَعُودُهُ وَأَفْنَانُهُ حَطَبٌ فَيَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ، وَفِيهِ بَعْدُ أَشْيَاءُ تُعَالَجُ بِهَا الْأَبْدَانُ، وَأُخْرَى تُدْبَغُ بِهَا الْجُلُودُ، وَأُخْرَى تُصْبَغُ بِهِ الْأَمْتِعَةُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْمَصَالِحِ، أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ أَخَسِّ النَّبَاتِ وَأَحْقَرِهِ هَذَا الْبَرْدِيُّ وَمَا أَشْبَهَهَا فَفِيهَا مَعَ هَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْمَنَافِعِ، فَقَدْ يُتَّخَذُ مِنَ الْبَرْدِيِّ الْقَرَاطِيسُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ وَالْحُصُرُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا كُلُّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَيُعْمَلُ مِنْهُ الْغُلُفُ الَّتِي يُوقَى بِهَا الْأَوَانِي وَيُجْعَلُ حَشْواً بَيْنَ الظُّرُوفِ فِي الْأَسْفَاطِ لِكَيْلَا تَعِيبَ وَتَنْكَسِرَ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ، فَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ ضُرُوبِ الْمَآرِبِ فِي صَغِيرِ الْخَلْقِ وَكَبِيرِهِ، وَبِمَا لَهُ قِيمَةٌ وَمَا لَا قِيمَةَ لَهُ.

وَأَخَسُّ مِنْ هَذَا وَأَحْقَرُهُ الزِّبْلُ وَالْعَذِرَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِيهَا الْخَسَاسَةُ وَالنَّجَاسَةُ مَعاً، وَمَوْقِعُهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالْبُقُولِ وَالْخُضَرِ أَجْمَعُ الْمَوْقِعِ الَّذِي لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ، حَتَّى

(١) المرّة السوداء: خلط من أخلاط البدن.

(٢) أفتيمون لفظ يوناني معناه دواء الجنون وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة وفروع كالخيوط الليفيّة تحفّ بأوراق دقاق خضر وزهره الى حمرة وغيرة وبزر دون الخردل أحمر إلى صفرة يلتف بما يليه.

(٣) سكبينج او سكنبيج هو شجرة بفارس، ويورد الأطباء الأقدمون أوصافاً طبيّة كثيرة من السكنبيج ويذكرون أنّه يذهب عدّة أمراض.

أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخُضَرِ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَزْكُو إِلَّا بِالزِّبْلِ وَالسَّمَادِ الَّذِي يَسْتَقْذِرُهُ النَّاسُ وَيَكْرَهُونَ الدُّنُوَّ مِنْهُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مَنْزِلَةُ الشَّيْءِ عَلَى حَسَبِ قِيمَتِهِ، بَلْ هُمَا قِيمَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ بِسُوقَيْنِ، وَرُبَّمَا كَانَ الْخَسِيسُ فِي سُوقِ الْمُكْتَسَبِ نَفِيساً فِي سُوقِ الْعِلْمِ، فَلَا تَسْتَصْغِرِ الْعِبْرَةَ فِي الشَّيْءِ لِصِغَرِ قِيمَتِهِ، فَلَوْ فَطَنَ طَالِبُو الْكِيمِيَاءِ لِمَا فِي الْعَذِرَةِ لَاشْتَرَوْهَا بِأَنْفَسِ الْأَثْمَانِ، وَغَالَوْا بِهَا.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: وَحَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ، فَقَامَ مَوْلَايَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَالَ:

بَكِّرْ إِلَيَّ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَانْصَرَفْتُ، وَقَدْ تَضَاعَفَ سُرُورِي بِمَا عَرَّفَنِيهِ، مُبْتَهِجاً بِمَا آتَانِيهِ، حَامِداً للهِ عَلَى مَا مَنَحَنِيهِ، فَبِتُّ لَيْلَتِي مَسْرُوراً.

المجلس الرابع

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ بَكَّرْتُ إِلَى مَوْلَايَ، فَاسْتُؤْذِنَ لِي، فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ عليه السلام:

مِنَّا التَّحْمِيدُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّعْظِيمُ وَالتَّقْدِيسُ لِلاسْمِ الْأَقْدَمِ، وَالنُّورِ الْأَعْظَمِ، الْعَلِيِّ الْعَلَّامِ، ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ، وَمُنْشِئِ الْأَنَامِ، وَمُفْنِي الْعَوَالِمِ وَالدُّهُورِ، وَصَاحِبِ السِّرِّ الْمَسْتُورِ، وَالْغَيْبِ الْمَحْظُورِ، وَالِاسْمِ الْمَخْزُونِ، وَالْعِلْمِ الْمَكْنُونِ، وَصَلَوَاتُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى مُبَلِّغِ وَحْيِهِ، وَمُؤَدِّي رِسَالَتِهِ، الَّذِي بَعَثَهُ بَشِيراً وَنَذِيراً، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[1]، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2]، فَعَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مِنْ بَارِئِهِ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ، وَالتَّحِيَّاتُ الزَّاكِيَاتُ النَّامِيَاتُ، وَعَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالرَّحْمَةُ وَالْبَرَكَاتُ فِي الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ، وَهُمْ أَهْلُهُ وَمُسْتَحِقُّوهُ.

قَدْ شَرَحْتُ لَكَ يَا مُفَضَّلُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى صَوَابِ التَّدْبِيرِ وَالْعَمْدِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَأَنَا أَشْرَحُ لَكَ الْآنَ الْآفَاتِ الْحَادِثَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ الَّتِي اتَّخَذَهَا أُنَاسٌ مِنَ الْجُهَّالِ ذَرِيعَةً إِلَى جُحُودِ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ، وَالْعَمْدِ وَالتَّدْبِيرِ، وَمَا أَنْكَرَتِ الْمُعَطِّلَةُ وَالْمَنَانِيَّةُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ، وَمَا أَنْكَرُوهُ مِنَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَمَا قَالَهُ أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ، وَمَنْ

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٦.

(٢) سورة الأنفال: ٤٢.

زَعَمَ أَنَّ كَوْنَ الْأَشْيَاءِ بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ، لَيَتَّسِعُ ذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١].

الآفات ونظر الجهال إليها والجواب على ذلك

اتَّخَذَ أُنَاسٌ مِنَ الْجُهَّالِ هَذِهِ الْآفَاتِ الْحَادِثَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ كَمِثْلِ: الْوَبَاءِ وَالْيَرَقَانِ وَالْبَرَدِ وَالْجَرَادِ ذَرِيعَةً إِلَى جُحُودِ الْخَالِقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْخَلْقِ، فَيُقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ:

أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ خَالِقٌ وَمُدَبِّرٌ فَلِمَ لَا يَكُونُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا وَأَفْظَعُ؟ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَهْوِيَ الْأَرْضُ فَتَذْهَبَ سُفْلًا، وَتَتَخَلَّفَ الشَّمْسُ عَنِ الطُّلُوعِ أَصْلًا، وَتَجِفَّ الْأَنْهَارُ وَالْعُيُونُ حَتَّى لَا يُوجَدَ مَاءٌ لِلشَّفَةِ، وَتَرْكُدَ الرِّيحُ حَتَّى تَخِمَّ الْأَشْيَاءُ وَتَفْسُدَ، وَيَفِيضَ مَاءُ الْبَحْرِ عَلَى الْأَرْضِ فَيُغْرِقَهَا.

ثُمَّ هَذِهِ الْآفَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنَ الْوَبَاءِ وَالْجَرَادِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مَا بَالُهَا لَا تَدُومُ وَتَمْتَدُّ حَتَّى تَجْتَاحَ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ، بَلْ تَحْدُثُ فِي الْأَحَايِينِ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تُرْفَعَ؟

أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْعَالَمَ يُصَانُ وَيُحْفَظُ مِنْ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَوْ حَدَثَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا كَانَ فِيهِ بَوَارُهُ، وَيُلْذَعُ[٢] أَحْيَاناً بِهَذِهِ الْآفَاتِ الْيَسِيرَةِ لِتَأْدِيبِ النَّاسِ وَتَقْوِيمِهِمْ، ثُمَّ لَا تَدُومُ هَذِهِ الْآفَاتُ بَلْ تُكْشَفُ عَنْهُمْ عِنْدَ الْقُنُوطِ مِنْهُمْ، فَيَكُونُ وُقُوعُهَا بِهِمْ مَوْعِظَةً، وَكَشْفُهَا عَنْهُمْ رَحْمَةً.

وَقَدْ أَنْكَرَتِ الْمَنَانِيَّةُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ فَكِلَاهُمَا يَقُولُ: إِنْ كَانَ لِلْعَالَمِ خَالِقٌ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ فَلِمَ تَحْدُثُ فِيهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الْمَكْرُوهَةُ؟ وَالْقَائِلُ بِهَذَا الْقَوْلِ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَيْشُ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا صَافِياً مِنْ كُلِّ كَدَرٍ، وَلَوْ كَانَ هَكَذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَخْرُجُ مِنَ الْأَشَرِ[٣]

---

(١) سورة التوبة: ٣٠.

(٢) يقال لذعته النار أي أحرقته، ولذعه بلسانه أي أوجعه بكلام.

(٣) الأشر: البطر.

وَالْعُتُوّ(١) إِلَى مَا لاَ يَصْلُحُ فِي دِينٍ وَلاَ دُنْيَا، كَالَّذِي تَرَى كَثِيراً مِنَ الْمُتْرَفِينَ، وَمَنْ نَشَأَ فِي الْجِدَةِ وَالْأَمْنِ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَنَّ أَحَدَهُمْ يَنْسَى أَنَّهُ بَشَرٌ، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ، أَوْ أَنَّ ضَرَراً يَمَسُّهُ، أَوْ أَنَّ مَكْرُوهاً يَنْزِلُ بِهِ، أَوْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْحَمَ ضَعِيفاً، أَوْ يُوَاسِيَ فَقِيراً، أَوْ يَرْثِيَ لِمُبْتَلًى، أَوْ يَتَحَنَّنَ عَلَى ضَعِيفٍ، أَوْ يَتَعَطَّفَ عَلَى مَكْرُوبٍ، فَإِذَا عَضَّتْهُ الْمَكَارِهُ وَوَجَدَ مَضَضَهَا اتَّعَظَ وَأَبْصَرَ كَثِيراً مِمَّا كَانَ جَهِلَهُ وَغَفَلَ عَنْهُ، وَرَجَعَ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ.

وَ الْمُنْكِرُونَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْمُؤْذِيَةِ بِمَنْزِلَةِ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ يَذُمُّونَ الْأَدْوِيَةَ الْمُرَّةَ الْبَشِعَةَ، وَيَتَسَخَّطُونَ مِنَ الْمَنْعِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ الضَّارَّةِ، وَيَتَكَرَّهُونَ الْأَدَبَ وَالْعَمَلَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِلَّهْوِ وَالْبِطَالَةِ، وَيَنَالُوا كُلَّ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا تُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ الْبِطَالَةُ مِنْ سُوءِ النُّشُوءِ وَالْعَادَةِ، وَمَا تُعْقِبُهُمُ الْأَطْعِمَةُ اللَّذِيذَةُ الضَّارَّةُ مِنَ الْأَدْوَاءِ وَالْأَسْقَامِ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَدَبِ مِنَ الصَّلَاحِ، وَفِي الْأَدْوِيَةِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ، وَإِنْ شَابَ ذَلِكَ بَعْضُ الْكَرَاهَةِ.

فَإِنْ قَالُوا: فَلِمَ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مَعْصُوماً مِنَ الْمَسَاوِئِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى أَنْ تَلْذَعَهُ هَذِهِ الْمَكَارِهُ؟ قِيلَ: إِذَا كَانَ يَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ عَلَى حَسَنَةٍ يَأْتِيهَا، وَلَا مُسْتَحِقّاً لِلثَّوَابِ عَلَيْهَا.

فَإِنْ قَالُوا: وَمَا كَانَ يَضُرُّهُ أَنْ لَا يَكُونَ مَحْمُوداً عَلَى الْحَسَنَاتِ، مُسْتَحِقّاً لِلثَّوَابِ، بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ إِلَى غَايَةِ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ؟ قِيلَ لَهُمْ: اعْرِضُوا عَلَى امْرِئٍ صَحِيحِ الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ أَنْ يَجْلِسَ مُنَعَّماً، وَيُكْفَى كُلَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بِلَا سَعْيٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ، فَانْظُرُوا هَلْ تَقْبَلُ نَفْسُهُ ذَلِكَ؟ بَلْ سَتَجِدُونَهُ بِالْقَلِيلِ مِمَّا يَنَالُهُ بِالسَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ أَشَدَّ اغْتِبَاطاً وَسُرُوراً مِنْهُ بِالْكَثِيرِ مِمَّا يَنَالُهُ بِغَيْرِ الِاسْتِحْقَاقِ، وَكَذَلِكَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ أَيْضاً يَكْمُلُ لِأَهْلِهِ بِأَنْ يَنَالُوهُ بِالسَّعْيِ فِيهِ، وَالِاسْتِحْقَاقِ لَهُ، فَالنِّعْمَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هَذَا الْبَابِ مُضَاعَفَةٌ فَإِنْ أُعِدَّ لَهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ عَلَى سَعْيِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَجُعِلَ لَهُ السَّبِيلُ إِلَى

(١) العتو: الاستكبار وتجاوز الحد.

أَنْ يَنَالَ ذَلِكَ بِسَعْيٍ وَاسْتِحْقَاقٍ فَيَكْمُلَ لَهُ السُّرُورُ وَالِاغْتِبَاطُ بِمَا يَنَالُهُ مِنْهُ.

فَإِنْ قَالُوا: أَوَ لَيْسَ قَدْ يَكُونُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْكَنُ إِلَى مَا نَالَ مِنْ خَيْرٍ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَمَا الْحُجَّةُ فِي مَنْعِ مَنْ رَضِيَ أَنْ يَنَالَ نَعِيمَ الْآخِرَةِ عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ؟ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا بَابٌ لَوْ صَحَّ لِلنَّاسِ لَخَرَجُوا إِلَى غَايَةِ الْكَلَبِ، وَالضَّرَاوَةِ عَلَى الْفَوَاحِشِ، وَانْتِهَاكِ الْمَحَارِمِ، فَمَنْ كَانَ يَكُفُّ نَفْسَهُ عَنْ فَاحِشَةٍ، أَوْ يَتَحَمَّلُ الْمَشَقَّةَ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ لَوَثِقَ بِأَنَّهُ صَائِرٌ إِلَى النَّعِيمِ لَا مَحَالَةَ، أَوْ مَنْ كَانَ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ مِنَ النَّاسِ لَوْ لَمْ يَخَفِ الْحِسَابَ وَالْعِقَابَ، فَكَانَ ضَرَرُ هَذَا الْبَابِ سَيَنَالُ النَّاسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَعْطِيلُ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ مَعاً، وَمَوْضِعٌ لِلطَّعْنِ عَلَى التَّدْبِيرِ بِخِلَافِ الصَّوَابِ، وَوَضْعُ الْأُمُورِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا.

لماذا تصيب الآفات جميع الناس؟

وَقَدْ يَتَعَلَّقُ هَؤُلَاءِ بِالْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ فَتَعُمُّ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، أَوْ يُبْتَلَى بِهَا الْبَرُّ وَيَسْلَمُ الْفَاجِرُ مِنْهَا، فَقَالُوا: كَيْفَ يَجُوزُ هَذَا فِي تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ، وَمَا الْحُجَّةُ فِيهِ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنَّ هَذِهِ الْآفَاتِ وَإِنْ كَانَتْ تَنَالُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ ذَلِكَ صَلَاحاً لِلصِّنْفَيْنِ كِلَيْهِمَا؛ أَمَّا الصَّالِحُونَ فَإِنَّ الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِنْ هَذَا يَرُدُّهُمْ نِعَمَ رَبِّهِمْ عِنْدَهُمْ فِي سَالِفِ أَيَّامِهِمْ، فَيَحْدُوهُمْ ذَلِكَ عَلَى الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ، وَأَمَّا الطَّالِحُونَ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا إِذَا نَالَهُمْ كَسَرَ شِرَّتَهُمْ وَرَدَعَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْفَوَاحِشِ، وَكَذَلِكَ يَجْعَلُ لِمَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ مِنَ الصِّنْفَيْنِ صَلَاحاً فِي ذَلِكَ؛ أَمَّا الْأَبْرَارُ فَإِنَّهُمْ يَغْتَبِطُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ، وَيَزْدَادُونَ فِيهِ رَغْبَةً وَبَصِيرَةً، وَأَمَّا الْفُجَّارُ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ رَأْفَةَ رَبِّهِمْ وَتَطَوُّلَهُ عَلَيْهِمْ بِالسَّلَامَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، فَيَحُضُّهُمْ ذَلِكَ عَلَى الرَّأْفَةِ بِالنَّاسِ، وَالصَّفْحِ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَمَا قَوْلُكَ فِيمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ فِي أَبْدَانِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهِ تَلَفُهُمْ، كَمِثْلِ الْحَرَقِ وَالْغَرَقِ وَالسَّيْلِ وَالْخَسْفِ؟ فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّ اللهَ جَعَلَ فِي هَذَا أَيْضاً صَلَاحاً لِلصِّنْفَيْنِ جَمِيعاً؛ أَمَّا الْأَبْرَارُ فَلِمَا لَهُمْ فِي

مُفَارَقَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الرَّاحَةِ مِنْ تَكَالِيفِهَا، وَالنَّجَاةِ مِنْ مَكَارِهِهَا، وَأَمَّا الْفُجَّارُ فَلِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ تَمْحِيصِ أَوْزَارِهِمْ، وَحَبْسِهِمْ عَنِ الِازْدِيَادِ مِنْهَا، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْخَالِقَ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ قَدْ يَصْرِفُ هَذِهِ الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ، فَكَمَا أَنَّهُ إِذَا قَطَعَتِ الرِّيحُ شَجَرَةً أَوْ قَطَعَتْ نَخْلَةً أَخَذَهَا الصَّانِعُ الرَّفِيقُ وَاسْتَعْمَلَهَا فِي ضُرُوبٍ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ فِي الْآفَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّاسِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَيُصَيِّرُهَا جَمِيعاً إِلَى الْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ.

فَإِنْ قَالَ: وَلِمَ تَحْدُثُ عَلَى النَّاسِ؟ قِيلَ لَهُ: لِكَيْلَا يَرْكَنُوا إِلَى الْمَعَاصِي مِنْ طُولِ السَّلَامَةِ، فَيُبَالِغَ الْفَاجِرُ فِي رُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَيَفْتُرَ الصَّالِحُ عَنِ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِرِّ، فَإِنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً يَغْلِبَانِ عَلَى النَّاسِ فِي حَالِ الْخَفْضِ وَالدَّعَةِ، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ الَّتِي تَحْدُثُ عَلَيْهِمْ تَرْدَعُهُمْ وَتُنَبِّهُهُمْ عَلَى مَا فِيهِ رُشْدُهُمْ، فَلَوْ خَلَوْا مِنْهَا لَغَلَوْا فِي الطُّغْيَانِ وَالْمَعْصِيَةِ، كَمَا غَلَا النَّاسُ فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ حَتَّى وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْبَوَارُ بِالطُّوفَانِ، وَتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ.

الموت والفناء

وَ مِمَّا يَنْتَقِدُهُ الْجَاحِدُونَ لِلْعَمْدِ وَالتَّقْدِيرِ: الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ؛ فَإِنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُخَلَّدِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، مُبَرَّئِينَ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَاقَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى غَايَتِهِ، فَيُنْظَرَ مَا مَحْصُولُهُ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ كُلُّ مَنْ دَخَلَ الْعَالَمَ وَيَدْخُلُهُ يَبْقَوْنَ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَلَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ تَضِيقُ بِهِمْ حَتَّى تُعْوِزَهُمُ الْمَسَاكِنُ وَالْمَزَارِعُ وَالْمَعَايِشُ؟ فَإِنَّهُمْ وَالْمَوْتُ يُفْنِيهِمْ أَوَّلًا فَأَوَّلًا يَتَنَافَسُونَ فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَزَارِعِ حَتَّى تَنْشَبَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ الْحُرُوبُ، وَتُسْفَكَ فِيهِمُ الدِّمَاءُ، فَكَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُمْ لَوْ كَانُوا يُولَدُونَ وَلَا يَمُوتُونَ؟

وَكَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ وَقَسَاوَةُ الْقُلُوبِ، فَلَوْ وَثِقُوا بِأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ لَمَا قَنَعَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ يَنَالُهُ، وَلَا أَفْرَجَ لِأَحَدٍ عَنْ شَيْءٍ يَسْأَلُهُ، وَلَا سَلَا عَنْ شَيْءٍ مِمَّا يَحْدُثُ عَلَيْهِ، ثُمَّ كَانُوا يَمَلُّونَ الْحَيَاةَ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، كَمَا قَدْ يَمَلُّ الْحَيَاةَ

مَنْ طَالَ عُمُرُهُ حَتَّى يَتَمَنَّى الْمَوْتَ وَالرَّاحَةَ مِنَ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعُ عَنْهُمُ الْمَكَارِهُ وَالْأَوْصَابُ حَتَّى لَا يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ وَلَا يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ، فَقَدْ وَصَفْنَا مَا كَانَ يُخْرِجُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْعُتُوِّ وَالْأَشَرِ الْحَامِلِ لَهُمْ عَلَى مَا فِيهِ فَسَادُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

وَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَوَالَدُوا كَيْلَا تَضِيقَ عَنْهُمُ الْمَسَاكِنُ وَالْمَعَايِشُ؟ قِيلَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ يُحْرَمُ أَكْثَرُ هَذَا الْخَلْقِ دُخُولَ الْعَالَمِ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى وَمَوَاهِبِهِ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعاً إِذَا لَمْ يَدْخُلِ الْعَالَمَ إِلَّا قَرْنٌ[1] وَاحِدٌ لَا يَتَوَالَدُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُخْلَقَ فِي ذَلِكَ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ مِثْلَ مَا خُلِقَ وَيُخْلَقُ إِلَى انْقِضَاءِ الْعَالَمِ، يُقَالُ لَهُمْ: رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ ضِيقِ الْمَسَاكِنِ وَالْمَعَايِشِ عَنْهُمْ، ثُمَّ لَوْ كَانُوا لَا يَتَوَالَدُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ لَذَهَبَ مَوْضِعُ الْأُنْسِ بِالْقَرَابَاتِ وَذَوِي الْأَرْحَامِ، وَالِانْتِصَارِ بِهِمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَمَوْضِعُ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَالسُّرُورِ بِهِمْ، فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ سِوَى مَا جَرَى بِهِ التَّدْبِيرُ خَطَأٌ وَسَفَهٌ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ.

الطعن على التدبير

وَلَعَلَّ طَاعِناً يَطْعُنُ عَلَى التَّدْبِيرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ هَاهُنَا تَدْبِيرٌ وَنَحْنُ نَرَى النَّاسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ عَزَّ بَزَّ؟ فَالْقَوِيُّ يَظْلِمُ وَيَغْصِبُ، وَالضَّعِيفُ يُظْلَمُ وَيُسَالِمُ الْخَسْفَ، وَالصَّالِحُ فَقِيرٌ مُبْتَلًى، وَالْفَاسِقُ مُعَافًى مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ رَكِبَ فَاحِشَةً أَوِ انْتَهَكَ مُحَرَّماً لَمْ يُعَاجَلْ بِالْعُقُوبَةِ، فَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ تَدْبِيرٌ لَجَرَتِ الْأُمُورُ عَلَى الْقِيَاسِ الْقَائِمِ فَكَانَ الصَّالِحُ هُوَ الْمَرْزُوقَ، وَالطَّالِحُ هُوَ الْمَحْرُومَ، وَكَانَ الْقَوِيُّ يُمْنَعُ مِنْ ظُلْمِ الضَّعِيفِ، وَالْمُنْتَهِكُ لِلْمَحَارِمِ يُعَاجَلُ بِالْعُقُوبَةِ.

---

(١) المراد بالقرن هنا أهل زمان واحد والجمع قرون.

فَيُقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: إِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ هَكَذَا لَذَهَبَ مَوْضِعُ الإِحْسَانِ الَّذِي فُضِّلَ بِهِ الإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ، وَحَمْلِ النَّفْسِ عَلَى الْبِرِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ احْتِسَاباً لِلثَّوَابِ وَثِقَةً بِمَا وَعَدَ اللهُ عَنْهُ، وَلَصَارَ النَّاسُ بِمَنْزِلَةِ الدَّوَابِّ الَّتِي تُسَاسُ بِالْعَصَا وَالْعَلَفِ، وَيُلْمَعُ لَهَا بِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَاعَةً فَسَاعَةً فَتَسْتَقِيمُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْمَلُ عَلَى يَقِينٍ بِثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ حَتَّى كَانَ هَذَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ حَدِّ الإِنْسِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ لَا يَعْرِفُ مَا غَابَ وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا عَلَى الْحَاضِرِ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا، وَكَانَ يَحْدُثُ مِنْ هَذَا أَيْضاً أَنْ يَكُونَ الصَّالِحُ إِنَّمَا يَعْمَلُ لِلرِّزْقِ وَالسَّعَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَكُونَ الْمُمْتَنِعُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِنَّمَا يَكُفُّ عَنْ ذَلِكَ لِتَرَقُّبِ عُقُوبَةٍ تَنْزِلُ بِهِ مِنْ سَاعَتِهِ، حَتَّى تَكُونَ أَفْعَالُ النَّاسِ كُلُّهَا تَجْرِي عَلَى الْحَاضِرِ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الْيَقِينِ بِمَا عِنْدَ اللهِ، وَلَا يَسْتَحِقُّونَ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَالنَّعِيمَ الدَّائِمَ فِيهَا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي ذَكَرَهَا الطَّاعِنُ مِنَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ لَيْسَتْ بِجَارِيَةٍ عَلَى خِلَافِ قِيَاسِهِ بَلْ قَدْ تَجْرِي عَلَى ذَلِكَ أَحْيَاناً وَالأَمْرِ الْمَفْهُومِ، فَقَدْ تَرَى كَثِيراً مِنَ الصَّالِحِينَ يُرْزَقُونَ الْمَالَ لِضُرُوبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ، وَكَيْلَا يَسْبِقَ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ أَنَّ الْكُفَّارَ هُمُ الْمَرْزُوقُونَ، وَالأَبْرَارَ هُمُ الْمَحْرُومُونَ، فَيُؤْثِرُونَ الْفِسْقَ عَلَى الصَّلَاحِ، وَتَرَى كَثِيراً مِنَ الْفُسَّاقِ يُعَاجَلُونَ بِالْعُقُوبَةِ إِذَا تَفَاقَمَ طُغْيَانُهُمْ، وَعَظُمَ ضَرَرُهُمْ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، كَمَا عُوجِلَ فِرْعَوْنُ بِالْغَرَقِ، وَبُخْتَنَصَّرُ بِالتِّيهِ، وَبِلْبِيسُ بِالْقَتْلِ، وَإِنْ أُمْهِلَ بَعْضُ الأَشْرَارِ بِالْعُقُوبَةِ، وَأُخِّرَ بَعْضُ الأَخْيَارِ بِالثَّوَابِ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ لِأَسْبَابٍ تَخْفَى عَلَى الْعِبَادِ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يُبْطِلُ التَّدْبِيرَ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ وَلَا يُبْطِلُ تَدْبِيرَهُمْ، بَلْ يَكُونُ تَأْخِيرُهُمْ مَا أَخَّرُوهُ وَتَعْجِيلُهُمْ مَا عَجَّلُوهُ دَاخِلاً فِي صَوَابِ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ.

وَإِذَا كَانَتِ الشَّوَاهِدُ تَشْهَدُ وَقِيَاسُهُمْ يُوجِبُ أَنَّ لِلأَشْيَاءِ خَالِقاً حَكِيماً قَادِراً فَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يُدَبِّرَ خَلْقَهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ فِي قِيَاسِهِمْ أَنْ يَكُونَ الصَّانِعُ يُهْمِلُ صَنْعَتَهُ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثِ خِلَالٍ: إِمَّا عَجْزٍ، وَإِمَّا جَهْلٍ، وَإِمَّا شَرَارَةٍ، وَكُلُّ هَذَا مُحَالٌ فِي صَنْعَتِهِ

عَزَّوَجَلَّ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ الْجَلِيلَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْجَاهِلَ لَا يَهْتَدِي لِمَا فِيهَا مِنَ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَالشِّرِيرَ لَا يَتَطَاوَلُ لِخَلْقِهَا وَإِنْشَائِهَا، وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْخَلَائِقِ يُدَبِّرُهَا لَا مَحَالَةَ، وَإِنْ كَانَ لَا يُدْرِكُ كُنْهُ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ وَمَخَارِجُهُ فَإِنَّ كَثِيراً مِنْ تَدْبِيرِ الْمُلُوكِ لَا تَفْهَمُهُ الْعَامَّةُ، وَلَا تَعْرِفُ أَسْبَابَهُ، لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ دَخِيلَةَ أَمْرِ الْمُلُوكِ وَأَسْرَارِهِمْ، فَإِذَا عُرِفَ سَبَبُهُ وُجِدَ قَائِماً عَلَى الصَّوَابِ، وَالشَّاهِدُ الْمِحْنَةُ.

وَلَوْ شَكَكْتَ فِي بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَطْعِمَةِ فَيَتَبَيَّنُ لَكَ مِنْ جِهَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَنَّهُ حَارٌّ أَوْ بَارِدٌ أَلَمْ تَكُنْ سَتَقْضِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَتَنْفِي الشَّكَّ فِيهِ عَنْ نَفْسِكَ؟ فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ لَا يَقْضُونَ عَلَى الْعَالَمِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ مَعَ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ الْكَثِيرَةِ، وَأَكْثَرُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً، وَلَوْ كَانَ نِصْفُ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مُشْكِلاً صَوَابُهُ لَمَا كَانَ مِنْ حَزْمِ الرَّأْيِ وَسَمْتِ[1] الْأَدَبِ أَنْ يُقْضَى عَلَى الْعَالَمِ بِالْإِهْمَالِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ وَمَا يَظْهَرُ فِيهِ مِنَ الصَّوَابِ وَإِتْقَانِ مَا يَرْدَعُ الْوَهْمَ عَنِ التَّسَرُّعِ إِلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَكَيْفَ وَكُلُّ مَا فِيهِ إِذَا فُتِّشَ وُجِدَ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ، حَتَّى لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ شَيْءٌ إِلَّا وُجِدَ مَا عَلَيْهِ الْخِلْقَةُ أَصَحَّ وَأَصْوَبَ مِنْهُ.

اسم العالم بلسان اليونانية

وَاعْلَمْ يَا مُفَضَّلُ أَنَّ اسْمَ هَذَا الْعَالَمِ بِلِسَانِ الْيُونَانِيَّةِ الْجَارِي الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ قوسموس، وَتَفْسِيرُهُ الزِّينَةُ، وَكَذَلِكَ سَمَّتْهُ الْفَلَاسِفَةُ وَمَنِ ادَّعَى الْحِكْمَةَ، أَفَكَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَذَا الِاسْمِ إِلَّا لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالنِّظَامِ، فَلَمْ يَرْضَوْا أَنْ يُسَمُّوهُ تَقْدِيراً وَنِظَاماً حَتَّى سَمَّوْهُ زِينَةً، لِيُخْبِرُوا أَنَّهُ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ وَالْإِتْقَانِ عَلَى غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ.

---

(١) السمت: الطريق والمحجة والجمع سموت.

عجبي ممن ذم الخالق

اعْجَبْ يَا مُفَضَّلُ مِنْ قَوْمٍ لَا يَقْضُونَ عَلَى صِنَاعَةِ الطِّبِّ بِالْخَطَأ وَهُمْ يَرَوْنَ الطَّبِيبَ يُخْطِئُ، وَيَقْضُونَ عَلَى الْعَالَمِ بِالْإِهْمَالِ وَلَا يَرَوْنَ شَيْئاً مِنْهُ مُهْمَلًا، بَلِ اعْجَبْ مِنْ أَخْلَاقِ مَنِ ادَّعَى الْحِكْمَةَ حَتَّى جَهِلُوا مَوَاضِعَهَا فِي الْخَلْقِ فَأَرْسَلُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِالذَّمِّ لِلْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، بَلِ الْعَجَبُ مِنَ الْمَخْذُولِ مَانِي حِينَ ادَّعَى عِلْمَ الْأَسْرَارِ وَعَمِيَ عَنْ دَلَائِلِ الْحِكْمَةِ فِي الْخَلْقِ حَتَّى نَسَبَهُ إِلَى الْخَطَأ، وَنَسَبَ خَالِقَهُ إِلَى الْجَهْلِ، تَبَارَكَ الْحَكِيمُ الْكَرِيمُ.

لم لا يُدرك الخالق بالعقل؟

وَأَعْجَبُ مِنْهُمْ جَمِيعاً الْمُعَطِّلَةُ الَّذِينَ رَامُوا أَنْ يُدْرِكُوا بِالْحِسِّ مَا لَا يُدْرَكُ بِالْعَقْلِ، فَلَمَّا أَعْوَزَهُمْ ذَلِكَ خَرَجُوا إِلَى الْجُحُودِ وَالتَّكْذِيبِ، فَقَالُوا: وَلِمَ لَا يُدْرَكُ بِالْعَقْلِ؟ قِيلَ: لِأَنَّهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ، كَمَا لَا يُدْرِكُ الْبَصَرُ مَا هُوَ فَوْقَ مَرْتَبَتِهِ، فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ حَجَراً يَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ عَلِمْتَ أَنَّ رَامِياً رَمَى بِهِ، فَلَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ الْبَصَرِ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْعَقْلِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُهُ فَيَعْلَمُ أَنَّ الْحَجَرَ لَا يَذْهَبُ عُلُوّاً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَقَفَ الْبَصَرُ عَلَى حَدِّهِ فَلَمْ يَتَجَاوَزْهُ؟ فَكَذَلِكَ يَقِفُ الْعَقْلُ عَلَى حَدِّهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ فَلَا يَعْدُوهُ، وَلَكِنْ يَعْقِلُهُ بِعَقْلٍ أَقَرَّ أَنَّ فِيهِ نَفْساً، وَلَمْ يُعَايِنْهَا وَلَمْ يُدْرِكْهَا بِحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِ.

وَعَلَى حَسَبِ هَذَا أَيْضاً نَقُولُ: إِنَّ الْعَقْلَ يَعْرِفُ الْخَالِقَ مِنْ جِهَةٍ تُوجِبُ عَلَيْهِ الْإِقْرَارَ، وَلَا يَعْرِفُهُ بِمَا يُوجِبُ لَهُ الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: فَكَيْفَ يُكَلَّفُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَعْرِفَتَهُ بِالْعَقْلِ اللَّطِيفِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ؟ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّمَا كُلِّفَ الْعِبَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا فِي طَاقَتِهِمْ أَنْ يَبْلُغُوهُ، وَهُوَ أَنْ يُوقِنُوا بِهِ وَيَقِفُوا عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَمْ يُكَلَّفُوا الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ، كَمَا أَنَّ الْمَلِكَ لَا يُكَلِّفُ رَعِيَّتَهُ أَنْ يَعْلَمُوا أَطَوِيلٌ هُوَ أَمْ قَصِيرٌ، وَأَبْيَضُ هُوَ أَمْ أَسْمَرُ، وَإِنَّمَا يُكَلِّفُهُمُ الْإِذْعَانَ لِسُلْطَانِهِ، وَالِانْتِهَاءَ إِلَى أَمْرِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ أَتَى بَابَ الْمَلِكِ فَقَالَ: اعْرِضْ عَلَيَّ نَفْسَكَ

حَتَّى أَتَقَصَّى مَعْرِفَتَكَ وَإِلَّا لَمْ أَسْمَعْ لَكَ، كَانَ قَدْ أَحَلَّ نَفْسَهُ بِالْعُقُوبَةِ؟ فَكَذَا الْقَائِلُ إِنَّهُ لَا يُقِرُّ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يُحِيطَ بِكُنْهِهِ مُتَعَرِّضاً لِسَخَطِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: أَوَ لَيْسَ قَدْ نَصِفُهُ فَنَقُولُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟ قِيلَ لَهُمْ: كُلُّ هَذِهِ صِفَاتُ إِقْرَارٍ وَلَيْسَتْ صِفَاتِ إِحَاطَةٍ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ حَكِيمٌ وَلَا نَعْلَمُ بِكُنْهِ ذَلِكَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ قَدِيرٌ وَجَوَادٌ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ، كَمَا قَدْ نَرَى السَّمَاءَ فَلَا نَدْرِي مَا جَوْهَرُهَا، وَنَرَى الْبَحْرَ وَلَا نَدْرِي أَيْنَ مُنْتَهَاهُ، بَلْ فَوْقَ هَذَا الْمِثَالِ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَلِأَنَّ الْأَمْثَالَ كُلَّهَا تَقْصُرُ عَنْهُ وَلَكِنَّهَا تَقُودُ الْعَقْلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ يُخْتَلَفُ فِيهِ؟ قِيلَ لَهُمْ: لِقِصَرِ الْأَوْهَامِ عَنْ مَدَى عَظَمَتِهِ، وَتَعَدِّيهَا أَقْدَارَهَا فِي طَلَبِ مَعْرِفَتِهِ، وَأَنَّهَا تَرُومُ الْإِحَاطَةَ بِهِ وَهِيَ تَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ وَمَا دُونَهُ.

الشمس واختلاف الفلاسفة

فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي تَرَاهَا تَطْلُعُ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا يُوقَفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهَا، وَلِذَلِكَ كَثُرَتِ الْأَقَاوِيلُ فِيهَا، وَاخْتَلَفَتِ الْفَلَاسِفَةُ الْمَذْكُورُونَ فِي وَصْفِهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ فَلَكٌ أَجْوَفُ مَمْلُوءٌ نَاراً، لَهُ فَمٌ يَجِيشُ بِهَذَا الْوَهَجِ وَالشُّعَاعِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ سَحَابَةٌ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ جِسْمٌ زُجَاجِيٌّ يَقِلُّ نَارِيَّةً فِي الْعَالَمِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْهِ شُعَاعَهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ صَفْوٌ لَطِيفٌ يَنْعَقِدُ مَاءُ الْبَحْرِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ أَجْزَاءٌ كَثِيرَةٌ مُجْتَمِعَةٌ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ مِنْ جَوْهَرٍ خَامِسٍ سِوَى الْجَوَاهِرِ الْأَرْبَعَةِ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي شَكْلِهَا؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ بِمَنْزِلَةِ صَفِيحَةٍ عَرِيضَةٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ كَالْكُرَةِ الْمُدَحْرَجَةِ.

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهَا؛ فَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا مِثْلُ الْأَرْضِ سَوَاءً، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ أَعْظَمُ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَالَ أَصْحَابُ الْهَنْدَسَةِ: هِيَ أَضْعَافُ الْأَرْضِ مِائَةً وَسَبْعِينَ مَرَّةً، فَفِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ مِنْهُمْ فِي الشَّمْسِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ أَمْرِهَا، فَإِذَا

كَانَتْ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ، وَيُدْرِكُهَا الْحِسُّ قَدْ عَجزَتِ الْعُقُولُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، فَكَيْفَ مَا لَطُفَ عَنِ الْحِسِّ، وَاسْتَتَرَ عَنِ الْوَهْمِ؟!

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ اسْتَتَرَ؟ قِيلَ لَهُمْ: لَمْ يَسْتَتِرْ بِحِيلَةٍ يَخْلُصُ إِلَيْهَا كَمَنْ يَحْتَجِبُ مِنَ النَّاسِ بِالْأَبْوَابِ وَالسُّتُورِ، وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِنَا اسْتَتَرَ أَنَّهُ لَطُفَ عَنْ مَدَى مَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، كَمَا لَطُفَتِ النَّفْسُ وَهِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَارْتَفَعَتْ عَنْ إِدْرَاكِهَا بِالنَّظَرِ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ لَطُفَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً كَانَ ذَلِكَ خَطأً مِنَ الْقَوْلِ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِناً لِكُلِّ شَيْءٍ، مُتَعَالِياً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المعرفة المطلوبة

فَإِنْ قَالُوا: كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مُبَايِناً لِكُلِّ شَيْءٍ، مُتَعَالِياً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؟ قِيلَ لَهُمْ: الْحَقُّ الَّذِي تُطْلَبُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ:

فَأَوَّلُهَا: أَنْ يُنْظَرَ أَمَوْجُودٌ هُوَ أَمْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ؟

وَالثَّانِي: أَنْ يُعْرَفَ مَا هُوَ فِي ذَاتِهِ وَجَوْهَرِهِ؟

وَالثَّالِثُ: أَنْ يُعْرَفَ كَيْفَ هُوَ، وَمَا صِفَتُهُ؟

وَالرَّابِعُ: أَنْ يُعْلَمَ لِمَا ذَا هُوَ، وَلِأَيِّ عِلَّةٍ؟

فَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ شَيْءٌ يُمْكِنُ لِلْمَخْلُوقِ أَنْ يَعْرِفَهُ مِنَ الْخَالِقِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ غَيْرَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ فَقَطْ، فَإِذَا قُلْنَا: وَكَيْفَ؟ وَمَا هُوَ؟ فَمُمْتَنِعٌ عِلْمُ كُنْهِهِ، وَكَمَالُ الْمَعْرِفَةِ بِهِ، وَأَمَّا لِمَاذَا هُوَ؟ فَسَاقِطٌ فِي صِفَةِ الْخَالِقِ لِأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ شَيْءٌ بِعِلَّةٍ لَهُ.

ثُمَّ لَيْسَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ يُوجِبُ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ، كَمَا أَنَّ عِلْمَهُ بِوُجُودِ النَّفْسِ لَا يُوجِبُ أَنْ يَعْلَمَ مَا هِيَ، وَكَيْفَ هِيَ، وَكَذَلِكَ الْأُمُورُ الرُّوحَانِيَّةُ اللَّطِيفَةُ، فَإِنْ قَالُوا: فَأَنْتُمُ الْآنَ تَصِفُونَ مِنْ قُصُورِ الْعِلْمِ عَنْهُ وَصْفاً حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُ

مَعْلُومٍ؟ قِيلَ لَهُمْ: هُوَ كَذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ إِذَا رَامَ الْعَقْلُ مَعْرِفَةَ كُنْهِهِ، وَالْإِحَاطَةَ بِهِ، وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَقْرَبُ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِالدَّلَائِلِ الشَّافِيَةِ، فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ كَالْوَاضِحِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ كَالْغَامِضِ لَا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ أَيْضاً ظَاهِرٌ بِشَوَاهِدِهِ، وَمَسْتُورٌ بِذَاتِهِ.

أصحاب الطبائع ومناقشة أقوالهم

فَأَمَّا أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ فَقَالُوا: إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَفْعَلُ شَيْئاً لِغَيْرِ مَعْنًى، وَلَا تَتَجَاوَزُ عَمَّا فِيهِ تَمَامُ الشَّيْءِ فِي طَبِيعَتِهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُمْ: فَمَنْ أَعْطَى الطَّبِيعَةَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ، وَالْوُقُوفَ عَلَى حُدُودِ الْأَشْيَاءِ بِلَا مُجَاوَزَةٍ لَهَا، وَهَذَا قَدْ تَعْجِزُ عَنْهُ الْعُقُولُ بَعْدَ طُولِ التَّجَارِبِ؟! فَإِنْ أَوْجَبُوا لِلطَّبِيعَةِ الْحِكْمَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ فَقَدْ أَقَرُّوا بِمَا أَنْكَرُوا، لِأَنَّ هَذِهِ فِي صِفَاتِ الْخَالِقِ، وَإِنْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ هَذَا لِلطَّبِيعَةِ فَهَذَا وَجْهُ الْخَلْقِ يَهْتِفُ بِأَنَّ الْفِعْلَ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ الْقُدَمَاءِ طَائِفَةٌ أَنْكَرُوا الْعَمْدَ وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأَشْيَاءِ، وَزَعَمُوا أَنَّ كَوْنَهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ، وَكَانَ مِمَّا احْتَجُّوا بِهِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَكُونُ عَلَى غَيْرِ مَجْرَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ، كَإِنْسَانٍ يُولَدُ نَاقِصاً أَوْ زَائِداً إِصْبَعاً، أَوْ يَكُونُ الْمَوْلُودُ مُشَوَّهاً مُبَدَّلَ الْخَلْقِ، فَجَعَلُوا هَذَا دَلِيلاً عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ بِعَمْدٍ وَتَقْدِيرٍ بَلْ بِالْعَرَضِ كَيْفَ مَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ، وَقَدْ كَانَ أَرِسْطَاطَالِيسُ رَدَّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي يَكُونُ بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَأْتِي فِي الْفَرْطِ مَرَّةً لِأَعْرَاضٍ تَعْرِضُ لِلطَّبِيعَةِ فَتُزِيلُهَا عَنْ سَبِيلِهَا، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ الْجَارِيَةِ عَلَى شَكْلٍ وَاحِدٍ جَرْياً دَائِماً مُتَتَابِعاً، وَأَنْتَ يَا مُفَضَّلُ تَرَى أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَجْرِيَ أَكْثَرَ ذَلِكَ عَلَى مِثَالٍ وَمِنْهَاجٍ وَاحِدٍ، كَالْإِنْسَانِ يُولَدُ وَلَهُ يَدَانِ وَرِجْلَانِ وَخَمْسُ أَصَابِعَ، كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ النَّاسِ، فَأَمَّا مَا يُولَدُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لِعِلَّةٍ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ، أَوْ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَنْشَأُ مِنْهَا الْجَنِينُ، كَمَا يَعْرِضُ فِي الصِّنَاعَاتِ حِينَ يَتَعَمَّدُ الصَّانِعُ الصَّوَابَ فِي صَنْعَتِهِ فَيَعُوقُ دُونَ ذَلِكَ عَائِقٌ فِي الْأَدَاةِ أَوْ فِي الْآلَةِ الَّتِي يَعْمَلُ فِيهَا الشَّيْءَ، فَقَدْ يَحْدُثُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَوْلَادِ

الْحَيَوَانِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي وَصَفْنَا، فَيَأْتِي الْوَلَدُ زَائِداً أَوْ نَاقِصاً أَوْ مُشَوَّهاً وَيَسْلَمُ أَكْثَرُهَا فَيَأْتِي سَوِيّاً لَا عِلَّةَ فِيهِ، فَكَمَا أَنَّ الَّذِي يَحْدُثُ فِي بَعْضِ أَعْمَالِ الْأَعْرَاضِ لِعِلَّةٍ فِيهِ لَا يُوجِبُ عَلَيْهَا جَمِيعاً الْإِهْمَالَ وَعَدَمَ الصَّانِعِ، كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ عَلَى بَعْضِ الْأَفْعَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِعَائِقٍ يَدْخُلُ عَلَيْهَا لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ، فَقَوْلُ مَنْ قَالَ فِي الْأَشْيَاءِ إِنَّ كَوْنَهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ مِنْ قَبِيلِ أَنَّ شَيْئاً مِنْهَا يَأْتِي عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ بِعَرَضٍ يَعْرِضُ لَهُ خَطَأٌ وَخَطَلٌ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ صَارَ مِثْلُ هَذَا يَحْدُثُ فِي الْأَشْيَاءِ؟ قِيلَ لَهُمْ: لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ كَوْنُ الْأَشْيَاءِ بِاضْطِرَارٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سِوَاهُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُونَ بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ وَعَمْدٌ مِنْ خَالِقٍ حَكِيمٍ إِذْ جَعَلَ لِلطَّبِيعَةِ تَجْرِي أَكْثَرَ ذَلِكَ عَلَى مَجْرًى وَمِنْهَاجٍ مَعْرُوفٍ، وَتَزُولُ أَحْيَاناً عَنْ ذَلِكَ لِأَعْرَاضٍ تَعْرِضُ لَهَا، فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا مُصَرَّفَةٌ مُدَبَّرَةٌ فَقِيرَةٌ إِلَى إِبْدَاءِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ فِي بُلُوغِ غَايَتِهَا وَإِتْمَامِ عَمَلِهَا، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

يَا مُفَضَّلُ خُذْ مَا آتَيْتُكَ، وَاحْفَظْ مَا مَنَحْتُكَ، وَكُنْ لِرَبِّكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلِآلَائِهِ مِنَ الْحَامِدِينَ، وَلِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُطِيعِينَ، فَقَدْ شَرَحْتُ لَكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْخَلْقِ، وَالشَّوَاهِدِ عَلَى صَوَابِ التَّدْبِيرِ وَالْعَمْدِ قَلِيلاً مِنْ كَثِيرٍ، وَجُزْءاً مِنْ كُلٍّ، فَتَدَبَّرْهُ وَفَكِّرْ فِيهِ وَاعْتَبِرْ بِهِ.

فَقُلْتُ: بِمَعُونَتِكَ يَا مَوْلَايَ أَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَأَبْلُغُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي فَقَالَ عليه السلام: احْفَظْ بِمَشِيئَةِ اللهِ، وَلَا تَنْسَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَخَرَرْتُ مَغْشِيّاً عَلَيَّ، فَلَمَّا أَفَقْتُ قَالَ عليه السلام: كَيْفَ تَرَى نَفْسَكَ يَا مُفَضَّلُ، فَقُلْتُ: قَدِ اسْتَغْنَيْتُ بِمَعُونَةِ مَوْلَايَ وَتَأْيِيدِهِ عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ، وَصَارَ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيَّ كَأَنَّمَا أَقْرَؤُهُ مِنْ كَفِّي، فَلِمَوْلَايَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحِقُّهُ.

فَقَالَ عليه السلام: يَا مُفَضَّلُ فَرِّغْ قَلْبَكَ، وَاجْمَعْ إِلَيْكَ ذِهْنَكَ وَعَقْلَكَ وَطُمَأْنِينَتَكَ، فَسَأُلْقِي إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ بَيْنَهُمَا وَفِيهِمَا مِنْ

عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَأَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ وَصُفُوفِهِمْ وَمَقَامَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَسَائِرِ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى وَمَا تَحْتَ الثَّرَى حَتَّى يَكُونَ مَا وَعَيْتَهُ جُزْءاً مِنْ أَجْزَاءٍ، انْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ مُصَاحِباً مَكْلُوءاً فَأَنْتَ مِنَّا بِالْمَكَانِ الرَّفِيعِ، وَمَوْضِعُكَ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَوْضِعُ الْمَاءِ مِنَ الصَّدَى، وَلَا تَسْأَلَنَّ عَمَّا وَعَدْتُكَ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَانْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِ مَوْلَايَ بِمَا لَمْ يَنْصَرِفْ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ.

وفي الختام

إن ما عند المؤمن من الإيمان لا يزول بهبوب رياح الشبهات، فأصول دينه أحكم وأقوى من أيّ تشكيك، وما ينشره الملحدون ليس سوى زخرف من القول، وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وقد تحدّاهم كتاب الله المجيد إلى يوم القيامة:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

وهنا أمور لابدّ من بيانها:

◂ الأمر الأول:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ
مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ
وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

(١) سورة البقرة: ١١١.

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١].

فمهما اختلف الملحدون فيما بينهم، فقد تشابهت قلوبهم في أمور ثلاث:

- **أوّلاً**: ستر الحقائق الواضحة وهو معنى: (الكفر).
- **ثانياً**: محاربة الحقيقة باسم العلم وتعني: (اتّباع المتشابهات).
- **ثالثاً**: البناء على ماهو مشكوك وهو (اتّباع الظنّ).

يقول الملحد: لو كان الله موجوداً لأرانا نفسه.

وهو بهذا يفترض أنّ الخالق يشبه المخلوق، فهو إذن مرئي مثله، ثمّ ينكره! جهلاً منه، أو تكابراً لأنّ الله لو كان مثل عباده لاستحال أن يكون خالقهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا تُشْبِهُهُ صُورَةٌ، وَ لَا يُحَسُّ بِالْحَوَاسِّ، وَ لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ**»[٢]

وإذا رأى الملحد الظلم احتجَّ قائلاً: إذا كان الربّ موجوداً فلابدّ أن لا يكون هنالك ظلم أصلاً.

فيفترض ربّاً يُجبر الخلق على الأفعال الحسنة، بينما ربّنا خلق البشر أحراراً يمتحنهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وإذا رأى الملحد عبادة الناس قال: لو كان الله حقّاً لم يَفرض عبادته على عباده، ويظن أنّ الله ينتفع بالعبادة، ولذلك طالبهم بذلك.

وإذا توعّد الله بالعقاب على المعصية قال: إنّ الله لا يفعل ذلك، فإذن هو غير موجود.

وإذا أرسل الربّ رسولاً بشراً، قال: بل أريده رسولاً مَلَكاً.

---

(١) سورة ابراهيم: ٩-١٢

(٢) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج٣، ص٢٧١.

وكلّما جاءه بآية، أنكرها وطلب غيرها.

إنّ المؤمن له منطق واضح فهو يقول للملحد: ألا ترى الشمس، والقمر، والسماء، والأرض؟!

ألا ترى في نفسك من يدبّرك ويقلّبك من حال إلى حال؟!

ألا ترى النظام في الكون، ألا ترى آثار العلم والحكمة في كلّ شيء؟!

فيردّ بتعنّت: هذه ليست آيات على الله، بل أريد غيرها.

أنا أسأل: ماذا يقنعهم؟!

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1]

فالملحدون يريدون ربّاً على شروطهم، بحيث تكون صفاته كالتالي:

- أن يكون شيئاً ماديّاً محسوساً كسائر الأشياء.
- أن لا يأمر الخلق ولا ينهاهم، خصوصاً فيما ليس لهم به علم ولا يرضي أهواءهم.
- ولا يجوز له معاقبتهم ولا إدخالهم النار.
- أن يفرض الصلاح بين البشر، من دون أن تكون لهم حريّة اختيار الأفعال.
- أن يوحّد كلمة الناس على الحق بالإكراه والإجبار.
- أن يخدمهم في تحسين أمورهم، وتوفير أمنهم وإرضائهم.

---

(١) سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

- أن يكون ربّاً يخضع لمطالبهم وقراراتهم، سواء من حيث صفاته أو أفعاله.

وهذا يعني: أن يكون العباد أرباباً لربّهم، ويكون طائعاً لهم، وليس على الملحدين مع كلّ ذلك أن يقرّوا به، وعليه أن يحبّهم على كلّ حال.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]؟

الأمر الثاني:

إنّ الملحدين يظنّون أنّ الكفر بنفسه دليل على أنّ الله ليس موجوداً، فتراهم يستدلّون بإلحاد بعض الملحدين، وكأنّ وجوده تعالى رهن قبولهم ورضاهم!

ومتى كان هوى الشخص مُثبتاً لحقٍّ أو مُبطلاً له؟!

تُرى، لو أنّ الناس كلّهم أجمعوا أن يجعلوا من ١+١ يساوي ٣، فهل سيتغيّر الواقع؟!

فكيف إذن صار مجرّد الرأي في الله دليلاً على عدم وجوده؟

يقول ربّنا تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

ويقول: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾[3].

هؤلاء غرقوا في إلحادهم، وديدن الغريق أن يتشبّث بكلّ طحلب، أمّا من يرى الحقّ بعين بصيرته، ويؤمن به بعقله وضميره فإنّ الجبال تزول ولا يزول، **«مَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَ آلِهِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ، وَمَنْ أَخَذَ دِينَهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ، رَدَّتْهُ الرِّجَالُ»**[4]، **«لَا يُعْرَفُ الْحَقُّ**

---

(١) سورة الصافات: ١٥٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٨.

(٣) سورة الزمر: ٧.

(٤) الكليني، العلامة الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق: مرجع سابق، ج١، ص٧.

بِالرِّجَالِ، اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَه»[1].

«إِنَّ دِينَ اللهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ، فَاعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَه»[2].

«إِيَّاكَ أَنْ تَنْصِبَ رَجُلًا دُونَ الْحُجَّةِ فَتُصَدِّقَهُ فِي كُلِّ مَا قَالَ»[3].

لهذا فالإنكار ممكن كما أنّ الإيمان ممكن، ولكنّه لا يغيّر الواقع، فمن يرى الشمس يستطيع إنكارها كما يستطيع الإقرار بها، والشمس تبقى على حالها سواء مع الإنكار أو الإقرار، بل حتّى لو أقيم ألف دليل على شيء، يمكن للإنسان في النهاية أن ينكره، فالربّ يُتمّ الحجّة، لئلا يقول أحد يوم القيامة: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ولكنّه لا يجبر أحداً على الإيمان، كما يقول سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[5].

وقا تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[6]

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾[8].

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج٤٠، ص ١٢٦.

(٢) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: مرجع سابق، ج٦، ص ١٧٩.

(٣) الكليني، العلامة محمد بن يعقوب بن إسحاق: مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٨.

(٤) سورة القصص ٤٧.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٦) سورة الأنفال: ٤٢.

(٧) سورة الغاشية: ٢١-٢٢.

(٨) سورة الأعلى: ٩.

◄ الأمر الثالث:

جميع أحاديث الملحدين تعود إلى شبهات معدودة قد عفى عليها الزمن وتُعدّ بأصابع اليد، وقد أجاب عنها الأنبياء والرسل قبل آلاف السنين، إلّا أنّ الملحد يُضفي عليها اسم العلم زوراً وبهتاناً، فيكثر من الكلام، ويتكلّف، كما ترى ذلك جليّاً في نظريّة التطوّر، ويستشهد بقول هذا وذاك، فيلوك بلسانه ما قاله غيره ممن كفر بالأنبياء، وربّما يمكن إرجاع جميع شبهات الإلحاد إلى حالة واحدة هي: التعنّت، وسلوك طريق واحد هو الإنكار.

إنّ شغل الملحدين هو إنكار وجود الله تعالى وإنكار القيامة والبعث، وإنكار الأنبياء وإنكار الدين وإنكار الجنّة وإنكار النار.

وأمّا سائر الشبهات فهي مجرّد حواشٍ على ذلك.

◄ الأمر الرابع:

هناك أمور ومسائل فرعيّة ثانويّة لا يجوز الحديث عنها إلّا بعد ثبوت صحّة أو عدم صحّة أصولها.

مثلاً: الحديث عن وجوب الصيام في شهر رمضان من القضايا التي تبتني على الإيمان بالله تعالى، وليس من الصحيح علميّاً أن نبحث في مثل هذه الأمور إلّا بعد الإيمان بالله، فمن يؤمن بالله يعلم بوجوب الصيام بناء على إيمانه بالله تعالى، فيجب أن يُوقظَ العبد ويُنبّه على وجود الله تعالى أوّلاً حتّى يدرك وجوب الصيام، وإذا رأينا الملحد ينتقد هذه الأمور فذلك يدلّ على إفلاسه.

وما أكثر هذا الإفلاس في كتبهم!

فهم يطرحون شبهات متعلقة بأمور متفرّعة عن المباني ثمّ يطلبون منّا الرد.

ونظير هذه المغالطة استشهاد الملحدين بتصرّفات بعض المتديّنين، ومحاولة استنباط فساد الدين، وذلك عبر تعميمهم فعل شخصٍ واحد على الجميع، وعلى الدين نفسه!

فمثلاً: يرون ما فعله (ابن لادن)، فيقولون: هذا هو دين نبيّهم، وربّما استشهدوا بحروب النبيّ ﷺ. فيقولون: ابن لادن يشبه النبيّ ﷺ، لأنّ ابن لادن قَتل بعض الناس، والنبيّ ﷺ قتل بعض الناس فالنبيّ ﷺ يشبه ابن لادن!!

وهذا نظير قولك: الملحد يشبه إبليس، لأنّ الملحد لم يقتل أحداً بيده، وإبليس لم يقتل أحداً، فالملحد يشبه إبليس!

والحق أنّ الملحدين يُتقنون فنّ المغالطة والإنكار، وحديثهم ليس للوصول إلى الحقيقة، كما هو حال السفسطائيّين، سوى أنّ الملحدين يخصّون سفسطتهم في الخالق ودينه وشريعته، فهم مصابون بمرض الشك، ويستحبّونه ويطلبونه دائماً، ويريدون ذلك لغيرهم أيضاً، فتراهم يشكّكونهم في كلّ شيء، ويقولون للمؤمن الموقن بالله ورسوله:

مَن قال ذلك؟

لا أعتقد؟

كيف؟

متى؟

ويخلطون الحابل بالنابل والغثّ بالسمين، ويمزجون الحق بالباطل ويأخذون من هذا ضغثاً ومن هذا ضغثاً، ويضربون بعضه ببعض، حتّى يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

أسأل الله تعالى أن أُوفّق فيما كتبت لهداية القلوب الباحثة عن الحقيقة، إنّه سميع مجيب الدعاء.

المصادر

- **القرآن الكريم.**
- **ابن طاووس**، السيد رضي الدين: **إقبال الأعمال**، مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **الآمدي**، الشيخ عبد الواحد بن محمد التميمي: **غرر الحكم ودرر الكلم**، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- **البرقي**، الشيخ أحمد بن محمد: **المحاسن**، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـ.
- **الجعفي**، الصحابي الجليل المفضل بن عمر: **توحيد المفضل**، تحقيق وتعليق: كاظم المظفر، داوري، الطبعة الثالثة.
- **الشريف الرضي**، العلامة السيد محمد بن حسين: **نهج البلاغة**، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الخامسة، ٢٠١٠م.
- **الصدوق**، العلامة الشيخ محمد بن علي ابن بابويه : **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، نشر جهان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- **الطبرسي**، العلامة الشيخ الفضل بن الحسن: **إعلام الورى بأعلام الهدى**، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٠هـ.
- **الطوسي**، شيخ الطائفة محمد بن الحسن: **مصباح المتهجد وسلاح المتعبد**، مؤسّسة فقه الشيعة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- **الطوسي**، شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن بن علي: **الأمالي**، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- **الكتاب المقدّس**، دار المشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.
- **الكليني**، العلامة الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق: **الكافي**، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦م.
- **المجلسي**، العلامة الشيخ محمد باقر: **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة**

الأطهار، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

- **الميداني**، عبد الرحمن بن حسن: **صراع مع الملاحدة حتّى العظم**، دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
- **النوري**، المحقق العلامة الشيخ حسين بن محمد تقي: **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **خليل**، عماد الدين: **حول تشكيل العقل المسلم**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م.
- **دوكنز**، ريتشارد: **وهم الإله**، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٩م.
- **روزانتال**، فرانز: **مفهوم الحرية في الإسلام**، تحقيق رضوان السيد- معن زيادة، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧.
- **شريف**، د. عمرو: **رحلة عقل.. هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان**، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠١١م.
- **عبدالأعلى**، سلمان: **أنأنتوني فلو ومغالطات الملحدين**، مركز بيروت لدراسات الشرق الأوسط، ٢٠١٦م.
- **عوض**، الدكتور رمسيس: **ملحدون محدثون ومعاصرون**، الانتشار العربي، ١٩٩٨م.
- **فتال النيشابوري**، الشيخ العلامة محمد بن أحمد: **روضة الواعظين وبصيرة المتعظين**، منشورات الرضي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- **فلو**، انتوني: **هناك إله**، ترجمة جنات جمال، مركز براهين للابحاث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.

- **Gillispie**, C. C. (Ed.): **Dictionary of Scientific Biography**, Scribner's, 1970.
- **Gledhill**, Ruth: **Atheists are winning war with faith, says Dawkins**, The Times, 12 September 2013, www.thetimes.co.uk, accessed September 10, 2016.
- **Harris**, Sam: **The End of Faith**, w. w. norton & company, 2005.
- **Hauser**, Marc: **Moral Minds: The Nature of Right and Wrong**, Harper Perennial, 2007.
- **Hawking**, Stephen: **A Brief History of Time**, Bantam, 1988.
- **Hawking**, Stephen: **Black Holes and Baby Universes**, Bantam, 1993.
- **Heisenberg**, Werner: **Physics and Beyond**, Harper & Row, 1971.
- **Heisenberg**, Werner: **Across the Frontiers**, Harper & Row, 1974.
- **Hinde**, Robert: **Why Good is Good: The Sources of Morality**, Taylor & Francis, 2002.
- **Hitchens**, Christopher: **Thomas Jefferson: Author of America**, HarperCollins, 2005.
- **Howden**, Daniel: **The destruction of Mecca: Saudi hardliners are wiping out their own heritage**, Independent, 6 August 2005, www.independent.co.uk, accessed December 3, 2016.
- **Jacoby**, Susan: **Freethinkers: A History of American Secularism**, Henry Holt and Company, 2004.
- **Jammer**, Max: **Einstein and Religion**, Princeton University Press, 1999.
- **Kertzer**, David: **The Kidnapping of Edgardo Mortara**, Picador, 1997.
- **Monsma**, John: **The Evidence of God in an Expanding Universe; Forty American scientists declare their affirmative views on religion**, Putnam, 1958.
- **Mosley**, M., & **Spencer**, M.: **The Fast Diet**, Atria Books, 2015.
- **Planck**, Max: **Where Is Science Going**?, Norton,1977.
- **Politzer**, Georges: **Elementary Principles of Philosophy**, International Publishers, 1976.
- **Polkinghorne**, John: **Science and Christian Belief: Theological Reflections of a Bottom-up Thinker**, SPCK Publishing, 1994.

- **Rees**, Martin: **Just Six Numbers**, Weidenfeld & Nicolson, 1999.
- **Rees**, Martin: **Our Cosmic Habitat**, Weidenfeld & Nicolson, 2002.
- **Russell**, Bertrand: **Sceptical Essays**, George Allen & Unwin Ltd, 1928.
- **Russell**, Bertrand: **Is There a God? The Collected Papers of Bertrand Russell**, Vol. 11: Last Philosophical Testament, 1943–68, Routledge, 1997.
- **Russell**, Bertrand: **The Basic Writings of Bertrand Russell**, Taylor & Francis Group, 2009.
- **Sarton**, George: **Introduction to the History of Science**, Carnegie Institution of Washington, 1927.
- **Schrödinger**, Erwin: **My View of the World**, Cambridge University Press, 1964.
- **Schroeder**, Gerald: **Science of God**, Simon and Schuster, 1997.
- **Searle**, John: **The Rediscovery of the Mind**, The MIT Press,1992.
- **Shelton**, Herbert: **Fasting for Renewal of Life**, Natl Health Assoc, 1974.
- **Shelton**, Herbert: **Fasting can save your life**, American Natural Hygiene Society, 1978.
- **Shermer**, Michael: **The Science of Good and Evil**, Henry Holt and Company, 2004.
- **Swinburne**, Richard: **Design Defended**, Think, (Spring 2004), Cambridge University Press.
- **Swinburne**, Richard: **The Existence of God**, Clarendon, 2004.
- **Tait**, Katharine: **My Father, Bertrand Russell**, Harcourt Brace Jovanovich, 1975.
- **Vallely**, Paul: **Re-imagining security**, British Council, 2004.
- **Wallace**, S. W. (Ed.): **Does God Exist? The Craig-Flew Debate**, Ashgate Publishing, 2003.
- **Ward**, Keith: **God, Chance and Necessit**, Oneworld Publications, 1996.
- **Wolpert**, Lewis: **Six Impossible Things Before Breakfast**, faber and faber, 2010.
- **Woo**, Richard: **God Or Allah, Truth Or Bull?**, Strategic Book Group, 2011.

صدر للمؤلف

- التحديات الكونية ومتطلبات ترميم الحضارة.
- لئلا يكون صدام حضارات.
- تهافت النظرية الداروينية وسقوط النظريات التابعة.
- سلسلة تعلم كيف تنجح:
  - مفاتيح النجاح.
  - عوامل النجاح.
  - أساليب النجاح.
  - فنون النجاح.
  - واجه عوامل السقوط.
  - أنت أيضاً يمكنك أن تنجح.
  - كيف تتغلب على الفشل.
- سلسلة ثقافة الحياة:
  - كيف تستخدم طاقاتك؟
  - كيف تبدأ نجاحك من الحد الأدنى؟
  - كيف تتربع على القمة؟
  - كيف تسافر بأمان وتحقق أغراضك؟
- سلسلة فن التعامل مع الناس:
  - كيف تنجح في العلاقات العامة؟
  - كيف تنجح في علاقاتك الإجتماعية؟
  - كيف تُكوّن صداقات ناجحة؟
  - كيف تحافظ على أصدقائك؟
  - كيف تنجح في كسب الناس؟
  - فن الصداقة مع العائلة.
  - متطلبات الصداقة وحقوق الأصدقاء.
  - الصداقة والأصدقاء.
  - أخلاقيات التعامل مع الآخرين.
- سلسلة طرق مختصرة إلى المجد.

- كيف تتمتع بحياتك وتعيش سعيداً؟
- هذا الدين للقرن الواحد والعشرين.
- كيف تسعد حياتك الزوجية؟
- رسالة المسلم.. انقاذ العالم.

اصدارات قادمة للمؤلف

- حوارات مع الإمام علي عليه السلام: حوار معارفي في أصول الدين وفروعه.
- حوارات قصيرة في قضايا كبيرة.
- معجم حكم الإمام علي عليه السلام.
- هل من إله؟
- موسوعة الإمام علي عليه السلام:
  - يسألونك عن الإمام علي عليه السلام.
  - شجاعة الإمام علي عليه السلام .
  - طب الإمام علي عليه السلام .
  - شعر الإمام علي عليه السلام .
  - وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإمام علي عليه السلام .
  - حِكَم الإمام علي عليه السلام .
  - أدعية الإمام علي عليه السلام - الجزء الأول.
  - أدعية الإمام علي عليه السلام - الجزء الثاني.
  - بلاغة الإمام علي عليه السلام .
  - زيارات الإمام علي عليه السلام .

الفهرس

المجلس الثاني ٥٧٧


@hadialmodarresi
You Tube
youtube.com/halmodarresi